

مَجَلَّة كُلِّيَّةُ الْإَدَابَةِ



المجلد الثاني والعشرون - الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٤

مجلة كلية الآداب



المجلد الثاني والعشرون - الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٤

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية
العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمان الجزء الواحد من أى
مجلد ثلاثون قرشا مصريا .

فهرس القسم العربى

صفحة

الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسالتى قناة السويس وأبريد الجديدة للدكتور عبد العزيز محمد الشناوى	١
مداخل الروح (الأبواب الوهمية) وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة للدكتور عبد العزيز صالح	٦٥
غارة جيمسون على جمهورية جنوب افريقيا (٢٩ ديسمبر ١٨٩٥ - أول يناير ١٨٩٦) للدكتور زاهر رياض	١٢٧
دراسة لبعض التحف الاسلامية للدكتور عبد الرحمن فهمى محمد .	١٧١

الدبلوماسية الفرنسية ترابط بين مسألتى قناة السويس وإسبريد الجديدة

للكنور عبر العزير محمد الشاوي

غدت المسألة المصرية موضوعا شائكا في العلاقات الفرنسية البريطانية بعد أن تم الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ بأمد وجيز . سرعان ما رأت فرنسا أن هذا الاحتلال قد عصف إلى حد بعيد بما تدعيه لنفسها من مصالح وحقوق في مصر ، وأنه أخل بالتوازن الدولي في الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، فأصبح لبريطانيا فيه مراكز وقواعد استراتيجية ، إذ كانت قد احتلت جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ثم مصر سنة ١٨٨٢ وظفرت بسيطرة انفرادية على قناة السويس ، واعتبرتها وسيلة أساسية للمواصلات بين أجزاء امبراطوريتها ، وغدا الإبقاء على نفوذها في القناة مبدأ رئيسياً في سياستها .

ولذلك ساء فرنسا أنها أضاعت على نفسها فرصة ذهبية هي الاشتراك مع بريطانيا في التدخل الحربى في مصر في سنة ١٨٨٢^(١) . وكانت لا تزال عالقة في أذهان الرأى العام الفرنسى أحداث الماضى القريب وقتذاك حين نجحت بريطانيا في الضغط على فرنسا ، وهي في أوج قوتها ومجدها على عهد الإمبراطورية الثانية ، فخلتها على الجلاء عن لبنان بعد أحداث سنة ١٨٦٠ وتساءل الرأى العام في فرنسا عما إذا كانت

(١) لا يزال إلى الوقت الحاضر بعض كبار المؤرخين الفرنسيين يفصحون عن مشاعر الأسمى العميق لإحجام فرنسا عن الاشتراك مع بريطانيا في احتلال مصر سنة ١٨٨٢ ويذهبون إلى أن هذا الإحجام كان أكبر هزيمة سياسية منيت بها السياسة الفرنسية في الفترة الواقعة بين الحرب السبينية وبين الحرب العالمية الأولى . أنظر .

Hanotaux Gabriel : Histoire de la Nation Française, 15 vols. 24 éme édition. Paris. t. IX Histoire Diplomatique par René Pinon. p. 574.

الحكومة الفرنسية ستحذو هذا الحذو فتضغط على بريطانيا كي تجعلها على الجلاء عن مصر^(١).

ونستبين من دراسة الوثائق الرسمية التي نشرتها الحكومة الفرنسية في المجموعة الأولى من Documents Diplomatiques Français أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت تعتق فكرة سياسية محددة هي أن جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس يؤدي في نهاية الأمر إلى جلائها عن بقية أجزاء مصر . وبعبارة أخرى كانت ترى أن جلاء بريطانيا عن مصر يجب أن يبدأ من منطقة قناة السويس أولاً وينتهي في القاهرة والإسكندرية بعد ذلك ، لأنه إذا حيل بين بريطانيا وبين ماتشييه من إبقاء قواتها في منطقة القناة ومن الانفراد بالسيطرة على منطقة القناة يتلاشى السبب الرئيسي الذي يدعو بريطانيا إلى التمسك بمصر .

وكانت الوسيلة السليمة المثلى في نظر وزارة الخارجية الفرنسية لتحقيق هذا الغرض هي وضع اتفاقية دولية تنظم وتضمن حرية مرور السفن التجارية والحرية في وقت السلم و زمن الحرب على السواء ، في قناة السويس ، اتفاقية تقوم على أساس المساواة التابعة بين الدول فيما يتعلق بحرية استخدام القناة ، ومن شأن هذه الاتفاقية أن تقضي على انفراد بريطانيا بالسيطرة على منطقة القناة .

ولكن الذي حدث فعلا هو عكس ما كانت تصبو إليه فرنسا . فان جلاء بريطانيا عن مصر لم يبدأ من منطقة القناة ، ولكنه انتهى في منطقة القناة . فحين اضطر الإنجليز إلى الجلاء الجزئي عن مصر قرروا الجلاء عن مواقعهم في القاهرة وبدأوا بالجلاء عن قلعة القاهرة في ٤ من يوليو ١٩٤٦ ثم عن مطار حلوان ووادي النطرون . وكان ذلك على عهد وزارة اسماعيل صدقي ، ثم تنابح جلاؤهم الجزئي عن بقية المواقع في القاهرة والإسكندرية والدلتا . وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٧ على عهد وزارة محمود فهمي النقراشي . وانتهى الأمر بأن تركزت قوات الاحتلال في منطقة القناة . واستمر الوضع على ذلك حتى تم جلاء بريطانيا عن منطقة القناة في يونيو ١٩٥٦ على عهد حكومة الثورة .

(١) انظر حديثا دار في شهر ديسمبر ١٨٨٤ بين هاتزفيلد Hatzfeldt وزير الخارجية الألمانية

وبين دي كورسيل de Courcel السفير الفرنسي في برلين عن المسألة المصرية .

Documents Diplomatiques Français. 1ère Série, t. V, doc. no. 500 de Courcel à Jules Ferry, Ministre des Aff. Etr., en date du 27 décembre, 1884.

ولو كانت فرنسا قد استطاعت تنفيذ فكرتها وهي أن الجلاء عن مصر يجب أن يبدأ أساساً من منطقة القناة ، ونجحت في حل بريطانيا على الجلاء عن هذه المنطقة الحساسة لكان من المحتمل أن يقصر أمد الاحتلال البريطاني لمصر . ولكن الدبلوماسية الفرنسية لم تثبت على سياسة واحدة إزاء المسألة المصرية . فهي تارة تعارض الاحتلال البريطاني أشد المعارضة ، وتارة تهدن السياسة البريطانية ، وينتهي بها الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع في مقابل عروض سخية تظهر بها في جهات أخرى من العالم .

ويرجع هذا التقلب في السياسة الفرنسية إلى عدم استقرار الحكم في فرنسا . فالوزارات في ظل الجمهورية الثالثة كان يكثر سقوطها وقيامها بسبب تعدد الأحزاب السياسية وضعف النظام الحزبي ، ولأن سقوط الوزارة لم يكن يستتبع حتماً إجراء انتخابات عامة جديدة يمتشى فيها النواب ضياع مقاعدهم في مجلس النواب . وكان تعرض الوزارات لخطر السقوط في أية لحظة يكرهها على أن تخصص للوقوف الاستراتيجي في البرلمان شطراً كبيراً من الجهد الذي كان في مقدورها أن تكرسه لمتابعة سياسة خارجية معينة . كما كان لسياسة التكتلات الدولية أثرها في التقارب الذي حدث بين فرنسا وبريطانيا في مستهل القرن العشرين .

لجأت بريطانيا إلى سياسة الحدّاع والتضليل شعوراً منها بعدم شرعية الاحتلال وضعف مركزها الرسمي في مصر ، إذ دخلت البلاد بغيا وعدوا . وأخذت برأي المستشار الألماني بسمارك الذي أبدى أول الأمر في احتلالها لمصر ، فاكثفت بريطانيا بالسيطرة الفعلية المحكمة على الحكومة المصرية . وفي نفس الوقت حرصت على عدم المساس بمركز مصر القانوني ، فلم تضم إليها مصر ضمّاً صريحاً بحيث تغدو جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، ولم تعلن الحماية البريطانية السافرة عليها^(١) ، بل أبقت السيادة العثمانية على مصر حتى سنة ١٩١٤ وظلت مصر من ناحية القانون الدولي العام ولاية عثمانية وظل سلطان تركيا صاحب السيادة عليها . وإن كانت سيادة

(١) يذكر لورد ملر أنه لم يكن في مقدور الحكومة البريطانية في سنة ١٨٨٢ أن تعلن الحماية السافرة على مصر ولا أن تطلب إلى الدول الأخرى الاعتراف بمثل هذه الحماية فلجأت إلى بسط حماية مؤقتة a veiled Protectorate إلى أجل غير مسمى ومارست في ظلال هذا النظام سلطات واسعة لا حد لها.

أنظر : Milner : England in Egypt. 1920. p. 28.

اسمية تمثلت في دفع الجزية السنوية ، وفي بعض مظاهر شكلية ، مثل المظاہر للسلطان في خطبة الجمعة وسك العملة باسمه وتعيين قاضي القضاة والإبقاء على العلم التركي علماً رسمياً لمصر . حقيقة إن الروابط السياسية بين مصر وتركيا كانت قد تحددت على وضع معين من الاستقلال الذاتي في معاهدة ١٨٤٠ وهي معاهدة جماعية *traité collectif* اشتركت فيها الدول الأوربية الكبرى مع الدولة العثمانية . ولم يكن في استطاعة بريطانيا في سنة ١٨٨٢ إدخال تعديل على نصوصها دون موافقة الدول الأطراف فيها . ولكن الاحتلال البريطاني قد زاد هذه الروابط السياسية بين مصر والدولة العثمانية وهنا على وهن . أما قناة السويس فلم يطرأ على مركزها القانوني تغيير ما . وظلت ممراً مائياً يجري في أرض مصرية وجزءاً لا يتجزأ من الأراضي المصرية يسرى عليها ما يسرى على بقية أراضي مصر من حيث السيادة العثمانية . وأمنت بريطانيا في سياسة التفضيل لتخفف من ثائرة الباب العالي والحكومات الأوربية الحائرة عليها . فأخذت تصدر من وقت إلى آخر تصريحات مكررة بأن الاحتلال البريطاني لمصر إنما هو احتلال مؤقت مرهون بعودة الأمن والنظام إلى ربوع البلاد وتدعيم سلطة الخديو . ولكنها كانت تعمل على كسب الوقت اعتقاداً منها بأن الزمن حليف قوى لها ، فكلما مرت الأيام والسنوات ازداد مركزها رسوخاً في مصر . وكان من أولى محاولات بريطانيا في هذا الصدد المنشور الذي أرسله لورد جرانفيل Lord Granville وزير الخارجية إلى الدول الأوربية الكبرى في ٣ من يناير ١٨٨٣^(١) — ولم يكن قد مضى أربعة أشهر على دخول الجيش البريطاني مدينة القاهرة — قرر فيه أن القوات البريطانية لا تزال مرابطة في مصر لصيانة النظام العام بها ، وأنها ستجلب عنها عند ما تسمح بذلك حالة البلاد وتستطيع الحكومة البريطانية بوسائلها تثبيت سلطة الخديو . وإلى أن يحين ذلك الوقت المرتقب فإن الحكومة البريطانية ستقدم النصاب^(٢) إلى الخديو لتحقيق هذا الهدف .

Hurewitz J. C. Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary (١)

Record, 2 vols. t. 1 (1535 — 1914). p.p. 197 — 199.

(٢) « النصاب البريطاني » تعبير دبلوماسي مهذب وإن كان لا يخلو من سخرية لاذعة . استخدمه

لورد جرانفيل وهو يرمي قواعد السياسة البريطانية في مصر بعد الاحتلال . وتقدم بهذا التعبير أوامر إجبارية يلزم بتنفيذها الوزراء المصريون ومن إليهم من كبار الموظفين . فإذا رفض أحدهم أو امتنع عن تنفيذ نصيحة بريطانية كان عليه أن يستقيل فوراً .

وقد قعم المنشور مشكلات مصر إلى قسمين : مشكلات داخلية ، ومشكلات تتصل بالدول الأخرى ولا مناص من موافقة الدول الأوربية الكبرى عليها . وكان في مقدمة هذه المشكلات مسألة قناة السويس . وقد تعرض لها لورد جرانفل في منشوره في خبث وخداع وتظاهر يحجب الحقيقة . قال إن القوات البريطانية قد احتلت قناة السويس واتخذت القناة قاعدة للعمليات الحربية لحماية الملاحة في القناة والحيلولة دون الإضرار بها . ولكنها فعلت ذلك باسم الخديو توفيق ، ونيابة عنه ، وتأيداً لسلطته . ثم مضى جرانفل في منشوره فقال إن الحكومة البريطانية حريصة على حرية الملاحة في قناة السويس وأنها تقترح عقد اتفاقية بين الدول الكبرى تحقق هذه الحرية لجميع السفن في كل الأوقات . ووضع ثمانية أسس تقوم عليها الاتفاقية المقترحة .

كان هذا المنشور محاولة دبلوماسية من بريطانيا لاسترضاء الدول الأوربية الكبرى ، وإيهامها أن الاحتلال البريطاني لمصر — فضلاً عن أنه احتلال مؤقت — لا يعني أن تسيطر بريطانيا وحدها على قناة السويس أو تستغلها لصالحها الخاص . وهدف لورد جرانفل من هذه المحاولة الدبلوماسية واضح ، فإذا اعتقدت الدول الأوربية أن تأمين حرية المذحجة في قناة السويس لجميع السفن في كل الأوقات هو غاية تسعى إليها بريطانيا مشتركة مع مجموعة الدول الأوربية فإن هذه الدول لن تسأل بريطانيا إلخافاً للجلاء عن مصر وتحديد موعد لهذا الجلاء . والحقيقة التي لا مراء فيها أن بريطانيا كانت تعلن غير ما تضرمر وتظهر غير ما تبطن . فالاحتلال المؤقت استتال أكثر من ثلاثة وسبعين عاماً ، واتفاقية قناة السويس ما طلت وسوف في عقدها زهاء ست سنوات لأنها أرادت أن تخضع الاتفاقية المقترحة لخدمة مصالحها الاستعمارية في إفريقيا وآسيا وإستراشيا ، ولما وقعت عليها في ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ — تحت ضغط الدبلوماسية الفرنسية كما سنرى — قرنت توقيعها بحفظ على الاتفاقية أوقف نفاذها حتى اضطرتها الظروف الدولية إلى التنازل عن هذا التحفظ في سنة ١٩٠٤ ، أي أنها تركت مسألة قناة السويس معلقة أكثر من عشرين عاماً وهي لا تروم الموافقة على تنظيم حرية الملاحة في القناة تنظيمياً نهائياً .

وبفتور قابلت الحكومات الأوربية منشور لورد جرافل ، لأن الحكومة البريطانية لم تتخذ من جانبها خطوات عملية إيجابية لعقد اتفاقية دولية تنظم حرية المرور في قناة السويس . وارتاحت الحكومة البريطانية أو استنامت لهذا الصمت الذى كان يقطعه من حين إلى حين سلطان الدولة العثمانية مطالبا بريطانيا بالجلاء عن مصر . أما فرنسا فقد رأت أن بريطانيا لا تملكاً فحسب في تنفيذ وعودها المكرورة بالجلاء ، بل تعمل جاهدة على إقصاء النفوذ الفرنسى من ميادين السياسة والاقتصاد والإدارة في مصر ، وبخاصة عندما صدر مرسوم خديوى مؤرخ في ١٨ من يناير ١٨٨٣ بالغاء نظام المراقبة الثنائية Condominium ثم عندما صدر مرسوم خديوى لاحق مؤرخ في ٤ من فبراير ١٨٨٣ بإنشاء منصب مستشار مالى للحكومة المصرية وإسناده إلى إنجليزى . وأدركت فرنسا أن هذا التغيير الجذرى الذى طرأ على نظام الحكومة في مصر إنما تم استجابة للنصائح البريطانية ، وتلبد الجو السياسى بين باريس ولندن ، وتبادلتا مذكرات سياسية حلت فيها الحكومة الفرنسية حملة قوية على بريطانيا ونددت بتصرفها وأتانيتهما ، ووصفت تدخلها الحربى في مصر بأنه ذريعة للانفراد بالنفوذ والسيطرة والتخلص من الاتفاقات الدولية . ودار صراع بالغ العنف بين الدبلوماسية الفرنسية والدبلوماسية البريطانية ، وزال التفاهم الفرنسى البريطانى الذى نشأ سنة ١٨٥٢ وظل قائماً حتى مطلع عام ١٨٨٣ .

عملت فرنسا على إثارة المتاعب أمام بريطانيا في أصقاع شتى من العالم : في الكونغو وفي النيجر وفي مدغشقر وفي جزر المحيط الهادى ، وساندت الباب العالى في احتجاجاته العديدة على بريطانيا ، وفي مطالبته إياها بالجلاء عن مصر . وأيدت ألمانيا في سياستها الاستعمارية نكايه في بريطانيا ، وصورتها لألمانيا في صورة الدولة التى لا تقف أطباعها الاستعمارية عند حد ، وشجعت الحكومة الروسية في سياسة التوسع الاقليمى والاستعمارى في قلب آسيا وفي الشرق الأقصى وفي البلقان . أما في مصر فقد عملت فرنسا على إثارة العراقيل أمام الاحتلال البريطانى ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ولاحت الفرصة أمام فرنسا حين وجهت الحكومة البريطانية في ١٩ من أبريل ١٨٨٤ الدعوة إلى الدول الأوربية الكبرى لعقد مؤتمر دولى لعلاج الارتباكات المالية العتيقة التى كانت تواجهها وقتذاك الحكومة المصرية في ظل الاحتلال البريطانى .

وقد ردت الحكومة الفرنسية على هذه الدعوة بمذكرة مؤرخة في ٢٩ من أبريل ١٨٨٤ قالت فيها إنها تقبل من حيث المبدأ اقتراح الحكومة البريطانية عقد المؤتمر ، ولكنها طلبت أولا وقبل كل شيء أن تتبادل الحكومتان البريطانية والفرنسية وجهات النظر بخصوص مسائل معينة يكون في حكم الاستحالة إنغافها^(١) .

واضح أن الحكومة الفرنسية أرادت أن تنتهز هذه الفرصة التي أتت لها فشدت من ضغطها السياسي على إنجلترا لإثارة المسألة المصرية من نواحيها المختلفة حتى تحملها على الجلاء عن مصر . وفعلنازلت الحكومة البريطانية على رغبة الحكومة الفرنسية، ودارت محادثات سياسية في لندن بين الحكومتين خلال شهري مايو ويونيو ١٨٨٤ تولاها عن الجانب البريطاني لورد جرانفل وزير الخارجية وعن الجانب الفرنسي وادنجتون السفير الفرنسي . وتناولت هذه المحادثات المسألة المصرية من زواياها المختلفة : جلاء قوات الاحتلال البريطاني عن مصر ، تحديد موعد لهذا الجلاء ، إعلان حيطة مصر ، تسوية مسألة قناة السويس ، إصلاح المالية المصرية . وقد تم الاتفاق بين الحكومتين على النحو الآتي :

(أولا) توافق الحكومة البريطانية على جلاء قوات الاحتلال عن مصر في مستهل عام ١٨٨٨ بشرط أن ترى الدول وقتئذ — أى في مطلع سنة ١٨٨٨ — أن جلاء بريطانيا لا يعرض الأمن والنظام في مصر للخطر . وتسجل الحكومة الفرنسية على نفسها أنها لا تعزم احتلال مصر بعد جلاء القوات البريطانية عنها ، وقررت أنه أصبح بين الحكومتين البريطانية والفرنسية تعهد ملزم للطرفين *un engagement synallagmatique* يتعهد بمقتضاه بريطانيا من جانبها بالجلاء عن مصر في موعد محدد لا يتجاوز إطالة أمده بدون استشارة الدول من جديد ، وتتعهد فرنسا من ناحيتها ألا تقوم بأية حال من الأحوال بتدخل مسلح في وادي النيل قبل أن يتم اتفاق سابق مع بريطانيا في هذا الصدد .

(١) الكتاب الأزرق رقم ٢٣ لسنة ١٨٨٤ (مصر) . وثيقة رقم ٤ عبارة عن مذكرة من فرى Jules Ferry رئيس الوزارة الفرنسية ووزير الخارجية إلى الكونت دي أوبيني d'Aubigny مستشار السفارة الفرنسية في لندن ومؤرخة في ٢٩ من أبريل ١٨٨٤ وقد أبلغها الأخير في اليوم التالي إلى لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية

(ثانياً) تقدم الحكومة البريطانية — قبل جلاء قوات الاحتلال أو عند رحيلها — مشروعاً إلى الدول الكبرى بما فيها الإمبراطورية العثمانية بقرار حيدة مصر حيدة دائمة على غرار الحيدة المقررة لبلجيكا .

(ثالثاً) تقدم الحكومة البريطانية مشروع اتفاقية دولية تنظم حرية مرور السفن في قناة السويس على ضوء المبادئ الواردة في المنشور البريطاني المؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ .

(رابعاً) تسجل الحكومة الفرنسية على نفسها أنها لا تبغى إعادة نظام المراقبة الثنائية على الحكومة المصرية وهو المعروف باسم الكونديمينيوم Condominium على الرغم من أنها تعتقد اعتقاداً راسخاً أن هذا النظام قد عاد بنتائج طيبة ، ولكن الحكومة الفرنسية تدرك تماماً الأسباب التي تحملها على استبعاد أى تفكير في إعادة نظام عصفت به الأحداث السياسية التي جرت مؤخراً في مصر . ولذلك فهي تعتقد أن نظام المراقبة الثنائية قد طوى إلى غير بعث .

(خامساً) توافق الحكومة الفرنسية من حيث المبدأ على تعديل سلطات صندوق الدين العمومي في مصر وعلى تعديل بعض مواد قانون التصفية كوسيلة لعلاج الأزمة المالية في مصر .

(سادساً) تعلن الحكومة البريطانية أن تنفيذ الجلاء وتقرير حيدة مصر وعقد اتفاقية القناة كل ذلك متوقف ومعلق على تسوية المسألة المالية المصرية تسوية مرضية تتمشى مع المقترحات التي ستقدم بها الحكومة البريطانية إلى مؤتمر لندن الذي دعت إليه .

وقد تبادلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ثلاث مذكرات في ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من يونيو ١٨٨٤ سجلتا فيها هذا الاتفاق^(١) وأبلغت وزارة الخارجية البريطانية نصوص هذه المذكرات الثلاث إلى كل من ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا وتركيا^(٢) .

(١) الكتاب الأزرق رقم ٢٣ لسنة ١٨٨٤ وثائق رقم ١١ ، ١٢ ، ١٦

(٢) المصدر السابق وثيقتان رقم ١٣ ، ١٤

ويعتبر هذا الاتفاق أول اتفاق سياسى مؤقت Modus Vivendi يعقد بعد الاحتلال بين بريطانيا وفرنسا بشأن المسألة المصرية^(١).

وعقب هذا الاتفاق عقد مؤتمر لندن في ٢٨ من يونيو ١٨٨٤ وفى جلساته عاد الخلاف يطل برأسه أعنف ما يكون بين فرنسا وبريطانيا ، وتعدر على مندوبى الدول الأعضاء التقريب بينهما ، ومن ثم فشل المؤتمر وزادت الهوة اتساعاً بين فرنسا وبريطانيا ، وسقط الاتفاق المؤقت سقوطاً تلقائياً لأنه كان معلقاً على شرط ولم يتحقق هذا الشرط . وما لبثت أن تزعمت فرنسا الدول الأعضاء فى صندوق الدين العمومى — ما عدا بريطانيا — فى قضية أقامها مندوبو هذه الدول على الحكومة المصرية أمام المحكمة المختلطة بالقاهرة يطعنون بالبطلان فى قرار ١٨ من سبتمبر ١٨٨٤ الذى أصدرته وزارة نوبار باشا الثانية تنفيذاً لنصيحة بريطانية أبداها لورد نورثبروك Northbrook^(٢) . ولم تقنع فرنسا بذلك بل أوعزت إلى ألمانيا وروسيا بأن تطلباً تعيين مندوب لكل منهما فى صندوق الدين العمومى فى مصر أسوة بفرنسا وبريطانيا وإيطاليا والنمسا والمجر . ولما رفض نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية هذا الطلب مستنداً إلى أنه يضيف أعباء مالية على كاهل ميزانية مصر ، اعتقدت ألمانيا وروسيا أن هذا الرفض كان بإيعاز من بريطانيا ، وأن نوبار باشا ما كان ليجرؤ على رفض

(١) لم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يندرج تحت النوع الذى يعرف فى القانون الدولى العام باسم الاتفاقات الدولية فى الشكل المبسط Traité en forme simplifiée ويقصد بها الاتفاقات الدولية التى تنعقد بين دولتين فى صورة تبادل مذكرات تسجيل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستغناء عن تدخل رئيس الدولة فى إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط . وبلغت اليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

(٢) تدهور المركز المالى للحكومة المصرية فى النصف الثانى من سنة ١٨٨٤ تدهوراً شديداً إزاءه الحكومة أن تمجى عن دفع مرتبات موظفيها أو أداء الجزية إلى تركيا . وقد عقد اجتماع فى القاهرة شهده عن الجانب المصرى نوبار باشا ومصطفى فهمى باشا وزير المالية ، وعن الجانب البريطانى لورد نورثبروك المتنوب السامى للملكة فيكتوريا وسير ايفلن بارنج قنصل بريطانيا العام . وقرروا علاج الموقف علاجاً سريعاً باستيلاء الحكومة المصرية على الإيرادات المخصصة لخدمة الدين العام ، ومن ثم أصدرت الحكومة أوامرها إلى المديرىات والمصالح المخصص ايرادها للدين بالتوقف عن إرسال إيراداتها إلى صندوق الدين العمومى وإرسال حصيلة هذه الإيرادات إلى خزنة وزارة المالية . وكانت هذه المديرىات والمصالح : القليوبية والمنوفية والبحيرة وأسيوط ، والجماهاك والسكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية .

هذا الطلب، ومن ثم اُحتجت ألمانيا وروسيا لدى بريطانيا على عدم تمثيلهما في صندوق الدين، وأبلغتاها أن هذا الرفض يؤدي إلى تأخير تسوية الأزمة المالية المصرية^(١). ثم مضت فرنسا تأكيد لبريطانيا فخرست أجاناب الإسكندرية على تنظيم مظاهرات تجوب شوارع المدينة احتجاجاً على تأخر الحكومة المصرية في أداء التعويضات المحكوم بها لهم عن الأضرار التي نزلت بهم إبان أحداث الثورة العرابية^(٢). وأرسل سير إيفلن بارنيج تقريراً مؤرخاً في ٢٩ من ديسمبر ١٨٨٤ إلى لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية قال فيه إن الجو السياسي في مصر مفعم بالدسائس على اختلاف أنواعها وصورها، وإن الموقف يندب بوقوع كوارث، وأهاب به أن يسرع في تسوية المسألة المالية^(٣).

وفي وسط هذه المتاعب وذلك الاضطراب رأت الحكومة البريطانية أن تمد يدها مرة أخرى إلى الحكومات الأوربية لتشاركها معها في علاج الأزمة المالية، فوضعت مشروعاً جديداً يستهدف تدعيم المالية المصرية وإرساءها على قواعد جديدة وتدير موارد جديدة للميزانية يشترك في تمويلها المصريون والأجانب، كما اقترحت الحكومة البريطانية قرصاً للحكومة المصرية بمبلغ خمسة ملايين من الجنيهات بفائدة ٣.٥٪ بضمانة الحكومة البريطانية. ولكن تباطأت الحكومة الفرنسية في دراسة المشروع البريطاني حتى تزداد الأزمة المالية في مصر تفاقمًا، ويزداد مركز الحكومة البريطانية حرجاً على حرج. ثم قدمت مشروعاً مضاداً طالبت فيه أن يكون القرض بضمانة جميع الدول الأوربية الكبرى، لا بضمانة الحكومة البريطانية وحدها، وأن يكون مقداره تسعة ملايين من الجنيهات، كما قبلت بعض التعديلات التي أرادت الحكومة البريطانية إدخالها على قانون التصفية ورفضت البعض الآخر، وطلبت تكوين لجنة دولية لفحص المالية المصرية.

(١) انظر بخصوص هذا الموضوع الكتاب الأزرق رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ الوثائق التي تعمل الأرقام الآتية: ٨، ١٠، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٥٢، ٦٤، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٣٣، ١٣٤

والكتاب الأزرق رقم ٥ لسنة ١٨٨٥ ووثائق رقم ٧، ٩، ١٣، ٢٢، ٢٥، ٣٠
(٢) انظر بخصوص هذه النقطة بحثاً للمؤلف نشر في المجلد التاسع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٢ بعنوان حادث جريدة البوسفور ايجيبيان.

(٣) الكتاب الأزرق رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٧٤

ولكن الحكومة الفرنسية - تمسكا بخطتها - أقحمت مع المسألة المالية المصرية مسألة قناة السويس ، فاشتطت أن يشرع فوراً وفي نفس الوقت في تسوية هذه المسألة على أساس وضع نظام نهائي يضمن حرية مرور السفن التجارية والحرية في القناة في أوقات السلم والحرب لجميع الدول . وجاء في نفس المذكرة أن الحكومة الفرنسية ، بتقديم مقترحاتها لتسوية المالية المصرية ، قد أثمت الدليل على روح المسالمة التي تسودها وعلى رغبتها الصادقة في تذليل الصعاب التي تؤخر إنجاز مهمة إعادة تنظيم مصر ، وهي المهمة التي من أجلها كرست الحكومة البريطانية جهودها . واستمرت المذكرة الفرنسية فقالت إن إعادة النظام المالي والإداري في مصر ليست المسألة الوحيدة التي تهتم الدول بتسويتها ، فهناك مسائل أخرى ذات صبغة مستعجلة مماثلة ، ولها تأثير بالغ الأهمية على مصالح الدول . وقناة السويس تأتي في مقدمة هذه المسائل ، وقد أطلقت عليها المشكلة الأوربية الكبرى Le Grand Problème Européen ، وإن هدف الدول من تسوية مسألة القناة هو وضع نظام نهائي يضمن حرية المرور في قناة السويس في كل الأوقات لجميع الدول . وطالبت بالشروع فوراً في حل موضوع القناة عن طريق عقد مؤتمر أو أية وسيلة أخرى دون انتظار نتيجة التحقيق المقترح في الموقف المالي للحكومة المصرية^(١) .

واستعرضت المذكرة الفرنسية طرفاً من مبررات الإسراع في تسوية مسألة القناة ، فقالت إن التسوية المنشودة تكون بمثابة تعويض عادل للتضحيات المالية التي سوف تفرضاها الدول على رعاياها في سبيل تدعيم المالية العامة لمصر ، كما أنها تكون ضماناً أكيداً للسلام ، وتضمن على مستقبل السياسة الدولية طابع الاستقرار . وخلصت المذكرة من ذلك إلى قولها إنها تعتقد أن الحكومة البريطانية لن ترفض الموافقة على اقتراح سبق أن قامت هي بوضع أسسه بكل جلاء وإخلاص في منشور لورد جرانفل المؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ ومذكرته المؤرخة في ١٦ من يونيو ١٨٨٤^(٢) .

(١) تجد النص الكامل للمذكرة الفرنسية بما تحويه من اقتراحات لتسوية المسألة المالية المصرية واقتراح تسوية مسألة القناة في الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٤ لسنة ١٨٨٥
ثم نشرت الحكومة البريطانية الجزء الخاص بقناة السويس والوارد في المذكرة الفرنسية - في الكتاب =

في هذا الوقت بالذات تدخل بسمارك المستشار الألماني تدخلًا فعالًا لدى الحكومة البريطانية لتأييد فرنسا في موقفها من المسألة المصرية بشقيها : الناحية المالية وقناة السويس. كان التقارب الألماني الفرنسي في هذه الفترة قويا ، وكانت العلاقات بين ألمانيا وبريطانيا سيئة للغاية بسبب رفض بريطانيا تمثيل ألمانيا وروسيا في لجنة صندوق الدين العمومي في مصر ، وبسبب اعتراضها على بسط الحماية الألمانية على الجزء الشمالي من غينيا الجديدة ، ولأن العلاقة كانت متوترة بين بسمارك وبين لورد جرانفل ، إذ كان الأخير قد صرح بأن المستشار الألماني هو الذي نصح بريطانيا بالاستيلاء على مصر ، وأصدر بسمارك تكذيبا لهذا النبأ في البرلمان الألماني ، وأفصح عن الحديث السري الذي دار في سبتمبر ١٨٨٢ بينه وبين لورد Ampthill السفير البريطاني في برلين في ذلك الوقت ^(١) كما عدد بسمارك بعض تصرفات دبلوماسية انطوت على أخطاء وقعت فيها وزارة الأحرار في بريطانيا . ولذلك لم تكن العلاقات ودية بين بسمارك وبين وزارة جلاستون الثانية في ذلك الوقت . وسنرى تباعاً في هذا البحث بعض مظاهر سياسة العنف التي اتبعتها بسمارك إزاء لندن .

أراد بسمارك أن يكيد كيداً لبريطانيا ، فأرسل مذكرة ضافية مؤرخة في ١٤ من يناير ١٨٨٥ إلى الحكومة البريطانية . وهي تعتبر من أهم المذكرات الدبلوماسية التي صدرت عن برلين إلى لندن في هذه الفترة ، وتتميز بلمحجتها الحازمة ، وكان مما جاء فيها قول بسمارك إن حفظ النظام في مصر ، وحماية مصالح الشعوب الأوربية المختلفة فيها ، واستخدام قناة السويس ، هذه المسائل كلها لا تتم بريطانيا دون سواها من الدول ، بل على العكس هي مسائل تمس جميع شعوب أوروبا تقريباً إلى درجة تمنعها من أن تنظر بدون اكتراث إلى أية تغييرات جذرية تطرأ

= الأزرق الذي أصدرته عن محاضر جلسات لجنة باريس الدولية والذي قدمته في أغسطس ١٨٨٥ إلى مجلس العموم والوردات . انظر .

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٢

(١) بخصوص هذه النقطة بالذات . انظر الوثيقة رقم ٦١٤ والهامش في ص ٦٣٦ والهامش في ص

٦٣٧ ثم الوثيقتين رقم ٦١٥ ، ٦١٦ والوثيقة رقم ٦١٩ والهامش الموجود في صفحتي ٦٤٣ ، ٦٤٤

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V

على الموقف في مصر . ومضى بسمارك يقول في مذكرته إن غالبية الأمم الأوربية لا تهتم بمسألة الديون فحسب ، بل تهتم اهتماماً مباشراً بالنهوض بموارد مصر . وتنتظر أيضاً إلى قناة السويس على أنها شريان هام يربطها بالشرق الأقصى والإقنيانوسية . وخلص بسمارك من ذلك إلى القول بأنه ليس من السهل على الدول الأوربية أن تتخلى في المستقبل عن الإسهام المباشر من جانبها في مراقبة الأحوال في مصر . وقال إن بريطانيا وفرنسا كانتا من قبل تقومان معا بحماية المصالح الأوربية في مصر في ظل نظام المراقبة الثنائية المعروف باسم الكوندمنيوم Condominium ، فلما وقع الاحتلال البريطاني قامت بريطانيا بمفردها بهذه المهمة ، ولكن ليس معنى ذلك أن يستمر هذا الوضع قائماً حقبة طويلة . وقال إن هذه الحقيقة تؤكد كدها تصريحات المسؤولين في الوزارة البريطانية بأن الاحتلال البريطاني لمصر إنما هو احتلال مؤقت . ونعى على الحكومة البريطانية معارضتها لتمثيل ألمانيا وروسيا في لجنة صندوق الدين العمومي في مصر : وقال إن هذه المعارضة قد أثارَت شكوك ألمانيا حول أهداف بريطانيا في مصر . واختتم المستشار الألماني مذكرته بثلاثة مطالب هي :

(أولاً) إجراء تحقيق عن المركز المالي للحكومة المصرية ومواردها على أن يجري هذا التحقيق في مصر ويأشره خبراء يمثلون جميع الدول .

(ثانياً) اتفاق الدول على ضمان مشترك للقرض المطلوب في ذلك الوقت للحكومة المصرية بدلا من أن تنفرد بريطانيا بضمان هذا القرض .

(ثالثاً) عقد معاهدة جماعية بين الدول يشترك فيها سلطان الدولة العثمانية بصفته صاحب السيادة على مصر ، تقرر حرية الملاحة في قناة السويس في وقت السلم ووقت الحرب ^(١) .

Doc. Dipl. Fr. 1ère série, t. V. doc. no. 532 Copie d'une dépêche (١)
du Prince de Bismarck, Chancelier de l'Empire Allemand au Comte Münster, Ambassadeur
d'Allemagne à Londres, en date du 14 janvier, 1885.

هذا وقد عهد المستشار الألماني إلى الأمير هوهنلو هohenlohe سفير ألمانيا في باريس بتقديم صورة
من هذه المذكرة إلى وزير الخارجية الفرنسية في نفس اليوم . انظر الوثيقة ٥٢٦ في المرجع السابق

ويلاحظ أن هذه المطالب الثلاثة تتفق مع الخطوط الرئيسية التي وردت في المقترحات الفرنسية . فكانت هذه المذكرة الألمانية تأييداً سافراً لوجهات النظر الفرنسية . كما كانت تأكيداً لصيغ المسألة المصرية من كافة جوانبها بالصيغة الدولية .

وكان لهذه المذكرة أثرها السريع على أعضاء الوزارة البريطانية ، ففي مساء ٢١ من يناير ١٨٨٥ اجتمع لورد جرانفل وزير الخارجية البريطانية وتشيلدرز Childers وزير المالية مع وادنجتون السفير الفرنسي في لندن وأبلغاه موافقة الحكومة البريطانية على وجهات النظر الفرنسية : رضيت أن يكون القرض ومقداره تسعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، بضمان الدول الأوربية الكبرى بدلاً من أن يكون بضمان بريطانيا وحدها ، كما قبلت الإبقاء على نصيب فرنسا في إدارة أملاك الدائرة السنية وأراضي الدومين والسكك الحديدية ، كما رضيت بمسائل مالية أخرى ليس هنا مجال بحثها ، ولكنها طلبت تأجيل إجراء تحقيق الموقف المالي للحكومة المصرية لمدة سنتين على أساس أن المالية المصرية سوف تنهض من كبوتها خلال هذه الفترة . وفيما يختص بقناة السويس فقالت إنها لا تزال عند رأيها الخاص بضمان حرية الملاحة في القناة على أساس المبادئ التي وردت في المنشور البريطاني المؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ ، وأضافت إلى ذلك أنها ترى وضع معاهدة تتضمن التنظيم المنشود لاستخدام القناة^(١) . كما وافقت في نفس الوقت على تعيين مندوب لألمانيا وآخر لروسيا في لجنة صندوق الدين العمومي في مصر^(٢) .

وقد علق وادنجتون السفير الفرنسي في لندن على استجابة الحكومة البريطانية للمطالب الفرنسية فقال إن أحداً في لندن لم يكن يوقع أن توافق بريطانيا على

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٤ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ١١١ من جرانفل إلى ليوزر السفير البريطاني في باريس ومؤرخة في ٢١ من يناير ١٨٨٥ ووثيقة رقم ١١٣ عبارة عن برقية أرسلها جرانفل إلى ممثل بريطانيا الدبلوماسيين في العواصم الأوربية الكبرى وفي مصر ، مؤرخة في ٢٢ من يناير ١٨٨٥ ووثيقة رقم ١١٦ عبارة عن برقية أرسلها جرانفل إلى ممثل بريطانيا الدبلوماسيين في العواصم الأوربية الكبرى وفي مصر مؤرخة في ٢٣ من يناير ١٨٨٥ وانظر أيضاً الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ٣

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 538. Télégramme. Jules Ferry aux Ambassadeurs de France à Saint-Petersbourg et Vienne. en date du 23 janvier, 1885.

الضمان الجماعى ، وإن كثيرين من زملائه السفراء كانوا يصرحون له بأنهم لا يعتقدون أن الحكومة البريطانية سوف تقرر هذا الطلب . وقال إن هذا الضمان الأوروبى الجماعى له مغزى سياسى بعيد . إنه يدل على إشراف أوروبا إشرافاً فعلياً على المسألة المصرية ، إنه بداية تدويل الحكومة فى مصر ، وبعد أن تنتهى مفاوضات قناة السويس ويتم إبرام اتفاقية القناة فسوف تأتى فى أعقابها مفاوضات جديدة مصر . وخرج السفير الفرنسى المتفائل ، بل المفرق فى تفاؤله ، من هذا التسلسل إلى أن نهاية الاحتلال البريطانى لمصر آتية لا ريب فيها^(١) .

ولا شك أن موافقة الحكومة البريطانية على الاقتراحات الفرنسية كان انتصاراً فرنسياً ألمانياً . فان فرنسا هى التى وضعت الاقتراحات ، وألمانيا هى التى تولت الضغط السياسى على لندن لقبولها . وإذا كانت الحكومة البريطانية قد طلبت تأجيل إجراء التحقيق الدولى فى الموقف المالى للحكومة المصرية لمدة سنتين ، فان هذا التأجيل لا يعتبر رفضاً بل هو موافقة ضمنية من حيث المبدأ وإقرار بسلامة الأساس الذى قام عليه هذا المبدأ . ولذلك كان جول فرى رئيس الوزارة الفرنسية وزير الخارجية أميناً فى تصويره للموقف السياسى حين أرجع الفضل فى موافقة الحكومة البريطانية إلى المذكرة الألمانية المؤرخة فى ١٤ من يناير ١٨٨٥ . ولم يخف جول فرى ابتهاجه بهذا النصر ، وأرسل برقية فى منتصف ليلة ٢٣ من يناير ١٨٨٥ إلى دى كورسيل السفير الفرنسى فى برلين يطلب إليه إبلاغ هذه الموافقة إلى بسمارك وقد وصفها بأنها « نجاح جديد وياهر للسياسة السلمية التى أصبح الأمير بسمارك يطلها القدير المخلص الحازم »^(٢) . وسرعان ما وافقت الحكومات الألمانية والنمساوية والروسية والىطالية على المقترحات الفرنسية ووقفت هذه الدول بمثابة كتلة واحدة إلى جانب فرنسا .

* * *

دارت محادثات سياسية بين باريس ولندن للاتفاق على وسائل تنفيذ الاقتراحات التى اتفقت عليها الحكومتان سواء الاقتراحات الخاصة بالمسألة المالية أو الاقتراحات الخاصة بمسألة قناة السويس . ولم تكن هذه المحادثات سهلة بل أحاطت بها الصعاب

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. T. V., doc. no. 533. Télégramme. Waddington, (١)
Ambassadeur de France à Londres à Jules Ferry Ministre des Aff. Etr., en date du 22 janvier, 1885.

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 536. Télégramme. Jules Ferry à de Courcel, on date du 23 janvier, 1885. (٢)

بسبب تمسك فرنسا وبريطانيا بوجهات نظر معينة عند وضع تفصيلات أسس المقترحات، ولا نرى الخوض فيها في هذا البحث . وتعددت الاقتراحات من الجانبين واستطالت هذه المحادثات قرابة شهرين فلم تنته إلا في منتصف شهر مارس ١٨٨٥ . وقد أسهم بسمارك إسهاما فعالا في حسم الموقف لمصلحة فرنسا وأوغل في سياسة العنف مع لندن إغلا بعبداً .

كان بسمارك يدرك تماماً أن الحكومة البريطانية تعلق أهمية بالغة على الوصول إلى تسوية سريعة للأزمة المالية التي كانت تعانها وقتذاك الحكومة المصرية . وكان يخشى أن تعمد الحكومة البريطانية إلى الماطلة والتسويق في تسوية مسألة القناة بعد أن تكون قد ظفرت بتسوية الأزمة المالية في مصر . ولذلك أوفد في ٢٦ من فبراير ١٨٨٥ ابنه الكونت هربرت دي بسمارك إلى دى كورسيل السفير الفرنسي في برلين ليوضح وجهة نظر الحكومة الألمانية في مسألة قناة السويس . وكانت تقوم على عدم الفصل بين الجانب السياسى وبين الجانب المالى للمسألة المصرية ، فلا بد — في رأى المستشار الألمانى — من تسوية مسألة قناة السويس تسوية نهائية مرضية في مقابل تقديم القرض المضمون للحكومة المصرية وأن تم تسوية المسألتين معاً وفي وقت واحد . وبعبارة أخرى لا يبرم اتفاق القرض المضمون إلا إذا عقدت اتفاقية القناة، وبهذه الطريقة لا تكون فرنسا قد ألقت سلاحها قبل أن تنال شيئاً من بريطانيا^(١).

ولكن كان جول فرى يعتقد رأياً آخر هو أنه من المتعذر تعليق تقديم القرض المضمون للحكومة المصرية حتى يتم إبرام الاتفاقية الدولية الخاصة بقناة السويس ، إذ أن هذه الاتفاقية قد يستغرق وضعها وصياغتها وإجراءات التصديق عليها وقتاً طويلاً . وكان من رأيه أن يتضمن اتفاق الدول بشأن المسألة المالية النص على أن

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 599. (١)

وكان مما جاء في هذه البرقية السرية الصافية التي أرسلها دى كورسيل إلى جول فرى في ٢٦ من فبراير ١٨٨٥ ما يلي :

Le Comte Herbert de Bismarck vient d'être envoyé auprès de moi par son père pour insister tout particulièrement sur la nécessité de ne pas nous désarmer à l'égard du Gouvernement anglais dans la question égyptienne en lui accordant sous une forme définitive les arrangements financiers dont il a besoin, avant d'avoir obtenu en échange les satisfactions d'ordre politique que nous réclamons, et qui se rattachent au régime du Canal de Suez.

تجتمع بدون إبطاء في تاريخ محدد وفي باريس لجنة تمثل فيها الدول الأطراف في الاتفاق المالى وتضع مشروع المعاهدة الدولية الخاصة بتنظيم حرية الملاحة في قناة السويس . ثم يعرض هذا المشروع بعد ذلك على حكومات الدول الأوربية لإقراره . وقال جول فرى تأييداً لوجهة نظره إن الدول الأوربية ، بعقد الاتفاق المالى ، لن تكون قد ألفت سلاحها وتلقفته بريطانيا . فهذا الاتفاق المالى يتطلب تصديق الهيئات التشريعية في هذه الدول . وقال جول فرى إن ألمانيا لديها مجلس تشريعى واحد ، وفرنسا لها مجلسان ، والنمسا لها أربعة مجالس . وليس هناك أسهل من تأخير عرض الاتفاق على الهيئات التشريعية حتى تتم تسوية مسألة قناة السويس ، فلهيئات التشريعية تستطيع تغطية موقف حكوماتها بطريقة أفضل من إدخال نص يسمى إلى كرامة الحكومة البريطانية^(١) .

ومضى الأمير أوتودى بيمارك في سياسة العنف ضد الحكومة البريطانية ، فأوفد ابنه الكونت هربرت دى بيمارك إلى لندن يحمل تبليفاً صارماً إلى الوزارة البريطانية بشأن موقفها من بسط الحماية الألمانية على غينيا الجديدة . وقد وصل المبعوث الألمانى إلى العاصمة البريطانية في ٣ من مارس ١٨٨٥ ، وأبلغ لورد جرانفل وغيره من أعضاء الوزارة البريطانية أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وبريطانيا لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال ، ولا تستطيع دولة كبرى مثل ألمانيا أن تقبل هذا الوضع . فإذا لم تغير الحكومة البريطانية من سياستها إزاء ألمانيا تغييراً سريعاً فإن المستشار الألمانى سوف يستخدم كافة الوسائل لإثارة المتاعب أمام الإنجليز في مصر ، سوف يرفض الموافقة على أى اتفاق خاص بمصر ، سوف يثير من جديد موضوع فوائد التأخير على مبالغ التعويضات المقررة للأجانب في مصر ، وسوف يصر على ضرورة دفعها ، وعلى أن تقوم الخزانة البريطانية بسداد هذه الفوائد وإعفاء الخزانة

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 601. Télégramme Jules. Ferry à de Courcel, en date du 27 février, 1885, doc. no. 602 Télégramme. Jules Ferry à de Courcel. en date du 28 février, 1885., et doc. no. 606 Télégramme. Jules Ferry aux Ambassadeurs de France à Saint-Petersbourg et Vienne, en date du 1er mars, 1885.

المصرية من تحمل هذا العبء وإن المستشار الألماني سيذهب إلى أبعد من ذلك فيطالب
بجلاء الإنجليز عن مصر^(١).

وقد صرح هربرت بسبارك أثناء إقامته الأخيرة في لندن للسفير الفرنسي
وادنجنون بأن ألمانيا على وفاق تام مع فرنسا ، وفي اللحظة التي توافق فيها الحكومة
الفرنسية على الاتفاق الخاص بمصر ، فإن الحكومة الألمانية ستحذو حذوها . والمصالح
الألمانية في مصر قليلة إذا قورنت بالمصالح الفرنسية فيها « ولكننا لا نريد أن نكون
ملكيين أكثر من الملك ، ولا فرنسيين أكثر من فرنسا . وإن والدي مصر على استخدام
كافة الوسائل للضغط على إنجلترا . ولديه هذه الوسيلة وسوف يستخدمها . وقد صرح
والدي للبارون دي كورسيل — السفير الفرنسي في برلين — بأنه سوف يؤجل
موافقته على الاتفاق ، لكنني أرجو عند عودتي إلى برلين أن أستطيع إقناعه بسحب
معارضته »^(٢).

وأخيراً اجتمعت كلمة حكومات الدول الأوروبية الكبرى في تصريح لندن الدولي
المؤرخ في ١٧ من مارس ١٨٨٥^(٣) وقد تضمن هسأتين : كانت المسألة الأولى خاصة

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. V. doc. no. 615 Télégramme très confidentiel. (١)
Waddington à Jules Ferry. en date du 6 mars, 1885

Ibid. (٢)

هذا وقد صرح هربرت دي بسبارك للسفير الفرنسي في لندن بأن والده أوتو بسبارك لم
يستخدم الطريق الدبلوماسي العادي في تقديم هذا التبليغ الصارم إلى الحكومة البريطانية. لأن السفير الألماني
في لندن ، وهو الكونت مونستر Munster ليس في مركز يسمح له بأن يبلغ لورد جرانفل هذه الحقيقة
المررة ، وليس هذا من مهام السفير العادي . لقد أمضى الكونت مونستر اثني عشرة سنة في لندن ، وقد أراد
المستشار الألماني أن يجنب السفير هذا الموقف الحرج ، فهداه المهمة إلى ابنه الكونت هربرت دي بسبارك.
ويصف السفير الفرنسي هذا المبعوث الألماني فيقول عنه إنه يتكلم بطريقة عنيفة جافة صارمة ، ولكنه أقل
خشونة وفظافة من أبيه .

انظر بخصوص زيارته لندن : الوثائق رقم ٦١٠ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٩ من المرجع السابق .
(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٦ لسنة ١٨٨٥

Declarations by the Governments of Great Britain, Germany, Austria-Hungary, France,
Italy, Russia, Turkey and Egypt, Relative to the Finances of Egypt, and to the Free Navigation
of the Suez Canal.

وانظر أيضا

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٧ لسنة ١٨٨٥ مرفق رقم ٢ بالوثيقة رقم ٢٠٠

الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٩ لسنة ١٨٨٥ وثيقة رقم ١٢

بالتاحية المالية، وقد أفرد لها البدان الأول والثاني، وفيهما تقرر أن تعقد الحكومة المصرية، بمصادقة سلطان تركيا، وخبان بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا، قرصا لا يتجاوز تسعة ملايين جنيه ولا تزيد فائدته عن ثلاثة ونصف في المائة، على أن يدفع من حصيلة هذا القرض تعويضات الإسكندرية، وما يتبقى بعد ذلك يخصص لتسوية العجز المالي في ميزانية الحكومة وسداد بعض النفقات الاستثنائية، كما تقرر إدخال تعديلات على قانون التصفية من شأنها إخضاع الأجانب في مصر لبعض أنواع من الضرائب، وهي عوائد الأملاك المبنية، وضريبة أوراق الدفعة وضريبة الباطنطة^(١). أما المسألة الثانية فكانت خاصة بقناة السويس وقد أفرد لها البند الثالث من تصريح لندن. وهذه هي ترجمتنا له.

« لما كانت جميع الدول مجمعة على الاعتراف بالحاجة الماسة إلى إجراء مفاوضات يكون الهدف منها أن تقرر في صك اتفاقي إنشاء نظام نهائي يكفل ضمان حرية استخدام قناة السويس في كل وقت ولجميع الدول.

» فقد اتفقت الحكومات السبع المتقدم ذكرها على أن تجتمع في باريس يوم ٣٠ من مارس ١٨٨٥ لجنة تتكون من مندوبين تعيينهم الحكومات المذكورة كي تقوم باعداد وصياغة هذا الصك على أن تتخذ أساساً له منشور حكومة حضرة صاحبة الجلالة البريطانية والمؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣.

» ويحضر اجتماعات اللجنة مندوب بصوت استشاري من قبل حضرة صاحب السمو الخديو.

» ويعرض المشروع الذي تضعه اللجنة على الحكومات المذكورة التي تستخدم حينئذ جهودها للحصول على موافقة الدول الأخرى عليه.

» والموقعون على هذا المندوبون عن ألمانيا، والنمسا والمجر، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا، وروسيا، وتركيا، والزرودون بالسلطات اللازمة، يصرحون أن حكوماتهم تتعهد كل منها قبيل الأخرى بالتعهدات المذكورة أعلاه.

« وإثباتاً لما تقدم قد وقع على التصريح الحالي الموقعون ووضعوأ عليه
أختام شعاراتهم . »

وفي اليوم التالي — أى فى ١٨ من مارس ١٨٨٥ — عقدت الدول اتفاق
لندن وكان خاصاً بتسوية شئون مصر المالية^(١) على ضوء ما جاء فى البتدين الأول
والثانى من تصريح لندن المؤرخ فى ١٧ من مارس ١٨٨٥ .

هذا الوضع الدولى الذى أخذته الأزيمة المالية المصرية هو الذى أتاح
للحكومة الفرنسية فرصة ذهبية إذ استطاعت أن تعمل على دفع مسألة قناة السويس
من مرحلة التجمد التى انتهت إليها منذ منشور لورد جرانفل المؤرخ فى ٣ من
يناير ١٨٨٣ إلى مرحلة عملية بدأت بصدور تصريح لندن الذى اشتركت فى توقيعه
سبع دول أوربية فى السابع عشر من مارس ١٨٨٥ .

ولما كانت باريس قد اختيرت مقراً لاجتماعات اللجنة الدولية فقد قامت
الحكومة الفرنسية — طبقاً لقواعد القانون الدولى العام — بتوجيه الدعوة
فى ٢٤ من مارس ١٨٨٥ إلى الدول الموقعة على تصريح لندن الصادر فى ١٧ من
مارس ١٨٨٥ لايقاد مندوبين عنها يمثلونها فى لجنة باريس الدولية . وحددت
فى خطاب الدعوة الهدف من اجتماع هذه اللجنة فقالت إنه « لإعداد وصياغة اتفاق
يستهدف ضمان حرية استخدام قناة السويس فى كل الأوقات لجميع الدول^(٢) . »

اجتمعت لجنة باريس الدولية فى هيئة مؤتمر فى مقر وزارة الخارجية الفرنسية
فى ٣٠ من مارس ١٨٨٥ وألقى خطبة الافتتاح جول فرى Jules Ferry رئيس
الوزراء ووزير الخارجية . وشرعت اللجنة فى وضع مشروع اتفاقية تنظم حرية
المرور فى قناة السويس . وقد نجحت فرنسا فى إيجاد تمثيل دولى داخل اللجنة
ضد بريطانيا ، فوقف إلى جانب فرنسا كل من ألمانيا وروسيا والنمسا والمجر وتركيا

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٧ لسنة ١٨٨٥ بعنوان

Convention between the Governments of Great Britain, Germany, Austria-Hungary,
France, Italy, Russia and Turkey, relative to the Finances of Egypt ; signed at London. March
18, 1885.

Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie. t. V. doc. no. 632, Têlêgramme. Jules (٢)

Ferry aux Représentants de France à Berlin, Londres, Vienne, Rome, Saint-Petersbourg,
Constantinople, en date du 24 mars, 1885.

وهولندا وأسبانيا ، وتأرجحت إيطاليا في موقفها ، ولكنها كانت أدنى إلى تأييد بريطانيا منها إلى التزام جانب الحيدة .

أرادت بريطانيا أن تفرض على اللجنة قيوداً ثقيلًا : هو أن تكون مناقشتها في نطاق المبادئ الواردة في منشور لورد جرانفل والمؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ بحيث تلزم وفود الدول بهذه المبادئ التزاماً دقيقاً صارماً عند إعداد وصياغة مواد الاتفاقية . واعتزمت الدول على هذا التقييد اعتراضاً شديداً .

وقدمت فرنسا مشروعاً للاتفاقية المقترحة، وحذت بريطانيا هذا الحذر . وكانت الفروق بين المشروعين جذرية عميقة . كان المشروع الفرنسي ينطوي في عدد غير قليل من مواده على خروج سافر على المبادئ الواردة في منشور لورد جرانفل . والواقع كان المشروع الفرنسي يصور إلى حد بعيد السياسة الفرنسية تجاه مصر بوجه عام وإزاء قناة السويس بوجه خاص . فقد واجه هذا المشروع حالة واقعة هي الاحتلال البريطاني لمصر ، وبالتالي بسط سيطرتها السياسية والعسكرية على القناة . فأولئك الذين يهدم هذه السيطرة الاتقادية بإيجاد هيئة دولية مختلطة تمثل فيها جميع الدول الواقعة على تصريح لندن ، وتحويل هذه الهيئة سلطات واسعة بحيث تكون لها الكلمة العليا في منطقة القناة ، وتنعو لها جباه الجميع ، تمكينها لها من مراوطة اختصاصات واسعة حدودها المشروع الفرنسي بحجة مراقبة تنفيذ المعاهدة تنفيذاً محايداً لصالح دول العالم فاطبة خوفاً من أن يعضى تنفيذها على نحو يخدم مصالح دولة واحدة هي بريطانيا العظمى . وفي الواقع استهدفت فرنسا من تقديم مشروعها غرضين رئيسيين : تدويل قناة السويس ، وجلاء بريطانيا عن مصر ، أو على الأقل ، وكخطوة أولى ، عن قناة السويس ومنطقها ، أما المشروع البريطاني فيكشف عن رغبة الحكومة البريطانية في الاحتفاظ بما انقردت به من سيطرة على مصر بما فيها قناة السويس . ولذلك فلم مشروعها على أساس المبادئ الواردة في منشور لورد جرانفل .

عكفت لجنة باريس ما يقرب من شهرين ونصف شهر على إعداد وصياغة الاتفاقية . وظل الصراع الدولي قائماً داخل اللجنة بين فرنسا والدول الست الصالعة معها ، وبين بريطانيا ومعها إيطاليا التي عدت بوقاً يردد وجهات النظر البريطانية . وكانت إيطاليا قد ضمت إلى وفدها أثناء انعقاد جلسات لجنة باريس أحد أعضاء

لأجلاس الشيوخ الايطالي ؛ هو اب أنطوني Pierantoni ؛ قيل عنه إنه من أقطاب القانون الدولي العام . وكان هذا الصراع أظهر ما يكون عند بحث المواد السياسية والعسكرية الحساسة التي كان تطبيقها يؤدي إلى تقلص نفوذ بريطانيا في القناة أو جلاء قواتها التي تحتل مراكز تشرف على مجرى القناة أو تهديدها ، وكذلك المواد التي تحد من حرية بريطانيا في تحركات قواتها ونقل عتادها عبر مصر .

وقد اختتمت لجنة باريس أعمالها في ١٣ من يونيو ١٨٥٥ بوضع مشروع اتفاقية جاء في ديباجتها أن حكومات الدول رغبت في أن تقرر بصك اتفاق إنشاء نظام نهائي يستهدف ضمان حرية استخدام قناة السويس في كل الأوقات ولجميع الدول ، وأن تستكمل بذلك النظام الذي خضعت له الملاحة في القناة بمقتضى فرمان السلطان والمصدق على الامتيازات التي أصدرها بخديو مصر . وقد أدرجت اللجنة في مشروع الاتفاقية مبادئ هامة نكثني منها بما جاء في منطوق المادة الأولى وهي الخاصة بتقرير مبدأ حرية المرور في القناة .

« تكون قناة السويس البحرية على الدوام حرة ومفتوحة ، في زمن الحرب كما في وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية ، دون تمييز للجنسية .

« وتبعاً لذلك اتفق الأطراف السامون المتعاقدون على عدم المساس بأي شكل بحرية استخدام القناة ، في زمن الحرب كما في وقت السلم .

« ولا تخضع القناة أبداً لمباشرة حق الحصر » .

ولكن اللجنة فشلت في الوصول إلى اتفاق على أربع مسائل هي :

أولاً : القيود المفروضة على السفن الحربية التابعة للمتجارين أثناء عبورها القناة .

ثانياً : تحريم نزول أو شحن القوات والذخائر داخل القناة وموانئ مدخلها .

ثالثاً : إنشاء لجنة دولية تتولى مراقبة تنفيذ الاتفاقية المقترحة .

رابعاً : حق الدفاع عن مصر . ولن يكون هذا الحق ؟

ورأت اللجنة أن تترك للحكومات المختصة الاتفاق على هذه المسائل تمهيداً لإبرام الاتفاقية نهائياً . وكانت بريطانيا قد طأجت أعضاء اللجنة في اليوم السابق

لاختتام أعمالها بحفظ عام على الاتفاقية يذس على أن تطبق موادها يجب ألا يعارض مع الحالة المؤقتة والاستثنائية التي توجد بها مصر في ذلك الوقت، أو إذا كان تطبيق أحكام الاتفاقية يؤدي إلى عرقلة تحركات القوات البريطانية التي تحتل مصر أو تعطيل حرية الحكومة البريطانية في العمل أثناء الاحتلال البريطاني لمصر .

* * *

وخيم على الموقف ركود امتد شهوراً طويلاً، وبدأ كأن مسألة القناة قد وضعت على الرف، ثم حاولت الحكومة الفرنسية تحريك المسألة، فقامت في ١٧ من نوفمبر ١٨٨٥ باتصالات دبلوماسية مع حكومات الدول الأوربية التي كانت ممثلة في لجنة باريس تستطلع رأيها في الخطوات التالية للوصول إلى وضع نظام يستهدف تقرير حرية المرور في قناة السويس على ضوء ما أسفرت عنه مناقشات لجنة باريس . وقد استقر رأي هذه الحكومات على أن تقوم فرنسا وبريطانيا بمحادثات ثنائية لتسوية المسائل الأربع على أساس أن لفرنسا وبريطانيا من المصالح في قناة السويس ما يفوق مصالح الدول الأخرى، وأنه إذا ما وصلت حكومتا هاتين الدولتين إلى الاتفاق المنشود، فإن الحكومات الأخرى ستوافق عليه بدون تعديل أو بتعديل طفيف للغاية (١) .

ولكن لم يلق دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية — وقد تولى هذا المنصب في وزارة بريسو Brissot منذ أبريل ١٨٥٥ — إلا مماطلة وتسويفاً من الحكومة البريطانية التي انتحلت أعذاراً شتى ، منها : إن بريطانيا مقدمة على إجراء انتخابات عامة ، وأن الوزارة الجديدة لم يمض عليها في الحكم وقت كاف يسمح لها بدراسة المسائل التي خلقتها الوزارة السابقة . وأن البرلمان الانجليزي لم يجتمع بعد، وأن اجتماع البرلمان سيجلو الموقف السياسي في انجلترا تماماً (٢)، كما كان من بين الأعذار التي ساقها

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. (١)

وثائق رقم ١٢٨ و ١٤٤ و ١٥٣ و ١٥٨

Blue Book. (Egypt) No 1 (1888). (٢)

وثيقة رقم ٢ من سالبوري وزير خارجية بريطانيا إلى والشام Walsham القائم بأعمال السفارة البريطانية في باريس ومؤرخة في ١٣ من يناير ١٨٨٦
وثيقة رقم ٤ من داجنتون السفير الفرنسي في لندن إلى روزبري Rosebery وزير الخارجية البريطانية ومؤرخة في ٢٢ من فبراير ١٨٨٦
وثيقة رقم ٦ من ليونز السفير البريطاني في باريس إلى سالبوري ومؤرخة في ١٠ من مارس ١٨٨٦

الحكومة البريطانية قولها إنه ليس من المناسب أن تتباحث الحكومتان في مسألة القناة بينما تواجه الدولة العثمانية اضطرابات في روميليا الشرقية .

والواقع أنه لم يكن يضير الحكومة البريطانية تأخير تسوية موضوع القناة طالما كانت هي تنفرد عن سائر الحكومات بمركز متفوق في القناة ، وطالما أن الأزمة المالية التي كانت تعانيها الحكومة المصرية قد سويت بعد أن قدمت الدول الأوروبية القرض المضمون ومقداره تسعة ملايين من الجنيهات ، وبعد أن دفعت الحكومة المصرية التعويضات ، وبعد أن ردت الأموال التي استولت عليها إلى صندوق الدين العمومي ، وبعد أن بدأت المالية المصرية في الانتعاش ، فانتقل زمام الموقف إلى يد إنجلترا بعد أن كان في يد فرنسا والدول الضالعة معها . وأثبتت الأحداث أن المستشار الألماني كان على حق حين طالب باتمام تسوية مسألة القناة قبل أن تتم تسوية المسألة المالية خوفاً من أن تعتمد الحكومة البريطانية إلى المماطلة والتسويف في تسوية المسألة الأولى بعد أن تكون قد ظفرت بتسوية المسألة الثانية . وقد مر بنا أن جول فرى وزير الخارجية الفرنسية وقتئذ لم ير هذا الرأي ، بمقولة إن الهيئات النيابية في البلاد الأوروبية تستطيع التريث في الموافقة على الاتفاق المالي ريثما يتم إبرام معاهدة قناة السويس . ولما وجد جول فرى إصراراً من جانب بسمارك على رأيه صرح في ٢٨ من فبراير ١٨٥٥ بأن الصعوبات تآتت في ذلك الوقت من جانب المستشار الألماني^(١) .

وأول حقيقة نستخلصها من دراسة الوثائق الرسمية - سواء الفرنسية أو الإنجليزية - أن الحكومة الفرنسية أسرفت إسرافاً واضحاً في الإلحاح على الحكومة البريطانية لبحث المسائل المختلف عليها في مشروع المعاهدة ، وأن الحكومة الأخيرة كانت ترفض في معظم الأحوال الاستجابة للطلبات المكررة في هذا الصدد .

واقترح دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية أن الحكومة البريطانية تتعهد التسويف في تسوية مسألة القناة ، فوجه رسالة شديدة اللهجة^(٢) إلى لورد روزبري وزير الخارجية البريطانية في وزارة جلاستون الثالثة ، والرسالة لا تخلو من الغمز

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V. doc. no 602 Télégramme. Jules Ferry à de Courcel on date du 28 février, 1885. (١)

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. doc. no 208 (٢)
والوثيقة عبارة من مذكرة أرسلها دى فريسينيه وزير خارجية فرنسا إلى وادجنتون السفير الفرنسي في لندن ومؤرخة في ١٣ من مارس ١٨٨٦ . وقد طلب الوزير إلى السفير أن يتلو المذكرة على وزير خارجية بريطانيا ثم يترك له نسخة منها .

والتعريض بالسياسة البريطانية، فصورها بأنها ملتوية متقلبة إزاء مشكلة قناة السويس . وكان مما جاء في هذه المذكرة أن وزير الخارجية البريطانية يتنامى أن وضع نظام للملاحة في قناة السويس مسألة لا تخص فرنسا وحدها أو بريطانيا وحدها ، بل تخص أوروبا ، وقد وضعت أوروبا هذه المسألة بين يدي فرنسا من الناحية العملية في مستهل عام ١٨٨٥ وبموافقة الحكومة البريطانية نفسها . وقد صدر تصريح لندن المؤرخ في ١٧ من مارس ١٨٨٥ متناولا مسألتين : عقد قرض لمصر بضمان الدول لإصلاح المالية المصرية ، ووضع اتفاق خاص لتنظيم استخدام قناة السويس . وقد تمت المسألة الأولى لسبب واضح ، هو أن لبريطانيا مصلحة خاصة في سرعة إتمام إجراءات القرض . أما المسألة الثانية التي هي موضع اهتمام عميق من العالم كله فلا تزال تتمتع في مراحلها الأولى . وطلب وزير الخارجية الفرنسية في ختام مذكرته أن تحدد وزارة جلاستون موقعها من مسألة القناة ، لأن الموقف لم يعد يتحمل تأخيراً في بحثها . وقال إن لدى الحكومة الفرنسية مشروعاً معداً لتسوية أوجه الخلاف بين الحكومتين ، فاما أن تقبل الوزارة البريطانية دراسة هذا المشروع وإبداء ملاحظاتها عليه ، وإما أن ترفض بحث المسألة ، وفي هذه الحالة ستعرض الحكومة الفرنسية تفاصيل الموقف على الحكومات الأوربية التي اشتركت في لجنة باريس الدولية لاتخاذ التدابير التي تراها مناسبة لمواجهة مثل هذا الموقف .

وكان لهذه المذكرة أثرها لدى روزبري Rosebery وزير الخارجية البريطانية ، فقبل أن ترسل إليه الحكومة الفرنسية مشروعاً بطريقة غير رسمية ، وأن يظل المشروع في طي الكتمان ، فإذا وجد أنه يصلح أساساً للاتفاق اتخذ شكلاً رسمياً بين الحكومتين ، أما إذا لم يكن صالحاً فيعتبر كأنه لم يكن ، وبذلك لا يكون هناك رفض علني لمشروع فرنسي أو قطع لمفاوضات دبلوماسية بين فرنسا وبريطانيا^(١) . وسرعان ما قدم دي فريسينيه المشروع الفرنسي في ٢٥ من مارس ١٨٨٦^(٢) وأكد في حديث له مع ليونز السفير البريطاني في باريس أنه ليس لهذا المشروع

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . وثيقة رقم ٧ من روزبري إلى ليونز ومؤرخة

في ١٧ من مارس ١٨٨٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . وثيقة رقم ٨ من ليونز إلى روزبري ومؤرخة

في ٢٥ من مارس ١٨٨٥

الطابع الرسمي الذى يربط الحكومتين ، بل إنه يقدمه بصفة خاصة وسرية à titre privé et confidentiel وإنه يسره أن يطلق أية ملاحظات بشأنه من الحكومة البريطانية . وأراد وزير الخارجية الفرنسية أن يخطو خطوة أخرى في سبيل ارضاء بريطانيا وبث جو من الثقة بين الحكومتين ، فقال للسفير البريطانى إنه يدرك أن اجراءات لجنة باريس الدولية ومناقشتها قد تركت أثراً غير طيب في دوائر الحكومة البريطانية ، ولذلك لم يدر في خلد الحكومة الفرنسية على الإطلاق أن تدعو هذه اللجنة إلى استئناف عقد اجتماعاتها أو بحث فكرتها من جديد على أى نحو من الأنحاء ، وأوضح أن هدف الحكومة الفرنسية هو أن تقوم الحكومتان باتصالات ودية بينهما تؤدي إلى اتفاق ، فلن تكون هناك صعوبة في اتخاذ الخطوة التالية ، وهى إبلاغه بالطريق الدبلوماسى إلى حكومات الدول الأخرى للموافقة عليه ^(١) . وقد قبلت الحكومة البريطانية هذا الأسلوب في بحث الموضوعات الأربعة المختلف عليها . وهكذا تبلور الموقف من مفاوضات بين تسع دول في لجنة باريس الدولية إلى اتصالات دبلوماسية ثنائية بين فرنسا وبريطانيا ، وخرجت مسألة القناة مرة أخرى من مرحلة التجمد .

أخذت الحكومة الفرنسية طوال مراحل الاتصالات الدبلوماسية تقدم اقتراحاً تلو اقتراح لتضييق شقة الخلاف بين الحكومتين . وظلت الحكومة البريطانية تملكاً في موقفها كسبا للوقت وضغطاً على الحكومة الفرنسية حتى تحملها على قبول وجهات نظرها . وقد أوقفت الحكومة البريطانية مرتين اتصالاتها الدبلوماسية معها بشأن مسألة القناة . وامتدت المرة الأولى خمسة أشهر (يونيو — أكتوبر ١٨٨٦) فقد سقطت وزارة الأحرار وتألقت وزارة المحافظين برئاسة سالسبورى في أغسطس ١٨٨٦ . وتولى وزارة الخارجية فيها أول الأمر اللورد اديسلى Iddesleigh ^(٢) . وضجت الحكومة الفرنسية بالشكوى من توقف الاتصالات . وأبرق دى فريسنيه

(١) المصدر السابق .

(٢) سئى أنه قد حدث في يناير ١٨٨٧ تمديدات واسعة في مناصب الوزارة البريطانية ، كان من بينها أن تقلد رئيس الوزارة وزارة الخارجية بالإضافة إلى رياسته للوزارة .

وزير الخارجية في ٩ من سبتمبر ١٨٨٦ إلى الكونت دي أوبيني Count d'Aubigny القائم بأعمال السفارة الفرنسية في لندن يطلب منه تذكير وزير الخارجية البريطانية الجديد بأنه لم يتلق رداً على المقترحات الفرنسية التي أبلغت لسلته في ٩ من يونيو ١٨٨٦ ، وأبدى وزير الخارجية رجاءه في أن يجد من الوزارة البريطانية الجديدة استعداداً صادقاً لتسوية مسألة القناة ، فلاقتراحات الفرنسية تنسجم بطابع الاعتدال ، كما أن الحكومة الفرنسية صبرت طويلاً في سبيل الوصول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية لتسوية هذا الموضوع^(١) .

ولم يكن لهذه البرقية أثر يذكر في دوائر لندن الرسمية ، فعمد دي فريسينيه في ١٣ من أكتوبر ١٨٨٦ إلى تهديد الحكومة البريطانية بأنه إذا لم يتلق منها رداً بشأن المقترحات الفرنسية فإنه سيرفض الأمر على الحكومات الأوربية ويبلغها أنه قد فقد الأمل في الوصول إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية ، وسوف يجري مشاورات مع هذه الحكومات لاتخاذ الاجراءات اللازمة^(٢) .

وكان لهذا التهديد الفرنسي السافر رد فعل في دوائر الحكومة البريطانية ، وتدخل لورد سالسبوري رئيس الوزارة البريطانية في الموضوع محاولاً أن يهدي من ثائرة الحكومة الفرنسية ، فصرح في حديث له مع وادنجتون السفير الفرنسي في لندن بأن المسائل المختلف عليها بين الحكومتين والخاصة بقناة السويس هي مسائل ذات خطر بالغ في نظر الحكومة البريطانية . ومع ذلك فهو ، أي رئيس الوزراء ، على ثقة من أن الحكومتين ستصلان إلى اتفاق فيما بينهما ، وهو يعلق أهمية قصوى على الوصول إلى مثل هذا الاتفاق ، لأن تسوية مسألة القناة سيكون لها تأثير طيب على المسألة المصرية في مجموعها ، وستثبت أن فرنسا وبريطانيا قد استطاعتا أن تتفقا على مسألة تعتبر من أمهات المسائل^(٣) . وقد عادت إلى سيرتها الأولى

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . وثيقة رقم ١٥ ومؤرخة في ٩ من سبتمبر ١٨٨٦

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ١٦ من أوبين اجرتن Edwin

H. Egerton الوزير بالسفارة البريطانية في باريس إلى اديسلي وزير الخارجية البريطانية ومؤرخة

في ١٣ من أكتوبر ١٨٨٦

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 342. Télégramme très confidentiel. (٣)

M. Waddington à M. de Freycinet, en date du 3 novembre 1886.

الاتصالات الدبلوماسية بين باريس ولندن حول مسألة القناة في أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٦ .

وقد فوجئت الحكومة الفرنسية بوقف هذه الاتصالات مرة أخرى في مستهل سنة ١٨٨٧ ، بحجة أنه حدثت في يناير من هذه السنة تعديلات وزارية واسعة النطاق في الوزارة البريطانية تناولت عدة مناصب وزارية . وكان من بين ما اشتملت عليه هذه التعديلات وزارات الخارجية والحرية والمستعمرات والخزانة . وضاعت الحكومة الفرنسية ذمرا بهذه المراوغة وهذا التسويف في بحث مقترحاتها ، فرأت لكي تحمل الحكومة البريطانية على الإسراع في تسوية مسألة القناة أن تربط هذه المسألة بمسألة أخرى كانت تقلق في ذلك الوقت بال الرأي العام البريطاني ، ونعني بها مسألة إيريد الجديدة .

في ذلك الوقت تلبدت في سماء العلاقات السياسية بين فرنسا وبريطانيا أزمة بطائرة حول مسألة إيريد الجديدة وإقدام فرنسا على احتلالها . وإيريد الجديدة Nouvelles Hébrides كما يسميها الفرنسيون ، أو هبرديز الجديدة New Hebrides كما يسميها البريطانيون ، عبارة عن ثلاث مجموعات من الجزر المتوسطة والصغيرة يبلغ عددها جميعاً ٣٧ جزيرة ، تقع في المحيط الهادى إلى شرق استراليا ، وتمتد مسافة ألف كيلومتر بين خطى عرض ٩ ، ٢٠ جنوب خط الاستواء وخطى طول ١٦٣ ، ١٦٨ شرقاً . وهى جزر غنية جداً وتضم عدداً من الموانئ الصالحة . كما أنها تفضل من الناحية الصحية الكثير من جزر المحيط الهادى^(١) .

وكان بدء استكشاف هذه الجزر في ٢٧ من أبريل ١٦٠٦ على يد برديو فرناند دى كيروس Perdo Fernandes de Quiros الذى ظن أنه استكشف قارة جنوبية

(١) لعبت جزر إيريد الجديدة دورا هاما في الحرب العالمية الثانية إذ اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الجزر قواعد عسكرية لقواتها الجوية والبحرية منذ سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥ في محاولتها وقف الزحف السريع الحافظ الذى قامت به اليابان في ميدان المحيط الهادى على الرغم من أن القوات اليابانية لم تصل في زحفها المظفر جنوبا إلى هذه الجزر .

كبرى كان يعتقد وجودها في هذه المنطقة ، ولذلك أطلق على هذه الجزر اسم *Tierra Australia del Espiritu Santo* وتنتع بعض المراجع هذا الملاح بأنه أسباني ، والبعض الآخر بأنه برتغالي . ولعل السبب في هذا الخلط يرجع إلى أن اسبانيا والبرتغال كانتا تشكلان في ذلك الوقت وحدة سياسية ، بعد أن استطاع فيليب الثاني ملك أسبانيا أن يضم البرتغال إلى مملكته في سنة ١٥٨٠ اعتقاداً على الروابط التي كانت تربط الأسرتين الحاكمتين إحداهما بالأخرى^(١) . وقد أرسل دي كيروس عدة مذكرات إلى الحكومة الأسبانية وصف فيها الخيرات التي تجود بها جزر إيريدي الجديدة ، وزين لها الاستيلاء عليها واستغلال ثرواتها . ولكن الحكومة الأسبانية لم تتخذ خطوات عملية إيجابية لاحتلال هذه الجزر . لأن أسبانيا كانت قد هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية وظهرت عليها بريطانيا وفرنسا وهولندا بسبب الحروب الطويلة التي شنها فيليب الثاني ضد الهولنديين والإنجليز والهوجونوت في فرنسا . وقد ظهر تدهور أسبانيا واضحاً على عهد فيليب الثالث ثم فيليب الرابع .

وقد تتابع قدوم المستكشفين والملاحين الأوربيين إليها ، فزارها في سنة ١٧٦٨ الملاح الفرنسي لويس دي بوجينفيل *Louis de Bougainville* وأثبت بطلان رأى سلفه ، وأتى بعده الملاح الإنجليزي جيمس كوك *Captain James Cook* وأطلق على تلك الجزر في رحلته الثانية إليها في سنة ١٧٧٤ اسم هيريديز الجديدة ، لأنه اعتقد أن هناك كثيراً من أوجه التشابه بينها وبين جزر هيريديز الواقعة إلى شمال شاطئ اسكتلندا من ناحية الغرب .

وازدادت هجرة الأوربيين إلى جزر إيريدي الجديدة في القرن التاسع عشر ، وكان معظمهم من الفرنسيين والإنجليز ، وفيهم التجار والمبشرون ومن إليهم . وقد مارس المبشرون بوجه خاص نشاطاً دينياً وتعليمياً وطيباً في هذه الجزر . وأصابوا بعض النجاح في نشر المسيحية بين الأهالي في المناطق الساحلية ، كما أنشأوا بعض المدارس والمستشفيات الصغيرة . أما في الداخل فقد بقي السكان الأصليون على ضراوتهم ولكنهم ظلوا بمنحاة من استغلال العناصر الأوربية لهم في المشروعات الاقتصادية .

(٢) استمر هذا الفهم سبعين عاماً من سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٦٤٠ حين استردت البرتغال استقلالها ونصبت عليها ملكاً من أسرة براجزا البرتغالية .

وقد اكتسبت جزر ايريد الجديدة أهمية استراتيجية واقتصادية في نظر كل من فرنسا وبريطانيا على السواء ، لسبب عام ثم لأسباب خاصة بهاتين الدولتين جعلت كلا منهما تنو بصرها للاستيلاء عليها . أما السبب العام فيرجع إلى المحاولات التي بذلت في القرن التاسع عشر ، وبخاصة في النصف الثاني منه ، لشق قناة بناما وما سبقها وصحبها من سلسلة المواقف والمعاهدات التي أبرمت تباعا بين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا الوسطى والدول الأوربية الكبرى لوضع النظام الدولي للقناة المقترحة ^(١) . وقد أضفت تلك المحاولات وهذه المعاهدات على جزر المحيط

(١) كان من أهم هذه المعاهدات

(أولا) معاهدة بدلاك Pidlack وقد أبرمت بين الولايات المتحدة وجرينادا الجديدة (كولومبيا حاليا) في ١٢ من ديسمبر ١٨٤٦ . المادة ٣٥ واستهدفت الولايات المتحدة من عقد هذه المعاهدة ضمان حرية المرور لرعاياها عبر برزخ بناما بنفس الشروط والامتيازات التي يتمتع بها مواطنو جرينادا الجديدة التي تملك هذا البرزخ وذلك في القناة البحرية التي يحتل حفرها مستقبلا وعلى كل وسائل المواصلات بأنواعها التي كانت تمر بالبرزخ وقتذاك . وتمهدت الولايات المتحدة في مقابل هذه الميزات التي تقرر لرعاياها بأن تضمن بشكل إيجابي نافذ الحيدة التامة للبرزخ حتى لا تعطل حرية العبور من محيط إلى آخر كما تضمن الولايات المتحدة حقوق السيادة التي لجرينادا الجديدة على هذا البرزخ وملكيته له . (ثانيا) معاهدة كليتون - بلور Clayton-Bulwer وقد عقدت بين الولايات المتحدة وبريطانيا في ١٩ من إبريل ١٨٥٠ مواد ٤١ ، ٢ ، ٤٥ ، ٨٠٦ وقد تناولت هذه المواد عدة مسائل منها تمهد الدولتين بعدم حصول أي منهما على إشراف خاص على قناة بناما المزمع إنشاؤها وعدم إقامة أية تحصينات تشرف عليها أو في الأقاليم القريبة منها ولا تحتل أو تحصن أو تستمر أو تباشرا أي سلطان على نيكارجوا أو كوستاريكا وشاطئ موسكيتو أو أي جزء في أمريكا الوسطى كما تقرر إعفاء سفن الدولتين عند عبورها القناة المستقبلية في حالة حرب بين هاتين الدولتين من الحصر أو الحجز أو القبض بواسطة أية واحدة من الدولتين المتحاربتين . ونص أيضا على أن تضمن الدولتان المتعاقبتان حيدة قناة بناما حتى تظل مفتوحة وحررة إلى الأبد .

(ثالثا) معاهدة الولايات المتحدة مع نيكارجوا التي قد يتم حفر القناة في أراضيها . وقد أبرمت في ١٦ من نوفمبر ١٨٥٧ ثم عدلت في ٢١ من يونيو ١٨٦٧ تعديلا أعطى الولايات المتحدة حق عبور القناة على أن تتعهد بحمايتها وضمان حيدتها حتى ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة المسلحة إذا طلبت ذلك نيكارجوا من الولايات المتحدة . كما تقرر في هذا التعديل أن تحتفظ نيكارجوا بكل حقوق السيادة على القناة المزمع إنشاؤها .

(رابعا) معاهدة بريطانيا مع نيكارجوا في ١١ من فبراير ١٨٦٠

(خامسا) معاهدة أسبانيا مع نيكارجوا في ٢٥ من يوليو ١٨٥٠

=

(سادسا) معاهدة فرنسا مع نيكارجوا في ١١ من إبريل ١٨٥٩

الهادى — ومن بينها جزر ابريد الجديدة — أهمية خاصة في نظر الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا ثم ألمانيا ، إذ اتجه اهتمامها إلى الاستيلاء على جزر المحيط الهادى لتتخذ منها محطات بحرية لخطوط الملاحة التى كان لامناص من إنشائها عقب فتح قناة بناما للملاحة بين المحيطين الأطلسى والهادى . ولكن يهتأ هنا أن التنافس الاستعمارى حول جزر ابريد الجديدة أصبح محصوراً بين الدولتين العتيدتين : فرنسا وبريطانيا .

أما الأسباب الخاصة بعديدة متباينة متشابكة . تقع هذه الجزر على مسافة ٤٠٠ كيلومتر من كالدونيا الجديدة وهى من أهم الممتلكات الفرنسية فى الإقيا نوسية . وقد استولت عليها فى سنة ١٨٥٣ ، وعملت فرنسا على أن تتخذ من ابريد الجديدة مراكز تموين لمستعمرتها الكبرى فى كالدونيا الجديدة وملحقاتها^(١) ، وكانت فى حاجة إلى أيد عاملة كثيرة تستخدمها فى تنفيذ المشروعات الاقتصادية فى مستعمرتها الكبرى ، ووجدت فى سكان ابريد الجديدة مورداً آدمياً تحصل منه على العمال وتبعث بهم إليها . وقد اتسمت عملياتها فى جمع السكان بطابع العنف والقسوة . وقد حمل أحد أعضاء مجلس اللوردات البريطانى وهو اللورد هاروبى Harrowby حملة عنيفة على الأسلوب الذى تتبعه فرنسا فى ترحيل سكان جزر ابريد الجديدة وإكراههم على العمل فى كالدونيا الجديدة ، ووصف هذا الأسلوب بأنه صورة أخرى من الرق

= (سابما) معاهدة ايطاليا مع نيكارجوا فى ٦ من مارس ١٨٦٨

(ثامنا) معاهدة بريطانيا مع هنوراس فى ١٧ من أغسطس ١٨٥٦

(تاسما) معاهدة الولايات المتحدة مع هنوراس فى ٤ من يوليو ١٨٦٤ أنظر كلا من :

Fauchille (Paul) : Traité de Droit International Public. Paris. 1926.

قسم ٢ من جزء ١ ص ٣٤٠ وما يملها .

Treaties and Acts of Congress relating to the Panama Canal. (Annotated 1921).

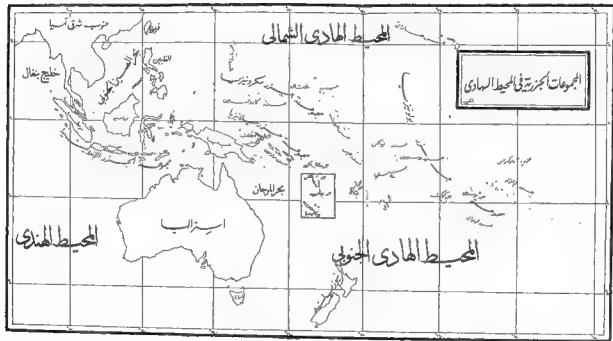
ص ١٣ وما يملها .

(١) تتكون ملحقات كالدونيا الجديدة من مجموعات من الجزر أهمها

(أولاً) Les îles Loyauté (Loyalty) Maré, Lifou, Uvée وهى :

L'île des Pins (ثانياً)

Iles Wallis (ثالثاً)



ونقطة سوداء مفزعة في تاريخ الحضارة الحديثة^(١). استغلت فرنسا قرب إيريد الجديدة من كالدونيا الجديدة فأنشأت بينهما علاقات اقتصادية واسعة ، وساعدها على ذلك أن تلك الجزر استهوت أفئدة الفرنسيين ، فزحوا إليها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بحيث غدا المستوطنون الفرنسيون أكثر جمعا وأعز قرأ وأوفر نشاطاً من المستوطنين الأوربيين، وكان يجيئ بعدهم من حيث العدد المستوطنون البريطانيون .

وكانت فرنسا ترى أن جزر إيريد الجديدة تعتبر من الناحية الجغرافية جزءاً مكملًا لكالدونيا الجديدة ، وزعمت أن هذه التبعية الجغرافية تعطى لفرنسا الحق واضحاً في أن تبسط حمايتها على الفرع طالما كانت هي تملك الأصل^(٢). كما اعتقدت أنها أحق بهذه الجزر من بريطانيا استناداً إلى أن الملاح الفرنسي لويس دي بوجافيل Louis de Bougainville كان أسبق من الملاح الإنجليزي كوك James Cook في زيارة جزر إيريد الجديدة وارتياحها . ورأت أن هذا السبق يخولها الحق في ضم هذه الجزر إليها طبقاً لنظرية Res Nullius أى الأرض التى لا صاحب لها^(٣). ولذلك كان حاكم كالدونيا الجديدة ويسمى دى لارشيرى de la Richerie ينعى على السلطات البريطانية في استراليا المحاولات المضادة التى كانت تبذلها في إيريد الجديدة كي تعرقل الخطط الفرنسية لضمها إليها. واعتنق هذا الرأي أيضاً الأميرال برتزوير Amiral Pritzbuer الذى خلف دى لارشيرى سنة ١٨٧٣ في منصبه كحاكم عام لكالدونيا الجديدة وملحقاتها .

ولما ضمت بريطانيا إليها جزر فيجي Les Fidjis في سنة ١٨٧٤ ازدادت الرغبة في نفس فرنسا لاحتلال جزر إيريد الجديدة ، وتراءى لها أن مثل هذا العمل يعتبر

(١) مضيفة مجلس اللوردات البريطاني جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ الجزء ٣١٤ ص ٤٩٦ - ٥٠٥ في

Hansard's Parliamentary Debates.

(٢) هناك علم استحدثه علماء السياسة الدولية وأطلقوا عليه اسم السياسة الجغرافية أو علم سياسة أقاليم الأرض Geopolitics وأضافوه إلى مجموعة العلوم السياسية . ويقوم هذا العلم على دراسة عناصر الجوار الجغرافي والملاصق الجغرافية المختلفة والمصالح المشتركة بين أجزاء المنطقة الواحدة . ويخرج الباحثون من مثل هذه الدراسات بتقرير نظرية هي : المناطق المتجاورة المتشابهة تشكل مجموعة واحدة بما تضمه من روابط اقتصادية أو ثقافية أو حضارية بحيث تكون السيطرة الدائمة فيها لمصالح الجوار أو المجاورة .

(٣) انظر للملاحظة رقم ١ في صفحة ٦٧ من هذا البحث .

رداً طبيعياً على الخطوة التي أقدمت عليها بريطانيا في فيجي . واصطنعت فرنسا سبباً لتبرير ما اعترمته من احتلال جزر إبيريد الجديدة ، فأوعزت إلى المستوطنين الأوربيين في بعض هذه الجزر ، وبالأخص في جزيرة تانا Tanna وجزيرة دي فاتيه de Vaté ، بتقديم مذكرة في فبراير ١٨٧٥ وأخرى في مايو ١٨٧٦ إلى الحاكم العام في كاللونيا الجديدة يطالبون فيها بضم جزر إبيريد الجديدة جميعها إلى فرنسا بحجة حماية أرواحهم والمحافظة على ممتلكاتهم من اعتداءات السكان الأصليين . وهكذا كانت فرنسا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما تصبو إليه لولا المعارضة القوية العنيفة التي حلت لواءها استراليا وأيدتها فيها بريطانيا الأم تأييداً تاماً .

فقد واجهت فرنسا حركة عنيفة قامت بين المستوطنين البريطانيين في أستراليا تطالب بضم جزر إبيريد الجديدة إلى الممتلكات البريطانية . واشتد ساعد هذه الحركة منذ سنة ١٨٧١ إذ كانت أستراليا تنتظر إلى فرنسا على أنها جارة غير مرغوب فيها : لا بسبب اشتداد حدة التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا فحسب ، ولا بسبب الأهمية الاستراتيجية لجزر إبيريد الجديدة بالنسبة لأستراليا وبالنسبة لكاللونيا الجديدة على حد سواء فقط ، ولكن لأن الحكومة الفرنسية كانت قد أصدرت قراراً في ٢ من سبتمبر ١٨٦٣ ، بتخاذ كاللونيا الجديدة منفى ومعتقلاً تبعث إليه بالمجرمين العتاه الذين تصدر عليهم أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة ^(١) . وأعلنت أستراليا أنها لا تستطيع أن

(١) بعد أن استطاعت حكومة ثير Thiers سحق ثورة الكومون في باريس سنة ١٨٧١ اعتقلت ثلاثة آلاف فرنسي وأرسلتهم إلى كاللونيا الجديدة . ويطلق على هذه العملية اسم الإبعاد السياسي La déportation pénale بينما يطلق على العملية الأخرى اسم الإبعاد الجنائي La déportation pénale وقد أخذ كثير من المبعدين اليساريين . منهم زوجاتهم وأولادهم ، واستخدمتهم السلطات الفرنسية في كاللونيا الجديدة في متروعات التعبير والتنشئة الاقتصادية في المستعمرة ، وأقطعتهم مساحات واسعة من الأراضي أشرفوا على زراعتها واستغلها ويمزتهم عن السكان الأصليين تمييزاً صارخاً . ولما أصدرت الحكومة الفرنسية قانون ٣ من مارس ١٨٧٩ بالمفو العام عن مرتكبي ثورة الكومون لم تعد الإقامة في كاللونيا الجديدة إجبارية بالنسبة للولاة المبعدين فيها . وتوسعت الحكومة الفرنسية في تطبيق هذا القانون ، فمثل المبعدين السياسيين الذين صدرت بشأنهم قرارات إدارية في هذا الصدد بعد حوادث ١٨٧١ . ومن ذلك فقد رفض بعض من هؤلاء وأولئك العودة إلى فرنسا وآثروا الإقامة مع عائلاتهم في المستعمرة . وما يذكر أن الحكومة الفرنسية كانت ترسل إلى كاللونيا الجديدة زعماء الجزائر المجاهدين . وقد رفضت أن تطبق عليهم قانون ٣ من مارس ١٨٧٩ ، وطُبقت عليهم قواعد الإبعاد الجنائي .

سمح لفرنسا بتوسيع الرقعة المخصصة للإبعاد الجنائي في الإقياوسية، بأن تجعل من إيريد الجديدة أيضاً مستقراً ومقاماً للفائض لديها من حثالة المجرمين الفرنسيين المحترفين^(١).

ويلاحظ أيضاً أن الحكم الفرنسي في كالدونيا الجديدة قد اقترن باضطرابات داخلية عنيفة نتيجة إسراف السلطات الفرنسية في فرض المظالم على السكان الأصليين. وكان من مظاهر هذه الاضطرابات الثورة العارمة التي قاموا بها سنة ١٨٧٨^(٢). وكادت تعصف بالحكم الفرنسي في كالدونيا الجديدة، إذ فتك الأهالي بالمستوطنين الفرنسيين رجالاً ونساء وأطفالاً، وخشيت استراليا أن تنتقل عدوى هذه الاضطرابات إلى الممتلكات البريطانية في الإقياوسية، وأن تأخذ مظهر العداء السافر للبيض الأوربيين المنتشرين في أرجائها. وطالب الرأي العام في استراليا بأن تحذو استراليا حذو أمريكا. فكما أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلنت مبدأ مونرو الذي يقضي بالآلا تتدخل الدول الأوربية في الشؤون الأمريكية، فكذلك يجب على استراليا أن تصدر تصريحاً تعلن فيه أنها ضمت إليها كل جزيرة وكل أرخبيل في المحيط الهادي لم تسيطر عليه إلى ذلك الوقت أية دولة أجنبية. وبذلك تكف فرنسا عن التطلع إلى الاستيلاء على إيريد الجديدة وتنحصر موجة الزحف الأوربي الاستعماري عن الإقياوسية.

وقد بلغ من عنف الروح العدائية التي انبثقت من استراليا ضد فرنسا أن خشيت الحكومة الفرنسية أن تسارع استراليا إلى ضم جزر إيريد الجديدة إليها، وبذلك تضاع فرنسا أمام الأمر الواقع. فأرسل الأميرال بوتو L'Amiral Pothuaux مذكرة مؤرخة في ٢٨ من ديسمبر ١٨٧٧ إلى زميله وزير الخارجية الفرنسية اقترح فيها

(١) L'Australie ne peut admettre que la France cherche dans les Nouvelles-
Hébrides une nouvelle terre de déportation pour y déverser l'excédent de son fumier criminel.
Hanotaux Gabriel : Histoire des Colonies Françaises et de l'Expansion de la France dans
le monde 6 vols. Paris 1933. t. VI. p. 485.

(٢) تطلق المراجع الفرنسية على هذه الثورة اسم الثورة الكبرى في كالدونيا الجديدة La Grande Révolte Canaque. وكان من بين أسبابها إكراه الأهالي على العمل بالهرايق في المزارع الفرنسية في كالدونيا الجديدة وفي ظروف قاسية وتحت حراسة مسلحة. كما كان الفرنسيون يطلقون أفتابهم تكللاً في مزارع الأهالي وتضييب محصولاتهم بالتلف.

الالتزام بالحكومة البريطانية بغية الوصول إلى اتفاق يضمن على الأقل المحافظة على الوضع القائم وقتذاك *statu quo* في جزر إيريد الجديدة، ثم عزز اقتراحه في مذكرة أخرى في هذا المعنى أرسلها إليه في ٣ من يناير ١٨٧٨ . وفي الواقع كان مما أثار قلق الحكومة الفرنسية المقالات الصاخبة التي امتلأت بها أعمدة الصحف الاسترالية في شهرى ديسمبر ١٨٧٧ ويناير ١٨٧٨ ، وكلها تنطوى على دعوة صريحة وسافرة لضم جزر إيريد الجديدة إلى الممتلكات البريطانية . ومن ثم أرسلت الحكومة الفرنسية مذكرة في فبراير ١٨٧٨ إلى لورد دربي Derby وزير الخارجية البريطانية وجهت فيها نظر الحكومة البريطانية إلى الحملة الصحفية الاسترالية العنيفة ، وقالت إنها تعتقد أن هذه المقالات لا تعبر عن رأى الدوائر الرسمية في بريطانيا ، وأنها — أى الحكومة الفرنسية — تسجل على نفسها أنه ليست لديها أهداف استعمارية إزاء هذه الجزر ، ولكنها ترغب أن تتلقى تأكيداً مشابهاً من الحكومة البريطانية بأنها هي الأخرى لا تعتزم احتلال هذه الجزر أو ضمها إلى الممتلكات البريطانية . وقد أحال لورد دربي هذه المذكرة إلى زميله وزير المستعمرات مقترحاً إبلاغ الحكومة الفرنسية أن الحكومة البريطانية لا تروم تقديم اقتراحات إلى البرلمان الإنجليزى تغير حالة الاستقلال التي تتمتع بها جزر إيريد الجديدة . وقد وافق وزير المستعمرات على هذا الاقتراح . وأسفرت الاتصالات الدبلوماسية بين باريس ولندن عن اتفاق الدولتين في سنة ١٨٧٨ على احترام استقلال جزر إيريد الجديدة والكف عن تدخل أى منهما في شئون هذه الجزر . ولم يأخذ هذا الاتفاق — من الناحية الشكلية — الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة بل هو يندرج تحت النوع الذى يعرف فى القانون الدولى العام باسم الاتفاقات الدولية فى الشكل المبسط كما سبق أن ذكرنا . وكان عبارة عن تبادل مذكرتين إحداهما من الماركيز داركور Marquis d'Harcourt السفير الفرنسى فى لندن إلى لورد دربي وزير الخارجية البريطانية^(١) . والأخرى من هذا الوزير إلى ذلك السفير^(٢) . وبذلك انتقلت مسألة

(١) جاء فى المذكرة الفرنسية :

Le Gouvernement français n'a pas le projet de porter atteinte à l'indépendance des Nouvelles-Hébrides.

(٢) جاء فى المذكرة البريطانية ما يلى :

Le Gouvernement de Sa Majesté britannique ne songeait pas non plus à modifier la situation indépendante où se trouvent actuellement les Nouvelles-Hébrides.

أرخبيل إبيريد الجديدة من النطاق المحلى الإقليمى فى الإقيانوسية، وبدأت منذ سنة ١٨٧٨ تأخذ مظهر مسألة دبلوماسية بين فرنسا وبريطانيا .

والنظرة السطحية العابرة لهذا الاتفاق توحي بأنه جاء غريباً لآمال فرنسا، إذ حال بينها وبين ما تشتهي من ضم أرخبيل إبيريد الجديدة إليها، ولذلك لا يزال إلى الوقت الحاضر بعض المؤرخين الفرنسيين^(٢) يحملون على هذا الاتفاق حملات شعواء، وينعون على الحكومة الفرنسية أنها عاجلت هذه المسألة الوطنية معالجة عرجاء، ويصفون تصرفها بعقد هذا الاتفاق بأنه تصرف ينطوى على جبن مفرط جلب الكوارث لفرنسا *désastreuse pusillanimité* . ويعتقدون أن اتفاق سنة ١٨٧٨ كان الأساس الركين الذى استندت إليه بريطانيا فيما بعد فى إنشاء نظام الحكم الثنائى فى جزر إبيريد الجديدة، وبمقتضاه وقفت بريطانيا على قدم المساواة مع فرنسا فى حكم هذه الجزر .

ولكن الدراسة الموضوعية لا تذهب إلى مثل هذا المدى . فالأفلاق لا يعتبر خسارة لفرنسا على طول الخط، فكما أنه حال بينها وبين ضم جزر إبيريد الجديدة إليها، فكذلك منع استراليا من الإقدام على مثل هذه الخطوة . إن كل ما يمكن أن نقره هنا تعليقاً على اتفاق سنة ١٨٧٨ أنه يدل على تظاهر مؤقت من الدولتين بعدم رغبتهما فى ضم جزر إبيريد الجديدة إلى أى منهما، وهو فى نفس الوقت تجميد للموقف فى هذه الجزر، كما أن حدة التنافس الاستعماري بين الدولتين هى التى أبقت على استقلال إبيريد الجديدة إلى حين .

وكان المفروض أن تخبو وشيكا حدة التنافس بين الدولتين على امتلاك جزر إبيريد الجديدة نتيجة لعقد اتفاق سنة ١٨٧٨، ولكن دأبت كلتا الدولتين على التمكن لنفوذها فى أرجاء هذه الجزر سعياً وراء ضمها إلى ممتلكاتها قبل أن تسبقها إلى هذا الضم منافستها الدولة الأخرى .

(١) انظر بحثاً بعنوان الياسنيك الفرنسى *Le Pacifique Français* فى مجلعة
Gabriel Hanotaux ouvr. cit., t. VI, pp. 419-493.

فرنسا تنشط في إرسال بعثات تبشيرية كاثوليكية إلى إيريدي الجديدة ، وتعمل على نشر اللغة الفرنسية . وبريطانيا تنشط في إيفاد بعثات تبشيرية بروتستانتية إليها ^(١) ، وتسعى لنشر اللغة الإنجليزية .

فرنسا تعمل على زيادة عدد المستوطنين الفرنسيين فيها ، وبريطانيا تعمل على زيادة عدد المستوطنين البريطانيين بها ، وساعد الدولتين على ذلك ان اتفاق سنة ١٨٧٨ لم يتضمن أى نص يحدد عدد المستوطنين الفرنسيين أو البريطانيين في تلك الجزر .

فرنسا تعمل على إنشاء مزيد من العلاقات الاقتصادية بين إيريدي الجديدة وبين كاليدونيا الجديدة ، وتشجع المستوطنين الفرنسيين على بناء أو اقتناء السفن لتجوب البحر بين إيريدي الجديدة و كاليدونيا الجديدة ، والمسافة بينهما لا تزيد عن ٤٠٠ كيلومتر . وبريطانيا تعرض التجار البريطانيين في سندي وملبورن على إنشاء علاقات تجارية بين استراليا وإيريدي الجديدة ، وتتخذ من هذين البلدين مراكز لقائمة النفوذ الفرنسي في إيريدي الجديدة .

فرنسا ترسل في مستهل سنة ١٨٧٩ وفدا عسكريا برئاسة الأميرال برجاس L'Amiral Bergasse de Petit Thouars ليزور جزر إيريدي الجديدة، وتفسر بريطانيا مهمة هذا الوفد بأنها مهمة استطلاعية للتمهيد لضمها إلى الممتلكات الفرنسية. وسرعان ما ترد عليها بارسال بعثة بريطانية في نفس العام تجوس خلال الجزر ، وتعود البعثة لتقرر أن بريطانيا تحقق صفقة مريحة إذا ضمت مثل هذه الأراضي الخصبة إليها . ثم تمن بريطانيا في سياسة التمكين لنفوذها في هذه الجزر ، فتمهد إلى الحاكم البريطاني في جزر فيجي برعاية مصالح المستوطنين البريطانيين في إيريدي الجديدة . وقد أتاح لها هذا القرار عديد الفرص للتدخل في شئون هذه الجزر

(١) قام بإدخال المسيحية في جزر إيريدي الجديدة عن الجانب البريطاني مبشرون من قبل كنيسة اسكتلندا البريسبتيرية المصلحة The Reformed Presbyterian Church of Scotland
انظر مضبطة مجلس الوردات البريطاني جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ في الجزء ٣١٤ ص ٤٩٦ : ٥٥٥
في Hansard's Parliamentary Debates .

تحت ستار الرغبة في المحافظة على حقوق المستوطنين البريطانيين وأرواحهم من اعتداءات الأهليين .

تنافس سافر ، وإخلال باتفاق سنة ١٨٧٨ الذي ينص على احترام استقلال هذه الجزر والامتناع عن التدخل في شئونها ، ثم تسابق لا يعرف هوادة بين الدولتين للانقضاض على إيريد الجديدة . وتظهر في غمار هذا التنافس شخصية غريبة تلعب دوراً هاماً وبخاصة في الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٨٥ هي شخصية جون هيجنسون John Higginson وهو رجل إيرلندي المولد ، بريطاني الجنسية ، ولكنه تحول في سنة ١٨٧٦ عن جنسيته البريطانية الى الجنسية الفرنسية . وكان من رجال الأعمال المبرزين ، يمتلك عدة مؤسسات اقتصادية ومصارف مالية وعدداً وافراً من السفن تجوب بحار هذه المنطقة . وقد وضع نشاطه الاقتصادي وإمكاناته المالية في خدمة الاستثمار الفرنسي بأكاية في بريطانيا ، وغدا من أشد المستوطنين الفرنسيين تحمسا لضم إيريد الجديدة إلى فرنسا . ويلاحظ أن الحركة الوطنية في إيرلندا كانت على أشدها في ذلك الوقت . وتكونت عدة جمعيات علنية وسرية إرهابية في إيرلندا ، وأنشأت لها فروعاً في أوروبا وأمريكا ، واستهدف بعضها تقرير الحكم الذاتي لإيرلندا ، بينما استهدف البعض الآخر منها قطع كل آصرة تربط إيرلندا ببريطانيا قطعاً لا رجعة فيه . وأمعنت بعض الجمعيات السرية في استخدام العنف ضد الإنجليز ، نذكر منها على سبيل المثال جماعة الإخوان الإيرلنديين الجمهوريين ، وكان شعارها : « الديناميت ، لا الكلام ، وسيلة الإقناع » .

وقد أسس هيجنسون ، ومعه نفر من الفرنسيين المصحسين لفرنسة جزر إيريد الجديدة ، شركة كان مقرها الرئيسي في المستعمرة الفرنسية الكبرى كاليدونيا الجديدة . وكان من أهم أغراضها شراء الأراضي الزراعية في مختلف جزر إيريد الجديدة ، وأطلقوا على هذه الشركة اسم « الشركة الكاليدونية لإيريد الجديدة » La Compagnie Calédonienne des Nouvelles Hébrides . ويبدو أن هيجنسون أراد أن تكون هذه الشركة صورة أخرى من شركة الهند الشرقية التي أسسها نفر من الإنجليز نزولاً في الهند أول الأمر تجاراً ، ثم استولوا على الأراضي الزراعية وأشرفوا على الإيرادات ، وانتهى بهم الأمر إلى أن غدوا سادة حكاماً في الهند . وهكذا أراد هيجنسون أن يفتح الإنجليز في مخططاتهم الاستعمارية .

وقد نجحت الشركة الفرنسية في عملياتها نجاحاً بعيداً ، إذ استولت على مساحات شاسعة من الأراضي ، سواء كانت في حوزة المستوطنين البريطانيين ، أو كانت تحت سيطرة رؤساء السكان الأصليين . وفي كل مرة تم فيها التوقيع على عقد البيع مع أحد من هؤلاء الرؤساء المحليين ، كان هيجنسون يرفع العلم الفرنسي ويهتف بأعلى صوته تحيا فرنسا Vive la France . وأخذ هذا الرجل يبنى — كما يقول المثل — طوبة فوق طوبة لإبريد الجديدة الفرنسية . ووقعت هذه الجزر من الناحية الواقعية الفعلية في دائرة النفوذ الفرنسي ، وأصبحت الغالبية العظمى من السكان الأصليين يشعرون أنهم غدوا تحت الحماية الفرنسية ، ولم ينظروا إلى هيجنسون على أنه رجل أعمال فحسب ، بل على أنه ممثل فرنسا في هذه الجزر .

ترامت إلى انجلترا أبناء هذا النشاط الفرنسي ، وبدأ أعضاء مجلس اللوردات والعموم البريطانيون يوجهون الأسئلة تبعاً إلى الحكومة الانجليزية يستفسرون منها عن حقيقة الموقف في أرخبيل إبريد الجديدة . فوجه سدموث Viscount Sidmouth أحد أعضاء مجلس اللوردات سؤالاً بجملة ٦ من يوليو ١٨٨٣ إلى لورد جرانفل وزير الخارجية عن حقيقة برقية وردت من سdney بأستراليا تقول إن سفينة حربية فرنسية قد ألقت مراسيها تجاه إحدى جزر إبريد الجديدة ورفعت العلم الفرنسي عليها^(١) . كما وجه سير هنري درموند ولف Sir Henry Drummond Wolf أحد أعضاء مجلس العموم سؤالاً إلى وكيل وزارة الخارجية بجملة ٩ من يوليو ١٨٨٣ عن حقيقة ما أشيع من أن فرنسا قد ضمت إليها إبريد الجديدة . وقد نفى لورد ادموند قزموريس Edmond Fitzmaurice هذه الشائعة^(٢) .

ولم يقف المستوطنون البريطانيون في أستراليا مكتوف الأيدي إزاء حركة التوغل السلمي الفرنسي التي حمل لواءها هيجنسون ، فتنادوا إلى ضم إبريد الجديدة إلى ممتلكات التاج البريطاني . وكانت حركة قوية جامحة هادرة . وفزع المستوطنون الفرنسيون إلى الحكومة الفرنسية . وغدت مسألة إبريد الجديدة موضوعاً حساساً

(١) مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٦ من يوليو ١٨٨٣ في الجزء ٢٨١ ص ٥٨٠ في مجموعة Hansard's Parliamentary Debates.

(٢) مضبطة مجلس العموم . جلسة ٩ من يوليو ١٨٨٣ في الجزء ٢٨١ ص ٧٩٢ في Hansard's Parliamentary Debates.

شائكا بين المستوطنين البريطانيين في استراليا وبين المستوطنين الفرنسيين في إيريد الجديدة وكالدونيا الجديدة ، وأصبح الفريقان بمثابة معسكرين متحفظين يرصد كل منهما حركات الآخر . وأرسلت الحكومة الفرنسية مذكرة مؤرخة في ٧ من يوليو ١٨٨٣ إلى الحكومة البريطانية قالت فيها إن المستوطنين الفرنسيين يتعرضون لألوان شتى من عوامل الاستفزاز من جانب المستوطنين البريطانيين في استراليا . وإن الحكومة الفرنسية تشعر أن من واجبها أن تتأكد عما إذا كان اتفاق سنة ١٨٧٨ لا يزال يعتبر سارياً في نظر الحكومة البريطانية كما هو الحال في نظر الحكومة الفرنسية .

ولما تأخرت الحكومة البريطانية في الرد على هذه المذكرة أرسل شالاميل لأكور Chalmel — Lacour وزير خارجية فرنسا مذكرة مؤرخة في ٢٧ من يوليو ١٨٨٣ إلى وادنجتون السفير الفرنسي في لندن أشار فيها إلى أن حالة التوتر الشديد لا تزال تسود العلاقات بين المستوطنين الفرنسيين في إيريد الجديدة وبين المستوطنين البريطانيين في استراليا ، وقرر أنه يعلق قيمة حقيقية إذا ما ثبت بوضوح أن الحكومة البريطانية — مثلها مثل الحكومة الفرنسية — لا تنوى أن تتخلى عن الحفاظ الذي التزمت به طبقاً لاتفاق سنة ١٨٧٨ ، ثم حثه على مواصلة السعي لدى الحكومة البريطانية حتى تبعث برده على المذكرة الفرنسية تؤكد احترامها لاستقلال إيريد الجديدة^(١) . وفي ٣١ من أغسطس ١٨٨٣ أبلغ السفير البريطاني بالنيابة في باريس وزارة الخارجية الفرنسية أن الحكومة البريطانية تعتبر اتفاق سنة ١٨٧٨ لا يزال سارياً . وهكذا تأكد هذا الاتفاق مرة أخرى في سنة ١٨٨٣ وسجلت الحكومتان احترامهما لاستقلال إيريد الجديدة .

ولكن لم يؤد هذا التأكيد الفرنسي البريطاني بنفاذ اتفاق ١٨٧٨ إلى التخفيف من حدة التنافس بين الدولتين حول إيريد الجديدة ، إذ عقدت الممتلكات البريطانية في استراليا مؤتمر أاجتمع في سدني في ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، واتخذت عدة قرارات استهدفت في مجموعها وقف الزحف الأوربي الاستعماري نحو الإقليموسية . ونذكر

منها القرار الأول ، وقد نص على أن حصول أية دولة أجنبية على مزيد من الممتلكات في المحيط الهادى جنوبى خط الاستواء أمر ينطوى على الإضرار البالغ بأمن ورعاية الممتلكات البريطانية في استراليا وبمخالص الامبراطورية البريطانية^(١). وكان المعنى الواضح لهذا القرار هو اعتبار استراليا منطقة بريطانية مغلقة في وجه جميع الدول الأجنبية التي تزنى ببصرها نحو توسع استعماري جديد . ولكن دراسة الموقف السياسى في المنطقة الجنوبية الغربية من الإقيانوسية تدل على أن المستوطنين البريطانيين قد وضعوا نصب أعينهم ، وهم يصدرون هذا القرار ، قطع الطريق أمام فرنسا حتى لا تضم جزر إبيريد الجديدة إليها ، فقد اجتمع مؤتمر سدنى والتنافس قد بلغ الذروة من الحدة بين المستوطنين الفرنسيين والمستوطنين البريطانيين حول إبيريد الجديدة .

وما لبث أن استكتب المستوطنون البريطانيون في سنة ١٨٨٤ بعض رؤساء الأهالى في جزيرة تانا Tanna — وهى إحدى جزر إبيريد الجديدة — التماساً إلى ملكة انجلترا وامبراطورة الهند قرروا فيه معارضتهم الرغبة البادية من فرنسا في ضم إبيريد الجديدة إليها ، وقالوا إنه إذا كان لابد من ضم هذه الجزر إلى دولة متحضرة فانهم يفضلون ضم بلادهم إلى المستعمرات الاسترالية^(٢). وقد أرسل نائب حاكم ولاية فيكتوريا باستراليا هذا التماس في شهر يونيو ١٨٨٤ إلى لندن وتولى لورد دربي وزير المستعمرات^(٣) عرضه على الملكة فيكتوريا ، ولكنه لم يستطع أن ينصح الملكة باتخاذ أى إجراء إيجابى في هذا الصدد ، إذ كانت الحكومة البريطانية ترى أنها مقيدة باتفاق سنة ١٨٧٨ ، كما أن دوائر لندن الرسمية كانت في ذلك الوقت تستبعد قيام الحكومة الفرنسية بالاستيلاء عنوة على إبيريد الجديدة .

(١) « That further acquisition of dominion in the Pacific south of the Equator, by any Foreign Powers would be highly detrimental to the safety and well-being of the British possessions in Australasia, and injurious to the interests of the Empire ».

(٢) مقبلة مجلس العموم البريطانى . جلسة ١٧ من مايو ١٨٨٧ . الجزء ٣١٥ ص ٢٤٧-٢٤٨ في Hansard's Parliamentary Debates .

(٣) كان وزير المستعمرات في وزارة جلاستون الثانية — وقد ظلت في الحكم من إبريل ١٨٨٠ حتى يونيو ١٨٨٥ — هو لورد كبرى Kimberley . وفي ديسمبر ١٨٨٢ حدث تعديل وزارى واسع النطاق تضمن فيما تضمن تعيين لورد دوبي وزيرا للمستعمرات خلفا للورد كبرى الذى عين وزيرا للهند .

رأت فرنسا أن تلجأ إلى الطريق الدبلوماسي لضم إبريد الجديدة إليها : وذلك بأن تسعى لدى الدول الأوروبية الكبرى للحصول على موافقتها على هذا الضم قبل أن تقدم عليه رسمياً . واعتقدت أن الظروف مهيأة أمامها للقيام بهذه المساعي . فقد كان هناك تقارب بينها وبين ألمانيا في ذلك الوقت ، وقوى هذا التقارب في سنتي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ بوجه خاص ^(١) . وكان بسمارك مخلصاً في رغبته التي أعلن عنها وهي ترك فرنسا تمارس نشاطا استعماريّاً خارج أوروبا . وكان من رأيه أن يكف الفرنسيون عن التفكير في استرجاع الألزاس واللورين ، وأن ينسوا سيدان Sedan كما نسوا من قبل ووترلو Waterloo ، وصرح بأنه على استعداد لتأييدهم في أي اتجاه استعماري ممكن أن يزحفوا إليه ما عدا اتجاه الراين ^(٢) . وذهب المستشار الألماني إلى حد أنه اقترح في ٢٤ من أبريل ١٨٨٤ أن يعقد مع فرنسا حلفاً بحريّاً لحفظ التوازن البحري ضد بريطانيا ^(٣) ، وكان ذلك على عهد وزارة جول فرى . ولما سقطت وزارته في ٣١ من مارس ١٨٨٥ جدد بسمارك اقتراحه على دي فريسيني de Freycinet وزير

(١) Taylor A. J. P. : The struggle for Mastery in Europe 1848-1918. Oxford 1954

p. 292

(٢) كان ما صرح به بسمارك في حديث ضفاف دار في ٢٧ من نوفمبر ١٨٨٤ بين دي كورسيل

de Courcel السفير الفرنسي في برلين قول بسمارك .

« ... Depuis quatorze ans, dès le lendemain de la conclusion de la paix, je n'ai pas poursuivi d'autre but à l'égard de la France que de chercher à lui faire oublier les conséquences d'une guerre qui avait eu pour elle une issue funeste. A quoi pourraient tendre de mauvais projets de notre part à l'égard de la France? Nous n'avons déjà que trop de territoires français ; ce n'est pas notre intérêt d'y rien ajouter. C'est notre intérêt au contraire que la France se détourne des souvenirs pénibles. Mon soin constant à partir de 1871 a été de me conduire de telle sorte que je pusse l'amener à pardonner Sedan comme elle en est arrivée après 1815 à pardonner Waterloo. Je désire pour cela qu'elle obtienne des satisfactions dans toutes les directions possibles, excepté dans la direction du Rhin. »

وقد أبرق دي كورسيل السفير الفرنسي في برلين بهذا الحديث الضافي إلى جول فرى وزير الخارجية الفرنسية في ثلاث برقيات مسبهة في ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من نوفمبر ١٨٨٤ والنص الفرنسي المذكور في الملمح مستخرج من الوثيقة رقم ٧١ المؤرخة في ٢٩ من نوفمبر ١٨٨٤

انظر Doc. Dipl. Fr. 1ère Série (1871-1900). t V docs. nos. 468, 469 et 471

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série tome V. doc. no. 249.

(٣)

M. de Courcel. Ambassadeur de France à Berlin, à M. Jules Ferry. Ministre des Affaires Etrangères. Berlin, 25 Avril 1884.

الخارجية الفرنسية في وزارة بريسو Brisson^(١). وقال المستشار الألماني « إنني لا أريد أن أخوض حرباً ضد بريطانيا العظمى . ولكن يجب — لكي تعمل حساباً لمصالح الآخرين — أن أنتهق الفكرة القائلة بأن عقد محالفة بين فرنسا وألمانيا ليس أمراً مستحيلاً^(٢) » وأبدى بيمارك تدمره من المتعصب التي تثيرها بريطانيا في وجه المستوطنين الألمان في جزر فيجي^(٣). وقد وقعت فرنسا موقفاً ودياً للغاية من ألمانيا حين أعلنت الأخيرة بسط حمايتها على الجزء الشمالي من غنييه الجديدة الواقع إلى شرق الحدود الهولندية في هذه الجزيرة تأسيساً على أن جماعة من المستوطنين الألمان قد نزحوا إلى هذه المنطقة وأقاموا فيها عدداً من المصانع . ولم تثر فرنسا أي اعتراض على هذا الإجراء عند ما أبلغته الحكومة الألمانية رسمياً إلى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٦ من ديسمبر ١٨٨٤^(٤). بينما نازعت الحكومة البريطانية ألمانيا هذا الإجراء ، واستمر النزاع قائماً بينهما حول هذه المسألة من يناير إلى مارس ١٨٨٥^(٥). وقد نقل الأمير هوهنلو prince de Hohenlohe السفير الألماني في باريس إلى دي فريسينيه وزير خارجية فرنسا رغبة الحكومة الألمانية في أن تسير على وفاق مع الحكومة الفرنسية فيما يخص بمصالحهما في الإقيانوسية وفي الساحل الغربي لإفريقيا^(٦). وفعلاً لم ينته عام ١٨٨٥ الا وكانت الدولتان قد وقعتا بروتوكولا في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ سويت بمقتضاه المسائل الخاصة بالساحل الغربي لإفريقيا وبمجموعة من الجزر تسمى جزر تحت الريح *Iles sous le Vent* تقع الى شمال غرب تاهيتي في الإقيانوسية^(٧). كما أحاطت

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI., doc. no. 23. M. de Courcel à M. de Freycinet. Ministre des Affaires Etrangères. Berlin, 10 Mai 1885.

(٢) Bourgeois Emile, Manuel Historique de Politique Etrangère 4 vols. Paris. 1926. t. IV. La Politique Mondiale (1878—1914). Empires et Nations. p. 196

(٣) Doc. Dipl. Fr. t. V. doc. no. 249.

(٤) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V., doc. no. 505. Note pour l'Ambassade d'Allemagne. Paris, 30 décembre 1884.

(٥) Taylor, ouvr. cit., p. 297

وانظر أيضا Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. V. doc. no. 619.

(٦) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI. doc. no. 18 M. de Freycinet. Ministre des Aff. Etr. à M. de Courcel, Ambassadeur de France à Berlin. Paris, 30 avril, 1885.

(٧) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI. docs. nos. : 124, 150, 179 et 228. Voir aussi. Bourgeois Emile, ouvr. cit., pp. 197-198.

فرنسا الحكومة الألمانية علما بالمساعي التي تبذلها لدى إنجلترا للحصول على موافقتها على ضم إيريدي الجديدة إليها . أما ألمانيا فقد وافقت على هذا الضم ووددت بعدم إثارة اعتراض عليه .

أما فيما يخص بالمساعي التي بذلتها الحكومة الفرنسية لدى الحكومة البريطانية للحصول على موافقتها على ضم إيريدي الجديدة إليها ، فقد انتهزت فرصة انعقاد مؤتمر برلين الأفريقي الذي اجتمع في الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ وأجرت اتصالات في هذا الصدد مع الوكيل المساعد لوزارة المستعمرات البريطانية وأحد أعضاء الوفد البريطاني في هذا المؤتمر وكان يسمى ميد Meade . ودارت المحادثات على أساس أن المصالح البريطانية والفرنسية متشابكة في أصقاع عديدة من انحاء العالم ، وأنه من الممكن أن توافق بريطانيا على أن تضم فرنسا أرخبيل إيريدي الجديدة إليها في مقابل استرضاء بريطانيا في جهات أخرى . ووافق ميد على هذا الاقتراح من حيث المبدأ .

ولكن لم يكدمر أسبوع واحد على انقضاء مؤتمر برلين الأفريقي حتى أعلن جلادستون رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم البريطاني بجملة ٥ من مارس ١٨٨٥ — رداً على سؤال وجه إليه جورست Gorst عن تصرف ميد Meade — أن الحكومة البريطانية لاتزال تعتبر اتفاق ١٨٧٨ نافذ المفعول وهما لكلا من بريطانيا وفرنسا باحترام استقلال إيريدي الجديدة . ولكنه استطرد في تصريحه استطراداً عصف بهذا الالتزام الذي كان يحكم عنه منذ لحظات ، إذ قال إذا كان هناك اقتراح بأن تضم فرنسا إيريدي الجديدة إليها ، فلا بد أن يكون هذا الضم مقروناً بشروط تراعى فيها مصالح المستعمرات الاستوائية (١) .

وقد فتح هذا التصريح الباب لاتصالات دبلوماسية بين باريس ولندن حول ضم إيريدي الجديدة إلى فرنسا . وقد عرضت الحكومة الفرنسية أن توقف عمليات الإبعاد الجنائي إلى الإقيا نوسية ، ورأت الحكومة البريطانية أن هذا الاقتراح جدير بالبحث ، لأنه سيضع حداً لمسألة إرسال المجرمين والأشقياء الفرنسيين إلى الباسيفيكي . ولكنها علقت قبولها هذا الاقتراح على عدة شروط ، منها : كفالة الحرية الدينية في جزر إيريدي الجديدة

(١) مضجلة مجلس العموم البريطاني جلسة ٥ من مارس ١٨٨٥ . الجزء ٢٩٥ ص ١٢٥ في Hansard's Parliamentary Debates.

بحيث لا يتعرض المبشرون البروتستانت لمضايقات المبشرين الكاثوليك ، وتقرير حرية التجارة في هذه الجزر بحيث لا ينفرد المستوطنون الفرنسيون باحتكار التجارة فيها ، وأن تتنازل فرنسا لبريطانيا عن جزيرة رابا Rapa^(١) ، وأن توافق المستعمرات الأسترالية على ضم إيريد الجديدة إلى فرنسا^(٢) .

واستطالت الاتصالات الدبلوماسية بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، وتلكأت لندن في الرد على باريس ، وتذرت بضرورة إجراء مشاورات تستغرق وقتاً طويلاً مع حكومات الولايات المختلفة في استراليا ومع باقي المستعمرات البريطانية في الإقيانوسية . وفي الواقع كان الشرط الأخير هو الصخرة التي تحطم عليها الاقتراح الفرنسي بضم إيريد الجديدة ، إذ رفضت المستعمرات البريطانية في الإقيانوسية هذا الاقتراح جملة وتفصيلاً ، وأعلنت ضرورة استمرار اتفاق سنة ١٨٧٨ نافذ المفعول . وأخطر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الفرنسية برفض الاقتراح الفرنسي . وعلى ذلك لم يبق أمام فرنسا إلا أن تقوم باتخاذ الإجراء العسكري وهو احتلال إيريد الجديدة لتحقيق رغبة قوية جياشة ظلت تراودها سنوات طوالاً . وكان هيجنسون زعيم حركة التغافل السلمي في هذه الجزر قد كتب في سنة ١٨٨٦ يقول ، بعد أن نجح في التمهيد للاحتلال العسكري الفرنسي ، إنه ليس في وسع أية حكومة فرنسية مهما كانت من الضعف إلا أن تضم جزر إيريد الجديدة إليها وترفع عليها أعلامها^(٣) .

والحق كان هناك شعور عام يسود بريطانيا بأن فرنسا لا محالة مقدمة على احتلال إيريد الجديدة . ويتمثل هذا الشعور العام في الأسئلة التي استؤنف توجيهها في البرلمان إلى الوزارة البريطانية قبيل بدء الاحتلال الفرنسي ، فقد وجه لورد هارواي Harrowby العضو بمجلس اللوردات سؤالاً في ٢٦ من مارس ١٨٨٦ إلى لورد جرانفل

(١) رابا Rapa جزيرة فرنسية في الإقيانوسية تقع بين خطي عرض ٢٠ ، ٣٠ جنوب خط الاستواء وخطي طول ١٤٠ ، ١٥٠ شرقاً .

(٢) بيان ألقاه أوزبرن مورجان Osborne Morgan وكيل وزارة المستعمرات في مجلس العموم بجملة ١٤ من مايو ١٨٨٦ . انظر مضبطة هذه الجلسة في الجزء ٣٠٥ ص ١٠٤٢ - ١٠٤٣ في Hansard's Parliamentary Debates .

(٣) Hanotaux G. : Histoire des Colonies Françaises et de l'Expansion de la France dans le monde t. VI., p. 486 .

وزير المستعمرات^(١) . قال فيه إن هناك قلقاً ونخوفاً يتزايدان في استراليا و إنجلترا بشأن اعتراف فرنسا احتلال جزر إيريدي الجديدة . وقال إن مستقبل هذه الجزر أمر بالغ الأهمية بالنسبة لاستراليا ونيوزيلندا ، وطالب الحكومة بأن تولى هذا الموضوع مزيداً من عنايتها^(٢) . كما وجه أحد أعضاء مجلس العموم ، وهو هوارد فنسنت Howard Vincent ، سؤالاً في جلسة ١٣ من مايو ١٨٨٦ إلى جلادستون رئيس الوزارة طلب فيه أن ترسل الحكومة البريطانية إلى حكومات الدول الأوربية صورة من القرار الأول الذي أصدره مؤتمر سدن في سنة ١٨٨٣ ، والذي سبق أن أشرنا إليه ، باعتبار الإقايونية جنوب خط الاستواء منطقة مغلقة بحيث يحرم فيها على أية دولة امتلاك مزيد من المستعمرات . وقد أجاب رئيس الوزارة بأن هذا القرار ليست له من الناحية القانونية قوة إلزامية في مواجهة الدول الأخرى ، وأنه لا يبدو أن يكون مجرد تعبير عن رأى بواسطة دولة كبرى^(٣) .

ولتبرير ما اعترفت الإقدام عليه انتحلت الحكومة الفرنسية العذر التقليدي ، وهو أن بعضاً من السكان الأصليين في جزر إيريدي الجديدة قد قتلوا عدداً من المستوطنين الفرنسيين ، ومن ثم صدرت الأوامر إلى بعض قطع من السلاح البحري الفرنسي في الإقايونية باحتلال هذه الجزر لحماية أرواح وممتلكات المستوطنين الفرنسيين . وتحركت بعض الوحدات البحرية من نومي Nqumea ، وهي ميناء كالدونيا الجديدة الرئيسي وطاصمتها في نفس الوقت^(٤) . قبلت في شهر يونيو ١٨٨٦ ميناء هافانا Havannah^(٥) حيث أنزلت قوات برية ورفعت العلم الفرنسي ، وتوالى قدوم

(١) كان لورد جرانفل وزير المستعمرات في وزارة جلادستون الثالثة بينا استند منصب وزير الخارجية في هذه الوزارة إلى لورد روزبري .

(٢) مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٢٦ من مارس ١٨٨٦ الجزء ٣٠٤ ص ١١ - ١٢ في Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) مضبطة مجلس العموم . جلسة ١٣ من مايو ١٨٨٦ الجزء ٣٠٥ ص ٩٠٩ - ٩١٠ في Hansard's Parliamentary Debates.

(٤) تقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لهذه المستعمرة الفرنسية .

(٥) هافانا Havannah هو أحد ثنتين هامين في جزيرة سانطوش من جزر إيريدي الجديدة . وهافانا تشابه في الاسم مع هافان Havane عاصمة كوبا . كما أن جزيرة سانطوش تشترك في الاسم مع جزر سانطوش أو هاواي Iles Hawai في الإقايونية والجزر الأخيرة تتبع سياسياً الولايات المتحدة الأمريكية . هذا ويطلق أحياناً اسم فاته Vate على جزيرة سانطوش في إيريدي الجديدة . أما التفرع الهام الآخر في جزيرة سانطوش في إيريدي الجديدة فهو بورت فيلا Port Vila . وأهم مدينة في هذه الجزيرة هي فرانسهيل أو مدينة فرنسا Franceville .

القوات الفرنسية إلى أنهاء الأرخيل وأنشأت لها مراكز ومحطات حربية ، كما أقامت عددا من الأكشاك الخشبية الكبرى لإقامة القوات المسلحة .

أبرقت وزارة الخارجية البريطانية في ١٠ من يونيو ١٨٨٦ الى لورد ليونز السفير البريطاني في باريس تطلب إليه أن يوجه نظر الحكومة الفرنسية إلى أن أبناء الاحتلال الفرنسي لجزر إيريد الجديدة قد أثارت موجة من السخط العميق والقلق البالغ في إنجلترا وأستراليا على السواء . ومضت وزارة الخارجية تقول في رقيتها إن الحكومة البريطانية لا يخامرها أدنى شك في أن الحكومة الفرنسية ستنفذ بكل إخلاص الاتفاق الثنائي المبرم بينها وبين الحكومة البريطانية في سنة ١٨٧٨ ، والذي تأكد في سنة ١٨٨٣ بشأن احترام استقلال إيريد الجديدة ^(١) .

وقد خف لورد ليونز السفير البريطاني في باريس لمقابلة دي فرسينيه وزير الخارجية الفرنسية في ١٠ من يونيو ١٨٨٦ . وحاول الوزير أن يقلل من شأن الإجراء العسكري الذي أقدمت عليه فرنسا من ناحية ، وأن يلتبس تبريرا له من ناحية أخرى . فقال إن شركة فرنسية كانت قد أرسلت عدداً من الفرنسيين للعمل في جزر إيريد الجديدة ، ولكن تعرضت حياتهم للأخطار ، إذ قتل الأهالي هناك عدداً من هؤلاء الفرنسيين ، وطلب الباقون الذين كتب لهم النجاة أن تعمل الشركة على حمايتهم من بطش الأهالي أو تعمل على إعادتهم فوراً . وقد أحالت الشركة الفرنسية الموضوع إلى حاكم كاليدونيا الجديدة ، فأرسل سفينتين تحملان قوات عسكرية إلى الأماكن التي يخشى فيها الفرنسيون على أرواحهم . وأضاف وزير الخارجية إلى ذلك أنه من المحتمل أن تكون القوات الفرنسية قد أقامت لها قاعدة أو محطة عسكرية في إحدى جزر إيريد الجديدة ليقم فيها أفراد القوة العسكرية ريثما يعود الأمن والنظام إلى هذه الأماكن ، وأكد وزير الخارجية للسفير البريطاني أن هذا الإجراء الذي اتخذته حاكم كاليدونيا الجديدة قد استهدف منه المحافظة على أرواح الرعايا الفرنسيين ، فهو إجراء بعيد كل البعد عن أن تكون له أهداف سياسية أو استعمارية ، وأن فرنسا لا تفكر في احتلال إيريد الجديدة ، بل لا تزال تعتبر نفسها مرتبطة باتفاق

(١) مضيفة مجلس الموم البريطاني . جلسة ١٠ من يونيو ١٨٨٦ . الجزء ٣٠٦ ص ١٣٠٠-

Hansard's Parliamentary Debates ١٣٠١

سنة ١٨٧٨ وأنها تحترم استقلال هذه الجزر . وفي ١٤ من يونيو ١٨٨٦ تمت مقابلة أخرى بين وزير الخارجية الفرنسية وبين السفير البريطاني في باريس ، وقد شرح له السفير القلق العميق الذي يسود إنجلترا واستراليا بسبب وجود القوات الفرنسية في جزر إيريدي الجديدة ، وأعاد وزير الخارجية تأكيدات بأن الحكومة الفرنسية لا تعزم احتلال هذه الجزر ، وليست لديها خطط تمس وضعها السياسي .

ولكن استمر الاحتلال الفرنسي يسيطر لواءه على جزر إيريدي الجديدة، وقدم القائم بأعمال القنصل البريطاني في كاليدونيا الجديدة احتجاجا لحاكمها العام على هذا الاحتلال وعلى رفع العلم الفرنسي في هذه الجزر . واستمرت الاتصالات الدبلوماسية قائمة بين لندن وباريس طالبت فيها الحكومة البريطانية بجلاء القوات الفرنسية فوراً عن إيريدي الجديدة . واستندت في هذا الطلب الى ثلاثة أسباب .

(أولاً) إن الاحتلال الفرنسي لإيريدي الجديدة يعتبر نقضاً صريحاً لاتفاق ١٨٧٨ الذي يقضى باحترام استقلال جزر إيريدي الجديدة . وإن هذا الاحتلال يعصف بقديسية المعاهدات^(١) ويزعزع الثقة في قيمتها وهو أمر يؤدي الى عدم استقرار العلاقات الدولية .

(ثانياً) إن احتلال فرنسا لإيريدي الجديدة يشكل خطراً على المصالح البريطانية في الإقياوسية .

(ثالثاً) إن هذا الاحتلال ينطوى على مساس بمستقبل وحقوق السكان الأصليين في إيريدي الجديدة .

(١) هناك قاعدة أساسية في القانون الدولي العام تقرر قسمة الاتفاقات بين الدول *Pacta sunt servanda* فلا يجوز لدولة أن تحلل بإرادتها المنفردة من المعاهدات أو الاتفاقات التي ترتبط بها . ويتفرع على هذه القاعدة الأساسية أن أحكام المعاهدة تظل نافذة ملزمة للدول الأطراف فيها إلى أن تنقضي بإحدى طرق انقضاء المعاهدات . غير أن الدول الأطراف في معاهدة قد تلجأ إلى بعض الدفوع لتتحلل بصفة مؤقتة من تنفيذ التزامات المعاهدة . وأهم هذه الفروع ثلاثة هي القوة القاهرة ، وحق الدفاع الشرعي ، وحق الضرورة . ولكن ليس من شأن هذه الدفوع أن تنقضي على المعاهدة أو تبطلها ، وإنما يقتصر أثرها على وقف التنفيذ بصفة مؤقتة .

انظر دكتور حامد سلطان : القانون الدولي العام في وقت السلم . طبعة يناير ١٩٦٢ ص ص ٢٣٠-٢٣٢

وردت الحكومة الفرنسية بأن احتلالها لإبريد الجديدة إنما هو إجراء مؤقت
ألمته حوادث الإعتداء التي راح ضحيتها عدد من المستوطنين الفرنسيين من جانب
السكان الأصليين . وأن الحكومة الفرنسية تحترم مبدأ قدسية المعاهدات ، ولكنها
لجأت إلى حق الدفاع الشرعى *légitime défense* وحق الضرورة *droit de nécessité*
وليس في نيتها أن تحصل من التزامات اتفاق ١٨٧٨ . وقررت أن القوات الفرنسية
ستجلب بمجرد أن يعود الأمن والنظام إلى إبريد الجديدة . ويلاحظ أن الحكومة
البريطانية سبق أن رددت مثل هذه الأعذار الواهية عند بدء الاحتلال البريطاني لمصر
فقد وصفت إصرارها على أن يضرب الأسطول البريطاني الإسكندرية في صيف ١٨٨٢
بأنه عمل شرعى ودفاعى في نفس الوقت ^(١) بمقولة إن المصريين كانوا يرمون قلاع
المدينة ، وإن هذا العمل موجه ضد سفن الأسطول البريطاني الراسية وقتل في الميناء ،
كما كانت تصرح بأنها ستجلب عن مصر حين يعود الأمن والنظام إليها . مما يدل على
أن الاستعمار هو الاستعمار أياً كان لونه وأياً كان مكانه .

وإذا كانت فرنسا قد احتلت إبريد الجديدة فإن هذا الاحتلال لم يكن رداً على
احتلال بريطانيا لمصر . فهذا تفسير لا ينبغي . إن الاحتلال الفرنسى لإبريد الجديدة
كان امراً متوقفاً : ففضلاً عن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لهذه الجزر بالنسبة
لكالدونيا الجديدة ، فإن فرنسا كانت تخشى أن تسبقها بريطانيا إلى احتلال أرخبيل
إبريد الجديدة ، فأتت أن تسلط على هذه الجزر أمر ضرورى حتى لا تقع في يد
بريطانيا . وكان هذا الاحتلال رداً طبيعياً على قيام بريطانيا بضم جزر فيجي إليها .
وكانت فرنسا تعتقد أن نصيبها في امتلاك المستعمرات في الإقياوسية الجنوبية نصيب
ضئيل إذا قيس بالممتلكات البريطانية فيها . وإذا كان التوازن في امتلاك المستعمرات
وفي بسط النفوذ بين بريطانيا وفرنسا كان مكفولاً في القارة الإفريقية ، فإن هذا
التوازن يتضاءل إلى حشد بعيد للغاية في الإقياوسية . وعلى ذلك فإن القسمة بين
هاتين الدولتين الاستعماريتين كانت في نظر إحداها — وهى فرنسا — قسمة ضيزى

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١٧ لسنة ١٨٨٢

وثيقة رقم ١٤٦ من جرائد إلى ليونز ومؤرخة في ٦ من يوليو ١٨٨٢

What we are doing seemed to me an act of legitimate and indeed, necessary self-defence.

جائرة . يضاف إلى ذلك عامل هام آخر هو دخول ألمانيا في الإقيانوسية كدولة استعمارية في الثمانينات من القرن التاسع عشر .

وفي نفس الوقت توالى الأنباء التي كانت تذيبها وكالة رويتر بأن الحكومة الفرنسية ماضية في تعزيز قواتها التي تحتل إيريدي الجديدة ، وأنها شرعت في إقامة حصون جديدة وبناء ثكنات إضافية في بعض موانئ هذه الجزر^(١) .

وتعرضت الحكومة البريطانية لفيض من الأسئلة من أعضاء مجلسي اللوردات والعموم يستفسرون منها عما هي فاعلة إزاء الاحتلال الفرنسي لإيريدي الجديدة ، ويطلبون إليها أن تولى هذه المسألة مزيداً من عنايتها . وبدراسة مضايح جلسات المجلسين التي أثير فيها هذا الموضوع نستطيع أن نتبين الاتجاهات العامة للأعضاء . والحقيقة الأولى التي نستخلصها هي أن مناقشات المجلسين ارتفعت إلى المستوى القوي^(٢) ، فلم تأخذ الطابع الحزبي العنيف ولم يستغلها أعضاء المعارضة وسيلة للنيل من الوزارة القائمة في الحكم ، سواء كانت وزارة الأحرار التي تولت الحكم في فبراير ١٨٨٦ ، أو وزارة المحافظين التي جاءت في أعقابها في أغسطس ١٨٨٦^(٣) .

وقد حمل الأعضاء حملة عنيفة على سياسة فرنسا في جزر إيريدي الجديدة وقالوا إنه إذا كانت قد وقعت حوادث اعتداء على المستوطنين الفرنسيين في هذه الجزر ، فإن

(١) مضيفة مجلس العموم . جلسة ٢٢ من فبراير ١٨٨٧ الجزء ٣١١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩
Hansard's Parliamentary Debates.

(٢) انظر على سبيل المثال ما دار في مجلس اللوردات بجلسته ١٢ من أغسطس ١٨٨٧ حين طلب لورد روزبري وزير الخارجية السابق في وزارة جلاستون الثالثة - وكان مجلس هو وأعضاء حزب الأحرار في كراسي المعارضة - فتح باب المناقشة في مسألة إيريدي الجديدة . وقد عارض لورد سالسبوري رئيس الوزارة ووزير الخارجية هذا الطلب ، وطلب سعيه على أساس أن مناقشة هذا الموضوع قد تثير جوا غير مناسب بين باريس ولندن . فاستجاب روزبري لهذه الرغبة وعلق عليها قائلاً إنه لم يدر بخلفه أن يسبب ارتباكاً للوزارة البريطانية ، وإنما كان هدفه الوحيد هو شد أزر الحكومة البريطانية وهي تعالج مسألة خطيرة ، وقال إنه يسهل أن يسمع أن المفاوضات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية قد بلغت مرحلة تجعل هذه المناقشة أمراً غير ذي موضوع .

انظر مضيفة مجلس اللوردات . جلسة ١٢ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٩ ص ٢١٨ - ٢١٩ في
Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) هذه هي وزارة لورد سالسبوري الثانية وقد ظلت في الحكم حتى أغسطس ١٨٩٢ وخلفتها وزارة جلاستون الرابعة .

تبعة هذه الحوادث إنما تقع على السياسة الفرنسية الغاشمة دون سواها ، لأنها تمارس ألواناً شتى من الظلم والتعسف والضغط على السكان الأصليين لإكراههم على العمل في تنفيذ المشروعات الفرنسية . وكانت نتيجة ذلك أن فاضت مشاعر السكان الأصليين بالسكراهية نحوهم . وحاول الأعضاء أن يرمخوا صورة وضيفة للاستعمار البريطاني ، فوصفوا شعور الأهالي في هذه الجزر نحو البريطانيين بأنه شعور طيب ودي للغاية حتى أنه في استطاعة الرجل البريطاني أن يتجول بدون سلاح في أية جزيرة من جزر إيريدي الجديدة دون أن يخشى على حياته شيئاً ، وهو أمر لا يحدث للأوروبيين من الجنسيات الأخرى ، وأشادوا بجهود المستوطنين البريطانيين في تعمير هذه الجزر ، وذهبوا إلى أن إدخال الحضارة في إيريدي الجديدة يعتبر قصة فخار لبريطانيا ، وأفاضوا في هذه الناحية إفاضة خرجت بهم عن جادة الحق والصواب^(١) .

واهتم الأعضاء بابرار الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لجزر إيريدي الجديدة ووفرة مواردها ، والتقارب الذي حدث بين فرنسا وألمانيا ، وتقدير هاتين الدولتين لهذه الجزر ، وأوضحوا أهداف فرنسا من احتلالها لها . وأبدوا قلقهم من مشروعات التوسع الفرنسي الاستعماري في الإقياانوسية بوجه عام^(٢) ، وقلقوا إن زحمة الأحداث

(١) من ذلك قول لورد هاروبى Harrowby العضو بمجلس اللوردات في جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ أن الكابتن كوك هو الذى استكشف هذه الجزر وتناسى من سبقه من الرحالة الأسبانيين ثم الفرنسيين . وقوله أيضا إن اللغة الإنجليزية هي اللغة الأوربية الوحيدة المعروفة في هذه الجزر ، وتناسى حركة التنفلل السلمى الفرنسى la pénétration pacifique في إيريدي الجديدة والتي كان هيجنسون رائدها وما صاحب هذه الحركة من انشاء مدارس ومستشفيات وبمئات تبشيرية كاثوليكية . ويلاحظ أن هذا اللورد كان وزيرا في وزارة سالسبورى الأولى التي تولت الحكم في يونيو ١٨٨٥ وشغل فيها منصب حامل أختام الملكة . انظر مضبطة مجلس اللوردات . جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ الجزء ٣١٤ صص ٤٩٦ - ٥٠٥ في

Hansard's Parliamentary Debates

(٢) انظر ما ذكره لورد كارنافرون Carnarvon العضو بمجلس اللوردات من أن مسألة إيريدي الجديدة لم تكن الأولى من نوعها في إيجاد خطر احتكاك بين فرنسا وبريطانيا ، فهناك مجموعة جزر السوسى The Society Group في الإقياانوسية ، قبل الرغم من وجود اتفاق بين الدولتين عقد في سنة ١٨٤٧ يعلم المساس باستقلال هذه الجزر ، إلا أن العلم الفرنسى ظل يخفق فوقها مدة ست سنوات ، ولم تجد نفعا الاحتجاجات التي قدمتها الحكومة البريطانية في هذا الصدد إلى الحكومة الفرنسية . وكذلك جزيرة تاهيتى Tahiti التي كادت تؤدي إلى صدام مسلح بين الدولتين . وقد أصبحت هذه الجزيرة تحت الحماية الفرنسية ثم تحولت الحماية إلى فرض السيادة عليها . كما ضمت إليها جزيرة رابا Rapa ومجموعة أوسترال Austral Group والأرخبيل الأسفل Lower Archipelago . انظر بيان لورد كارنافرون في مجلس اللوردات بجملة ٢ من مايو ١٨٨٧ سالفة الذكر .

السياسة التي واجهت بريطانيا في السنوات السابقة جعلت الرأي العام البريطاني لا يهتم اهتماماً كافياً بما يجري في هذه المنطقة النائية الشاسعة التي أصبحت ميداناً تنساق فيه الدول الاستعمارية على امتلاك الجزر ومجموعات الجزر المتناثرة فيها واتخاذها محطات بحرية استعداداً وترقياً لفتح قناة بناما. وقالوا إن فرنسا قد وطدت أقدامها في مستعمرتها الكبرى كالدونيا الجديدة، وكذلك الشأن في جزر لويوتيه Iles Loyauté وما هي تقدم في جرأة على احتلال جزر إيريدي الجديدة، وستكون أولى نتائج هذه السلسلة المتصلة الحلقات من حركات الضم والتوسع إيجاد حاجز ضخم يتكون من مجموعات جزرية فرنسية تفصل بين استراليا ونيوزيلندة من ناحية وبين جزر فيجي وغيرها من الممتلكات البريطانية من ناحية أخرى. وقد غالى لورد كارنارفون Carnarvon العضو بمجلس اللوردات في تصوير خطورة المشروعات الفرنسية الاستعمارية في الإقيانوسية على المصالح البريطانية، وذهب إلى أن هذه المشروعات تؤدي في نهاية الأمر إلى ضياع المستعمرات البريطانية. ولا ننسى أن هذا اللورد كان وزيراً للمستعمرات في وزارة دزرائيلي الثانية التي تولت الحكم في فبراير ١٨٧٤^(١).

وتوقع بعض الأعضاء في مجلس اللوردات والعموم أن تطبق فرنسا نظام الإبعاد الجنائي في جزر إيريدي الجديدة، واستندوا في ذلك إلى مناقشة كانت قد أثيرت خلال تلك الفترة في مجلس النواب الفرنسي قيل فيها إن كالدونيا الجديدة قد اكتظت بالمجرمين العتاة الذين تلقظهم فرنسا، وأن هذه المستعمرة قد بلغت درجة من التشبع بحيث لا تستطيع أن تقبل مزيداً من هذه الأنماط البشرية الخارجة على القانون، وأن النية متجهة إلى إرسالهم إلى إيريدي الجديدة. وخلص أعضاء البرلمان البريطاني إلى أن المستوطنين البريطانيين في استراليا على حق في تخوفهم من مسلك فرنسا، كما أنه ليس في استطاعة أحد سواء في إنجلترا أو في استراليا أن يخفى أسفه على الحالة القائمة وقتئذ في إيريدي الجديدة^(٢).

(١) دخل لورد كارنارفون بعد ذلك وزارة سالسبوري الأولى التي تولت الحكم في يونيو ١٨٨٥ وشغل فيها منصب نائب الملك لشئون أيرلندا Irish Viceroy.
 (٢) مقبلة مجلس العموم. جلسة ٢ من سبتمبر ١٨٨٦ في الجزء ٣٠٨ ص ص ١٠٨٨ - ١٠٨٩
 Hansard's Parliamentary Debates
 وكذلك مقبلة مجلس اللوردات. جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ السابق الإشارة إليها.

هذه هي أهم الموضوعات التي اثيرت في مجلتي اللوردات والعموم عقب الاحتلال الفرنسي لإبريد الجديدة . ودلت مناقشات أعضاء المجلسين على حالة القلق التي كانت تسود وقتئذ بريطانيا بسبب الإجراء العسكري الذي أقدمت عليه فرنسا . وانفتحت آراء أعضاء المجلسين على أن تقسم الحكومة البريطانية بمطالبة الحكومة الفرنسية بالجلء عن هذه الجزر واحترام استقلالها بمقتضى اتفاق سنة ١٨٧٨ ، والذي تأكد في سنة ١٨٨٣ .

ولكن كان للحكومة البريطانية اتجاه استعماري في تسوية هذه المسألة . تقدمت بعدة اقتراحات إلى الحكومة الفرنسية كان من أخطرها أن تقوم كل من الدولتين بحماية ارواح وممتلكات رعاياها في جزر إبريد الجديدة ، وأن يباشر أعمال الشرطة فيها ضباط بحريون يتبعون السلاح البحري لكل من الدولتين . ومؤدى هذا الاقتراح أن يتم جلء فرنسا عن إبريد الجديدة ، وأن تكون للدولتين هيئات عسكرية بحرية يناط بها هذه المهمة . وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أوامرها إلى بعض قطع من الأسطول الحربي بأن ترابط في مياه أرخبيل إبريد الجديدة حتى تقف الدوائن ما أمكن على قدم المساواة في هذه المنطقة . ويلاحظ أن الحكومة البريطانية حين بلغتها أنباء الاحتلال ترددت في أول الأمر في إرسال سفن حربية تجنباً لايجاد جو غير ودي بين الدولتين ، ولكنها عادت فأرسلت بعض القطع الحربية كوسيلة للضغط على الحكومة الفرنسية ، ولو أنها أعلنت أن إرسال هذه الوحدات لا يحمل أية روح عدائية ولا بنطوى على أى نوع من أنواع التهديد^(١) . ثم قرنت الحكومة البريطانية عرضها بموافقتها على أن تضم الحكومة الفرنسية إليها مجموعة من الجزر الصغيرة في الإقيانوسية تسمى جزر تحت الريح Iles sous le Vent تقع في شمال غرب تاهيتي .

ولما كانت الحكومة الفرنسية في مركز أقوى وأفضل من مركز الحكومة البريطانية فيما يخص بمسألة إبريد الجديدة فقد تباطأت الحكومة الفرنسية في محادثات

(١) أنظر بيان لورد جرانفل العضو بمجلس اللوردات وكان يشغل وقت وقوع الاحتلال الفرنسي لإبريد الجديدة منصب وزير المستعمرات في وزارة جلاستون الثالثة . مضيفة مجلس اللوردات . جلسة ٢ من مايو ١٨٨٧ السابق الإشارة إليها .

الجلاء عن هذه الجزر، وكانت تلتزم في بعض الأحيان سياسة الصمت التام إزاء المذكرات التي كانت تبعث بها إليها الحكومة البريطانية . وضح أعضاء البرلمان الإنجليزى من هذا التباطؤ ووجهوا الأسئلة تبعاً إلى الوزارة البريطانية وطلبوا أن تدلى ببيان عن حالة التقدم أو التعتُّر في محادثات الجلاء مع الحكومة الفرنسية ، كما طلبوا أن تحدد موعداً لانتهاه المحادثات لأنها استغرقت وقتاً طويلاً ، وتساءلوا عما إذا كانت فرنسا تعتزم حقاً الجلاء عن هذه الجزر^(١) . وكان مركز الحكومة البريطانية حرجاً إزاء هذا التباطؤ، وردت بأنها تعترف بأن المحادثات قد استغرقت وقتاً أكثر مما ينبغي ، وأن الحكومة البريطانية تأسف جداً لبقاء هذه المسألة معلقة بدون تسوية إلى ذلك الوقت ، وأنها لم تخرج جهداً في دفع المحادثات إلى الأمام، وهي ترسل دائماً مذكرات ودية إلى الحكومة الفرنسية حتى يتم سرياً جلاء القوات الفرنسية عن المراكز التي تحتلها في إيريدي الجديدة .

* * *

وبينما كانت الحكومة الفرنسية ماضية على هذا النحو من التباطؤ في محادثات الجلاء عن إيريدي الجديدة ، وبينما كانت الحكومة البريطانية تلج عليها للانتهاه من هذه المحادثات ، تمت مقابلة في ١٩ من مارس ١٨٨٧ بين لورد سالسبورى رئيس الوزارة ووزير الخارجية وبين وادنجتون السفير الفرنسي في لندن ، وقد صرح الأول للثاني بأن الرأى العام في بريطانيا قلقى للغاية بخصوص موضوع إيريدي الجديدة، وأنه يروم تسوية هذه المسألة تسوية نهائية في الخريف القادم على الأكثر . ففاجأه السفير برأى الحكومة الفرنسية ، وهو أنها ترى ربط مسألة قناة السويس بمسألة إيريدي الجديدة : وذلك بأن تسير المفاوضات الخاصة بعقد معاهدة قناة السويس في نفس الوقت وجنباً إلى جنب *pari passu* مع المحادثات الخاصة بتسوية مسألة إيريدي الجديدة^(٢) .

(١) أنظر على سبيل المثال :

مضبطة مجلس الموم جلسة ٢٨ من يونيو ١٨٨٧ الجزء ٣١٦ ص ١١٦٤ - ١١٦٥

مضبطة مجلس الموم جلسة ٣٠ من يونيو ١٨٨٧ الجزء ٣١٦ ص ١٣٠٩ - ١٣١٠

مضبطة مجلس الموم جلسة ٢٩ من يوليو ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ٥٢٩ - ٥٣٠

مضبطة مجلس الموم جلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ١٧٠ - ١٧١ ١٧١٣ - ١٧١٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨١

وثيقة رقم ٢٣ من سالسبورى إلى ليونز السفير البريطانى في باريس ومؤرخة في ١٩ من مارس ١٨٨٧

وثيقة رقم ٣١ من سالسبورى إلى إيجرتون الوزير في السفارة البريطانية في باريس ومؤرخة في

١٥ من أغسطس ١٨٨٧

وثيقة رقم ٣٣ من سالسبورى إلى إيجرتون ومؤرخة في ١٩ من أغسطس ١٨٨٧

وقد دل هذا الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة على براعة الدبلوماسية الفرنسية وتيقظها حتى لا تفاجئها الحوادث بعد التطور الذى حدث فى العلاقات الدولية بين تركيا وبريطانيا على عهد وزارة سالسبورى الأولى من ناحية ، وبين فرنسا وألمانيا فى سنة ١٨٨٧ من ناحية ثانية . كانت فى آخر مراحلها مفاوضات اتفاقية الجلاء عن مصر التى كان يتولاها عن الجانب البريطانى سير هنرى درمندولف Sir Henry Drummond Wolf^(١) وعن الجانب العثمانى كل من محمد كياميل باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية . وقد اشتملت هذه الاتفاقية على أربعة مسائل رئيسية هى حسب ترتيب ورودها فى الاتفاق .

(أولاً) تقرير وتنظيم حرية مرور السفن فى قناة السويس .

(ثانياً) تحديد سنة ١٨٩٠ موعداً لجلاء القوات البريطانية عن مصر .

(ثالثاً) بعد انتهاء الاحتلال البريطانى تصبح مصر بلداً محايداً وتدعى الدول للتوقيع على اتفاق تعهد فيه بعدم انتهاك الأراضي المصرية وتضمن حيدة البلاد .

(رابعاً) للحكومتين العثمانية والبريطانية الحق فى إرسال قواتهما إلى مصر فى أربع حالات هى تعرض مصر إلى غزو خارجى ، أو اذا تعرض الأمن والنظام العام فيها للاضطراب ، أو إذا رفضت الحكومة المصرية القيام بواجباتها نحو الباب العالى ، أو إذا أخلت بعهدها الدولية . ويكون الهدف من إرسال هذه القوات هو القضاء على الخطر ، وتنسحب جميع القوات العثمانية والبريطانية من مصر حالما تزول الأسباب التى أدت الى تدخلها .

وقد ألحق بهذا الاتفاق لائحة Règlement تشرح التدابير التى تتخذ إذا تعطلت

(١) كان يحمل لقب « مبعوث فوق العادة ووزير مفوض لدى حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان فى مهمة خاصة تتعلق بالشئون المصرية » . انظر القرار الصادر من وزارة الخارجية البريطانية إليه بتاريخ ٧ من أغسطس ١٨٨٥ الكتاب الأزرق (مصر) برقم ١ لسنة ١٨٨٦ . وثيقة رقم ١ ص ١ - ٢ كما كان عضواً فى المجلس الخاص للملكة فيكتوريا .

الملاحه في قناة السويس ، وتتضمن هذه اللائحة ثلاثة بنود . كما ألحق بالاتفاق ستة ملاحق اثنان منها في صورة بروتوكول^(١) .

أرادت بريطانيا في اتفاقية الجلاء أن تضرب المشروع الذي وضعته لجنة باريس الدولية ، فأقرت في هذه الاتفاقية مادة تنظم حرية مرور السفن في قناة السويس تنظيما يقوم في جوهره على أساس المبادئ الواردة في منشور لورد جرانفل المؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ وعلى بعض الأسس التي اضطرت الوفد البريطاني في لجنة باريس الدولية سنة ١٨٨٥ إلى الموافقة عليها ، كما استبعدت من هذا التنظيم المبادئ والاتجاهات التي قررتها فرنسا والدول التي كانت ضالعة معها في اجتماعات لجنة باريس وعارضتها وقتئذ بريطانيا^(٢) . وقد وصفت اتفاقية الجلاء التنظيم الجديد بأنه

(١) نجد النص الرسمي لهذا الاتفاق مع ملاحقه في الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٧ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٨٨ من سير هنري درمتولف إلى لورد سالسبوري ومؤرخه في ٢٤ من مايو ١٨٨٧ وانظر أيضا مرقع هذه الوثيقة بعنوان .

Convention between Great Britain and Turkey respecting Egypt ; signed at Constantinople May 22, 1878.

(٢) نصت هذه المادة - وهي المادة الثالثة في اتفاقية الجلاء - على أن تمنح الحكومة النمائية الدول الموقعة على معاهدة برلين للموافقة على عقد اتفاق يؤكد بطريقة أفضل حرية الملاحة في قناة السويس . وفي هذا الاتفاق تعلن الحكومة النمائية أن هذه القناة البحرية تظل على الدوام حرة ومفتوحة في وقت السلم وفي زمن الحرب ، السفن الحربية والسفن التجارية التي تعبرها من بحر إلى بحر دون تمييز بين جنسياتها ، وذلك في مقابل دفع الرسوم وتنفيذ الواجبات المطبقة في ذلك الوقت أو الواجبات التي قد تصدر وتعلن بعد ذلك بواسطة الإدارة المختصة .

وينص الاتفاق أيضا على أن تمتنع الدول الكبرى بآلا تمرقل إطلاقا من ناحيتها حرية المرور في القناة في وقت الحرب ، وأن تحترم الممتلكات والمؤسسات التي تتعلق بالقناة .

وينص الاتفاق أيضا على ألا تخضع القناة لإطلاقا مباشرة حق الحصر . وألا يباشر أي حق حربي أو عمل عدائي في داخل القناة وفي مدى ثلاثة أميال بحرية ابتداء من مينائي السويس وبور سعيد .

كما ينص أيضا في الاتفاق على أن يقوم الوكلاء الدبلوماسيون في مصر المشغولون للدول الموقعة بمراقبة تنفيذ الاتفاق في كل مرة ينتج عنها حالة من شأنها تهديد سلامة القناة أو حرية المرور فيها . ويجتمع أولئك الوكلاء ، بناء على دعوة أحدهم ، ورياسة مندوب خاص يميته لهذا الغرض الباب العالي أو الخديو ، لكي يتحققوا من حالة الخطر ، ثم يخطر على الحكومة المصرية لتتخذ التدابير المناسبة لضمان حماية القناة وحرية المرور فيها . وعلى أية حال يجب أن يجتمعوا مرة كل سنة للتثبت من أن الاتفاق قد نفذ تنفيذا سليما .

وفضلا عن ذلك فيجب أن ينص في الاتفاق على ألا تقام أية مراقيل في ميناء التدابير التي تكون =

يؤكد بطريقة أفضل حرية الملاحة في قناة السويس . ورأت فرنسا أن المجهودات الدبلوماسية المضنية التي بذلتها طوال السنوات السابقة سوف تضيع هباء، وأن بريطانيا مصممة على أن تفرض على الدول آراءها لتسوية مسألة القناة .

ولم يكن في استطاعة الحكومة الفرنسية أن تستند في سنة ١٨٨٧ إلى تأييد ألمانيا لها على نحو ما حدث في سنة ١٨٨٥ ، إذ كانت العلاقات بين الدولتين قد ساءت في تلك السنة إلى حد أنذر بوقوع حرب بينهما بسبب الحركة التي قام بها الجنرال بولانجييه Boulanger وزير الحرية الفرنسية . وكانت ترى إلى الانتقام من ألمانيا واسترجاع الأت拉斯 واللورين منها . وكان صدى هذه الحركة عنيفاً للغاية في ألمانيا ^(١) . إذ فقد بهمارك الثقة نهائياً في فرنسا ، ومضى يعزز القوات الألمانية ويستدعي قوات الاحتياطى ^(٢) ، ويحشد على الحدود الفرنسية قوات زاحفة وشحنات ضخمة من العتاد والذخائر ومواد التموين ^(٣) ، ورددت الدوائر السياسية والمالية أن الحكومة الألمانية في صدد عقد قرض يبلغ ٣٧٥ مليون فرنك لتغطية نفقات تعزيز القوات الضاربة ^(٤) .

== ضرورة الدفاع من مصر وسلامة القناة، وينص أخيراً على أن الطرفين السامين المتعاقدين يدعوان أيضاً الحكومات الأخرى إلى الانضمام إلى الاتفاق سالف الذكر على غرار الدول الموقعة .

أما اللائحة التي ألحقت بهذه الاتفاقية فقد وضعت لمواجهة الموقف إذا تمطلت الملاحة في قناة السويس . إذ نص البند الأول منها على أنه إذا تمطلت الملاحة في القناة لأي ظرف من الظروف فإن الدول التي تنضم إلى الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا والدولة الثمانية يكون لها الحق في أن ترسل عبر الإقليم المصري القوات التي تحتاج لإرسالها من بحر إلى آخر . كما نص البند الثاني على أنه لن يكون لأية دولة من هذه الدول في مثل هذه الحالة أن تحتفظ في كل دفعة وفي وقت واحد بأكثر من ألف رجل في الأراضي المصرية، ويجب أن يتم مرور هذه الفرق بأكثر الوسائل والطرق سرعة . وأخيراً قرر البند الثالث أنه في كل مرة تمصل إحدى هذه الدول هذا الحق فإنه يجب عليها أن تقوم عن طريق قنصلها بإخطار محافظ الميناء الذي سبم فيه إزالة الفرق بهذه الحالة قبل وقوعها بأربع وعشرين ساعة . وعلى المحافظ أن يشرف ويراقب مرور هذه الفرق .

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 406. Lettre particulière. (١)
Flourens, Ministre des Aff. Etr. à Herbette, Ambassadeur de France à Berlin en date du 23 janvier, 1887.

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 418. Télégramme Confidentiel (٢)
M. Flourens, Ministre des Aff. Etr. à M. Herbette, Ambassadeur de France à Berlin, en date du 2 février, 1887..

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 437. Lettre particulière M. (٣)
Flourens à M. Herbette, en date du 12 février, 1887.

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI, doc. no. 423. Télégramme. M. (٤)
Herbette à M. Flourens, en date du 4 février 1887.

ونجح بسمارك في تعبئة الرأي العام الألماني لامتشاق الحسام مرة أخرى ضد فرنسا . وذهب إلى أبعد من ذلك فصرح للسفيرين الفرنسي والبريطاني في برلين بأنه إذا تولى الجنرال بولانجييه Boulanger وزير الجربية رئاسة الوزارة أو رئاسة الجمهورية الفرنسية فإن الحكومة الألمانية تعتبر توليه أحد هذين المنصبين سبباً لقيام الحرب بين الدولتين^(١) . وكان قد تحدد شهر ديسمبر ١٨٨٧ موعداً لاجراء الانتخابات لرئاسة الجمهورية في فرنسا . ونشرت جريدة Post الألمانية — وهي صحيفة رسمية — مقالا غنياً في ٣١ من يناير ١٨٨٧ هاجمت فيه فرنسا ، وقالت إن وجود الجنرال بولانجييه في الوزارة الفرنسية يعتبر سبباً لقيام الحرب casus belli ، كما نشرت هذه الجريدة خطاباً خطيراً ألقاه هوفمان Hoffmann وزير الأتراس واللورين في ٢٨ من يناير ١٨٨٧ صرح فيه أن السلم في خطر^(٢) . وتناقلت الدوائر السياسية اقتراحاً يخفف من هذه الأزمة ويقضى بخروج الجنرال بولانجييه من الوزارة^(٣) . وكان هذا الوزير في صدد تنفيذ برنامج ضخم لإعادة تنظيم الجيش الفرنسي وطلب فتح اعتمادات إضافية لتعزيز الجيش والبحرية ، واعتقدت الدوائر الألمانية أن الهدف من التنظيم الجديد والاعتمادات الإضافية هو الاستعداد لخوض غمار حرب ضد ألمانيا .

وقد بلغ من عنف الأزمة الفرنسية الألمانية في سنة ١٨٨٧ أن قام المستشار الألماني بمساعي لدى القيصر اسكندر الثالث حتى تلزم روسيا جانب الحيدة إذا نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا^(٤) . واعتقدت دول القارة الأوربية أن الحرب لا محالة ناشبة بين

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI, docs. nos. 415 et 419

M. Herbet,te, Ambassadeur de France à Berlin à M. Flourens, Ministre des Aff. Etr. let première document est ; une dépêche confidentielle en date du 29 janvier, 1887, le deuxième est un télégramme, en date du 2 février, 1887.

وكان بما جاء في الوثيقتين قول بسمارك حرفياً :

«... si le général Boulanger devenait Président du Conseil ou de la République ce serait la guerre, il n'y aurait plus alors aucune sécurité»

(٢) برقية أرسلها السفير الفرنسي في برلين إلى وزير خارجية فرنسا ومؤرخة في أول فبراير

سنة ١٨٨٧ ومذكورة في الملحوظة رقم ١ في هامش صفحة ٤٣٦ من المرجع السابق

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI, doc. no 435 Lettre particulière M.

Herbette à M. Florens, en date du 10 février, 1887.

(٤) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI, doc. no 436 Télégramme très con-

fidentiel. M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint-Petersbourg, à M. Flourens, Ministre des Aff. Etr., en date du 11 février, 1887.

الدولتين . واتخذت النمسا والمجر وإيطاليا تدابير استثنائية لمواجهة حالة خطر الحرب ^(١) . وأرسلت الحكومة البلجيكية مذكرتين في فبراير ١٨٨٧ إلى الحكومتين الألمانية والفرنسية أوضحت فيهما موقفها إذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وطالبت باحترام حيديتها وأعلنت أنها ستدافع عن هذه الحيادة إذا مدت إحدى هاتين الدولتين العمليات الحربية إلى الأراضي البلجيكية ^(٢) . كما تدخل اسكندر الثالث قيصر روسيا لدى الامبراطور الألماني وليم الأول ولدى بشارك المستشار الألماني مستفسراً عن حقيقة نوايا ألمانيا نحو فرنسا ^(٣) . وقد اهتمت وزارة الخارجية الفرنسية اهتماماً عالياً بتبديد شكوك ألمانيا من ناحية فرنسا وأكدت لها تمسكها بأهداف السلام ^(٤)

في مثل هذه الفترة الدقيقة الحرجة التي كانت تجتازها العلاقات الفرنسية الألمانية أيد فلورانس وزير خارجية فرنسا رأى هربت Herbertte السفير الفرنسي في برلين بأن الوقت غير مناسب لمناقشة بشارك في موضوع المسألة المصرية والتماس تأييده لفرنسا في شأنها ^(٥) . وخاضت فرنسا معركة دبلوماسية في جبهتين . في القسطنطينية لضرب اتفاقية الجلاء جملة وتفصيلاً ، وفي لندن للربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة .

أما في القسطنطينية فقد تعاونت فرنسا مع روسيا لإسقاط اتفاقية الجلاء اسقاطاً قانونياً . كانت المادة الأخيرة من هذه الاتفاقية تنص على وجوب التصديق عليها ، وأن يتم تبادل وثائق التصديق في القسطنطينية في خلال شهر اجداء من تاريخ

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VI doc. no. 437.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série, t. VI doc. no. 452 Dépêche. M. Flourens aux Ambassadeurs de France à Londres et Berlin, en date du 1er mars 1887.

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 422. Télégramme. Confidentiel M. Flourens, Ministre des Aff. Etr. à M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint-Petersbourg, en date du 3 février, 1887.

(٤) بخصوص الأزمة الفرنسية الألمانية في سنة ١٨٨٧ ومظاهرها وتطوراتها انظر عدا الوثائق التي سبقت الإشارة اليها الوثائق الآتية . وهي على سبيل المثال لا الحصر ٤٠٤ - ٤٨٦ ، ٤٩٤ - ٥٥٨ ، ٥٦٢ - ٦١٠

وهي منشورة في المجلد السادس من المجموعة الأولى من الوثائق الدبلوماسية لفرنسية

(٥) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc no. 421. Télégramme confidentiel Flourens à Herbertte, en date du 3 Février, 1887.

التوقيع على الاتفاقية أو أقل من هذه المدة إن كان ذلك ممكناً . وكانت هذه المادة هي الباب الذي استطاعت فرنسا وروسيا أن تنفذاً منه لإجباط الاتفاقية وهو الضغط على السلطان كي يرفض أو يمتنع عن التصديق على الاتفاقية ، وبذلك لاتحدث الاتفاقية الأثر القانوني الصحيح في الدائرة الدولية في دور التنفيذ العملي^(١) .

(١) التصديق Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التي تمكك عقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هي إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما رئيس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستوري المعمول به في كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة من حيث السلطات التي تمنحها للدساتير لرؤساء الدول في شأن إبرام المعاهدات . والتصديق إجراء واجب لنفاذ المعاهدة في الدائرة الدولية يؤدي ضرورته القانون الدولي الوضعي ، وكذلك العرف المتوارث بين الدول ، وما جرى عليه العمل والقضاء داخل الدول ، بما أن استبعاد الفقه والعرف نظرية « الوكالة » في المعاهدات التي تقول إن التوحيين المفوضين في التوقيع على المعاهدات هم بمثابة الوكلاء عن الدول في التعاقد باسمها ، وإلهم يخضعون في علاقاتهم مع دولهم في هذا الشأن لنفس القواعد التي تنظم العلاقة بين الوكيل والموكل في إبرام العقود والتزام الوكيل بحدود التوكيل . وقد فقدت هذه النظرية صلاحيتها في العمل نظراً لتفاوت الأهمية والمخاطرة بين المعاهدات والعقود ، لأنه من اليسير تقاضي نتائج تتجاوز حدود التوكيل فيما يتعلق بإبرام العقود في حين أن هذا التجاوز يؤدي إلى نتائج خطيرة في علاقات الدول بعضها ببعض وإثارة المشكلات فيما بينها فيما يتعلق بالتزام أحكام المعاهدات .

وقد سوغ فقه القانون الدولي العام ضرورة التصديق على المعاهدات بعدة مسوغات ، منها : خطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها في المعاهدات ، وإثارة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها والهيئات النيابية فيها لإعادة النظر في المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد ترى فيما اتفق عليه مندوبوها تمارساً مع مصالحها أو انتقاماً من حقوقها أو قد تجد ظروف تدعوها إلى العدول عما كانت تراه من قبل فتستع عن التصديق . وبهذا الامتناع تسقط المعاهدة بالنسبة لها . وأخيراً فإن من بين مسوغات التصديق الرغبة في تقاضي ما يحتمل التملل به من أعذار بعد التوقيع بمقولة تتجاوز المناوئين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسئولية دولية ، ولكن لا يلحق المعاهدة في هذه الحال وصف النفاذ . فالتصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة بل هو الإعلان الحقيقي لإرادة الدولة في الالتزام بأحكام المعاهدة وهو الذي يحدد اللحظة التي تصبح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك إجراء شكلي تستكمل به عملية التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فلكي ينتج التصديق آثاره القانونية في الدائرة الدولية يجب أن تلم به الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة . ويتحقق هذا التلم ، في حالة المعاهدات الثنائية ، عن طريق تبادل الوثائق التي تقيد التصديق . أما في حالة المعاهدات الجماعية فيتم عن طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هي في العادة الدولة التي تم التوقيع في إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذي تدخل به المعاهدة في دور التنفيذ الدولي .

انظر : دكتور حامد سلطان ص ٢١٤ - ٢٢٠ ، دكتور محمد حافظ غانم ص ٢٢٦ .

استندت فرنسا وروسيا في هذا الطلب إلى خطورة الحق الذي تقرر لبريطانيا في الاتفاقية من حيث السماح لها بالعودة إلى احتلال مصر^(١). وعلنت حكومتا هاتين الدولتين أن اتفاقية الجلاء لم تتضمن أية ميزة لتركيا بل ضحى السلطان فيها بحقوقه لبريطانيا فأشركها معه في حكم مصر^(٢)، وأن اتفاقية الجلاء ليست إلا معاهدة تحالف في صالح الحليف الأقوى وهو بريطانيا، وإذا أصدر السلطان تصديقه على الاتفاقية فلن تكون تركيا دولة محايدة في نظر الدول^(٣)، وسيكون رد الفعل هو أن تقوم فرنسا باحتلال سوريا وتقوم روسيا باحتلال أرمينيا^(٤). وأذاعت وكالة هافاس للأنباء عدة برقيات، يقول السير هنري درمندولف إن المصدر الأعظم قد أطلعه عليها، وكانت تجمع على أن حشوداً عسكرية روسية تتجمع على طول الحدود التركية من ناحية أرمينيا^(٥).

وظهر التكتل الدولي بصورة أخرى تختلف عن الصورة التي كان عليها في اجتماعات لجنة باريس سنة ١٨٨٥. إذ وقفت المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وهي دول التحالف الثلاثي تؤيد اتفاقية الجلاء وتحث السلطان على التصديق عليها^(٦). وقد

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ أنظر الوثائق التالية على سبيل المثال لا الحصر :

٩٠، ٩١، ١١، ١٢، ١٣، ١٧، ٢١

وانظر أيضاً من الوثائق الفرنسية :

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI. docs. nos. 534-535-537-546-550.

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٧ من سير هنري درمندولف

إلى لورد سالسبوري. يرا في ٢٧ من مايو ١٨٨٧ وثيقة رقم ١٢ من ولف إلى سالسبوري. ترايبيا

Therapia في ٤ من يونيو ١٨٨٧

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٤٩ من ولف إلى سالسبوري.

ترايبيا في ٩ من يوليو ١٨٨٧

(٤) المصدر السابق. وثيقة رقم ٤٥ من ولف إلى سالسبوري. القسطنطينية في ٩ من يوليو ١٨٨٧

وثيقة رقم ٥٠ من ولف إلى سالسبوري. ترايبيا في ١١ من يوليو ١٨٨٧

(٥) المصدر السابق. وثيقة رقم ٣٣ من ولف إلى سالسبوري. القسطنطينية في ٣٠ من يونيو ١٨٨٧

(٦) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧

وثيقة رقم ٥٦ من ولف إلى سالسبوري. ترايبيا في ١٥ من يوليو ١٨٨٧

وثيقة رقم ٦١ من سالسبوري إلى سفراء بريطانيا في فينابورلين وروما بتاريخ ٢٢ من يوليو ١٨٨٧

وثيقة رقم ٦٢ من سالسبوري إلى ولف بتاريخ ٢٢ من يوليو ١٨٨٧

هددته ألمانيا بأنه إذا امتنع عن التصديق فإن الاحتلال البريطاني سيظل قائماً على مصر، وستقوم إيطاليا باحتلال شاطئ البحر الأحمر بموافقة الإنجليز^(١). بينما وقعت فرنسا وروسيا تضافاً على السلطان ليحجم عن التصديق عليها، وكان أن أذعن لهاتين الدولتين وامتنع عن التصديق فزعاً من التهديد الفرنسي الروسي، وغادر سير هنري درمندولف القسطنطينية في ١٥ من يوليو ١٨٨٧ عائداً إلى بلاده، وفقدت اتفاقية الجلاء قوتها القانونية واعتبرت كأن لم تكن. وما يذكر أن السلطان عبد الحميد انحل اعذاراً وأهية كي يتجنب مقابلة سير هنري درمندولف قبل رحيله خشية أن تمتد الحكومتان الفرنسية والروسية أن السلطان قد أعطى سير واثم اثناء المقابلة وعداً شفوياً بالتصديق على الاتفاقية^(٢).

أما في لندن فقد طلب السفير الفرنسي في ١٩ من مارس ١٨٨٧ — كما مر بنا — من وزير الخارجية البريطانية ربط مسألة قناة السويس بمسألة إيراد الجديدة. وإذا كانت اتفاقية الجلاء عن مصر قد وقعت في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ — أي قبل هذا الطلب بشهرين تقريباً — فإن فرنسا كانت على علم بمراحل مفاوضات هذه الاتفاقية وبما كانت تبتته بريطانيا لتسوية مسألة قناة السويس، لأن رجال الباب العالي كانوا يرجعون إلى فرنسا وكذلك إلى روسيا في المسائل الهامة التي تناولتها مفاوضات الجلاء^(٣). فأرادت فرنسا تحويل مسألة القناة عن الطريق الذي حاولت بريطانيا رسمه لها في اتفاقية الجلاء وإعادة هذه المسألة إلى الطريق الذي كانت قد رسمته فرنسا لها وهو الطريق الجماعي الأوروبي.

ولم يشأ لورد سالسبوري وزير الخارجية البريطانية أن يقيد حكومته برد قاطع على هذا الطلب انتظاراً لما تسفر عنه مفاوضات الجلاء مع الدولة العثمانية، فلما فشلت اتفاقية الجلاء بسبب امتناع السلطان عن التصديق عليها، وغادر سير هنري

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 561. Télégramme confidentiel (1) Flourens, Ministre des Aff. Etr. à M. de Laboulaye, Ambassadeur de France à Saint-Petersbourg, en date du 8 juillet, 1887.

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٥٤ من سالسبوري إلى هواتي W. White السفير البريطاني في القسطنطينية بتاريخ ١٧ من يوليو ١٨٨٧
(٣) دكتور محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه

درمندولف القسطنطينية في ١٥ من يوليو ١٨٨٧ عائداً إلى بلاده، صارع أعضاء مجلس اللوردات بهذا الاتجاه الفرنسي في جلسة أول أغسطس ١٨٨٧، حين وجه إليه لورد روزبرى وزير الخارجية السابق في وزارة جلاستون الثالثة^(١) ومن حزب المعارضة في مجلس اللوردات سؤالاً جاء فيه أن شعوراً عميقاً من القلق والتخوف يسود البلاد نتيجة لوجود القوات الفرنسية المستمرة في جزر إيريد الجديدة^(٢). فرد سالسبورى بأنه يشاطر لورد روزبرى شعوره، وإنه لينظر بأسف بالغ إلى هذا الاحتلال المستمر لإيريد الجديدة، وأن الصعوبة التي تواجهها الحكومة البريطانية هي أنها لا تظفر برد على المذكرات التي بعثت بها إلى باريس. وقد وجهت الحكومة البريطانية في هذه المذكرات. نظر الحكومة الفرنسية إلى أن الموقف قد غدا شائكاً ودقيقاً في إنجلترا والمستعمرات البريطانية على السواء. وأبدى رجاءه في أن تضع الحكومة الفرنسية، قبل مضي فترة طويلة، موضع التنفيذ الآراء التي عبرت عنها والتي لا يشك في صحتها وجديتها. ثم مضى رئيس الوزراء فقال إنه من الإنصاف للحكومة الفرنسية أن يذكر أنها قد أبدت رغبتها في أن تسير محادثات مسألة إيريد الجديدة جنباً إلى جنب مع مفاوضات قناة السويس، وهي المفاوضات التي بلغت مرحلة من التقدم حين كان لورد روزبرى موجه السؤال وزيراً للخارجية. وقال رئيس الوزراء إنه ليس للحكومة البريطانية اعتراض على هذه الرغبة، ولكن يكون لزاماً عليها أن تعترض عليها إذا نجم عن مفاوضات قناة السويس أى تأخير في تسوية مسألة إيريد الجديدة^(٣).

وكان لهذا التصريح صدهاء في مجلس العموم إذ خشي أحد الأعضاء وهو بريس Bryce أن يمتد ربط مسألة قناة السويس وإيريد الجديدة بحيث يشمل هذا الربط

(١) كان لورد روزبرى قد دخل قبل ذلك في مارس ١٨٨٥ وزارة جلاستون الثانية التي تولت الحكم في أبريل ١٨٨٠ وشغل فيها منصب حامل أختام الملكة.

(٢) مضطبة مجلس اللوردات. جلسة أول أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص من ٦٧٥ - ٦٧٦ في

Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) It is fair to the French Government that I should say that they have wished to conduct side by side with this matter the negotiations in regard to the the Suez Canal which, I think, were in progress when the Noble Earl was in office. We have no objection to this ; but we must demur to these latter negotiations being the cause of any delay in regard to the former». ibid.

المسألة المصرية من كافة نواحيها من حيث جلاء القوات البريطانية عنها والبحث في مستقبل مصر بعد الجلاء ، على أساس أن بحث هذه المسائل يستغرق وقتاً طويلاً للغاية يظل خلاله الاحتلال الفرنسي لإبريد الجديدة قائماً . فوجه هذا النائب سؤالاً يحمل هذه المعاني إلى الحكومة البريطانية وطلب فيه كذلك أن تستمر الحكومة في الضغط على الحكومة الفرنسية للوصول إلى تسوية سريعة ومنفصلة لإبريد الجديدة^(١) . وقد أجاب على هذا السؤال جيمس فرجسون James Fergusson وكيل وزارة الخارجية ، فنفي أن الحكومة الفرنسية قد طلبت أن تربط بين المسألة المصرية عامة وبين إبريد الجديدة ، وقال إنها قصرت رغبةً على الربط بين مسألتين قناة السويس وإبريد الجديدة . ومضى يقول إذا كانت الحكومة البريطانية لانتعزض على مناقشة هاتين المسألتين : قناة السويس وإبريد الجديدة في وقت واحد ، فإنها لا توافق بأية حال من الأحوال على أن يؤجل انسحاب القوات الفرنسية من إبريد الجديدة حتى يبرم الاتفاق الخاص بحيدة قناة السويس^(٢) ؛ ثم قال إن الحكومة البريطانية تضغط على الحكومة الفرنسية للإتياء من مفاوضات تتعلق بموضوع تتفق عليه الحكومتان من حيث المبدأ اتفاقاً تاماً . واختتم كلمته بقوله إن آخر مرة وصل فيها إلى علم الحكومة البريطانية نبأ إرسال مذبذبين فرنسيين إلى كالوني

(١) مضبطة مجلس العموم . جلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٧ الجزء ٣١٨ ص ١٧١٣ - ١٧١٥

في Hansard's Parliamentary Debates

(٢) لا شك أن وكيل وزارة الخارجية البريطانية قد وقع في خطأ وهو يدل بإجابته حين ذكر عبارة حيدة قناة السويس . لأن وزارة الخارجية البريطانية كانت قد أرسلت إلى الوفد البريطاني في لجنة باريس الدولية تعليقات واضحة صريحة محددة بتجنب ذكر عبارة حيدة قناة السويس في المناقشات وفي صياغة مواد المعاهدة وأن يستبدل بهذه العبارة عبارة أخرى هي وحرية الملاحة في قناة السويس . وكان مما جاء في أقواله خاصاً بالربط بين مسألتين قناة السويس وإبريد الجديدة وشروط هذا الربط

«The French Government have desired that the negotiations in regard to the New Hebrides and the Suez Canal should proceed *pari passu* ; but have not sought to associate the former with questions relating to Egypt generally. Her Majesty's Government, while not objecting to discuss the two subjects at the same time, have in no way consented that the withdrawal of the French troops from the New Hebrides should be postponed until an agreement had been arrived at for the neutralization of the Suez Canal. Her Majesty's Government are pressing upon the French Government that the negotiations should be brought to a close in respect to this subject, upon which the two Governments are perfectly agreed in principle ...»
ibid.

الجديدة كان في شهر نوفمبر ١٨٨٦ . اما إيريد الجديدة فان حركة تهجير الفرنسيين إليها من فرنسا مستمرة وقائمة على قدم وساق .

* * *

وإذا كانت الحكومة الفرنسية قد رأت أن تربط بين مسألة قناة السويس وإيريد الجديدة فان الفرنسيين المقيمين في مصر لم يروا هذا الرأي . لقد طالبوا بجلاء بريطانيا عن مصر بجلاء ناجزاً غير مشروط في مقابل جلاء فرنسا عن إيريد الجديدة . وذهبوا إلى أبعد من ذلك فطالبوا بأن يكون انسحاب الإنجليز من مصر سابقاً لانسحاب الفرنسيين من إيريد الجديدة ، وبعبارة أخرى رأوا أن يربطوا بين المسألة المصرية برمتها وبين إيريد الجديدة .

ولعل من الأمور الملفتة للنظر أن يكون الفرنسيون في مصر أسبق من الحكومة الفرنسية في المطالبة بالأخذ بهذا الربط . كانت تصدر في مصر جريدة فرنسية لها زعامة على الصحف الأجنبية التي كانت تصدر فيها ، وكانت تسمى البوسفور اجبسيان Le Bosphore Egyptien نشرت في اول يوليو ١٨٨٦ مقالا بعنوان « مصر وإيريد الجديدة » L'Egypte et les Nouvelles Hebrides. ^(١) نددت فيه بموقف الحكومة البريطانية من الاحتلال الفرنسي لجزر إيريد الجديدة . وقالت إن هذا الاحتلال لا يزال يثير في بريطانيا فورة عارمة من الغضب ، ويصعب على الانسان أن يفهم مبرراتها على الرغم من التصريحات المطمئنة التي تصدر عن الحكومة الفرنسية . إن بريطانيا تتمسك فيما يختص بإيريد الجديدة باتفاق سنة ١٨٧٨ وهو اتفاق قديم مضى عليه ثمانى سنوات تغيرت فيها الظروف التي عقد في ظلها تغيراً جوهرياً ^(٢)

(١) العدد ١٣٨١ مجموعة السنة الثامنة محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٩٢٠ Pét

(٢) تشير الإجابة إلى نظرية معروفة في القانون الدولي العام تسمى نظرية تغير الظروف ومؤداها أن كل معاهدة غير محدودة الأجل تحوى شرطاً ضمنياً لاستمرارها يطلق عليه Rebus sic Stantibus أى بقاء الظروف على حالها ، فإذا استمرت هذه الظروف التي أبرمت المعاهدة في ظلها بقيت المعاهدة نافذة المفعول . ولكن إذا تغيرت هذه الظروف جاز للولة إما أن تتحلل من أحكامها بإرادتها المنفردة ، وإما أن تطالب الطرف الآخر بإبطال المعاهدة أو تعديلها .

ولا تخلو هذه النظرية من خطورة ، إذ يمكن أن تتحللها الدول ذات المطامع ذرية للتكتل بتعهداتها ، فتدعى تغير الظروف للتخلص من معاهدة هي طرف فيها دون أن يكون هناك تغير حقيق يبرر تصرفها ، وهو أمر يؤدي إلى عدم استقرار العلاقات الدولية ويهدم قيمة المعاهدات ويحل القوة محل القانون . ولذلك يضع فقهاء القانون الدولي العام شروطاً لتطبيق نظرية تغير الظروف منها أن تحاول الدولة الإدخول =

كما نسخته الانقذات اللاحقة الخاصة بالإقيانوسية والتي عقدت سواء بين فرنسا والمانيا أو بين بريطانيا والمانيا . والسفير البريطاني في باريس يتردد على وزير الخارجية الفرنسية يطالبه في جرأة وعدم استحياء بانسحاب فرنسا من إريد الجديدة استناداً إلى اتفاق سنة ١٨٧٨ مع أن بريطانيا هي أكثر الدول اخلاا بجهداتها الدولية . وأشارت الجريدة إلى أن فرنسا قد أقدمت على احتلال جزر إريد الجديدة للمحافظة على أرواح وحقوق المستوطنين الفرنسيين بها ، وانه ليست في هذه الجزر أية سلطة قانونية معترف بها . وكانت الجريدة تشير بهذا القول إلى النظرية التي ابتدعها الاستعمار وهي نظرية الملك المباح الذي لا تمتد إليه ولاية دولة أخرى Res Nullius^(١) .

== في مفاوضات مع أطراف المعاهدة بقصد اثبات عدم انسجام المعاهدة مع الظروف الجديدة، ناذاً تعلق اتفاق الطرفين على إلغاء المعاهدة أو تعديلها لتثير الظروف أمكن عرض الأمر على الهيئات الدولية . ومع ذلك يرى بعض الفقهاء أنه من الجائز فسخ المعاهدة بالإرادة المنفردة لإحدى الدول الأطراف متى تغيرت ظروف عقدها تغيراً جوهرياً وذلك بدون حاجة إلى حصول اتفاق بين أطراف المعاهدة على إلغائها أو تعديلها ونكتفى هنا بأن نذكر مثلين من التاريخ الأوروبي المعاصر :

أولاً : أعلنت روسيا في ٣١ من أكتوبر ١٨٧٠ أنها غير مقيدة بنصوص المواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ من معاهدة باريس المنقذة في ٣٠ من مارس ١٨٥٦ التي كانت تفرض حالة الحياد في البحر الأسود وتمنع روسيا من تحصين موانئ هذا البحر وتكوين أسطول حربي لها فيه . واستندت روسيا في هذا التصرف إلى تطور ظروف الحرب البحرية وإلى فقدان التوازن الدول بعد انتصار ألمانيا على فرنسا سنة ١٨٧٠ ثانياً : حادث آخر وقع قبل ظهور مقال جريدة اليوسفور بأسبوع واحد وهو إلغاء روسيا المادة ٥٩ من معاهدة برلين المنقذة في ١٣ من يوليو ١٨٧٨ التي جعلت ميناء بطوم ميناء حراً . وقد تم هذا الإلغاء بالإرادة المنفردة بمرسوم أصدرته روسيا في ٢٣ من يوليو ١٨٨٦

انظر دكتور حامد سلطان مرجع سبق ذكره ص ص ٢٧٣ - ٢٨٥

دكتور محمد حافظ غانم مبادئ القانون الدولي العام دراسة لضوابطه ولأحكامه العامة طبعة ١٩٦١

ص ٥٤٦-٥٤٩

دكتور على صادق أبو هيف ٢٦٩ - ٢٧١

(١) تقول هذه النظرية إن المناطق المجهولة والتي تسكنها شعوب مختلفة أو قبائل متفرقة منزلة عن ركب الحياة تعتبر في حكم المناطق المهجورة التي لا يعرف لها صاحب، وتصعب هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع يقواتها الملحمة أو ببعض أفراد منها أن ترفع رايها فوق ربوعها ما دام الشعب الذي يسكنها ليس شعباً أوريبياً مسيحياً . وهذا قيد جوهري لم يرفع في أية حالة من الحالات . وقد وضع مؤتمر برلين الأفريق (١٥ نوفمبر ١٨٨٤ - ٢٦ فبراير ١٨٨٥) عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يحدث جميع آثاره القانونية في المجال الدولي. وكان من أهم هذه الشروط توفر شرط الحياة بشرط ==

ومضت الجريدة في مقالها تقول إن لورد روزبري وزير خارجية بريطانيا يتكلم عن احتلال فرنسا لإبريد الجديدة . حسناً !!! وماذا عن احتلال بريطانيا لمصر ؟ وتساءلت الجريدة عما إذا كان وزير الخارجية قد تناسى التصريحات المكرورة التي أدلى بها رئيسه جلادستون رئيس الوزارة البريطانية عن جلاء بريطانيا عن مصر ؟ وإذا كانت هذه التصريحات قد تنوسيت فإن الفرنسيين على استعداد لتذكيره بها . وذكرت الجريدة مثلاً لهذه التصريحات ، فقالت إن المسألة المصرية قد أثبتت في مجلس العموم بمجلسة ٩ من أغسطس ١٨٨٣ . وصرح جلادستون بقوله إن بريطانيا لا تعزم ضم مصر إليها ، وإن القوات البريطانية ستجلب عنها حالما يعود الأمن والنظام إليها . وتساءلت الجريدة ألم يتحقق هذا الشرط إلى اليوم ؟ واختتمت مقالها بقولها أيها السادة الانجليز : انسحبوا أولاً من مصر .

* * *

هذا الأسلوب الفرنسي في الربط بين مسألة قناة السويس وإبريد الجديدة قد نجح في حمل الحكومة البريطانية على الإسراع في تسوية مسألة القناة! فقد قدمت هذه الحكومة في ٢٣ من سبتمبر ١٨٨٧ إلى الحكومة الفرنسية مشروعاً لاتفاقية تنظم حرية المرور في قناة السويس وطلبت الوقوف على رأيها فيه (١) ، وكان لهذا المشروع خطوة نحو التقريب بين وجهات النظر الفرنسية والبريطانية حول المسائل التي كانت مثار خلاف بين الحكومتين .

== الإدارة. أما شرط الحياة فهو العنصر المادي إذا ما وضعت الدولة يدها فعلاً على الإقليم سواء برغم إعلانها عليه أو بإصدار إعلان يحمل هذا المعنى بشرط أن تترك الدولة على الإقليم ما يكفل لها العمل على احترام سلطة العلم أو تنفيذ الإعلان . ولا ضرورة للاتفاق مع سكان الإقليم الأصليين على هذا الأمر إذ أن هذا الاتفاق - حتى في حالة انقاده - لا يوجب أثراً قانونياً . وأما الشرط الثاني وهو شرط الإدارة فلا بد أن يتوفر فيه أمران أولهما ثبوت النية على أن الدولة تلتزم بإدخال الإقليم في ولايتها، والثاني هو إقامة إدارة - في صورة ما - على الإقليم لإظهار أن الدولة التي تحوز الإقليم تنوي أن تدير هذا الإقليم الذي أدخلته في ولايتها . وقد أضيف الشرط الأخير لتضاد النتائج التي كانت ترتب على الحياة الرمزية قبل القرن الثامن عشر .

انظر دكتور حامد سلطان ص ٧٠٨ - ٧١٦

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ مرفق الوثيقة رقم ٣٦ من السليوري إلى اجرتون الوزير بالسفارة البريطانية في باريس . والوثيقة مؤرخة في ٢٣ من سبتمبر ١٨٨٧

وقد رفضت الحكومة الفرنسية هذا المشروع معتذرة بأنها لا تستطيع قبوله من الناحية الشككية ، وقالت إنها تفضل وضع مشروع للمعاهدة على نسق المشروع الذي صاغته لجنة باريس الدولية^(١) .

وكان أن سافر إلى باريس لورد سالسبوري رئيس الوزارة البريطانية ووزير الخارجية في شهر أكتوبر ١٨٨٧ ودارت محادثات سياسية بينه وبين فلورانس Flourens وزير الخارجية الفرنسية أسفرت عن اتفاق الحكومتين على مشروع للمعاهدة سويت فيه المسائل التي كانت لا تزال مثار نزاع بينهما^(٢) . وتم الاتفاق على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية بتقديم هذا المشروع إلى الحكومة الفرنسية ، ثم تتولى الأخيرة تبليغه بصفة رسمية إلى حكومات الدول التي كانت ممثلة في لجنة باريس الدولية للموافقة عليه^(٣) . وأوفى سالسبوري بوعده فأرسل مشروع المعاهدة في صياغتها الجديدة إلى باريس في ٢١ من أكتوبر ١٨٨٧

وهذا المشروع أكثر تفصيلاً وأهمية من المشروع الموجز ، فهو يقع في ست عشرة مادة عدا المقدمة ، ويمتاز بتنسيق الموضوعات وإفراد مادة مستقلة لكل موضوع تقريباً . أما أهميته فترجع إلى أنه أول مشروع للمعاهدة المنشودة تلتقي عنده الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعد أن امتد الخلاف بينهما سنين عدداً بخصوص مسألة القناة ، كما أنه غدا الأساس الذي صيغت على نسقه اتفاقية الآستانة في ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٣٧ من سالسبوري إلى اجرتون

ومؤرخة في ٢٦ من سبتمبر ١٨٨٧

Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie, t. VI, doc. no. 629. Télégramme de Flourens, (٢)

Ministre des Affaires Etrangères aux Représentants Diplomatiques de France à Berlin, Saint-Pétersbourg, Vienne, Madrid, La Haye, en date du 25 octobre, 1887.

وقد كان ما جاء في هذه البرقية :

Pendant le récent séjour de Lord Salisbury en France les derniers points laissés en suspens dans le projet de neutralisation du Canal de Suez ont été heureusement réglés entre Sa Seigneurie et moi. Les termes de cet accord qui répond, croyons-nous, aux intentions des Puissances représentées à la Commission de Paris en 1885 viennent d'être arrêtés. Ils doivent être soumis à ces Puissances dont l'adhésion est nécessaire et qui sont appelées à en bénéficier dans les mêmes conditions que la France et l'Angleterre ...

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ . الوثائق رقم ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١

وقد أرفق سالسبوري بمشروع المعاهدة مذكرتين مؤرختين في ٢١ من أكتوبر ١٨٨٧ وتضمنت المذكرة الأولى^(١) مسألتين هامتين هما : المطالبة بضرورة موافقة السلطان والحكومات الأوربية على مشروع المعاهدة حتى تكتسب هذه المعاهدة الصفة القانونية وتصبح نافذة في دائرة القانون الدولي . والمسألة الثانية هي تذكير الحكومة الفرنسية بالتحفظ البريطاني الذي سبقت الإشارة إليه . وانطوت المذكرة الثانية على تفسيرات لبعض المواد العسكرية والسياسية التي وردت في مشروع الاتفاقية .

وقد قدم في ١٤ من نوفمبر ١٨٨٧ سفراء فرنسا في ألمانيا ، والنمسا والمجر ، وروسيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، ووزيها المفوض في هولندا ، مشروع المعاهدة إلى حكومات هذه الدول للموافقة عليها^(٢) . أما تركيا فقد قام مونتبلو Montebello السفير الفرنسي في القسطنطينية بتقديم المشروع إلى الباب العالي في ١٢ من نوفمبر سنة ١٨٨٧ . أي قبل الدول الأخرى بيومين ، من قبيل المجاملة للباب العالي^(٣) .

وقد أرفقت الحكومة الفرنسية بمشروع المعاهدة الذي قدمته إلى الحكومات الأوربية مذكرة ، تطلق الوثائق عليها لفظة منشور ، جاء فيها أن اللجنة الدولية التي اجتمعت في سنة ١٨٨٥ لتنظيم استخدام قناة السويس قد فضت جلساتها قبل أن تفرغ من إنجاز جميع أعمالها . ولما كانت هذه اللجنة قد عقدت اجتماعاتها في باريس فقد رأت الحكومة الفرنسية أنه غدا لزاما عليها أن تستطلع رأى الحكومات الأخرى في نسوية المسائل التي ظلت معلقة ، وقد وضح أنها مسائل قليلة العدد ، وأنه من اليسير تسويتها إذا التزم الجميع بالمبادئ التي سبق أن وافقت عليها جميع الدول .

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٣٨ من سالسبوري إلى اجرتون ومؤرخة في ٢١ من أكتوبر ١٨٨٥

(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٥٦ بعنوان :

Note verbale communicated to the Marquis of Salisbury by M. Waddington, November, 13, 1887.

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VI doc. no. 634

وانظر أيضا الكتاب الأزرق رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٥٥ من سير هوايت Sir w. White

السفير البريطاني في القسطنطينية إلى سالسبوري عبارة عن برقية مؤرخة في ١٢ من نوفمبر ١٨٨٧

ومضت المذكرة تقول إن الحكومات الأوربية التي اتصلت بها الحكومة الفرنسية قد أجابت بأن الوصول إلى تسوية لمسألة قناة السويس قد بات أمراً ذا أهمية قصوى في السياسة الدولية ، وأن عبء هذه التسوية يقع على عاتق حكومتى فرنسا وبريطانيا بوجه خاص ، وأن الحكومات الأوربية سوف توافق على التسوية التي يستقر عليها رأى هاتين الحكومتين .

وأشارت المذكرة إلى الجهود التي بذلتها الحكومة الفرنسية منذ ذلك الوقت لتسوية الموضوعات التي كانت محل خلاف حتى استطاعت أخيراً أن تحقق هذا الهدف ، وغدا الاتفاق تاماً بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية على جميع المسائل المتعلقة .

وجاء في ختام المذكرة أن الحكومة البريطانية قد اقترحت أن تتولى الحكومة الفرنسية ، باسم الحكومتين ، تقديم مشروع المعاهدة إلى الحكومات التي كانت ممثلة في لجنة باريس لدراسته والموافقة عليه إذا وجدت أنه مطابق للبادئ التي استرشدت بها لجنة باريس والتي تحقق الهدف الأسمى وهو حرية الملاحة في قناة السويس في جميع الأوقات^(١) .

وقد أضيفت إلى المذكرة الموجهة إلى الدولة العثمانية فقرة ، وافق عليها سالسبورى ، جاء فيها أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية تعلقان أهمية كبيرة على موافقة الباب العالي على مشروع الاتفاقية ، وأن هاتين الحكومتين حريصتان على احترام حقوق الباب العالي والمحافظة عليها . وقامت وزارة الخارجية البريطانية من ناحيتها بتأييد مشروع الاتفاقية لدى الحكومات الأوربية التي اشتركت في لجنة باريس وطلبت إليها الموافقة عليه^(٢) . كما أبلغتها في نفس الوقت التحفظ البريطاني على الاتفاقية^(٣) .

يتضح مما سبق أن الربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة هو الذى

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ١ لسنة ١٨٨٨ وثيقة رقم ٤٩

(٢) المصدر السابق وثائق رقم ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١

(٣) وثيقة رقم ٥٣ في المصدر السابق وهي بعنوان .

The Marquis of Salisbury to Her Majesty's Representatives at Berlin, Vienna, Madrid, Rome, the Hague, St. Petersburg, Constantinople and Cairo.

عجل بتسوية المسألتين في وقت واحد أو في وقت متقارب . كان لفرنسا مصلحة في إبرام اتفاقية القناة اعتقاداً منها أن هذه الاتفاقية خطوة لا مناص منها تؤدي إلى جلاء بريطانيا عن مصر . وكان لبريطانيا مصلحة في أن تنسحب فرنسا في أمد وجيز من جزر إيريدي الجديدة لتقضي على الأخطار التي تصورها غلاة المستعمرين البريطانيين أنها تهدد الممتلكات البريطانية في الإقليات في فرنسا في توطيد أقدامها في هذه الجزر . وهذا الربط أيضاً هو الذي حمل الحكومة البريطانية على نبذ سياسة التسوية والمحاولة في تسوية مسألة القناة بعد اجتماعات لجنة باريس الدولية ، لأن مناقشات هذه اللجنة قد تركت أثراً سيئاً في دوائر لندن بعد أن نجحت فرنسا في إيجاد تكتل دولي ضدها داخل اللجنة . ونتيجة لهذا الربط انتقلت محادثات قناة السويس من مرحلة الركود حيناً والتعثر حيناً آخر إلى مرحلة جديدة اكتسبت فيها طابع المسألة الدولية العاجلة ، وجعلت سالسبورى وزير الخارجية البريطانية يتحدث في باريس في مفاوضات مباشرة مع فلورانس وزير خارجية فرنسا .

وفي الواقع انتهت المفاوضات الخاصة بهاتين المسألتين بين باريس ولندن في وقت واحد . وتولت الحكومة الفرنسية تبليغ مشروع معاهدة القناة إلى حكومات الدول الأوربية في ١٤ من نوفمبر ١٨٨٧ للموافقة عليها — كما مر بنا — تمهيداً لاتخاذ الاجراءات التكميلية لإبرامها ثم التصديق عليها ، حتى إذا اطمأنت الحكومة الفرنسية إلى مسألة القناة انصرفت إلى إتمام الاتفاق الخاص بإيريدي الجديدة وقررت منه في خلال يومين ، إذ تم التوقيع عليه بينها وبين بريطانيا في ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ . وفي هذا الاتفاق وافقت فرنسا على الجلاء عن جزر إيريدي الجديدة في خلال أربعة أشهر من تاريخ التوقيع عليه ، في مقابل موافقة بريطانيا على أن تعلن فرنسا حمايتها على جزر تحت الريح Les Iles sous le Vent ، كما نص في هذا الاتفاق على إنشاء لجنة بحرية مختلطة Commission Navale Mixte تتكون من ضباط بحريين فرنسيين وبريطانيين يتولون أعمال الشرطة في جزر إيريدي الجديدة ، بحجة حماية المستوطنين الفرنسيين والبريطانيين من حوادث الاعتداء التي يتعرضون لها من السكان الأصليين .

وإذا كانت الدبلوماسية الفرنسية قد نجحت في الربط بين مسألتى قناة السويس وإيريدي الجديدة بحيث تمت تسوية هاتين المسألتين في وقت واحد تقريباً ،

فان الدبلوماسية البريطانية قد أثبتت تفوقها على الدبلوماسية الفرنسية . فمعاهدة قناة السويس كانت أمام التحفظ البريطاني غير نافذة المقبول ، كما سئى ، وأما اتفاق إيريد الجديدة فقد حققت فيه الدبلوماسية البريطانية نصراً حقيقياً ، لأنها استطاعت أن تتسلل إلى هذه الجزر تحت ستار اللجنة البحرية المختلطة ، وأن تقف على قدم المساواة مع فرنسا في كل حق ادعته الأخيرة لنفسها في هذا الأرخبيل . بل إن هذا الاتفاق يعتبر بداية قيام الحكم الثنائى condominium الفرنسى البريطانى الذى تخضع له جزر إيريد الجديدة حتى اليوم . أما اعتراف بريطانيا بضم جزر تحت الريح إلى فرنسا ، فان هذا الاعتراف كان إقراراً للأمر الواقع ، لأن هذه الجزر كانت منطقة تقود فرنسية منذ سنوات طويلة سابقة على عقد الاتفاق البريطانى الفرنسى في ١٦ من نوفمبر سنة ١٨٨٧ . فقد استولت فرنسا في عام ١٨٨٠ على عدة جزر في المحيط الهادى كان من بينها جزر تحت الريح وجزيرة هواهين Houahine ورايتيا Raiatea بحجة أن السكان الأصليين في هذه الجزر قد طلبوا حماية البحرية الفرنسية لهم ^(١) . ويعلق بعض الفرنسيين على الاتفاق البريطانى الفرنسى المؤرخ في ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ تعليقاً لاذعاً ، إذ يقول إن بريطانيا قد حصلت بمقتضى هذا الاتفاق على امتيازات معينة صريحة في مقابل تنازل سلبى Abandons Négatifs ^(٢) .

وإذا كانت التسوية الأولى لمسألة إيريد الجديد قد تمت بإبرام الاتفاق البريطانى الفرنسى في ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ فان تسوية مسألة قناة السويس قد تمت بعقد اتفاقية القسطنطينية في ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ . ولم يكن هذا التأخير الزمنى — وقد قارب السنة — مرده إلى أن الاتفاق الأول كان معاهدة ثنائية traité bilatéral أطرافها دولتان فقط بينما كان الاتفاق الثانى معاهدة جماعية traité collectif بلغ عدد الدول الأطراف فيها تسعاً . ولكن كان التأخير لأسباب أعمق من هذا بكثير .

لقد ساء عهد ميكايل باشا الصدر الأعظم وكذلك محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية أن تصل الحكومة الفرنسية إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية بخصوص قناة السويس التى هى من أهم جوانب المسألة المصرية في الوقت الذى حاربت فيه فرنسا اتفاقية

(١) Bourgeois Emile, ouvr. cit., t. IV, pp. 187-188 L'annexion par la France des Iles Sous-le-vent (1880) — Convention franco-anglaise du 16 novembre 1887.

(٢) Hanotaux G. : Histoire des Colonies Françaises etc, ouvr. cit., p. 488.

الجلء عن مصر والتي عقدت في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ . وندم السلطان على امتناعه عن التصديق على هذه الاتفاقية، وحاول استئناف المفاوضات لبعث هذه الاتفاقية أو اتفاقية أخرى على غرارها (١)، فرفضت الحكومة البريطانية . ورد لورد سالسبوري على العرض الذي تقدم به إليه رستم باشا السفير التركي في لندن بأن الاحتلال البريطاني لمصر يجب أن يطول الآن أمده حتى تطمئن الحكومة البريطانية إلى أن الحكومة المصرية قد بلغت من القوة والمقدرة حداً تستطيع معه مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية ومنعها . . . وإن مسئولية إطالة أمد الاحتلال يجب أن تقع على عاتق الحكومة العثمانية ، لأن بريطانيا قد فعلت كل ما في استطاعتها لتقصير أجل الاحتلال (٢).

لمس دى مونتبلو de Montebello السفير الفرنسي في القسطنطينية هذا الموقف الشائك ، وشعر أن الصدر الأعظم ووزير الخارجية العثمانية يريدان أن يثارا من فرنسا ، لأنها هي التي تسببت في إحباط اتفاقية الجلء عن مصر ، وأنهما يعملان بدورهما على إحباط اتفاقية قناة السويس ، وأنهما يثيران مخاوف السلطان من نتائج إقرار الاتفاقية بمقولة إنها تؤدي إلى تدعيم مركز الإنجليز على ضفاف النيل وإلى إطلاق يد الحديو في انتهاج السياسة التي تحلو له (٣) . وأخذ السفير على عاتقه تبديد مخاوف السلطان ، فأتخذ طريقه إليه في القصر سرياً ، وأوضح له أن الحكومة الفرنسية كانت تضع في اعتبارها الأول ، خلال المراحل التي مرت بها الاتفاقية المقترحة لقناة السويس ، المحافظة على مصالح الدولة العثمانية وتأكيد حقوق السيادة التي يتمتع بها سلطان تركيا على مصر . واستمع إليه السلطان ملياً ، وطلب أن يوافيه بنسخة خاصة من مشروع الاتفاقية ليدرسها على حدة . وقد أسرف السفير في تفاؤله فكتب إلى وزير خارجية فرنسا بقرره أنه استطاع أن يفصل بين السلطان وبين وزرائه ، وأن نصائحهم وآراءهم لا تلقى قبولا في نفس السلطان الذي أصبح لا يثق فيهم بعد أن اكتشف أنهم يتبعون حياله سياسة ملتوية . وقد أوغل السفير في هذا الاعتقاد

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٨ لسنة ١٨٨٧ وثيقة رقم ٥٩ من سالسبوري إلى هوايت السفير البريطاني في القسطنطينية ومؤرخة في ٢١ من يوليو ١٨٨٧

(٢) الوثيقة رقم ٥٤ في المصدر السابق .

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. Tome VI doc. no. 634. Lettre particulière. M. (٣) de Montebello à M. Flourens, en date du 4 novembre, 1887.

إيغالا بعيداً ، وظن أنه استطاع أن يضم السلطان إلى جانب فرنسا^(١) ، ولكنه كان في هذا الظن وإها ، لأن السلطان كان يبيت أمراً .

لاح للسلطان عبد الحميد أن يستغل مشروع اتفاقية قناة السويس في إنهاء الاحتلال البريطاني لمصر . فقد كان توافاً إلى إعادة فتح باب المفاوضات في هذا الصدد مع بريطانيا بعد أن فشلت اتفاقية الجلاء التي عقدها سير هنري درموندولف في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ ، وألح السلطان على الحكومة البريطانية إلحاحاً شديداً ، وتذرعت الأخيرة بأعذار شتى لتبرير إبقاء قواتها في مصر . فرأى عبد الحميد أن يتخذ من مسألة قناة السويس وسيلة للضغط على بريطانيا كي تبرم معه اتفاقاً يحقق جلاء القوات البريطانية عن مصر . وكانت خطته هي تجميد مشروع اتفاقية القناة بحجة أنه يتعذر تنفيذه إلا إذا تم اتفاق سابق بين الحكومتين البريطانية والعثمانية لإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر^(٢) . وبعبارة أخرى أراد السلطان عقد اتفاق للجلاء عن مصر أولاً ، ثم إبرام اتفاقية قناة السويس ثانياً .

وارتأت الحكومة الفرنسية من هذا الاتجاه الدبلوماسي العثماني ، ونظرت إليه من زاويتها الخاصة . فرأت انه يؤدي إلى تأجيل تسوية مسألة قناة السويس إلى أجل غير مسمى . . وكانت هذه المسألة من أمهات المسائل في السياسة الخارجية لفرنسا وموضع الاهتمام العميق من رؤساء وزاراتها ووزراء خارجيتها المتعاقبين . ولم يكن في الأفق القريب أو البعيد للسياسة الدولية وقتئذ احتمال يجعل بريطانيا تقدم على عقد اتفاق آخر مع الدولة العثمانية للجلاء عن مصر بعد ان امتنع السلطان عن التصديق على اتفاقية الجلاء التي أبرمت في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ . وفي نفس الوقت لم يكن يضير الحكومة البريطانية أن تتأخر تسوية مسألة القناة سنوات أخرى ، فقد حققت الدبلوماسية البريطانية أهدافها : نجحت في تسوية مسألة إيراد الجديدة ، ونجحت في حمل فرنسا على الجلاء عن هذه الجزر ، ونجحت في أن تشارك فرنسا مشاركة فعلية في حكم هذه الجزر تحت ستار اللجنة البحرية المختلطة . وهي ، بجانب هذه المكاسب التي حققتها

Ibid. (١)

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII. doc. on. 103 Télégramme très confidentiel (٢)

M. de Montebello Ambassadeur de France à Constantinople à M. Goblet, Ministre des Aff., Etr., on date du 21 avril, 1888.

تفرد بالسيطرة الفعلية على قناة السويس وتمتع بمركز ممتاز في مصر لا تدانيه فيه أية دولة أوربية أخرى . وحسبها أنها أبدت رغبتها في وضع نظام محدد ، تتفق على تفصيلاته الدول الكبرى ، يحقق حرية مرور جميع السفن في كل الأوقات عبر قناة السويس . وذلك في منشور اللورد جرافل المؤرخ في ٣ من يناير ١٨٨٣ وتأكد في تصريح لندن المؤرخ في ١٧ من مارس ١٨٨٥

نشطت الدبلوماسية الفرنسية نشاطا كبيرا لإحياء الخطة العثمانية ، وركزت جهودها في القسطنطينية وفي لندن على السواء . أرسل جوبليه Goblet وزير خارجية فرنسا برقيتين متعاقبتين بكل بعضهما بعضاً في يومى ١٨، ١٩ من أبريل سنة ١٨٨٨ إلى مونتبلو Montebello السفير الفرنسي في القسطنطينية وكان مما جاء فيها أن الحكومة الفرنسية تعتقد اعتقاداً راسخاً أن أفضل وسيلة للوصول إلى تسوية نهائية للمسألة المصرية هي الانتهاء أولاً من تسوية مسألة قناة السويس ، لأن اهتمام الدول الأوربية ، وبخاصة بريطانيا ، بمسألة القناة يفوق اهتمامها بغيرها من المسائل ، كما أن تسوية مسألة القناة يجعل إنجلترا تفقد أهم سبب تتذرع به لإبقاء قواتها في مصر . وأضاف وزير الخارجية إلى ذلك أن التسوية في تسوية مسألة القناة يدعم المركز الإنجليزي على ضفاف النيل إلى درجة يصبح معها من الصعب تعديل هذا المركز^(١).

وعلى أثر تلقى هاتين البرقيتين طلب دي مونتبلو de Montebello السفير الفرنسي مقابلة السلطان ، وتحدث إليه في ٢٠ من أبريل ١٨٨٨ حديثاً مزج فيه بين الإقناع والوعيد . فشرح للسلطان عبد الحميد المصلحة الواضحة والعاجلة التي تعود من المبادرة إلى تسوية مسألة القناة ، إذ أن هذه التسوية هي الطريق الطبيعي لإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر وحل المسألة المصرية برمتها حللاً نهائياً ، وأفاض السفير في شرح

(١) هذا هو نص البرقية الأولى وتاريخها ١٨ من أبريل ١٨٨٨ ومذكورة في هامش الوثيقة رقم ١٠٢

« Le Gouvernement de la République a toujours été convaincu que le meilleur moyen d'arriver au règlement définitif de la question d'Egypte était de régir d'abord la question du canal, parce que c'est celle qui intéresse le plus les Puissances européennes et notamment l'Angleterre. Lorsque cette question sera réglée, la présence des troupes anglaises en Egypte aura perdu sa meilleure raison d'être, à condition pourtant que des lenteurs interminables n'aient pas lassé la patience de tout le monde et affermi la situation des Anglais sur les bords du Nil à tel point qu'il ne sera plus possible de la modifier ».

Doc. Dipl. Fr. 1ère Serie t. VII. doc. no. 102.

الجهود التي بذلتها حكومته لدى الحكومة البريطانية للتغلب على الاعتراضات التي أثارها هذه الحكومة على بعض مواد الاتفاقية المقترحة لقناة السويس ، وخرج من ذلك إلى القول بأنه من المؤسف أن تضيق هباء هذه الجهود بسبب الاعتراضات التي يثيرها الباب العالي والتسويق الذي يعمد إليه ، ثم جنح السفير للتهديد فقال إنه إذا فشلت جهود الحكومة الفرنسية في إبرام اتفاقية القناة فستجد نفسها مضطرة إلى ترك الطريق الذي سلكته إلى ذلك الوقت ، وتبحث عن وسيلة أخرى تعيد بها التوازن الدولي في منطقة البحر المتوسط ^(١) .

وجاء هذا التهديد الفرنسي مؤيداً للمخاوف التي كانت تساور السلطان عبد الحميد من نيات عدوانية تضمهرها فرنسا وبريطانيا لاقتسام بعض الممتلكات العثمانية في الشرق العربي فيما بينهما . فقد حدث قبيل هذه المقابلة بشهرين تقريباً—وعلى وجه التحديد في ١٢ من فبراير ١٨٨٨ — أن استفسر السلطان عبد الحميد من نيلودوف Nélidoff السفير الروسي في القسطنطينية عما إذا كان هناك اتفاق قد تم بين فرنسا وبريطانيا، بشأن سوريا ومصر ، فتأخذ فرنسا سوريا في مقابل اعترافها بضم مصر إلى بريطانيا ، وعما إذا كان هناك مشروع يبحث في تلك الآونة لعقد محالفة بين فرنسا وبريطانيا وروسيا . وقد نفى السفير الروسي للسلطان هذا الخبر بشقيه ، وقد أسر السفير الروسي بهذا الحديث في اليوم التالي لزميله السفير الفرنسي فأبرق به إلى باريس ^(٢) .

أما في لندن فلم تكن جهود الدبلوماسية الفرنسية لإحباط الخطة العثمانية بأقل من جهودها في القسطنطينية ، بل لعل الدبلوماسية الفرنسية في العاصمة البريطانية قد خرجت بعض الشيء على المبدأ الأساسي الذي التزمت به فرنسا منذ الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢ ، كانت فرنسا من أشد الدول اعتراضاً على هذا الاحتلال وكانت لا تنفك عن مطالبة الحكومة البريطانية بالجلاء . ولكن في ربيع سنة ١٨٨٨ — ولعل هذا الأمر يحدث لأول مرة منذ بدء الاحتلال — غدت الحكومة الفرنسية

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII, doc. no 102 Télégramme confidentiel M. de (١)
Montebello à M. Goblet, Ministre des Aff., Etr., en date du 20 avril, 1880.

Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII., doc. no. 45. Télégramme très confidentiel. (٢)
M. de Montebello à M. Flourens, Ministre des Aff., Etr., en date du 13 février, 1888.

تصحح الحكومة البريطانية بالتزيت في الدخول في مفاوضات مع تركيا للجللاء عن مصر حتى يتم أولا التوقيع على اتفاقية القناة .

استدعت وزارة الخارجية الفرنسية إلى باريس في اوائل أبريل ١٨٨٨ وادجنجتون Waddington السفير الفرنسي في لندن لإجراء مشاورات معه بخصوص موقف الحكومة العثمانية من اتفاقية القناة (١) . وفي اثناء غيابه قابل جوسيرا Jusserand القائم بأعمال السفارة الفرنسية في لندن لورد سالسبورى وزير خارجية بريطانيا في ١١ من ابريل ١٨٨٨ واستفسر منه عما إذا كانت الحكومة البريطانية تعزم فتح باب المفاوضات من جديد مع الحكومة العثمانية لجللاء بريطانيا عن مصر . فنفى لورد سالسبورى وجود هذه النية لدى الحكومة البريطانية في ذلك الوقت متعللا بأن الدراويش يثيرون القلاقل على حدود مصر الجنوبية ، وأضاف إلى ذلك قوله إن فشل اتفاقية الجللاء عن مصر والتي عقدت في ٢٢ من مايو ١٨٨٧ كان حادثاً مؤلماً بالنسبة لبريطانيا ، ولذلك فإن الحكومة البريطانية لن تقدم على اجراء مفاوضات جديدة مع تركيا للجللاء عن مصر إلا إذا كانت على ثقة من أن المفاوضات أدنى إلى النجاح منها إلى الفشل . وخرج من ذلك إلى القول بأن الحكومة البريطانية رأت أن تترك مسألة الجللاء عن مصر لتنام (٢) Nous avons laissé dormir la question

وقد أوضح القائم بأعمال السفارة الفرنسية لوزير خارجية بريطانيا وجهة نظر حكومة باريس وهي صعوبة تسوية مسألتين مع السلطان عبد الحميد في وقت واحد ، وهما مسألة قناة السويس ومسألة الجللاء ، فعبد الحميد سلطان متردد لا يقر له قرار ، والطريقة المثلى هي معالجة كل مسألة منهما بعد الانتهاء من الأخرى ، وقال إن الحكومتين الفرنسية والبريطانية قد عرضتا على الباب العالي مسألة قناة السويس أولاً ، ويجدر بهاتين الحكومتين أن تركزا جهودهما لإبرام اتفاقية القناة ، وأبدى مخاوفه من أنه إذا بحثت مسألة أخرى في نفس الوقت مع مسألة القناة لأدى الموقف إلى مزيد من التعقيدات وإلى فشل المسألتين معاً . واختتم جوسيرا Jusserand حديثه

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII, docs. nos. 105 et 108.

(٢) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série t. VII doc. no. 98. Télégramme très confidentiel.
M. Jusserand Chargé d'Affaires de France à Londres à M. Goblet, Ministre des Aff. Etr., en date du 11 avril 1888.

بأن طلب إلى لورد سالسبوري أن يبعث بتعليقات عاجلة إلى السفير البريطاني في القسطنطينية كي يضاعف من جهوده في الضغط على الباب العالي لإبرام اتفاقية القناة^(١).

ولا يدل رأى الحكومة الفرنسية على أنها تشاطر الحكومة البريطانية رأيها مشاطرة تامة في وجوب تأجيل بحث مسألة الجلاء عن مصر ، فالحكومتان متفقتان في ذلك الوقت على إرجاء مفاوضات الجلاء. ولكن يلاحظ الفروق العميقة بين موقف الحكومتين من حيث دوافع التأجيل وتوقيت التأجيل : فالحكومة الفرنسية جد حريصة على الإسراع بعقد اتفاقية القناة حتى تقضى على المخاوف التي تذرعت بها بريطانيا لاحتلال مصر ، وبذلك ينهار سبب هام من الأسباب الرئيسية لبقاء الاحتلال في مصر ، وضاعت الحكومة الفرنسية ذرعا بالتسويق الذي يعمد إليه السلطان عبد الحميد والساسة الأتراك في إبرام اتفاقية القناة ، وأدركت أنهم يتبعون من هذا التسويق عقد اتفاقية للجلاء عن مصر أولاً ثم إبرام اتفاقية القناة ثانياً . وشعرت أيضاً أن الحكومة البريطانية لا تبدى رغبة صادقة في الجلاء الناجز غير الشروط . ومن هنا نبت لديها الفكرة ألا تدخل الحكومة البريطانية في مفاوضات مع الباب العالي للجلاء عن مصر إلا بعد إبرام اتفاقية القناة ، فالتأجيل في نظر الحكومة الفرنسية موقوف بالتوقيع على الاتفاقية المقترحة لقناة السويس والتصديق عليها . أما الحكومة البريطانية فتري تأجيل بحث مسألة الجلاء إلى أجل غير مسمى . ودوافع التأجيل لديها معروفة هي التمكين للاحتلال ، لأن الزمن كان حليفاً قوياً للانجليز ، فكلما طال أمد الاحتلال كلما رسخت أقدامهم في مصر . ولم يكن يضير الحكومة البريطانية في سنة ١٨٨٨ أن تشترك مع الحكومة الفرنسية في الضغط على الباب العالي أرضاء لفرنسا لتسوية مسألة القناة الأمر الذي يمهّد لتقارب جديد قد يحدث بين باريس ولندن بعد أن اكفهر الجوالسياسى بين البلدين منذ مطلع سنة ١٨٨٣ بسبب المسألة المصرية .

وليس أدل على اهتمام الحكومة الفرنسية بالقضاء على الخطة الدبلوماسية العثمانية من أنه لمساعد وادمنجتون السفير الفرنسي في لندن إلى مقر وظيفته اقترح في ٢٥

من أبريل ١٨٨٨ على لورد سالسبوري وزير الخارجية البريطانية التقط الأربع الآلية التي أصبحت تدور في نطاقها السياسة الفرنسية إزاء اتفاقية القناة والمسألة المصرية بوجه عام :

(أولاً) إن الحكومة الفرنسية لا تعارض إطلاقاً إجراء مفاوضات بين بريطانيا وتركيا بشأن جلاء القوات البريطانية عن مصر .

(ثانياً) ترى الحكومة الفرنسية ألا تبدأ مفاوضات الجلاء بين الحكومتين البريطانية والعثمانية قبل أن تسوى أولاً مسألة قناة السويس تسوية نهائية بإبرام الاتفاقية المقترحة .

(ثالثاً) تبذل الحكومتان الفرنسية والبريطانية جهودهما لدى الباب العالي لعقد اتفاقية القناة .

(رابعاً) تطلب الحكومة الفرنسية أن توقفها الحكومة البريطانية أولاً بأول على مراحل مفاوضات الجلاء (١) .

ولكن وزير الخارجية البريطانية لم يشأ أن يقيد حكومته بارتباطات دقيقة محددة مع الحكومة الفرنسية ، بل التزم الصمت المطبق إزاء الاقتراح الفرنسي بعدم دخول بريطانيا في مفاوضات مع تركيا للجلاء عن مصر قبل إبرام اتفاقية القناة . واكتفى بأن صرح بأنه سبق أن بعث بتعليقات إلى سير هويت Sir W. White السفير البريطاني في القسطنطينية للضغط على الباب العالي لإقرار اتفاقية القناة ، وأنه سيبحث بتعليقات على غرارها ليضاعف السفير من جهوده في هذا الصدد . وقرر أنه لم يطرأ تعديل على سياسة الحكومة البريطانية إزاء المسألة المصرية ، وأنه حرص على تجنب وقوع خلاف بين فرنسا وبريطانيا بخصوص هذه المسألة . فأجابه السفير الفرنسي بأنه يصعب على الحكومة البريطانية الوصول إلى تسوية للمسألة المصرية إلا إذا كان الوفاق يسود سياسة الحكومتين الفرنسية والبريطانية .

(١) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII. doc. no. 108. Télégramme confidentiel. M. Waddington, Ambassadeur de France à Londres, à M. Goblet, Ministre des Aff. Etr., en date du 25 avril, 1888.

وإذا كانت السياسة الفرنسية قد انتصرت في النهاية على الخطة العثمانية فتم التوقيع على اتفاقية القناة بعد ذلك بستة أشهر دون أن تسوى أولاً مسألة الجلاء عن مصر ، فان عدم تسوية هذه المسألة كان إخفاقاً للسياسة الفرنسية لا شك فيه ، لأن الاحتلال البريطاني لمصر طال أمده ، ولا يخفف من أثر هذا الإخفاق أن فرنسا تقاضت بعد ذلك ، في تصريح سنة ١٩٠٤ ، ثمن بقاء الاحتلال البريطاني في مصر باطلاق يدها في مراكش ، أما الحكومة العثمانية فإذا كانت قد أخفقت في تقديم تسوية مسألة الجلاء على تسوية مسألة القناة إلا أنها نجحت في حمل الدولتين الكبيرتين ، بريطانيا وفرنسا ، على إدخال تعديلات هامة على بعض النصوص العسكرية والسياسية التي وردت في مشروع اتفاقية القناة . وقد حققت هذه التعديلات إلى حد بعيد للغاية أهداف الحكومة العثمانية من انفرادها بمركز ممتاز في مواد الاتفاقية كدولة صاحبة سيادة على مصر وكامبراطورية إسلامية على رأسها سلطان يعتبر نفسه خليفة المسلمين ويتزعم حركة الجامعة الإسلامية . فكانت هذه التعديلات انتصاراً لا يستهان به للديبلوماسية العثمانية .

كان من أهم هذه التعديلات تعديلات : أحدها عسكري ، ويتمثل في إعفاء تركيا من القيود العسكرية التي تستهدف تأمين حرية الملاحة في قناة السويس والواردة في مشروع المعاهدة ، وذلك عند ما يكون الأمر متعلقاً بقيام قواتها المسلحة بالدفاع عن الحجاز واليمن ، وهما من الممتلكات العثمانية في ذلك الوقت .

وكان التعديل الثاني سياسياً تلخص في أن تكون رئاسة الاجتماعات الدورية السنوية التي يعقدها ممثلو الدول المكلفون بمراقبة تنفيذ الاتفاقية لمندوب عثماني بدلاً من عميد الهيئة السياسية في مصر ، وأن يشترك مندوب عن الحكومة المصرية في هذه الاجتماعات ، ويرأسها في حالة غياب المندوب العثماني ، وأن تقتصر رئاسة عميد الهيئة السياسية على الاجتماعات الطارئة التي يعقدها أولئك المثلون في حالة ظهور أو توقع خطر يهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها .

واتجه رأى الحكومتين الفرنسية والبريطانية أول الأمر إلى أن تقوموا بإبلاغ مشروع الاتفاقية في صورته المعدلة الأخيرة إلى حكومات الدول التي كانت ممثلة

في لجنة باريس سنة ١٨٥٥ للموافقة عليه^(١) ثم رأت حكومة باريس أن تشرك الحكومة العثمانية في هذا الإجراء ، ورحبت الحكومة البريطانية بهذه الفكرة ، لأنها رأت أن في إشراك الباب العالي مع الحكومتين الفرنسية والبريطانية في هذا الإجراء الدبلوماسي ارتباطاً أدياً يربط الباب العالي بالاتفاقية بعروة وثقى لا انقسام لها ، فلا يعود إلى المطالبة بتعديلات جديدة ينجم عنها مزيد من المشكلات والمتاعب ، ولكنها نصحت بأن تعرض هذا الاقتراح على الباب العالي أولاً للموافقة عليه^(٢) . وهكذا استقر الرأي على أن يقوم سفراء فرنسا وبريطانيا وتركيا — في يوم واحد ولكن كل منهم على حدة — بإبلاغ مشروع الاتفاقية إلى حكومات كل من روسيا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وهولندا^(٣) وقد أرفقت كل من هذه الحكومات الثلاث بمشروع الاتفاقية مذكرة موحدة^(٤) . جاء فيها أن هذه الاتفاقية الدولية تستهدف تنظيم حرية الملاحة في قناة السويس في جميع الأوقات ، وأن الحكومة العثمانية كانت قد طلبت إدخال تعديلات على مواد قليلة العدد في مشروع الاتفاقية ، فوافقت عليها الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعد أن تبادلتا الرأي فيما بينهما ، وغدت الحكومات الثلاث يسودها الاتفاق التام على المشروع الجديد للاتفاقية ، وأبدت رجاءها في أن تجد الحكومات التي كانت ممثلة في لجنة باريس ، في مشروع الاتفاقية الجديد المرفق ، تطبيقاً أميناً لما سبق أن أقرته هذه الحكومات من مبادئ تحقق وتؤكد حرية الملاحة في قناة السويس في جميع الأوقات .

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٣٩ من سالبوري إلى وادنجتون السفير الفرنسي في لندن ومؤرخة في ١١ من يونيو ١٨٨٨ ووثيقة رقم ٤٠ من سالبوري إلى ليتون Lytton السفير البريطاني في باريس ومؤرخة في ١١ من يونيو ١٨٨٨
(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٤١ من سالبوري إلى ليتون السفير البريطاني في باريس ومؤرخة في ١٢ من يونيو ١٨٨٨

(٣) Doc. Dipl. Fr. 1ère Série. t. VII doc. no. 152. Télégrammes. M. Coblet, (٢) Ministère des Aff. Etr. aux Représentants Diplomatiques de France à Saint-Petersbourg, Berlin, Vienne, Rome, Madrid, La Haye, en date du 28 juin, 1888.

(٤) تجد النص الرسمي لهذه المذكرة في الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ مرفق رقم ٢ لوثيقة رقم ٤٥ من سالبوري إلى ممثل بريطانيا الدبلوماسيين لدى بلاط كل من روسيا وألمانيا والنمسا والمجر وإسبانيا وهولندا ، بتاريخ ٣٠ من يونيو ١٨٨٨

وقد تقرر أن يتم التوقيع على الاتفاقية في القسطنطينية على أساس أنها عاصمة الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر التي تمر في أرضها قناة السويس . ومضى وقت طويل دون أن يتخذ الباب العالي الإجراءات الدبلوماسية المعتادة للتوقيع على الاتفاقية ، وشعرت الحكومة الفرنسية أن الباب العالي يعمد إلى سياسة التسيوف ، فطلبت إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٨ من أغسطس ١٨٨٨ أن ترسل تعليقات عاجلة إلى السفير البريطاني في القسطنطينية كي ينضم إلى زميله السفير الفرنسي هناك في الضغط على الباب العالي للإسراع نحو توقيع الاتفاقية^(١) .

ولم تجدد المحاولات الدبلوماسية العديدة التي بذلت في هذا الصدد^(٢) . وانقضى وقت طويل ومشروع الاتفاقية في حالة تجميد . وضائق فرنسا ذرعاً ، وقابل السفير الفرنسي سلطان تركيا في ٢٢ من أكتوبر ١٨٨٨ لهذا الغرض ، وأثمرت المقابلة فاجتماع مجلس الوزراء التركي في اليوم التالي وقرر الموافقة على مشروع الاتفاقية^(٣) . وأخيراً تم التوقيع عليها في ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ واشترك في التوقيع عليها ممثلو نسع دول^(٤) . وكانت المادة الأخيرة في هذه الاتفاقية وهي المادة السابعة عشرة

(١) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٦٨ من سالبوري إلى هويت Sir W. White السفير البريطاني في القسطنطينية ومؤرخة في ٣٠ من أغسطس ١٨٨٨
(٢) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٧١ من هويت إلى سالبوري ومؤرخة في ٤ من سبتمبر ١٨٨٨

(٣) الكتاب الأزرق (مصر) رقم ٢ لسنة ١٨٨٩ وثيقة رقم ٧٤ من هويت إلى سالبوري ومؤرخة في ٢٥ من أكتوبر ١٨٨٨ وانظر أيضاً ، رفق هذه الوثيقة ، وهو عبارة عن مذكرة صادرة من السفارة الفرنسية في القسطنطينية ومؤرخة في ٢٤ من أكتوبر ١٨٨٨ إلى السفير البريطاني في القسطنطينية .
(٤) كانت هذه الدول التسع هي : فرنسا وألمانيا وأustria والمجر وأسبانيا وبريطانيا وإيطاليا وهولندا (الأراضي المنخفضة) وروسيا وتركيا . وقد ذكرت في ديباجة الاتفاقية : الألقاب الرسمية لرؤساء الدول الأطراف في الاتفاقية : وهي رئيس الجمهورية الفرنسية ، و جلالة إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا ، و جلالة إمبراطور النمسا وملك يوهيميا وملك المجر الرسول ، وملك أسبانيا الثانية حه الملكة الوصية على العرش ، و جلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا وإمبراطورة الهند ، و جلالة ملك إيطاليا ، و جلالة ملك الأراضي المنخفضة ودوق لكسمبورج ، و جلالة إمبراطور ساكس البروسيين ، و جلالة إمبراطور اليابانين .

والنص الرسمي الكامل للاتفاقية مذكور في عدة مراجع نكتفي بذكر ثلاثة منها :

Blue Book. Commercial No. 2. 1889. C. 5623

Hurewitz J. C., ouvr. cit., t. I., pp. 202-205.

Dr. B. Boutros Ghali et Youssef Chhala : Le Canal de Suez 1854-1957. Chronologie Documents. Alexandrie. 1958. pp. 16-19.

قد نصت على أن يصدق على الاتفاقية ويتم تبادل وثائق التصديق عليها في مدة أقصاها شهر أو أقل إن أمكن . ولكن لم يتم هذا التبادل إلا في ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٨ أى يتجاوز المدة المنصوص عليها في هذه المادة .

لم ينته الربط بين مسألة قناة السويس وإبريد الجديدة في سنة ١٨٨٧ ، بل ظل هذا الربط ملحوظاً حتى عام ١٩٠٤ حين عقد الوفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا .

ذكرنا أن بريطانيا قد قرنت توقيعها على اتفاقية الآستانة المنعقدة في ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ بتحفظ عام على أحكام هذه الاتفاقية « فيما إذا تعارضت مع الحالة المؤقتة الاستثنائية التى توجد بها مصر الآن ، وإذا كان من شأنها عرقلة حرية الحكومة البريطانية فى العمل أثناء احتلال مصر بقوات صاحبة الجلالة البريطانية » . ومدلول هذا التحفظ أن لبريطانيا أن تحصل من نصوص اتفاقية الآستانة ، كلها أو بعضها ، إذا كانت هذه النصوص تتعارض مع مقتضيات احتلالها لمصر وتعرقل حريتها فى العمل أثناء وجود قوات الاحتلال فى الأراضى المصرية . ولا يخفف من أثر هذا التحفظ أنه مؤقت يزول بمجرد زوال السبب الذى دعا إليه ، وهو الاحتلال البريطانى لمصر ، لأن الحكومة البريطانية كانت قد وطدت العزم على عدم الجلاء عن مصر ، وأعلنت ذلك صراحة بعد أن امتنع سلطان تركيا عن التصديق على اتفاقية الجلاء عن مصر والمنعقدة فى ٢٢ من مايو ١٨٨٧ ، إذ قرر السليمانى أن احتلال بريطانيا لمصر سيطول أمده ، وأن تركيا هى المسئولة عن ذلك ، وأن بريطانيا ستتهج السياسة التى ترتضيها لنفسها .

وقد انقسمت الآراء بشأن مدى أثر هذا التحفظ البريطانى على أحكام الاتفاقية ، فبعض فقهاء القانون الدولى العام ذوى الميول الإنجليزية يقررون أن بريطانيا قد أسهمت مع الدول فى وضع وإقرار نظام نهائى يضمن فى كل وقت ولجميع الدول حرية استخدام قناة السويس ، وأن اتفاقية الآستانة التى تضمنت هذا النظام تعتبر قائمه ونافاذة قانوناً بمجرد أن تمت إجراءات التصديق عليها فى ٢٨ من ديسمبر ١٨٨٨ ، وتعين على بريطانيا ، شأنها فى ذلك شأن الدول الأطراف فيها ، أن تحترم نصوصها ، ولكن

لها بمقتضى تحفظها الناشئ عن وجود قوات بريطانية تحتل مصر احتلالاً مؤقتاً أن تتحلل من أى نص من نصوص الاتفاقية يصطدم مع أحد تدابيرها . ويرى فقهاء القانون الدولى العام ذوو الميول الفرنسية أن التحفظ البريطانى يؤدى ، طوال مدة سريانها ، لتوقيف نفاذ المعاهدة برمتها . ويعزز هذا الفريق رأيه بتصريح أدلى به وكيل وزارة الخارجية البريطانية فى ١٢ من يوليو ١٨٩٨ أمام مجلس العموم قال فيه إن الاتفاقية قائمة بالتأكيد، ولكنها لم تدخل دور التنفيذ العملى بسبب التحفظ البريطانى .

وقد توسعت بريطانيا فى الاستفادة من تحفظها واستغلت مركزها الانفرادى الممتاز فى القناة والمستند إلى الاحتلال فطلعت أحكام الاتفاقية التى كان لها أقل مساس بنفوذها أو عرقلة لحريتها فى العمل . وخضع مركز القناة خضوعاً كاملاً يكون تاماً لما تخليه عليه السياسة البريطانية حتى غدت اتفاقية ١٨٨٨ قد توقفت نفاذها .

أعربت الدول الأوربية عن رغبتها فى إلغاء التحفظ البريطانى حتى تنفذ اتفاقية ١٨٨٨ تنفيذاً فعلياً ، وكانت فرنسا فى طليعة هذه الدول . وماطلت بريطانيا فى التنازل عن هذا التحفظ ، ثم حدث فى بداية القرن العشرين انقلاب فى ميزان القوى بين الدول الأوربية ، وغدت ألمانيا قوة عسكرية ضاربة رهبة ، وازدادت حدة التنافس البحرى بينها وبين بريطانيا حتى اضطرت الأخيرة إلى أن تحجز جزءاً كبيراً من أسطولها البحرى فى بحر الشمال بسبب نمو السلاح البحرى الألمانى نمواً سريعاً مفرغاً . وخشيت بريطانيا أن تصل ألمانيا إلى تفاهم مع فرنسا وتعاون القوتان البحرىتان لألمانيا وفرنسا ضد بريطانيا ، ولم يكن مثل هذا الاتفاق فى نظر لندن بالأمر غير المحتمل إذا مضت بريطانيا فى سياستها المتناوئة لفرنسا . ولذلك سعت بريطانيا لاصلاح علاقاتها مع فرنسا لتأييد مركزها فى مصر والبحر المتوسط ولوحت لها بمراكش .

كانت مراكش موضع اهتمام بريطانيا وفرنسا . فبريطانيا تهتم بسواحل مراكش لإشرافها على مدخل البحر المتوسط من ناحية الغرب ، وتخشى إذا سيطرت دولة معادية على مراكش أن تهدد السفن البريطانية المارة فى بوغاز جبل طارق ، إذ تكون هذه السفن فى متناول مدفعية بعيدة المدى . ولن تكون جزيرة مالطة أو قناة السويس قيمة استراتيجية كبيرة فى هذه الحالة ، وتعطل المواصلات البحرية البريطانية وتصاب

التجارة البريطانية بأفدح المسائر . ولم يكن في مقدور بريطانيا أن تطلب إلى فرنسا . أن توافق على تفوق النفوذ البريطاني في مراکش ، لأن فرنسا كانت تمارس نفوذا قويا في مراکش ، وتروم أن تسيطر عليها سيطرة محكمة كما سيطرت بصورة أو أخرى على الجزائر وتونس من قبل . وكانت مراکش في نظر فرنسا لا تقل أهمية عن هذين الاقليمين العربيين المجاورين . ومساحة مراکش تزيد على مساحة فرنسا ، وهي ذات موقع استراتيجي ممتاز ، ورأت فرنسا أن في بسط سيطرتها على مراکش تدعيا لمرکزها في الجزائر . وفي خلال سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ عقدت فرنسا مع مراکش ثلاث اتفاقيات هامة خاصة بتحديد مناطق الحدود بين الجزائر ومراكش^(١) . وكانت تحشى أن تسبقها دولة أوربية أخرى إلى احتلال مراکش .

وقام لورد كرومر بدور بارز في الضغط على حكومته في لندن كي تعمل على تسوية مشكلاتها مع فرنسا بطريق المفاوضات السياسية حتى تكف الأخيرة عن إثارة المتاعب في وجه بريطانيا في مصر . وكان يرى أن تدعيم مركز الاحتلال في مصر يتوقف على إرضاء فرنسا . وأن بريطانيا تستطيع إرضاءها على حساب مراکش ، وفي مقابل ذلك تعترف فرنسا بالأمر الواقع في مصر وهو الإبقاء على مصر في دائرة النفوذ البريطاني . واقترح لورد كرومر كوسيلة من وسائل التقريب بين فرنسا وبريطانيا تغيير اسم فاشودة التي تثير في نفوس الفرنسيين أسباب المقت لبريطانيا .

وبدأت المفاوضات الدبلوماسية بطيئة متناقلة بين فرنسا وبريطانيا . واعتراض معظم الساسة الفرنسيين على اعتراف فرنسا بمركز بريطانيا في مصر في مقابل السماح لفرنسا بحرية العمل في مراکش ، واستندوا في اعتراضهم إلى أنه ليس لبريطانيا حقوق في مراکش تتنازل عنها لفرنساء فهي تعطى مالا تملك ، بينما تريد بريطانيا أن تتنازل لها فرنسا عن حقوق وامتيازات تمتلكها في مصر . وترددت الحكومة الفرنسية في الموافقة على بقاء الإنجليز في مصر إلى أجل غير محدود وأصررت الحكومة البريطانية على منع

(١) تاريخ هذه الاتفاقيات على التوالي ٢٠ من يوليو ١٩٠١ و ٢٠ من إبريل ١٩٠٢

و ٧ من مايو ١٩٠٢ وتجد نصوصها الكاملة في

Pierre Albin : Les Grands Traités Politiques. Recueil des Principaux Textes Diplomatiques de 1815 à 1914. Troisième édition. Paris, 1923 pp. 302-314.

الفرنسيين من المطالبة بتحديد موعد للجلء عن مصر . ولذلك استطالت المفاوضات بين الحكومتين وامتدت لتشمل مناطق متباعدة مبعثرة : في إربيد الجديدة وسيام ومدغشقر وجيبيا ونيوفوندلند . وأخيراً تم إبرام الوفاق الودى في ٨ من إبريل ١٩٠٤ ، وقعه عن فرنسا بول كامبو Paul Cambon سفير الجمهورية الفرنسية في لندن وعن بريطانيا لانزدون Lansdowne وزير الخارجية البريطانية^(١) وأعلنت الحكومة البريطانية في هذا الاتفاق أنها لن تعمل على تغيير الحالة السياسية في مصر ، وأعلنت الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لن تعرقل عمل إنجلترا في مصر ، لا بالمطالبة بتحديد موعد لانتهاه الاحتلال البريطاني ، ولا بأية صورة أخرى ، وأنها توافق على مشروع الرسوم الخديوى المرافق لهذا الاتفاق والذي يشمل الضمانات الضرورية للمحافظة على مصالح حملة أسهم الدين المصرى ، بشرط ألا يدخل على هذا الرسوم أى تعديل بعد تنفيذه إلا بموافقة الدول الموقعة على اتفاقية لندن سنة ١٨٨٥ ، وأن يظل منصب مدير عام مصلحة الآثار المصرية وفقاً على عالم فرنسى ، وأن تستمر المدارس الفرنسية في مصر متمتعة بنفس الحرية التى تمتعت بها فى الماضى . وفى مقابل ذلك تعهدت الحكومة الفرنسية بأنها لن تعمل على تغيير الحالة السياسية فى مراكش ، ولكن تعترف الحكومة البريطانية بأن من حق فرنسا — بصفتها دولة متاخمة لمراكش على طول امتدادات شاسعة — السهر على أمن وسلامة مراكش وتقديم المعونة لها فى جميع الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والحرية التى هى فى حاجة إليها ، وأعلنت أنها لن تعرقل عمل الحكومة الفرنسية فى مراكش ، وأنها تحترم حقوق فرنسا فى مصر وهى الحقوق المستندة إلى المعاهدات والاتفاقيات والتقاليد ، وأعلنت الحكومتان احترامهما لحرية التجارة فى مصر ومراكش ، وأن تعامل كل منهما الأخرى على قدم المساواة فيما يخص الرسوم الجركية وأجور نقلها بالسكك الحديدية ، وأن تستمر هذه المعاملة بالمثل قائمة لمدة ثلاثين عاماً ، وتعهدت الحكومة البريطانية بأن تستخدم نفوذها حتى لا يكون الموظفون الفرنسيون الموجودون وقتذاك فى خدمة الحكومة المصرية فى وضع أدنى — من حيث الامتيازات — من أقرانهم الموظفين البريطانيين فى مصر ، وأن تعامل الحكومة الفرنسية الموظفين البريطانيين فى مراكش نفس المعاملة التى يتمتع بها الموظفون الفرنسيون هناك . ولضمان حرية المرور فى بوغاز جبل طارق — وهو هدف أساسى كانت بريطانيا تسعى لتحقيقه — تقرر فى الاتفاق أن تمتنع

(٢) اسمه بالكامل Henry-Charles Keith Petty — Fitzmaurice, marquis de Lansdowne

الحكومتان عن إقامة أية تحصينات أو منشآت عسكرية من أى نوع على ساحل
مراكش المواجه لجبل طارق .

أما فيما يخص بقناة السويس فقد نصت المادة السادسة من الوفاق الودى على
الآتى : ضمانا لحرية المرور فى قناة السويس تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية
قبولها لنصوص المعاهدة المتعقبة فى ٢٩ من أكتوبر ١٨٨٨ ووضعها موضع التنفيذ
ولما كان فى هذا ما يضمن حرية المرور فى القناة ، لهذا يظل موقفاً تنفيذ الجملة
الأخيرة من الفقرة الأولى وكذلك الفقرة الثانية من المادة الثامنة من هذه المعاهدة^(١)
وترتبت نتيجتان على ما جاء فى الاتفاق الودى خاصاً بقناة السويس :

(أولاً) تنازل بريطانيا عن تحفظها السابق على اتفاقية الآستانة المبرمة فى ٢٩
من أكتوبر سنة ١٨٨٨ وقبولها الالتزام بنصوص هذه الاتفاقية والعمل بها حتى
ولو كان فى ذلك ما يعارض مع مقتضيات احتلالها لمصر . وبهذا التنازل زال ما كان
يعترض دور التنفيذ الحقيقى للاتفاقية ولو من الناحية القانونية وحدها^(٢) ؛ وبذلك
انتهت العقوبات القانونية التى كانت تعوق التطبيقى الفعلى لاتفاقية ١٨٨٨ وأصبحت
مبادئها الأساسية دون غيرها المرجع القانونى الذى يحكم مركز قناة السويس .
ويقرر البعض أن ٨ من أبريل ١٩٠٤ — تاريخ الوفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا —

(١) وقع فى خطأ بعض الباحثين الذين تعرضوا لموضوع التحفظ البريطانى إذ قرروا أن اتفاق
أكتوبر ٨ من أبريل ١٩٠٤ قد نص على وقف سريان الفقرتين الأولى والثانية من المادة الثامنة من
اتفاقية الآستانة . وقد رجعنا إلى النص الفرنسى الذى نشره بيرالبان فى مجموعة الوثائق الدبلوماسية
فوجدنا أن هذا الإيقاف لا ينسب إلا على الجملة الأخيرة من الفقرة الأولى وعلى الفقرة الثانية من
المادة الثامنة . وهذا هو منطوق المادة السادسة من الوفاق الودى :

Afin d'assurer le libre passage du Canal de Suez, le Gouvernement de S. M. britannique déclare adhérer aux stipulations du traité conclu le 29 octobre 1888 et à leur mise en vigueur. Le libre passage du Canal étant ainsi garanti, l'exécution de la dernière phrase du paragraphe 1 et celle du paragraphe 2 de l'article 8 de ce traité resteront suspendues.

Voir Pierre Albin, ouvr. cit., p. 328.

(٢) دكتور عبد الله رشوان : المركز الدولى لقناة السويس ونظائرها . القاهرة ١٩٥٠ ص ١٨٦

هو التاريخ الرسمي لوضع اتفاقية ١٨٨٨ موضع التنفيذ^(١) . وكان تنازل بريطانيا عن تحفظها على الاتفاقية انتصاراً للسياسة الفرنسية إلى حد بعيد .

(ثانياً) تمسك بريطانيا — بجانب هذا التنازل — بضرورة استمرار توقيف الاجتماعات الدورية السنوية التي نصت المادة الثامنة من اتفاقية ١٨٨٨ على تكليف ممثلي الدول الموقعة على المعاهدة المعتمدين في مصر بعقدتها مرة كل عام للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وكان من المقرر — طبقاً لنص الاتفاقية — أن تعقد هذه الاجتماعات برئاسة مندوب خاص تعيينه لهذا الغرض الحكومة العثمانية ، ويجوز لمندوب خديوى أن يشترك أيضاً في الاجتماع ويرأسه في حالة غياب المندوب العثماني . وكان توقيف هذه الاجتماعات انتصاراً للسياسة الإنجليزية التي عارضت من أول الأمر مبدأ قيام الرقابة الدولية على قناة السويس .

ومع ذلك أصبح من الجائز قانوناً أن يعقد ممثلو الدول الاجتماعات الطارئة التي نصت المادة الثامنة على عقدها عند كل ظرف يهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها للخطر . وصار لممثلي الدول الأطراف في المعاهدة بمقتضى هذه المادة أيضاً أن يطالبوا الحكومة المصرية بالغاء كل عمل وتفريق كل حشد يقع على أى جانب من جانبي القناة ويؤدى لتهديد سلامتها . وعلى مبلغ علمنا لم يعقد ممثلو الدول الأطراف في اتفاقية الآستانة أى اجتماع دورى أو طارئ منذ إبرام الاتفاقية لمراقبة تنفيذ المعاهدة .

* * *

أما جزر إيريدي الجديدة فإن الرأى العام الفرنسى كان ثائراً على اتفاقية ١٦ من نوفمبر ١٨٨٧ التي قضت بإنشاء لجنة بحرية مختلطة تمتد ولايتها على هذه الجزر ، إذ استطاعت بريطانيا تحت ستار هذه اللجنة أن تنسلل إلى إيريدي الجديدة وتقاسم فرنسا نفوذها فيها . وقد وقف جون ميجنون — وقد مر بنا أنه من رجال الأعمال المبرزين ، إيرلندى المولد فرنسى الجنسية يحمل مقراً عميقاً للبريطانيين — يقاوم التنسلل البريطانى في إيريدي الجديدة التي كان يعتبرها داخلة في دائرة النفوذ الفرنسى . وحضى بشتى مزيداً من الأراضي في هذه الجزر ويرفع عليها العلم الفرنسى ، ويقم عليها مؤسسات فرنسية ، ووسع نطاق عملياته بوجه خاص خلال الفترة من ١٨٩٠

(١) . Ahmed Moussa Dr.-Essai sur le Canal de Suez. Droit et Politique, Paris 1935. p. 110.

إلى ١٨٩٨ ، وكان يحده الأمل في التمكن للسيطرة الفرنسية دون غيرها على إبيريد الجديدة . وقد شهدت هذه الفترة نشاطاً واسعاً متعدداً للسياسة الاستعمارية لفرنسا فيما وراء البحار . وقام المستوطنون الفرنسيون في جزيرة Vati إحدى جزر إبيريد الجديدة بمحاولة لفرنسة هذه الجزيرة فرنسة تامة مما أثار قلق البريطانيين من أهداف فرنسا .

وكان أن انتهزت بريطانيا الرغبة المتبادلة بينها وبين فرنسا لتسوية المشكلات المعلقة بينهما ، فأثارت موضوع إبيريد الجديدة رغبة منها في تدعيم مركزها السياسي الذي كان لا يزال مزعزعا في هذه الجزر ، فتضمن الوفاق الودي تصريحاً مستقلاً خاصاً بإبيريد الجديدة أعلنت فيه الحكومتان عزمهما على عدم إدخال أي تعديل على المركز السياسي الراهن وقتذاك لهذه الجزر . وكان هذا التصريح كسباً لبريطانيا تأكد بمقتضاه اشتراكها على قدم المساواة مع فرنسا في المحافظة على النظام والأمن . كما اتفقت الحكومتان في هذا التصريح على ضرورة وضع اتفاق لاحق يتضمن تشريعاً يخضع له السكان الأصليون في هذه الجزر ، وعلى تعيين لجنة فرنسية بريطانية للفصل في المناوئ الخاصة بالأموال الثابتة من عقارات وغيرها والتي يمتلكها رعايا كل من الدولتين في هذه الجزر ، على أن تقوم الحكومتان بتحديد اختصاصات هذه اللجنة ووضع لائحتها التنفيذية^(١) .

كان الوفاق الودي في سنة ١٩٠٤ هو آخر مظاهر للربط بين مسألتى قنائة السويس وإبيريد الجديدة . فقد اتخذت كل مسألة منذ تلك السنة طريقاً خاصاً مستقلاً عن الآخر بحيث لم يحدث بعد ذلك أي ربط بين المسألتين . أعقب الوفاق الودي سلسلة

(١) هذا هو نص الجزء الخاص بجزر إبيريد الجديدة كما جاء في وثائق الوفاق الودي :

« L'Entente Cordiale. »

« Déclaration concernant Les Nouvelles - Hébrides. »

Les deux gouvernements conviennent de préparer de concert un arrangement qui, sans impliquer aucune modification dans le *statu quo* politique, mette fin aux difficultés résultant de l'absence de juridiction sur les indigènes des Nouvelles - Hébrides.

Ils conviennent de nommer une commission pour le règlement des différends fonciers de leurs ressortissants respectifs dans lesdites îles. La compétence de cette commission et les règles de sa procédure seront l'objet d'un accord préliminaire entre les deux gouvernements.

من الاتفاقات عقدت تباعاً بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية بخصوص إيريد الجديدة . وكان كل اتفاق في الواقع خطوة لتدعيم اشتراك بريطانيا مع فرنسا في حكم هذه الجزر . ففي اتفاق عقد في فبراير ١٩٠٦ تقرر صراحة وضع جزر إيريد الجديدة تحت الحكم الثنائي الفرنسي والبريطاني ، على أن يمثل كلا من الدولتين فيها مندوب سام أحدهما فرنسي والآخر بريطاني ، وتقرر أن يكون للرعايا الفرنسيين والبريطانيين حقوق متساوية في جميع المسائل ، ولكل دولة من هاتين الدولتين أن تطبق تشريعاتها على رعاياها ، وأن تمتنع الدولتان عن إقامة تحصينات في الجزر . وقد تم التصديق على هذا الاتفاق في ٢٠ من أكتوبر ١٩٠٦ . ثم وضعت الحكومتان بعد ذلك في سنة ١٩١٤ بروتوكولا يمنع بيع الخمر والأسلحة للسكان الأصليين في هذه الجزر ويمنع استخدامهم وفق نظام السخرة . ولم يتم التصديق على هذا البروتوكول إلا في ١٨ من مارس ١٩٢٢ .

ولا تزال جزر إيريد الجديدة خاضعة إلى اليوم لنظام الحكم الثنائي ، وهو نظام فشل فشلاً ذريعاً ، فلا يزال سكان هذه الجزر متخلفين في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نظراً لتعارض مصالح بريطانيا وفرنسا في إيريد الجديدة . ويعمن بعض الكتاب الأوربيين في التحقير من شأن اصحاب هذه الجزر الأصليين ويطلقون عليهم مختلف الصفات ، بل إن بعضهم يقرر في جرأة على الحق أنهم من أكلة لحوم البشر . ولسكن أحد الضباط البحريين الفرنسيين زار هذه الجزر ونشر مقالا ظهر في باريس ١٩٥٣ قرر فيه صراحة أن التخلف الذي يسود سكان هذه الجزر إنما يرجع إلى النظام الغريب الشاذ الذي فرض عليهم وهو الحكم الثنائي وأفاض في ذكر مساوئه . وكان مما جاء في هذا المقال :

Depuis le protocole franco-anglais signé le 6 août 1914 et promulgué en 1923, l'archipel vit sous le régime assez curieux du condominium quasi mixte au monde entre la France et le Royaume-Uni. Est-ce un succès total ? Les deux nations sont d'accord pour le nier ; il est même certain que ce fut une des causes, peut-être la principale, qui entravèrent le développement économique et moral de l'archipel. L'administration est gênée par la coexistence d'intérêts nationaux divergents. Le tribunal mixte, en particulier, ne

peut que, lentement procéder à l'immatriculat on des terres et régler les litiges fonciers (١).

* * *

أما قناة السويس فانه بعد أن تنازلت بريطانيا في الوفاق الودى عن تحفظها على اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ أصبحت المبادئ التي وردت في هذه الاتفاقية هي المرجع القانوني الذي يحكم مركز قناة السويس. واستمر الوضع على هذا الحال حتى أصدر الرئيس جمال عبد الناصر القانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بتأميم شركة قناة السويس، وافتعلت دول الغرب أزمة سياسية عنيفة أعقبتها عدوان ثلاثي في خريف سنة ١٩٥٦ كان يستهدف القضاء على الحكم الوطني في مصر. ونجم عن هذا العدوان أن تعطلت الملاحة في قناة السويس. وقبل أن تنتهي عمليات تطهير القناة من العوائق، أصدرت مصر بيانها المشهور في ٢٤ من أبريل ١٩٥٧^(٢)، وهو يضع التنظيم الجديد للمركز القانوني للقناة بالإرادة الانفرادية لمصر وحدها بصفتها صاحبة السيادة الإقليمية عليها. ويشمل هذا البيان عشرة أسس، أكدت فيه مصر رغبتها في احترام اتفاقية الآستانة سنة ١٨٨٨ فيما يتعلق بحرية الملاحة في قناة السويس، وعزمها على أن تجعل من هذه القناة ممرا مائيا صالحا وتطويره ونقلا لمطالب الملاحة الحديثة ليربط شعوب العالم ويخدم قضية السلام والرخاء. كما يحتوي هذا التصريح على عدة مسائل أخرى خاصة برسوم المرور وهيئة قناة السويس التي تدير القناة والشكاوى المتعلقة بالتفرقة في المعاملة أو بلائحة القناة والمنازعات التي تنشأ بخصوص اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ أو التصريح. وطلبت مصر تسجيل هذا التصريح لدى هيئة الأمم المتحدة باعتباره وثيقة دولية.

وقد حاولت بعض الدول، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا واستراليا، أن تنازع في هذا التصريح، وعرضت الأمر على مجلس الأمن في ٢٦ من

Géographie : Revue d'Informations et d'Actualités Géographiques Paris (١)
No 27, Décembre 1953.

وهي مجلة جغرافية شهرية تصدر في باريس وعنوان المقال :

L'Archipel des Nouvelles Hébrides par P. M. Cousot.

(٢) انظر نص هذا البيان في :

دكتور بطرس بطرس غالي ويوسف شلاه : قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ - ١٩٥٧ طبعة

١٩٥٨ ص ٦٩ - ٧٢

أبريل ١٩٥٧ على أساس أن التصريح انفرادي ، وتأسيساً على ذلك ليست له قوة إلزامية قانونية دولية . ولكن المجلس لم يصدر في هذا الشأن أي قرار . وأعلنت مصر في ١٨ من يوليو ١٩٥٧ قبولها الولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية في المنازعات التي قد تنشأ بين الدول الموقعة على اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ والتي يكون موضوعها تفسير نصوص هذه الاتفاقية أو تطبيق أحكامها طبقاً للفقرة ب من البند التاسع من التصريح . ومؤدى هذا التحديد أن أية دولة لم تكن طرفاً في اتفاقية الآستانة ١٨٨٨ مثل إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية — لا يحق لها ان تستفيد من أحكام هذه الفقرة (١) .

على هذه الصورة التي تنم عن براعة سياسية فائقة استقر التنظيم الإقليمي المصري الانفرادي ، واستردت مصر سيادتها الإقليمية والتنظيمية لقناة السويس استرداداً كاملاً .

(١) انظر كلا من :

دكتور حامد سلطان ص ٤٩٨ - ٥٠٢

دكتور محمد - حافظ غانم ص ٣٩٢ - ٣٩٤

مداخل الروح (الأبواب الوهمية)

وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة

للدكتور عبد العزيز صالح

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مداخل الروح وحدات معمارية وعقائدية استمر لها كيانها الثابت في واجهات المباني وفي مقاصير المقابر وبعض معابد الشعائر الخاصة في أغلب العصور المصرية القديمة . ويبلغ من اهتمام أهل الدولة القديمة بها أن كان الوالد منهم يعد مَدْخِلاً باسم ولده « وهو لا يزال طفلاً »^(١) . وكان الابن البار يرى من واجبه أن يقيم مَدْخِلاً لوالديه « وهي لا تزال حية تسعى على رجلها »^(٢) ، ثم يفخر على إخوته بأنه هو « من أقام مَدْخِلاً أبيه »^(٣) . ومؤدى ذلك كله أن ضرورة مداخل الروح لم تكن تقل أهمية لدى أصحابها عن ضرورة المقابر نفسها .

وجرى الاصطلاح على تسمية هذه المداخل باسم « الأبواب الوهمية » (False door ; Fausse — porte, Scheintür) ، اعتماداً على أنها مثلت أبواباً رمزية مسدودة يرتجى أن تجتازها أرواح أصحابها في دخولها إلى المقبرة وخروجها منها . ولولا أنه يلاحظ على هذا التعريف الشائع أنه على الرغم من اعتماده على تفسير منطقي مقبول ، إلا أنه لا يعبر عن حقيقة هذه الوحدات المعمارية وتطوراتها تعبيراً كافياً . فهي وإن اقتصرَت في أحوال معدودات على هيئة الأبواب البسيطة فعلاً ، إلا أنها لم تقتصر على هذه الهيئة دائماً ، وإنما ظلت في أغلب أحوالها تقلد هيئة واجهات متسعة منسقة تتوسطها دُخُلَات متفاوتة السعة والعمق تعلوها أسطوانة حجرية أفقية ترمز إلى أسطوانة حَصِير قديمة ، وتتضمن في داخلها أحياناً هيئة باب ذى مصراع واحد أو مصراعين

(١) Cairo 1417 ; Urk. I, 33

(٢) Ibid., 72

(٣) Cairo 36191/57123

(راجع ص ١٢٩). ومعنى ذلك أن الدخالات بتفاصيلها لم تكن تشغل غير الجزء المتوسط من التركيب المعمارى الذى توجد فيه دون أن تشغله كله . وإذا جازت تسميتها باسم « الأبواب الوهمية » اعتمادا على عدم تقاذ جدرانها وإيجاد مصاريع الأبواب التى تشكل فيها أحيانا ، إلا أن ثمة أبوابا أخرى عاصرتها تبدو أحق منها بهذه التسمية ، وقد بقيت من نماذجها المبكرة عدة أبواب حجرية تحتها المعاريون لذاتها فى جسم جدران واسعة تحت هرم زوسر فى سقارة وقلدوا بها هيئة أبواب خشبية صريحة ذات قوائم وعوارض ، ولم تكن هذه الأبواب تفتح أو توصد بطبيعة الحال ، وإنما كانت مجرد أبواب وهمية^(١). وشابهتها أبواب حجرية أخرى تحتها المعاريون فى بهو المدخل ومقاصير عيد السد الملحقين بهارة المهرم نفسه ، وجعلوها على هيئة الأبواب الخشبية المفتوحة ذات المصراع الواحد ، وكانت بدورها مجرد « أبواب رمزية »^(٢).

وعبر المصريون عن مداخل الروح باسم $\text{r}^{\text{w}}-\text{p}^{\text{r}}$ مما قد يعنى حرفيا معنى مدخل الدار ، واسم r^{w} وهو اسم يدل بدوره على معنى « البوابة » وتعمدوا التفرقة بين تصوير مخصصه الكتابى حين دلالة على البوابة العادية ، وبين تصوير مخصصه حين دلالة على مدخل الروح ، فصوروه فى حالته الأولى على هيئة باب عادى ذى كفتين ، وصوروه فى دلالة الثانية على هيئة واجهة ذات تفاصيل كثيرة يتوسطها باب أقل حجما منها بكثير^(٣).

وثمة تسمية شائعة أخرى لمداخل الروح ، وهى « أبواب الكا »^(٤) ، وهى تسمية اعتبرت « كا » الإنسان شيئا منفصلا عنه ، يقوم منه مقام القرين فى دنياه ، ومقام الإله الحارس فى السماء ، ويتردد عليه بعد وفاته فى قبره ليتقمص جسده وتمثاله ويتقبل القرابين والدعوات باسمه . بيد أن هذه التسمية لا تخلو بدورها مما يعترض به عليها ،

(١) C.M. Firth and J.E. Quibell, The Step Pyramid, vol. II, pl. 45 (3) ;

vol. I, p. 61

Ibid., II, pl. 50 f.; 69 f. (٢)

Wb. II, 397, 3; 403 13 f.; and see, H.W. Muller, (٣)

« Totendenksteine des Mittleren Reiches », Mitt. Kairo, IV, 170 f.

وراجع ص ١٠٨ حاشية هـ

Petrie, Wainwright and Gardiner, Tarkhan, II, 5, etc ... , G. Rasner. (٤)

The Development of the Egyptian Tomb, 11, 244 f., 256 f., 334 f., etc.

فالكا المصرية ، فيما قدمنا في مقالنا عن « طبيعة الانسان وماهيته » ، لم تكن شيئا منفصلا عن صاحبها ، وإنما كانت هي نفسه وذاته وحيويته وفعاليته ، وكان الأحياء إذا قدموا دعواتهم وقرايبتهم « إلى كا » المتوفى (في قولهم : n k; n) عنوا بذلك أنهم يقدمونها إلى ذاته ومن أجل حيويته وفعاليته التي يتمنون تأكيدها له بصورة تناسب العالم غير المنظور الذي انتقل إليه ، وهي صورة قد لا يستسيغها منطق علمي مجرد ، ولكن أجازها منطق العقائد والعوطف والتقاليد في يسر وسهولة .

أما العنصر أو الجوهر الذي أكد المصريون تردده على الانسان في مثواه الأخير ، فهو « البا » أي الروح . وحقا قلما استخدمت نصوصهم الباقية عبارة : « إلى با فلان » كما نقول الآن إلى روح فلان أو على روحه ، وفي مقابل العبارة الشائعة : « إلى كا فلان » ، إلا أنها دثبت في الوقت نفسه على تمثيل « البا » باللفظ والصورة تدخل القبر وتحط على الجسد ، ثم تصعد لترى الشمس المشرقة ، أو ترتوى من بركة القبر وتحط على أشجار خيمته ، ثم ترقى إلى السماء لتتخذ موضعها بين النجوم ، وتنتفع بزروع العالم العلوى وأنهاره وتقبل عطايا أربابه ^(١) .

وهكذا يحسن استخدام أحد ثلاثة تعبيرات عوضا عن تعبيرى الأبواب الوهمية وأبواب الكا الشائعين ، وهي : الواجبات ذات المداخل الرمزية ، أو الواجبات ذات منافذ البا ، على اعتبار أن المنافذ تخدم أغراض الدخول والخروج معا ، وأن البا كانت تستحب الخروج من القبر أكثر من حبها للدخول فيه . وكل من هذين التعبيرين يفي بغرضه ولكنه ثقيل على السمع بعض الشيء . أما التعبير الثالث فهو « مداخل الروح » ، وقد آثرناه عنوانا لهذا البحث باعتباره أخف لفظا وجرسا من أخويه ، وباعتبار لفظ المدخل أوسع مدلولاً من لفظ الباب ويستطيع أن يدل عليه وعلى المكان الذي يحتويه ، وإن كان ذلك لن يحول دون العودة إلى الاستعانة بتعبير الأبواب الوهمية إذا انطبقت على هياكل الأبواب فعلا أو ورد في سياق الاستشهاد بعبارات معينة من بحث آخر .

Pyr. 859a ; Textes des Cercueils, Discours, 2, 8 ; 20 ; 45 ; 56 d ; 193 ; (١)
Petersburg Pap. 1116 Art., 52—53 ; Book of the Dead, Ch. LXXXIX, 1, 5—8,
12 ; A. Piankoff, The tomb of Ramesses VI, 78 ; etc.

ناقش أغراض مداخل الروح وتطوراتها المعمارية كل من ماسيرو وبترى
 وچيكيه ورش ويونكر وكابارو ريزنر وأنور شكرى واسكندر بدوى وثاندييه،
 ووفى كل منهم بحثها حقها من وجهة نظره . لولا أن ذلك لن يحول بطبيعة الحال
 دون الاعتراف بأن الغموض لا يزال ، ولن يزال ، يحيط ببعض جوانبها ، وأنها
 تتطلب أكثر من بحث واحد لتتبع مراحل تطورها وللتعرف على أكبر عدد من
 أغراضها ومعاني نصوصها .

* * *

ظهرت مداخل الروح في آفاق العقائد والعائز المصرية منذ أوائل العصور
 التاريخية على أقل تقدير، تحت سطح الأرض حيناً ، وفوق سطح الأرض حيناً آخر .
 وبدأت شباتها تحت سطح الأرض منذ أن شكل المماريون خلال عصر الأسرة
 الأولى مستطيلات مختلفة السعة متفاوتة الغور في بعض جدران الأجزاء السفلى من
 مقبرتي الفرعون جري والفرعون واهي في منطقة أيدوس ، وشكلوا عددا منها
 في باطن الجدران الداخلية لبعض الغرف الجانبية الصغيرة التي أحاطت بحجرة الدفن
 وقامت مقام مخازن الادوات وأواني الطعام والشراب ، ثم شكلوا عددا آخر منها في جوانب
 بعض الأكتاف اللبية التي فصلت بين كل غرفة وأخرى وساعدت في الوقت نفسه على
 رفع سقف المقبرة . ولم يلتزم المماريون حينئذ باتجاهات معينة في توزيع هذه المستطيلات،
 ولكنهم عبروا عن ضرورتها الخفية بأن شكلوها في جدرانها بعد أن فرغوا من كساء
 جدران المقبرة بالملاط ، ثم صبغوها بلون أحمر ^(١) ، وقاربوا بين هيئاتها وبين هيئة
 المداخل والأبواب ، حتى بدت في صورتها العامة أقرب إلى هيئة الباب ذى
 المصراعين على جانب كل كتف ، وأقرب إلى هيئة المدخل المصمت أو الباب ذى
 المصراع الواحد في باطن كل حجرة (شكل ١) .

وليس من اليسير تحليل الأغراض الحقيقية من تشكيل هذه المستطيلات (أو
 المداخل أو الأبواب) تحت سطح الأرض ، ولكن ثمة فروض محتملة بشأنها :
 فقد ترمز مستطيلات الأكتاف إلى مداخل رمزية تسلكها روح الفرعون
 المتوفى إلى الحجرات التي فصلت الأكتاف بين كل واحدة منها وأخرى ، لتتفتح

W.M.F. Petrie, The Royal Tombs of the First Dynasty, I. pl. LXIII, (١)

p. 10 ; II, 8.

بمحتوياتها انتفاعا يناسب الحياة التي انتقلت إليها ، على حين ترمز المستطيلات المشكلة في بواطن الحجرات إلى مداخل تسلكها أرواح أتباع الفرعون الذين وسدوا حول حجرة دفنه قبل وفاته ليقوموا على خدمته في آخرته ، وتسلكها أرواح أتباعه الآخرين الذين دفنوا بعد وفاته تحت مصاطب مستقلة خارج مقبرته واتجهت جنبهم ناحية حجرة دفنه ^(١) . تأكيداً لتبعيتهم وولائهم له ، وأملا في أن تنضم أرواحهم إلى معيته وتصبح روحه في آخرتها . ولو أنه يقف في سبيل ترجيح هذا الاحتمال الأخير أن المستطيلات (المداخل) شكلت داخل المقبرة وليس خارجها ، أي شكلت خلف واجهاتها وليس في صدرها .

وثمة فرض رابع لتفسير أغراض هذه المستطيلات الأخيرة يمكن استعارته على حذر مما رتبته ولتر إمرى على تتابع المشكاوات في الواجهات الخارجية لمصاطب سفارة (ص ١٠٥) وافترض فيه أنها قامت مقام أبواب رمزية لتخازن الطعام والشراب المبنية خلفها فوق سطح الأرض . وأن أصحابها اعتبروها أبوابا لكوات المواد المحفوظة فيها . وذلك إن صح أمكن تفسيره بأنهم تخيلوا لكل نوع من أنواع الطعام والشراب « كا » أي طاقة (أو روحا على حد تعبير إمرى) ^(٢) تكفل استمرار صلاحيته مادامت تلي معونة أصحابها عن طريق تلاوتهم ترانيل الدين وتعاويز السحر .

أما اللون الأحمر الذي صبغت به مستطيلات أيدوس فيحتمل أنه قصد به مجرد تمييز هياتها عن اللون الغالب للجدران المحيطة بها ، وذلك فرض بسيط يزيه استخدام اللون الأحمر في بعض مصاطب الاتباع المحيطة بمقابر الفراعنة في المنطقة نفسها لكتابة أسمائهم وسط مساحات بيضاء صغيرة في الأجزاء العلوية من الجدران الجنوبية لحجرات دفنهم ^(٣) . وثمة فرض آخر ، وهو احتمال تعبير اللون الأحمر للمستطيلات عن مادة الخشب التي تصنع الأبواب عادة منها ، وذلك فرض

(١) Petrie, op. cit., Reisner, op. cit., 12, 23

(٢) قد يتصل بهذا التصور ما يقال من أن وجود بعض متاع المقابر مهشما أو مفككا عن قصد ، يدل على أن أصحابه قصدوا بتفشيته تقليل فرص سرقة ولصوص مثلما مات صاحبه حتى يتيسر انتفاعه به .

(٣) Petrie, op. cit., I, 8

يزكيه هو الآخر استخدام فناني العصور التاريخية للون الأحمر للتعبير عن الخشب أحيانا (وإن كانوا قد عبروا عنه باللون الأصفر أحيانا أخرى)^(١) .

وأخذت مصاطب سقارة والجزرة وطرخان ببعض ما أخذت به مقابر الفراعنة في أيدوس من شبهات وجود مداخل رمزية تحت سطح الأرض ، وزادت عليها عناصر تناسبها .

ومن هذه المصاطب مصطبة ضخمة في سقارة تنسب إلى واجي (؟) أو أحد أفراد أسرته تعاقبت على جوانب حجرة دفنها أكتاف لبنية كسيت واجهاتها بألواح خشبية صفحت برفائف ذهبية مزخرفة ، وشكلت شرق الكنف الأوسط من جدارها الجنوبي مشكاة يعتقد ولتر إمري أنها كانت تتضمن بابا خشبيا في باطنها ، أو تضمنت على أعلى تقدير لوحة خشبية أدت غرض الباب الرمزي لروح صاحبها ، وافترض أنه كانت تواجهها على الجدار الشمالي لحجرة الدفن مشكاة (؟) أخرى عثر تحت أنقاضها على حفرة تضمنت عظام غزالتين صغيرتين وضعتا قربانا لصاحب المقبرة^(٢) .

ومصطبة أخرى في طرخان تحتمل نسبتها إلى النصف الأول من عصر الأسرة الأولى ، ظهرت في الجدارين الشمالي والجنوبي من حجرة دفنها أربع مشكاوات قليلة الغور (لا يتجاوز عمقها نصف البوصة) ، لونت باللون الأحمر وواجهت مخازن القرايين المحيطة بحجرة الدفن^(٣) ، وذلك مما يدعو إلى اعتبارها مداخل رمزية لروح صاحبها إلى حيث تنعم بالطعام والشراب والمتاع المرصود من أجلها في مخازن مقبرته .

وثمة شبهة أخرى تضمنتها بعض مقابر سقارة ، إذ ثقت بعض المتأريسين الحجرية التي تسد ما بين الدرج وبين حجرة الدفن بثقوب كبيرة نافذة ، وهذه قد

(١) Alex. Badawy, Les Dessin Architectural chez les Anciens Egyptiens, 281.

(٢) W.B. Emery, Great tombs of the First Dynasty, II, 1954, p. 13, Fig. 4, and pl. XIV, a-b.

(٣) Petrie, Tarkhan, I, 14, pl. XVI, 1 (No. 1060). Compare also another niche in the western wall of the burial chamber of tomb 71 in Raqâqnah (Garstang, p. 45, pl. XV, 71).

تكون ذات فائدة عملية وهي إدخال الجبال فيها للاسمانة بها على إنزال المتراس تحت سطح الأرض^(١) ، وهذا هو الاحتمال المرجح ، أو تكون ذات مغزى ديني يسمح باعتبارها منافذ رمزية تستخدم غرضا من أغراض الحياة الثانية في القبر ، وهذا الفرض الثاني وإن يكن ضعيفا إلا أنه تكرر في متاريس بعض مقابر الأسرة الرابعة في الجيزة وقيل عنه إنه لصالح الرؤوس البديلة المقامة خلف المتاريس تحت سطح الأرض^(٢) .

أما مقابر حلوان من العصر الثني ذاته ، فقد ظهرت في بعض مخازنها السفلى غير ذات الأبواب ، كوات مستطيلة نافذة ، شُبهت بفتحة سرداب التمثال في الدولة القديمة^(٣) .

* * *

ظلت مداخل الروح أكثر تعبيراً عن أغراضها فوق سطح الأرض منها تحت سطح الأرض ، وظهرت شبهاتها في الأخرى منذ عصر بداية الاسرات في مصاطب صغيرة وكبيرة ، في واجهاتها حيناً وفي مقاصير قربانها حيناً آخر .

فقد احتفظت منطقة طرخان بأطلال مصاطب عادية ردها فلندرز يرى إلى المرحلتين ٧٧ — ٧٨ من توقيته المتتابع ، أي إلى بداية الاسرات ، أو ما قبلها بقليل ، وألحقت بكل مصطبة منها فوق سطح الأرض حجرة متواضعة للقرايين اخترت جدارها الخلفي ، المشترك بينها وبين بناء المصطبة ، فتحتان مستطيلتان متجاورتان^(٤) (شكل ١٢ — ب) وشيدت هذه الحجرات المتواضعة على أطراف الواجهات الشرقية لمصاطبها حيناً وعلى أطراف واجهاتها الغربية حيناً آخر ، ربما بما يتفق مع اتجاه المتوفى ، ومع مدى اتساع الأرض التي بنيت المصطبة فوقها بحيث لا تزامنها حجرة قرايين المصطبة المجاورة لها ، شرقية كانت أم غربية^(٥) .

W.B. Emery, *Arch aic Egypt*, Fig. 84 (T. No. 3035) (١)

H. Junker, *Giza I*, Taf. X (٢).

Zaki Saad, in *Ann. Serv. Cahier III*, p. 108, pl. XXXVII (٣)

Petrie, *op. cit.*, II, p. 3, pl. XIII—XIV (٤)

Reisner, *op. cit.*, 11—12 (٥)

ويعتقد بترى وريزر أن هذه الحجرات أو المقاصير كانت مكشوفة ، واعتبراها مجرد أبنية مسورة. وقد يكون استنتاجهما صحيحا على أساس دراستهما ومشاهدتهما الكثيرة ، ولكن ألم يكن في عدم تسقيفها ما يعرض القرايين التي توضع فيها لاعتداءات الحيوانات والطيور فضلا عن فقراء الناس ، بغض النظر عما إذا كانت هذه القرايين ذات قيمة أم كانت متواضعة كما تم عن ذلك بساطة مصاطب أصحابها وخشونة أوانها الباقية داخل مقاصير القرايين نفسها وحول جدرانها ؟ وإذا صح أن أصحابها تركوها مكشوفة في متناول الأيدي عن عمد فعلا ، فهل يدل ذلك على أنهم كانوا يرون في ارتفاع الفقراء والعجوات بها ثوبا ورحمة للمتوفى كما لا يزال بعضنا يعتقد في عصرنا الحاضر ؟ أو يدل على أقل تقدير على أنهم كانوا يضعونها باسم المتوفى ثم يرون ذمهم منها ، ويتركونها للمقادير كيفما كانت ؟

على أنه مهما يكن من أمر هذه المشكلة الفرعية ، فإن تكرار وجود الفتحين المستطيلتين الواصلتين بين مقصورة القربان وبين مصطبتها يتم على الأرجح عن الرغبة في استخدام الروح لها استخداما يناسبها حين تقدم القرايين باسمها وحين تلي الأديعة ويحرق البخور لصالحها .

ولكن هل يدل ازدواج الفتحين على الرغبة في دخول الروح من إحداهما وخروجها من الأخرى ؟ أم يعبر عن رغبة أصحابها في تقليد هيئة المصاطب ذات المشكاتين (راجع بعده ص ١٠٣) ، وإن اكتفوا هنا فجعلوها فتحين نافذتين داخليتين ؟ كل من الفرضين محتمل ، وإن أضاف البعض فرضا آخر وهو قيامهما بدور عيني « وجة » اللتين ظهرتا على جوانب التوايت منذ عصر الانتقال الأول^(١) (والاصح منذ عصر الأسرة السادسة) ، ليرى المتوفى بهما عالم الأحياء ومقدمي القرايين والشمس المشرقة .

* * *

ظهرت للمصاطب ذات المشكاوات الخارجية ثلاثة طرز ، كما هو معروف . مصاطب ذات مشكاة واحدة . وأخرى ذات مشكاتين ، وثالثة تعاقبت المشكاوات على واجهاتها الأربعة .

ودلت الآثار المتبقية من مصاطب الأتباع في العصر الثنى بسقارة على أنها كانت مقبية السقوف مائلة الجوانب الخارجية ميلا خفيفا ، تنصدر الجزء العلوى للطرف الجنوبي من واجهاتها الشرقية مشكاة أو كوة منتظمة الشكل ترتفع عن مستوى سطح الأرض (شكل ٣)^(١). وهذه يدل انفرادها بنفسها على أنها كانت تؤدى غرضا معينا ، قد يتمثل في تخصيصها لوضع القرايين المتواضعة وإشعال البخور ، أو يتجاوز ذلك إلى اعتبارها منفذا رمزيا لروح صاحبها . ويبدو أن وجودها لدى الطرف الجنوبي من واجهات مصاطبها كان ذا صلة بمادة وضع رأس المتوفى ناحية الجنوب في أغلب الأحوال ..

واحتفظت المصاطب ذات المشكاتين بخصائصها ، فكانت المشكاتان تبيان في واجهاتها الشرقية ، كما هو معروف ، متجاورتين أحيانا ومتباعدتين في أغلب الأحيان بحيث تصبح إحداهما قريبة من الطرف الشمالى لواجهة المصطبة وتظل الأخرى قريبة من طرفها الجنوبى ، تأكيد الخاصية التماثل (السيمترية) التى طبعت فن العمارة المصرى بطابعها . وجرت العادة على تمييز المشكاة الجنوبية عن أخيها الشمالية ، بإساعها عنها ، أو عمقها ، أو تعدد مستويات أكتافها ، أو تسقيفها ورففها ، ثم وضع مائدة القرايين أمامها أو فى رحابها^(٢) ، وتثبيت لوحة القربان المسطحة فيها ، وهى اللوحة التى تتابعت مفردات مناظرها المنقوشة منذ أوائل عصر بداية الأسرات بتصوير صاحبها جالسا أمام مائدة قربانه يحيط به اسمه وألقابه وطسته وإبريقه وقائمة بأسماء الأطعمة والمشروبات والكساوى والدهون والزيوت التى يتمنى أن تتوافر دائما من أجله ويرجو أن يستمر انتماعه بها إلى أبد الآبدين^(٣) .

وخضعت مفردات المناظر المنقوشة على هذه اللوحات فى عصورها الأولى لتطورات اتصلت بمآقب عهدها واختلاف أخيلة أصحابها ، فاصطبغ تناول الفرد لقربانه فى أقدمها بصورة مادية ، وكان يصور أحيانا يضع يده مباشرة فوق شرائح الخبز المرتبة

Elmery, op. cit., II, p. 18, Fig. 5, pl. XV a-b. (١)

Reisner, op. cit., 249 f. ; 255 (٢)

(٣) يرى يونكر أنه كان فى تسجيل أصناف القرايين وأعدادها على اللوحة ما يعوض المتوفى عن انقطاع زيارة أهله له وانقطاع تقديم القرايين لصانعه .
H. Junker, Giza, I, 24 f.

على مآذنه ، وقد يعمد الفنان حينذاك إلى تصوير هذه الشرائح تنقص واحدة أو اثنتين ليعبر عما أكله صاحبها منها ^(١) .

ثم تعدلت هذه الصورة المادية شيئا فشيئا ، واعتمد الفنان على أن يصور صاحب المائدة يسط كفه نحوها دون أن يمسه ، كما لو كانت إشارته إليها كفيّلة بأن تحقق له عملية الاستفادة المعنوية من خيراتها كاملة غير منقوصة . وتميزت مناظر اللوحات المتطورة في عصر الأسرة الثانية بصور الطست والابريق قريبين من متناول يد صاحب اللوحة ، تعبيرا عن رقي الحياة الخاصة في عصرها ، وأصبح تصويرها من العوامل المساعدة في توقيت اللوحات التي لم تتضمن نصوصها إشارات صريحة الى عصرها ^(٢) .

وليس ما يمكن تأكيده عن أقدم المواضع التي وضعت فيها هذه اللوحات في مصاطبها ، فكل ما عرف عنها هو أنه عثر عليها فوق سطح الأرض في أغلب الجبانات الشمالية للعصر الثني ، فيما خلا قلة منها أمكن ترجيح تبنيها أصلا في المشكاة الجنوبية الرئيسية لمصاطبها . وفيما خلا لوحات حلوان التي عشت في مواجهة رأس المتوفى بسقف حجرة دفنه وقرب حافة البرء الصغيرة التي تصل بين هذه الحجرة وبين الجزء العلوي لمصطبتها عساه يذفع بما صور عليها انتفاضا دائما يناسبه ، ولتكون بموضعها وصورها هاديا لروحه إلى الطريق الذي تسلكه إلى مقصورة قرابينها فوق سطح الأرض ^(٣) . ثم انتهى المطاف باللوحات بعد ذلك ، هنا وهناك ، إلى أن اتخذت وضعها الثابت في صدر المشكاة الرئيسية للواجهة الشرقية من مصاطبها .

واربط تمييز المشكاة الجنوبية عن أختها الشمالية بنفس العامل الذي أدى إلى وجود المشكاة الوحيدة في الطرف الجنوبي من واجهة مصطبتها (ص ١٠٣) ، وهو قربها من الاتجاه المتاد لرأس المتوفى . كما ارتبط في المقابر الأسرية بتخصيصها لقرابين الزوج وتخصيص أختها الشمالية لقرابين زوجته ^(٤) . وقد يراعى أحيانا

(١) Drioton, in Ann. Serv., Cahier XIV, 1951, p. XIV

(٢) J.E. Quibell, Archaic Mastabas, 1923, 10

(٣) Drioton, op. cit., p. XII

(٤) A. Rusch, « Ein Entwicklung der Grabsteinformen im. Alten Reich », (٤)

Ae. Z. S. LVIII, 103.

أن تقابل المشكاة الجنوبية حجرة الدفن بينما تقابل أختها الشمالية نهاية الدرج المؤدى إليها^(١). ولم يتغير تمييز المشكاة الجنوبية، إلى تمييز الشمالية، في غير حالات معدودة ظهر بعضها فيما بين عصر الأسرة الحامسة وبين عصر الانتقال الأول في منطقة إدفو^(٢).

أكد ريزنر أن طراز المصاطب ذات المشكاوات على واجهاتها الأربعة كان طرازاً ذا صبغة جنازية في جملة^(٣). وأخذ هرمان يونكر برأى عام قال فيه أنه قصد بها، أى المشكاوات، أن تسمح لروح المتوفى بالدخول إلى مقبرته وخروجها منها^(٤). وساق إمري رأيه الذى أسلفناه وهو أنه إذا بنيت خلف المشكاوات مخازن فوق سطح الأرض، أصبحت هذه المشكاوات أبواباً لكواوات (?) أصناف الطعام والشراب المختزنة خلفها.

غير أنه يبدو أن في اعتبار المشكاوات أبواباً على الإطلاق تعميلاً لا يخلو من شك، فمشكاوات المصاطب كانت تؤدي غرض الزخرف المعماري أكثر من أى غرض آخر، لا سيما بالنسبة إلى المشكاوات المتتابعة التي تعددت مستويات أكتافها الداخلية ولون وزخرف بشكل يبعد بها عن الطابع العملي للأبواب العادية أو الأبواب الرمزية. وليس ما يحول بعد ذلك دون أن نذهب مع چيكييه ومن أخذوا برأيه إلى أن أسلوب المشكاوات انتقل من المساكن إلى المصاطب وأن المشكاوات في اللبن قلدت في بداية ظهورها تركيبات معمارية في مساكن دنيوية قديمة استخدم اللبن والخشب في بنائها، وذلك على أساس اعتبار المصطبة مسكناً أخروياً للمتوفى

Reisner, op. cit., 249 (١)

(٢) وعلقت نوبلكور ذلك بأن أصحابها قصدوا توجيهها والرمز بها إلى مدينة نخن أو نخب أى مكة الدولة القديمة على حد تعبيرها، على خلاف ما جرت عليه تقاليد الوجه البحري.

D. Noblecourt, « Les tombes à niches orientées », Miscellanea Gregoriana, Vatican, 1941, 64 f.

وراجع كذلك عن استثناءات قليلة أخرى في اوضاع المشكاوات بالنسبة إلى واجهات مصاطبها:

Garstang, Raqagah, p. 32, Tomb No. 50 and 70 ; Rusch, op. cit., 102.

Reisner, op. cit., 244—245 (٣)

H. Junker, Giza II, 6 (٤)

يقلد هيئة مسكنه الديوى^(١) (وذلك على العكس من رأى ريزنر سالف الذكر وعلى العكس مما ارتآه بترى ومن أخذوا برأيه عن تقليد المشكاوات لمساكن خشبية متسعة قديمة)^(٢) .

وثمة فرض آخر أقل احتمالا ، افترضت فيه Mme Desroches Noblecourt أن مشكاوات المصاطب قلدت مشكاوات أسوار حصينة ورمزت إلى الحماية السحرية لمساكن المصطبة ، على حد تعبيرها^(٣) .

على أنه أيا ما كان من هذين الفرضين ، فلم يكن من الطبيعي أن تتعاقب الأبواب بتعاقب المشكاوات سواء في واجهات القصور أم في واجهات الأسوار^(٤) . وإنما يحسن قصر أداء المشكاة لفرض المدخل الرمزي (أو الباب الرمزي) على مشكاوات بعينها ميزها المعماريون عن أخوانها بميزات مقصودة . وظل هذا التمييز في أغلب أحواله من نصيب إحدى المشكاوات الجنوبية في الواجهة الشرقية للمصاطب التي تتابعت المشكاوات على واجهاتها الأربعة ، وظهر من صورته في مقابر عصر بداية الأسرات أن لونت كل بواطن مشكاوات مصطبة كبيرة في طرخان (ترجع إلى النصف الأول من عصر الأسرة الأولى) ، باللون الأحمر ، ثم تعدد البناء أن يعبر من بينها المشكاة الرابعة في النصف الجنوبي للواجهة الشرقية ، فكسا أرضيتها بأنواع خشبية ، ورأى بترى أن جوانبها ، أو على الأقل دخلتها العميقة ، كانت مكسوة بالخشب أيضا ، وذلك مما دعا إلى الاعتقاد بتخصيصها لتقديم القرابين فيها أو امامها باعتبارها المدخل المختار لروح صاحبها^(٥) . ولو أنه ينبغي أن يضاف

G. Jequier, Manuel d'Archéologie Egyptienne, 85 f. 89, 125 ; A. Choisy, (١)
L'art de bâtir chez les Egyptiens, 8 ; A. Scharff, Das Grab als Wohnhaus
in der agyptischen Frühzeit, 1947 ; J. Vandier, Manuel d'Archéologie, I, 699.
Petrie, Tarkhan, II, p. 8—9 ; I, pl. IX—X ; J. Capart, L'Architecture, (٢)
74 f. ; H. Balcz, « Die Altaegyptische Wandgliederung », Mitt. Kairo, 1930,
73 f. ; B. Smith, Egyptian architecture as cultural expression, 37 f. ;
A. Badawy, op. cit., 71.

D. Noblecourt, Le Style égyptien, 48 (٣)

(٤) احتج ريزنر بهذا السرائى في الاعتراض على القول باعتبار واجهات السرخ تمثل بوابات ذات دخلات وخرجات ، ولكنه لم يطبقه على رأيه في مشكاوات المصاطب .

Reisner, op. cit., 243 f.

Petrie, op. cit., I, 13, 14, pl. XV, 1—2 also II, p. 4 (٥)

من جهة أخرى أنها لم تكن مواجهة لحجرة الدفن على نحو ماروعى في أغلب مداخل الروح عندما استقرت مواضعها ووظائفها بعد ذلك خلال عصور الدولة القديمة (راجع ص ١٢٠) .

وعثر ولتر إمري في أرضية مشكاة كبيرة بالطرف الجنوبي لواجهة مصطبة ضخمة في سقارة نسبها إلى الملكة مريت نيت (؟) ١٠ على بقايا ألواح وعارضة خشبية رجح أنها كانت سقفة ميزت مشكاتها عن أخواتها ودلت على تخصيصها لأغراض الروح وتقديم القرбан . ثم أضاف إمري ظاهرة أخرى لا بأس من ذكرها ، وهي عثوره في أرضيات مشكاوات كبيرة أخرى في ذات النصف الجنوبي للواجهة الشرقية من المصطبة نفسها على أوان ردها إلى عهد واحد وتميز منها إربقان وطستان صغيران ^(١١) ، وهذه يمكن تعليل وجودها في غير مشكاة القرابين الرئيسية بكثرة الهدايا والقرابين التي قدمت باسم الشخصية الكبيرة صاحبة المصطبة . مع ضيق المشكاة الرئيسية المسقوفة بمحتوياتها .

ويظن إمري أنه كان يعلو مشكاوات المصطبة . أو بعضها ، إطار طيني دائري المقطع يشبه هيئة الخيزرانة (Torus) التي أصبحت تحيط بحواف مداخل الروح (الأبواب الوهمية) في عصور الدولة القديمة .

* * *

لم يشهد عصر بداية الأسرات انعقاد الصلة بين لوحة القرбан وحدها وبين مشكاوات القرابين ومداخل الروح . وإنما افترض عدد من الباحثين صلة أخرى في الفرض والتعبير بين مداخل الروح في العصر نفسه وبين النصب الحجرية ذات القمة المقوسة التي توزعت بقاياها عند مقابر فراعنة الأسرة الأولى وأتباعهم في أيدوس ، والتي جرى الاصطلاح على تسميتها باسم النصب الأيديرية ، وإن اختلفت آراء بعض هؤلاء الباحثين عن بعض آخر في تحديد الأغراض والتعبيرات المشتركة بينهما .

Emery, op. cit., II, p. 128, 139, pl. XI 11, LIII (١)

فذهب ماسيرو وجيكييه إلى أن النصب والأبواب الوهمية أدت غرض التعبير عن باب مقر المتوفى ، ثم عبرت عن داره الأخروية كلها ، أى مقبرته ^(١) . ولكن جيكييه نبه من ناحيته إلى وجود اختلافات تفصيلية بين وظيفة النصب وبين وظيفة الباب الوهمي ، فالنصب التي كان يكتب فيها بتسجيل اسم صاحبها عليها ، قصد بها في رأيه أن تظل شاهدا عليه وعلى ملكيته لقبره ^(٢) وذلك على العكس من الباب الوهمي الذي كان ينقش عليه اسم صاحبه ودعوته إلى أبواب الآخرة ، ويقصد به أن يؤكد ارتباطه بأولئك الأرباب وأن يكون سبيلا لدخول روحه إلى مقبرته وخروجه منها ^(٣) .

ورأى جان كابر ومرجريت مري واسكندر بدوى أن كلا من النصب ذات القمة المقوسة والأبواب الوهمية (المداخل الرمزية) ذات الحافة العليا المسطحة كانا يقلدان مرحلتين معماريتين متتاليتين شيدت بهما واجهات أكواخ المعبود إنبوراى السحنيط والتطهير ، في عصر بداية الأسرات وعصور الدولة القديمة . وأضافوا أن تقليد واجهات هذه الأكواخ في نصب المقابرو أبوابها الوهمية كان يعبر عن الرغبة في نسبة طقوسها إلى المتوفى ، أو هو يدل بمعنى آخر على رغبة أصحابها في أن ترد عليهم فائدة الطقوس والدعوات التي تجري داخل نماذجها الأصلية . أى مقاصير إنبو ، إلى الأبد ^(٤) . وعاد كابر فاعترض على تسمية الباب الوهمي الشائعة وافترض أن طرازه كان يعبر عن واجهة ناوس يحتوى على تماثيل جنازية تستخدم في أداء الطقوس المقدسة ^(٥) لولا أن هذا التفسير على الرغم من حداثة لازال بعيدا عن التأكيد .

G. Maspero, *Egypte (Ars Una)*, 1913, 106—107 ; (١)

G. Jequier, *Manuel d'Archéologie Egyptienne*, 350 f.

Ibid., 350, 352 ; H. W. Mueller, *Die Totendenksteine*, 167, 173 ; Capart, (٢)
in *Chr. d'Egypte*, 1941, 283 ; 206, S.F. Garnot, *Religions Egyptiennes Antiques*
(Bibl. 1939—1943) 1952, 210 f. (gr. Séma).

Jequier, *op. cit.*, 358 (٣)

M. Murray, *Saqqara Mastabas*, II, 10 ; J. Capart, *op. cit.* ; A. Badawy, (٤)
op. cit., 219 f.

Capart, *op. cit.* ; 1944, 230 : (La « Stele » est appelée formellement (٥)
« r'-pr », c'est-à-dire temple).

ورأى شكرى أن النصب والأبواب الوهمية قلدا طرازين لأبواب مساكن قديمة بنى أصحابها بعضها مقبية السقف وشيدوا بعضها الآخر مستطيلة الواجهة والسقف ، وترتب على ذلك أن أدت كل منهما ، أى النصب والأبواب الوهمية ، أغراض الأخرى ^(١) .

وهكذا يمكن أن ننتهي إلى أنه إذا صح ما ذهبت إليه الآراء السابقة من عقد الصلة بين فكرة النصب وأغراضها وبين فكرة الأبواب الوهمية وأغراضها ، وهو في مجمله مقبول ، أمكن اعتبار نصب أبيدوس في العصر الثني مرحلة من مراحل التطور نحو مداخل الروح الكاملة خلال عصور الدولة القديمة .

* * *

خرج عصر الأسرة الثالثة بتطور جديد في تقليد هيئة المداخل داخل المقابر تحت سطح الأرض حينما وفوق سطحها حينما آخر . فتضمنت الدهاليز السفلى للهرم المدرج ومقبرة زوسر الجنوبية في سقارة ست مشكاوات حدد كلا منها إطار حجري مستطيل حاد الزوايا . فأصبحت تقليد هيئة المداخل ^(٢) ، (شكل ٤) ، وظهرت لكل منها في داخلها وتحت عتبها الحجري العلوى أسطوانة حجرية أفقية قلدت هيئة حصير ملفوف حول أسطوانة خشبية (طبلية) ، كان يسدل بجذبه إلى أسفل ليستر مداخل المساكن القديمة ، ثم أصبح يؤدي الغرض نفسه بالنسبة إلى المداخل المتطورة ذات الأبواب الخشبية حين تفتتح أبوابها على مصاريحها . وأجاد صانع هذه الأسطوانات تقليد هيئة أعواد الحصر الأفقية العريضة ، كما أجاد تقليد تفاصيل الجداول أو الحبال الرفيعة التي تحزمها وتندخل في نسيجها على هيئة السدي واللمحة ^(٣) . (وذلك مادما جيكييه وركه إلى اعتبارها تمثل الحصر ذاته بغير اسطوانة تحته) ^(٤) . (شكل ٥) . وعلت العتب العلوى لكل مشكاة نافذتان

(١) محمد أنور شكرى : نصب أبيدوس والفرض منها - القاهرة ١٩٥١ -

ص ١٦ - ١٩

C. M. Firth and J.E. Quibell, The Step Pyramid, vol. II, pl. 13 b ; (٢)

15-17 ; 38 (2) ; 39 ; 43.

Ibid., pl. 38 (2) (٣)

Jequier, op. cit., 86, 126 ; Rieke, Grundriss ... , 19 (٤)

صغيرتان رمزيتان متباعدتان تضمنت كل منهما في جزئها العلوى أسطوانة حصير
حجرية صغيرة تناسبها (١) .

واحتوت كل مشكاة في صدرها لوحة نقشت بصورة الفرعون زوسر وألقابه
ورموزه الملكية ورموز أخرى إلهية ، فصورته اللوحات الست يؤدي مراسيم معينة
أمام مقاصير آلهته ، مشدود العضلات ، منتصباً راسخاً حيناً ، ومسرعا في خطوه
لا تكاد أطراف أصابع قدميه تلمس الأرض حيناً آخر ، وجعلوا لسطوح صورته
تموجات خفيفة عبرت عن تكوين عظامه وشدة عضلاته ونحافة خصره وامتلاء
شفتيه ، في وضوح كامل .

وبهذا التركيب انتظمت لمداخل مقبرتي زوسر (أو أبوابها) ثلاثة عناصر
أصبحت من ضرورات مداخل الروح حين اكتملت صورتها . وهذه العناصر
هى : الاطار الخارجى المسطح الذى يتألف في مجمله من كتفين بسيطين وعتب
علوى ، وأسطوانة الحصير الحجرية التقليدية ، ثم اللوحة الداخلية المنقوشة بصورة
صاحبها واسمه وألقابه . ولم يعد بلوحات زوسر عن أداء أغراض لوحات مداخل
الروح التى لازمتها في عصر بداية الأسرات ، سوى أن صورها عبرت عن عبادات
ومراسيم دينوية ، دون مناظر تناول القربان الأخرى وتسجيل أنواعه وأعداده ،
إلا إذا افترضنا أن فنان زوسر استجيب أن يعبر عن أمل فرعونه في دوام أدائه
لمراسيم العبادة الدينيّة في أعياده الخاصة بعد انتقاله إلى دنياه الثانية ، عن طريق
تصويرها لروحه في داخل مقبرته . (وذهب كويل وفرث هذا المذهب في تعليل
بناء مقاصير عيد السد في مجموعة زوسر بسقارة ، فافترض أنه بناها بمجوار هرمه
ليستخدمها أو تستخدمها لروحه في الاحتفال بأعيادها في دنياه الثانية) (٢) .

وظاهرت لوحات زوسر في مقبرته الجنويّة ثلاثة أبواب حجرية صماء
(موصدة) ذات عوارض أفقية قلّدت هيئة الأبواب الخشبية العادية ذات الدلفة
الواحدة ، وافترض كويل أنها قلّدت الأبواب الخلفية للبيوت التى عبرت اللوحات

Firth-Quibell, op. cit., Vol. I, p. 59 (١)

Ibid., p. III (٢)

الثلاث عن مدخلها الأمامية^(١)، وما من شك في أن أمثال هذه الأبواب الصماء العادية المقادة في الحجر هي الأقرب إلى أن تسمى باسم الأبواب الوهمية أكثر من الأبواب الأخرى التقليدية موضوع البحث والتي آثرنا لها تسمية مدخل الروح حيناً والمدخل الرمزية حيناً آخر .

وانضمت عمارة مقابر الخاصة في عصر الأسرة الثالثة بخصائص مدخل الروح في مقبرتي زوسر ، ارتفاعاً يتناسب مع بنائها باللبن دون الحجر . وظهرت صور هذا الانفتاح في وضع مصاطب من أهمها مصطبة حسي رع في سفارة ومصطبات في الرفائقة .

وتضمنت مصطبة حسي رع في تكويناتها المعمارية عناصر قديمة وأخرى حديثة . فتصدرت واجهتها الشرقية مشكّتان ، إحداهما شالية بسيطة ، والأخرى جنوبية متسعة مركبة يفضى مدخلها إلى دهليز ضيق يمتد بطول المصطبة^(٢) ، وتطل عليه منها إحدى عشرة مشكاة (تواجه الشرق) (شكل ٦) زخرف الرسام سطوحها وجوانبها بتكوينات خطية هندسية ذات ألوان مبدعة ورسوم تقلد سائر الحفريات الأخرى وحملها^(٣) . وتضمنت كل مشكاة في باطنها لوحة خشبية مستطيلة نقش عليها فنائها صور صاحبها وألقابه ، في أسلوب قلده خصائص النقش عند زوسر ، من حيث قلة البروز وإظهار الجسم المشقوق والتعبير عن شفافية جلد الوجه ووضوح عظام الوجنتين والترقوتين .

ثم عبر الفنان عن كفايته ودقته وعن ثراه صاحب المصطبة وأناقته بمثل شعره المستعار في كل لوحة بترجيئة خاصة تختلف عن أخواتها في بنية لوحاته الأخرى .

وظهر حسي رع في لوحته من لوحاته الست الباقية ذات النقوش الواضحة ، واقفاً تعلوه ألقابه ، وظهر في اثنتين آخرين بالهيئة نفسها ولكن تحيط به

Firth-Quibell, op. cit., II, pl. 45 (3) ; Vol.I. p. 61

(١)

J.E. Quibell, The Tomb of Hesy, p. 4, 9 ; pl. IV, VIII-IX

(٢)

Ibid., pl. VII, 3 ; XXXIX-XXXII

(٣)

مع ألقابه قائمة بالقرابين التي تمنها لنفسه . وظهر في لوحته الخامسة جالساً ببعض شارات الاناقة والعمل بسط يمينه نحو مائدة قربانه وأمامه طست وإبريق وبحور ودنان نيزد . . ، ثم ظهر في لوحته السادسة واقفاً يصب ماء طهوراً أمامه ، ولعله كان يصبه فوق مائدة ضاعت آثار نقوشها . وعبر تعدد هيئات حسى رع وأوضاعه في مناظر لوحاته (ومناظر بقية اللوحات التي ضاعت آثارها) عن ترف حياته الدنيوية وعمّا كان يرجوه من ترف حياته الأخروية في آن واحد .

وهكذا جمعت عمارة مصطبة حسى رع بين ثلاثة عناصر قديمة وبين ثلاثة أخرى حديثة . وتمثلت عناصرها القديمة في وجود المشكّاتين في واجبتها الخارجية ، مع تمييز الجنوبية منهما ، وفي وجود الاحدى عشرة مشكاة المتتابعة في واجبتها الداخلية ، ثم في أخذها بعادة تثبيت اللوحات في صدور مشكاواتها .

أما عناصرها الجديدة فتتمثلت في تعدد لوحاتها بتعدد مشكاواتها ، وفي اصطباغ بعض مناظرها بالطابع الدنيوى ، مع اقتباس موضوعات لوحات القرابين الحجرية لبعض لوحاتها الخشبية ، لا سيما تلك اللوحة التي صورت حسى رع جالساً أمام مائدة قربانه ، وهى لوحة يرجح أنها شغلت المشكاة الخامسة من المشكاوات الجنوبية فى واجهة مصطبته وحددت بذلك موضع تقديم القرابين من أجله .

وظهرت فى الجزء العلوى لكل لوحة خشبية فتحة صغيرة أفقية مستطيلة (١) (فيما خلا واحدة منها علاها إفريز أفقى أكثر عرضاً منها جعلها تشبه هيئة مصراع الباب فى الكتابة الميروغليفية) ، وافترض كويل وفرث أنها استخدمت فى تثبيت اللوحات داخل مشكاواتها عن طريق حشو يعمل بينها وبين قوالب اللبن الموجودة خلفها ، ولكنهما أضافا أنهما لم يهتزا على أثر ماضى لهذا الحشو . واستبعد اسكندر بدوى فكرة استخدام هذه الفتحات لتثبيت لوحاتها ، وافترض أنها كانت تعبر عن نوافذ وهمية (٢) . وهو فرض كان من الممكن قبوله باعتبارها تقليداً متواضعاً

Quibell, op. cit., p. 5. ; pl. XXIX—XXXI

(١)

Alex. Badawy, « La stèle funéraire égyptienne à ouverture aziale »

(٢)

Bulletin de l'Institut d'Égypte, XXXV (1964), 128.

لأنواذ الصاء، التي علت لوحات زوسر (ص ١٠٩)، واعتبارها مرحلة متواضعة سبقت ظهور الشراعة الرمزية التي سوف تملأ مداخل الروح في أوائل عصر الأسرة الرابعة (ص ١١٤) لولا أنها تفرقت في خشونة واضحة وفي غير تنظيم بما لا يتناسب مع العناية الفائقة في إخراج نقوش لوحاتها وصورها، وذلك مما يدعو إلى الظن بأنها كانت مغطاة بوسيلة ما وبشكل لا يفسد منظر لوحاتها.

وشابهت لوحات حسي رع لوحات لمصطبتين في الرافقة تصدرت إحداها مقصورة صغيرة خلف المشكاة الجنوبية في مصطبتها، وكانت عبارة عن لوحة خشبية ذات كنفين نقشت عليها صورة صاحبها « شبس » يتدرج بجلد فهد ويحمل عصويه ونقشت ألقابه حوله، وعلتها أسطوانة الحصر التقليدية^(١). أما الأخرى فهي لوحة حجرية تصدرت جزءاً من الواجهة الشرقية لمصطبتها وأحاطها سور من اللبن، ونقشت عليها صورة صاحبها « سامري » واقفاً يمد يده بعصاه مع نتي ذراعه ثنية لطيفة، وواجهته مجموعة قرابين بسيطة^(٢). وعبرت نقوش هاتين اللوحتين عن صورة من صور الفن الاقليمي في عصرها في مقابل فن العاصمة الذي مثله نقوش حسي رع التي سبقتها بفترة قصيرة.

* * *

تأثرت مداخل الروح بدفعة معارية جديدة حين أصبحت سطوح مشكاواتها تكمي بالواح حجرية في مصاطب كبار الأفراد منذ أواسط عصر الأسرة الثالثة. واكتمل هذا التجديد المعاري في مصطبة خع باوسكر وزوجته نفرحوتب^(٣). فكسا البناء بواطن وجوانب مشكاكي الزوجين (في صدر الجدار الغربي لمقصورة القرابين الجنوبية في مصطبتهم المزدوجة) بالواح حجرية مصقولة ونحت أسطوانة الحصر لكل منهما من الحجر أيضاً، فأقرب تكوينهما نتيجة لذلك مما بدأت به

Garstang, Raqânah, p. 49 f. pl. XXV, XXVIII—XXIX; W.S. Smith, (١)

A History of Sculpture and Paintings, 142; H. Junker, Giza II, 6.

Garstang, op. cit., 45—46, 58, pl. XXIV, XXVIII; compare also, (٢)

Rusch, op. cit., 105.

Cairo, 1385; M. A. Murray, Saqqara Mastabas, I, pl. I—II; (٣)

G. Reisner, op. cit., 255, 268—69.

مداخل مقبرتي زوسر في أوائل عصر الأسرة . وقسم المعاري واجهة المشكاتين بقنوات رأسية كسّتها بطابع زخرفي مقبول ثم زادها حلية بتقليد زخارف الحصير الفاخر عليها . وترتب على هذا التطور المعاري أن اتسعت المسطحات الصالحة للنقش أمام الفنان فاستغلها في تكرار نقش ألقاب صاحب المقبرة وصورة جالساً إلى مائدته في دخلة مشكاته التي عبرت عن موضع بابها ، وسجل أسفله قوائم قرايين منسقة في صفوف رتيبة ، وعبر بالمنظر في مجمله عن صورة الحياة المادية التي ارتجأها صاحب المقبرة لنفسه في عالم الغرب أو في داخل مسكنه الأخرى (وهي نفس الأغراض التي خدمتها مناظر لوحات القرايين من قبل) . واستغل الفنان جانبي دخلة المشكاة العميقين في تصوير خع باوسكر منصباً متجهاً إلى الداخل بهمهاء ، وكرر تحته جداول قرايينه ، ثم كرر أهم ألقابه على أسطوانة الحصير الحجرية وعلى العتب الحجري الضيق الذي علاها ، أي أنه لم يدع جزءاً من الكساء الحجري للمشكاة إلا استغله لمصلحة صاحبه وتخليد ذكراه (شكل ٨) . ثم اتبع الأسلوب نفسه بالنسبة إلى مشكاة زوجته وصورها وجداول قرايانها .

وتكرر تبطين المشكاوات اللبنية الرئيسية بالألواح الحجرية وتقليدها لهيئة المداخل في مصاطب أخرى ، مع تفاوت في تنفيذ الزخرف المعاري ودقة النقش بين كل مصطبة وأخرى . واكتملت صورة هذا التطور في مشكاتي الأمير نفرمات (ابن سنفرو) وزوجته إمت في ميدوم^(١) . فكسا المعاري مشكاة الأمير ، في صدر مقصورة قربانه ، بألواح حجرية ضخمة حولتها إلى مدخل بكتفين ذي دخلة عميقة تعبر عن موضع بابه وتتوسط جزءها العلوي أسطوانة الحصير الحجرية ، ثم أضاف أمراً جديداً استعار فيه لوحة القربان التي كانت تعشق قبلا في مشكاة القرايين وذبنتها فوق عتب المدخل بحيث توسطته ، وأزاد فوقها عتباً ثانياً ، وأدى هذا العتب العلوي أغراضاً عدة ، فأصبح يمثل إطاراً علوياً للوحة يحقّق التوازن المعاري بين ما تحتها وما فوقها ، ويرمز بالفراغ الواقع بين العتبتين الذي شغلت اللوحة أكبر جزء منه إلى شراعة مدخل دار الآخرة أو نافذته ، وبحيث ترمز اللوحة بمنظرها التقليدية إلى ما يرتجى

أن تصبح عليه حال المتوفى في قاعة طعامه فيا لتوطلع أحد إليه من شراعة داره^(١) ، وذلك فضلاً على قيمة اللوحة الذاتية القديمة في تسجيل صور القرابين وأسمائها وأعدادها المرجوة لصالح صاحبها واحتمال الرغبة في استرشاد روحه بصورة المنقوشة عليها .

ولم يجد فنان ميدوم ضرورة إلى تصوير الأمير أمام مائدته في عمق المدخل كما فعل زميله في مقبرة خع باوسكر ، بعد أن نقل هذا التصوير إلى لوحة القران في موضعها الجديد ، فاكثف بصور الأمير في صدر المدخل واقفاً مرسل يديه إلى جانبيه باسطة كفيه وصور نحوه ولده الصغير يضع إصبعه على فمه دلالة على حذانة سنه وحاجته إلى من يعوله ، وصور على الكتف الأيمن للمدخل زوجته إنت ، وعلى الكتف الأيسر أولاده وكاهن مقبرته ، ثم أحاط جوانب المدخل الثلاثة بطائر حجري خارجي ضيق نحوه في نفس الألواح الحجرية التي تحت الكتفين فيها .

وتكررت أغلب هذه العناصر والمناظر في مشكاة إنت زوجة الأمير ، ثم انتقلت إلى عمارة مقابر كبار الأفراد في العصر نفسه ، ومنها عمارة مقبرة مثن في سقارة^(٢) .

وأضافت مدرسة ميدوم عناصر جديدة في تخطيط المدخل وتنميته في مصطبة الأمير رع حوتب ، بعد فترة وجيزة من بناء مصطبة نفرماعت ، فقلل الممارى عمق المدخل ، وكرر كتيهه على جانبيه بحيث أصبحت مسطحاته الأفقية ذات مستويين ، وأزاد امتداد العتب العلوى أفقياً حتى غطى على طرفي الكتفين الخارجيين الجديدين ، على العكس من العتب السفلى الذى اكثف بتغطية امتداد الكتفين الداخليين . واستغل عمق الدخلة البسيطة لمثل ما استغله من أجله في مدخل نفرماعت ، أى لنقش ألقاب الأمير وصورته واقفاً بعصوه ، وصور على واجهتي الكتفين الداخليين جماعة من أهل بيته ، بينما سجل على واجهتي الكتفين الخارجيين قوائم الهدايا والقرابين المقدمة إليه والمرجوة من أجله^(٣) .

ولمس الفنان لوحتي القران في مدخل الأمير ومدخل زوجته نفرة بتجديدها ، فأحاط لوحة الأمير بألقابه ، وصور وسادة على مقعده ، وعز عليه أن بصور زوجته

Jequier, Rec. Trav., XXXII, 169—170 ; Manuel, 126—127 ; Müller, (١)
op. cit., 178.

L.D. II, 4 ; Berlin 1168, 1170 (٢)

Petrie, Medum, XIII—XV, Cairo 136 C (٣)

وحدها على لوحها ، فصوره معها ، كلا منهما على مائدة خاصة في مواجهة الآخر ، وإن كانت سلامة النسب قد خازنه هذه المرة فصور المائتين بحجم صغير لا يتناسب مع حجم الجالسين أمامهما .

واستفادت مصطبة إينفر في دهشور⁽¹⁾ من تطورات العمارة في ميدوم ، فشكل المعاري لوحاتها الحجرية الكلاسيكية لمشكاتها الرئيسية على طرازين : فبنى إحداهما بطراز بسيط عميق ذي كتفين ، واستغل سطوحها الحجرية لتكرار ألقاب صاحبها وصوره ، بردائه القصير مرة وبملقعة طويلة من جلد الفهد المرقش مرة أخرى ، وتميزت له صورة مثله في عمق مشكاته جالساً بهمهاء يرفع كفه اليمنى المبسوطة على فخذه رفعا قليلا كأنما بهم بأن يمدحها نحو مائدة لم يصورها الفنان لضيق المكان ، وصور على جانبي المشكاة العميقين جماعة من أتباعه يتجهون بقرايبتهم ناحية صورته ، ثم كرر صورهم على جدارين يمتدان أمام المدخل كله . وبنى المعاري المشكاة الأخرى بمسويين ، أى بأربعة أكثاف ، وكرر على مسطحاتها أغلب المناظر السابقة وصور صاحبها على أحد الكتفين الخارجيين أمام مائدة قربانه ، ليس في وضع الجاوس المعتاد وإنما واقفاً في حجم كبير وأمامه مائدة ضئيلة الحجم ، دون ما سبب إلا لعدم توفيقه في اختيار النسب السليمة بينهما .

وبدأ مدخل الروح يحجر مشكاته بعد أن أخذ مقوماته منها وبعد أن أصبحت المصاطب الكبيرة تبنى من الحجر ، وغدا يمثل وحدة معارية مستقلة بذاتها تمتاز عما حولها بعناصرها وموضوعات نقوشها . وتآلف في صورته العامة من المفردات التي تتبعها واحدة بعد أخرى ، أى من قائمين (أو خدين أو كتفين) حجرين يحددان دخلته التي تعبر عن موضع بابه ، والتي يختلف عمقها من مدخل إلى آخر ، وتنقش على واجهتهما وجانبيهما الداخليين ألقاب صاحبهما وصوره متجه نحو الداخل حيناً ونحو الخارج حيناً آخر ، وقادماً من اليمين مرة ومن اليسار مرة أخرى ، بالنقبة القصيرة التي تبلغ الركبتين ، أو بأخرى تمتد من الوسط حتى رسغى القدمين ، أو بملقعة كبيرة من جلد الفهد ، أو بالنقبة والملقعة معاً ، تبعاً لثرائه وأذواق عصره ، ثم بهمهاء الطويلة أو بدونها ، وبهمهاء القصيرة (سخم) ، أو بهصويه معاً ، أو بشاردة أخرى

من شارات الأناتة في عصره . وقد زيد الفنان فيصوره في أكثر من هيئة واحدة ، فيصوره نحيفاً وممتلئاً ، وحليق اللحية وبلحية مستعارة^(١) . ويتقل بعد ذلك إلى تصوير أقرب الناس إليه لا سيما زوجته التي تصور عادة في أوضاع تناسب المواضيع التي تصور فيها ، ترسل يدا وتضم الأخرى إلى صدرها أو ترفع بها زهرة إلى أفتها ، وقليلاً ما تجمل شعرها بالزهور^(٢) ، ويصور له أولاده يؤنسون وحدته ويلودون بعصاه أو يتعلقون بأهمهم إذا كانوا صغاراً ، أو يقدمون الهدايا والقرايين إليه إذا كانوا كباراً ، ثم بعض الأصدقاء والأبناء يقدمون الهدايا والقرايين إليه أو يحملون إلى ساحة مقبرته ثمرات الأملاك الموقوفة عليها .

وتتوسط الجزء العلوى من الكنفين تلك الاسطوانة الحجرية التي ظهرت بتفاصيل نسيج حصيرها القديم عند زوسر ، لولا أنها تختل عن أغلب هذه التفاصيل بعد عهده وأصبحت لمساء تقريباً ، ولهذا اعتبرها كل من Balcz and Smith في صورتها للمساء مجرد تقليد لجذع خشبي أمامى من جذوع السقف ووسيلة للربط بين الكنفين^(٣) ، وقد مر بنا (ص ١٠٩) كيف ذهب G. Jequier and H. Ricke إلى النقيض تماماً ، فاعتبرها نموذجاً حجرياً للحصير ذاته بغير أسطوانة تحته . ولكن لا زال رأى القديم باعتبارها تقليداً مبسطاً لأسطوانة الحصير هو المرجح^(٤) .

ويعلو الكنفين العتب الحجرى المستطيل ويؤلف معها زاويتين قائمتين . وقد اكتفت نقوشه في أبسط صورها بتسجيل اسم صاحبه وأهم ألقابه .

واكتفت بهذه العناصر الثلاث البسيطة بعض مداخل الدولة القديمة . وتختلف من نماذجها الواضحة مدخل « شرى » أحد رؤساء كهنة المقابر والشعائر الملكية في أوائل عصر الأسرة الرابعة^(٥) ، وقد تميزت موضوعاته المنقوشة بصور صاحبه في عمق المدخل مرتين وليس مرة واحدة ، وتصويره منهلاً (على خلاف المعتاد

(١) Cairo 1397

(٢) Cairo 1425

(٣) H. Balcz, op. cit., 75

(٤) Perrot, L'Egypte, 513, see also, Vandier, op. cit., 394

(٥) Cairo 1384 ; Mariette, Mast., B 3, p. 93

في تصوير الشخص حافياً بما يناسب قداسة الموضع الذي يصور فيه) ، وتصويره على كتف المدخل الأيسر يضع كفه اليمنى على كتفه اليسرى في هيئة الدعاء والتعبد (شكل ٩) .

غير أن أغلب المقتدرين من أصحاب المقابر لم يكتفوا لمداخلهم بهذه العناصر المبسطة ، وانفعوا بالتجديدات التي أضاعها مقابر أسرة سنفرو في ميدوم ، أي بإضافة لوحة القربان فوق العتب وإضافة عتب علوى فوقها (ص ١١٤) (شكل ١٠) .

واختلفت هيئات لوحات القربان بين المربع وبين المستطيل بما يتناسب مع مساحة المدخل واتساع الأعتاب والأكتاف وذوق المعارى ، ولكنها ظلت أميل إلى الاستطالة ، وسمحت استطالتها بتعدد صور الأشخاص عليها ، وقليلاً ما صور صاحبها فوقها واقفاً أمام مائدته عوضاً عن جلوسه^(١) ، وقلما استغنى الفنان عن تصوير المائدة أمامه^(٢) ، ولكنه كثيرًا ما صور زوجته معه تشاركه طعامه وتشاركه مقعده^(٣) ، أو تستقل بمقعده يجاوره^(٤) ، أو تجلس في مواجهته إلى نفس مائدته^(٥) ، أو إلى مائدة خاصة أخرى (كما حدث بالنسبة إلى لوحة نفرة زوجة رع حوتب)^(٦) . وقد يصور أمامه عوضاً عن الزوجة بعض مقدمى الهدايا والقرابين يتقدمون بها إليه^(٧) ، أو يكرر صورته مرتين على مائتين متقابلتين^(٨) ، لا لشيء إلا لاتساع المساحة أمامه ورغبته في شغلها . وقد يستغل الفنان فوارق العرض بين اللوحة وبين العتبين في تسجيل اسم المتوفى وألقابه (كما حدث بالنسبة إلى نفرة ماعت) ، أو تصوير

Cairo 1573 ; Mariette, Mast. E. 8 (١)

L.D. II, 48 ; Junker, Giza VI, Taf. XI, d, Abb. 104 (٢)

Cairo 36191/37123 (٣)

Murray, Saqqara, I. pl. VII (٤)

Cairo, 654, 1447, 1484, 1506 (٥)

Medum, pl. XV ; Cairo 1392 ; S. Hassan, Giza, II, pl. XI ; Junker, Giza VI, Abb. 32. (٦)

Medum, pl. XVI ; Anc. Egypt, 1917, 63 ; Louvre E 17233 ; Junker, Taf. XI d. (٧)

Cairo 1565 (٨)

القرايين وقوائمها^(١) ، أو تصوير جماعة من أفراد أسرته وأتباعها^(٢) ، أو تصوير تخطيطات واجهة القصر^(٣) ، وما يشبهها .

وقد يتصرف صانع اللوحة فزيده فوقها أو تحتها إفريزاً ضيقاً من جدم الحجر الذي نحتها فيه ، بما يزيد مساحتها^(٤) ، ويجعلها على هيئة دلفة النافذة أحياناً^(٥) ، وربما دلفة الباب أيضاً^(٦) (شكل ١١) .

وقلما صنعت لوحة القربان من الخشب عوضاً عن الحجر^(٧) ، وقلما شذ مكانها عن الوضع السالف بين العتمين إلا بالنسبة إلى مقابر كبار الأفراد في الجزيرة في عهدي خوفو وخفرع حينما امتنعت إقامة مداخل الروح الكاملة على غير قلة من مقابر الأسراء ، فعادت اللوحة إلى واجهة المصطبة داخل مقصورة القرايين ، وعشقت في بعض أحوالها في الزاوية الجنوبية الشرقية السفلى من الواجهة ووضعت أمامها كتلة حجرية عاطلة من النصوص لمحايتها في مكانها المنخفض^(٨) . وعند ما اقتصرت مهمة الفنان على نقش اللوحة في هذه المقابر أفرغ جهده في إجادة نقشها وترتيب مناظرها وتنسيق جداولها حتى بلغ بذلك كله غاية قلما بلغت نقوش اللوحات في عهد آخر .

وظلت الأعتاب العليا أكثر ثراء في نصوصها من الأعتاب السفلى نتيجة لاتساعها عنها في أغلب أحوالها ، مما سنعود إليه في صفحة ١٣٧

* * *

لم يتغير اتجاه مدخل الروح حين استقلاله عن مشكاته القديمة عن اتجاهه حين ارتباطه بها ، فظل يواجه المشرق ، سواء أكان في واجهة المصطبة أم في داخلها ،

(١) Mariette, Mastaba, D 67 ; Brit. Mus. 1223 (vol. I, pl. 15)

(٢) , Cairo 654 ; L.D. II, 87 ; Berlin 14795

(٣) Cairo 1519

(٤) Cairo 1453, 1457, 1462, etc.

(٥) see Vandier, op. cit., 429.

(٦) Firth-Gunn, Tett pyr. Cem., p. 179 ; 87, 2 ; 70, 1 ; 71, 2

(٧) Badawy, in Ann. Serv. 1940, 495 f.

(٨) Junker, Giza I, Abb. 31

واتخذ مكانه فى حالته الأخيرة فى صدر الجدار الغربى لمقصورة القرايين ، لىكون مدخلا إلى عالم الغرب ، وليستقبل دنيا الأحياء فى الشرق ومطلع الشمس ، وليستقبله الكهنة والزائرون ومقدمو القرايين فيستعيدون هيئة صاحبه المكورة على صدره وأكتافه ويرددون اسمه المسجل والمخذ على مسطحاته . وظل فى أغلب أحواله أقرب ما يكون إلى مدخل البئر المؤدية إلى غرفة الدفن^(١) ، لىكون مسلكا للروح منها وإليها ، حين تهبط من عالم السماء إلى عالم مات تحت الأرض والعكس بالعكس ، أو حين تأتى من دنيا الأحياء فى الشرق إلى دنيا الأموات فى الغرب ، والعكس بالعكس أيضا . وليكون محلا مختاراً لتقديم القرايين باسمها وقراءة التراتيل والدعوات لصاحبها . وتأكد هذا الفرض الأخير للمدخل بعدة عوامل ، مثل وضع مائدة القرايين أمام دخلته ، وتصوير حاملى القرايين على أكتافه يتجهون فى أغلب أحوالهم ناحية دخلته ، وتثبيت لوحة القريان فى شراسته ، وإقامة سرداب تمثال صاحب المقبرة خلفه فى بعض الأحوال^(٢) . لىكى يستفيد التمثال (أو تستفيد الروح حين تلبس التمثال) بما يقدم أمامه ، ثم تسجيل دعاء القريان « حوتب دى نيسو » على مسطحاته ، لا سيما مسطح عتبة العلوى .

ويحتمل أن يكون تسجيل دعاء القريان قد بدأ منذ أواخر عصر بداية الأسرات أو أوائل الدولة القديمة^(٣) ، ولكنه لم يستقر فى نصوص المقابر إلا ابتداء من أوائل عصر الأسرة الرابعة . وكان له وجهان : وجه مادى ، وآخر معنوى . وجرت العادة على توجيه الدعاء المادى إلى الملك أكثر من غيره ، وكان يبدأ بصيغة « حوتب دى نيسو » ويستهدف فى بعض صورته تسجيل عطاء فعلى يهبه الملك (أو يهبه القصر والدولة باسم الملك) إلى رجال دولته ، وكان عطاء اقتصر فى بعض عهوده وبعض أحواله على أنصبة معينة من القرايين اليومية والموسمية التى كانت تقدم أول ما تقدم إلى معبد الشعائر الملكية وتبلى عليها تراتيل

Erman, Die Religion, 25 f.; Kees, Totenglauben, 170 f.; Drioton, (١)
Tombeaux egyptiens, 16 ;

S. Hassan, Giza II, pl. XI, p. 41 ; A.M. Shoukry, Die Privatgrab- (٢)
statue im Alten Reich, 1951, 34 f. Junker, Giza XII, 54 —55.

R. Weill, II—III Dynasties, pl. IV, Junker, Giza II, 42. (٣)

دينية تصرف نعمها إلى روح الملك صاحب المعبد ، ثم يقيم جزء كبير منها إلى أنصبة مقدرة توزع تباعاً على موائد المقابر القريبة من المعبد والتي تعطف الفرعون على أصحابها واختصهم بعبثاته . وكان يشرف على عملية تحويل القرابين من المعبد إلى موائد المقابر موظف يلقب « حرى وحبو » أو حرى وحب . وقد يكون هذا الاشراف فعلياً إن كان صاحبه موظفاً عادياً ، أو يكون اسمياً إن كان صاحبه من كبار الموظفين . وامتد العطاء الملكي في بعض صورته وبعض عهوده إلى ما هو أكثر من قرابين الطعام والشراب فأصبح يعنى مساهمة خزانة الفرعون في توفير الدفنة المناسبة وإعداد متاع المقبرة لبعض المقربين إليه ، ويعنى إذنه بقطع أحجار المقبرة من المحاجر الحكومية المتميزة ، ويعنى صنع مداخل الروح والتوابيت والنماثيل في مصانعه الملكية وتحت إشراف كبار فنانيه ^(١) ، وما شابه هذا وذلك من عطايا وامتيازات كان الملوك يكافئون بها رجالهم أحياناً ويكتسبون بها ولاءهم أحياناً أخرى . وهكذا ظهر في دعوات القرابين ما يشير إلى انتفاع صاحبها (أو يشير إلى أملة في الانتفاع) « بعطاء من الشونتين والخزانين ومن مصانع الزينة الملكية ومن كل مكان في البلاط يخرج منه عطاء . . . » ^(٢) ، وما يقول على لسان أحد الأفراد « دفنت أبى بحوتب دى نيسو » ^(٣) أى برضاء الملك وعطائه ، أو بما رضى به وأعطاه . . . ، ومن يقول إنه بعطاء الملك « نزل (أو سينزل) إلى قبره هذا بعد شيخوخة كبيرة صالحة » ^(٤) . ومن يقول إن الملك وهبه « هذا القبر ليوسد فيه شيخاً صالحاً مكرماً لدى الآله الأكبر ، وذا تابوت من خزانة البلاط » ^(٥) ، ثم من يذكر أن عطاء الملك امتد إلى توريد المنسوجات إليه ^(٦) ، أو ذبح الأضاحي في قبره ^(٧) .

Breasted, Ancient Records, I, 212. (١)

Mariette, Mastabas, E. 12 ; Murray, op. cit., pl. VII (٢)

Urk. I, 267, 9 ; Davies, Deir el Gebrawi, II, pl. 13 (٣)

Mariette, Mastabas, p. 195 (٤)

Ibid., 278 (٥)

J. Capart, Une rue de tombeaux, pl. LXIII (٦)

L.D. II, 35 See for full details A.H. Gardiner, The Tomb of Amenemhet, 85 f. (٧)

وعندما ازدادت مقابر كبار الأفراد في جبانة الأقاليم ولم يعد عظماء العاصمة يتقيدون بإقامة مقابرهم حول أهرام ملوكهم ومعابدها ، حلت معابد أرباب الجبانة محل معبد الشعائر الملكي في توزيع عطايا القرايين (أى الجرايات) على أصحاب المقابر المحيطة بها . وعبرت عن هذا التطور بعض دعوات الأفراد في الدولة الوسطى ، فأصبحت لا ترجو العطاء المادى من الملك المتوفى مباشرة ، وإنما ترجوه من الملك لرب الجبانة حتى يعود هذا الأخير فيسبغه على المتوفى^(١) . وبمعنى آخر أصبحت ترجو أن يأذن الملك (المهيمن الأعلى على موارد الدولة وأوقافها) بتحويل عطائاه المخصصة للأفراد إلى معابد الجبانة ليتولى كبتها توزيعها على موائد المقابر المحيطة بها بما يتناسب مع أنصبة أصحابها ومكانتهم .

وجرت العادة على طلب العطاء المعنوى من أرباب الجبانة والآخره أساساً ، وبخاصة من إنزو (أنويس) ، وسكر ، وختى إمنتيو ، وأوزير ، وجب أحيانا ، ثم من « الإله الأكبر » في عصره أو في ذهن صاحب المقبرة وكاتب نقوشها ، و « أرباب الغرب جميعهم » ، مع نعت كل معبود منهم وتلقيبه بما يتفق مع تصورات أتباعه عنه وما روته عنه التقاليد والأساطير . وكان أكثرهم ألقابا ونعوتا كل من إنبو الذى يوصف عادة بأنه يصدر الهيكل المقدس (أو ساحة الرب) ويعتلى جبله (أو رأس الجبل) وبأنه مقدم الأرض المقدسة ، والمدثر بالكفن (أو « الكائن فى مقر السحيط » بمعنى المنحط)^(٢) . وأوزير الذى يوصف عادة بأنه رب المدينتين المقدستين « جدو وأبجو » أى أبو صير بنا وأيدوس ، وأنه مقدم الغرب وإمام القرينين .

وكان أغلب ما ينسب إلى أولئك الأرباب ويرتجى منهم هو العمر المديد وكرامة الدفن والسماح بأن « يخب (المتوفى) على سبل الخير (أو الطرق الطيبة أو الطرق الأخيرة) التى يخب المكرمون فوقها »^(٣) . ولعل هذه السبل كانت تعنى بعض

G. Maspero, « *L'atable des offrandes* », in *Études de Mythologie*, (١)
VI, 366 f. ; Gardiner, op. cit., 88

See Wb. I, 350 ; V, 543 ; Budge, *The gods of the Egyptians*, II, (٢)
263 ; Moret, *Mystères égyptiens*, 13 ; Gardiner, op. cit., 81 f. ; Hayes, *Royal Sarcophagi*, 73.

See Junker, *Giza*, II, 57 f. (٣)

ما بعينه الصراط المستقيم في عقائدنا الاسلامية . وذلك فضلا عن أمل أساسي تمناه كل مصري لنفسه وهو استمرار « خروج الصوت » أى استمرار انطلاق دعاء القربان وتلبية النداء لصالحه ، من أملاكه وعلى أفواه أهله وكهنته وزائري مقبرته (راجع ص ١٣٦) .

وبدأ كل من الدعاين . دعاء الملك ودعاء أرباب الآخرة ، منفصلا عن الآخر ، فظهر الدعاء إلى الملك وحده في نصوص نقر في أوائل الدولة القديمة^(١) ، وذكر الدعاء إلى إينو وحده في نقوش رع حوتب في ميدوم^(٢) ، وذكر الدعاءان منفصلين في نقوش متن في سقاره^(٣) ثم ازدوج الدعاءان في نقوش تختي خلال العبد نفسه أى في أوائل عصر الأسرة الرابعة ، وأصبح ما يرتجى من الملك يرتجى أغلبه من المعبود ، والعكس بالعكس .

وكان القروض أن يتخذ الداعي بصيغة القربان وضعاً خاصاً يثنى فيه ذراعه عند المرفق ويبسط كفه اليمنى إلى الأمام تجاه مدخل الروح أو تجاه صورة المتوفى أو تمثاله ، ثم يتلو دعاءه ويقدم قربانه^(٤) .

وفقدت صيغة « حوتب دى نسو » مدلولها الحرفي شيئاً فشيئاً ، وأصبحت تقليدية في أواخر الدولة القديمة ذاتها ، بحيث تمنى متون الأهرام للقراءة أنفسهم ، (أى تمت العطاء الملكي للملك نفسه)^(٥) ، ولكن ذلك لم يفقدها مكانتها الدينية والمعنوية فظل أصحابها يعتقدون أن ترديد قراءتها لصالحهم يمكن أن يركى مصيرهم في الآخرة ويعلمهم من المنعمين بخيراتهم ومن المقربين إلى أربابها ، فضلاً عن رضا أرواحهم بها في مقابرها . وبلغ من حرصهم عليها أن سجلوا على واجهات مقابرهم وسطوح نصبهم نداءات إلى الأحياء يستميلونهم فيها إلى تلاوة الصيغة باسمائهم ويستحلفونهم من أجلها بأعز مقدساتهم وأعز ما يتمنونه لأنفسهم ، وبعدونهم الشفاعة في الآخرة في مقابلها^(٦) . فكان من قوائم في نصوص الدولة القديمة :

Junker, op. cit., 42 ; R. Weill, II—III dyn., pl. IV (١)

Petrie, Medum, pl. XIII—XV (٢)

Berlin, 1168, 1170 ; L.D. II, 4, 5 (٣)

Junker, op. cit., (٤)

Pyr. 35 b, 101 b, 806 c-d (٥)

Breasted, Ancient Records I, 329 (٦)

« يا من تودون الحياة وتكرهون الفناء . . . ، طالما أحببتم أن تظلوا تبعاً لإله مدينتكم على الأرض : رددوا (صيغة) حوتب دى نيسو . . . »^(١) .

وكان من قولهم فى نصوص الدولة الوسطى : « إذا رفع مسافر يده (داعياً) لهذه الصورة سوف يصل داره فى صحة ويتم كل ما خرج من أجله »^(٢) .

وكانوا يسرون الأمر عليهم بمثل قولهم « إذا لم يكن فى أيديكم شئ ، (فيمكن) أن ترددوا بأفواهكم حوتب دى نيسو . . . »^(٣) .

وعادوا فأقنعوهم ببساطة ما يطلبونه منهم بمثل قولهم (فى الدولة الحديثة) « إن نفس القم ينفع المتوفى دون أن ينقص شيئاً من ممتلكاته »^(٤) .

* * *

خضعت مداخل الروح منذ أواخر عصر الأسرة الرابعة لتطورات معمارية وزخرفية تتصل أكثر ما تتصل بثراء أصحابها ومساحات مقابرها وكفاية صناعات وفنائها وأذواق عصرهم .

وتمثلت هذه التطورات فى تعدد أكتاف المداخل واتساعها وزخرفتها ، وتباين اتساع أعتابها ، وتزيدها بزخارف الخيزرانة المعمارية (Torus) وتزيينها بزخارف الكورنيش ، تم إحلال تماثيل أصحابها محل صورهم ، وذلك فضلاً على وجود مدخلين فى المقبرة باسم واحد أحياناً .

فقد اتسعت مسطحات أكتاف المداخل وزادت أعدادها فى أحوال كثيرة على حساب فتحات أبوابها ، فظهرت مداخل بثلاثة أكتاف على كل جانب منذ أواخر عصر الأسرة الخامسة وأوائل عصر الأسرة السادسة^(٥) ، واختلف بروز كل كتف

Urk. I, 286, see S.F. Garnot, L'appel aux vivants des origines à la fin de l'ancien Empire, 1938. (١)

Berscheh, Vol. II, p. 50 graf. VI, 21 (٢)

and variants, see, Cairo 20003, 3—4 ; Turin 1447 ; Brit. Mus. 152, 5 ; (٣)

Abydos I, pl. 54 ; Univ. of Calif. Stele 34, 7—8.

Rec. Trav. III, 119 (٤)

Vandier, op. cit., II, 401 (٥)

خارجى عن الكنف الداخلى التالى له بما يتناسب عادة مع مساحة المدخل وذوق المعمارى الذى صممه وبناءه . ولم يكن من الضروري أن يتساوى اتساع كل كنف مع الكنف الذى يليه ، وغالباً ما كانت الأكتاف الخارجية أكثر اتساعاً من الداخلية .

واستعمل الفنانون اتساع الأكتاف وتعدددها فى تسجيل المزيد من الدعوات والألقاب والمناقب الشخصية^(١) ، والمزيد من مناظر الحياة الدنيوية والشعائر الأخروية ، فأصبحوا يصورون صاحب المقبرة يقف داعياً^(٢) ، ويمجّلس زوجته على مقعد عريض ، ويربح إبطه على عصاه ، ويتمتع بعبير الزهور والدهون والبخور . واقتبسوا بعض مناظر الحياة اليومية من جدران المقبرة ، فصوروا صاحبها يتلقى تقارير الموظفين والمحاسبين . ويستقل عهفته على أكتاف أتباعه ، ويستقل مركبه ذات الشراع وقاربه ذا المجاديف^(٣) ، فضلاً على تمهوير من اعتمدوا تصويرهم من أفراد أسرته مع التنوع فى أوضاعهم ، فالزوجة قد تصور تحتضن أمها ، والأولاد قد يصورون يعبثون بالطيور والزهور ، ثم خاصة أصدقائه ومقدمى الهدايا^(٤) ، ويمثلون ومثلات أملاكه الموقوفة على الوفاء بنفقات قرايبه وتكاليف القائمين على حراسة مقبرته وأداء شعائرها . وكانوا يصورونهم فى أغلب الأحوال على أكتاف المدخل يتجهون إلى ناحية دخلته أى ناحية بابها ، وتوسعوا فى تصوير مراحل أداء الشعائر من إطلاق البخور وسكب السوائل على الموائد وذبح الأضاحي وقراءة التراتيل وعزف الموسيقى^(٥) .

* * *

يمكن تقسيم ارتفاعات الأكتاف الزوجية فى مداخل الروح (أى الأكتاف التى يوجد اثنان منها على كل جانب) إلى ثلاثة طرز معيارية^(٦) ، فقد بظل السكتة

Cairo 1409 (١)

Cairo 1409, 1453, 1573 ; Gunn, Teti Pyr. Cem., pl. 27, 67, 68, 71 (٢)

Cairo, 51297 (J.E.); Junker, Giza V. Taf. IV Abb. 20 f. (٣)

Cairo 654 (٤)

Cairo 654, 1413, 1414, 1449 ; ... ; Brit. Mus. I, pl. 18 (٥)

Ses : Adolf Rusch, « Ein Entwicklung der Grabsteinformen im Alten Reich », AZ, LVIII, Taf. A—B, S. 120, 122. (٦)

الداخليان تحت العتب السفلى بينما يرتفع الكتفان الخارجيان إلى مستوى العتب العلوى ، أو تظل الأكتاف الأربعة جميعها تحت العتب السفلى بينما يعتمد العتب العلوى على طرفي الحشو المحيط بلوحة القربان (فى شراعة الباب) ، أو يبقى الكتفان الأصليون تحت العتب السفلى ويرتفع الكتفان الخارجيان إلى مسطح العتب نفسه ، بينما يعتمد العتب العلوى على طرفي الحشو المحيط بلوحة القربان .

وظهر تنوع مشابه بالنسبة إلى ارتفاعات المداخل ذات الأكتاف الثلاثية (أى التى يوجد ثلاثة منها على كل جانب) ، فقد يعلو العتب السفلى الزوجين الداخلين من الأكتاف بينما يرتفع الزوج الثالث إلى مستوى العتب العلوى ، أو يظل الزوج الأول من الأكتاف تحت العتب السفلى ويرتفع الزوج الثانى إلى مسطح العتب نفسه بينما يرتفع الزوج الثالث إلى ماتحت العتب العلوى . أو يظل الكتفان الداخلان تحت العتب السفلى بينما يرتفع الزوج الثالث إلى ماتحت العتب العلوى . (راجع عن هذه الأنماط أشكال ١١٣ — ب ، ١١٤ — ب) .

واستتبع تعدد الأكتاف واختلاف ارتفاعاتها تغيرا فى مدى التناسب بين الأطوال الأفقية للعتبين ، فأصبح العتب العلوى أكثر سعة من العتب السفلى فى معظم الأحوال ، وحينئذ قد يعتمد على الكتفين الخارجيين ويؤلف معهما إطارا عريضا يحيط ببقية عناصر المدخل من ثلاث جهات . أو يعتمد على طرفي الحشو المحيط بلوحة القربان كما ذكرنا آنفا ويتقيد اتساعه باتساع الكتفين الخارجيين . أو يمتد أفقيا يزيد عن اتساعهما واتساع جانبي الحشو أيضا وحينئذ لا يعتمد طرفاه على شيء .

وقد تظهر للمدخل ثلاثة أعتاب ، وهنا قد توضع لوحة القربان بين العتين الثانى والثالث بحيث يعتمد العتب الثانى على الزوج الثانى من الأكتاف ويعلو العتب الأول مباشرة ، أو توضع بين العتين الأول والثانى بحيث يعلو العتب الثالث العتب الثانى مباشرة ويعتمد على الكتفين الخارجيين ويؤلف معهما إطارا عريضا . أو تتخذ اللوحة الوضع نفسه (بين العتين الأول والثانى) ويعتمد العتب الثالث على العتب الثانى ولكنه يظل أكثر اتساعا منه وحينئذ لا يعتمد طرفاه على شيء (راجع الأشكال السابقة) .

وأدى تعدد الأعتاب واتساع مسطحاتها إلى نفس ما أدى إليه تعدد الأكتاف واتساعها ، أى إلى التوسع فى موضوعات نصوصها ومناظرها ، فنجلت قوائم قرابين مختصرة على بعض الأعتاب السفلى^(١) ، وصورت عليها أنواع الدهون والزيتون التقليدية^(٢) . واشتركت نصوص الأعتاب العليا مع نصوص الأعتاب السفلى فى الدعاء بصيغة حوتب دى نيسو لمصلحة صاحبها مع تسجيل ألقابه ، ولكن الأعتاب العليا ظلت أكثر ثراء من السفلى فى تسجيل مترادفات هذه الصيغة وتوابعها ، بحيث بلغت سطورها أحيانا ضعف عدد سطور الأعتاب السفلى ، وكثيرا ما كان صاحب المدخل يصور فى طرف هذه السطور واقفا أو جالسا يواجها بمفرده أو مع زوجته^(٣) (شكل ١٤) .

وظهرت بين الحين والحين صور ورموز دينية قليلة الورد على الأعتاب ، ومن ذلك تصوير عيسى وچاة على العتب السفلى أو على العتب الأوسط^(٤) .

* * *

لم تلتزم عمارة مداخل الروح بتطوراتها السابقة دائما ، ولم يتردد بعض المعارين فى أن يخففوا من أحد عناصرها الرئيسية بين كل حين وآخر ، سواء لضيق المساحة التى يقيمونها فيها ، أو لفقر أصحابها ، أو لمجرد الرغبة فى التصرّف والتغيير . وهكذا تعاقبت فى بعض مقابر أواخر الدولة القديمة مداخل استغنت عن لوحة القران واكتفت بعتب واحد استغل مسطحة لتسجيل مناظر القران العادية . ومداخل استبقت لوحة القران ولكنها استغنت عن العتب الذى يعلوها^(٥) ، ومداخل نحتت أصحابها فى ألواح البازلت وليس من الحجر الجيري المعتاد^(٦) ، وأخرى شكلها أصحابها من الخشب وليس من الحجر ، ولكن

Marlette, Mastabas, D. 38 ; Steindorff, TI, pl. 45

(١)

Cairo 1409

(٢)

Cairo 1398, 654, 1413 ; Junker, Giza VI, Abb. 104.

(٣)

Cairo 1408, 1446, 1478, 1512, J.E. 38554

(٤)

Cairo 1508 ; Firth-Gunn, Teti Pyr. Cem., pl. 55, 1 ; Junker, Giza

(٥)

VI, Abb. 31.

Cairo 1442, 57201 (J.E.)

(٦)

دون أن يقلل ذلك من نغامتها^(١) . وبقي من الشواذ مدخل ذوقه مقوسة غير مسطحة^(٢) ، وآخر بنى فوقه عقد من اللبن^(٣) . وظلت المداخل الحجرية لكثير من أهل الطبقات الوسطى والعادية تتخذ مكانها في واجهات مصاطبهم اللبنيّة كما كان شأنها قبل عصر الأسرة الرابعة .



ظهر الكورنيش المصرى فى العمارة الحجرية منذ عصر الأسرة الثالثة على أقل تقدير ، مقلدا الأطراف العليا لأعواد البوص الغليظة التى كانت تداخل فى واجهات المساكن والأسوار النباتية واللبنية القديمة حينما ، ومقلدا أطراف الجريد الذى كان يداخل فى الواجهات نفسها حينما آخر^(٤) . وتوج الكورنيش مداخل الروح منذ أواخر عصر الأسرة الرابعة أو أوائل عصر الأسرة الخامسة^(٥) ، وخضع لتصرف الفنانين فى تمثيل مدى استقامة وحدانه أو ميلها أو انعطاف أطرافها ، كما خضعت ألوانه لأذوائهم ، فبادلوا فيه بين اللونين الأحمر والأبيض حينما والألوان البيضاء والزرقة والخضراء حينما آخر^(٦) . وفقد الكورنيش وضعه السليم فى بعض أحواله ، ولم يعد يكون نهاية ارتفاع المدخل دائما وإنما قد يعلوه أحيانا عتب مسطح^(٧) ، أو يحيط بالمدخل كله والكورنيش معه ، إطار خارجى حجري مسطح تستغل سطوحه لإضافة المزيد من النصوص^(٨) .

وصحبت الجرزنة (Torus) الكورنيش فى زخرفة مداخل الروح ، وقلدت فى بدايتها هيئة سوق الغاب التى كانت تدعم الأركان الرأسية للمساكن النباتية القديمة ، وأصبحت تؤلف إطارا يحيط بمدخل الروح من ثلاث جهات ويعلوه

Z. Saad, in Ann. Serv. 1940, 675 f. (١)

Cairo 1394 (٢)

Junker, Giza V. Taf. XVII (٣)

Jequire, Manuel, 74 f. (٤)

A. Badawy, in Ann. Serv., 1948, 236 ; Vandier, op. cit., 402 (٥)

Cairo 1406, 1413, 57188 (J.E.) (٦)

Cairo 1399 (٧)

Cairo 1395, 1400, 1409, 1455 (٨)

الكورنيش ، مع استثناءات قليلة أحاطت الخيزرانة فيها كلا من الكتفين الداخليين والكتفين الخارجيين للمدخل . أو أحاطت الكتفين الخارجيين ثم تلاها إطار آخر عريض مسطح أحاط بالمدخل كله . وجرت العادة على زخرفة الخيزرانة في مداخل الروح بخطوط مائلة ، أو خطوط أفقية وأخرى مائلة ، تقلد هيئة الجبال التي كانت تشد أعواد البوص القديمة بعضها إلى بعض ، أو تشدها إلى أركان مسكنها التباتي . وقليلاً ما هجرت صورتها القديمة ومثلت مسطحة تنقسمها خطوط أفقية مستوية^(١) .



اتسعت أكتاف مداخل الروح على حساب دخلة أبوابها كما مر بنا ، وفقدت الدخلة بذلك أغلب صورها المنقوشة التي ظهرت فيها منذ عصر الأسرة الثالثة وبعض عصر الأسرة الرابعة ، لاسيما بالنسبة إلى تصوير صاحبها جالساً إلى مائدة قربانه ، فأصبح يكتفى بتصويره واقفاً فيها في أغلب أحواله ، أو يكتفى بتسجيل جداول القرايين فيها محل صورته^(٢) .

وأدى ضيق الدخلة إلى تركها دون نقش أحياناً ، لاسيما إذا كانت قليلة الغور^(٣) ولكن ذلك لم يمنع بعض المعارين من الرجوع إلى تحقيق سعة الدخلة وعمقها من حين إلى آخر وبخاصة في عصر الأسرة السادسة . وكان أفضل ما استغلوا من أجله حين عمقها وحين تسطيحها هو نقش هيئة الباب الخشبي فيها ، بدلفة واحدة^(٤) ، أو بمصراعين^(٥) . وبمزلاج واحد^(٦) أو بمزلاجين^(٧) . وقد تشكل العوارض الخشبية في كل مصراع بمزلاجها كاملة^(٨) ، وغالباً ما صورت مصاريع الأبواب موصدة بمزلاجها دلالة على خصوصية ما خلفها ، وقد يكتفى

(١) Jeguler, op. cit., 72 ; Vandier, op. cit., 401—404

(٢) Cairo 1484

(٣) Cairo 1406, 1416, 1417, 1483, etc.

(٤) Cairo 1377

(٥) Cairo 1404, 1442, 1574, 1662, 1664

(٦) Cairo 1404, 1664

(٧) Cairo 1442, 1574, 1662, 3886

(٨) Cairo 1425, 1442

في التعبير عن المصريين أحياناً بوجود خط رأسي دقيق يتوسطهما^(١) ، ونادراً ما صوراً منفرجين قليلاً^(٢) . (شكل ١٥) .

واستعلت الدخلة في أحوال أخرى في تصوير عيني بشريتين^(٣) يعبران عن عيني المتوفى وكأنه يتطلع بهما إلى مقصورة قرائنه وزائريها وإلى مشرق الشمس ودنيا الأحياء ، وقد تحمل محلهما صورتان لعين وجاه^(٤) المقدسة ليؤديا الأغراض نفسها وليكونا بمثابة تيمنتين للباب وصاحبه ، وكثيراً ما صورتا في منتصف مصراعى الباب وبين مزلاجيه .

ولم يعد لطبلة الحصير موضع في هذه الأبواب نظراً لانتساع بعضها وعدم انسجام هيئة الاسطوانة معها ، أو لتمثيلها موصدة كأنها تخفى أسطوانة الحصير خلفها ، في أغلب أحوالها .

وبقي للمداخل الروح تطور آخر ، وهو ظهور تمثال صاحبه فيه محل صورته (أشكال ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩) وهنا قد يشكل التمثال كاملاً أو نصفياً ، منحوتاً في جسم المدخل وبارزاً منه ، أو معشقاً فيه . فيظهر بهيئته الكاملة في فتحة باب المدخل بحيث يبدو كما لو كان يمثل صاحبه خارجاً من قبره^(٥) ، أو يظهر بهيئته الكاملة كذلك على كتف المدخل ، وحينئذ يكون لكل كتف تمثال بحيث يتحقق التوازن الفني بين الكتفين والتمثالين^(٦) ، أو يظهر بهيئة نصفية محل لوحة القربان في شراطة الباب فيبدو كما لو كان يطل من نافذة مسكته الأخرى على دنيا الأحياء^(٧) أو يظهر بهيئته النصفية كذلك في أسفل باب المدخل باسطاً كفيه فيبدو كما لو كان خارجاً من باطن الأرض ليقبل القربان يديه...^(٨) . واعتبر هذا الوضع الأخير هيئة صريحة على الاعتقاد القديم باعتبار مدخل الروح ممراً مختاراً لصاحبه ، أو لروحه .

(١) Cairo 39865 (J.E.)

(٢) Petrie, Denderah, pl. I ; Cairo 1442 may be also, 1425 (?)

(٣) Cairo 51297 (J.E.) « Scene »

(٤) Brit. Mus. I, pl. 33, 85 (1191)

(٥) Cairo, 1447, 15157/57190

(٦) Capart, Une Rue., pl. XCIV—XCVI

(٧) Cairo 1449

(٨) Giza, 7102

يعبره فيما بين علله السفلى وبين عالم القرايين المادية ودنيا الأحياء . وعادت الصور نقابت هيئة التماثيل ، ومن نماذجها تصوير صاحب المقبرة مواجهة (أى من الأمام وليس من الجانب كالمعتاد) في دخلة المدخل بحيث تؤدى صورته غرض تماثله وتمثله كما لو كان خارجا من مقبرته إلى دنيا الأحياء (شكل ٢٠) .

وازدوج مدخل الروح في بعض المقابر الفردية . فظهر مدخلان في الجدار الغربى لمقاصيرها الرئيسية باسم واحد ، مدخل شمالي وآخر جنوبي^(١)، وقد يعطى هذا الازدواج بالرغبة في تقليد صورة المشكنتين القديمتين اللتين كانتا تتصدران واجهة المصطبة ، أو برغبة المعارى في تمييز المقبرة بشئ يختلف به عن غيرها .

وروى كبير الأطباء نى عنخ سخمة أنه قال لفرعون عصره ساحورع : « هلا سمحت نفسك حبيبة رع بأن يوهب مدخل حجرى لمقبرتى هذه . . . » فأذن جلالاته بأن يقطع من أجله مدخلان من محاجر طرة^(٢) . وذلك مما يعنى أن عامل الكرم الملكى كان سبباً في هذه الحالة في ازدواج المدخلين .

وقد ينحت البناء المدخلين متجاورين في مسطح حجرى واحد ويحيطهما معاً بزخرفة الخيزرانة (الثورس) ويتوجهما بزخرفة الكورنيش^(٣) ، أو يعمد إلى العكس فيشيدهما متباعدين وعلى طرازين مختلفين ، بحيث يتخذ أحدهما طراز المدخل المعتاد ، ويتخذ الآخر هيئة واجهة القصر^(٤) رغبة في الاستفادة بزخارفها المعارية والتشكيلية الملونة وشغل جانب من الجدران المتسعة بها (شكل ٢١) . وإن كان Capart قد ربط بين واجهة القصر هذه وبين أمل أصحابها في أن يشتركوا عن طريقها في الطقوس الملكية ، على حد تعبيره^(٥) .

Junker, Giza II, Abb 9—10, IV ; Giza VI, Abb. 6—7 ; 78 (١)

Urk. I, 38, 11 f. (٢)

V. Bissing, Denkmäler, Abb. 2, Taf. 17 (٣)

N. de G. Davies, Ptahhetep, pl. XXIX ; S. Hassan, Giza II (1929-1930) (٤)

pl. LI ; Jequier, Douze ans de fouilles dans la nécropole memphite, 1940, 110 ; « Steles-facade » ; and see for other small palace-facade steles, Cairo 1377, 1378, 1379.

Capart, L'art ég., 71 f. ; Chron. d'Ég. 1944, 230. (٥)

واختلف عن ازدواج المداخل في المقاصير الفردية ازدواج آخر في المقاصير الأسرية حيث يتميز في جدرانها الغربية مدخل جنوبي للزوج عن مدخل آخر شمالي للزوجة ، فيما خلا حالات معدودة تميز فيها مدخل الزوج الشمالي عن زميله الجنوبي بإتساعه وارتفاعه^(١) ، ربما لمجرد الرغبة في إشرائه الزوج فيه مع زوجته عوضاً عن انفرادها به . وتقليلاً ما تضمنت المقصورة الواحدة أكثر من مدخلين من مداخل الروح في جدارها الغربي^(٢) .

وظهرت في عهد يبي الثاني وحول هرم زوجته وحيث نماذج حجرية مصمتة صغيرة نحتت على هيئة المصابيح وحملت أسماء أصحابها ودعوتهم ، وتوسطت واجهاتها الصغيرة مداخل تشبه هيئة مداخل الروح بتفاصيلها : ولكن باعتبارها مداخل للمصطفية ذاتها . وقد تعتبر هذه النماذج - بدلاً عن وجود المصابيح الحقيقية لأصحابها حول هرمي الملك والملكة - وتصريح خاص منهما^(٣) ، أو تكون مقابلة لنماذج المساكين الصغيرة التي شكلها أصحابها من العطين في العهد نفسه وبعده بقليل وأطلق فلندرز يترى عليها اسم « بيوت الكا » ، وكانت تمثل بيوتاً دنيوية مختلفة السعة والأهمية^(٤) .

وظلت أبواب المداخل تؤدي وظائفها بعد عصور الدولة القديمة وشاركتها أهميتها وبعض أغراضها نصب ولوحات مستطيلة منذ عصر الانتقال الأول ، ولكن الفنانين أو المعارين لم يأبوا أن يستعبروا بعض عناصر المداخل ويقلدوها على نصبهم ولوحاتهم ، وكانت أحب عناصرها إليهم هي صورة الأبواب ذات المصارع والمزاليج ، التي اتخذوا تصويرها مقدمة لتصوير الحياة الداخلية في دور أصحاب المقابر على سطوح نصبهم ولوحاتهم^(٥) .

Junker, Giza VI, Abb. 30—31 (١)

Ibid., Abb. 70 (٢)

Jequier, Tombeaux, 96 f. 112 f.; Fig. 111—116 ; Oudjichten, p. 26 f., (٣)

Fig. 34, 36—37 ; Louvre E 14185. Müller, op. cit., 180 ; J. Vandier, op. cit., 435—36.

W.F. Petrie, Gizeh and Rifeh, I, pl. XIV f. ; Egyptian Architecture, (٤)
pl. XXIV, etc.

Cairo 1578, 1617, 2009, 20088 ; 20636 ; 20756. Louvre C. 15 ; Müller, (٥)
op. cit., Abb. 11 ; Metr. Mus. A., 12—183—8.

وتكررت المداخل بجوار بعضها في المقصورة الواحدة في بعض مقابر الدولة الوسطى . ومن نماذجها التي يحتفظ المتحف المصرى بها خمسة مداخل صغيرة شكلت في جدار واحد، وخصص اثنان منها متجاوران لشخص واحد ، ومدخلان متجاوران آخران لرجل وزوجته . واستغل الناقش المساحات الرأسية الفاصلة بين هذه المداخل نسجل صور القرابين والهدايا في جانب منها وسجل قوائمها في جانب آخر ، وصور تحتها صاحب المدخل ومائدته وبعض حملة القرابين والهدايا إليه ^(١) .

* * *

وكان من الطبيعي أن يتفاوت نصيب كل مدخل للروح عن مدخل آخر في دقة الصناعة والأخذ بروح الفن وقواعده . تبعاً لمقدرة صاحبه، ومهارة صانعه ، وكفاية فنانه ، وحجم مقبرته ، ونوع حجره . فضلاً عن عهده ، ومكان مقبرته . فثمة مداخل لا تزال تعتبر قطعاً فنية رائعة في حد ذاتها . بتناسق خطوطها المعمارية ورشاقة خطها المزخرف وإتقان نقوشها وانسجام ألوانها ، إلى جانب مداخل أخرى خشنة قبيحة إقليمية متواضعة ، ومداخل عداها تعتبر بين بين . وكثيراً ما تشابهت الخطوط العامة وموضوعات المناظر والنقوش بين مداخل العهد الواحد والمنطقة الواحدة ، ولكن هذا لم ينف اختلاف التفاصيل بين نماذجها الجيدة ولم يمنع فنانها من التجديدات التفصيلية إن عزت عليهم التجديدات الجوهرية .

ونستعرض من نماذج المداخل الفردية على سبيل المثال تكوينات المداخل المصنوعة بشكل ٢٣ ومضمون موضوعات نصوصه ومناظره . فهو لرجل يدعى حابي عاصر أوائل عصر الأسرة السادسة ^(٢) . وهو مدخل صغير الحجم في حد ذاته ، ولكنه يتميز في تخطيطه العام بطابع البساطة وقلة نصوصه ورشاقة خطوطه وتعدد أعنابه واعتباره مدخلاً لواجهة محددة . واستخدام الفواصل الخطية السمكية لتجديد إطارات نقوشه ، وارتفاع فروع كورنيشه وانعطافها إلى الخارج مع ازدواج أطرافها العليا ، وتلوين خيزرانه الملقوفة بخطوط خضراء ترمز إلى ارتباطها

Cairo, 6197 (١)

Cairo 1409 (٢)

النباتية القديمة ، وتحديد لوحة قربانه باطار حجري خاص ، واستخدام عتبه السفلى لتصوير عيني ورجاء ، مع ترك العتب العلوى الضيق خالياً ، وتسجيل أسماء الدهون والزيت على العتب الذى يعلو الكورنيش ، ثم تصوير صاحبه على أجزائه السفلى فى أربع صور على هيئة الدماء .

ولم تخل نصوص المدخل على الرغم من قلتها مما يميزها ، فقد وجهت دعوات إيطاره الخارجى الى « كا » صاحب المدخل « n k n » أى إلى ذاته أو نفسه ، أو من أجل فاعليته وحيويته ، وكانت هذه العبارة لاتزال قليلة الشيوع فى نصوص الافراد بحيث فات بعض الباحثين ترسمها خلال عصور الدولة القديمة فاكثفوا بردها إلى عصور الدولة الوسطى^(١) .

وتضمنت جوانب الاطار الخارجى لهذا المدخل بعض المناقب الشخصية لصاحبه (وكان ذكر المناقب الخاصة على المداخل لايزال بدوره نادرا) ، ورمزت إلى المعبود أوزير ختى إمنيتو بصورته الكاملة (وكان تصوير الأرباب فى نقوش الافراد لايزال نادرا كذلك) ، ولقبت صاحب المدخل بأنه حبيب (حبيب أوزير) ، وأضافت أنه اشتهر بأنه « من زكاه أوزير » .

ومدخل آخر لرجل يدعى « نى كا ورع » ولزوجته إيمحة^(٢) (شكل ٢٤) يبدو أكثر ازدهاما بنصومه من سابقه . ولكن ذلك لم يحرمه ميزات أخرى . ومنها تحديد النص الطولى فى دخلة بابه بظلال جانبية عربية لينسجم سمكه مع رشاقة السيدة المصورة أسفله . واعتبار زوجة صاحبه شريكة فعلية لزوجها فى نصوص المدخل وصوره عن طريق تخصيص كل دعوات الكنف الداخلى الأيسر لصالحها ، وتصويرها لذاتها فى بداية نصومه ، ومشاركتها زوجها مقعده على العتب العلوى ، ومواجهتها له بمقعدها أمام مائدته ، ثم تصويرها مع حماته ، وتكرار صورها وأوضاعها وهى تقف على حياء ، وتشم الزهور ، وتحتضن أمها ، ثم تصوير عازف ومداح وكاهن مبخر ، كل منهم باسمه وكل منهم يقوم بعمله .

Steindorff, in AZ, XLVIII, 154 ; Gardiner, Eg. Grammar, p. 172

(١)

Cairo 654 (٢)

حظيت دعوات مداخل الروح بأبحاث عدة . لن نطيل مناقشتها في هذا البحث ولكننا نود أن نقدم اقتراحين مختصرين بشأن ترجمة أهم عبارتين رئيسيتين فيها ، وهما عبارة « حوتب دى نيسو » ، وعبارة « برخرو » ، على أن تؤجل عرض أسانيدهما إلى بحث تال عن عقائد الآخرة ودعواتها .

فقد جرت العادة على ترجمة عبارة « حوتب دى نيسو » ^(١) بترجمات عدة مثل :

1. A.—Der König sei gnädig und gebe ;
1. B.—Ein Opfer, das der König gibt. (H. Junker) (٢)
2. A.—A boon which the king gives ;
2. B.—An offering which the king gives. (A.H. Gardiner) (٣)
3. —A king's favour and gift. (Girgis Mattha)

وما من شك في أن كلامنا هذه الترجمات تعتمد على أساس سليم وتصلح في مناسبات بعينها ونصوص بعينها ، وما من ريب كذلك في أن ترديدها بصيغاتها الأوربية الشائعة يوفر المشقة ، غير أن هذا لن ينفي أن التعبير عنها بأسلوب عربي يتفق مع سياق نصوصها وأغراض أصحابها وطبيعة لغتهم ولغتنا ، ويمكن أن يغطي أغلب معانيها ، لا يزال على جانب كبير من الصعوبة .

ونعتقد من ناحيتنا أن الترجمة التي تستطيع أن تناسب أغلب ما وردت به هذه العبارة في سياق نصوص الدولة القديمة . هي ترجمتها بصيغة الماضي اللفظي وبمعنى الدعاء ، بحيث تكون : « رضى الملك ووهب (كذا وكذا) » ، أو « رضى الملك ويسر (كذا وكذا) » تبعاً لسياق نصها وسياق معناها ، وذلك على نحو ما نقول الآن : رضى الله عن فلان وأرضاه ، أو رحمه وغفر له ، نردد ذلك بصيغة الماضي اللفظي ولكننا نعني الدعاء به للحاضر والمستقبل في آن واحد .

A.H. Gardiner, The tomb of Amenemhet, 79—83 ; Egyptian Grammar, (1)
170 f., ; Smither, « The writing of Htp-di-nsw ... », in J.E.A. XXV, 84 f. ;
C.J.C. Bonnett, Growth of the Htp-di-Nsw Formula in the Middle Kingdom » in J.E.A. XXVII, 77 f.

H. Junker, Giza II, 43 f. (٢)

A.H. Gardiner, op. cit. (٣)

وظلت عبارة «خرجو» (ومتراذلتها «بري خرو»، و«برت حر خرو»...) أقل حظاً من سابقتها في أبحاث اللغويين والأثرين، وكانت صورتها الخطية تخصص عادة بـرموز للخبز والكعك والجمعة؛ وقليلاً ما خصصت بأواني الدهون والمنسوجات، وجرت العادة على ترجمتها على النحو التالي:

- 1 A.—Going forth of the voice ;
- 1 B.—Invocation consisting of (such and such) ;
- 1 C.—Coming forth at the voice offerings (A.H. Gardiner).^(١)
- 2 A.—Herauskommen auf den Anruf = Totenopfer ;
- 2 B.—Hervorkommen auf die Stimme ;
- 2 C.—Möge er auf den Ruf (des Opfernden) hervorkommen. (H. Junker).^(٢)
- 3— Das Totenopfer (bei dem der Tote auf den Ruf aus dem Grabe zum Speisen hervorkommt).^(٣)
- 4— Ce qui sort à la voix de.^(٤)
- 5— Sortie à la suite d'un appel.^(٥)

ونعقد بإمكان ترجمة هذه العبارة بمعنى «انطلاق دعاء الطعام والشراب» (والكساء أحياناً)، (في مقابل معناها الحرفي «خروج دعاء الخبز والكعك والجمعة») على أن يعني هذا الدعاء معنى التمني إذا صدر عن القارىء والمقريء، ويعني معنى الطلب والرجاء إذا صدر عن المتوفى، ويعني معنى الوفاء بالالتزام إذا صدر عن ورثة المتوفى وأملاكه. وذلك إلى جانب استثناءات قليلة حلت فيها مترادفات هذه العبارة معنى «الخروج على دعاء الطعام والشراب» (برت حر خرو) وربما معنى «الخروج إلى نداء الطعام والشراب». أيضاً (برى رخرو).

Gardiner, Amenemhet, p. 86, Grammer, p. 172 (١)

Junker, op. cit., 42 f., 60 f., 170 (٢)

Wb. I, 528—529 (٣)

L. Speleers, Textes des Cercueils, 1946, 171 b. (٤)

S. Morenz, La Religion Egyptienne (trad.), 1962, 248. (٥)

غارة جيمسون على جمهورية جنوب أفريقيا

٢٩ ديسمبر ١٨٩٥ - أول يناير ١٨٩٦

للدكتور زاهر رياض

— ١ —

نزل الهولنديون جنوب أفريقيا حين أرسلتهم إلى هناك شركة الهند الشرقية في القرن السابع عشر . وأوكل أمر تنظيم جماعتهم إلى فان ريك . وأخذ عددهم يزداد بمن توالى عليهم من الهولنديين والألمان . وخاصة حين أقبل عليهم هيجونوت فرنسا أثر إلغاء مرسوم نانت^(١) وأخذوا يدفعون بالوطنيين إلى الوراء . ولذا كانت علاقتهم بمن سبقتهم إلى هذا الجزء الأفريقي من القبائل الأفريقية سيئاً منذ اللحظة الأولى . واحترف القادمون في مواطنهم الجديدة ما كانوا يحترفونه في مواطنهم الأولى من رعى وزراعة . وترك لهم الشركة حرية بيع حاصلاتهم إلى البواخر التي تمر بهم^(٢) . ولذا احتاجوا إلى الرقيق لزراعة أرضهم فاشتروه من موانئ شرق أفريقيا أو من جزائر الهند الشرقية . وكان إقبال البواخر على شراء كميات كبيرة من اللحم داعياً لهم إلى الإقبال على الرعى أكثر من الزراعة^(٣) كما كان ازدياد عددهم داعياً إلى اتساع رقعة الأرض التي سكنوها فامتدوا إلى الشرق حيث تكثر الأمطار الصيفية . وتزداد مساحة الأرض الصالحة لكل من الرعى والزراعة . وإذا كان بعضهم قد اندفع إلى الشمال . فقد شقوا طريقهم إلى أهدافهم بين القبائل الأفريقية . بعد أن دفعوهم عن مواطنهم نحو الشمال .

(١) جنوب أفريقيا ص ٣٠

(٢) Cam. p. 1191

(٣) Ibid. p. 1120

ولم تكن هذه الهجرة سواء إلى الشرق أو إلى الشمال نتيجة لازدياد عددهم
فحسب بل لضيقهم من النظم التي كانت تشرعها لهم الهيئة الحاكمة وتشدد في تطبيقها
عليهم (١).

وظلت حركات الهجرة نحو الشرق والشمال تتوالى وتشدد لاسيما في القرن
التاسع عشر. وقد حاولوا ذلك في ١٨١٩ كما حاولوا مرة أخرى في سنة ١٨٣٥
ثم مرة ثالثة في سنة ١٨٤٦. ثم في سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٢. ولكن المرات الأخيرة
امتازت بالنظام وإشراف الدولة عليها وتنظيمها وتوجيهها. وكان الاستقرار ينتهي
بتخطيط حدود جديدة ثم تأليف بوليس مسلح من أجل المحافظة على هذه الحدود
ضد هجمات الوطنيين (٢) وكان هؤلاء الفلاحون بما كان يعثور نفوسهم من محاسن
ومساوىء يفضلون العزلة والاستقلال فتحت تأثير الروح الكفنية والذولدية
والهيجونية. وتحت طول التجربة السياسية التي ورثوها. ورثوا معها الرغبة
في الوحدة. وهي رغبة نتجت من جراء السنين الطويلة التي قضوها في مساحات
واسعة، والجو الصافي في منطقة الكارو حتى لقد قيل أنه نشأ بينهم رجال يشعرون
بالضيق الذي يعمسه من يعيش في الزحام، إذا شاهدوا الدخان يتصاعد من منزل
جارهم. كما كرهوا الصناعة وكذلك الاجراءات الرسمية المعقدة فكانوا قنوعين
بجائلتهم. مصممين على أن تسوسهم حكومتهم بطريقة أبوية كما يسوسون هم عائلاتهم
وخدمهم. ولذا اعتبروا الأرض التي زحفوا إليها والتي استولوا عليها عنوة وكأنها
قد أصبحت أرضهم بحكم الحق والقوة. ولذا أصبحوا يؤمنون بأنهم شعب مختار (٣)
وسوف يكون لهذا كله أثر فيما سيجرى في هذا الركن من حوادث تؤثر في
علائقهم بمن جاورهم.

وقدم إليهم الحكم البريطاني أكثر من مرة خلال الحروب النابوليونية وانتهى
الأمر بشراء الحكومة البريطانية لهذه المستعمرة في سنة ١٨١٤ (٤) وقدم إلى

Theal Vol II p. 250 (١)

(٢) جنوب أفريقيا ص ٢٢

Gam. p. 565 (٣)

Ency. Ari. South Africa (٤)

جنوب أفريقيا مع الحكم البريطاني مهاجرون بريطانيون . ولكنهم كانوا قلة بالقياس إلى الهولنديين والألمان واستقروا في الشرق . ولم يكن شراء البريطانيين لهذا الجزء من أجل التوسع في رقعة الأملاك البريطانية بل من أجل أن يكون قاعدة لهم في طريق سفنهم إلى الهند^(١) .

وكانت عملية النقل البحري آنذاك لاتزال معقدة مما أدى إلى صعوبة نقل المجرمين البريطانيين إلى استراليا . فتراكم منهم كثيرون في الجزائر البريطانية . فاستصدرت الحكومة قرار في سنة ١٨٤٨ يبيح للحكومة نقلهم إلى حيث يترأى لها . فأرسلت منشورات دورية إلى سائر حكام المستعمرات تعرض قبول إسكان عدد منهم في هذه المستعمرات . فقبل حاكم مستعمرة الرأس اسكانهم ووصلت فعلا سفينة تحمل ٢٨٩ شخصاً منهم . بينهم جون ممثل التائر الايرلندي . فكان ذلك مشار سخط كثير من السكان . فألف بعضهم هيئة أطلقت على نفعها اسم Anti Convict Association لمقاومة نزول القادمين بمنع تموينهم أو اسكانهم أو تشغيلهم . مما اضطر الحاكم العام إلى منع نزولهم . فإقام فعلا على ظهر السفينة حتى يتقرر مصيرهم . فكانت كثرة الهولنديين إلى جانب انتصارهم في هذه الحادثة باعثاً لهم على اعتزازهم بمركزهم . ولجؤتهم إلى تحدى الحكومة في أكثر من موقف . فطلبوا من الحكومة أن يؤلفوا مجلساً من ممثلين للشعب يحمل بعض مسئولية الحكم إلى جانب الحاكم العام ونزلت الحكومة عند طلبهم^(٢) في سنة ١٨٥٣ ، وضاق كثير من الافريكانز — وهو الاسم الجديد الذي أطلقه الهولنديون على أنفسهم ليميزوا أنفسهم عن البريطانيين الدخلاء — بالحكم البريطاني . لكثرة ما فرضه هذا الحكم عليهم من ضرائب وتشدده في جمعها . ولكن أكثر لها آثار سخطهم إلقاء بريطانيا الاتجار بالرقائق في سنة ١٨٣٥ وإرغامهم على تحرير ما كانوا يملكونه من رقيق . وهى وإن دفعت لهم تعويضات مجزية إلا أن هذه التعويضات سرعان ما صرفت في استئجار عمال يساعدهم على العمل . بل أصبح هؤلاء الرقيق — من الوجهة القانونية على الأقل — مساوين لغيرهم من السكان^(٣) وكانت وسيلة التعبير

(١) Afr. p. 15

(٢) جنوب أفريقيا ص ٣٨ و ٣٩

(٣) نفس المصدر ص ٣٢

عن هذا الضيق الهجرة إلى أراضي جديدة لا تمتد إليها أيدي البريطانيين وخرجوا معهم عائلاتهم وخدمهم وقطعانهم . ولم يمنعهم تملكهم للأرض من أن يضحوا بها ويبيعوها بأبخس الأثمان . فدخلت جماعات منهم إلى ناتال . بزعماء بيتر ريتيف . إلا أن المصادمات التي حدثت بينهم وبين الزولو انتهت بقتل ريتيف وبعض أصحابه . وفي سنة ١٨٣٨ قدم برتوريوس للانتقام لزملائه فاستطاع أن يوقع بالزولو فهرب ملكهم دنجان . واحتل البوير المنطقة ^(١) وتنبعهم الجيش البريطاني إلى ناتال واحتل المنطقة لارغبة بريطانيا في التوسع آنذاك . بل لأن الحكومة البريطانية رأت أن نزولهم في هذه المنطقة الساحلية يتيح لهم اتصالاً مباشراً بالدول الأجنبية . الأمر الذي تكرهه بريطانيا وتعمل على تجنبه . ووجود نفوذ لدولة أجنبية في هذه المنطقة البريطانية الهامة من حيث كونها في طريق اتصالهم بالهند خطر على مصالحهم . ووصول التجارة البريطانية إلى الهند وغيرها من أنحاء العالم كان أهم ما تعنى به بريطانيا وسياسوها منذ بداية القرن التاسع عشر . هذا أن استن هذه السياسة كأنه في سنة ١٨٢٢ وتبعه فيها تلميذه بالمستون ^(٢) فتحن نعرف أنه وقف من محمد علي في مصر موقف المعارضة مخافة أن تؤدي سياسة هذا الوالي المستقلة ثم اعتماده على الفرنسيين إلى الأضرار بالتجارة البريطانية إلى الهند ^(٣) كما سعت إنجلترا عن طريق اتصالها بسلطان زنجبار سعيد بن برغش أن يكون لها مركز ممتاز في بلاده من أجل أن تطمئن على هذه التجارة ^(٤) فكان أن ضمت ناتال إلى مستعمرة الرأس في سنة ١٨٤٢ على أن تترك لها حكومتها الخاصة .

وكان تتبع البريطانيين للمهاجرين ثم ضم منطقتهم إلى الحكم البريطاني داعياً لهم إلى هجرة جديدة اتجهت شمالاً بعد أن عبرت نهر الأورنج تحت قيادة هنديك بوتيجير Hendrick Potgieter وأسسوا دولة أورنج الحرة ^(٥) . ومن هذه المنطقة الجديدة خرجت جماعات أخرى أقل عدداً وعبرت نهر الفال وكونت جمهورية جنوب

(١) جنوب أفريقيا ص ٢٢

(٢) Brit. p. p. 17-25

(٣) Ibid. p. 26

(٤) John. p. 207

(٥) Ency. Art. Orange Free

أفريقيا (x)^(١). ولم تكن الحكومة البريطانية هذه المرة بتتبعهم ماداموا في الداخل تحيط بهم المستعمرات البريطانية من الجنوب والقبائل الأفريقية في الشمال والشرق والغرب. وإن كان القلق قد ساد بعض الدوائر البريطانية خوفاً على أعضاء بعض البعثات التبشيرية التي كانت قد دخلت إلى هذه الأجزاء واستقرت فيها كما عاش فيها بعض التجار البريطانيين يتاجرون مع الوطنيين في العاج.

ولكن الحق يقتضينا أن نقول أن هؤلاء المهاجرين لم يستقروا نهائياً في هذه المنطقة الجديدة إلا بعد أن شقوا طريقهم صعباً وبعد قتال عنيف مع قبائل الباسوتو في الشرق والماتاييلي في الشمال. خسروا فيه أرواحاً كثيرة. وبذلك أصبح هناك أربع وحدات سياسية هي الرأس وناثال وهما مستعمرتان تابعتان للتاج البريطاني. تم أورنج الحرة وجنوب أفريقيا وهما جمهوريتان مستقلتان.

وفي قولنا هذا بعض المبالغة فإن الأمور في الجمهوريتين البوريتين لم تستقر على صورة طيبة بسرعة. بل نزلت كل جماعة في منطقة من الأرض واستقرت بها بعد أن عبرت نهر الأورنج. حتى لم يكننا أن نقول أنه لم تكن هناك وحدة تجمعهم مطلقاً أو سلطة تباشر حمايتهم جميعاً حتى لقد طلب الجنرال نايبير قائد الحملة البريطانية التي عسكرت في ناتال. من حكومة لندن أكثر من مرة. أن تأذن له فيقدم ليضم هذه الجماعات كما ضم ناتال^(٢) فلم توافق الحكومة البريطانية على ذلك بل نصحت أن يكتفي بعقد المعاهدات مع من يرى من الزعماء من أجل ضمان حقوق الوطنيين كي لا يسبب النزاع معهم مزيداً من المشاكل في المستقبل^(٣) فاكتمل بما تأمره به الأوامر وسمى هذا الاتفاق الذي عقد في يناير سنة ١٨٥٢ والذي اعترفت فيه بريطانيا بالاستقلال السياسي لهذه المنطقة التي حملت اسم الجمهورية الأفريقية الهولندية باسم Sand River Convention وقد نص على تبادل التجارة وتبادل المجرمين. وحرية

(x) أطلق البريطانيون على هذه الجمهورية اسم الترنسفال في الفترات التالية التي خضعت فيها لسلطتهم وأصبح هذا الاسم اسمها الرسمي بعد سنة ١٩٠٢

Cam. p. 329 (١)

Ibid. p. 339 (٢)

Afr. p. 16 (٣)

الحركة عبر الحدود فعدم الاعتداه على أراضي بعضها . كما نص على إلغاء الرق^(١) وأن يمثل الحكومة البريطانية لديهم مزدوب سام هذا في الوقت الذي يتكون فيه جهاز الحكم في الجمهورية من رئيس منتخب يعاونه مجلس تنفيذي يعتمد على مجلس نيابي منتخب هو مجلس الأمة .

ولكن أحوال هاتين الجمهوريتين لم تستقر . فكان سوء الأحوال هو الذي دعا زعماء الجمهوريتين إلى محاولة الاتحاد معا في أكثر من مناسبة . كانت الأولى حين اتفق بريتوريوس رئيس جمهورية جنوب افريقيا مع كروجر قائد الجيش في الجمهورية على اسقاط حكومة اورنج وارغامها على الاتحاد . ومن أجل ذلك قاد الأول جماعة من المتطوعين وعبر بهم نهر الفال وانضم إليهم انصارهما في اورنج . في الوقت الذي اتفق فيه مع زعيم قبائل الباسوتو على مهاجمة اورنج من الشرق . ولكن مقاومة قوات حكومة اورنج أرغمت المهاجرين على الارتداد وتسوية الأمور تسوية سلمية كان من نيجتها سخط أهالي جمهورية جنوب افريقيا على حكومتهم واسقاط بريتوريوس^(٢) . وكانت المرة الثانية في سنة ١٨٩٠ حين انتخب بريتوريوس الابن رئيساً للجمهورية اورنج في الوقت الذي كان فيه رئيساً للجمهورية جنوب افريقيا فحصل بريتوريوس على اجازة لمدة ستة اشهر واتجه إلى بلهفونتين (عاصمة اورنج) من أجل أن يدبر أمر الاتحاد سلميا . ولكنه لم يكدر يخرج حتى قامت إحدى مقاطعات الجمهورية وهي لايدن برج برئاسة أكبر ملاكها وهو بوتجيتير يعارض في هذا الاتحاد بدعوى إنه أكبر فائدة لأورنج منه للجمهورية . مما أدى إلى استقالة بريتوريوس^(٣) وقد دلت هذه الحوادث على أن ليست الروح الوطنية هي التي تسير أمور البوير . فإذا كانت الوحدة بين الجمهوريتين قد تمت فإنه كان من المحتمل أن يؤدي الأمر إلى قيام جمهورية واحدة حرة قوية على قدر من الاستقرار ولكن انعدام الثقة بينهم قضى على هذه المحاولة . ومنعت الجمهوريتين من الحصول على الأمان والاستقرار اللذين كانوا في اشد الحاجة إليهما .

(١) C. m. p. 355 .

(٢) Theal. Vol. 11 p. 42 .

(٣) Cam. p. 435 .

الفساد في الجمهورية البويرية :

ولذا كانت النتيجة الطبيعية — إذا ما قامت الجمهوريتان — أن يكون النزاع بين الزعماء هو طابعهما المميز مما أدى إلى فشل الحكومتين في جمع الضرائب وبالتالي إلى عدم وجود سياسة ثابتة في أى ناحية من نواحي النشاط الحكومى حتى إذا جاءت الأزمة المالية في سنة ١٨٦٥ وأصدرت حكومة جمهورية أفريقيا أوراعاً مالية لم يثق بها الأهالى وهبطت قيمتها إلى ٣٠٪ من قيمتها .

وكان هذا الفساد أيضاً نتيجة طبيعية لضعف مستوى العقول التى تدير الأمر لمن تمعدى ليحتل مكان الزعامة . ويمكننا أن نتخذ من وصف حياة كروجر مثالا نستدل منه على نوع الرجال الذين تولوا قيادة الجمهوريتين خلال هذه الفترة فقد صحب والديه وهو صغير السن في هجرتيها الكبرى . فنشأ في حالة بين البربرية والمدنية . متجولاً على طول الخط . مقاتلاً . صائداً ، تربيته أولية ، أعتقد في نفسه أنه مهيء من الله لتنفيذ رسالة ما . اشترك خلال صباه في الحروب ضد الماتاييلي حتى استقر نهائياً في شمال القال . فكان ضمن المؤسسين لجمهورية جنوب إفريقيا . كل ذلك ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره^(١) فإذا ما استقر الأمر ببعض الشيء وجد في الجمهورية أكثر من حزب كل يرى وجهاً ما للعلاقة بين الجمهورية والبريطانيين . فهناك من يمكننا أن نسميهم باليمينيين المتطرفين وهم الذين يرون وجوب المحافظة على استقلال الجمهورية مهما كان الثمن ، والعزلة عن الوحدات البريطانية ثم السعى إلى توسيع الرقعة بضم الأراضى التى تسكنها الجماعات البويرية الأخرى وكذلك الجماعات الوطنية أى اتباع سياسة الاعتداء في كل الجهات . وكان على رأس هؤلاء كروجر . كما كان هناك من نستطيع أن نسميهم اليساريين المتطرفين وهم الذين يرون ما كانت تعانيه بلادهم من أحوال سيئة ويسعى جاهداً إلى العودة إلى الحكم البريطانى على أية صورة من الصور وعلى رأسهم برجر . ثم الحزب الثالث الذى كان يراى الابقاء على الاستقلال مع السعى الجدى إلى إصلاح الأمور للوصول بها إلى بر السلامة وهم من نستطيع أن نسميهم بحزب المعتدلين أو حزب الوسط أو حزب الاصلاحيين .

محاولة انضمام السلمي الى الاملاك البريطانية :

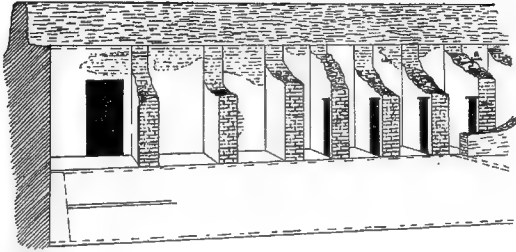
وفي سنة ١٨٧٧، تبين برجر وكان رئيساً للجمهورية أن الأمور لا تسير في الجمهورية بحالة مرضية إذ لم يكن البوير يعنون بالحرية سوى القوضى وسياستهم الوطنية (إزاء الوطنيين) لم تكن إلا استرقاقاً. وقد عبر عن هذه الحالة في إحدى خطبه أمام مجلس الأمة في مارس من تلك السنة حين قال أنه يفضل أن يكون رجل بوليس في حكومة قوية من أن يكون رئيساً لمثل هذه الدولة والتي بمسئولية ذلك على جميع البوير. ولذا نراه قد فتح باب المفاوضات مع السير هنري إباركلي حاكم مستعمرة الرأس والمندوب السامي ليرسل إليه تيوفيلس شيبستون Theophilus Shepstone للمفاوضة في أمر مستقبل الجمهورية. وبعد بضعة شهور أمضاها شيبستون في بريوريا اقتنع بأن ضم (الترنسفال) إلى الاملاك البريطانية هو خير حل لخلاصها من مشاكلها. إذ كانت الخزينة خالية والبوير يرفضون دفع الضرائب وليست هناك من قوة لارغامهم على دفعها والدين العام بلغ ٢١٥ ألفاً من الجنيهات وكأما تبين كل إنسان سوء الحال فوق ثلاثة آلاف منهم (من بين عدد الرجال الذين بلغ عددهم تسعة آلاف) عريضة يطلبون فيها هذا الضم. وفعلا وقع شيبستون اتفاقاً بالضم في أبريل سنة ١٨٧٧^(١) ونص هذا الاتفاق على أنه يعبر عن رغبة حكومة جلالة الملكة في أن يجمع أهالي هذه الدولة بحرية التشريع فيما يختص بأمرهم الداخلي وبما يتلائم مع رغبة الأهالي.

إذا وافقت الحكومة البريطانية على الضم :

وكانت الحكومة البريطانية قد أيدت هذا الضم بسبب وجود ذرائيل على رأس الوزارة وقد اهتم خلال وزارته (١٨٧٤ — ١٨٨٠) بالاقلاع عن سياسة العزلة التي اتبناها جلادستون منذ سنة ١٨٦٥ وأخذ يهتم بالحركة الاستعمارية فأبدى العناية الكبيرة بشئون الامبراطورية وفي مقدمتها الهند ومن أجل ذلك اهتم بمصر واشترى اسهم قناة السويس رغم معارضة وزير الخارجية اللورد ديربي^(٢). كما تدخل في مسألة التركستان فقاوم امتداد النفوذ الروسي إليها ليحمي المصالح البريطانية

Cam. p. 476 (١)

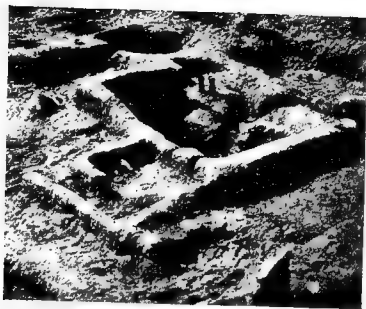
Brit. p. 68 (٢)



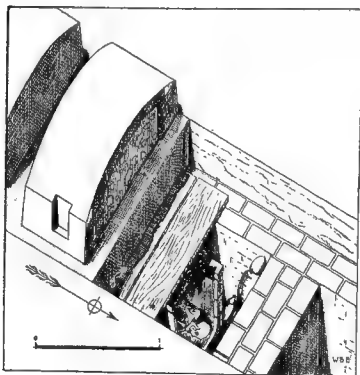
١ - مقدمات مداخل الروح في مقابر الأسرة الأولى بإيدوس
(ص ٩٨ - ١٠٠)



١٢ : فتحات مداخل الروح في مصاطب
العصر النتنى بطرخان (ص ١٠١ - ١٠٢)



٢ ب: راجع الشكل السابق



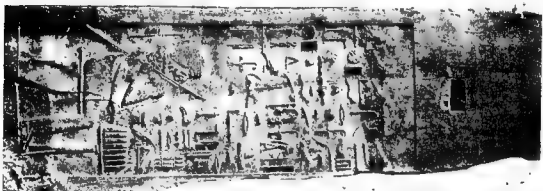
٣ - تخطيط مشكاة للقربان والروح (٩) في
مصطبة من الاسرة الاولى بسقارة (ص ١٠٢)



٤- ٥ : الشكاوات ذات اللداخل والنوافذ
في الهرم المدرج (ص ١٠٩ - ١١٠)



٨- مدخل الروح الجوى الكبير
داخل مشكاته (فتح باو سكر :
ص ١١٢ - ١١٤)



٦- مشكارات حتى ربع ومدخلها ذات النورحة المسطحة

(ص ١١١ - ١١٣)





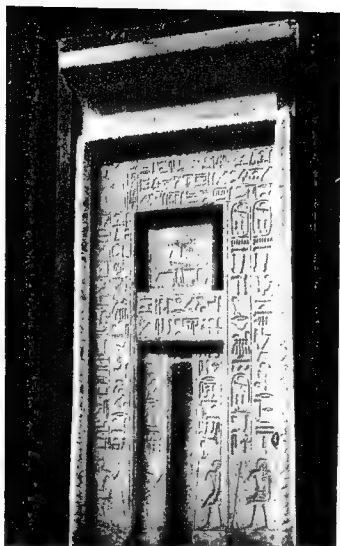
٩ - مدخل الروح في تصميمه البسيط بعد أن استقل من
ممكناته (شري : ص ١١٧ - ١١٨)



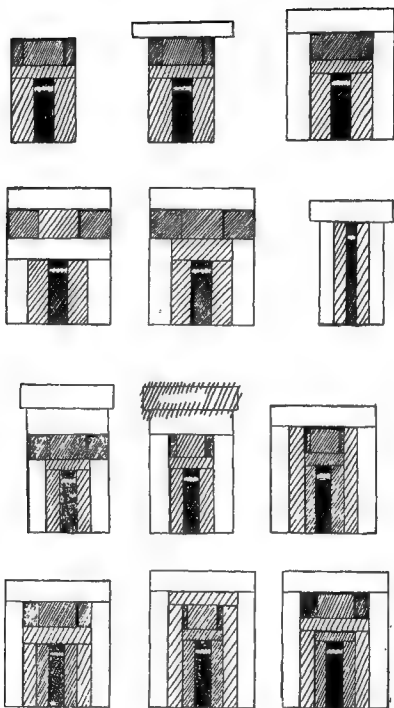
١٠ - نموذج للمداخل البسيطة في تطورها اثنتان (باللوحة
والعتين والاطار المسطح : ص ١١٦ +)



١١ - التطور الثالث للمداخل (بالاكشاف المزدوجة والكورنيش والخيزرانة) - لاحظ الاطار العلوى للوحة القربان ، وتصوير صاحب المدخل في اكثر من سن واحدة .

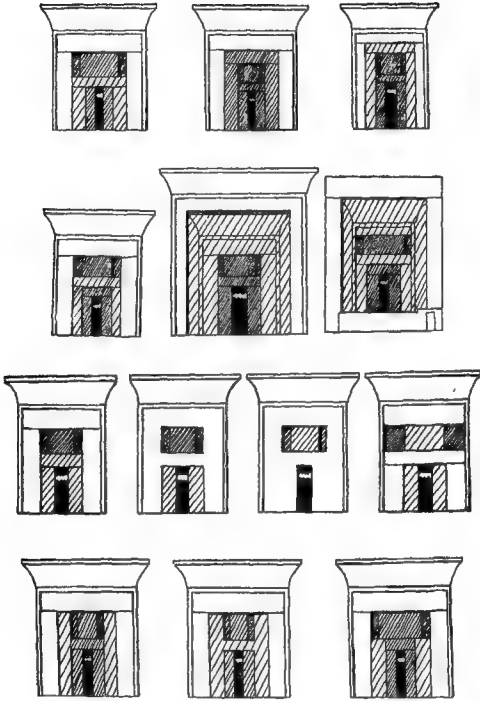


١٢ - مدخل نموذجي كامل من أوائل عصر
الأسرة السادسة



١٣ - تخطيطات لتطور الاكتاف والأعتاب ومواضع
الدفن في المداخل غير ذات الكورنيش (ص ١٢٥ - ١٢٦)

After ; Adolf Rusch , in AZ, LVIII, Taf. A, S. 120



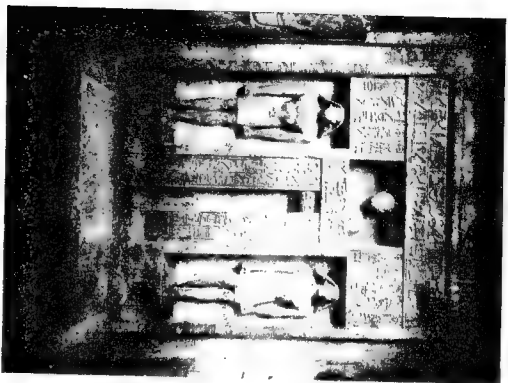
١٤ - تخطيطات لتطور الأكتاف والأعتاب وموضع

اللوحت ذات الكورنيس والخيزرانة

After : Adolf Rusch, op. cit, Taf. B., S. 122



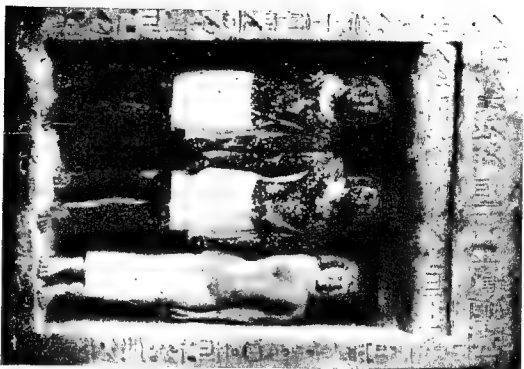
١٥ - باب بدلفتين وعوارض في فتحة مدخل انثى (مع استغلال
عشمو الشراعة على جانبي اللوحة) ص ١٢٩ - ١٣٠



١٧ - تعدد التماثيل في واجهة المدخل وحول
التمثال النصفى محلى الوجحة مع تصوير تساول
القرابين على جانبي المدخل



١٦ - انتقال جماول القرابين الى كنفى المدخل
وتطور التمثال في فتحة بابة في عصر الأسرة السادسة
(ص ١٣٠)



١٩ - دانيال الأسيرة في فتحة المدخل



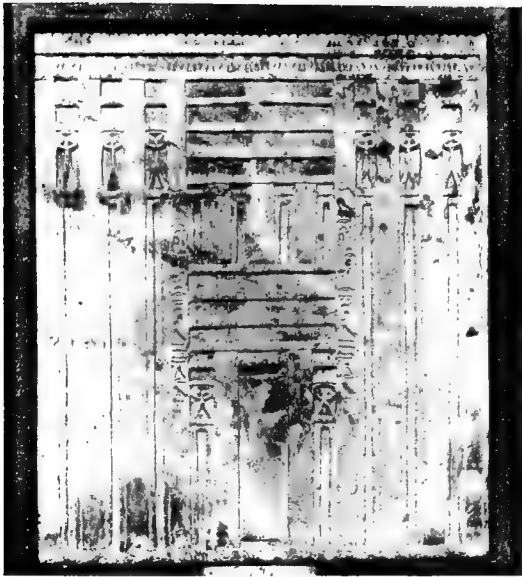
١٨ - الخروج من القبر لتلقى الترابين في فتحة المدخل



٢٠ - حلول الصورة الأمامية محل التمثال في
فتحة المدخل وزيادة الصور على حساب النصوص



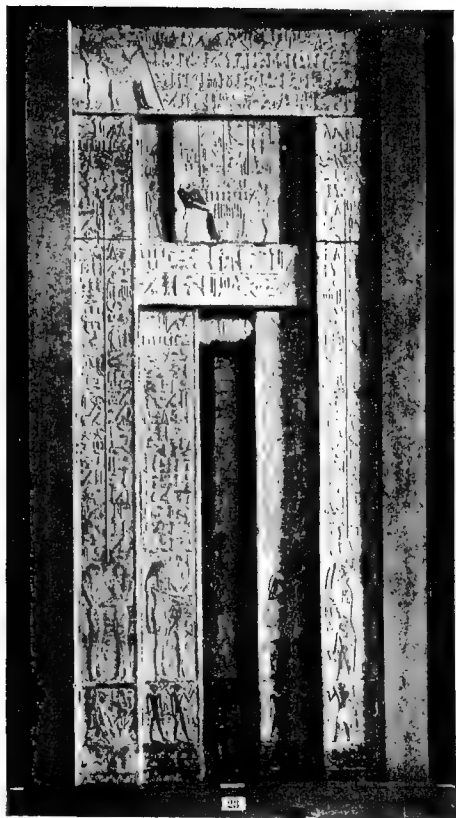
٢١ - مدخل ذو اكتاف ثلاثية استغلت سطوحه لنقش مناظر دينية وعقائدية
(ص ١٢٤ - ١٢٥)



٢٢ - واجهة مدخل دنيوى ببابها الخشبي (واجهة القمر) - ص ١٣١



٢٣ - تمديدات فردية في المداخل ونقوشها (ص ١٣٣ - ١٣٤)



٢٤ — تعديلات فردية في المداخل وتقوسها (ص ١٣٤)

في الهند . حتى استطاع أن يظفر بموافقة جلالة الملكة فيكتوريا على أن تحمل لقب إمبراطورة الهند^(١). كما عني اللورد كارتارفون وزير المستعمرات بمد النفوذ البريطاني في جنوب أفريقيا من أجل السعي إلى تكوين الامبراطورية التي كان يراها ضاماً للسلم^(٢). وكان ذرائعيلي قد عرف عن طريق المندوب السامي أن برجر مصمم على اللجوء إلى ألمانيا والتحالف معها إذا رفضت بريطانيا هذا الاتحاد^(٣) وكان إبعاد ألمانيا عن هذا الجزء أهم ما يعنى السياسة البريطانيين لئلا يكون وجودها سبباً في تنافس مع بريطانيا تكون نتيجته قيام تحالف فرنسي ألماني . كما نستطيع أن نعالل زيادة اهتمام الحكومة البريطانية بجنوب أفريقيا أيضاً بزيادة إقبال أصحاب رؤس الأموال البريطانيين على استثمار أموالهم هناك^(٤) نتيجة اكتشاف الماس . فأصبحت الحكومة البريطانية تشعر بضرورة حماية مصالحهم . فقد كانت الأموال البريطانية المستثمرة في حقول الماس في سنة ١٨٧٥ لا تعدو مليونين ونصف المليون من الجنيهات . فارتفعت في نهاية العقد الثامن إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ . كما بلغ ما لهم من الديون إثني عشر مليوناً ونصف المليون من الجنيهات^(٥).

وإذا كانت الأحزاب قد كثرت في كل من أورانج والترنسفال على نحو ما رأينا فإن الشعب في الأملاك البريطانية وخاصة في مستعمرة الرأس لم يكن أقل من ذلك انقساماً حيث كانت أغليتهم من البوير . ولذا نظروا إلى مسألة حكم البريطانيين لهم نظرة عداة صريحة . وكان على رأس هذه الجماعة التي تركز أغليتهم في الجنوب الغربي من مستعمرة الرأس نوات Rev. S. J. Du Toit الذي أخذ يدعو إلى الاهتمام بأحياء اللغة الهولندية من أجل جعلها على قدم المساواة مع الإنجليزية وكثيراً ما اتصل بـ كروجر من أجل السعي إلى الاتحاد معهم . فكان ينصحهم بالتأني حتى تستقيم الأمور في الترنسفال^(٦). وإلى جانب هؤلاء يوجد حزب الرابطة الافريقية الذي يرأسه هو فاير الذي تنادى بمبادؤه بالتعاون بين البريطانيين والهولنديين

Ibid. p. 82 (١)

Cam. p. 467 (٢)

(٣) جنوب أفريقيا ص ٥٢

Afr. p. 13 (٤)

Ibid. p. 211 (٥)

Cam. p. 493 (٦)

من أجل إقامة جمهورية جنوب أفريقيا المستقلة تحت علمها الخاص . وكانت هذه الجبهة تعادى جماعة توات الانفصالية ولذا أبدت هذه الجبهة جهود برجر من أجل إتمام الوحدة سلمياً (١) .

ومن أجل إتمام هذه الوحدة لم تتردد الحكومة البريطانية في مخالفة سياستها السابقة تجاه الوطنيين فقد كانت دائماً تقف معهم ضد البوير وترغم الآخرين على احترام حقوقهم (٢) . كما حدث في اتفاق Sand River ولكنها الآن أخذت تهددهم بالحرب في حالة اعتدائهم على الحدود البويرية . كما فعلوا مع السكوكوني وهزموهم (٣) . ولكن هذا الموقف العدائي الذي وقفوه أخيراً ضد الوطنيين أوقعهم في بعض المآزق لاسيما حين واجهوا الزولو في الشرق ، وهزموا أمامهم . حتى إذا وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى الترنسفال رجح بعضهم عن فكرة إتمام الضم وارتفعت أصوات المعادين له . لاسيما وقد خسر البريطانيون في صراعهم مع الوطنيين كثيراً من الأموال والأرواح .

فشل محاولة الضم السلمي وحرب البوير الأولى :

ولكن حدث في أبريل سنة ١٨٨٠ أن أصبح جلادستون رئيساً للوزارة من جديد (١٨٨٠ — ١٨٨٥) (٤) وعادت معه سياسة العزلة والاهتمام بحرية التجارة أكثر من أي شيء آخر . فأعفى المندوب السامي فريز من منصبه . فأثار ذلك سخط الموالين لبريطانيا سواء في مستعمرة الرأس أو الترنسفال فكتب كروجر إلى جلادستون في هذا الشأن فرد عليه بأن لهم الحق في أن يتمتعوا بحريتهم في الترنسفال كأعضاء في اتحاد جنوب أفريقيا (٥) . فكان هذا إلى جانب هزيمة البريطانيين أمام الزولو ثم مباشرة حكومة شيبستون لسلطته بطريقة أثارت شعور السخط في البوير فرفضوا دفع الضرائب إلى (حكومة أجنبية) بل اجتمعوا وانتخبوا لهم حكومة

(١) Cecil p. 145

(٢) Cam. p. 496

(٣) جنوب أفريقيا ص ٤٤

(٤) Brit. p. 85

(٥) Cam. p. 491

مؤقتة على رأسها كروجر وبريتوريوس لم تلبث ان اعلنت الحرب على بريطانيا . ودارت بضعة معارك إلا ان تفوق البوير في العدد اعطاهم نصراً حاسماً في موقعة تل ماجوبا الأمر الذي ادى — إلى جانب سياسة جلاستون — إلى ان تطاق حكومة بريطانيا كل سياستها الافريقية التي لا تجلب لها المتاعب والحروب والنفقات الكثيرة التي يرفضها الناخب البريطاني . فكان ان عقدت الهدنة في مارس سنة ١٨٨١ انتهت إلى معاهدة بريتوريا في ٣ اغسطس من نفس السنة التي استعاد فيها البوير استقلالهم وحددت حدودهم الشرقية بوضوح . على ان تكون هذه الحكومة تحت وصاية الحكومة البريطانية . فليس لها ان توسع رقعة اراضيها او تعقد المعاهدات مع دولة خارجية دون موافقة صريحة من الحكومة البريطانية . بل يتولى المقيم البريطاني هذه المهمة عنهم . كما اعترف باستقلال السوازي في إقليمهم بين جمهورية جنوب افريقيا والبحر ^(١) .

— ٢ —

وتحدد معاهدة بريتوريا نهاية المرحلة الأولى من تاريخ جنوب أفريقيا وهي مرحلة بدا فيها منذ بدايتها صراع بين ثلاث قوى قدر لها أن تلعب الأدوار الرئيسية على مسرح تاريخ تلك البقعة من العالم . وأول هذه القوى البوير الذين رأوا أنفسهم أصحاب الحق الأول في تسيير مصير جنوب أفريقيا بحكم :

١ — تملكهم الواقعي للأرض بعد أن طردوا منها أصحابها الوطنيين .

٢ — تفوقهم الحضارى على هؤلاء الوطنيين وتفوق سلاحهم .

٣ — تفوقهم العددي على البريطانيين .

٤ — انقطاع الصلة بينهم وبين بلادهم الأصلية إذ لم يعودوا قادرين على العودة إليها .

أما القوة الثانية فهي قوة البريطانيين الذين كانوا يرون أنفسهم وقد أصبحوا أصحاب السيادة على هذا الجزء . بعد أن تملكوه تملكاً قانونياً منذ سنة ١٨١٤ وتمثل

قوتهم في سلطة الحكومة من ناحية وقلة من السكان البريطانيين أخذوا يهاجرون إلى هذه الأجزاء منذ احتلالهم لها من ناحية أخرى .

أما القوة الثالثة فهي قوة الوطنيين أصحاب البلاد الأصليين الذين كانوا يرون في القوتين السابقتين دخلاء على أراضيهم^(١) فلم يملكوا إلى أن يظهروا العداء للقادمين ، إلا أن عداؤهم انصب أكثر ما يكون على البوير الذين كانوا أول من احتك بهم وأول من أرغمهم على ترك أراضيهم وعاملهم منذ اللحظة الأولى معاملة العبيد الأرقاء ولم يترددوا في أن يطلبوا في بعض الأوقات الحماية والمعونة من البريطانيين^(٢) الذين وقفوا منهم موقع المدافع إذا رأوا أن مصالحهم تختم عليهم هذا الوضع . ولكنهم في نفس الوقت لم يكونوا يترددون في التخلي عنهم ومحاربتهم إذا حتمت الظروف عليهم هذا الوضع أيضاً .

أما الدور الثاني فيبدأ بعد معاهدة بريتوريا مباشرة . وهو يتميز بظهور عوامل جديدة قادت المعركة بين أطرافها الثلاث . كي تنتهي إلى نتیجتها الحتمية وهي فناء أحد هذه العناصر . وهي النتيجة التي كانت غارة جيمسون على جمهورية جنوب أفريقيا سنة ١٨٩٥ ذروة ما دار بينها من الصراع الذي أدى إلى حرب البوير وإلى دخول الجمهوريتين البويريتين ضمن الأملاك البريطانية أما هذه العوامل فهي :

١ - نمو روح العناد عند البوير :

كان استعادة الكيان السياسي لجمهورية جنوب أفريقيا أكبر ضربة أصابت الموالين لبريطانيا . ووجد البوير أنفسهم في مركز أفضل بكثير مما كان قبلاً فقد سحق أعداؤهم الوطنيون . وتحول ثلثا ديونهم إلى بريطانيا . وأعيد مجلس الأمة وانضخ كروجر رئيساً وتحسنت المالية فوصلت الميزانية في سنة ١٨٨٢ إلى ١.٥٧٧.٤٤٥ جنياً . فكان هذا باعثاً لهم على أن يسعوا إلى توسيع رقعة الأرض التي يسيطرون عليها إذ رأوا أنفسهم أحق الجميع باجتلاع كل جنوب أفريقيا^(٣) من أجل تكوين United South Africa تحت علمهم الخاص . ولذا كان احترامهم

Ibid. p. 354 (١)

Ibid. p. 468 (٢)

Ibid. p. 518 (٣)

للحدود التي حددتها معاهدة بريتوريا قليلاً كما استمنوا بما نصت عليه المعاهدة بأن لا يحاولوا التعامل مع قوة خارجية (ومنها الوطنيين) إلا بأذن من بريطانيا فكان أن أرسلوا بمهاجرين نحو الشرق حيث أراضى الزولو منتهزين فرصة الخلاف بين الزعماء وهناك أقاموا (الجمهورية الجديدة) ^(١) كما اتجهوا إلى الغرب حيث البتشفوانا منتهزين أيضاً فرصة الخلاف بين الزعماء فتنصروا إحدى الجهتين وانضموا إليها حتى إذا انتهت الحرب استقر هؤلاء المحاربون حيث وجدوا أنفسهم وكان طبعياً أن يدور الصراع بينهم وبين الوطنيين من جديد ولكن انتهى الأمر بقيام جمهوريتي ستلاند وجوشن في سنة ١٨٨٢ ولم يحفلوا بالاحتجاج البريطاني . وأيد هوفماير وجماعته هذا العمل ^(٢) . واكتفى البوير بأصدار قرار بتوحيد الجمهوريتين في جمهورية واحدة باسم ستلاند المتحدة وإذا ما تقدم البريطانيون بعروضهم لحماية هذه لدولة الجديدة من هجمات الوطنيين رفضت حكومتها هذه الحماية .

أما تحدى البوير للبريطانيين فبدأ حين سن قانون الانتخاب الجديد في سنة ١٨٨٢ فأخرج منه كل من لم يكن بويري . حتى إذا اجمع المقيمون البريطانيون اكتفوا بأن أعطوا حق الانتخاب بعد إقامة خمس سنوات—وكانت قبلاً سنتين—^(٣) وظهر هذا التحدي أيضاً في زيادة الرسوم الجمركية على البضائع الواردة ^(٤) حتى إذا تبين المندوب السامي البريطاني خطورة الخطة البويرية إزاء انجلترا كتب إلى حكومته يطلب التدخل . في الوقت الذي ألح فيه أنصار الإنسانية Hamanitarians على الحكومة أيضاً من أجل حماية الوطنيين . فسافر كروجر إلى انجلترا ليحسم الأمر سلمياً . وبدا ضعف بريطانيا حين رضى اللورد دربي بعقد معاهدة جديدة في سنة ١٨٨٤ كانت في الواقع تأييداً لمعاهدة بريتوريا، وإن كان البريطانيون قد منحوا حق مباشرة التجارة وعدم خضوع التجار البريطانيين لأية ضريبة إضافية ^(٥)

(١) Ibid. p. 519

(٢) Ency. Art. Hofmayer

(٣) جنوب أفريقيا ص ٦٠

(٤) Cam. p. 533

(٥) جنوب أفريقيا ص ٦١

فكان هذا توطيداً لأركان حكم الرئيس كروجر دفعه لأن يقوم بإصلاح للأحوال في جمهوريته اعتمد فيه على مجموعة من المتخصصين الألمان والهلنديين وكان على رأسهم الدكتور ليدز Leyds الذي أصبح مستشاراً للدولة ثم وزيراً في سنة ١٨٩٢ فكان من أثر ذلك زيادة رغبة الشعب في الابتعاد عن بريطانيا . وقد لقي كروجر وهو في لندن الأمر سهلاً بفضل سياسة وزارة الخارجية البريطانية التي كانت ترفض أن تعمل وفقاً لمصالح رجال المستعمرات Colonists الذين (ألقوا بالعيب كله على عاتق الحكومة مما كان سبباً في تكبدها مصاريف رفضوا المساهمة في جزء منها)^(١) .

وقد اعتمد كروجر على هؤلاء المستشارين رغم إدراكه كراهية الشعب لهم . ولكنه كان يرى اعتداده عليهم يزيد الأمل في خلق الرغبة لدى الدول المنافسة لبريطانيا في القارة وخاصة ألمانيا في المعاونة باقراضه القروض وتأسيس الهيئات المالية الأهلية (١) وكان هذا الاتجاه نحو ألمانيا باعثاً إلى اجهاد هوفماير وجماعته عنه إذ كانوا يكرهون ما تنبئ به الأحوال من قرب السيادة الألمانية مما دعاه إلى تحويل الجبهة الأفريقية إلى حزب سياسي نص في قانونه على الولاء للتاج البريطاني^(٢) لأنه كان يرى أن علاقة بريطانيا بجنوب أفريقيا ضرورية إذ هي الوحيدة — بفضل أسطوطها البحري — القادرة على حماية هذا الجزء . ومن هذا نستطيع أن نفهم لماذا بدأ هوفماير منذ سنة ١٨٨٥ يبدى معونته الواضحة لسيسل رودس في مستعمرة الرأس .

ولم يؤد اتفاق سنة ١٨٨٤ الى السلام بين جمهوريتي جنوب أفريقيا وبريطانيا بل ظلت اعتداهات المتسللين من البوير على الوطنيين في الغرب ، مما دعا انجلترا — تحت إلحاح المندوب السامي البريطاني وبعض أنصار الاستعمار من الوزراء — إلى إرسال حملة وارن في سنة ١٨٨٥ لاستعادة هيبة بريطانيا التي سقطت في حرب البوير الأولى وذلك بعد أن توصلت الوزارة البريطانية إلى اتفاق مع ألمانيا بأن توافق على إرسال الحملة لقاء ضمها إقليم دارلاند إلى منطقة النفوذ الألماني ثم تأييد ألمانيا لها في موقفها في مصر^(٣) .

Afr. p. 47 (١)

Ency. Art. Hofmayer (٢)

Afr. p. 207 (٣)

وكان من نتيجة هذه الحملة أن وافقت جمهورية جنوب أفريقيا على فرض الحماية البريطانية على القسم الجنوبي من بيشوانالاند حتى خط عرض ٢٢ جنوباً^(١) لأجل حفظ الطريق مفتوحاً إلى الشمال^(٢) عن طريق إيقاف الأطماع البرتغالية في غرب موزمبيق وقد أعلنت هذه الحماية بعد إلحاح كبير من السير سيسل رودس بالرغم من الإلحاح في طلبها قبل ذلك بواسطة الزعماء الوطنيين من أجل حمايتهم من المتسللين البويرين ورغبة الوزارة البريطانية عن إتمام هذا العمل مكتفية بمنحهم حق الالتجاء في مستعمرة الرأس .

وتحدى كروجر البريطانيين أيضاً (وقد أصبح رئيساً للجمهورية منذ سنة ١٨٨٣) يوم رفض امتداد خط سكة حديد ناتال والرأس عبر أراضيه^(٣) بل منح إمتيازاً لشركة أمريكية لمد خط حديدي إلى لورنزوماركيزو . كما رفض الانضمام إلى مؤتمر جركي كان قد اقترحه هوفغار من أجل إقامة اتحاد جركي بين دول جنوب أفريقيا . إذ كان يرى أن مثل هذا الاتحاد قد يكون مقدمة لاتحاد سياسي شأن اتحاد الزولوين الألماني . وإذا ما نجحت الرأس في توقيع هذا الاتحاد مع أورنج الحرة رفض كروجر الانضمام إليه^(٤) وفي سنة ١٨٨٩ عرضت الرأس مشروع خط حديدي يجرى عبر القارة من الجنوب إلى الشمال (القاهرة - الكاب) فرفضه كروجر أيضاً بما دفع حكومة الرأس إلى مد هذا الخط عبر بيشوانالاند خارج الحدود الغربية للجمهورية بمقتضى اتفاق عقد مع حكومة المحمية في سنة ١٨٩٤ .

بل منح كروجر امتياز مد الخط الحديدي من حدود الجمهورية الجنوبية إلى جوهانسبرج لشركة هولندية^(٥) حتى إذا عجزت عن إتمامه قدم السير سيسل لها القروض ورفعت أجور النقل عليه إلى ثلاثة أمثاله دون أن يخجل ذلك بملكية البرتغال له . وبذلك حرمت الرأس حقاً كانت تمارسه قبلاً هو حق تحديد أجور

(١) Duffy p. 215

(٢) Cam. p. 507

(٣) Hailey p. 1547

(٤) Cam. p. 534

(٥) Hailey p. 1548-51

النقل^(١) وقابل التجار البريطانيون هذه الخطوة بالأضراب عن استعمال الخط والعودة إلى النقل بالعربات والدواب . وحينئذ رأى كروجر بعينه كيف فشل حتى سنة ١٨٩٥ في الوصول إلى البحر عن طريق ميناء حر .

وحين رأى كروجر أن أورنج قد انسأقت في الركاب البريطاني فأنضمت إلى الرأس في اتحاد جركي عمل على إخراجها منه بأن عرض عليها اتفاقاً تجارياً وتحالفاً عسكرياً . ونجحت في عقد الاتفاقين في سنة ١٨٨٩ علاوة على اتفاق ثالث بشأن السكك الحديدية^(٢) .

وتحدى كروجر الرعايا البريطانيين حين اكتشف الذهب في منطقة الراند في جمهورية جنوب افريقيا في سنة ١٨٨٨ وأخذ هؤلاء الرعايا يهاجرون إليها طلباً للعمل وقد كونوا أكثر من أربعة أتماس القادمين . وازدادت أعدادهم في سرعة مذهلة . كما اتجه إليها الرأسماليون البريطانيون من أجل استثمار أموالهم . وكان لابد أن يأتي اليوم الذي يطالب فيه هؤلاء المهاجرون بالمساواة السياسية ورفضت حكومة كروجر أن تعترف لهم بأي حق فأطلقت عليهم اسم (اويتلاندرز) ومعناها الغرباء . فقد كان كروجر يخاف أن يلعبوا في جمهوريته نفس الدور الذي لعبه إخوانهم في نائال حين وافقوا على ضمها إلى بريطانيا عام ١٨٤٢^(٣) . كما كان يخاف أن يلقوا بثقلهم في صف منافسيه^(٤) . هذا في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يرون أنفسهم يدفعون الضرائب وليس لهم أي صوت في تصريف الشؤون أو تشريع القوانين في الوقت الذي يتمتع فيه البوير بحق المساواة مع البريطانيين في الأملاك البريطانية . وكان كروجر يخاف أن يدفع هؤلاء بحكومته إلى مزيد من المضايقات ثم الاستدانة حتى إذا ما ذهب الانتعاش الناتج عن اكتشاف الذهب . تركها هؤلاء الغرباء وتركوا الدولة وجدها تقاسي نتائج هذه الديون . وقد رأينا هذا التحدي حين زاد مدة الإقامة إلى خمس سنوات ليصبح للمهاجرين حق في الانتخاب . ولكن زيادة الضغط

Cecil p. 168-9 (١)

Cam. p. 534 (٢)

Ibid. p. 566 (٣)

Ibid. p. 567 (٤)

أدت به إلى الموافقة على منحهم حق الانتخاب على أن يكون أدائهم لهذا الحق قاصراً على انتخاب مجلس نواب ثان يكون اختصاصه قاصراً على بحث شئون المناطق الصناعية ولا يعطى حق فرض الضرائب وقراراته عرضة للنقض بواسطة مجلس النواب الأول . ومن لم حق التصويت في هذا المجلس ليس لهم حق الانتخاب في المجلس الأول حتى تمتد إقامته إلى أربعة عشر عاماً^(١) . وكان طبعياً أن يرفض هؤلاء المهاجرون (الأغراب) هذا العرض لا سيما وقد زيدت الرسوم الجمركية كما رأينا مما أدى إلى ارتفاع أثمان ما يستهلكونه كما زيدت مصاريف العمل في المناجم . وقد حذر كثير من المعتدلين كروجر من هبة هذه السياسة^(٢) حتى إذا تقدم المهاجرون بأكثر من عريضة ملحين في طلبهم رفضها مجلس النواب البويري . بل حين قابله وفد من المهاجرين من أجل التفاهم أهانهم . وكتب هؤلاء إلى الحكومة البريطانية لتؤيدهم ، فكتبت الحكومة إلى المندوب السامي البريطاني أن يعرض على كروجر بعض الحقوق مقابل منحهم حق الانتخاب ورفض هذا العرض أيضاً^(٣) فألف المعتدلون من أمثال شارلس ليونارد (جبهة الاتحاد الوطني لأهالي ترانسفال)^(٤) مطالبين كروجر بالتساهل من أجل بناء مجتمع يتساوى فيه جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ولكنه رفض التساهل أيضاً في سنة ١٨٩٢ وهدد باللجوء إلى طلب المعونة من ألمانيا .

٢ — أما العامل الثاني فكان تحول السياسة البريطانية عن حرية التجارة والعزلة إلى الاستعمار خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر تولى شئون إنجلترا وزراء عرفوا بنزعتهم الاستعمارية، فقد تولى سالسبوري كلا من رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية منذ يونيو سنة ١٨٨٥ حتى نفس الشهر من سنة ١٨٩٢ . وكان يرى أن سياسة العزلة التي اتبعها جلادستون في الوقت الذي كانت هناك أحداث خطيرة تجري في أنحاء العالم قد أضرت بسمعة بريطانيا وبمركزها فترك هذه السياسة وأخذ ينتهز كل فرصة ممكنة

Ency. Art. Transvaal (١)

Cam. p. 569 (٢)

Afr. p. 143. (٣)

Ency. Art. Transvaal (٤)

للاشتراك في المشاكل الدولية بأن يكون طرفاً في معاهدات دولية^(١) ، فراه يقاوم محاولة ألمانيا فرض نفوذها في شرق أفريقيا التي أصبحت منطقة نزاع بين شركتي شرق أفريقيا البريطانية وشرق أفريقيا الألمانية ولذا ينجح في سنة ١٨٨٦ في اقتسام هذه المنطقة مع ألمانيا فيحصل انجلترا على المنطقة الشمالية من خط يمتد من مصب نهر تونجي إلى منتصف بحيرة فيكتوريا بينما تحصل الثانية على المنطقة الجنوبية وذلك بعد أن تبين للجنة التي عينتها الدولتان أن نفوذ سلطان زنجبار لا يمتد إلى أكثر من عشرة أميال في الداخل^(٢) . وفي سنة ١٨٩٠ عقد اتفاق جديد بين الدولتين تأخذ بريطانيا بمقتضاه شاطئ زنجبار وتطلق كل ادعاءاتها في أوغندا ونياسالاند على أن تأخذ ألمانيا منطقة توجو وأفريقيا الشرقية الألمانية علاوة على جزيرة هليجولاند عند مدخل قناة كيبل . وقد لقي هذا الاتفاق معارضة كبيرة من الألمان والبريطانيين بل كان على رأس المعارضين الملكة فيكتوريا^(٣) وكانت أسباب هذا التحول متعددة فقد أخذت الأزمة المالية تجتاح انجلترا منذ سنة ١٨٩٠ وأخذت أرقام الصادرات في الهبوط وأرقام الواردات في الارتفاع نتيجة للمنافسة الألمانية والفرنسية والأمريكية في الأسواق التي كانت تحتكرها بريطانيا بحكم تفوق مصنوعاتها وأصبحت البلاد كلها تؤمن بأن السبيل الوحيد لعودة الانتعاش الاقتصادي إنما هو اتساع النفوذ البريطاني وبناء امبراطورية تقوم على أساس مبدأ تفضيل المصنوعات البريطانية وحمايتها بالرسوم الجمركية العالية التي تفرض على مصنوعات الدول الأجنبية وأخذ تشمبرلن منذ تولى وزارة المستعمرات يسعى لأجل تنفيذ هذه السياسة^(٤) .

هذا إلى أن من تولى الحكم في بريطانيا خلال الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانوا نوعاً من السياسيين يخالف من تولاه خلال الثلاثة أرباع القرون الأولى فقد ولد معظم رجال نهاية القرن خلال العقد الثاني أو الثالث من القرن وتعلموا في اكسفورد أو كبريدج وخدموا في وزارة الخارجية في مناصب صغيرة تحت رئاسة بلرستون ودزرائيلي خلال الخمسينات والستينات فكانت أفكارهم أكثر ما يكون

Brit. p. 96, (١)

Afr. p. 196 (٢)

Brit. p. 101 (٣)

Afr. p. 6 (٤)

تأثراً بسياسة هؤلاء عن غيرهم وهي سياسة التوسع ومن هذا النوع كان كرانبورن وسالسبورى الذين عملا جاهدين على المحافظة على الهند بأى ثمن ثم العميل على امتلاك غيرها^(١) هذا إلى أن الوزراء المتقدمين كانوا يتصرفون فى المسائل الأوربية على ضوء اختباراتهم الشخصية واتصالاتهم الشخصية بوزراء كل من فرنسا والنمسا وغيرهما من الدول الأوربية أما الوزراء المتأخرون فقد تصرفوا فى المسائل الأفريقية على ضوء أشياء لم يألفوها ، وهي تقارير قناصلهم والحكام العاملين فى ساحل الذهب وشرق أفريقيا . وكان هؤلاء جميعاً يلحون على الوزارة البريطانية بضرورة فرض النفوذ والحماية من أجل حماية المصالح البريطانية فيما وراء البحار^(٢) فى جنوب أفريقيا وضح التنافس بين إنجلترا وجنوب أفريقيا من أجل محاولة كل منهما الحصول على أكبر قدر من الثروة والتجارة . فأصبح هم السير هركليوس روبنسون المندوب السامى البريطانى هناك . موجهاً نحو التوسع الاستعمارى بمساعدة الحكومة . فبدأت إنجلترا تعتمد على جهود رجالها فى المستعمرات فأنها يجب أن ترسم سياستها بناء على ما عليه عليها رجالها هناك^(٣) لا سيما وأن مسألة جنوب أفريقيا لم تعد مسألة اقتصادية فحسب بل هى الوسيلة إلى النفوذ السياسى وإيجاد قوة تقف فى وجه التحدى الترسفالى لاسيما وقد أخذت ثروتها وقوتها فى الازدياد .

وفى خلال هذه المدة أيضاً ظهرت حركة الزحف نحو أفريقيا واقترحت البرتغال عقد مؤتمر برلين من أجل وضع حد للصراع الأوروبى هناك وكان قد بدأ يظهر منذ عقد مؤتمر بروكسل فى سنة ١٨٧٧^(٤) فكانت البرتغال ترى ضرورة المحافظة على حقوقها التقليدية فى هذه المنطقة باعتبارها أول دولة نزلت بأفريقيا وأصبح لها مستعمرات فيها . فى الوقت الذى أبدت فيه كل من بلجيكا وفرنسا اهتماماً ملحوظاً بمنطقة الكونجوجين أرسلت الأولى بالاستكشاف ستانلى وأرسلت الثانية بيرازا^(٥) وكانت إنجلترا تخشى نفوذ هاتين الدولتين لئلا يضر ذلك

Ibid. p. 22. (١)

Ibid. p. 21. (٢)

Ibid. p. 214. (٣)

Duffy p. 207. (٤)

Ibid. p. 208. (٥)

مبدأ حرية التجارة فلم تتردد في الاعتراف بحقوق البرتغال في المنطقة مقابل تعهد البرتغال بأن لا تزيد الرسوم الجركية التي تفرضها عن ١٠٪. وأن تعطى بريطانيا مركز الدولة الأكثر رعاية . حتى إذا عقد مؤتمر برلين (١٨٨٤ — ١٨٨٥) أصرت بريطانيا على وجوب النص على حرية الملاحة والتجارة في حوض نهري الكونغو والنيجر . حتى إذا كانت سنة ١٨٨٥ . وبدأ ظهور جهود البرتغال في وصل مستعمراتها الأفريقيتين (موزمبيق وأنجولا) دفعت إنجلترا تحت تأثير الحاح سيسل رودس إلى أن تعلن حمايتها على باشوانالاند جنوبي خط العرض ٢٢ كما مر بنا . وفي أغسطس سنة ١٨٨٧ وجه اللورد سالسبوري إلى البرتغال إنذاراً مؤداه أن السيادة البرتغالية على الأقاليم الداخلية لا تستند إلا على احتلال فعلي وهو أمر لم تحققه البرتغال في يوم من الأيام^(١) .

ولكن في نفس الوقت لم تنبئ الوزارة في إنجلترا الأثر الناتج من وجود البوير في جنوب أفريقيا وادعاءاتهم في منطقة سوازيلاند كما لم تكن باهتمام الخط الحديدي من جوهانسبرج إلى لورنز وماركيزو إذ كان جل اهتمامها موجهاً إلى شراء رضى ألمانيا خوفاً من أن تثير لها القلاقل في مصر^(٢) كما لم تكن بحماية المبشرين في جنوب أفريقيا^(٣) ولذا لم تكن مطلقاً بعد النفوذ البريطاني في الدخل رغم تنبيه كل من شركة البحيرات البريطانية والمبشرين إياها إلى خطر الزحف البويري والبرتغالي^(٤) وكان جونستون قنصل بريطانيا في شرق أفريقيا قد اقترح امتداد النفوذ البريطاني في محور رأسى افريقى تمهيداً لمد خط حديدي بين القاهرة والكاب . وكانت الوزارة البريطانية في هذا الشأن لا تزال تحت تأثير هزيمتها الأولى أمام جيوش البوير في سنة ١٨٨١ فرفضته .

ولكن الموقف لم يلبث أن تغير فجأة في سنة ١٨٨٩ إذ اكتشف الذهب في منطقة الراند في سنة ١٨٨٨ واتجهت نية حكومة الرأس إلى ضرورة خروج هذا الذهب

Ibid p. 215 (١)

Afr. p. 219 (٢)

Ibid. p. 223 (٣)

Cecil p. 64 (٤)

إلى الخارج عن طريق الموانئ البريطانية . وأصبح واضحاً تعرض المصلحة البريطانية للخطر لا سيما وقد أنشأ البوير جمهورية ستلاند . هذا في الوقت الذي حصل فيه الرأسماليون البريطانيون على حق استغلال منطقة روديسيا (الماتابيلي) في أكتوبر سنة ١٨٨٨ كما اشترى سيسل رودس حقوق جميع الشركات التي كانت قد سبقته إلى هذه المنطقة . وألف اتحاد شركات دي بيرز لاحتكار تعدين الماس في جنوب أفريقيا بعد أن كان قد ألف قبل ذلك بقليل شركة حقول الذهب المتحدة لاستغلال منطقة الراند^(١) واندفع في أثره مجموعة من الرأسماليين البريطانيين لاستئجار أموالهم في منطقتي بتشوانالاند وماتابيلي لاند وكان لابد لهذه الشركات وهذه الأموال من حماية الدولة لها . لأن كل تهديد من البرتغال أو البوير يعرض هذه الأموال للخطر . وفي يونيو سنة ١٨٩١ اندفع الدكتور جيمسون على رأس أربعة آلاف من المتطوعين في غارة على أراضي الماتابيلي ووصلوا إلى مكان سالسبورى الحالية حيث أقاموا لهم معسكراً وعين كوليكهورن رئيساً لأعمال الشركة هناك . وخلفه بعد قليل الدكتور جيمسون^(٢) كما استقر هؤلاء المهاجرون في ماشونالاند .

وأكثر من هذا كله كانت الواردات البريطانية في جنوب أفريقيا قد وصلت في سنة ١٨٩٠ إلى ١٥ مليوناً من الجنيهات بعد أن كانت لا تتعدى المئة ملايين قبل ذلك بخمس سنين . كما وصلت الواردات إلى اثني عشر مليوناً بعد أن كانت لا تتعدى الخمسة ملايين . كما بلغت الاستثمارات البريطانية في الماس في سنة ١٨٨٥ إلى ٢٠ ر.٤ مليوناً من الجنيهات وارتفعت في سنة ١٨٩٠ إلى أضعاف ذلك ووصلت استثمارات الذهب إلى ٢٢ ر.٦ مليوناً في سنة ١٨٨٥ ثم إلى ٣٠ ر.٨ مليوناً . كما ارتفعت الديون البريطانية أيضاً إلى ٢٥ ر.٢ مليوناً في سنة ١٨٨٥ ثم إلى ٣٠ ر.٨ مليوناً في سنة ١٨٩٠^(٣) مما جعل اللورد روزبرى الذي خلف سالسبورى في منصب وزارة الخارجية حتى سنة ١٨٩٤ ثم رئيساً حتى سنة ١٨٩٥ لا يتردد في أن يسير على نفس السياسة التي سار عليها سلفه . بل يبدو أكثر منه ميلاً إلى الاستعمار رغم مبادئه

Ibid. p. 66 (١)

Ibid. p. p. 72-3 (٢)

Afr. p. 211 (٣)

الحرّة^(١) فإذا ما اعتدى الماتاييلي المحاربون الأشداء على الماشونا المسلمين الكارهين للحرب وجه إليهم حملة وقفت في وجههم واحتلت عاصمتهم بولاوايو في سنة ١٨٩٣ كما أعلن الحماية البريطانية على أوغندا في سنة ١٨٩٤^(٢) ووصلت السياسة البريطانية الاستعمارية ذروتها حين أصبح تشامبرلان وزيراً للمستعمرات في سنة ١٨٩٥ . وكان توافاً إلى إقامة اتحاد جنوب أفريقيا كجزء من الامبراطورية البريطانية^(٣) وهي رغبة فاقّت آمال أصحاب رؤس الأموال البريطانيين في جنوب أفريقيا . فرغم الحب المفقود بين رئيسه سالسبوري وبين رجال المال هناك وعلى رأسهم سيسل رودس لم يتروّد في العمل معهم يدأ بيد .

٣ - أما العامل الثالث فكان ظهور شخصية السير سيسل رودس :

ولد في إنجلترا وساءت صحته وهو صغير فأرسل إلى أخيه في ناتال حيث كان يعمل مزارعاً . وكان ذلك في سنة ١٨٧٠ وهي السنة التي اكتشف فيها الماس في حقول كبرلى . فانضم إلى جماعة الباحثين عن الماس . فاقنتى ثروة قبل أن يصل سن التاسعة عشر . وعاد إلى إنجلترا ليتم تعليمه ولكنه قام برحلة إلى بنشوانالاند وعاد عن طريق الترنسفال إلى كبرلى . وكانت الرحلة في عربة تجرها الثيران فتمكن من أن يرى إمكانيات هذه المنطقة الزراعية كما عرف ثروتها المعدنية . ولذا طافت في ذهنه فكرة ضرورة تملك بريطانيا لهذه الأجزاء . فضمم على أن يكرس حياته لهذه الفكرة^(٤) .

وإذا ما عاد إلى إنجلترا وساءت صحته مرة أخرى في ١٨٧٣ أعيد إلى جنوب أفريقيا حيث استعاد صحته ثم عاد إلى إنجلترا حيث قضى ثلاث سنين كان خلالها يقضى أجازته الصيفية في جنوب أفريقيا . في الوقت الذي زادت ثروته فأصبح مساهماً في شركة دى بيرز للماس .

(١) Brit. p. 109

(٢) Ibid. p. 112

(٣) Cam. p. 537

(٤) Ency. Art. Rhodes

وفي سنة ١٨٨١ وهى السنة التى هزمت فيها إنجلترا فى حرب البوير الأولى . دخل رودس الحياة العامة وأصبح عضواً فى مجلس نواب الرأس فأخذ يروج بين البريطانيين لفكرة ضم كل أجزاء جنوب أفريقيا فى اتحاد واحد تؤيده بريطانيا يرتفع عليه العلم البريطانى . هذا فى الوقت الذى كان فيه الأهالى الهولنديون يسعون نحو اتحاد مستقل عن بريطانيا^(١) .

وحدد اتفاق برتوريا حدود الترسفال من ناحية الغرب ولكن البوير بدأوا يزاولون نشاطهم عن طريق الغارات . تخاف رودس أن تقفل هذه المنطقة فى وجه البريطانيين - وكان قد أصبح عضواً فى الوزارة - فألف وفداًفاوض الزعماء الوطنيين فى ضم أملاكهم إلى حكومة الرأس .

وفي سنة ١٨٨٤ عقد اتفاق جديد بين البوير والحكومة البريطانية قلنا عنه أنه لم يكن يختلف عن اتفاق برتوريا فى الوقت الذى أعلنت فيه ألمانيا حمايتها على (أفريقيا الغربية الألمانية) بموافقة وزارة الخارجية البريطانية^(٢) ومن ثم بدأ رودس يرى الأخطار التى تهدد البريطانيين فى الجنوب . فالبوير يزدادون قوة لاسيما بعد أن اعترفت إنجلترا فى اتفاق سنة ١٨٨٤ بجمهورية البوير الجديدين . هذا إلى أن التقاء البوير بالألمان يقضى على كل أمل للبريطانيين فى الامتداد نحو الشمال . بل أن البوير يزدادون تحدياً للبريطانيين كما ظهرت أطماعهم واضحة فى تحدى الوطنيين أيضاً كما أن الحكومة البريطانية مازالت واقعة تحت تأثير هزيمة سنة ١٨٨١ وتصبر على تجاهل شؤون جنوب أفريقيا وأكثر من ذلك أن حكومة الرأس بحكم وضعها الدستورى لا تملك حق الاتصال الخارجى بل لا تملك أكثر من إسداء النصيحة إلى الحكومة البريطانية فى لندن .

ومن رأى أن بدء دخول رودس إلى الحياة العامة حين أصبح عضواً فى مجلس النواب فى سنة ١٨٨١ ثم عقد اتفاق سنة ١٨٨٤ مع جمهورية جنوب أفريقيا ثم تصمم الحكومة البريطانية على عدم الاهتمام بجنوب أفريقيا كجزء من الوطن البريطانى . نحدد معالم الطريق الذى شقه هذا الرجل لنفسه . لأجل أن يصل إلى

Cecil p. 151 (١)

Ibid. p. 41 (٢)

هدف معين عبر عنه في أحد أحاديثه حين أجاب على سؤال وجهته إليه جلالة ملكة بريطانيا حين رآته يوماً في قصر وندسور عما يفعله في جنوب أفريقيا فانه أجاب أنه يعمل على توسيع أملاكها هناك^(١).

فهو وإن انضم إلى شركة دي بيرز للعمل في حقول الماس . وحين ونحد جميع شركات الماس في شركة واحدة ليحتكر ميدان العمل في أرض الجر كوا الغربية وأورنج^(٢) وحين أسس شركة الذهب لاستغلال مناجم جوهانسبرج في نفس العام^(٣) وحين اشترى امتياز شركة رود لاستغلال أراضي الماتاييلي في سنة ١٨٩٠^(٤) وحين ألف شركة جنوب أفريقيا وحصل على امتياز الاستغلال في نفس العام^(٥) وإن كان يسعى لأجل الثروة ونجح في ذلك نجاحاً منقطع النظير . إلا أنه لم يكن يرى من وراء هذا كله إلا إلى هدف واحد بل الهدف الوحيد الذي رسمه لنفسه وهو ضم جنوب أفريقيا إلى الامبراطورية البريطانية . فلم يكذب حين أعلن في الوزارة في سنة ١٨٨٤ حتى دفع بالحكومة البريطانية إلى التدخل في بنشوانالاند وإعلان حمايتها عليها من أجل الحد من نشاط البوير من ناحية الغرب^(٦) في الوقت الذي حصلت فيه الشركة على استغلال النصف الشمالي منها كما دفع بموفات إلى أن يعقد مع لوبنجولا ملك الماتاييلي اتفاقاً يحرم عليه عقد أى اتفاق أو معاهدة مع دولة أجنبية دون موافقة بريطانيا^(٧) كما وثق تعاونه مع الجبهة الأفريقية التي يرأسها هوفهاير من أجل أن يضمن المناطق الشمالية تابعة لمستعمرة الرأس^(٨).

وعندما أصبح رئيساً للوزارة في سنة ١٨٩٠ اهتم أكثر ما يكون بتكوين الاتحاد الجر كي بين المستعمرة وجمهوريات جنوب أفريقيا لأنه رآه الطريق المحتمل

Ibid. p. 86 (١)

Ibid. p. 67 (٢)

Ibid. p. 68 (٣)

Afr. p. 360 (٤)

Cecil. p. 68 (٥)

Ibid. p. 64 (٦)

Ibid. p. 63 (٧)

Ibid. p. p. 144-6 (٨)

لأن يكون — كاتحاد الزولفرين الألماني — نواة إلى إقامة دولة اتحادية تكون جزءاً من الامبراطورية البريطانية . وعمل متعاوناً مع الهندوب السامي البريدي . في هذا السبيل^(١) ونجحاً فعلاً في أن يخطوا الخطوات الأولى في هذا الاتحاد حين انضمت إليه ناتال وأورنج في سنة ١٨٩٠ ثم بتشوانالاند وباسوتولاند في سنة ١٨٩١ وسوازيلاند في سنة ١٨٩٣ لولا وقوف جمهورية جنوب أفريقيا منه وقوف العداء^(٢) احتفاظاً باستقلالها الاقتصادي من أجل أن تكون هي النواة الأولى لهذا الاتحاد السياسي إذا قدر له أن يكون ومن ناحية أخرى على رودس على تطويق جمهوريات البوير بمنع اتصالها بالخارج عن طريق الموانئ البريطانية فأوصل خطوط الرأس الحديدية إلى حدود جمهورية جنوب أفريقيا (بعد أن اختزلت جمهورية أورنج) وخفض مصاريف النقل ليعزى الجمهورية على الموافقة على استعمالها ثم مدها في أراضيها^(٣) حتى إذا رفضت الجمهورية العرض وانجحت إلى مد خطوطها إلى خليج دلاجوا اتجه هو إلى محاولة شراء هذا الخليج من البرتغال^(٤) حتى إذا فشل هذا المشروع انتظر حتى مد الخط بواسطة الشركة الهولندية وانتهاز فرصة الأزمة المالية التي حاقت بالشركة وقدم القروض إليها^(٥) . وعندما نجح كروجر في انتخابات الرئاسة سنة ١٨٩٣ وأشار إلى احتمال معاهدة ألمانيا للجمهورية رأى رودس في هذا ازدياد الخطر واحتمال فشل مشروعاته عمل على قطع طريق اتصال الجمهورية بالبحر فصمم على ضم سوازيلاند . فكتب في ذلك إلى اللورد ريبون الذي وافق على ذلك على شرط موافقة أهلها^(٦) وتم هذا الضم فعلاً في سنة ١٨٩٥^(٧) بعد أن رفض كروجر عرضاً بضمها إلى جمهوريته مقابل انضمامه إلى الاتحاد الجركي^(٨) .

Cam. p. 570. (١)

Ibid. p. 565 (٢)

Ibid. p. p. 553-6 (٣)

Afr. p. 415 (٤)

Ibid. p. 412 (٥)

Cam. p. 572 (٦)

Ency Art. Swaziland (٧)

Afr. p. 412 (٨)

ومن أجل هذا الهدف أرسل رودس بالمتطوعين في سنة ١٨٩٠ (يوم تولى رئاسة الوزارة) تحت رئاسة صديقه جيمسون ليكتسحوا أراضي المائايبيلي كما ذكرنا . وإذا ما رأت الجمهورية في ذلك خطراً على مشروعاتها ونظمت غارة مماثلة بقيادة الكولونل Ferreira احتج السير هاري لوك المندوب السامي البريطاني وأرسل إلى الجمهورية انذاراً بأن أية محاولة لاحتلال منطقة الشركة عمل عدائي للتاج البريطاني . فأمر كروجر المتطوعين بالانسحاب^(١) وإذا استقر المهاجرون هناك عقد اتفاقاً مع البرتغال في سنة ١٨٩١ نص على مد خط حديدي من ميناء بيرا إلى سالسبوري وعلى ان تحصل البرتغال رسماً على الصادر لا يزيد عن ٣ / من قيمة البضاعة كما نص على حرية الملاحة في الرميبيزي^(٢) .

ومنذ سنة ١٨٩٥ شاهر واضحاً رغبة البوير في تحدى كل أعمال رودس فلم يبق أمامه إلا العمل الواضح الصريح . فكان تعيين تشامبرلن وزيراً للمستعمرات الفرصة المناسبة ولم يعد طريقاً لتنفيذ هدفه إلا الطريق الذي طالما سلكه بنجاح وهو طريق الغارات غير النظامية تحت قيادة صديقه الدكتور جيمسون .

— ٣ —

التمهيد للغارة :

رأى السير سيسل رودس أن أفضل طريق للقضاء على الصعدي البويري . وتنفيذ كل ما يهدف إليه من تكوين اتحاد يكون جزءاً من الامبراطورية البريطانية العمل متعاوناً مع الوزارة البريطانية من أجل القضاء على هذه الدولة التي تبدي العناد بنفس الطريقة التي لجأ إليها مع روديسيا وهي الغارة الخاطفة وهو لأجل ذلك يستطيع استغلال الغراء الذين يعيشون في الجمهورية والذين تضطرم بهم روح الثورة لكثرة ما نالهم من غن لا سيما وأن ثورتهم بت قرية الوقوع وخاف أن يؤدي هذا إلى قيام ثورة ذات أهداف مستقلة^(٣) لأن أصحاب رؤس الأموال هناك كانوا يفضلون كروجر على بريطانيا فان نظام كروجر وإن كان ثقيلاً فالنظام البريطاني

Cecil p. ٩8 (١)

Ency. Art. Rhodesia (٢)

Cam. p. 570 (٣)

لا بد أن تقل وقيام جمهورية مستقلة في الترنسفال يسيطر عليها ماليو الراند خطر على النفوذ البريطاني في جنوب أفريقيا^(١)، وكان عناد كروجر قد أبعد عنه فريق المعتدلين من أمثال فيليب ليونارد زعيم الاتحاد الوطني الذي يرى أن البلاد في حاجة إلى حكومة قوية . وإن إعطاء الغرياء حق التصويت هو خبر ضار للوصول إليها فكان أن اتفق مع السير رودس على وجوب التناقص من كروجر^(٢) ورأى رودس ضرورة الإسراع بالعمل قبل أن تعطى ثروة إقليم الراندا للجمهورية مزيداً من الثروة والقوة^(٣)، فيجب أن يأخذ بيده اللجام قبل أن يتغير الموقف . كما كان يرى ضرورة إسراع الحكومة البريطانية بأن تأخذ على عاتقها عب الادارة في كل أراضي جنوب أفريقيا لتتخلص الشركة إدارة فيما تحت يدها من أراضي لتصبح شركة تجارية ليس غير^(٤)، وكان المندوب السامي البريطاني (لوك) يرى أولاً ترك مسألة الغرياء للزمن ليحلها . فزيادة إعداد المتدفقين منهم كفيّة بتغيير الحالة . ولكن رودس اقنعه بوجوب مفاوحة وزارة الخارجية ، فإذا ما تم ذلك في سنة ١٨٩٤ رفض وزير الخارجية الاقتراح ولكن وزراء آخرين كانوا يرون وجوب الإسراع بالعمل خوفاً من تدخل الماني محتمل^(٥) وهذا التدخل إن حدث سوف يكون قاضياً على مركز البريطانيين في جنوب أفريقيا . إذ سوف يتعلم هولنديو الرأس الدرس جيداً ويسرعون بدورهم إلى الانفصال وإذا فعلوا كان في ذلك ضياع الهند أيضاً^(٦) بينما يميلون في الوقت الحاضر إلى تغيير حكومة كروجر بسبب أعماله العدائية .

فكان أن مالت الوزارة إلى فكرة التدخل وكتب إلى المندوب السامي بالتدخل المسلح إذا رأى ضرورة ذلك^(٧) .

ومن أجل رسم الخطة النهائية سافر رودس ومعه جيمسون إلى لندن في بداية سنة ١٨٩٥ وترك لجيمسون مهمة إقناع ولي العهد الذي كان رئيساً لشركة جنوب

Afr. p. 428 (١)

Cecil. p. 187 (٢)

Afr. p. 418 (٣)

Cam. p. 571 (٤)

Afr. p. 419 (٥)

Ibid. p. 420 (٦)

Ibid. p. 424 (٧)

إفريقيا بضرورة شراء السلاح للمتطوعين^(١) بينما استطاع هو إقناع ريبون ووصل هذا الاقتناع إلى حد أن استبدل بالمندوب النماني (لوك) مندوب آخر هو هركليوس روبنسون صديق رودس القديم . وهو رجل ذو خبرة بشؤون جنوب أفريقيا . وإذا ما عين تشمبرلان وزيراً للمستعمرات في وزارة سالسبوري استطاع رودس أن يقنعه فأخذ يعمل بهمة لتنفيذ الخطة بالرغم من معارضة زملائه له . لأنهم كانوا يرون وجوب نصرته وترك حرية العمل له فهو أيضاً له عن تركه لموقوف الأحرار وانضمامه إليهم^(٢) وفي معارضتهم له دفع به إلى التراجع واعتزال الحياة العامة . وكان رأيه ينحصر في أن قيام الامبراطورية البريطانية نمو طبيعي لا يمكن تجنبه^(٣) كما اقنع رئيس الوزارة أن الخطة لا ترمي إلى التآمر على استغلال دولة مستقلة بل هو تصرف في مسألة داخلية . فقد أصبح ميزان القوى في هذا الركن في يد كل من رودس وكرويسر لا في يد الوزارة البريطانية البعيدة عن ميدان العمل . ولم يعد أمام الوزارة إلا أن تنصر رودس لاسيما وأن مسألة حصول الغرياه على حق الانتخاب قد اضحت مسألة كرامة بريطانيا يجب أن تصان^(٤) ولذا اقنعه بضرورة مبادلة قطعة من بتشوانالاند البريطانية بأخرى من أملاك الشركة^(٥) كي تعطى الأخيرة مكاناً يكون بمثابة رأس الكوبرى الذى يقفز منه المتطوعون إلى الترنسفال وعلى رأسهم الدكتور جيمسون^(٦) واتصل السير رودس بالصحافة وخاصة جريدة التيمس لتدافع عن هذا العمل في الوقت المناسب^(٧) وإذا ما عاد إلى الرأس اتصل بهوفماير رئيس الرابطة الافريقية الذى كان يفضل أن يرى جنوب افريقيا تحت العلم البريطانى من أن يراه تحت العلم الألماني^(٨) .

Cam. p. 572 (١)

Afr. p. 425 (٢)

Ibid. p. 426 (٣)

ibid. p. 427 (٤)

Ibid. p. 423 (٥)

Cam. p. 574 (٦)

Ibid. p. 573 (٧)

Cecil. p. p. 1434 (٨)

ووصل السير هر كليوس إلى الرأس ومعه تعليقات أن يعمل أولاً كوسيط بين كروج و الغرباء وإذا ما ذهب لمقابلة كروج استقبله الغرباء أثناء مروره بجوهانسبرج استقبالا حافلا .

وكانت المسات الأخيرة من الخطة الاتفاق مع ليونارد فيليب أن يقوم بتموين الغرباء بالسلاح على أن يقوموا بالثورة في اليوم المعلن ويستولوا على جوهانسبرج وعلى مصانع السلاح في بريثوريا . كما كتب رودس إلى الوزارة يستعجل تبادل قطعتي الأرض وتم التبادل فعلا في العشرين من أكتوبر سنة ١٨٩٥^(١) .

وقبل أن ينتهي شهر أكتوبر عقد اجتماع بين السير رودس وزعماء الغرباء وضعت الترتيبات النهائية للحملة . ولكن حدث خلاف بينهما على مستقبل الجمهورية بينا كان رودس يرى ضمها للإمبراطورية البريطانية كان الآخرون يرون أن تظل الجمهورية مستقلة ولكن بعد أن تستبدل بحكومة موالية^(٢) بينا كان بعض العسكريين يعترضون غلى خطة الغارة ويرونها غير عملية .

وأحس كروجر بالمؤامرة وأن شيئا سوف يحدث في منطقة الراند ولكي لا يؤخذ على غرة أرسل بوزيره ليدز إلى أوربا ليشتري له السلاح^(٣) وأمر أن تكون قوات الكوماندوز على قدم الاهبه وأن توضع الخطط لتأمين سلامة جوهانسبرج . هذا في الوقت الذي ارسل فيه تشامبرلين إلى المندوب السامى أن يتصل بالغرباء ليؤكد لهم أنه في حالة نجاح ثورتهم فسيكون لهم الحق في اختيار حاكمهم ولكنه في نفس الوقت حذره من الفشل الذي سوف يكون مرأ . كما أفهم المندوب السامى إنه في حالة تأكده من النجاح فإنه يسمح له بالسير على رأس الغارة مع رجال الشركة على أن يكون ذلك في هدوء ونظام .

وصف الغارة :

وتمت الغارة في ميعادها المتفق عليه يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٥ بالرغم من اعتراض كل من رودس وليونادر ومحاولتهما إيقافها بالبرق لأن جيمسون كان قد

Cam. p. 575 (١)

Raid. p. 55 (٢)

Letters. p. 72-3 (٣)

نفذ صيره بسبب التأخير وعدم على أن يقوم بحركة سريعة أن لم تنجح في معاونة الغرباء فسوف تلقى مساندة الحكومة البريطانية ولذا رسم آماله في الاستيلاء على جوهانسبرج تم انتظار التأيد الأدبي والمادى من بريطانيا (١) ودخل جيمسون حדר الترسفال من ناحية الغرب عند مفكنج تأحدا جوهانسبرج على رأس موكب من الخيالة الراكبة ومعه ثلاثة مدافع خفيفة وثمان مدافع من طراز مكسيم وخمسة آلاف راجل أربعة احماسهم من الصبيان الصغار غير المدربين ويبدو أن الغارة لم تدرس دراسة كافية اذ حدثت الغارة يوم الأحد حين كان الترسفاليون مجتمعين في كنائسهم لأجل الصلاة وتناول الأسرار المقدسة ريع السنوية ومعهم عرباتهم وحيولهم وبنادقهم . وعلم كروجر بالغارة ساعة حدوثها فاستدعى الكوماندوز على طول خط المغيرين وحول العاصمة . ومضت اربع وعشرون ساعة قبل أن يعرف انصار رودس من رجال حركة الاصلاح Reformers وكانوا قد جذبوا إليهم الغرباء وتعاهدوا معا لمصلحة الدولة . فأخرجوا ما عندهم من السلاح وأعلنوا قيام حكومة موقته وأرسلوا بعضهم للاستيلاء على مصنع السلاح . ولكنهم — بدون أن يبذلوا جهدا — فتحوا باب المفاوضات مع السلطات (كى لا يسفك دم) إذ لم يكن عندهم نية اطلاق النار كما لم يكن امامهم هدف يصوبون إليه النار إذ أمر كروجر بسحب رجال لبواليس من الشوارع إلى الحصن الذى يسيطر على المدينة ودعا الرئيس حليفته أورنج لمساعدته طبقا لنصوص معاهدة سنة ١٨٨٩ ولكنه لم يطالب مساعدة خارجية تظ لأنه عرف أن أية دولة أوروبية وخاصة المانيا لن تحارب من أجل جمهوريته مهما أكدت له أنها تساند (الحالة القائمة)

واستغرقت الغارة أربعة أيام اتجه خلالها المغيرون إلى الشرق على طول القلد وأخذ بعضهم يفكر ماذا يعملون . وتمكنت قوات الحكومة من الأحاطة بالمغيرين واستسلم الدكتور جيمسون عند دورنكوب Dornkop بعد أن تم تل وجرح من رجاله كثيرون كما استسلم الغرباء الذين كانوا يوما يملكون زمام الموقف في أيديهم . أما في جوهانسبرج فقبض على رجال حركة الاصلاح ما عدا ليونارد الذى كان لا يزال فى الرأس . وأذاع كروجر بياناً دعا قومه فيه إلى الصفح والنسيان وإذا

ما اذيع خبر القتل بإدر المندوب الساسى بالسفر إلى برينوريا حيث أبلغه كروجر أن أنصار حركة الإصلاح سيحاكون محاكمة عادلة . أما المقبوض عليهم من المغيرين فيفضل أن يترك مصيرهم للحكومة البريطانية ورحلهم إلى مدينة الرأس وعاد المندوب الساسى إلى مدينة الرأس ليجد أمرا من وزير المستعمرات أن يظل في برينوريا حتى يتلقى تعليمات جديدة وأمره أن لا يتكلم فى مسألة الغرباء حتى تتم محاكمة أنصار حركة الإصلاح^(١).

نتائج الفارة :

وكان لا بد لآخبار هذه الفارة أن تشيع فى العالم فنشرت الجرائد العالمية لاسيا الانجليزية والألمانية^(٢) ووصفتها الأخيرة بأنها اعتداء غادر على استقلال دولة مستقلة ونددت بهذا العمل . بينما دافعت عنها الجرائد البريطانية لاسيا التيمس . وحاولت ألمانيا أن تستغل هذه الحادثة لمصلحتها فسعت لدى الحلف الثانى (الروسيا وفرنسا) لتجعل الدولتين تقومان معها بعمل رسمى أقله ضمان (الحالة القائمة) فى الجمهورية الافريقية^(٣) ولكن الدولتين رفضتا وأتخذ هذا الرفض انجلترا من خطر عظيم . فلم تملك حكومة ألمانيا إلا أن تحمل القيصر على إرسال برقية إلى كروجر يهنئه فيها بالانتصار . كما أرسلت بارجة حرية إلى ميناء خليج دلاجوا إعراباً عن تأييدها للجمهورية^(٤) واكتفى القيصر بهذا لأنه كان لا يزال يؤمل فى الصداقة الألمانية البريطانية ليقاوم بها الحلف الثانى^(٥) وقد أثارت هذه البرقية كثيراً من السخط بين الرأى العام البريطانى ظهر أثره فى الصحف .

وخافت الحكومة البريطانية أن يكون إرسال البارجة الألمانية مقدمة لتدخل ألماني فأرسلت من جانبها بارجة حرية كظهر من مظاهر القوة فى الوقت الذى أعلنت فيه الوزارة استنكارها للفارة . بل سارعت إلى تأليف لجنة برلمانية للتحقيق

Cum. p. 576-80 (١)

Afr.. p. 438 (٢)

Brit. p. 118 (٣)

Afr. p. 430 (٤)

Ibid. p. 118 (٥)

فيها وإذا ما أتمت اللجنة عملها وقدمت تقريرها الذي أدين فيه السير سيسل رودس بادر سالبوري بوقبح التقرير والموافقة عليه^(١) ورأت الوزارة سترأ الموقفها أن ترسل إلى كروجر عن طريق مندوبها السامي في مستعمرة الرأس فعرضت استعدادها لاستقباله في لندن من أجل الكلام في هذا الأمر . ولكن كروجر وجد نفسه وقد أمسك بزمام الموقف رفض العرض^(٢) وأخذ يبدى كثيراً من الشدد مع الغرياء ولم يقف عند هذا الحد بل أرسل يطلب إنهاء معاهدة سنة ١٨٨٤ من أجل وضع نهاية للنفوذ البريطاني في دولته والقيود التي تحد من استقلالها وعلاقتها بالخارج .

وقد علمت الوزارة البريطانية أنه أرسل وزير خارجيته الدكتور ليدز إلى ألمانيا ليسأل الحكومة الألمانية المساعدة على شراء سكة حديد خليج دلاجوا من البرتغال وإلى جعل ميناء لورزو ماركيزو ميناء مفتوحاً محايداً^(٣) تضمها الدول الأوروبية ضد الخطر البريطاني . ووعد كل من وزير خارجية ألمانيا وهولندا أن يعرضا هذا الاقتراح على لشبونه^(٤) .

وكان من الطبيعي أن تزعج هذه الاخبار الوزارة البريطانية حتى لقد تقدم وزيران باقتراح إنذار كروجر ولكن سالبوري هدا الوزيرين لأن مجلس الوزراء كان قد أصدر أمره قبل ذلك بيومين إلى حملة دنقله بالتقدم^(٥) فلم يكن من حسن الرأي المخاطرة بحرب أخرى لاسيا وأن اهتمام الحكومة يجب أن يوجه حيثئذ إلى البحر الأبيض وحوض النيل لأن الاخبار كانت قد شاعت عن تقدم جيش فرنسي أنيوي من أديس أبابا نحو الغرب للالتقاء عند بحر الجبل بجيش فرنسي آخر متقدم من افريقيا الاستوائية ليرسم حزاما فرنسي عرض القارة الافريقية يمتد من الصومال الفرنسي حتى ميناء دكار^(٦) .

Cecil. p. p. 211-13 (١)

Cam. p. p. 585-86 (٢)

Afr. p. 430 (٣)

Ibid p. 431 (٤)

Ibid. p. 432 (٥)

Wingate. p. 108 (٦)

أما في الرأس فقد ظهرت الجهة الأفريقية أمام الرأي العام الهولندي بمظهر خيانة الجنسية الأفريقية وجملة الجرائد على رئيسها وأفرادها . مما اضطر هوفاير إلى أن يتخذ السير سيسل رودس . الأمر الذي أدى إلى سقوط وزارته ^(١) بل إن بعض أعضاءها الذين كانوا متحمسين في نصره رودس شعروا بخيبة أمل كبيرة دفعتهم إلى الهجرة من مستعمرة الرأس متنازلين عن جنسيتهم البريطانية ليعيشوا مع إخوانهم في جمهورية جنوب أفريقيا كما فعل سمطس الذي كان لا يزال صغير السن ويشغل بالمهام ^(٢) وقضت الغارة نهائيا على مشروع سكة حديد القاهرة - الكاب عبر أراضي الجمهورية ^(٣) أما في أورانج فقد أبدت عطفها على جمهورية جنوب أفريقيا وبدا هذا العطف في تحول سياستها من الجنب (للاشتراك في الاتحاد الجرماني مع الرأس) إلى الشمال .

ولكن أكثر النتائج أثرا هو شعور كروجر و - كومه أن الحكومة البريطانية لا تنضم غير العداء الصريح للجمهورية وأنها مع ممة على القضاء على استقلالها بل استقلال الجمهوريتين البويريتين فأخذ يدير أمر الدفاع عنهما باستيراد السلاح بكميات هائلة تمكن جيوش الدولتين من الدفاع عنهما سوا . عن طريق ميناء لورنزو ماركيزو أو عن طريق موانئ الرأس تحت اسم (أدوات زراعية) ^(٤) كما اخذ يتصل بالدول الأوروبية من أجل تكوين حلف ينقذ الدولتين ساعة الخطر كما جدد المعاهدة الدفاعية التي كانت بينه وبين أورانج فكان من أثر ذلك أن زاد التوتر بينه وبين بريطانيا زيادة هائلة ولم تنجح الجهود المتواصلة في إزالته والتخفيف منه . الأمر الذي أدى في النهاية إلى قيام الحرب بين الدولتين وهي الحرب التي عرفت باسم حرب البوير سنة ١٨٩٩ الأمر الذي دعا الجزائر سمطس إلى أن يقول أن غارة جيمسون على الجمهورية الأفريقية تحدد البداية الحقيقية لحرب البوير ^(٥) .

Cam. p. 587 (١)

٣٠ سمطس ص (٢)

Cam. p. 588 (٣)

Letters. p. p. 15-19 (٤)

Ger. p. p. 61-2 (٥)

اختصار أسماء المراجع

- Cam.** = Cambridge History of the British Empire Vol. VIII.
Afr. = Africa and the Victorians by R. Robinson and others 1961.
Letters = Letters to an Uitlander by Brattle Frere 1903.
Duffy = Portuguese Africa by James Duffy.
Brit. = British Foreign Policy by William Edwards 1934.
Raid. = Raid and Reform by Hillier Alfred.
Ger. = South Africa by Sara Gertrude 1941.
Theal = South Africa by Theal 1894.
Win. = Wingate of the Sudan 1956.
John. = Colonisation of Africa by Alien Races by Johnston.
Hailey. = An African Survey by Hailey 1956.
Cecil. = Cecil Rhodes by Fuller 1910.
Ency. = Encyclopedia Britannica.

دراسة لبعض التحف الإسلامية

للدكتور عبد الرحمن فهمي محمد

— ٢ —

مقدمة :

كنت قد نشرت طبعث الأول في سلسلة « دراسة لبعض التحف الإسلامية » في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ٢١ العدد الأول (مايو ١٩٥٩) ، وذلك عن تحفة إسلامية من الخشب من العصر الفاطمي وأخرى عن أحد الشمعد المملوكية المؤرخة من صناعة دمشق على يدى أحد الفنانين المواصله وهذا هو البحث الثانى من السلسلة وهو فى هذه المرة دراسة فى ميدان علم النميات الإسلامية تتركز فى أحد الاختتام ومجموعة من المسكوكات النادرة التى أرجو أن يكون فى بحثها ونشرها ما يحقق الغرض الذى أنشده من هذا النشر .



ختم أموى مسكوك من الرصاص :

فى صيف سنة ١٩٩٠ عثرت على قطعة من معدن الرصاص من بين مجموعة كبيرة من القلوس الواردة من حفائر متحف الفن الإسلامى بالقسطاط^(١) . وهذه القطعة شكل دائرى تماما كالسكة الأموية المبكرة وتبدو كتاباتها الكوفية بارزة من الوجهين ، وقد نشر الأستاذ سورية Sirey^(٢) قطعة شبيهة من النحاس سنة ١٨٥٤ م ، تبدو بما عليها من كتابات كقطعة النقد ، وإن كان سورية يعتبرها صنعة للوزن أو أحد الأختام ، ولكن شتيكل Sickel^(٣) يؤكد أنها قطعة من النقود رغم أن فى جانبى القطعة توجد

(١) - سجل هذه القطعة بالمسحوق - إتمام إجراءات تنقيتها - برقم سجل ٢٠٤٤٢

(٢) - cf. Revue de la Numismatique Belge (1854), pp. 277-8 fig. 3٠

(٣) - Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1885, pp. 20-23.

بقايا سلك كان يمر من ثقب نافذ من طرفها وقد أشار الدكتور وولكر Walker^(١) إلى هذه القطعة وما تحمله من كتابات مؤرخة سنة ٩٤ هـ نصها :

سنة ١	من أهل
ربيع و	مصر
تسعين	

كما نشر Walker أيضاً قطعة أخرى مثيلة بالمتحف البريطاني اقتناها هذا المتحف من بلدة القنطرة بمصر سنة ١٩٠٢ ، وهي مؤرخة سنة ٩٥ هـ ونص كتاباتها (انظر لوحة ١) :

سنة	من أ
خميس و	هل مصر
تسعين	

وبالرغم من أن سورية Soret وشتيكل Stickel يعتقد كل منهما أن القطعة المؤرخة ٩٤ هـ قد نتجت كتاباتها عن طريق الصب فإن الدكتور Walker يؤكد أن قطعة المتحف البريطاني النحاسية المؤرخة ٩٥ هـ مضروبة بالقالب ويدي — استناداً إلى ذلك — احتمال اعتبارها إحدى النقود المصرية المبكرة في عصر الانتقال ، غير أن هذا الرأي في الواقع لا يستقيم وطبيعة القطعة التي عثرت عليها في مجموعة مسكوكات الفسطاط ، فهي ليست من معدن النحاس أو البرونز بل هي من الرصاص مما يؤكد مبدئياً أنها ليست فلساً من الفلوس الأموية المبكرة ، كما أن هذه القطعة مثقوبة من طرفها بثقب نافذ لإدخال سلك خاص خلال هذا الثقب كما تفعل حالياً حين نختّم بخاتم متحف الفن الإسلامي على قطعة مستديرة من الرصاص ينتهي عندها رباط السلك الملقوف حول صناديق التحف المصدرة إلى الخارج كاجراء وقائي وتفتيشي ، أما كتابات قطعة الرصاص بمتحف الفن الإسلامي فهي ناتجة على وجه التأكيد عن طريق الضرب بقالب من حديد فوق وجهي الرصاص ونص هذه الكتابات (انظر لوحة ٢) :

[جز] ية سنة	[م] صر
تسعين	أيو [٥]

F. Walker : A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umayyad (١) Coins (London 1956) p. 295.

ونستدل من هذا التاريخ « تسعين » على أن القطعة عاصرت — كغيرها من القطع
المشورة الماثلة — قرّة بن شريك وإلى مصر (٩٠ — ٩٦ هـ)^(١).

ولكن السؤال الآن هو : ماذا تعني كل هذه القطع ؟ إن نصوص الكتابات
الواردة على قطعنا من معدن الرصاص تنفي اعتبارها سكة مصرية لأنها سكّت
لفرض معين هو جزية سنة ٩٠ هـ ، ويعتبر العثور على هذه القطعة ذا أهمية تاريخية
وأثرية كبيرة لأنها تحمل كتابات تؤكد لنا أنها هي وأمثالها الموجودة بالمتحف
البريطاني ، والتي نشرها Stickel ما هي إلا أختام صنعت لأغراض تتعلق بجزية
الجزية التي دفعت في تاريخ معين ومن شخص معين بمصر في عهد والي الأموي قرّة
ابن شريك . والمعروف أن قرّة قد تشددت في تسلم الجزية على وزن بيت المال وأعطى
أوامره بذلك إلى الجسّال « مندوب بيت المال » وإلى المازوت « شيخ القرية »
في الأقاليم^(٢) وتدنا المراجع التاريخية بمعلومات قيمة عن النظام المالي لمصر منذ
الفتح الإسلامي وهو نظام يستند إلى فرض ضرائب على الرؤوس لغير المسلمين
وتسمى « الجزية » وضرائب أخرى عقارية على الأرض وتسمى الخراج^(٣)
ولكن يظهر أن العنصر المالي الرئيسي الذي اهتم به العرب هو الجزية^(٤) التي فرضت
على أهل مصر بمجرد انتهاء العرب من العمليات الحربية « واصطلحوا على أن

(١) اختلف المؤرخون في وفاته أنظر الطبري « ليدين » ج ٢ ص ١٣٠٥ ، وزامبور : معجم
الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٥ ، وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨ حيث يذكر
وفاته سنة ٩٥ هـ نقلا عن امرأة الزمان ولكنه يرجح وفاته حسب قول الذهبي في ربيع الأول سنة ٩٦ هـ ،
وانظر كتابنا : صنع السكة في فجر الإسلام ص ٤٧ و ص ٤٨ ،

A. Grohmann : Arabic Papyri. vol., I., p. 25.

A. Grohmann : op. cit., vol. II, p. 47 (٢)

Van Berchem : La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premier (٣)
califes (Genève 1886) p. 21.

وكانت الجزية في مصر تنفع نقدا بالدينار وكسورها وهي ضريبة على أهل الامة مقابل الزكاة على
المسلمين وتعرف بالجزية في قطع الأوستراكا Ostraca (كسر الفخار) وفي أوراق البردي اليونانية باسم
δημοσια أما في أوراق البردي القبطية فتعرف باسم « الجزية » أنظر

Crum : Coptic Ostraca (London 1902) pp. 3, 37, A. Grohmann : op cit., vol. III,
pp. 16, 17.

(٤) سيده اسماعيل كاشف . مصر في فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢١٦

يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها (الوجيين القبلي والبحري) من القبط دينارين . . . وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية » (١) ولكن أوراق البردي تثبت عدم مساواة أهل الذمة في دفع الجزية لأنها كانت تقدر على الأفراد بما يتناسب وثروتهم الشخصية (٢) ومع ذلك حاول كثير من الأنباط التخلص من هذه الجزية ، إما عن طريق اعتناق الاسلام أو اعتناق الرهبنة والاتجاه إلى الأديرة إذ لم يكن يفرض أية جزية على الرهبان الذين لا يملكون شيئاً في حياتهم المتعزلية (٣) وقد ظل هذا الامتياز للرهبان قائماً حتى عهد انوالى عبد العزيز ابن مروان الذي أحاط نفسه بكثير من مظاهر الترف وبني مدينة حلوان التي كلفته نحواً من مليون دينار ورفع أعطيات الجند وقلد عظماء الجاهلية في الكرم وقد زار كل ذلك في حاجته إلى المال في الوقت الذي ارتفع فيه صوت كثير من المسيحيين بأن الرهبان يأكلون ويشربون دون أن يدفعون جزية (٤) وقد بهر عبد العزيز ابن مروان أن يعلم أن الرأي العام لا يسوؤه تقرير جزية الرؤس على الرهبان في الأديرة فأمر بأحصاء الرهبان في جميع الأديرة حتى لا تكون مكاناً لأيواء الهاربين من الضرائب الحكومية وأصبح كل راهب يطوق ذراعه الأيسر بسوار ينقش عليه تاريخ الاحصاء واسم الراهب واسم الدير الذي ينتمي إليه أو الكنيسة التي هو فيها وكاف كل راهب لأول مرة بدفع جزية مقدارها دينار واحد (٥) .

ويذكر الأستاذ Wiet (٦) أنه رغم الاحصاء الدقيق الذي قام به عبد العزيز بن مروان فإن حركة التهرب من الضرائب إلى القرى والأديرة قد اتسعت في عهد الوالي

(١) عن تفاصيل هذا الصلح انظر ابن عبيد الحكم : فتوح مصر (المجلد الفرنسي) ص ٦٢ و ص ٦٤ - المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٩٢ و ص ٢٩٣ ، السيوطي : حسن الخافضة ج ١ ص ٥٦

(٢) انظر كتاب قرعة بن شريك إلى صاحب كوره أشقوه بمصر العليا المنشور في

Bell : Translations of the Greek Aphrodito, (der Islam II) pp. 372, 281-282,

A. Grohmann : op. cit. vol. III, pp. 197-8, 201-3, 217, 219, 220-221

حيث نلاحظ اختلاف مقادير الجزية

(٣) Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte T. II, p. 132.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. T. IV p. 44.

(٥) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٩٢ ، ص ٤٩٣ ، ساويرس : البطارقة ص ٥١ ، (T. V.)

Wiet : Hist. de la Nation Egypt., p. 46. (٦)

عبد الله بن عبد الملك (٨٦ — ٩٠ هـ) حتى وصلت في عهد خلفه قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ) إلى درجة التأثير على ميزانية الدولة العامة مما اضطر قرة إلى سلسلة من الاجراءات أهمها حصر الأغراب في كل قرية ووسم كل منهم على جبهته ويديه وردمهم إلى أوطانهم^(١) وحتم على كل من يريد السفر من مكان إلى آخر أن يحمل جوازا للمرور يحتفظ به صاحبه حتى لا يضطر إلى دفع خمسة دنانير لاستخراج بدل فاقد^(٢).

وتثبت القطع الثلاث العالمية من الأختام — ومن بينها أقدمها بمتحف الفن الاسلامي — أن الاجراءات الاحصائية والتفتيشية التي اتبعها قرة بن شريك وأشارت إليها المراجع التاريخية لم تكن هي الاجراءات الوحيدة لتنظيم موارد الدولة والحفاظ على ميزانيتها، بل يتضح من الختم الرصاص المسكوك بمجموعة المتحف الاسلامي بوجه خاص أن قرة بن شريك قد قاوم الحركة السلبية التي اتبعها المماريون من الجزية بتطويق الذراع الأيسر أو الرقبة لكل من تستحق عليه جزية بسلك يتسمى طرفاه بنختم تسجل على أحد وجهيه بالخط الكوفي البارز تاريخ السنة الهجرية التي يدفع فيها الجزية كما تسجل على الوجه الثاني اسم بلده أو قريته^(٣).

وإذا استعرضنا كتابات الختم الرصاص رقم سجل ٢٠٤٤٢ بالمتحف الاسلامي نجدها تنص على جزية سنة تسعين التي قام بدفعها صاحب هذا الختم وهو كما تنص كتابة الوجه الثاني للختم من بلدة مصرية اسمها « أبيوه » وهي « أبيوها » الحالية بالوجه القبلي ويستفاد من أوراق البردى العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية أن هذه البلدة اسمها

(١) ساويرس : المرجع السابق ص ٥٦ .

A. Grohmann : op. cit., III, p. 24., Lamniens : Un Gouverneur Omayyade p. 107

حيث يذكر « لا مانس » أن حركة الحروب من الضرائب لم تكن جديدة في التاريخ المصري بل كثيرا ما كان الفلاحون يحجرون قراهم في مصر البز نفط فرارا من دفع الضرائب .

(٢) سيده كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ٢٣٠ وقد اعتبر المقرئ أن قرة بن شريك « أنزل

بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » انظر الخط ج ٢ ص ٤٩٢

(٣) وقد نسبت بعض المراجع التاريخية اجراءا شبيها بذلك إلى أسامة بن زيد صاحب خراج مصر في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدة من ٩٦ إلى ٩٩ هـ انظر كتابنا صنيح السكة في فجر الاسلام ص ٤٨ إلى ٥٠ ولكن يتضح من الختم الرصاص الذي نشره هنا أن الوالي قرة بن شريك قد سبقه في ذلك . انظر

أيضا ساويرس : المرجع السابق ص ٦٨ و ص ٧٠ والخط ج ٢ ص ٤٩٢ و ص ٤٩٣

منذ فجر الاسلام « أبيوه » أو « أيوه » نسبة إلى قرية قديمة من قرى الأثوثيين
بقي لنا اسمها ومكانها « أبيوها » بمحافظة المنيا الحالية مركز سمالوط^(١) .

ومن هذا الختم المسكوك يتضح أن هناك نوعين من الاجراءات الاحصائية
المتعلقة بالجزية أحدهما الذي اتبعه والي عبد العزيز بن مروان مع الرهبان بتطويق
الذراع الأيسر يسوار معدني كما سبق أن أشرنا ، والاجراء الثاني هو تطويق
ذراع أو رقبة الذي بهذا النوع من الأختام الرصاص في عهد قرة بن شريك لضبط
عملية تحصيل الجزية ليس إلا .

ولكن بعض المؤرخين^(٢) يحاولون دون جدوى أن يسيروا عطفنا بقصص
ساذجة لدرجة كبيرة ولا داعي كذلك لاقحام الكرامة الانسانية عند ذكر مثل هذه
الاجراءات^(٣) التي مهما كانت درجة مضايقتها فلا بد من قياسها بمعايير عصرها
وبيئتها كما أنها لا بد وأن تكون قد تمت تحت تأثير أسباب تسمحق أن توصف
بالتفصيل عند الاحتجاج بها . هذا فضلا عن أن اجراءات الأختام التي اتبعتها قرة
ابن شريك لضبط المسألة المالية لم تكن ابتكاراً أموياً فقد أشار Adam Metz
أن مسألة ختم الرقاب عادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين^(٤) ويذكر Triton

(١) انظر بردية رقم ٢٦٦ و بردية رقم ٢٦٣ في مجموعة أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية

A. Grohmann : op. cit., vol. IV., pp. 144, 166., 169, 178.

وتشير البردية رقم ٢٦٦ إلى إحصاء قد تم بمعرفة منطوي بيت المال في « أبيوه » وأشار في مطلع
البردية إلى عبارة « ما أعان الله عليه من إحصاء » وانظر عن هذه البلدة ياقوت الحموي معجم البلدان
(نشر Wüstenfeld) ج ١ ص ١١١ ، وابن دقاق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٥
ص ١٦ (القاهرة ١٨٩٣) وانظر شرف الدين يحيى بن الجيمان : التحفة السنية (القاهرة ١٨٩٨) ص ٧٤

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ج ١ ، ج ٥ ، ج ١٠ في مجموعة Patrologia

Orientalis (باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥)

E. L. Butcher (Mrs.) : The story of the Church of Egypt 2 vols. (London 1897)

وترجمه اسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيسها » في ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٠٠ و ١٩٠١ و ١٩٠٦)

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. p. 46. (٢)

Adam Metz : Die Renaissance des Islams (Heidelberg 1922) (٤)

انظر (الترجمة العربية) ج ٢ ص ٧٧ حيث يذكر متر « أن الأشوريين كانوا يعلقون في رقاب
العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوب عليها اسم العبد واسم سيده وكان اليهود في عهد التلود يملكون
عبيدهم ياتلم على الرقبة أو الثوب »

أيضاً أن نظام الختم كان متبعاً عند البيزنطيين « ومن الحق ألا نحمل العرب ووزر
اجتماع عار هذه العادة إذ أنها كانت متبعة عند البيزنطيين من قبلهم ، ففي سنة ٥٠٠ م
ذهب Demothenes إلى الامبراطور وأخبره بنكبتة ، فوصله الامبراطور بمبلغ غير
قليل من المال لتوزيعه على الفقراء فلما عاد من حضرته إلى الرها ختم على رقاب
الجميع بأختام من الرصاص وأعطى لكل واحد منهم رطلا من الخبز كل يوم » (١)
ومن هذا القول يبدو جلياً أن عادة ختم الرقاب بأختام من الرصاص لم تكن عادة
مستحقة كما لم تكن موجبة للعار الذي يقحمه ترتون في هذا العصر الوسيط .

وليس لدينا من المراجع ما يشير إلى أن هذه الأختام العربية ظهرت قبل عهد
عمر بن الخطاب وهو الخليفة الذي اقترن اسمه بالفتوح الاسلامية الهائلة في سوريا
والعراق وفارس ومصر ، وقد أرسل عمر بن الخطاب لجمع خراج العراق رجلين
من لدنه هما عثمان بن حنيف ، وحذيف اليماني فقتل أعتاق جميع الذميين ، وحدث
هذا أول ماحداث في خاققين (٢) كما أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص واليه على
مصر « أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص » (٣) .

(١) A. S. Tritton : The Caliphs and their Non-Muslim Subjects (1930) pp., 124-5

وقد ذكر ابن بطوطة في القرن ٨ - ١٤ م عند وصفه لمدينة ديباط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن
له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الرائي فن كان من الناس معتبراً بطبع له في قطعة كاشد يستظهر به
لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه يستظهر به » وهذا الإجراء لا يمكن تفسيره بأنه اضطهاد لغير
المسلمين مادام قد اتبع مع الأفراد دون النظر إلى ديانتهم . أنظر ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ١٦
ولم يعتبر wiet هذا الإجراء جاراً ودافع عنه أنظر .

Wiet : Hist. de la Nation Egypt., P. 47.

وقد اعتبر الأستاذ حسن عبد الوهاب مجرد جواز المرور أنظر حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة
وتنظيمها منذ نشأتها (١٩٥٧) ص ٣٨

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧١ وخاققين اليوم بلدة عامرة بالعراق وهي مركز قضاء
خاققين في لواء ديالى « الآن لواء بمقوبة » وبها تفتى سكة الحديد الممتدة من بغداد . أنظر .

ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد Le Strange : The Land of the Eastern Caliphate
(بغداد ١٩٥٤) حاشية ٤ ص ٨٧

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ : المقرئى : غلط ج ١ ص ٢٧٦ ، السيوطى :
حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

ولكن يجب ألا نبالغ في استمرار الابقاء على الأختام حول الذراع أو الرقبة مدة طويلة إذ ليس لدينا ما يؤيد هذا الاستمرار بل إن أبا يوسف صاحب كتاب الخراج يشير إلى أن ختم الأعناق لم يكن يستعمل إلا عند جمع الجزية وحسب حيث يذكر : « ينبغي أن تختم رقابهم (أهل الذمة) في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سأله كسرها » (١)

وهكذا لا تبدو عملية الختم بالرصاص حول الأيدي أو الرقاب أكثر من إجراء تنظيمي يحقق مصلحة الحكومة القائمة آنذاك ومصلحة الفرد نفسه حتى لا يحدث خطأ من شأنه أن يؤدي إلى تكرار دفع الجزية من شخص واحد أكثر من مرة واحدة فيقع الغبن الصارخ ، كما لا يمكن لفرد في ظل نظام الختم أن يفلت من التزامه بدفع الجزية لخزينة الدولة العامة .

ولكن استعمال الأختام لهذا الغرض وبهذه الوسيلة الموقوتة بدفع الجزية لا يبنى استعماله كوسيلة لجرح الكرامة والشعور بالعزة والأثقة في العصر الأموي غير أن ذلك لم يحدث مع أهل الذمة بل من بعض حكام بني أمية والمسلمين أنفسهم فقد أورد لنا ابن عزى بردى ما يؤيد ذلك في حوادث سنة ٧٤ هـ حين ذكر أن الحجاج ابن يوسف سار في هذه السنة من مكة « وأخذ بعض الصحابة وختم عليهم في أعناقهم روى الواقدي عن ابن أبي ذؤيب عن رأي جابر بن عبد الله مختوماً في يده ورأى أنس بن مالك مختوماً في عنقه يذهما بذلك قال الواقدي وحدثني شرحبيل بن أبي عون عن أبيه قال رأيت الحجاج أرسل إلى سهل بن سعد الساعدي فقال ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال قد فعلت . قال كذبت ثم أمر به فتم في عنقه برصاص » (٢) .

وإذا كانت أختام الجزية الرصاص قد وصلتنا نماذج منها فإنه لم يصلنا للآن نموذج واحد من أختام الحجاج التي يشير إليها أبو المحاسن وإن القطع بصحة هذه الاجراءات التي اتبعها الحجاج مع بعض الصحابة ستظل موضع الشك إلى

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩١ « طبعة دار الكتب المصرية » .

أن تثبت بقتناً على يدى الباحثين فى الآثار الاسلامية عامة وفى علم النميات
بصفة خاصة .

فلوس عبليسية ضرب نبروه :

إن الفلوس النحاسية أو البرونزية المبكرة لا تقل أهمية عن الدراهم الفضة
والدنانير الذهب فى دراسة تطور السكة الاسلامية إن لم تكن تفوقهما ، ويمكن
أن نعرف أن هذه الفلوس تمدنا بكثير من مدن السمك المحلية قبل أن تظهر على الدنانير
نفسها ، فبينما أقدم دار للسك تمدنا بها الدنانير المصرية ترجع إلى سنة ١٩٩ هـ نجد
الفلوس المصرية فى العصر الأموى منذ سنة ١٣١ هـ فى عهد والى عبد الملك بن مروان
(١٣١ — ١٣٢ هـ) ٧٤٩/٧٥٠ م تظهر عليها مصر — القسطنطينية — اسكندرية —
أريث — القيوم^(١) .

ولعل السبب فى ذلك هو أن الفلوس كانت حقاً مكتسباً للولاية فى الأقاليم شأنهم
فى ذلك شأن الحاكم اليونانى Eparchos الذى كان مكلفاً بالإشراف على السكة فى
ولايته^(٢) فيضرب الولاية هذا النوع من الفلوس تحقيقاً لمرونة العمليات التجارية وإشباعاً
لرغبات عامة الشعب فى شراء حاجياتهم البسيطة أى « المحقرات » على حد تعبير المقرزى^(٣)
ولذلك تعدد ضرب الفلوس فى مدن مختلفة من الأقاليم الواحد واتجهت أنظار الباحثين
فى علم النميات الاسلامية لدراسة هذه الفلوس وهى دراسة شاقة مافى ذلك شك لأسباب
كثيرة أهمها أن النخامة النحاسية أو البرونزية التى ضربت منها هذه الفلوس الاسلامية
يتطرق إليها الصدأ بسرعة كبيرة ولا يلبث هذا الصدأ أن يؤثر فى حروف الكتابات
البارزة من الفلوس طيلة الوقت الذى تكون فيه هذه الفلوس مطمورة فى باطن
الأرض أو تحت الأطلال بعيدة عن أيدي أمناء المتاحف أو الباحثين كما أن كثيراً
من هذه الفلوس تتشقق خاتمة نتيجة الضرب عليها بشدة دون تسخينها « فتفتقر »
هذه الفلوس وتقطع حروفها ويصعب بذلك تكوين صورة كاملة عن كتاباتها دون

Miles : The Early Islamic Bronze Coinage of Egypt (Centennial volume (١)
of the American Numismatic Society N. Y.) pp. 478-480.

وانظر ما جاء فى هذه الصفحات من مراجع

Lavotz : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale (٢)
vol .I, p. XLVII

(٣) المقرزى : إفاتة الأمة يكشف الغمة (نشر زيادة والشيخ) ص ٦٦

إجراء تحقيقات علمية واسعة ، هذا إلى جانب عدم اهتمام الضراب بهذا النوع من السكة الإسلامية بحيث يتركز القوالب على الخامة تماماً كما يفعل في الدينار والدرهم ، بل كثيراً ما يؤدي إهماله في الضرب إلى زحزحة قوالب السك بحيث لا يظهر على الفلس غير جزء قليل من كتابات القالب المطلوب إبرازها على الفلس فينتج لنا فلوساً ناقصة في نصوصها تثير مشاكل لا حد لها بين الباحثين .

ومن بين الفلوس التي أثارت بعض المشكلات بين علماء النميات فلسان في المكتبة الأهلية بباريس نشرها الأستاذ لافوا Lavoix سنة ١٨٨٧^(١) قطر كل منهما ١٥ مم ويزن أحدهما ١٤٥ جرام والثاني ٩٥ ر. وربما كان هذا الوزن قد تأثر كثيراً من تأكل الصدأ ، وعلى كلا وجهي الفلوس وردت كتابات كوفية واضحة المعالم إلى حد كبير وقرأها لافوا بهذا الشكل على أحد الفلوسين :

بيروت	الأمير
مما أمر	جا [بـ] ر
	بن عـ [يد]

وبالشكل الآتي على الفلوس الثاني :

بيروت	الأمير
مما أمر	جا [بـ] ر
	بن عبيد

وقد نشر الدكتور Miles قطعتين باسم الأمير جابر في بحثه عن « الفلوس البرونزية المبكرة في مصر » ولكن ليس على أي واحد من الفلوسين أية إشارة لدار السك رغم وجود اسم « الأمير جابر » وقد نسب Miles القطعتين إلى جابر بن عبيد (١٣٣-١٤١ هـ) (٧٥٠ — ٧٥٩ م) الذي كان عاملاً بأقليم منف في عهد والي مصر عبد الملك بن يزيد ، ويشك الدكتور ميلز رغم قراءته اسم جابر بن عبيد على قطعتي باريس في نسبة هذين الفلوسين إلى مصر في الوقت الذي يرجح فيه نسبة الفلوسين اللذين عثر عليهما في حفائر أنطاكية — ويحملان اسم والي نفسه — إلى مصر^(٢). كما أن الأستاذ Bergmann

Lavoix : op. cit nos. 1565, 1566, pp., 425., 426. pl. IX (١)

Miles : The Early Islamic Bronze Coinage of Egypt nos. 12, 13, pp. 483, 484. (٢)

سبق أن قرر سنة ١٨٦٩^(١) نسبة فلس آخر من هذا النوع من الفلوس إلى جابر بن الأشعث وإلى مصر منذ ١٩٥ هـ إلى ١٩٦ هـ ووافق الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان على هذه النسبة^(٢).

وبخصوص هذه الفلوس نرى أنفسنا نواجه سؤالين في حاجة إلى إجابة :

هل نعتبر فلسى باريس اللذين يظهر عليهما اسم جابر ضرب بيروت ؟ ثم هل جابر الذى يظهر اسمه عليهما هو جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث ؟ وما مدى علافة أيهما ببيروت ؟

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول فيمكن الإجابة عليه في ضوء الصورة التى نشرها لافوا باللوحة التاسعة من كتابه للقطعة رقم ١٥٦٥ فبالرجوع إليها - ونحن ننقلها هنا فوتوغرافيا (لوحة ٣) - نلاحظ أن الكلمة الموضحة بالسطر الأول تنتهى بتاء مربوطة أو هاء ومن هنا أفضل قراءة الكلمة كلها (نبروه) وليست (بيروت) كما قرأها لافوا وإلى جانب عدم وجود تاء مفتوحة في الكلمة فإن (بيروت) لا تتشبه مع نسبة الفلس إلى أحد العاملين المصريين وهما جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث اللذين ترجح أن أحدهما صاحب هذه الفلوس .

ونبروه بلدة قديمة بالوجه البحرى فى مركز بلخا بمحافظة الغربية حاليا وقد أشار إليها ابن ممتى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ^(٣) كما أشار إليها على مبارك فى خطه حيث يذكر : « نبروه بلدة قديمة تابعة لمركز سمند من مديرية الغربية واقعة على تل مرتفع نحو أربعة أمتار على الشاطئ الغربى لبحر نبروه »^(٤) وكذلك أشار إليها أخيراً المرحوم محمد رمزى فى قاموسه على أنها بلدة قديمة^(٥).

(١) Bergmann : Zur Muhammedanischen Münzkunde, (ZDMG, XXIII, 1869, p. 246. no. 9.)

(٢) A. Grohmann : Einführung und Chrestomathie zur Arabischen Papyruskunde. Praha, 1955, p. 216.

(٣) ابن ممتى : قوانين النواوين (نشر سورىال) ص ٢١٥

(٤) على مبارك : السجل البلدى التوقيف ج ١٧ ص ٣

(٥) محمد رمزى : القاموس الجغرافى قسم ٢ ج ١ ص ٩٢ (نشر دار الكتب المصرية) .

وعلى هذا الأساس تكون صحة قراءة كتابات الوجه في الفلّسين بمجموعة باريس هي :

نبروه

مما أمر

أما الظاهر فتبدو كتاباته في السطرين الأولين بشكل أوضح من السطر الثالث ولكن الكلمة التي يشتمل عليها السطر الثاني اعتقد لاقوا أنها تنقص حرف الباء في « جابر » فأضافه عند قراءة هذا الاسم هكذا جا [بـ] ر وذلك على أحد الفلّسين وهو رقم ١٥٦٥ بينما في الفلّس الثاني رقم ١٥٦٦ أضاف للكلمة نفسها حرفي الباء والراء جا [ر] مع أنه بالتحقق من كتابة السطر الثاني في ظهر الفلّس المصور وهو رقم ١٥٦٥ يتضح لنا أن حرف الجيم والألف في « جابر » ليس بعدها أي حرف آخر إذ تمتد الراء في كلمة « الأمير » من السطر الأول لتصل إلى مستوى الحرفين جيم وألف في السطر الثاني مما يتوهم معه أنها تكملة لكلمة « جابر » **الأمير** بينما توجد تكملة الاسم في السطر الثالث الذي يحتوي على الباء والراء الناقصين بشكل لا يدع مجالا للشك وفي نهاية السطر الثالث يظهر حرفان يمكن تفسيرهما على أنهما (بن) مكتوبة بطريقة عكسية **بـ** وفي ضوء هذه التفسيرات تصبح كتابات

ظهر فلّس باريس هكذا :

الأمير

جا

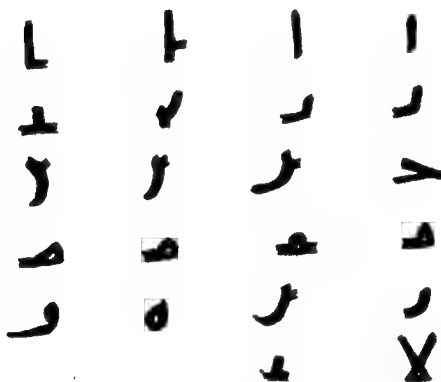
بر

وعدم تسجيل اسم والد جابر هذا يجعلنا في حيرة من نسبة جابر إلى « عبيد » أو إلى « الأشعث » وإن كان كلاهما من عمال العصر العباسي في مصر وليس في إقليم آخر غير مصر . إذ من الثابت أن جابر بن عبيد قد تولى عمله في مصر من ١٣٣ — ١٤١ هـ ^(١) بينما تولى جابر بن الأشعث من ١٩٥ إلى ١٩٦ هـ ^(٢) .

G. C. Miles : Islamic Coins of Antioch-on-the Orontes, IV, part I (Princeton (١) 1948), p. 115.

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٤٧ — ص ١٥٣ حيث يذكر في ص ١٥٠ « أن ولاية جابر بن الأشعث كانت على مصر ستة وأحدة تقريبا » .

وإذا كنا قد استطعنا أن نجيب على الجانب الأول من المشكلة باكتشاف دار
 للسك جديدة في مصر العباسية ليس لها إنتاج مماثل في العالم ، وهي « نبروه »
 فانتا لا زلنا في حاجة إلى مستندات أوفى حتى يمكن الرد على الجانب الثاني من
 المشكلة من حيث نسبة فلوس « نبروه » إلى جابر بن عبيد أو جابر بن الأشعث وإن
 كانت الكتابات الكوفية الواردة على فلسي باريس تؤيد في رسم حروفها ترجيح
 نسبتها إلى جابر بن عبيد لأنها تقترب في الواقع من حروف كتابات العصر الأموي
 وخاصة بالنسبة لرسم الألف والجيم والواو .



تحليل الحروف الكتابية

على فلس « نبروه » مجموعة المكتبة الأهلية بباريس

دنانير يمنية : نذرة ضرب صعدة :

تعتبر المسكوكات الإسلامية ضرب اليمن من أندر السكة العربية وقد نشر بعض علماء النميات^(١) أعداداً من هذه المسكوكات وكلها سواء أكانت من الدنانير أو الدراهم أو الفلوس تنحصر في ضرب صنعاء وتعز وعدن فيما عدا درهمن بمجموعة المتحف البريطاني باسم الامام الهادي يظهر على أحدهما اسم صعدة^(٢) ولكن لا تعرف دنانير ضربت باسم هذا الامام الشيعي في غير مجموعة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة الذي يمتلك ثلاثة دنانير كلها ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ وتشابه كتاباتها ونصها:

الوجه :	الظهر :
(مركز)	(مركز)
لا إله إلا	الهادي إلى
الله وحده	الحق أمير
لا شريك له	المؤمنين
محمد رسول الله	بن رسول الله

Lane. Poole : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum (١)

دينار عدن ٥٥٦ هـ ، 121 , no. 358, p. 131 , 368, p. 131 (London 1880) vol. 5, no. 368, p. 131

دراهم ضرب صنعاء بالأرقام nos. 364, 369, 374—378, 389, 390, pp. 128, 131-135.

Lane-Poole : Cat. of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library

at Cairo, no. 647, p. 19. ٣١٠ هـ

Heinrich Nützel : Katalog Der Orientalischen Münzen. Erster Band (Berlin 1898), nos. 1051, 1450, 1462, 1527, 1561, 1644, 1705. وكلها دنانير ودراهم ضرب صنعاء

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes, vol. I pp. 189, 228, 240, 241, 245, 250, 282

دراهم ضرب صنعاء ١٨٨ هـ ودنانير ضرب صنعاء في السنوات ٢٢٢, ٢٢٣, ٢٤٩, ٢٥٦, ٢٧٣

٢٧٥, ٣١٤, ٣١٥

G. C. Miles : The Ayyubid Dynasty of the Yemen and their Coinage. (Numismatic Chronicle 5th series vol. XIX 1939.

P. Balog. : Dêrhems Ayyoubites Inédites du Yemen (B.I.E., T. XXXV Cairo 1955)

ليس المقصد من الإشارة إلى هذه المراجع إعطاء إحصاء عام لكل السكة اليمنية بل هناك بعض العملات نشرها Fraehn, A. weyl وغيرها في كتب أو دوريات متفرقة وإنما قصدت فقط الإشارة إلى أهمية هذه المسكوكات ضرب صعدة .

(٢) والذي يظهر عليه اسم صعدة هو رقم ٣٦٢ فقط

Lane-Poole : B. M., vol. 5 nos. 361, 362 pp. 127.

(هامش داخلي)

(هامش)

بسم الله ضرب هذا الدين بصعدة
سنة ثمان وتسعين ومئتين
حمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق .

(هامش خارجي)

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله

[لوحة ٣ و ٤]

أرقام السجل :	١٢٨١٧/١	قطر ٢١ مم وزن ٢٨٢٠ جرام
	١٢٨١٧/٢	قطر ٢١ مم وزن ٢٨٤٠ جرام
	٧٧٠٢	قطر ٢٠ مم وزن ٢٨٥٠ جرام

ونلاحظ بين كتابات هذه الدنانير عبارات تشير إلى « الهادي إلى الحق أمير المؤمنين بن رسول الله » وهي ألقاب أحد أئمة الشيعة الزيدية باليمن ومؤسس الدولة الهاشمية هناك ، وهو يحيى بن الحسن بن القاسم بن إبراهيم طبا ابن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١) وقد ولد هذا الإمام سنة ٢٤٥هـ وتذكر بعض المراجع^(٢) أنه توفي سنة ٢٩٧هـ بينما تذكر مراجع أخرى أنه توفي في ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ^(٣) وهو أمر يؤكد هذه الدنانير التي نشرها وتحمل اسمه وتاريخ ضربها سنة ٢٩٨هـ أي في العصر العباسي .

ونحن نعرف أن اليمن قد تناوب على حكمها ولاية متعددة من قبل الخلفاء العباسيين ومن ثم فإن هذه الدنانير الشيعة تثير التساؤل عن سبب ضربها في إحدى الولايات العباسية التي درجت على أن تضرب دنانيرها باسم الخليفة العباسي المعاصر فرغم أن هذه الدنانير التي يمتلكها متحف الفن الاسلامي يمتشي تاريخها مع عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله ٢٩٥ — ٣٢٠هـ (٩٠٨ — ٩٣٢ م) إلا أنها لا تحمل أية إشارة إلى اسمه كما أن الفترة التي صدرت فيها هذه الدنانير فترة غامضة في سلسلة الولاية الذين

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٨

(٢) حسن بن فيض الله الهادي : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢٥

(٣) حسين بن علي الويسى : اليمن الكبرى (القاهرة ١٩٦٢) ص ٢٦١ وكذلك يذكر زامبور : معجم الأنساب والأمراء الحاكمة في التاريخ الاسلامي (ترجمة زكي حسن وآخرين) ج ٢ ص ١٨٧

أوردتهم زامبور Zambaur حيث نقرأ عن بعض الولاة العباسيين كما نجد أيضاً ولاية آخرين معاصرين لهم من أئمة الزيديين من بني الرمي بصعدة وصنعاء^(١).

والواقع أن تبعية اليمن للخلافة العباسية لم تكن مستقرة لأسباب كثيرة لعل أهمها بعد هذه البلاد عن عاصمة العباسيين في بغداد فلم يكن في مقدور الخليفة أن يقضى على حركات الطامعين بالسرعة التي تتطلبها إخماد الثورات وقمعها. لذلك نجد في القرن الثالث الهجري أحد ولاة اليمن وهو محمد بن إبراهيم الزيدى يتمكن من تأسيس الدولة الزيدية سنة ٢٤٥ هـ وقد حكمت هذه الدولة اليمن من عاصمتها الجديدة «زيد» واعترفت بالولاء للخلافة العباسية^(٢) كما خرج بصنعاء أسعد بن أبي يفر واعتزف كذلك بالولاء للعباسيين وفي نفس الوقت ثار بصعدة يحيى بن القاسم الرمي الملقب «بالمهادي» وكان يدعو للزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين^(٣) وهكذا أصبح في اليمن ثلاث دويلات معاصرة إحداها في «زيد» والثانية في «صنعاء» وما تعترفان بالسيادة العباسية والثالثة في «صعدة» وهي دولة شيعية تأسست سنة ٢٨٠ هـ^(٤) بعد أن انتشر التشيع سرا وعلانية في اليمن نتيجة ضعف الدولة الزيدية وانحلالها. فذهب وفد من اليمنيين إلى المهادي يحيى بن الحسن وهو بالرمي بالحجاز ونجد وطلبوا خروجه إلى اليمن التي اضطربت أمورها وانتشرت فيها الفتن^(٥) وبايعوه على النصرة

(١) زامبور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٧ و ص ١٨٧

(٢) حمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤ (نشر Henri Cassels Key)

ويذكر حسين علي الويسى أن دولة بني زياد قامت في اليمن منذ سنة ٢٠٣ هـ إلى سنة ٣٩١ هـ وأست

زيد سنة ٢٠٤ هـ أنظر حسين علي الويسى : المرجع السابق ص ٢٥٩

(٣) دكتور محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (الطبعة الأولى) ص ٥٩

(٤) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢١٣

Key : Yemen, Its Early Mediaeval History p. 242

ويذكر القلقشندي أن «صعدة» بلدة على ستين فرسخا من صنعاء أنظر القلقشندي : صبح الأعشى

ج ٥ ص ٤٢

وانظر أيضا حسن بن فيض الله المهداني : المرجع السابق ص ٢٨ ، وحسين علي الويسى : المرجع

السابق ص ٢٦٠

(٥) حاول الفاطميون في ذلك الوقت إقامة دعوتهم في اليمن أولا فأرسل محمد الحبيب إمام الإسماعيلية في سلمية (من أعمال حماة) كلا من علي بن الفضل اليمني وأبا القاسم رستم بن الحسن بن فرج بن حوشب الكوفي إلى اليمن لنشر الدعوة للمهدي من آل محمد سنة ٢٦٨ هـ وقد عرف ابن حوشب بمصنوع اليمن. أنظر دكتور محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٥٩ - ٦٠ أنظر : حسن بن فيض الله المهداني : المرجع السابق ص ٢٥ ، والمقرئ : تماظ الحنفا ص ٦٧ - ٦٨

نخرج معهم ولكنه لم يستطع دخول اليمن فعاد إلى الحجاز غير أن وفدا آخر من اليمنيين عاد إلى طلبه سنة ٢٨٤هـ فتقدم الهادي يحيى هذه المرة واستطاع أن يستولى على «صعدة» ولكنه فشل في دخول صنعاء في المحرم سنة ٢٨٦هـ^(١) فظلت دولته قاصرة على «صعدة» رغم زوال الدولة الزيدية ودولة بني يعفر بعد قيام الدولة الفاطمية اليمنية التي أسسها منصور اليمن سنة ٢٦٨هـ ولم يقض على دولة الهادي وخلفائه في «صعدة» غير علي بن محمد الصليحي سنة ٤٤٠هـ حين أسس الدولة الصليحية .

وكل الذي يعيننا من هذا الامعان في الأحداث التاريخية في بلاد اليمن في القرن ٣هـ هو الوقوف على دولة بني الرسي في صعدة منذ أن أسسها الهادي يحيى وهو الذي استطاع أن ينتزع لنفسه حق ضرب السكة الذهبية باسمه ومن بينها الدنانير الثلاثة التي نشرها هنا . ولكننا نلاحظ أن وزن هذه الدنانير يتراوح بين ٢٨٢٠ جرام و ٢٨٥٠ جرام ومتوسط أقطارها ٢٠ مم وإذا كان قطر هذه الدنانير يتمشى مع الدنانير الإسلامية في العصر العباسي إلا أن أوزانها تبعد تماماً عن الوزن الشرعي للدنار الإسلامي وهو ٤٢٥ جرام . وربما لجأ الهادي يحيى إلى ضرب هذه الدنانير الخفيفة الوزن لافتقار دولته الناشئة في صعدة إلى كميات الذهب اللازمة لسك الدنانير الشرعية وربما ساعدته هذه الطريقة على ضرب كميات كبيرة من الدنانير الشيعية كي تغمر أسواق اليمن التجارية فيكون عاملاً هاماً في تقوية مركزه وبث الثقة في نفوس اليمنيين لتركيه دعام دولته .

حول بعض الدنانير العباسية الطولونية :

أثيرت بين علماء النميات منذ سنة ١٨٧٥م مشكلة ترتبط ببعض الدنانير العباسية في العصر الطولوني وذلك حين نشر روجرز Rogers واحداً من الدنانير العباسية^(٢) يحمل بين كتابته المركزية أسفل اسم الخليفة العباسي على الظهر كلمة كوفية قرأها روجرز (إبريز) وجاء من بعده لافوا Lavoix سنة ١٨٨٧م ونشر أول مجلداته

(١) حسين بن علي الويسى : المرجع السابق ص ٢٦١

(٢) Rogers: The Coins of the Tuluni Dynasty in the International Numismata Orientalia, part IV (London 1877) p. 18, Journal of the Royal Asiatic Society (New Series), T. VII, p. 283.

عن السكة الإسلامية فأشار إلى دينار عباسي آخر ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢/٨٧١ م)^(١) وعليه نفس الكلمة وقد قرأها لافوا (نجران) ويذكر لينبول Lane-Poole تعليقا على هاتين القراءتين يتلخص في أن كلا القراءتين خطأ سيما وأن دينار باريس يظهر عليه اسم دار السك « مصر » بوضوح في هامش الوجه واستقر رأى لينبول على قراءة الكلمة (بحرين) على دينار ثالث بدار الكتب المصرية مؤرخ سنة ٢٦١ هـ وأشار إلى أن كتابات هامش الوجه محدوفة^(٢) وأثيرت المشكلة من جديد على يدى الدكتور Miles حين نشر قطعتين في كتابه عن « السكة الإسلامية النادرة » سنة ١٩٥٠ وهما ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ ورسم الكلمة محرفة عما وردت على الدينارين دون أن يصل إلى تفسير لها وأعلن أنه بفتح باب المناقشة في هذه المشكلة من جديد مادام لم يستطع هو أو غيره قراءة هذه الكلمة رغم أنه اعتبر قراءة لافوا أكثر احتمالا^(٣) ثم جاء أخيراً الأستاذ O. Grabar سنة ١٩٥٧ ونشر في كتبه عن النقود الطولونية القطعتين المحفوظتين في مجموعة متحف الجامعة بقبلا دلفيا وهما ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ واعتبر الكلمة الكوفية الواردة في أسفل كتابات مركز الظهر لفزاً يحتاج إلى الحل^(٤) وختم جرابر Grabar كتبه هذا بصورتين لظهر الدينارين كاعلان يشير انتباه الباحثين في علم التيمات العربية ، (لوحة ٦) وقد ركزت اهتمامي وتقتد لحل هذه المشكلة وخاصة عندما أدار معى الأستاذ الدكتور بول بالوج Balog طرفاً من الحديث عنها ونحس لقراءتها على أساس أنها « محيى » في رأيه غير أن المسألة الآن في نظرى غير ذلك سيما وأن الكلمة بالنسبة للباحث العربى قد تكون أيسر إلى درجة أقل مما هي عند العلماء

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes (Khalifés Orientaux) Paris (١)

. 1887, no. 1020.

Lane-Poole : Khed. Libr., p. 84., no. 619. (٢)

Miles : Rare Islamic Coins nos., 154, 155, p. 40 (٣)

Oleg Grabar : The Coinage of the Tūnids. (N. Y., 1957) pp. 31, 32. (٤)

وقد ذكر Grabar أن للدنانير التي أثارت مشكلة الكلمة الكوفية والمعروفة لديه هي خمسة دنانير في العالم كله أنظر ص ٣٢ ولكننا نضيف هنا إلى هذا العدد دنانيرين آخرين من مجموعة متحف الفن الإسلامى

٢١٩١٩ / ١ ، ١٦٨٩٥ / ٧

الغريين. وفي متحف الفن الاسلامي ديناران من هذا النوع ضرب مصر سنة ٢٥٨هـ^(١).

وجه	المركز	ظهر	المركز
لا إله إلا الله وحده	لا إله إلا الله وحده	لا إله إلا الله وحده	لا إله إلا الله وحده
لا شريك له	لا شريك له	لا شريك له	لا شريك له
جعفر	جعفر	جعفر	جعفر
المعتمد على الله	المعتمد على الله	المعتمد على الله	المعتمد على الله
نحير	نحير	نحير	نحير

الهامش الداخلي
بسم الله ضرب هذا الدينر بمصر سنة ثمان وخمسين ومائتين
الهامش الخارجي
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله
قطر ٢٠ م وزن ٤ر١٣٥ جرام
سجل ١٦٨٩٥/٧

[لوحة ٥]

ورقم سجل ٢١٩١٩/١ مثل السابق ولكن الكتابة الهامشية في الظهر كاملة ونصها:
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
قطر ٢١ م وزن ٤ر١٩٠ جرام

[لوحة ٦]

ويحمل كل من هذين الدينارين أسفل كتابة المركز نفس الكلمة موضوع المناقشة ومن ثم تكون كل القطع التي تحمل هذه الكلمة الكوفية مؤرخة سنة ٢٥٨هـ فيما عدا دينار دار الكتب المصرية الذي ذكر لينبول أنه مؤرخ سنة ٢٦١هـ

(١) لم يشر المرحوم ناصر التقيشقي إلى أي دينار بالمتحف العراقي من هذا النوع وإن كان قد أشار إلى دينار باريس متبنيًا لقراءة لا فؤا وهي (نجران) أنظر ناصر السيد محمود التقيشقي : الدينار الاسلامي في المتحف العراقي (بنباد ١٩٥٣) ص ١٤٧

ولا يظهر عليه اسم دار الضرب . على كل حال يمكن أن نحصر تاريخ ظهور المشكلة فيما بين سنة ٢٥٨هـ وسنة ٢٦٩هـ إذا ما أخذنا بقراءة لينبول لقطعة دار الكتب المصرية ومن الثابت أن الكلمة الكوفية المغلفة لم ترد على دنانير العباسيين في العصر الطولوني منذ أن تولى أحمد بن طولون مصر سنة ٢٥٤هـ كما أنها لم ترد على أية دنانير أخرى باسم المعتمد على الله العباسي (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) بعد سنة ٢٦٩هـ . ويلاحظ أن الدنانير المؤرخة سنة ٢٥٨هـ ورد عليها أسفل كتابات مركز الوجه اسم « جعفر » ابن الخليفة العباسي المعتمد على الله الذي تلقب فيما بعد بالمقوض إلى الله أما الكلمة الكوفية المغلفة فأستطيع قراءتها الآن باسم (تحرير) إشارة إلى تحرير الخادم^(١)

تحرير

« تحرير » كما وردت على دينارى متحف الفن الاسلامى

رقم سجل ١٦٨٩٥/٧ ورقم ٢١٩١٩/١

الذى أرسله الموفق طلحة إلى أحمد بن طولون يطلب منه المساعدات المالية اللازمة للاستمرار فى قتال صاحب ثورة الزنج تلك الثورة التى هددت كيان الدولة العباسية منذ سنة ٢٥٥هـ^(٢) وكان الخليفة العباسي المعتمد على الله بعد استفحال ثورة الزنج قد أنفذ أخاه أبا أحمد طلحة سنة ٢٥٧هـ للقضاء عليها ومما « الموفق » وقسم الدولة العباسية بين ابنه جعفر وبينه وخص الموفق بالبلاد الشرقية وولى المقوض (جعفر) البلاد الغربية « مصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان » وشرط الخليفة أن يختص كل من المقوض والموفق بعمله فلا ينظر أحدهما فى عمل

(١) العبرى : الرسل والملوك (ليدن) ج ٣ ص ١٧٠٩ ، والمقرئى : مخطوط ج ٢ ص ١٧٨

(٢) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٧ ، ص ٢٨ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١ ويذكر ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠ أن صاحب هذه الثورة التى قامت فى البصرة ونواحها يقال له على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان أتباعه من العميد الزنج .

أنظر سيده كاظم وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإغشيديين ص ٣٥ حيث يذكر المؤلفان أن ثورة الزنج اشتملت للمرة الأولى سنة ٢٥٤هـ وأنظر البلبوى : سيرة ابن طولون ص ٧٧

الآخر وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم وأمر بكتاب البيعة لحفظ بالكعبة (١).

غير أن هذا العمل لم يرض الموفق طلحة بل زاد حقه على الخليفة الذي خص ابنه بأغنى الولايات فاستمر يعمل على الاستئثار بالسلطة كلها حتى لم يعد للخليفة المعتمد غير «الخطبة والسكة والتسمية بإمرة المؤمنين ولأخيه طلحة الأمر والنهي» (٢) ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أرسل الموفق «نحير الخادم» إلى ابن طولون يطلب منه المعونات المالية في الوقت الذي أرسل فيه المعتمد إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل أموال مصر إلى دار الخلافة في بغداد ، ويوصيه سراً بأن الموفق لم يرسل «نحير الخادم» إلا ليستقصى أخبار ابن طولون (٣) وقد تنبه ابن طولون للمهمة التي جاء لها «نحير» إلى مصر فأنزله معه في داره بالقطائع ومنعه من الركوب ولم يمكنه من الخروج من الدار التي أنزله بها حتى وقت مغادرته مصر وتلطف ابن طولون في الكتب التي أجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التي وردت من العراق إلى مصر لاثارة بعض القواد على ابن طولون وبعث معه إلى الموفق مليون ومائتي ألف دينار وسار بصحبته ليودعه حتى العرش ، ولما وصل تحرير الخادم بالمعونات الطولونية إلى الموفق لم يرض عنها وطلب الاستحواز على خراج مصر بأكمله ، فأنكر عليه ابن طولون ذلك واضطربت الأمور في مصر والشام بل في بغداد نفسها حيث تحفظ الموفق على الخليفة المعتمد وسجنه وأصبح العداء سافراً بين الموفق طلحة وابن طولون وليس غريباً في هذه الفترة بالذات أن يضرب الموفق مجموعة من الدنانير العباسية يناهض بها أحمد بن طولون ويسجل على ظهرها اسم تحرير الخادم كتأفيس لابن طولون الذي أمر الموفق بلعنه من فوق منابر المساجد الجامعة بالدولة العباسية (٤) ورغم كل هذا لم ينتج الموفق في القضاء على ابن طولون كما لم تنتج دنانيره باسم «نحير» التي سجل عليها كذلك ضرب مصر في القضاء على ولاء مصر للطولونيين .

(١) حسن إبراهيم حسن المرجع السابق ص ٢٧

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١

(٣) المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٧٨

(٤) الطبري : الرسل والملوك ص ١٢ (الحمية) ص ٣٠٤ انظر دائرة المعارف الإسلامية

النسخة الإنجليزية مادة (أحمد بن طولون) «Ahmad» Encyclopaedia of Islam. art :

متفرقات مغربية وانفلسية :

لم يلق العرب عند اقتطاع شمال إفريقيا^(١) من ممتلكات الدولة البيزنطية نفس الظروف التي أسرت لهم الاستيلاء على سوريا ومصر من هذه الدولة، فقد احتاج فتح شمال إفريقيا إلى أكثر من نصف قرن وذلك بسبب المقاومات العنيفة التي لقيها المسلمون من قبائل البربر، وحتى سنة ٤٩ هـ لم تكن حملات العرب في هذه الأقاليم من إفريقيا أكثر من عمليات حرية متقطعة لم تلبث أن ترد إلى برقة أو زويلة، ولكن يمكن القول بأن الفتوح العربية في إفريقيا حظيت بالاستقرار على يدى عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وتقدم بجيوشه المنتصرة إلى طنجة وأوغل في بلاد المغرب الأقصى حيث قتله البربر، ولكنه على أى حال كان قد شق طريقا مفتوحا أمام العرب في الشمال الإفريقي يتطلعون منه إلى أسبانيا، ورغم انشغال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالقضاء على مشاكل الشرق السياسية نراه يهتم بالشؤون الإفريقية فيرسل قائده زهير بن قيس البلوى إلى القيروان سنة ٦٩ هـ ولكنه يقتل في برقة سنة ٧١ هـ فيرسل بعده حسان بن النعمان سنة ٧٦ هـ^(٢) فيستولى على قرطاجنة ويقضى على ثورة البربر بزعماء الكاهنة، ثم حل موسى بن نصير في القيادة الإفريقية محل حسان بن النعمان بعد عزله فتمكن موسى بن نصير من طرد البيزنطيين نهائيا من إفريقيا^(٣) كما نجح في نشر الاسلام بين قبائل البربر، وما لبث موسى بن نصير أن تمكن بمعاونة قائده طارق بن زياد من العبور إلى أسبانيا سنة ٩٣ هـ والاستيلاء

(١) يريد مؤرخو العرب بإفريقية ولاية Africa Propria وزوجيتانيا Zeogitania وكذا الولايات البحرية الأخرى كطرابلس ونوميديا وبعض أجزاء موطانية القيصرية ونيطابلس وتمتد في الداخل حتى واحة آمون وجزء من فزان . انظر دكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب حاشية ص ٤ وكانت إفريقية متجرة ولاية عسكرية تابعة لإيطاليا في التنظيم السياسي للدولة الرومانية يحكمها Procursul (أى قنصل سابق وهو حاكم عسكري يسمى أيضا Bparci) فجسها جستييان منذ أن أنقلها من حكم الوندال ولاية مدنية مثلها مثل بيزنطة نفسها يحكمها مدير Praefect (حاكم مدني) واختار لها واليا من أقدر ولادة الدولة هو أرغلوس Archelaos . انظر حسين مؤنس : المرجع نفسه ص ١٤ حاشية (١) و ص ٣٣ حاشية (١)

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢١٧ و ص ٢٢٩ و ص ٢٢٩

(٣) فيها عدا مدينة سبتة الحصينة التي كانت في يد الكونت جوليان Julian حاكمها من قبل القوط .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٤٨٤

على قرطبة وطليطلة وقرمونة وأشبيلية وأخيراً أوريهوبلا من دولة القوط الغربيين Visigoths وما أن أصبح موسى بن نصير سيد الأندلس حتى استدعاه الخليفة إلى دمشق سنة ٩٥ هـ فقسم موسى الممتلكات الأفريقية قبل سفره بين أولاده الثلاثة فخص عبد الله بأفريقية وخص عبد الملك بالمغرب وعبد العزيز بالأندلس وتوفي موسى سنة ٩٨ هـ بعد أن جرده الخليفة سليمان بن عبد الملك من ثروته وكان عبد العزيز بن موسى قد قتل بالأندلس سنة ٩٧ هـ وخلفه حفيد لموسى بن نصير هو أيوب ابن حبيب اللخمي لعدة شهور وفي نهاية سنة ٩٧ هـ تولى الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى الذى ظهرت في عهده (الأندلس) على السكة الاسلامية لأول مرة سنة ٩٨ هـ .

نذكر هذه الملحة التاريخية قصد إلقاء الضوء على الظروف السياسية التى أحاطت بتطور السكة الأفريقية والأندلسية منذ فجر الاسلام والواقع أن غموضاً كبيراً يحيط بنقود هذه الأقاليم العربية وخاصة في تلك الفترة التى امتدت منذ عهد عمرو ابن العاص وفجوحه في برقة وطرابلس^(١) إلى عهد موسى بن نصير . إذ لم يكن لدى العرب فرصة لتدعيم مركزهم السياسى بله الاقتصادى في هذه البلاد الأفريقية والأندلسية فترك الخلفاء لوالى أفريقيا حرية التصرف في إصدار السكة على الطراز المحلى حتى أصبحت نقود المغرب العربى لها شخصية مستقلة عن نقود المشرق^(٢) . ومن الثابت أن ولاية أفريقيا والأندلس سمحوا بتداول نفس السكة البيزنطية ذات الكتابات اللاتينية والشارات المسيحية أول الأمر ثم اتبعوا بعد ذلك خطوات إصلاحية تدريجية منذ عهد موسى بن نصير فضرب النقود على الطراز البيزنطى اللاتينى السائد^(٣) وسجل عليها نصوباً بحروف لاتينية مقتضبه أثار كثيراً من

(١) بعد الانتهاء من فتح عمرو للاسكندرية « وجه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة ففتحها ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها » انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ وكذلك يذكر ابن أبي دينار القيروانى : المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس ج ١ ص ٢٢ و ص ٢٣ ما يؤيد هذه الحقائق « ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والاسكندرية بث عقبة بن نافع إلى برقة وزويلة وما جاورها من البلاد فصارت تحت ذمة الاسلام وسار عمرو بن العاص ففزا طرابلس » .

(٢) J. Walker : Catalogue of Muhammadan Coins (London 1956) p. 1, (٢)

Lavob : Catalogue des Monnaies Musulmanes. vol. I., p. XXXVIII

(٣) لم تعرف روما بغير اللغة اللاتينية في شمال أفريقيا وليس من شك في أنه منذ القرن الخامس الميلادى كانت اللغة اللاتينية تضرب جنوبها بمقت في التربة الافريقية انظر : دكتور ابراهيم على طرخان : شمال أفريقيا والوندال . المجلة التاريخية المصرية م ١١ - ١٩٦٣ ص ٨٣

المناقشات بين علماء النيات حين تفسيرها ، وقد استطاع الدكتور A. Guillou حضرها في تسع وثلاثين عبارة ^(١) منها ستة تشير إلى الولاية التي ضرب فيها النقد واثنان تنصان على أن السكة ضربت « بقوة الله » وثلاثة تثبت أنها سكة ضربت على يدى موسى بن نصير وأخيراً ثمانية وعشرون نصاً دينياً صريحاً ولكن من الملاحظ مبدئياً أن معظم الحروف اللاتينية سجلها النقاش ساكنة مجردة من الحركة كما أنه لا توجد قاعدة عامة لاختيار الحروف المختصرة التي ترمز إلى الكلمة المراد إثباتها على السكة ، إلى جانب أن بعض الحروف كانت تسجل مقلوبة لاسياً السين ، أما الدال واللام فكثيراً ما كانت تصطبغ بمسحة يونانية حقيقية وهكذا أصبح كل حرف تقريباً من حروف السكة العربية اللاتينية بمثابة لغز يحتاج إلى حل ، وتزداد المشكلة تعقيداً إذا عرفنا أن كثيراً من النقود الأفريقية والأسبانية في عصر الانتقال غير متنوعة المعادن النفسية بل هي فاصرة على الذهب أو النحاس أى هي من الفلوس والدنانير فقط التي لا تحمل تاريخ السك غالباً كما أن الحروف اللاتينية لم تنقش على القوالب الأصلية بيد نقاش ماهر أو خبير باللغة اللاتينية تماماً ، فظهرت على هامش النقود المضروبة هذه القوالب حروف لاتينية محورة أو ناقصة أو مطبوسة بل وكثيراً ما يكون الهامش متأكلاً في أجزاء متفرقة منه وحتى القطع التي سجل تاريخها نجد الأرقام فيها متباعدة بشكل يترك مجالاً لتفسيرات متعددة .

وفيما يتعلق بدور السك التي ضربت فيها النقود الأفريقية والأسبانية في عصر الانتقال من الطراز اللاتيني إلى الطراز العربي الخالص فانه مما لا شك فيه أن النقود الأفريقية ضربت في بلاد متعددة كما ضربت في القيروان العاصمة ، بينما كانت السكة الأندلسية تضرب في أشبيلية وطليطلة واستمرت حتى تم تعريبها فضربت في قرطبة العاصمة وكان يشار إلى دار السك على وجه النقد بحروف مختصرة فيذكر مثلاً TRPL (طرابلس) أو AFRK أو AFRC (أفريقيا) أو SPAN للتعبير عن (أسبانيا) أو Tanja ^(٢) وأحياناً يسجل اسم الوالي موسى بن نصير باللاتينية على ظهر القطعة هكذا SIR [VSE Filius NV] مصحوباً بلقبه « أمير أفريقيا »

A. Guillou: Trois Monnaies Latino-Arabs des la Collection de Jacques Morgan (١)

مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ ص ٦٢ - ٧٠ .

J. Walker : A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umayyad (٢)

Coins (London 1956) p. xlviii nos. 159 p. 46., P. 47, Mad. 1., pp. 59, 76, 77, 78.

AMIR A [fricac] ^(١) أى أن لفظ (أمير) في العربية سجل كما هو باللاتينية ونحن نعلم أن هذا اللفظ العربي سجل مترجماً إلى القهلولية على بعض الدرامم العربية الساسانية في إيران ^(٢) كما ورد اللفظ كذلك مترجماً إلى اليونانية كما هو AMIP على أوراق البردى بمصر منذ فجر الاسلام ^(٣) .

والخلاصة أن السكة الأفريقية والأسبانية التي وصلت إلينا من عصر الانتقال لم تخضع للتعديلات النقدية الصادرة من العاصمة المركزية « دمشق » وترك اللوالى Epaurci حرية التصرف في ضرب مثل هذه السكة الإقليمية .

ولذلك أخذت السكة المغربية والأسبانية طابعاً خاصاً أساسه الطراز الرومانى البيزنطى ذو الحروف اللاتينية التى استمرت حتى سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ / ٧٢١ م) على الأقل حين ظهر أول دينار عربى خالص ضرب إفريقية ^(٤) وقد انبرى كثير من العلماء لحل رموز هذه الحروف اللاتينية التى وردت على السكة الأفريقية والأسبانية قبل تعريبها وكان أسبقهم فى هذه الجهود D. Sauley و Karabacek ، Longpérier و Müller و Lavoix ^(٥) ثم جاءت جهود الدكتور walker فى ختام هذه المحاولات سنة ١٩٥٦ ^(٦) لتضع حداً واضحاً للخلافات المتعددة فى قراءة الكتابات اللاتينية على السكة الاسلامية وفى ضوء القطع التى نشرها والكشوف الاحصائية التى أوردها يمكن أن نستنتج الحقائق الآتية عن السكة الافريقية ^(٧) .

Ibid : no. 161. p. 60. (١)

J. Walker : Catalogue of Muhammadden coins (Arab-Sassanian) no. 37, p.27. (٢)

A. Grohmann : Arabic Papyri vol. I p. 9 (٣)

J. Walker : Catalogue of Muhammadan Coins (Post-Reform) no. * p. 99. (٤)

(٥) لتتبع كل هذه الجهود أنظر :

—Lettres à M. Roinaud sur quelques points de la Numismatique Arabe (Journal Asiatiques 1839-1840)

Longpérier : Documents numismatique pour servir à l'histoire des Arabes d'Espagne. (Paris 1851)

—H. Lavoix : (1) Catalogue des Monnaies Musulmanes.

Vol. I, (Khalifés Orientaux) pp. XXXIX ff. nos. 96-136

: (2) Memoire sur les dinars à légendes latines (Revue Archéologique, 8e année)

—Müller : Numismatique de l'Ancienne Afrique (Copenhagen 1862).

—Numismatische Zeitschrift T., II, p. 455 (Vienne 1870).

—J.Walker:Catalogue of Muhammadan Coins(Post-Reform)(London 1956) p. li (٦)

وقد نشر الدكتور ميلز Miles جزئين عن السكة الأسبانية إلا أنه لم يتعرض لسكة أسبانية فى عصر الانتقال انظاراً لجهود الدكتور وولكر التى علم بها

Ibid., pp. xxvix—li (٧)

(١) أقدم الدنانير الذهبية العربية اللاتينية بصورة الامبراطور النصفية ترجع إلى ما قبل سنة ٨٥ هـ .

(٢) أقدم الفلوس النحاسية العربية اللاتينية التي تزينها صورة الامبراطور النصفية وعليها اسم موسى تنحصر فيما بين سنة ٨٠ هـ وسنة ٨٥ هـ وبعضها ضرب طرابلس .

(٣) الفلوس العربية اللاتينية بصورة الامبراطور النصفية وتحمل اسم «النعمان» (حسان بن النعمان) وعليها نصوص عربية ترجع إلى سنة ٨٠ هـ .

(٤) الفلوس التي تزينها رأس الامبراطور ونصوصها عربية لاتينية من ضرب طنجة ترجع إلى سنة ٩٢ هـ ؟ وهذا النوع نادر جدا ويوجد منه ثلاث قطع في المكتبة الأهلية بباريس وهي مؤرخة كما توجد واحدة في كونهاجن .

(٥) الدنانير العربية اللاتينية الغير مصورة وتحمل التاريخ بالاندقيون (١) أو بدونه تنحصر فيما بين ٨٥ و ٩٥ هـ

(٦) الدنانير العربية بعد إصلاح عبد الملك للنفود في الشرق تظهر في إفريقية منذ سنة ١٠٢ هـ .

أما عن السكة الأندلسية العربية اللاتينية فهي عبارة عن :

(١) مجموعة من الدنانير الغير مصورة وتاريخها بالاندقيون أو بدونه ضرب السنوات ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ هـ ؟ من عهد موسى بن نصير الذي فتح أسبانيا وتولى الحكم فيها من ٩٣ إلى ٩٥ هـ

(٢) مجموعة من الدنانير ضربت في عهد الوالي الحر بن عبد الرحمن الذي حكم أسبانيا في نهاية سنة ٩٨ هـ والتاريخ ومكان الضرب بالعربية (٢)

(٣) مجموعة من الدنانير بكتابات عربية فقط ضربت بعد التعريب ابتداء من سنة ١٠٢ هـ ومجموعة من الدراهم المعربة ابتداء من ١٠٤ هـ ومجموعة ثالثة من الفلوس ابتداء من ١٠٨ هـ أو قبلها (٣) .

(١) الأندقيون Indiction عبارة عن دورة سنوية مقدارها خمس عشرة سنة وتسمى «الأندقتس» من الوثائق العربية التي كتبت في جزيرة صقلية . انظر أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية السفر الأول ص ٢٣

(٢) J. Walker : op. cit. p. 79 no. c 17.

(٣) Ibid., p. xlvii, nos. HSA. 10 p. 101., 289 p. 119, 759 p. 233

أما عن الحروف اللاتينية التي وردت على السكة الافريقية والأسبانية في عصر الانتقال فقد كان الأستاذ لافوا Lavoix أ كثر توفيقا في تفسيرها وحل رموزها وتتلخص هذه الجلول في تقسيمها إلى مجموعات ثلاث سنذكر في كل مجموعة الحروف كما وردت على السكة ثم نأتى بتفسيرها مع وضع الحروف المضافة بين قوسين مربعين :

أولا :

INNDNIMISRCVSDS

IN N[omine] D [omi]NI MIS[e] R[i]C[ordis] V[nu]S D[eu]S

وهي تعنى بالعربية : بسم الله الرحمن الرحيم

ثانيا :

NNESDSNISISDSCVINSA

N [o]N ES[t] D[eu]S NISI S[ohus] D[eu]S CVI N[on]
S[ocius] A[tius]

وهي تعنى بالعربية : ولم يكن له كفوا أحد

ثالثاً :

NNESDSNISIVNSCVNNDALISIMILS

N[o]N ES[t] D[eu]S NISI VN[u]S CV[i] N[o]N
D[eu]S ALI[us] SIMIL[i]S

وهي تعنى بالعربية :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

ومن الملاحظ على هذه العبارات اللاتينية أنها عبارة عن العبارات الدينية التي سجلت على السكة الأموية في المشرق منذ تعريبها سنة ٧٧ هـ وهي عبارات تتفق والعقيدة الاسلامية ، غير أن السكة الافريقية والأسبانية في عصر الانتقال اقتصرت على تسجيل شهادة التوحيد والبسملة ولم تسجل ما يشير إلى الرسالة المحمدية بالحروف اللاتينية ، وقد بدأ تسجيل مثل هذه العبارات الاسلامية باللاتينية منذ أن

فتح حسان بن النعمان قرطاجنة للمرة الثانية سنة ٧٩ هـ أو على الأكثر سنة ٨٤ هـ بعد القضاء على ثورة الكاهنة^(١).

أما السكة البرونزية من الطراز العربى اللاتينى فقد ورد على كثير منها اسم موسى بن نصير ومكان ضربها « طرابلس » مسجل باللاتينية وبعضها لا يحمل اسم مكان الضرب^(٢).

ونجد على نقود الأندلس المبكرة نفس الطراز العربى اللاتينى الذى سبق أن أشرت إليه فى السكة الأفريقية كما نقش عليها الصليب المحور على هيئة حرف T ويقوم على ثلاثة مدرجات أو أربعة وعلى الوجه الثانى نجد الكتابات اللاتينية^(٣) التى تعنى

IN N[omine] D[omin]i N[o]N D[eu]S N[i]S[i] D[eu]S
S[o] L[u]S N[on] D[eu]S A[lius]

بسم الله لا إله إلا الله وحده

كما سجل اسم مكان السك باللاتينية على الظهر كالتى :

H[ic] S[o] L[i] D[us] F[e]R[i] T[us] IN SP[a]N[ia]

ضرب هذا الدينر بأشبانيا

أما التاريخ على الدنانير الأندلسية العربية اللاتينية وأجزائها فكان يحسب على أساس الاندقتيون وقد وصلت إلينا بعض القطع التى سجل عليها الأندقتيون العاشر وهو يعنى سنة ٩٣ هـ والمادى عشر وهو سنة ٩٤ هـ^(٤) وإلى جانب ذلك وصلت إلينا بعض القطع الذهبية العربية اللاتينية وقد سجل عليها التاريخ الهجرى بالكتابة الكوفية منذ سنة ٩٨ هـ إلى جانب دار السك (الأندلس)^(٥).

(١) وقد وردت معظم هذه المباراة اللاتينية على القطعة رقم 40 P. بالمكتبة الأهلية ببغداد

J. Walker : op. cit. p. 72., Lavoix : op. cit., pp. XXXIX, XL.

J. Walker : op. cit., pp. 59-61. nos. 159, 160 P. 24., P. 25, P. 26, Ans 11, 161, (٢)

162, P. 27, 163, Cod. 1.

Ibid., pp. 74-80.

(٣)

J. Walker : op. cit. p. 74.

(٤)

وليست هذه الأمثلة على سبيل الإحصاء بل وردت قطع أخرى مؤرخة بالاندقتيون ١٢ مثلا أنظر :

Ibid., P. 75.

Ibid., pp. 79, 80.

(٥)

وقد أشار Longpérier إلى فلوس أندلسية من ضرب سنة ٩٨ هـ كما أشار تيزنهورن Tiesenhausen إلى فلسين ضرب طنجة سنة ٩٩ هـ وستة ١٠٠ هـ وفي هذه السنة الأخيرة يمكن القول بأن السكة الأندلسية قد اتجهت إلى التعريب الكامل شأنها في ذلك شأن السكة الإفريقية^(١) وإن كان أول الدنانير الأسبانية المعربة في الواقع ترجع إلى سنة ١٠٢ هـ غير أن مثل هذه القطع العربية المتفاوتة التاريخ تؤكد لنا وجود فجوة في تاريخ النميات الأسبانية فيما بين ٩٥ هـ و ٩٨ هـ وهي الفترة التي حكم فيها ولاية من أسرة موسى بن نصير كما توجد فجوة أخرى فيما بين ٩٨ هـ حين ضرب آخر دينار عربي على الطراز اللاتيني وسنة ١٠٢ هـ حين ضرب أول دينار على الطراز العربي الخالص^(٢) وتبعه بعد عامين أي سنة ١٠٤ هـ ظهور أول درهم أندلسي معرب^(٣) وبعد ذلك التاريخ ظهرت سكة عربية ضرب الأندلس في عهد الولاية بشكل متقطع حتى سنة ١٣٨ هـ حين نجح عبد الرحمن بن معاوية الأموي في القرار من طغيان العباسيين بالشرق وتنكيلهم بالامويين ودخول الأندلس في ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٤ مايو سنة ٧٥٦ م) وأسس الدولة الأموية^(٤).

ولكن ليس معنى ذلك أن الدنانير استمر ضربها من سنة ١٠٢ هـ على التوالي فالواقع أن هذا النوع من السكة كان قد توقف ضربه سنة ١٠٦ هـ ولم يظهر بعد ذلك إلا في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) (٩١٢ — ٩٦١ م) بينما الدراهم الأندلسية في عهد الدولة الأموية بدأت سنة ١٤٦ هـ على نسق الدراهم الأموية المعربة منذ عهد عبد الملك بن مروان لذلك أصبح من الصعب التمييز بين دراهم كل حاكم أموي أندلسي على حدة من بين هذه المجموعات من الدراهم المتشابهة في نصوصها.

وعلى يدى عبد الرحمن الثالث بدأ عهد جديد في تاريخ السكة الأندلسية يمكن أن نسميه بعهد سكة الخلافة وهو يبدأ من ضرب سنة ٣١٦ هـ حتى سنة ٤٠٦ هـ

Lavoix : op. cit., pp. XLII, XLIV

(١)

Walker : op cit. p. li., Miles : The Coinage of the Umayyads of Spain (N. Y. (٢) 1950) p. 115, no. 2.

Miles : op. cit., no. b., p. 117.

(٣)

G. C. Miles : op. cit., p. 22, 23 ، ص ٦٩٠ ، ٦٨٦ ، فجر الأندلس ص ١٨٦

(٤)

وقد أشار كثير من المؤرخين إلى جهود عبد الرحمن الناصر في ضبط عيار السكة وأوزانها في دار السك الجديدة التي أقامها في قرطبة سنة ٣١٦ هـ :

« وفيها (أي سنة ٣١٦ هـ) أمر الناصر بأقامة دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدينار والدراهم وولى الخطة أحمد بن موسى بن جدير [حدير] يوم الثلاثاء ثلث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان وأتم الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة وصحح في ذلك أحمد بن موسى وتحفظ وكانت مثاقيله ودراهمه عياراً محضاً » (١) .

وإلى عهد الولاة وعهد الخلافة الأموية بالأندلس ترجع معظم المجموعة من النقود التي قدمها مشكوراً العالم الجليل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب (باشا) . إلى متحف الفن الاسلامي في ٤ مارس سنة ١٩٣٥ منذ أن كان حاكماً للوطن القبلي بنابل بتونس وقد تمت على دراسة هذه المجموعة حالياً بقسم المسكوكات بالمتحف الاسلامي بالقاهرة وهي عبارة عن ٦٦ ست وستين قطعة من الدراهم الفضة الأندلسية في عهد الخلافة الأموية بالأندلس ودراهم أفريقية كذلك من عهد الموحيدين فضلاً عن ثلاثة فلوس نحاسية إفريقية وأندلسية وفلس واحد ضرب دمشق وهذه المجموعة في الواقع هي أبرز المجموعات الأندلسية والإفريقية بمتحف الفن الاسلامي وأهمها وقد تمت بفحص كل قطعة فيها على حدة بمبحث أمكن في النهاية ترتيبها على الوجه التالي من حيث يان رقم سجل كل قطعة ونوعها ومقاس قطرها ومقدار وزنها وتوضيح كتاباتها من الوجهين راجياً أن تلي هذه المجموعة ضوءاً كبيراً على نقود المغرب والأندلس في فترات تاريخية هامة من حياة الأقليمين في العصر الاسلامي .

(١) انظر المقرئ : نفع الطيب في غصن الأندلس للطيب (طبعة دوزي) ج ٢ ص ٤٢٤ وانظر ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب (نشر دوزي) ج ٢ ص ٢١١ وانظر G. C. Miles : op. cit. pp. 40, 41. وانظر :

Sauvage : Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes (Paris 1882, pp. 327, 328).

عدد	
٦٣	دراهم فضية أندلسية برقم سجل ١٢٩١٥
٢	دراهم فضية من عهد الموحدين وهي مربعة برقم ١٢٩١٦/١ و ١٢٩١٦/٢
١	درهم فضية برقم سجل ١٢٩١٧/٥
٣	فلوس نحاس إفريقية وأندلسية برقم ١٢٩١٧/٢ - ١٢٩١٧/٤
٦٩	تسعة وستون قطعة عملها يضاف إليها فلس نحاس ضرب دمشق
	لا نذكره هنا .



سلسلہ	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظہر
۱	۱۲۹۱۵/۱	فضة	۲۶۹۱۰	۲۷	<p>مرکزہ:</p> <p>لا إله إلا الله وحده لا شريك له</p> <p>ہامش:</p> <p>بسم الله ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة خمس ومئة</p>	<p>مرکزہ:</p> <p>الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يكن له كفواً أحد</p> <p>ہامش:</p> <p>محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون</p> <p>(تقطعة فوق حرف الدال في كلمة الصمد) من كتابات الهامش [الوحدة ۷]</p>
۲	۱۲۹۱۵/۲	فضة	۲۰۹۵۰	۲۸	<p>مرکزہ:</p> <p>مثل رقم ۱</p>	<p>مرکزہ:</p> <p>مثل رقم ۱</p>

هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٧]	٥١١٥	هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع عشرة ومئة	٢٦٩١٠	فضة	١٢٩١٥/٣	٣
مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٧]	٥١١٦	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة خمس عشرة ومئة	٢٣	فضة		
مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١	٢٥	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم سنة ست عشرة ومئة	٢٦٩٠٠ ٢٦٩٠٠ ٢٦٩١٠	فضة فضة فضة	١٢٩١٥/٤ ١٢٩١٥/٥ ١٢٩١٥/٦	٤ ٥ ٦
ولكن توجد نقطة فوق حرف الواو من كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز. [لوحة ٧]						

سجل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٧	١٢٩١٥/٧	فضية	٢,٩٢٠	٢٩	<p>مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]</p> <p>١١٧ هـ</p>	<p>مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]</p>
٨	١٢٩١٥/٨	فضية	٢,٩٠٠	٢٨	<p>مركز : مثل رقم ٧</p> <p>١١٧ هـ</p>	<p>مركز : مثل رقم ٧</p> <p>١١٧ هـ</p>

مركز وهامش
مثل رقم ٧
ولكن توجد نقطة فوق حرف
الراء من كلمة (ولم) بالسطر الثالث
من كتابات المركز والحروف عامة
في ظهر هذا الدرهم غير متقوية
بدقة على الغالب الاصل الذي ضرب
به الدرهم .
[لوحة ٨]

١٨ هـ	مركز :	مثل رقم ١	هامش :	مثل رقم ١	مركز :	مثل رقم ١
٢٨	٢:٨٥٠	فضة	١٢٩١٥/٩	٩	مركز وهامش :	مثل رقم ١
٢٨	٢:٨٥٠	فضة	١٢٩١٥/١٠	١٠	مركز وهامش :	مثل رقم ١
٢٨	٢:٨٥٠	فضة	١٢٩١٥/١١	١١	مركز وهامش :	مثل رقم ١
٢٧	٢:٩٢٠	فضة	١٢٩١٥/١٢	١٢	مركز وهامش :	مثل رقم ١

سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
١٣	فضة	٢٩٢٠	٢٨	هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة تسع عشرة ومئة توجد. نقطة فوق حرف الواو من كلمة (وحده) بالسطر الثالث من كتابات المركز .	هامش : مثل رقم ١ [لوحة ٨]
١٤	فضة	٢٩٣٠	٢٧	مثل رقم ١٢ مثل رقم ١٢	مثل رقم ١٢ مثل رقم ١٢ [لوحة ٩]
١٥	فضة	٢٨٧٠	٢٧	مركز : مثل رقم ١ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومئة . وهذا الدرهم مكسور من دائره جزء	مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ قطة كبيرة فوق حرف الواو في كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركز . [لوحة ٩]

مثل رقم ١٥ [لوحه ٩]	٢١	٢٠٩٠٠	قصة	١٢٩١٥/١٦	١٦
هـ ١٦١					
مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ [لوحه ٩]	٢٩	٢٠٥٧٠	قصة	١٢٩١٥/١٨	١٧
هـ ١٦٥					
مركز : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١ بين كتابات السطر الثاني والثالث من المركز توجد كلمة (غ) [لوحه ٩]	٢٦	٢٣٣٠	قصة	١٢٩١٥/١٩	١٨
هـ ١٦٦					
مركز : مثل رقم ١	٢٨	٢٠٤٣٠	قصة	١٢٩١٥/٢٠	١٩

سلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٢٠	١٢٩١٥/١٧	فضة	٧:٧٢٠	٢٨	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة ست وستين ومئة .</p> <p>هـ ١٢٨</p> <p>مركز : مثل رقم ١</p> <p>هامش : مثل رقم ١</p>	<p>هامش : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]</p>
٢١	١٢٩١٥/٢١	فضة	٧:٧٢٠	٢٩	<p>مركز : مثل رقم ١</p> <p>هامش : مثل رقم ١</p>	<p>مركز : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]</p>
					<p>هـ ١٩٥</p> <p>مركز : مثل رقم ١</p> <p>هامش : مثل رقم ١</p>	<p>مركز : مثل رقم ١ [لوحة ١٠]</p>

بسم الله ضرب هذا الدرهم
بالأندلس سنة ست وستين ومئة .

مرکز و هامش : مثل رقم ۱ [لوحه ۱۰]	مرکز و هامش : مثل رقم ۱ هذا الدرهم مقصود من دائره اجزاء	۲۴	۲,۰۷۰	فضیه	۱۲۹/۱۵/۲۲	۲۲
مرکز : مثل رقم ۱ هامش : مثل رقم ۱ توجد نقطة فوق حرف الواو في كلمة (و) بالسطر الثالث من كتابات المركز [لوحه ۱۰]	مرکز : مثل رقم ۱ هامش : مثل رقم ۱ بسم الله ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ثمان وتسعين ومئة .	۲۵	۲,۴۵۰	فضیه	۱۲۹/۱۵/۲۳	۲۳
مرکز : مثل رقم ۲۳ [لوحه ۱۰]	مرکز : مثل رقم ۲۳	۲۹	۲,۵۲۰	فضیه	۱۲۹/۱۵/۲۴	۲۴
مرکز : مثل رقم ۱ هامش : مثل رقم ۱ [لوحه ۱۰]	مرکز : مثل رقم ۱ هامش : مثل رقم ۱ بسم الله ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ثمان وتسعين ومائتين	۲۵	۲,۳۲۰	فضیه	۱۲۹/۱۵/۲۹	۲۵

سجل	سجل	نوع	وزن	قطر	رجة	ظفر
٢٦	١٢٩١٥/٢٥	فضية	٢٦,٣٠٠	٢٤	<p>مركزو : مثل رقم ١ هامش : (غير عدد بدائرة تفصله عن المركز) بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة تسع وعشرين ومائتين توجد دائرة صغيرة فوق حرف الكاف في كلمة (لا شريك) بالسطر الثالث من كتابات المركز.</p>	<p>٢٢٩ هـ مركزو : مثل رقم ١ هامش : نقطة فوق حرف الواو في كلمة (ولم) بالسطر الثالث من كتابات المركزو.</p>
٢٧	١٢٩١٥/٢٦	فضية	٢٦,٠٧٠	٢٦	<p>مركزو : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١٢٩١٥/١ معلم كتابات المأمش محوه . [لوحة ١١]</p>	<p>٢٣٩ هـ مركزو : مثل رقم ١ هامش : مثل رقم ١٢٩١٥/١ معلم كتابات المأمش محوه . [لوحة ١١]</p>

مثل رقم ٣٤	٢٢	٢,٥٩٠	فضة	١٢٩١٥/٣٣	٣٥
مثل رقم ٣٤	٢٣	٢,٢١٠	فضة	١٢٩١٥/٣٤	٣٦
مثل رقم ٣٤	٢٤	٢,٤٣٠	فضة	١٢٩١٥/٣٥	٣٧
[لوحة ١٢ و ١٣]					
٥ ٣٣٣٣					
ص كز :	٢٣	٧,٠٤٠	فضة	١٢٩١٥/٣٦	٣٨
* الإمام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمر المؤمنين					
هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة ثلث وثلثين وثلثمائة مكسور من دائره اجزاء مثل رقم ٣٨	٢٤	٢,٧٥٠	فضة	١٢٩١٥/٣٧	٣٩

سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهور
٤٠	فضة	٣,١٢٠	٢٤	<p>مركز : مثل رقم ٣٨ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع وثلثين وثلاثمائة.</p>	<p>٣٣٤ هـ مركز : مثل رقم ٣٨ هامش : [لوحة ١٣]</p>
٤١	فضة	٧,٣٥٠	٢٤	<p>مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له عبد الله</p>	<p>٣٣٩ هـ مركز وهامش : مثل رقم ٣٨</p>
٤٢	فضة	٢,٤٤٠	٢٣	<p>مركز : مثل رقم ١</p>	<p>[لوحة ١٣] ٣٣٩ هـ مركز : الإمام هشام</p>

ظہر	وجہ	قطر	وزن	نوع	سجل	سلسل
<p>۳۹۱ھ</p> <p>مرکز:</p> <p>الإمام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله عاص</p>	<p>مرکز:</p> <p>لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد</p>	۲۲	۳۲۵۰	فضة	۱۲۹۱۵/۹۰	۴۵
<p>هامش:</p> <p>محمد رسول الله . . . على الدين [لوحة ۱۴]</p> <p>۳۹۲ھ</p> <p>مرکز:</p> <p>الإمام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله</p>	<p>هامش:</p> <p>بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة</p> <p>مرکز:</p> <p>لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد</p>	۲۲	۳۲۰۰	فضة	۱۲۹۱۵/۵۲	۴۹

هَامِشٌ : محمد رسول الله على الدين	هَامِشٌ : بِسْمِ اللَّهِ ضَرْبَ هَذَا الدَّرْعِ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْمِينٍ وَتَلْثَايَةِ دَرْعٍ عَاقِلٍ فِي مَجْرَعِهِ بَرْلَيْنِ . انظر				
Heinrich Nitzel : op. cit., no. 369. p. 51 [لوحة ١٤]	هَامِشٌ : بِسْمِ اللَّهِ ضَرْبَ هَذَا الدَّرْعِ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْمِينٍ وَتَلْثَايَةِ دَرْعٍ عَاقِلٍ فِي مَجْرَعِهِ بَرْلَيْنِ . انظر	٣١	٧/٤١٠	لفظة	١٢٩١٥/٥٤
هَامِشٌ : محمد رسول الله على الدين [لوحة ١٤]	هَامِشٌ : بِسْمِ اللَّهِ ضَرْبَ هَذَا الدَّرْعِ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْمِينٍ وَتَلْثَايَةِ دَرْعٍ عَاقِلٍ فِي مَجْرَعِهِ بَرْلَيْنِ . انظر	٢٢	٣/٠٣٠	لفظة	١٢٩١٥/٥٥
هَامِشٌ : محمد رسول الله على الدين [لوحة ١٤]	هَامِشٌ : بِسْمِ اللَّهِ ضَرْبَ هَذَا الدَّرْعِ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْمِينٍ وَتَلْثَايَةِ دَرْعٍ عَاقِلٍ فِي مَجْرَعِهِ بَرْلَيْنِ . انظر	٢٢	٣/٠٣٠	لفظة	١٢٩١٥/٥٥
هَامِشٌ : محمد رسول الله على الدين [لوحة ١٤]	هَامِشٌ : بِسْمِ اللَّهِ ضَرْبَ هَذَا الدَّرْعِ بِالْأَنْدَلُسِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْمِينٍ وَتَلْثَايَةِ دَرْعٍ عَاقِلٍ فِي مَجْرَعِهِ بَرْلَيْنِ . انظر	٢٢	٣/٠٣٠	لفظة	١٢٩١٥/٥٥

سلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٤٩	١٢٩١٥/٥٦	فضة	٣,٥٠٠	٢٢	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع وتسعين وثلاثمائة مثل رقم ٤٨ هذا الدرهم رقم ٤٩ مكتوب من مركزه يثبت كغيره [لوحة ١٥]</p>	<p>هامش : عبد رسول الله . . . على الله [بن كله] [لوحة ١٤] مثل رقم ٤٨ [لوحة ١٥]</p>
٥٠	١٢٩١٥/٥٣	فضة	٣,٢٥٠	٢٢	<p>مرکز : مثل رقم ٤٧ هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة X وتسعين وثلاثمائة درام [لوحة ١٥]</p>	<p>مرکز : مثل رقم ٤٧ هامش : عبد رسول الله . . . يظهره على [لوحة ١٥]</p>
٥١	١٢٩١٥/٥٧	فضة	٣,٨٥٠	٢٣	<p>مرکز : مثل رقم ١ ولكن تعلق شهادة التوحيد بخمس حبات في سطر واحد ٥٠٠٠٠٠</p>	<p>مرکز : الامام همام أمير المؤمنين المؤيد بالله</p>

<p>هامش : محمد رسول الله ليظهره</p>	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالأندلس سنة أربع مائة هذا الدرهم متقوب عند كتابه</p>				
<p>مرکز : [لوحه ٥] الإمام محمد أمير المؤمنين المهدي</p>	<p>مرکز : ٥ ٥ ٥ لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد</p>	٢٣	٣٠٦٣٠	فضة	١٢٩١٥/٥٩
<p>هامش : محمد رسول الله الدين كله [لوحه ١٥]</p>	<p>هامش : مثل رقم ٥١</p>				
<p>مرکز : ٤٠١ هـ الإمام هشام أمير المؤمنين الوحيد بالله</p>	<p>مرکز : سعيد لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبو يوسف</p>	٢٣	٣٠٦٢٠	فضة	١٢٩١٥/٥٨
					٥٣

سجل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٥٤	١٣٩١٥/٤٠	فضية	٢٠,٦٧٠	٢٣	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة احدى وأربع مائة درهم عاتق في برلين . انظر. 58. p. 404. no. cit. Hoinrich Niltzel</p> <p>مدينة الزهراء</p>	<p>هامش : محمد رسول الله يظهره [لوحة ١٥]</p>
٥٤	١٣٩١٥/٤٠	فضية	٢٠,٦٧٠	٢٣	<p>مركز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد</p>	<p>الإمام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين</p>
٥٥	١٣٩١٥/٤٢	فضية	٢٣,٣٩٠	٢٢	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهراء سنة تسع وثلثين وثلاثمائة مركز :</p>	<p>هامش : محمد رسول الله الشكر كون [لوحة ١٥] مركز : الإمام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين</p>

سلسل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٥٩	١٢٩١٥/٤٥	فضة	٢,٨٥٠	٢٣	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهران سنة ثمان وأربعين وثلثمائة مثل رقم ٥٨</p>	<p>هامش : مثل رقم ٥٥ [لوحة ١٦] مثل رقم ٥٨ [لوحة ١٦]</p>
٦٠	١٢٩١٥/٤٧	فضة	٢,٧٧٠	٢٥	<p>مركز : مثل رقم ٥٥ ولكن يعلو كتابة المركز زخرفة وفي أسفلها زخرفة</p>	<p>مركز : عبد الإمام الحکم أُمير المؤمنين المستقر بالله الرحمن</p>
٦١	١٢٩١٥/٤٦	فضة	٢,٢٧٠	٢١	<p>هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة الزهران سنة إحدى وخمسين وثلثمائة</p>	<p>هامش : عبد رسول الشريكون [لوحة ١٦]</p>
					<p>مركز : مثل رقم ٦٠</p>	<p>مركز : مثل رقم ٦٠</p>

مثل رقم ٩٠

هامش :

نسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة
الزهراء سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة
هذا الدرهم منقوب في موضعين
كان مستعملا كدلالة للزينة .

[لوحة ١٧]

مدينة فارس

٣٩٢ هـ

مركز :

الإمام هشام
أمير المؤمنين
الوحيد بالله
عاشي

لا اله الا
الله وحده
لا شريك له



هامش :

محمد رسول الله . . . على [الدين]

هامش :

[نسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة
فارس سنة اثنين وتسعين وثلثمائة]

Heinrich Nitzel : op. cit., no. 397. p. 55. درم عمالي في برلين انظر

[لوحة ١٧]

٢٤

٤,٤٥٠

فضة

١٢٩١٥/٤٨

٩٢

سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهر
٦٣	فضية	٣٣٤١٠	٢٢	<p>مرکز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له</p> <p>هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (سجل النقاش هذه الكناية بدلا من تاريخ الضرب ومكانه)</p>	<p>مرکز : الإمام همام أمير المؤمنين المؤيد بالله - عامر</p> <p>هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله [لوحة ١٧]</p>
٦٤	فضية	٢٠٩٧٠	٢٠	<p>مرکز : لا إله إلا الله وحده لا شريك له</p> <p>هامش : بسم الله ضرب هذا الد [رم]</p>	<p>مرکز : (غير واضح)</p> <p>هامش : ضرب بحالقه ٩ سنة [لوحة ١٧]</p>

سجل	سجل	نوع	وزن	قطر	وجه	ظهور
٦٨	١٢٩١٧/٣	نحاس	٤,٣٧٠	١٩	<p>ضرب طنجية</p> <p>بسم الله</p> <p>أمر به عمر</p> <p>بطنجية</p> <p>*</p> <p>[لوحة ١٨]</p>	
٦٩	١٢٩١٧/٤	نحاس	٣,٥٢٠	١٧	<p>قلس بسم « بلج »</p> <p>مركز :</p> <p>(داخل دائرة)</p> <p>بلج</p> <p>محمد</p> <p>رسول</p> <p>الله</p> <p>[لوحة ١٨]</p> <p>لا إله إلا الله</p> <p>تولى بلج الأندلس ابتداء من ذي القعدة سنة ١٢٣ هـ (يناير ٢٧٤١ م)</p> <p>إلى شوال ١٢٤ هـ (أغسطس ٢٧٤٢ م)</p> <p>أنظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦١٤</p>	

تم طبع هذه المجلة بمطبعة
بجامعة القاهرة في يوم الخميس
١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤
مدير المطبعة
على عاصم

١ مطبعة جامعة القاهرة ١١٥٠/١٩٦٢/٤٥٠

لوحة (١)



وجهي ختم من النحاس نشره Sorot سنة ١٨٥٤ وهو مؤرخ ٩٤ هـ

(من وولكر)

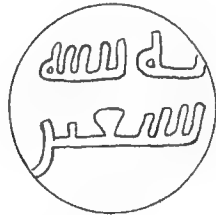


وجهي ختم من النحاس بمجموعة المتحف البريطاني وهو مؤرخ ٩٥ هـ

(من وولكر)



وجهي ختم من الرصاص بمجموعة متحف الفن الاسلامي وهو مؤرخ سنة ٩٠ هـ



رسم توضيحي لحروف وكتابات الختم بمجموعة المتحف الاسلامي

لوحة (٣)



وجهي فلس نحاس

(بمجموعة الكتب الأملية بباريس عن لافوا رقم ١٥٦٥)



وجهي دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادي الى الحق

(متحف الفن الاسلامي رقم ١٢٨١٧/١)



دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادي الى الحق

(متحف الفن الاسلامي رقم ١٢٨١٧/٢)



دينار ضرب صعدة سنة ٢٩٨ هـ باسم الامام الهادي الى الحق

(متحف الفن الاسلامي ٧٧٠٢)



وجهي دينار عبادي طولوني ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ
(مجموعة متحف الفن الإسلامي رقم سجل ١٦٨٩٥/٧)



رسم مكبر للدينار السابق وتظهر كلمة (تحرير) أسفل كتابات المركز



دينار عباسي طولوني ضرب مصر سنة ٢٥٨ هـ

بمجموعة منحف الفن الاسلامي رقم سجل ٢١٩١٩/١ وتظهر أسفل كتابة مركز الظهر كلمة (نحرير)



ظهر دينار عباسي طولوني وتبدو

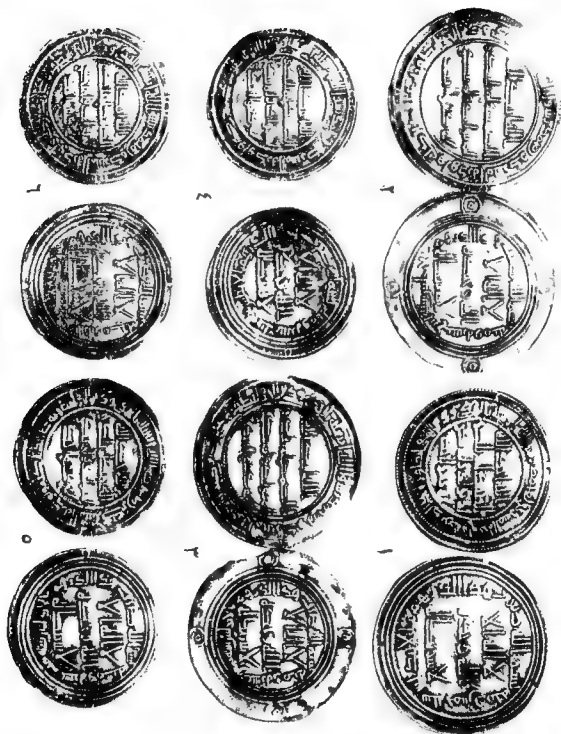
ظهر دينار عباسي طولوني وتبدو

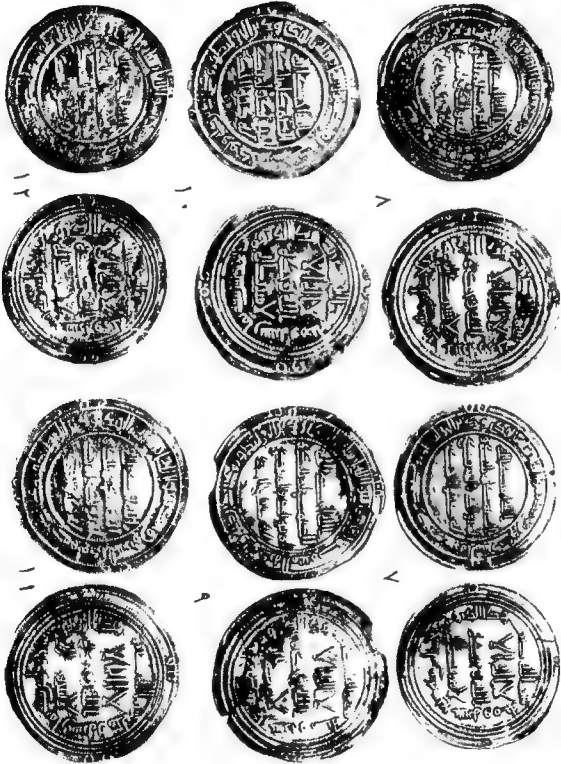
به كلمة (نحرير)

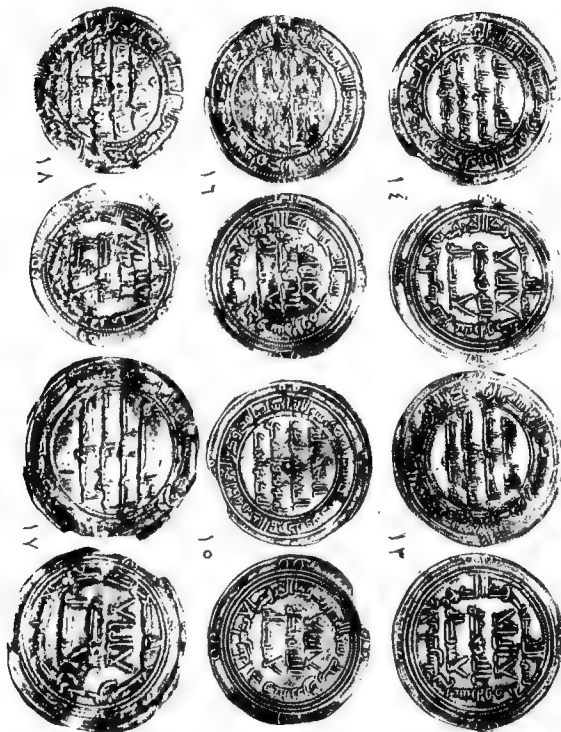
به كلمة (نحرير)

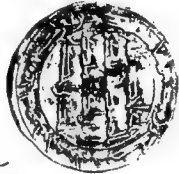
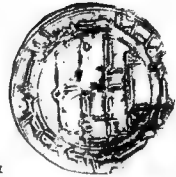
عن Grabar

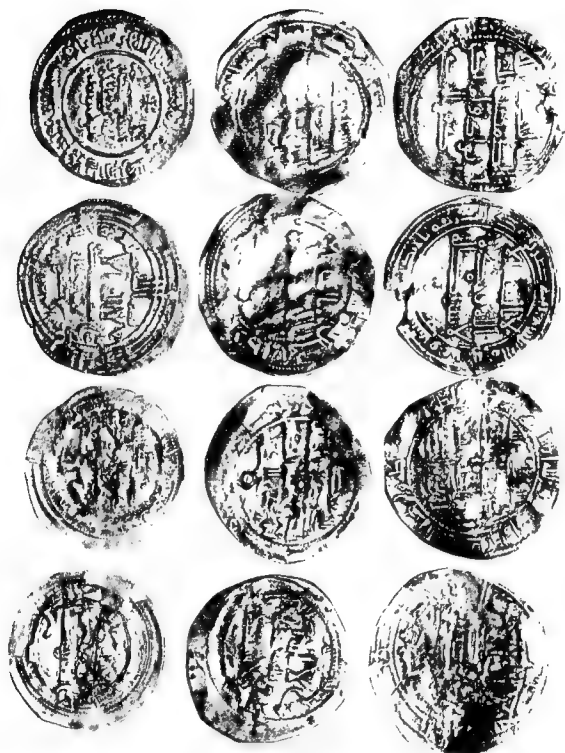
من Grabar













٢٤



٢٥



٢٦



٢٧

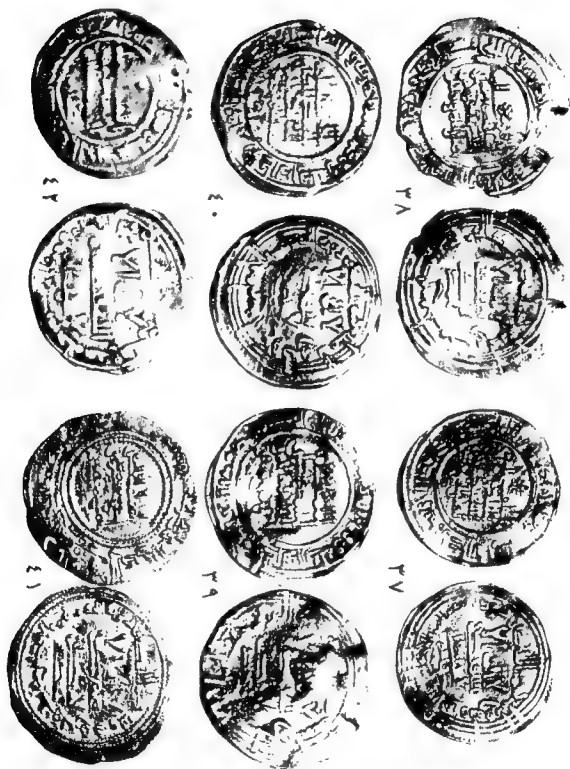


٢٨



٢٩

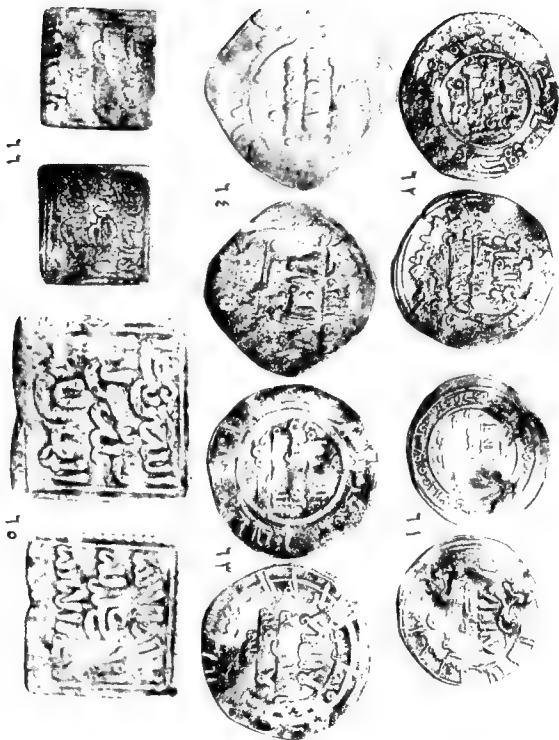














- Note 48* Γραμματικῶν περίεργα γένη, ῥιζώρουχα μούσης
 ἄλλοτρίης, ἀτυχεῖς σῆτες ἀκανθοβάται,
 τῶν μεγάλων κηλίδες, ἐπ' Ἡρίνῃ δὲ κομώντες,
 πικροὶ καὶ ξηροὶ Καλλιμάχου πρόκυες,
 ποιητῶν λῶβαι, παισὶ σκότος ἀρχομένοισιν.
 ἔρροιτ', εὐφώνων λαθοδόκναι κόριες.
- Note 53* Γραμματικοὶ Μώμου στυγίου τέκνα, σῆτες
 ἀκάνθων,
 τελχίνες βιβλων, Ζηνοδότου σκύλακες,
 Καλλιμάχου στρατιῶται, δν ὡς δπλον ἐκτανύσαντες,
 αὐδ' αὐτοῦ κείνου γλῶσσαν ἀποστρέφετε,
 συνδέσμων λυγρῶν θηρήτορες, οἷς τὸ "μῖν" ἢ "σφιν"
 εὐαδε, καὶ ζητεῖν εἰ κύνες εἴχε Κόκλωψ,
 τρίβοισθ' εἰς αἰῶνα κατατρώγοντες ἀλιτροὶ
 ἄλλων· ἐς δ' ἡμᾶς ἰὸν ἀποσβέσατε.

Note 22

ὁ Φθόνος Ἀπόλλωνος ἐπ' οὕατα λάθριος εἶπεν
«οὐκ ἄγαιμι τὸν αἰδὼν θς οὐδ' ὅσα πόντος ἀεῖδει».
τὸν Φθόνον ὠπόλλων ποδὶ τ' ἤλασεν ὠδὲ τ' εἶπεν.
«Ἀσσυρίου ποταμοῖο μέγας ῥόος, ἀλλὰ τὰ πολλὰ
λύματα γῆς καὶ πολλὸν ἐφ' ὕδατι συρφετόν ἔλκει.
Δηοὶ δ' οὐκ ἀπὸ παντὸς ὕδωρ φορέουσι Μέλισσαι,
ἀλλ' ἦτις καθαρὴ τε καὶ Ἀχράαντος ἀνέρπει
πίδακος ἕξ ἱερῆς ὀλίγη λιβάς ἄκρον ἄωτον.»

Note 26

Ἀκλειῆς δδε μάντις, θς οὐδ' ὅσα παῖδες ἴσασιν
οἶδε νόω φράσσασθαι, ὁθούνεκεν οὔτε τι λαρόν
οὔτ' ἐρατὸν κούρη κεν ἔπος προτιμυθῆσαιτο
ἡθέω, εἴτ' ἂν σφιν ἐπήλυδες ἄλλοι ἔπωνται.
ἔρροις, ᾧ κακόμεντις, κακοφραδές οὔτε σε Κύπρις,
οὔτ' ἀγανοὶ φιλέοντες ἐπιπνέουσιν Ἑρωτες.'

Note 30

Ἴβρις ἔστι δὲ ποίημα ἐπιτετηδευμένον εἰς ἀσάφειαν καὶ
λοιδοσίαν, εἷς τινα Ἴβιν, γινόμενον ἐχθρόν Καλλιμάχου,
ἣν δὲ οὕτως Ἀπολλώνιος ὀγράφας τὰ Ἀργοναυτικά.'

Note 35

ἐγκαλεῖ διὰ τούτων, τοὺς σκώπτοντας αὐτὸν μὴ θύνασθαι
ποιῆσαι μέγα ποίημα, ὅθεν ἠναγκάσθη ποιῆσαι τὴν
Ἑκάλην.

Note 42

Καλλιμάχου τὸ τορευτὸν ἔπος τόδε· δὴ γὰρ ἐπ' αὐτῷ
ὦνῃρ τοὺς Μουσέων πάντας ἔσεισε κάλους,
ἀεῖδει δ' Ἑκάλης τε φιλοξείνοιο καλὴν
καὶ Θησεῖ Μαιαθῶν οὐς ἐπέθηκε πόνους,
τοῦ σοὶ καὶ νεαρόν Χειρῶν σθένος εἴη ἀρέσθαι,
Μάρκελλε, κλεινοῦ τ' αἶνον ἴσον βίτου.

Note 45

τοὺς κυκλίους τούτους, τοὺς αὐτὰρ ἔπειτα λέγοντας,
μισῶ, λωποδύτας ἄλλοτρῶν ἐπέων.
οἱ δ' οὕτως τὸν Ὀμηρον ἀναιδῶς λωποδυτοῖσιν,
ὥστε γράρειν ἤδη μῆνιν ἄειδε, θεά.

Note 46

Φεύγεθ' ὅσοι λόκκας ἢ λοφνίδας ἢ καμασηνας
ἄδετε, ποιητῶν φύλον ἀκανθολόγων,
οἱ τ' ἐπέων κόσμον λελυγισμένον ἀσκήσαντες,
κρήνης ἕξ ἱερῆς πίνετε λιτὸν ὄδωρ.
σήμερον Ἀρχιλόχοιο καὶ ἄρσενος ἡμῶ Ὀμήρου
σπένδομεν· ὁ κρητὴρ οὐδέχθε' ὕδροπότας.

APPENDIX OF GREEK TEXTS, pp. 18-20

- Note 6* [Αἰὲν] ἔμοι Τελχίνες ἐπιτρέουσιν ἅ [λιτροί]
[νήϊδα] ς οἱ Μούσῃς οὐκ ἐγένοντο φίλοι,
[εἶνακε] ν οὐχ ἔν δεισμα διηνεκές, ἥ βασιλ []
[.....] ας, ἐν πολλαῖς ἦνυσα Χιλιάσιν
5. [.....] .. ους ἤρωας, ἔπος δ' ἐπὶ τυτθὸν ἐλ [ισσω
[παῖς ἄτ] ε' τῶγ δ' ἐτέων ἡ δεκά [ς] οὐκ ὀλίγη.
[Φημί δ] ἐ καὶ Τ [ελ] Χτισιν ἐγὼ τόδε· φύλον ἅ [κανθές,
[σφαίτερον] τήκ [ειν] ἦπαρ ἐπιστάμενον,
[.....] ρέων [ὅλ] ἰγόστιχος' ἀλλὰ καθέλ [κει
10. [δρὺν πο] λὺ τὴν μακρὴν δμπνια Θεσμοφόρο [ς.
[.....] δυοιν Μίμνερμος δτι γλυκὸς α []
[.....] ἡ μεγάλη δ'οὐκ ἀδιδάξε γυνή.
[Κλαγγό] ν ἐπὶ Θρήϊκας ἀπ' Αἰγύπτιοιο [ροάων
[αἶματι] Πυγμαλίων ἡδομένη [γ] ἔρα [νος
15. [ἔρχεται] .. ισαι [.] ιμα. [.....] οίων ἐπ' ἄνδρα
[.....] ... [.....] τεραι.
[Ἑλλετε, Βασκανίης ὀλοὸν γένος] αἰδοὶ δὲ τέχνη
[κρίνετε μὴ υλοῖνω Περσέϊ τήν] κοίτην,
[μῆδ' ἀπ' ἐμεῦ διφθε μέγα ψοφέο] υσαν αἰοδην
20. [τίκτεσθαι· βροντᾶν δ'οὐκ ἐμόν, ἀλλ] ἅ Διός.
[Καὶ γάρ δτι] ε πρ [ὧ] τισ [το] ν ἐμοῖς ἐπὶ δέλτον ἔθηκα
[γούνασιν], 'Ἀπ [ὧ] λλων εἶπεν δ μοι Λύκιος.
[εἴ] δέον α] ἰέν, αἰοιδέ, τό μὲν θύος δτι πάχιστον
[ἄμμι φέρει] ν, μοῦσαν δ' ὦ' γαθέ, λεπταλέην.
25. [Πρὸς δέ σε] καὶ τὸδ' ἄνωγα, τὰ μὴ πατέουσιν ἄμαξιαι
[τὰ στεῖβε] ιν, ἐτέρων (δ) 'ΓΧνια μὴ καθ' ὁμά
[δίφρον ἐλ] ἄν μῆδ' οἶμον ἄνά πλατύν ἀλλὰ κελεύθους
[σπεῦδ' ἰδί] ας, εἰ καὶ στεινοτέρην ἐλάσεις.»

Note 9 Καὶ Μοισᾶν ὀρνίθες, ὅσοι ποτὶ Χίον ἀηδῶ
ἀντία κοκκύοντες ἐτώσια μοχθίζοντι.

Note 18 Ἐχθαίω τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν, οὐδὲ κελεύθω
χαίρω τις πολλοὺς ὧδε καὶ ὧδε φέρει·
μῖτῳ καὶ περίφοιτον ἐρώμενον, οὐδ' ἀπὸ κρήνης
πίνω· σικχαίνω πάντα τὰ δημόσια.

Note 20 Καλλιμαχος τὸ κάθαμμα, τὸ παίγνιον, ὃ ἐξόλινος νοῦς.
αἴτιος ὁ γράψας Αἴτια Καλλιμαχος.

Antiphanes' words against Callimachus and his school in a vehement tone particularly on their recondite learning and fondness of using obsolete pronouns (53).

Now it can be said with sufficient probability that these cruel charges of these epigrammatists are nothing more than literary exercises repeating what was actually said one day at Alexandria when the controversy raged. This is no rash assumption, since it is almost a well-known fact that the later epigrammatists' epigrams are generally copies of some previous models.

Finally we can safely assert that it was a quarrel that had arisen from differences of literary aims and tastes cherished by two counter-parties at Alexandria, the school of the innovators and that of the quasi-conservatives, whose mouthpieces were respectively Callimachus and Apollonius Rhodius.

(53) Anth. Pal., XI, 321. Vide Appendix of Greek Text, p. 20.

The charge of recondite learning and the use of obsolete words are generally common feature of the Alexandrian poets. Vide supra note 11.

brought to light, must have taken a part in the controversy. Of those who sided with Callimachus only Theocritus and Euphorion are known for certain, as we have already seen⁽⁴⁴⁾. But a later epigrammatist, Pollianus of the second century A.D., may be taken as a partisan of Callimachus' school. This poet furiously attacked his contemporary cyclic poets on the ground that they stole others' verses and shamelessly stripped Homer of his expressions⁽⁴⁵⁾. In this he can be taken as an echo of the members of Callimachus' school of his own day. Also concerning his contemporary opponents, there is no trace extant of any invective written by them against Callimachus or his school other than those of Apollonius, but it can also be inferred from the epigrams of later epigrammatists that there must have been some which had been lost. Two Augustan epigrammatists vehemently inveighed against Callimachus. Antipater of Thessalonica in an epigrammatic lampoon attacked him as an affected poet who practised effeminately decorative short poems⁽⁴⁶⁾. He also censures him as a drinker of only simple water from the holy spring⁽⁴⁷⁾. Again Antiphanes of Macedonia pilloried Callimachus' school for being severe critics, bookworms and fond of obscurity⁽⁴⁸⁾. It was also attacked as proud of Erinna⁽⁴⁹⁾. The mention of Erinna here is of paramount importance, for she is the forerunner of the Alexandrian period and the exponent poetess of the short poem⁽⁵⁰⁾ which was highly appreciated by the Alexandrian poets⁽⁵¹⁾. In this the epigrammatist is cunningly hinting to Callimachus' school. Phillippus of Thessalonica⁽⁵²⁾ nearly repeats

(44) Vide supra, notes 8 and 9.

(45) Anth. Pal., XI, 130, 11.1—2 and 7—8. Vide Appendix of Greek Texts, p. 18. Although this epigrammatist has the same view as that of Callimachus, yet he was at the same time against Callimachus' obscurity; Cf. $\theta\eta\sigma\iota\ \sigma\acute{o}\alpha\tau\acute{o}\epsilon\gamma\epsilon\iota$ (1.5) with $\sigma\acute{o}\alpha\tau\acute{o}\epsilon\iota\varsigma\ \theta\eta\sigma\iota$, Callimachus, Fr. 320.

(46) Anth. Pal., XI, 20. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19

(47) I.e. composer of short poems, epyllia. Cf. 1.4 with Callimachus' Hymn II, To Apollo, 1.112. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(48) Anth. Pal., XI, 322. Vide Appendix of Greek Texts, p. 20.

(49) The poetess of Telos, who belonged to Rhodes and whose surviving poetic works, though very small, are quite sufficient to show that their composer was a poetess of high promise. She wrote about the middle of the fourth century B.C. She died very young at the age of nineteen. Vide Prof. Wilamowitz, *Hellenistische Dichtung in der Zeit des Kallimachos*, 1924, p. 108. Prof. Roso, *op. cit.*, p. 341, Asclepiades, Anth. Pal., VII, 11 etc.

(50) The $\text{'}\Lambda\lambda\alpha\kappa\acute{\alpha}\nu\alpha$ (the Distaff, a lament for her friend Baudis) an hexametric poem containing 300 lines. Cf. Suidas, s.v. $\text{'}\text{H}\rho\iota\upsilon\nu\nu\alpha$, an anonymous epigram (Anth. Pal. IX, 190, 1.3) etc.

(51) Vide Anth. Pal. VII, 12; IX, 190, Prof. Wilamowitz, *op. cit.*, p. 108 etc.

(52) Of the Neronian age, about the middle of the first century A.D.

opinion, a work delicately executed. This epigrammatist's appreciation runs thus : « This delicately finished poem is Callimachus', for on it, indeed, he let out every reef of the Muses. He sings of the hut of hospitable Hecale, and all the toils which Marathon put on Theseus' shoulders. His young strength of hands may it be yours to win, Marcellus, and equal praise of renowned life » (42). Apollonius himself appreciated this work of his enemy. This may be assumed from the fact that he was indebted to Callimachus' Hecale of which he made use (43). He has naturally used the Hecale in his revised Argonautica, which belongs to his old age after his return to Alexandria and Callimachus' death. This can be taken as an acknowledgement on the part of Apollonius of his master's superiority and a mark of his appreciation of the epyllion created by his opponent.

After the success of the Hecale which meant the victory of an epyllion of a novel nature over the epic in imitation of the old tradition, Callimachus must have held the field to himself. We have no more volleys of invective directed against him. His enemy was already in Rhodes and would not dare to return to Alexandria after his master's positive victory. The outsiders kept silent and held their peace. His position as « arbiter litterarum » which was for a long time contested was very probably established and his school, which had been furiously attacked, was acknowledged as the distinguished school of Alexandrian poetry at least in Callimachus' life-time and perhaps for some time after his death.

This is then the story of the literary quarrel or of the controversy which engaged some Alexandrian scholar-poets for a long time. It is the story of the clash between those who clung to the old traditional epic and those who tried to break with it and strove after creating something new by means of judicious and free adaptations and who composed shorter poems possessed of new characteristics which are absolutely Alexandrian.

Although it was the stubbornness of Callimachus and the defiance of Apollonius that led to this literary quarrel, yet they were not alone on the stage. Other contemporary poets, whose dicta have not been

(42) Anth. Pal., IX, 545. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(43) 'The Hecale became an extraordinary favourite. In the Argonauts of Apollonius, which but little later in date, its influence is noticeable' (Alfred Körte, op. cit., p. 156) ; and Of the few lines of the Argonautica that appear to be imitations of Callimachus, almost all are borrowed from the Hecale, (Couat, op. cit., p. 558). See also the list given by Prof. Mair, op. cit., p. 23.

reins to his fanciful faculties in such a way that the legend becomes rather Callimachean. Thus the choice of such a legend by Callimachus in preference to well-known ones, which he disliked, because they had been in the mouth of every poet, is not strange. Scholars are sorry that only few fragments had only been discovered of this specimen of epic devised and produced as a typical Alexandrian production in sharp contrast to the epics tried by others. Fortunately the rather considerable amount of fragments brought to light now and then, now put us in a fairly good position to speak of the merits of this work. In such a general account, it is hardly suitable to enter into a detailed treatment of this *Hecale*; but, as it is of novel nature, one may point out very briefly some of its chief characteristics. First of all there is originality in the treatment of the story; for unlike the post-epic writers, who crowded their works with inexhaustible narrations of all the hero's exploits and adventures, Callimachus, who is aware of such a tedious way of narration, departed from this convention and confined himself to one single exploit and not a very famous one. Again when he chose this adventure of his in which that old poor woman was the chief character, he gave the heroic epic quite a new meaning. In fact he meant to engage the interest of the reader with the hospitality of *Hecale* towards the tired and hungry *Theseus* which showed itself in the supper which she had prepared for him and her tales about herself. Her fears for him from the bull have nothing to do with mythology but they are real human touches⁽⁴¹⁾. In so doing Callimachus succeeded in revealing actual life and also the daily life in this poem. In the *Hecale* as in his hymns and all his poetic works in general, Callimachus showed himself a great story-teller with qualities of artistic ease and charm.

It may be assumed with some certainty that the *Hecale* was met with warm approval even from the antagonists and acquired for Callimachus new friends who thereby understood the great difference between the revived old epic on a grand scale and the novel epic or *epyllia*. Unfortunately we have no contemporary evidence to this effect. But an epigram of a later epigrammatist can be taken as an echo of one of the poets of Callimachus' day. *Crinagoras* of the Augustan age presented a copy of the *Hecale* to *M. Claudius Marcellus*, the nephew of Augustus, because it is, in the dedicatory's

(41) One might compare the humanising treatment of *Polyphemus* in *Theocritus*, *Idyll VI*.

the tendency to revive epic in the Homeric manner and the superfluity of the post-epic treatment, is that he thought at last to give an example or rather a pattern of the kind of epic or still better, of epyllion which could be reckoned as a novelty and known as Alexandrian. In so doing, he gave, as it seems to me, a typical example of the epic that ought to be cultivated at Alexandria. Callimachus' choice of the theme and the way he treats his subject confirm my assumption. The subject of this work is the victory over the bull of Marathon by the demi-god Theseus who was hospitably entertained by a poor old woman called Hecale. Here Callimachus is dealing with one of Theseus' well-known exploits. The choice of this particular incident from the legends of Theseus, where an ordinary resourceless creature takes a positive part in the plot and even gave her name to the poem is a typical Alexandrian feature. The Alexandrian poets especially the epigrammatists have shown more emphatically interest in and sympathy with low classes. This is obvious in their dedicatory epigrams begun by Leonidas of Tarentum and continued by his imitators and successors. Again to choose one⁽³⁹⁾ minor exploit—compared with his expedition against the Minotaur—is typical of his way of exploring obscure myths or legends and especially the local ones, such as here⁽⁴⁰⁾, where he allows himself some liberty in loosing the

(39) A single poem dealing with all the exploits and adventures of Theseus would have been too long and virtually an «epic»; Callimachus, however, would be a second Peisander or Panyassis who dealt with Heracles' twelve labours.

(40) Callimachus may have drawn his information from Philochorus (4th century B.C.), the most famous of the athidographers (see fr. 109 and Jacoby, *Atthis*, the local chronicles of Ancient Athens, Oxford, 1949, p. 128). A passage in Plutarch (*Life of Theseus*, XIV) may reveal Callimachus' dependance on Philochorus. In this passage Plutarch speaks of Theseus' fight with the Marathonian bull and his relation to the hospitable Hecale. At the end of the passage Plutarch mentions Philochorus as a source of a special point. Moreover Naeke and Schneider (quoted in Couat, *op. cit.*, p. 381) think that Plutarch borrowed this account from Callimachus, a view which is rejected by Couat for several reasons which he mentions in pp. 381—382. In his conclusion, Couat says «In the life of Theseus there occur five quotations from Philochorus and two from Demo (another athidographer who flourished c. 300 B.C.)..... It is natural that from among all these chroniclers he should have recourse to Philochorus, whose works on the fabled antiquities of Attica were quite indispensable for him Therefore, even if Plutarch had in mind the poem by Callimachus, he may none the less, will have resorted to Philochorus by preference for the exact information and critical remarks about the legend of Hecale which necessarily must have been found in that author's writings. That was the source for the passage with which I am dealing». (*Op. cit.*, p. 382). If we are to deduce anything from this quotation, the conclusion is that Philochorus was the most reliable source for the Attic legend. If so, — and it is almost certain— Callimachus could hardly have used another Athidographer. But, according to his practice, he might have adapted the legend and given it a new and sensational turn. Moreover it is likely that Plutarch used Callimachus' Epyllion among other sources without citing it as he did with the others.

meanwhile the name of Ibis' (34). In the faint light of these lines, it is not difficult to assume the nature of Callimachus' work. Callimachus must have been very cruel in his attacks; he, so it seems, did not deride his antagonist he used to do in his other attacks wittily and humourously but charged him as a lampoonist and in the Archilochian way. His enigmatic tales are intentionally worked out, since he wished his poem to be only conceived by his and Apollonius' close friends. Finally the thing which should not be doubted is that the Ibis was a cruel charge against Apollonius and that it was very likely the last insult directed against him.

After this Callimachean, and Apollonian quarrel, the main cause of which is the difference of the two poets' attitudes concerning epic has been dealt with, it is worth mentioning that towards the close of his life, Callimachus wrote his last work, the *Hecale*, a mythological poem. Does this mean that he, for some reason or other, changed his mind and tried his hand at writing epic which he had so far disliked and attacked? Here a certain scholiast suggests some reasons. He states that Callimachus was compelled to write the *Hecale* just to prove his ability to write a long poem (35). And now the question is, 'Is it really an epic and are we to take the words of the scholiast for granted?' Anyhow the amount of the fragments (36) and the careful studies of their contents led some eminent scholars to consider it an epyllion and not an epic (37). Moreover as Prof. Rose described it 'In form it was not exactly an epic but an episode of epic, such as we generally call an epyllion' (38). To my thinking the reason why Callimachus wrote *Hecale*, after he had spent the best part of his literary career fighting

(34) *Op. cit.*, II. 55—62.

Nunc quo Battiades inimicum devovet Ibin,
Hoc ego devoceo teque tuosque modo.
Utque ille, historicis involvam carmina caecis:
Non soleam quamvis hoc genus ipso sequi.
Illius ambages imitatus in Ibis dicar
Oblitus moris iudicique mei.
Est quoniam, qui sis, nondum quaerentibus edo,
Ibidis interea tu quoque nomen habe; ...

(35) Scholium on the Hymn To Apollo, l. 106. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(36) Cf. Pfeiffer, Callimachus, Vol. I, pp. 227—303.

(37) Cf. Couat, *op. cit.*, where he discusses the different views of some scholars, pp. 373—410 and 585 sqq.

(38) *Op. cit.*, p. 321. See further note 19—on the same page: « 'Ἐπύλλιον is passable Greek for 'little epic' but does not seem to have been used in the technical sense by any ancient. ».

say a sweet or lovely word to the youth when other strangers attend him. Begone, wicked seer, witless one ; on you neither Cypris nor the gentle Loves breathe kindly ». These lines which are of polemical nature and obviously stand out of the context ⁽²⁸⁾, are evidently written against Callimachus. They practically add nothing to what Apollonius expressed in the previous epigram. His dwelling on the accusation that Callimachus does not know any thing about love and lovers' conversation is absolute nonsense ⁽²⁹⁾.

That this battle was furiously fought by these two opponents, is shown clearly by the fact that Callimachus was forced to write a whole book, to which he gave the title *Ibis*, against Apollonius. Suidas refers to this work and his mention of the names of Callimachus and Apollonius adds weight to this document ⁽³⁰⁾. Scholars have taken different views in explaining what Callimachus meant by *Ibis* ⁽³¹⁾ and what relations existed between this bird and Apollonius. As this book is concerned with literary questions, I quite agree with Prof. Couat ⁽³²⁾ that the *Ibis*, the bird consecrated to Hermes, the god of thieves, is the nearest and most reasonable explanation conforming with what is assumed from Callimachus' attacks concerning slavish imitation. Of Callimachus' *Ibis*, we have no trace ; it is completely lost. But some passages in Ovid's poem of the same name—a satirical elegy of 644 verses—can give us an idea of what it was like. Ovid said that Callimachus' *Ibis* was a small book, *exiguus libellus* ⁽³³⁾. In the first pages of his *Ibis*, Ovid speaks of such relations between his poem and those of Archilochus and particularly Callimachus. His words on Callimachus should be discussed, since they have important information about Callimachus' *Ibis*. - Now, in such way as Battiades-Callimachus-curses his enemy, *Ibis*, so do I curse you and your family. And like him, I will enshroud my verses in vague tales, although I am not used to follow his style. I shall be said to have imitated in my *Ibis* his ambiguity, forgetful of my custom and judgement. And since I do not reveal yet to those who ask me, who you are, bear you

(28) Seaton, *op. cit.*, p. VIII.

(29) See my comment on Apollonius' epigram (Auth. Pal. XI, 275, p.p. 9—10). See also Callimachus' amatory epigrams (Anth. Pal. Books V and XII).

(30) S.V. Καλλιμαχος. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(31) Follow the different discussions, Couat, *op. cit.*, pp. 536—538.

(32) *Op. cit.*, p. 538.

(33) Ovid's *Ibis*, I, 449.

I do not admire the bard who does not sing as Pontos⁽²⁴⁾ (the ancestor of Telchines = Apollonius)'. Apollo spurned Envy with his foot and spoke thus : 'The stream of the Assyrian river-Euphrates-is great, but it carries much filth of earth and much rubbish on its waters. And the Melissae—Demeter's priestesses—do not carry to Deo-Demeter—water of every stream, but it is the trickling spring, pure and undiluted that springs from the holy fountain, that supremely pure element ».

The contrast held between the great Assyrian river which abounds in filth and rubbish and the small spring is of paramount importance for it reveals the fact that Callimachus, by his own practice, remained faithful to his dicta all his life by recommending poetical compositions which are brief and unpretentious. In keeping however to short poems, so it seems to Callimachus, there is a great chance for the poet to correct and revise and also much hope in neat and careful workmanship. Thus he praised Aratus' *Phaenomena* simply because it is the fruit of sleepless nights⁽²⁵⁾. Now considering Callimachus' view of Apollonius and his juvenalia, it is hardly to be believed that Apollonius could have kept silent. This is generally inferred from a certain piece in the third book of the *Argonautica*⁽²⁶⁾ which is held to be a second edition insertion⁽²⁷⁾, that Apollonius avenged himself by a counter-reply. It is not unlikely that this last known attack was discharged from Rhodes where he had taken refuge some years before. The words which are put in the mouth of a crow, Κρόρνῃ, Hera's messenger, runs thus : « What an ignoble seer is this, who has not the wit to conceive what the children know, how that a girl will not

(24) The translation of πόντος (1.106) by sea is attacked by Prof. Rose (A handbook of Greek Literature From Homer To The Age of Lucian, London, 1950, p. 325) who says : « I cannot admire that bard who sings not even as much as Pontos'. This at first sight would seem to mean, as much as the sea' which is pure nonsense, the sea being proverbially noisy and not even therefore meaningless. It acquires a meaning, however, when we recollect that Pontos is, by one account, the father of the spiteful Telchines, and that Telchines was Callimachus' name for his literary opponents in general ». Prof. Rose owes this idea to Prof. Barber who says 'It is even possible that the mysterious πόντος of 1.106 is to be explained by reference to the ancestry of the Telchines, for Tzetzes (*Theog.*, 81 sqq. cited by Roscher S.V. Telchines p. 238) asserts that they were the sons of Γῆ καὶ Πόντος'. Was Apollonius pilloried as the father of the Βάσκανοι ? (*Class. Rev.* XLVI, 1932, p. 163—164). I am tempted to follow such opinion, although it seems far-fetched and disputed. Anyhow it suits the context.

(25) *Anth. Pal.* IX, 507, 11. 3—4.

(26) 11. 932—937. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(27) Mair, *op. cit.*, p. 5.

fribble, the wooden head, the originator who wrote the *Aetia-Origins* » ⁽²⁰⁾. In such a short epigram loaded with savage volleys of insult which is far from the nature of criticism, Apollonius avenged himself most vehemently. Taken seriously, these audacious attributes would mean that his former teacher, Callimachus, was a writer of trifling works which are void of sense, warmth and passion. In this Apollonius shows that he had no sense of aesthetic taste. How can he ignore the romantic episode of Acontius and Cydippe which forms a part of this condemned *Aetia*? Or how can he underrate the charming and exotic piece on the Bath of Pallas? These are only few examples. Again he must have been ungrateful to his teacher of whose poems he made use ⁽²¹⁾. Anyhow one cannot hold this epigram as a piece of criticism but simply a rash lampoon at which Callimachus must have had many a good laugh. He however did not spare his pupil; for in the epilogue of his hymn to Apollo, ⁽²²⁾ which was manifestly added afterwards, Callimachus is thought to have carried his subtle attacks against Apollonius further. The lines are worthy of quoting: « Envy spoke ⁽²³⁾ secretly in the ear of Apollo

(20) Anth. Pal. XI, 275. Vide Appendix of Greek Texts, p. 18. De auctore igitur minime constat, Apollonio Rhodio abiudicavit Bernhardy, Griech. Lit. Gesch. 111.8, p. 303, cf. Wil., GGN. 1893, p. 746 et Hell. Dich II. p. 98 sq. reddidit Apollonio Rhodio sine iusta causa M. Pohlenz, GGN, 1928, p. 153 sq. (Prof. Pfeiffer, Callimachus, II, Oxford, 1953, p. XCIX). Is it, however, reasonable to deny that Apollonius may have written one epigram once on this theme?

(21) 'Time and again he is called the pupil of Callimachus; his work exhibits indubitably the influence of Callimachus in metre, language and many details' (Alfred Körte, op. cit., p. 177). Prof. Pfeiffer (op. cit., Vol. II) referred to Apollonius' use of Callimachus: 'in primis nunc id (de quo nemo unquam dubitare debuit) constat, Apollonium Rhodium non solum Hecaleam, sed etiam *Aetia* passim imitatum esse. This statement is followed by some examples, cf. pp. XLI—XLII. Callimachus' works which escaped Apollonius' notice are referred to also by Prof. Pfeiffer: «Moneo neque comae Berenices neque Invecitvae in Telchinas neque Hymni II certa vestigia apud Apollonium inveniri posse (p. XLII)».

(22) 11. 105—112. Vide Appendix of Greek Texts, p. 19.

(23) ὁ φθόνοϛ (l. 105), as it is generally assumed, represents Apollonius. When Callimachus addressed the Τελλίβεϛ in the invective elegiac piece (Oxyrh. Pap. 2079), he meant to attack his opponents, but here he concerns himself with attacking his enemy No. I.

author must have played the part of a slavish imitator with no real ability for digestion and wise adaptation ⁽¹⁶⁾.

Callimachus' harsh criticism must have filled Apollonius' heart with hatred against him in such a way that a battle of words began and the quarrel continued even after Apollonius withdrew from Alexandria to Rhodes where he took temporary refuge probably shortly after his misadventure. Callimachus, however, went on with his attacks which pursued Apollonius even to Rhodes. In a rather witty and subtle epigram Callimachus may have begun his charges « I hate the trivial cyclic epic poem (or the epic poem in imitation of Homer ⁽¹⁷⁾) and I do not take pleasure in a road that carries many people this way and that. I loathe too the vagabond beloved and I do not drink from a fountain. I abhor all public things » ⁽¹⁸⁾. Now, although the present version of the *Argonautica* does not abound in Homeric formulas and its author seems mild in his imitation of Homer and does not break with Alexandrian poetic conventions, this does not prevent us from assuming that Callimachus attacked the first version as having all the vices of the banal epic writers. To their pretentious banality and ambitious commonplaceness I have referred in more than one place. Again Apollonius is scoffed at as a writer of a theme which has been treated many times before him ⁽¹⁹⁾. In this he is a mere slavish imitator with no originality. Such an epigram which wounded the youthful vanity of Apollonius could not be left unanswered. Thus he fiercely attacked Callimachus, the composer of the *Aetia*, in a polemical epigram or even a lampoon. This epigram which could be taken as a counter-reply runs thus : « Callimachus the rubbish, the

(16) This is enough for the time being. Other critical points will be given immediately in the course of the discussion of the quarrel. See further p. 8 sqq.

(17) See *Supra*, p. 5 and Note 10.

(18) *Anth. Pal. XII*, 43, 11. 1—4. Vide Appendix of Greek Texts p. 18. Some of these pronouncements are repeated in different words in that elegiac piece which Callimachus wrote in his old age which I have already dealt with. See *Oxyrh. pap. No. 2079*, Appendix of Greek Texts, p. 18.

(19) The tale of the Argonauts had been told often before in verse and prose, and many others' names are given in the scholia to Apollonius, but their works have perished. The best known earlier account that we have is in Pindar's fourth Pythian ode, from which Apollonius has taken many details (*Seaton, op. cit.*, p. X). I may say in passing that Callimachus does not attack Apollonius because he chose a theme from the saga; for he himself drew on the same source in his poems.

other words Callimachus asks the poets to write on new themes, to denounce slavish imitation and finally to try to be original. These are in the main Callimachus' literary ideals,⁽¹³⁾ according to which he used to give his criticism on his contemporaries' works.

Having illustrated Callimachus' literary principles, let us turn to his antagonists, the quasi-conservatives, who cherished and practised the composition of epic both in the manner of Homer and his successors. Apollonius Rhodius, in virtue of his priority as an Alexandrian epic writer and of literary relations with Callimachus is naturally the most considerable among these antagonists. By writing his opus magnum, the *Argonautica*, Apollonius had purposely defied Callimachus. It was therefore inevitable that his *Argonautica* could not escape notice of the authoritative critic. Thus it happened that, when Apollonius first recited a part of this youthful poetic work, which took place in all probability about 260 B.C.⁽¹⁴⁾, Callimachus gave a judgement unfavourable to the epic and its author. The teacher in his condemnation of the *Argonautica* was followed by his pupils and partisans. But why did Callimachus condemn Apollonius' *Argonautica*? In the view of Callimachus, it is a work in which Apollonius sought to continue the Homeric tradition which was out of fashion. It must⁽¹⁵⁾ have been written in the traditional epic language with its set phrases and formulae, which could hardly be other than a weak and artificial echo of Homer. It must have been full of the conventional and commonplace epithets peculiar to the cyclic epic. It must have lacked the Homeric unity and the dramatic movement. In its length, although it is less than 1/3 of the *Iliad* and 1/2 of the *Odyssey*, was not in accordance with the spirit of the age which required the poets to confine their poetical products within the narrowest limits both of subject and space. Finally, as it was a youthful attempt, its

(13) These literary principles are repeated now and then by Callimachus, Cf. Anth. Pal. XII, 43 (Mair, op. cit., XXX; Willamowitz, 20). Vide further Callimachus' other dicta, Appendix of Greek Texts, pp. 18 (Note 18) and 19 (N. 22).

(14) Apollonius' birth is placed by scholars at various times between 296 and 280 B.C. See Seaton's discussion (Apollonius Rhodius. The *Argonautica*, L.C.L. London, 1922, pp. V—VII). For his first recital about 260 B.C., See Prof. Knaack, alexandrinische Literatur, PW., Vol. I, p. 1402.

(15) It must not be forgotten that the present version of the *Argonautica* is different from the first draft criticised and condemned by Callimachus. This latter was the result of some corrections and revisions which took place in Rhodes; see Apollonius, Vita I, Mooney, op. cit., p. 1.

Samos, the composer of the Persica, whose poems are partly written in the cyclic tradition, being full of minute accounts ab ovo, hackneyed episodes, and the use of epithets and formulas etc.

If Callimachus denounces the idea of epic writing either in the manner of Homer which is absolutely unattainable or in the cyclic tradition, which he greatly detested, he only recommends the composition of shorter poems, as we have already seen, which naturally conform to the typical poetic characteristics of the age⁽¹¹⁾. These poems—idyll (literary mimes, rural and urban) epyllion, hymn, iambus, lyric and epigram⁽¹²⁾—should be treated on new lines which are, according to his conception, purely and typically Alexandrian. In his subtle and dramatic way, he said that he followed Apollo's advice, who told him to frequent the roads that were not driven upon by chariots, (Oxyrh. Pap. No. 2079, ll. 25—26), to take heed not to drive his chariot in the tracks of another (ibid., ll. 26—27) and to follow his own road even if be quite narrow (ibid., ll. 27—28). In

(11) The chief characteristics of Alexandrian poetry may be roughly and briefly stated thus: Alexandrian poetry is studied and elaborated poetry, the result of a connection established between poetry and learning, distinguished by eager exploration of every field of knowledge. The poets of this period, or rather most of them, were not as those of the classical period drawing their inspiration freely from the Muses, but their inspiration was always restrained by canons laid down by the early masters of the period who were authoritative scholars of the Library and the Museum. Towards «Myth» and «Legend», almost all the Alexandrians held one attitude in common: namely the avoidance of the hackneyed. To the ambitious and industrious poet, old myth and legend (especially the latter) was looked upon as raw material to be shaped according to his own taste or as obsolete and antiquated subject matter needing to be rehandled, and modified to suit his own ends. Alexandrian poets seemed to have had an excessive interest in local legends. These legends, which are combinations of local history and mythology written in prose, existed already in the places which had given them birth. To them these were a treasure-trove for new subject matter which could add to their originality, since they were the first to deal with them in poetry and give them a romantic touch. The Alexandrian poets who introduced scientific ideas and used technical expressions in their poems, became almost realists. They began to concern themselves with portraying things from real life. In so doing they generally avoided any flights of imagination and kept down to earth. These are the most important and typical characteristics of the Alexandrian school of poetry as revealed in the works of its first masters.

(12) Is it not rather perplexing that Callimachus, whose famous dictum 'μέγα βιβλίον μέγα κακόν' wrote a narrative elegy, the Aetia, in four books containing 3,000—4,000 lines? Callimachus, however, must have meant epic not elegy. Moreover his Hecale which is perhaps 1,000 lines is according to Prof. Arnold Mackay Duff (Oxf. Class. Dict. p. 335, S.V. Epyllion) is hardly a pure epyllion; for the epyllion is a poem of 100—600 lines. See further the discussion of the Hecale (P. 13 sqq.) with the result of which I quite agree. Anyhow Callimachus' two works compared with the Argonautica (5832 lines) are naturally shorter.

at writing epic on a grand scale. But was Callimachus against the epic as a genre? Neither Callimachus nor his opponents were against the great epics, i.e., the *Iliad* and the *Odyssey* of Homer; for the Alexandrians were unsurpassed in their studies of these two poems. The textual and literary criticism of some Alexandrian scholars and their treatises on Homeric questions which remained unique, prove clearly that they honour Homer and consider him the greatest of the Greek poets. But Callimachus and his partisans were convinced that he could not be rivalled nor imitated. Prof. Mahaffy's judgment on Homer may in some way express Callimachus' belief «Homer was the Bible of the Greeks, to most of them verbally inspired, and containing all kinds of perfect wisdom. But to imitate him would, on that very account, have been absurd as to imitate the old sacred books of any nation»⁽⁷⁾. Theocritus⁽⁸⁾ apparently supports Callimachus when his Lycidas indignantly says «So I hate those birds of the Muses—the poets—that crackled in vain rivalry against the Chian nightingale—Homer»⁽⁹⁾.

But why then did Callimachus denounce the idea of writing epics? First of all he thought that the age of epic had passed and secondly that it was a waste of time to try to write an epic in the manner of the unrivalled or rather inimitable Homer. It is Homer's successors, the cyclic poets or post-epic writers with their cheap, superfluous and muddled treatment of Homeric traditional material that gave Callimachus and his supporters the notion not to try any epic at all nor to tolerate those who ventured to approach it. In a rather witty and subtle epigram Callimachus expresses his hatred for the compositions of the cyclic poets 'ἐχθαίρω τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν'⁽¹⁰⁾. Although some of the epics by a number of these poets have their own merits, yet, compared to Homer's *Iliad* and *Odyssey*, they are definitely inferior. They lack at least the Homeric unity and the dramatic movement. Callimachus may have had in mind the poems of the epic revival written by Panyassis, the composer of the *Heracles*, Antimachus of Colophon, the author of the *Thebais* and Choerilus of

(7) *Op. cit.*, p. 265.

(8) In the same way Euphorion, the composer of epyllia expressed the same thing when he said that one ought not to try to be like Homer, *Frag. lxii*, Meineke, quoted in Couat's *op. cit.*, note 3, p. 518.

(9) *Idyll. VII*, 47–48. Vide Appendix of Greek Texts, p. 18.

(10) *Anth. Pal. XII*, 43, 1.1 For the meaning of «τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν» together with a historical account, see 'My article on 'What Callimachus meant by κυκλικός in the phrase 'τὸ ποίημα τὸ κυκλικόν', *Mondlin Press, Cairo*, 1955.

not only in revealing the tendencies of Callimachus' school but also in throwing some light on the actual and direct causes of the quarrel. These views, which he dictated to his pupils within the walls of the library and Museum, he himself followed in his literary practice. To begin with, some principles can be met with in that elegiac and polemical piece written by Callimachus in his old age in reply to his envious opponents, the Τελαχίτες, whose attacks were always directed against him ⁽⁶⁾. To my mind this passage is an excellent testimony written by a poet about himself. It throws much light on Callimachus' tendencies and technique. It is noteworthy that his method in attacking his antagonists and defending himself in this piece is rather unique. To those «wicked enemies», who accuse him of inability to compose a well constructed poem in many thousands of verses (ibid., 11. 3—5), he says that he denounces the idea of writing any epic at all (ibid., 11. 19—20), and advises them to judge the poetry by the measure of art and not by the Persian land measure (ibid., 11. 17—18). Again he replies to those who belittle him as a poet of short poems, that it is the little poems that make Mimnermus a sweet poet (ibid., 11. 11—12). His preference of the short poems to longer ones is alertly illustrated. He writes short poems in obedience to the words of Apollo who told him that incense offerings must be weighty and those of poetry should be light (ibid., 11. 22—24).

By these various pronouncements, which are coined, as we have seen, in a variety of subtle and clever images, Callimachus was not, as it may seem, defending himself as a poet of short poems but was in fact attacking his opponents who foolishly and rashly tried their hands

(6) Oxyrh. pap. N. 2079. I have used the somewhat reconstructed text of Prof. Émile Cahun, *Callimaque et son Oeuvre poétique*, (Paris, 1929) pp. 646—647. Cf. Pfeiffer's reconstructions (*Callimachus*. Volume I, Oxford. Univ. Press, London, 1949) pp. 1—8. As this text is more or less mutilated or incomplete, I only give a possible translation. This piece, 11. 1—28., is found in the Appendix of Greek Texts, P. 18. It is either an independent invective elegy or a prologue to his *Aetia* or even a preface to Callimachus' poetical works; follow Couat's fairly good but indecisive discussion, *op. cit.*, p. 561. Although this piece belongs to his old age and was naturally preceded by earlier dicta, I found it more suitable to begin with it; for it includes all Callimachus' Literary Views which he used to announce now and then when occasion urged him but also those which were not given before. It is then a sort of compendium of all his critical and literary views.

Although Callimachus and Apollonius are, in virtue of their dicta, the chief representatives of the clashing tendencies prevailing in the Alexandrian school of poetry and the champions of the quarrel, I am inclined to deal with the quarrel in a rather general way. I am tempted to do so for three reasons. First Callimachus and Apollonius were not alone; other poets took sides in the quarrel. This fact is added evidence that the quarrel was not merely personal. Secondly a general discussion of the controversy may help in revealing the literary principles which influenced the poetic production of the Alexandrian period as a whole. These will be dealt with later on. Thirdly it would be hard to give the full story of the hostility between Callimachus and Apollonius because we lack the material sufficient to help us in pursuing the attacks and counter-attacks in any chronological order⁽⁵⁾.

Before embarking on the subject of the quarrel, a quick survey of the literary views and pronouncements of Callimachus, the most outstanding scholar-poet and critic of his day, will undoubtedly help

= 1912, p. 1), the notice of Suidas, *Oxyrh. Papyrus found in 1903-4* (*Oxyrhynchus Papyri*, Part x, 1241, p. 99 sqq. by B.P. Grenfell and A.S. Hunt, London, 1914) and the Plautine Scholium, the only document which names Callimachus as Librarian, (Parsons, *The Alexandrian Library*, London, 1952, p. 106-121, and Mair, *Callimachus etc.* L.C.L. London, 1921, pp. 6-11). I have also seen the various views and hypotheses of the scholars who concerned themselves with the study of these documents (Cf. Parsons, *op. cit.* pp. 106-121, 141, 145, 147-149 and 153-162). The conclusion I reached is disappointing. Some of these testimonies are not self-consistent nor consistent with one another, and practically all are full of serious mistakes which lessen or rather nigh their validity. Thus I think that this question cannot be answered with any degree of certainty in the light of these present testimonies and we should patiently wait for some new evidence. Meanwhile I am inclined to think that the hostility between these two poets had nothing to do with their office in the Alexandrian Library nor with a personal strife of any sort.

(5) Concerning this quarrel, Prof. Mahaffy, J.P. (*Greek Life and Thought from the age of Alexander to the Roman Conquest*, London, 1887, p. 267) enthusiastically refers the reader to Couat, A. (*La Poésie Alexandrine sous les trois premiers Ptolémées*, 1892, English Transl. by J. Loeb, 1931, pp. 523-542). To some extent Prof. Mahaffy is right; for Couat is one of the few scholars who took pains to give a somewhat connected account of this quarrel; but I must say that he was at a loss to give a complete and exact story. He was hampered by the same obstacles which I have just mentioned (the scarcity of documents and the impossibility of putting them in their due order). He began his account (p. 523) in these words: «The complete story of the literary quarrel is unrolled before our eyes with sufficiently great probability». Then in the course of his treatment (p. 532) he added: «Unfortunately too many documents have been lost to make it easy or even possible to follow the course of the quarrel». And his disappointing conclusion on this question (p. 541) runs thus: «Such then is the story of the quarrel between Apollonius and Callimachus. I have given its main incidents, without however, being able to state with certainty in what order they followed one another».

with the material inherited from the ancients and strive to create a new poetry woven on Alexandrian loom. They could be called the adaptors or rather the innovators. The others were those who tried to continue the old tradition by composing certain types of poetry following in the steps of the old masters and adopting their devices and even imitating them slavishly ; but they showed at the same time signs of the characteristics of the age. Their poems form a strange blend of the old and the new. They can be called the quasi-conservatives.

The tendencies of both sides, the innovators and the quasi-conservatives being such, a controversy among the members of this new school could hardly be avoided. The dicta which reached us, as we shall soon see, point to such a controversy degenerating into a quarrel, which, as it seems to me, was the earliest literary quarrel ever fought between literary men themselves⁽²⁾. These dicta—and some of them are of polemical nature—are for the most part extant in the poems of both Callimachus and Apollonius Rhodius, Callimachus' pupil⁽³⁾. This led me to consider these poets as the representatives of the two opponent parties, the innovators and the quasi-conservatives, especially because they were the chief personalities on the stage of the battle.

The vigour with which the duel was fought between these two poets has led some modern scholars to think that it was not a mere difference of literary views and tastes, but it was rather some sort of personal enmity and they took different directions in explaining the real cause of this hostility. Some assume that Callimachus was jealous of Apollonius and his rising eminence as a literary figure. Others—and they are the majority—believe that Callimachus' jealousy owes its existence to the fact that his pupil was the chief librarian at the time when he was only a cataloguer, a position which is possibly lower than that of Apollonius, who might have been so they think his teacher's superior⁽⁴⁾. This quarrel, however, is, as we shall see, the outcome of difference of literary opinions.

(2) One can hardly say that such passages of Pindar, as *Ol. li, 88—86* amount to a standing literary quarrel between Pindar and his rivals. There was, no doubt, personal animosity at the court of Hiero.

(3) Suidas, S. V. Ἀπολλώνιος

(4) Alfred Körte, (*Hellenistic Poetry*, translated by Jacob Hammer and Moses Hadas, New York, 1929) p. 177; E.A. Barber, *Oxf. Class. Dict. S.V. Apollonius Rhodius*; etc. This question of Apollonius' and also of Callimachus' Librarianship is most difficult and rather unsolvable. I have consulted and examined the documents available which deal with this subject: Apollonius' two «*Vitae*» (G.W. Mooney, the *Argonautica* of Apollonius Rhodius, London. =

THE LITERARY QUARREL AT ALEXANDRIA
AS CHAMPIONED BY
CALLIMACHUS V. APOLLONIUS RHODIUS

by

M. M. EL SALAMOUNI, Ph.D.

Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo

By the first decades of the third century B.C., when Alexandria, (under the rule of the Ptolemaic dynasty), became a Greek cultural centre and had a school of poetry of its own among the different Hellenistic literary centres, old and new, it was natural that some of the first great masters of this new Alexandrian school of poetry—the majority of whom were scholar-poets—would have thought of giving their school an independent personality which was absolutely Alexandrian. Thus it was inevitable for the early masters to occupy themselves with questions such as these : To what extent should they draw inspirations from their old masters ? On whom ought they to model their poetical types ? To what extent might the old forms be retained and revived ? In what way could these forms be adapted or changed and refined to suit the genius of the age ?

Such questions could be met with in some dicta⁽¹⁾—though few in number—included in some poetic genres cultivated in this same period, which prove that two different views or rather tendencies began to show themselves at Alexandria, all of which assert that there was a controversy between two rival parties and it tended often to become violent. However painful the controversy, we owe to it literary views and pronouncements which shed some light on their manner of poetic composition and contribute to the Alexandrian science of literary criticism. On one side were the poets who were generally content

(1) These will be dealt with in discussing Callimachus' literary principles and the causes of the quarrel. See further Appendix of Greek Texts, pp. 18—20.

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
M. M. EL SALAMOUNI	
The Literary Quarrel At Alexandria As Championed By Callimachus	
V. Apollonius Rhodius 	1

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ; in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

**Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P. T. for each Part.**

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART I

MAY 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1964

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART I

MAY 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1964

مجلة كلية الآداب



المجلد الثاني والعشرون - الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٦٠

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٠

مَجَلَّة
كُلِّيَّةُ الْآدَابِ



المجلد الثاني والعشرون - الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٦٥

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٥

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية
العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حدى البكرى
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمان الجزء الواحد من أى
مجلد ثلاثون قرشا مصرية .

فهرس القسم العربى

صفحة	
١	مرفولوجية الرفارف القارية للدكتور محمد صفى الدين . . .
٥٣	نقوش عربية جنوبية للدكتور خليل يحيى تامى . . .
٦٥	مطبعة بولاق فى عهدھا الاول (١٨١٩ - ١٨٤٠) للدكتور خليل صابات
	دراسة لبعض التحف الاسلامية - القدم السجادة الاسلامى فى مصر
١٠١	للدكتور عبد الرحمن فهمى محمد
١٢١	الامكانيات الاقتصادية فى القاهرة الافريقية للدكتور فؤاد محمد الصقار
١٦٣	الوديعه فى القانون الاثيووى للدكتور عبد السميع محمد احمد .

مرفولوجية الزفاف القارية

للدكتور محمد صفى الدين
الأستاذ المساعد بقسم الجغرافيا

العلاقة بين اليابس والماء :

تبلغ المساحة الإجمالية لكوكبنا « الأرض » ٥١.٠.١ مليون كيلو متر مربع ولا تبدو هذه المساحة الشاسعة متجانسة بأي حال من الأحوال ؛ إذ أن الخاصية الأولى التي تقسم بها الأرض إنما تتمثل في تكوينها من يابس وماء بحيث يشغل اليابس مساحة تبلغ ١٤.٨٩ مليون كيلو متر مربع ، ويحتل الماء ٣٦.١١ مليون كيلو متر مربع ، وبهذا تصبح نسبة اليابس إلى الماء ١ : ٢.٤٣ . ولكي نوضح هذه الحقيقة أكثر يمكن القول بأن اليابس يمثل ٢٠.٢٩٪ من جملة مساحة الكرة الأرضية بينما يمثل الماء ٧٨.٠٪^(١) . معنى هذا إذن أن أكثر من ثلثي مساحة سطح الأرض تغطيه المياه التي تظهر في صورة محيط واسع متصل الأرجاء ، تظهر فيه بين الحين والحين كتوءات جزرية عملاقة هي التي نعرفها بالقارات^(٢) . ويؤدي توزيع هذه القارات إلى تقسيم وتجزئة « المحيط العالمي » إلى محيطات ثانوية — على غرار المحيطات الثلاثة الهندي والأطلسي والمحادي — وإلى بحار داخلية وساحلية .

ويتم توزيع القارات في المحيط العالمي بنمط خاص يوضح لنا إذا ما قورن توزيع الماء واليابس بين نصفي الكرة الشرقي والغربي ، إذ أن الكتلة العظمى من اليابس وهي التي أسماها « ماكندر Halford Mackinder » بالجزيرة العالمية ، توجد

(١) Albert Defant «Physical Oceanography». London, 1961, pp. 2-3

(٢) R.E. Coker «The great and wide sea». The University of N. Carolina press, 1954, pp. 65-66

في نصف الكرة الشرقي أما نصفها الغربي — حيث توجد قارتا العالم الجديد وجزيرة جرينلاند فلا يضم إلا خمس مساحة اليابس ، وحتى القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيه) التي توجد في نصف الكرة الجنوبي في عروض أعلى من ٧٠° جنوبا ، تتميز هي الأخرى بأن ثلثي مساحتها تقع في نصف الكرة الشرقي . وإذا ما عقدت مقارنة مائة بين نصفي الكرة الشمالي والجنوبي لوجدنا أن نسبة مساحة اليابس إلى المساحة الكلية لنصف الكرة الشمالي تبلغ ٣٩ر٣٪ في حين أن نسبة الماء تصل إلى ٦٠ر٧٪ . وأما في نصف الكرة الجنوبي فيتراعى اليابس فوق نحو ١٩ر١٪ من مساحته بينما تحتل المياه منه نسبة تبلغ ٨٠ر٩٪ . وتدل هذه الأرقام على أن اليابس يحتل زهاء خمس مساحة نصف الكرة الشمالي ، بينما تغمر المياه ثلاثة أضعافه ، هذا في حين أن مساحة اليابس في نصف الكرة الجنوبي لا تزيد على خمسة ، أي نصف مساحة اليابس في نصف الكرة الشمالي .

وعلى هذا الأساس يمكن تصور دائرة وهمية تقسم الأرض إلى نصف مائي ونصف يابس ، ويقع قطب النصف اليابس عند تقاطع خط عرض ٢٥° شمالا مع خط طول ٢٥° غربا وذلك بالقرب من مصب نهر لوآر Loire في فرنسا . ويتألف هذا القسم من الكرة الأرضية من ٥٣ر٧٪ ماء ، ٤٧ر٣٪ يابس ، أي بنسبة ١: ٩٠ . دلالة على أن مساحة الماء تفوق قليلا مساحة اليابس . أما مركز النصف المائي ، فوضعه تقاطع خط عرض ٢٥° جنوبا مع خط طول ١٧٧ر٥° شرقا في جنوب شرق نيوزيلندة ، ويتكون هذا النصف من الكرة من ٩٠ر٥٪ ماء ، ٩ر٥٪ يابس أي بنسبة ١ : ١١ ، أي أن اليابس في نصف الكرة المائي لا يشغل منه إلا عشر مساحته تقريبا (١) .

ويتبين توزيع اليابس والماء في العروض المختلفة بأنه أبعد ما يكون عن الانتظام كما يتضح لنا من الجدول التالي : (ومن شكل ١ ، ٢) .

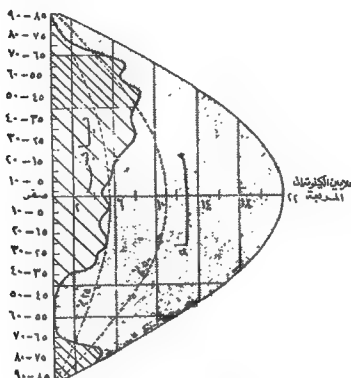
جدول رقم (١)
توزيع اليايس والماء في العروض المختلفة

النصف الجنوبي		النصف الشمالى		المنطقة العرضية
لاليايس %	للماء %	لاليايس %	للماء %	
١٠٠	صفر	—	١٠٠	٨٥ — ٩٠
١٠٠	صفر	١٢ر٨	٨٥ر٢	٨٠ — ٨٥
٨٩ر٣	١٠ر٧	٢٢ر٩	٧٧ر١	٧٥ — ٨٠
٦١ر٤	٣٨ر٦	٣٤ر٥	٦٥ر٥	٧٠ — ٧٥
٢٠ر٥	٧٩ر٥	٧١ر٣	٢٨ر٧	٦٥ — ٧٠
٠ر٣	٩٩ر٧	٦٩ر٨	٣١ر٢	٦٠ — ٦٥
٠ر١	٩٩ر٩	٥٥	٤٥	٥٥ — ٦٠
١ر٥	٩٨ر٥	٥٩ر٤	٤٠ر٧	٥٠ — ٥٥
٢ر٥	٩٧ر٥	٥٦ر٢	٤٣ر٨	٤٥ — ٥٠
٣ر٦	٩٦ر٤	٤٨ر٨	٥١ر٢	٤٠ — ٤٥
٦ر٦	٩٣ر٤	٤٣ر٢	٥٦ر٨	٣٥ — ٤٠
١٥ر٨	٨٤ر٧	٤٢ر٣	٥٧ر٧	٣٠ — ٣٥
٢١ر٦	٧٨ر٤	٤٠ر٤	٥٩ر٦	٢٥ — ٣٠
٢٤ر٦	٧٥ر٤	٣٤ر٨	٦٥ر٢	٢٠ — ٢٥
٢٣ر٦	٧٦ر٤	٢٩ر٢	٧٠ر٨	١٥ — ٢٠
٢٠ر٤	٧٩ر٦	٢٣ر٥	٧٦ر٥	١٠ — ١٥
٢٣ر١	٧٦ر٩	٢٤ر٣	٧٥ر٧	٥ — ١٠
٢٤ر١	٧٥ر٩	٢١ر٤	٧٨ر٦	٥ — صفر

ويتضح لنا من الجدول السابق ما يلى :

(أولا) أن المنطقة القطبية في نصف الكرة الشمالى يسودها الماء وخاصة فيما بين خطى عرض ٩٠ ، ٧٠ شمالا في حين أننا نلاحظ عكس هذا تماما في نصف الكرة الجنوى حيث يسود اليايس في كل أنحاء المنطقة القطبية في نفس العروض . ويرجع هذا إلى أن المنطقة القطبية الشمالية عبارة عن حوض بحرى يحيط به سياج

من اليابس بينما تمتد فوق نظيرتها في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية كتلة قارية كبيرة تزيد على مساحة القارة الأوربية .

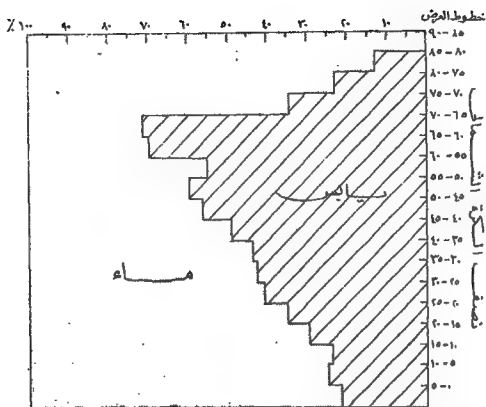


شكل (١١) توزيع اليابس والماء في نصف الكرة

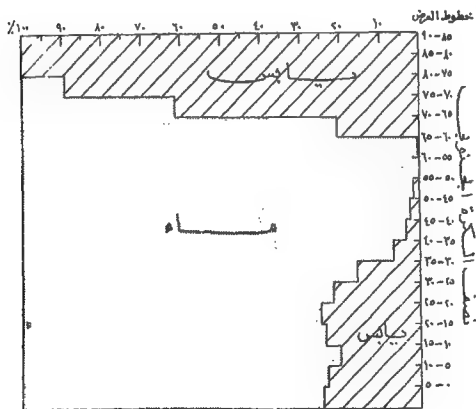
(ثانياً) يسود اليابس في نصف الكرة الشمالي فيما بين خط عرض ٧٠° و ٤٥° شمالاً بينما يسود الماء في نفس العروض في نصف الكرة الجنوبي ، بل يتجاوزها إلى كل العروض الدنيا ، بحيث يمكن القول إجمالاً بأن الماء يغطي أكثر من ثلاثة أرباع مساحة سطح الأرض في جل انحاء نصف الكرة الجنوبي وذلك في العروض الأدنى من خط عرض ٧٠° جنوباً

(ثالثاً) يكاد يتساوى توزيع الماء واليابس في نصف الكرة الشمالي في العروض التي تنحصر بين خطي ٦٠° و ٣٠° شمالاً وهي بعينها العروض التي تكاد تتوزع في نطاقها أغلب الدول المتقدمة من الناحية التكنولوجية^(١) . أما في نصف الكرة الجنوبي فلا يتساوى توزيع اليابس والماء على الإطلاق .

H. A. Marmer «The Seas». New York, 1930, p. 88. (١)



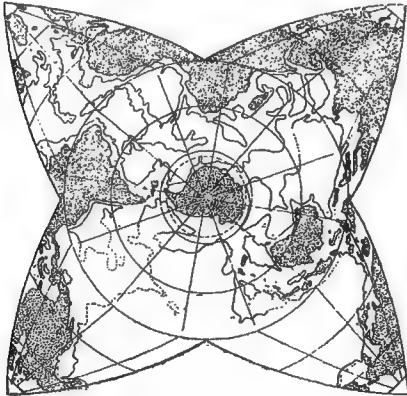
شكل (٢ - ١)



شكل (٢ - ب)

(رابعاً) يسود اليابس في نطاقين من نطاقات خطوط العروض ، يقع أحدهما في نصف الكرة الشالى فيما بين خطى عرض 70° و 40° شمالاً عبر أوسع امتداد لقارتي أوراسيا وأمريكا الشمالية ، ويقع النطاق الثانى في نصف الكرة الجنوبى في العروض الأعلى من خط 70° جنوباً حيث توجد قارة أنتاركتيه .

(خامساً) تمثل مياه المحيطات نطاقاً متصلاً يطوق كل أنحاء نصف الكرة الجنوبى - بحيث يكاد يخفى اليابس اختفاءً تاماً منه - وذلك في العروض التى تنحصر فيما بين خطى عرض 50° و 60° جنوباً . وتلقى مياه المحيطات الثلاثة الهادى والأطلنطى والهندي بمياه هذا المحيط الدائرى الجنوبى Southern Circumpolar Ocean^(١) (شكل ٣) وتصبح هذه المحيطات الثلاثة أشبه ما تكون بأذرع عملاقة لهذا المحيط ممدودة نحو الشمال ومتعصقة في نصف الكرة الشمالى ، ولو أن المحيط الهندى عبارة عن « نصف محيط » لأن يابس نصف الكرة الشمالى يسده ويغلقه من الشمال .



شكل (٣) المحيط الجنوبى بمسقطه شتاينهاور النجمى

(١) يسمى أحياناً بالمحيط الجنوبى Austral Ocean أو المحيط الانتاركتى

وعلى الرغم من أن المحيطات الثلاثة تبدو كخليجان للمحيط الدائري الجنوبي ، إلا أننا نلاحظ أن توزع كتل القارات هو الذى ساعد على ظهور كل محيط بحدود واضحة العالم ، وإن كان انسياع الماء في نصف الكرة الجنوبي يقف حائلا دون إمكان تخطيط الحدود الجنوبية التي تفصل المحيطات بعضها عن البعض الآخر تخطيطا جامعا مانعا ، مما حدا بعلماء الأوقيانوغرافيا إلى رسم حدود اعتبارية للمحيطات في العروض العليا في نصف الكرة الجنوبي^(١) .

وينقسم كل محيط بدوره إلى أقسام ثانوية لكل قسم منها حدود مورفولوجية تتسق مع سواحل الكتل القارية ، فهناك - على سبيل المثال - فرق واضح بين المحيط الواسع المفتوح وبين بحر يتخلل اليابس القارى أو مجموعات من الجزر . ولهذا كثيراً ما يطلق على البحار المنفصلة عن المحيطات والممدودة إلى درجة ما في صلب اليابس - يطلق عليها اسم البحار المجاورة Adjacent Seas ، كما أن هنالك بحاراً هامشية Marginal وأخرى متوسطة Mediterranean وغالباً ما يكون الحد الفاصل بين المحيط الواسع والبحر المجاور (أو الهامشي أو المتوسطى) حدّاً طبوغرافياً .

تحليل المنحنى الهيسومتري للكرة الأرضية :

نخلص من العرض السابق لتوزع اليابس والماء على سطح الأرض إلى أن هذا التوزيع أبعد ما يكون عن الانتظام ، وأن سواحل «الخليجان المحيطية» الثلاث حددتها مورفولوجيا حواف الجزر القارية . وقد يعنى لنا هنا أن نساءل عما إذا كانت حدود القارات التي تمثلها خطوط السواحل الحالية هي الحدود الحقيقية التي تفصل بين اليابس والماء ، أم أن هنالك نطاقات هامشية من القارات تغوص وتختفي تحت مياه المحيطات ومن ثم تمثل حوافها الحدود المورفولوجية الفاصلة حقيقياً بين الماء واليابس وهل مثل هذه الهوامش الفائضة تعد جزءاً من الماء أو من اليابس ؟

ولرد على هذين التساؤلين ، ينبغي لنا أن نحلل ما يعرف بالمنحنى الهيسومتري لسطح الكرة الأرضية المختلفة سواء ما يقع منها فوق مستوى سطح البحر أو دونه .

(٢) رسمت الحدود بين المحيطات الثلاثة في العروض العليا من نصف الكرة الجنوبي بمقتضى اتفاقية دولية وقعت في موناكو سنة ١٩٣٧ عن طريق المكتب الهيدروغرافى الدولى International Hydrographic Bureau

وقد كان «الفرد لوثر فجتر Alfred Lothar Weggenner» أول من قام بدراسة إحصائية لهذا الموضوع وأورد خلاصتها في جدول على النحو التالي^(١).

جدول رقم (٢)

النسب بالكيلومتر	فوق مستوى سطح البحر ٪ للأراضي الواقعة	العمق بالكيلومتر	٪ للأراضي الواقعة دون مستوى سطح البحر
صفر — ١	٠.٢١٣	صفر — ١	٠.٨٣٥
٢ — ١	٠.٤٧	٢ — ١	٠.٢٩٩
٣ — ٢	٠.٢٠	٣ — ٢	٠.٤٧
أكثر من ٣	٠.١٢	٤ — ٣	٠.١٣٩
مجموع اليابس	٠.٢٩٧	٥ — ٤	٠.٢٣٣
		٦ — ٥	٠.١٦٥
		أكثر من ٦	٠.١٠
		مجموع المحيط	٠.٧٠٨

ويتضح لنا من الجدول السابق ما يأتي :

١ — أن القدر الأعظم من مساحة اليابس (أكثر من ٧٠٪) أو ٢١.٣٪ من المساحة الاجمالية للأرض ، يقع فوق مستوى سطح البحر على منسوب أدنى من كيلو متر (٣٣٠ قدم) .

٢ — أن أكثر من نصف المساحة الاجمالية للمحيط (٥٧٪) أو ٤٠.٨٪ من المساحة الكلية للأرض ، يقع دون مستوى سطح البحر على عمق يزيد على الأربعة كيلو مترات .

٣ — أن نحو ٣٢٪ من مساحة المحيط (٢٣.٣٪ من مساحة الكرة الأرضية) يقع على عمق يتراوح بين الأربعة والخمسة كيلو مترات دون مستوى سطح البحر .

على أن دراسة « فجتر » (١٩١٢) كان بها شيء من القصور خاصة وأن الدراسات الأوقيانوغرافية كانت وقتذاك مازالت في مهدها ، ولم تكن أعماق

W. F. Hume «Terrestrial Theories». Cairo, Govt. press, 1948 pp. 46-48. (١)

المحيطات قد تم سرها، كما لم تكن هنالك أية خرائط مورفولوجية للمحيطات فيما عدا الخريطة التي نشرها جرمل Groff (في سنة ١٩١٢) بمقياس ١ : ٤٠ مليون .

وبمضي الوقت ، تمكن الباحثون من دراسة تضاريس قاع المحيط عن طريق تحليل خطوط العمق المتساوي isobaths التي رسمت فوق قاع البحر بنفس الكيفية التي تنشأ بها خطوط الكنتور على اليابس ، كما ظهرت بعض الخرائط المورفولوجية الدقيقة التي ولو أنها لا تغطي كل المحيطات ، إلا أنها كانت أساسا ضروريا للدراسات التحليلية للتضاريس القاعية التي أجراها عدد من الباحثين أمثال « Kossinna » (١٩٢١) و « Sverdrup » و « جونسون » و « دفان » . . . وغيرهم . ومن أمثلة هذه الخرائط^(١) :

1 — Le Carte générale Bathymetrique des océans .

وهي بمقياس ١ : ١٠ مليون وأنشأها القسم الهيدروغرافي في موناكو في سنة ١٩٣٥ وتقع في ١٦ لوحة رسمت بمسقط مركبتور :

2 — Chart of the Atlantic ocean

وقد رسمت فيها كل النتائج التي توصلت إليها بعثة السفينة الألمانية « متيور Meteor » التي جابت المحيط الأطلنطي في الفترة الممتدة بين ١٩٢٥ ، ١٩٣٩ . وهي خريطة عامة رسمت بمسقط لامبرت بمقياس ١ : ٢٠ مليون وبفاصل رأسي للعمق قدره ٥٠٠ متر .

٣ — الخريطة التي أعدها « شوت Schott » للمحيطين الهندي والمحادي في سنة ١٩٣٥ ، وهي بمقياس ١ : ٦٠ مليون .

٤ — خريطة بحار جزر الهند الشرقية التي أنشأها « فان راييل Van Riel » في سنة ١٩٣٤ .

٥ — خريطة « دفان Defant » التي أعدت في سنة ١٩٤٧ بفاصل رأسي قدره ١٠٠٠ متر .

وعلى أساس مثل هذه الخرائط وغيرها استطاع العلماء أن يدرسوا طبوغرافية قاع البحر على اعتبار أنها امتداد لتضاريس اليابس ، وعن طريق التحليل الاحصائي

A. Defant, op. cit., p. 13. (١)

لتفاوت مناسيب سطح الأرض تمكّنوا من معرفة العلاقة بين الارتفاعات والأعماق على سطح الأرض على نحو لا يختلف كثيرا عما توصل إليه « شجنر » في بداية العقد الثاني من القرن الحالي .

جدول رقم (٢) النسبة المئوية والمساحة في مناسيب الأرض المختلفة
(عن كوسينا ١٩٢١)

أولا : اليابس

النسبة المئوية	المساحة بملايين الكيلو مترات المربعة	النسب
٠.٠١	٥٠	أعلى من ٥٠٠٠ متر
٠.٠٥	٢٥٥	٤٠٠٠ — ٥٠٠٠
٠.٠٦	٣	٣٠٠٠ — ٤٠٠٠
٠.٢٠	١٠	٢٠٠٠ — ٣٠٠٠
٠.٤٧	٢٤	١٠٠٠ — ٢٠٠٠
٠.٥٣	٢٧	١٠٠٠ — ٥٠٠
٠.٦٥	٣٣	٥٠٠ — ٢٠٠
٠.٩٤	٤٨	٢٠٠ — صفر
٠.٢١٢٢	١٠٨	
٠.٢٩٢٥	١٤٨	الجملة

ثانيا : الماء

٠. ٥٦	٢٨٥	صفر — ٢٠٠
٠. ٣٠	١٥٥	٢٠٠ — ١٠٠٠
٠. ٢٩	١٥	١٠٠٠ — ٢٠٠٠
٠. ٤٨	٢٤٥	٢٠٠٠ — ٣٠٠٠
٠. ١٣٩	٧١	٣٠٠٠ — ٤٠٠٠
٠. ٢٣٣	١١٩	٤٠٠٠ — ٥٠٠٠
٠. ١٦٥	٨٤	٥٠٠٠ — ٦٠٠٠
٠. ٠٩	٤٥	أعمق من ٦٠٠٠ متر
٠. ٧٥٨	٣٦٢	الجملة

وتتضح لنا من الجدول السابق مجموعة من الحقائق أهمها :

١ — أن أعلى نسبة من مساحة سطح الأرض (٢١٣٪) تقع فوق مستوى البحر على منسوب أقل من ألف متر وتربو مساحتها الإجمالية على ١٠٨ مليون كيلو متر مربع

٢ — أن مساحة كبيرة تزيد على ٤٨ مليون كيلو متر مربع (٩٤٪) من مساحة الكرة الأرضية) تقع على منسوب أقل من مائتي متر فوق مستوى سطح البحر .

٣ — أن أعلى نسبة من مساحة المحيط تقع على عمق يتأرجح بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠ متر دون مستوى سطح البحر وبمتوسط قدره ٤٧٠٠ متر (٢٣٣٪) من مساحة الكرة الأرضية) وتبلغ مساحتها ١١٩ مليون كيلو متر مربع .

٤ — أن ٤٥٪ من مساحة سطح الأرض تنحصر بين منسوبي +١٠٠٠ متر ، — ٤٧٠٠ متر ، وأن ١٠٪ فقط من مساحة سطح الأرض تقع في المناسيب الأعلى من ١٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر والأعمق من — ٤٧٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

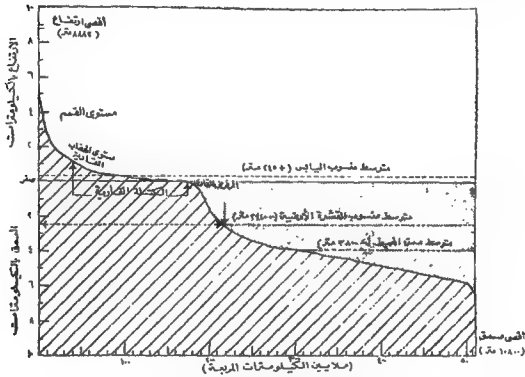
وعلى هذا يمكننا أيضا أن نستخلص من المنحنى المسبوجرافي لسطح الأرض وجود عدة مستويات على النحو الآتي :

(أولا) مستوى القمم Summit level ويضم كل الأراضي اليابسة التي تقع على منسوب أعلى من ألف متر فوق مستوى سطح البحر وهي تشغل مساحة تبلغ نحو ٤٠ مليون كيلو متر مربع ومتوسط منسوبها ٢٠٤٠ متر وأعلى ارتفاع قدره ٨٨٨٢ متر (قمة إفرست) .

(ثانياً) مستوى الهضاب القارية Level of continental plateaux ويضم كل مناطق اليابس التي يقل منسوبها عن ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر وبمتوسط قدره ٢٣٠ متر . وتشغل هذه الهضاب من سطح الأرض مساحة ١٠٨ مليون كيلو متر مربع .

(ثالثاً) مستوى الرفارف القارية Level of continental shelves ويضم كل روافد القارات التي تختفي تحت مياه المحيطات وتبدو كرصيف متدرج الانحدار

يتراوح عرضه بين ستة كيلومترات و ٢٤٠ كيلومتر، وينحصر بين مستوى سطح البحر وخط العمق المتساوي — ٢٠٠ متر (١٠٠ قامة) تحت مستوى سطح البحر، وهو يشغل من سطح الكرة الأرضية مساحة تبلغ نحو ٢٧٠ مليون كيلومتر مربع أى أكثر قليلا من ٠.٥٪ من مساحة الأرض الاجمالية (ونحو ٧.٦٪ من مساحة الماء). ويرى « دافن Defant » أن الرطاف القارية تعد جزءا لا يتجزأ من مساحة الهضاب القارية التى تصبح — والحالة هذه — نحو ١٣٦ مليون كيلومتر مربع، أو أكثر من ٢.٦٪ من مساحة الأرض كلها (١).



شكل (٤) المنحنى المورجاني للكرة الأرضية

(رابعا) السفح القارى Continental slope: وينحصر بين منسوب — ٢٠٠ متر (حافة الرف القارى) و — ٢٤٤٠ متر تحت سطح البحر (٢) ويمتوسط عمق قدره — ١٢٧٠ متر. وهو يشغل من سطح الأرض مساحة قدرها ٣٩ مليون كيلومتر مربع أو حوالى ٧.٦٪ من مساحتها الاجمالية، كما يحتل أكثر من ١.١٪ من مساحة

(١) انظر « دافن » المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) اذا افترضنا ان الكرة الارضية قد سويت تماما ففى هذه الحالة يصبح متوسط منسوب قشرها الصلبة — ٢٤٤٠ متر تحت سطح البحر .

المحيط . ويرى بعض العلماء (سفيردروب Sverdrup ، وجونسون Johnson ، وفلمنج Fleming^(١)) أن يدج السفح القارى مع الرفرف القارى بحيث يكونان معا ما يمكن أن يسمى بالدرج القارى Continental terrace أو حفة القارة ، ويتراوح اتساعه بين صفر (في حالة اختفاء الرفرف القارى كما هو الحال في ساحل يرو الغربى حيث تهوى جبال الأنديز بانحدار شديد إلى قاع المحيط) وأكثر من ١٢٨٠ كيلو متر ، ومتوسط قدره ٤٨ كيلو متراً^(٢) . وتصبح مساحة الدرج القارى في هذه الحالة نحو ٦٥ مليون كيلو متر مربع أو نحو ١٣٪ من مساحة الأرض الإجمالية ، وحوالى ١٨٪ من مساحة المحيطات .

(خامسا) مستوى قاع البحر العميق Deep-sea Bottom : ويتراوح عمقه بين ٢٤٤٠ متر إلى ٥٧٥٠ متر تحت مستوى سطح البحر ، بمتوسط قدره ٤٤٢٠ مترأ . ويحتل من سطح الأرض مساحة تزيد على ٢٨٤ مليون كيلو متر مربع أو أكثر من ٥٥٪ من المساحة الإجمالية للأرض وحوالى ٧٨٪ من مساحة المحيط — أى أن ما يقرب من أربعة أخماس مياه المحيط تقع فيما بين ٢٤٤٠ متر و ٥٧٥٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

(سادسا) مستوى الأغوار والأخاديد البحرية : ويزيد عمقه على ٥٧٥٠ متر تحت سطح البحر ، ويشغل من مساحة الكرة الأرضية ما يقرب من ١١ مليون كيلو متر مربع أو ٢٪ . ومتوسط العمق هنا ٦١٠٠ متر وأعماق الجهات أخذود إمدن Emden الذى يقع قريباً من جزيرة مندناو من مجموعة جزر الفلبين ، وهو يمثل أغور مكان على سطح الكرة الأرضية ، إذ يزيد عمقه على ١٠٣٦٣ متر (٣٥٤٠٠ قدم) .

الرفارف القارية حول المحيطات :

ويبدو لنا من التحليل السابق للمنحنى المهبسوجرافى للكرة الأرضية ، أن الرفارف القارية تمثل فى الحقيقة مناطق الانتقال بين الماء واليابس ، وتكاد تجمع الآراء على اعتبارها مجرد أجزاء غائصة من كتل القارات ، تكونت نتيجة طفيان مياه المحيط على

H. U. Sverdrup, M. W. Johnson, and R.H. Fleming «The oceans : Their physics, (١) chemistry and general biology: New York 7th Ed., 1957, pp. 20-21.

R. E. Coker, op. cit., p. 67. (٢)

هوامشها^(١) . وعلى هذا يمكن أن نتصور أنها كانت خلال مراحل التاريخ الجيولوجي للأرض بمثابة النطاقت «البرمائية amphibian» من الكرة الأرضية ، فقد كانت تغطي عليها مياه المحيط في بعض الفترات الجيولوجية . وتنحصر عنها في فترات أخرى ، مثلها في هذا كمثل الشواطئ baches التي تصبح جزءا من الماء في أوقات المد ، ومن اليابس في أوقات الجزر . وعلى هذا فمعنى وجود الرافرف القارية أن المحيطات في وقتنا الحالي مملوءة بالماء إلى أقصى طاقة لها ، مما أدى إلى غمر الهوامش القارية . وإذا تصورنا أن منسوب البحار والمحيطات قد انخفض نحو مائتي متر (١٠٠ قامة) فإن هذا كفيلا بإضافة ما يقرب من ١٨٪ إلى مساحة اليابس ، وإنقاص مساحة المحيط إلى ٧٢٪ من مساحته الحالية^(٢) .

وتحتل مياه البحار والمحيطات من مساحة سطح الأرض ٧٠٫٨٪ . ولكن البحار «المجاورة» و «المتوسطة» والهامشية التي تتخلل اليابس ، وتوجد متداخلة فيه تشغل من سطح الأرض نحو ٧٩٪ من مساحته الاجمالية ، مما يعني أن المحيطات المفتوحة الثلاث تمثل ٦٢٫٩٪ من مساحة الكرة الأرضية . ولعل أولى الحقائق التي يجدر الإلمام بها فيما يتصل بنمط توزيع الرافرف القارية ، إنما تتمثل في وجود النسبة الكبرى منها في البحار المجاورة وليس في المحيطات المفتوحة ، فمساحة الرافرف القارية تبلغ — كما سبق أن ذكرنا — نحو ٢٧٥ مليون كيلو متر مربع أو ٥٫٢٪ من مساحة الكرة الأرضية ويقع منها أكثر من الثلثين في البحار المجاورة والمتوسطة ومحف الثلث الباقي بسواحل المحيطات أي بنسبة ٣٫٥٪ إلى ١٫٧٪ . وتوضح لنا هذه الحقيقة أكثر إذا نسبت مساحة الرافرف القارية إلى مساحة كل من البحار المجاورة والمحيطات على حدة ، ففي هذه الحالة نجد أن ٤٣٫٧٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها الرافرف القارية في حين أنها لا توجد إلا في ٢٫٧٪ فقط من مساحة المحيطات كما يظهر في الجدول التالي^(٣) :

Rachael Carson «The sea around us» New York, Oxf. Univ. Press, 1950, (١) pp 23-25.

Francis P. Shepard «The Earth beneath the sea » Baltimore, 1959, p. 27. (٢)

A. Defant, op. cit., p. 16. (٣)

جدول رقم (٤)

التوزيع النسبي لمياه المحيط والبحار المجاورة على المناسيب المختلفة

المستوى		إلى مساحة الماء		مساحة الكرة الأرضية	
البحار المجاورة	من مساحة الأرض	الرفف القارى	٤٣٧٪	٣٥٪	
		السفح القارى	٣١٨٪	٢٥٪	
		البحر العميق	٢٤٥٪	١٩٪	
		١٠٠	٧٩٪		
المحيطات	من مساحة الأرض	الرفف القارى	٢٧٪	١٧٪	
		السفح القارى	٤٨٪	٣٠٪	
		البحر العميق	٩٢٥٪	٤٨٥٪	
		١٠٠	٦٢٩٪		

يتضح لنا إذن :

- أن ٢٧٪ الرفارف القارية توجد في البحار المجاورة والباقي في المحيطات .
- أن ٤٣٧٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها الرفارف القارية في حين أنها لا تتجاوز ٢٧٪ من مساحة المحيطات .
- أن السفوح القارية (التي تحتل ٥٥٪ من مساحة الأرض) تتوزع في كل من البحار المجاورة والمحيطات بنسبة ٥ : ٦
- أن ٣١٨٪ من مساحة البحار المجاورة تحتلها السفوح القارية في حين أنها لا تتجاوز ٤٨٪ من مساحة المحيطات .
- أن المياه العميقة تحتل من سطح الأرض ٦٠١٪ وتتقاسمها المحيطات والبحار بنسبة ١ : ٣٠٦
- أن المياه العميقة توجد في ٢٤٥٪ من مساحة البحار المجاورة بينما تحتل ٩٢٥٪ من مساحة المحيطات .

وهكذا يتضح لنا أن الملمح الأول فقط توزع الرفارف القارية يتمثل في تركز القدر الأكبر منها (الثلثين) في البحار ، مما يدل على أن البحار المجاورة والهامشية والمتوسطة كانت فيما مضى أقل مساحة مما هي عليه الآن ، وأن مساحات كبيرة من هوامش القارات المغطاة عليها تعرضت لغمر بحرى في الفترة الأخيرة من تاريخها الجيولوجى .

وإذا حاولنا بعد ذلك أن ندرس نمط توزيع الرفارف القارية في كل محيط من المحيطات الثلاثة — سواء يضم مساحة البحار المجاورة إلى جملة مساحة كل محيط أو بدونها — لتبين لنا أيضا أن توزيع الرفارف في المحيطات الثلاث يتفاير بشكل ملحوظ كما يتضح من الجدول التالى .

جدول رقم (٥)
نسبة الرفارف القارية الى مساحة المحيطات

المحيط	النسبة إلى المساحة الإجمالية		النسبة إلى المساحة دون البحار المجاورة	
	النسبة %	المساحة (١)	النسبة %	المساحة (١)
الأطلنطى	١٣ر٣	١٠٦ر٢	٥ر٥	٨٢ر٣
الهادى	٥ر٧	١٧٩ر٨	١ر٧	١٦٥ر٣
الهندي	٤ر٢	٧٥ر٠	٣ر٢	٧٣ر٤
المحيطات كلها	٧ر٦	٣٦١ر٠ (٢)	٣ر١	٣٢١ر٠ (٢)

فالبحر الأطلنطى — إذن — في مقدمة المحيطات الثلاثة من حيث نسبة مساحة الرفارف القارية إلى جملة مساحته ، فهي تبلغ ٥ر٥% في مياهه المكشوفة ، وتنفز إلى ١٣ر٣% إذا أضيفت مساحات البحار المجاورة التي تزيد على ٢٣ر٩ مليون كيلومتر

(١) المساحة بملايين الكيلومترات المربعة

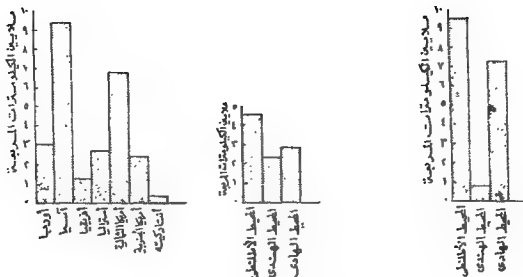
(٢) الفرق بين الرقمين (٤٠ مليون كيلومتر مربع) يمثل مساحة البحار المجاورة وهي تعادل ٧ر٦% من مساحة الأرض ونحو ١١% من مساحة المحيط

مربع (أو ٠.٢٢٪ من مساحته الاجمالية) مما يؤيد ما سبق ذكره . من أن النسبة الكبرى من الرافرف القارية توجد في البحار المجاورة . ومن أمثلة البحار المجاورة في المحيط الأطلنطي : البحر البلطي (ومتوسط عمقه — ٥٥ متراً) وبحر الشمال (— ٩٤ متراً) ، والقنال الإنجليزي والبحر الأيرلندي (— ٥٨ متراً) ، والبحر المتوسط والأسود (— ١٤٥٨ متراً) والبحر المتوسط الأمريكي (— ٢١٧٤) والبحر المتوسط القطبي (— ١٥٢٦ م) ، وخليج هدسن (— ١٢٨ متراً) ، وخليج سانت لورانس (— ١٢٧ متراً) . هذا إذا اعتبرنا أن مياه المحيط الأطلنطي تقع شمالي قارة أنتاركتة وتضم البحر المتوسط القطبي ، بحيث يفصلها عن المحيط الهادى خط يتمشى مع أقصى مسافة بين كيب هورن (٧٠° غرباً) وجزر شتلند الجنوبية South Shetlands — في الجنوب — كما يمر الحد الفاصل بينهما في الشمال في بحر برنج Bering الذى لا يتجاوز انساعه ٥٨ كم ولا يزيد عمقه على ٥٥ متر . أما الحد الفاصل بين المحيطين الهندي والأطلنطي فينتطبق في المحيط الجنوبي على خط طول ٢٠° شرقاً المار برأس الرجاء الصالح^(١) . ومعنى هذا — إذن — أن المحيط الأطلنطي من أكثر المحيطات امتداداً وتفرعاً داخل اليابس ، فهو يستأثر وحده بما يقرب من ٦٠٪ من مساحة البحار المجاورة ، التى تتميز مساحات كبيرة منها بوقوعها دون منسوب — ٢٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر .

ويرجع في الحقيقة عظم مساحة الرافرف القارية في البحار المجاورة التابعة للمحيط الأطلنطي ، إلى أن أغلبها تأثر بالقطاعات الجليدية البلايستوسينية التى غطت مساحات كبيرة من شمال المحيط الأطلنطي ، وكان لها تأثير توازنى isostatic أدى إلى هبوط مساحات كبيرة من أراضي شمال أوروبا وأمريكا الشمالية ، فطفت عليها مياه المحيط وغمرتها . وهكذا نستطيع القول بأن بحر الشمال ، والبحر المتوسط القطبي وخليج هدسون ، والبحر البلطي كلها تمثل بحاراً هامشية epicontinental غمرت هوامش القارات التى ناهت تحت ثقل الجليد وكونت الرافرف القارية ، فكانت هذه البحار بحار رفرفية Shelf Seas^(٢) .

H. U. Sverdrup and others, op. cit., p. 11. (١)

R. A. Daly «The floor of the ocean». University of North Carolina Press, (٢)
1942. pp. 100-103.



شكل (٥) مساحات الرفارف القارية في المحيطات المكشوفة
(الرسم اليمين) وفي البحار المجاورة (الرسم الأوسط) وحول القارات

ويضاف إلى هذا أن أثر الجليد البلايستوسيني لم يقتصر على المناطق التي رزحت تحت غطاءاته بل نجد أن مياه البحر المتوسط والبحر الأسود، وخليج المكسيك (البحر المتوسط الأمريكي)، كانت تتعرض هي الأخرى — وتقتاذك — لتذبذب في مناسبتها بين ارتفاع وانخفاض نتيجة تنافس الفترات الجليدية، وبين الجليدية، ففي الأولى كانت تحتبس المياه عن المحيطات فينتفض منسوبها، وكانت تعود إليها في الفترات ما بين الجليدية، كما أسفر ذوبان الجليد النهائي (بعد انتهاء الجليدي) عن حدوث ارتفاع عام في مستوى سطح الماء — كان عالميا ولم تتأثر به فقط مياه المحيط الأطلسي وحده.

فكان هنالك إذن عاملين اثنين أسهما معا في زيادة نصيب المحيط الأطلسي من الرفارف (أولهما) استثنائه بنحو ٦٠٪ من مساحة البحار المجاورة (وثانيهما) تأثره بصورة بالغة بالتغيرات التي ترتبت على تكون الجليد في البلايستوسين.

أما المحيط الهندي فيأتي في المركز الثاني من حيث نسبة رطافته القارية رغم أنه أصغر المحيطات الثلاثة، إذ تبلغ هذه النسبة إلى جملة مساحته ٣٢٪ في المياه المكشوفة، و ٤٢٪ في مياهه كلها داخلة فيها مساحات البحار المجاورة. ويدل

تقارب هاتين النسبتين على ضالة مساحة البحار المجاورة للمحيط الهندي وهي لا تزيد على نحو ١٥ مليون كيلو متر مربع ، وتمثل في :

= البحر الأحمر ومساحته الكلية ٤٣٨ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٤٩١ مترا
= الخليج العربي ومساحته الكلية ٢٣٩ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٢٥ مترا
= بحر أندامان ومساحته الكلية ٧٩٨ ألف كيلو متر مربع ومتوسط عمقه — ٨٧٠ مترا^(١).

وبأني المحيط الهادئ في المرتبة الثالثة ، إذ تبلغ نسبة الرطاف إلى مساحة مياهه المكشوفة ١.١٧٪ في حين أنها تصل إلى ٠.٥٧٪ إذا ما أضيفت إليها البحار المجاورة . والمحيط الهادئ كأنه أكبر المحيطات الثلاثة إذ تزيد مساحته على ضعف مساحة المحيط الهندي كما أن هنالك مجموعة كبيرة من البحار المجاورة التي تدخل ضمن مساحته وتزيد مساحتها على ١٤,٥ مليون كيلو متر مربع مثل: البحر المتوسط الآسيوي (ومتوسط عمقه ١٢١٢ مترا) وبحر أوكسك (— ٨٣٨ مترا) وبحر اليابان (— ١٣٥٠ مترا) ، وبحر الصين الشرقي (— ١٨٨ مترا) ، وخليج كاليفورنيا (— ٨١٣ مترا) ومضيق باس (— ٧٠ مترا) — هذا إذا اعتبرنا الحد الفاصل بين المحيطين الهندي والمحادي يتسق مع خط يبدأ في شبه جزيرة الملايو ويمر بجزر سومطرة ، وجاوة ، وتيمور حتى رأس لندنديري Cape Londonderry في استراليا وجزيرة تيمانيا ثم ينطبق مع خط طول ١٤٧° شرقا حتى سواحل أنتاركتة . فكان تداخل مياه المحيط الهادئ في البحار المجاورة الآفة الذكر ، هو السبب إذن في تزايد نسبة مساحة الرطاف القارية فيه من ١.١٧٪ إلى ٠.٥٧٪ من مساحته . وأما إذا استبعدنا البحار المجاورة ، فيبدو المحيط الهادئ على شكل مسطح هائل من المياه العميقة التي تحدها من كل الجهات تقريبا سفوح قارية شديدة الانحدار تهوى فجأة من القمم الجبلية العالية إلى أغوار مياهه السحيقة التي يبلغ متوسط عمقها — ٤٢٨٢ مترا ، وكثيرا ما يعرف هذا السياج الجبلي « بحلقة النار » التي تتميز بكثرة حدوث الزلازل والبراكين في كل أنحائها دلالة على حداثة تكوينها

A. Defant, op. cit., Table 4, p. 17. (١)

الجيولوجى : وعلى أنها تعد من مناطق « التغير السريع » التى ما زالت تتشكل حتى وقتنا الحالى — ولهذا لا نعجب إذن إذا كانت مياه المحيط الهادى المكشوفة تضم أقل نسبة من مساحة الرفارف القارية .

مساحات الرفارف حول كتل القارات :

ومناطق الرفارف القارية لم تدرس حتى الآن دراسة مستفيضة ولم تحدد معالمها تحديداً دقيقاً ، وليس أدل على هذا من أن خط عمق — ٢٠٠ متر يعتبر فى أغلب الأحيان بمثابة الحد الخارجى للرفرف القارى ، ولكن الأمريكى « شبارد » Shepard^(١) يرى أن الحد الخارجى للرفرف القارى يتحصر بين — ١١٠ متر ، — ١٤٦ متر (٦٠ — ٨٠ قامة) ، ويقصره آخرون على المناطق التى تنحصر بين سيف البحر Shoreline و — ٢٥٠ متر . ويظهر الاختلاف والتضارب أيضا فى حساب مساحات الرفارف القارية ؛ إذ يرى « واجنر » Wagner أن مساحتها تبلغ ٣٠٠٦ مليون كيلو متر مربع ، ويرى « كيجل » Kegel أنها لا تتجاوز ٢٩٠٥ مليون كيلو متر مربع ، ويعتقد غيرهما أنها تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مليون كيلو متر مربع .

وإزاء هذا التضارب فى تقديرات العلماء لا يمعنا إلا الاعتماد على الرقم الذى أورده « كوسيننا » Kossinna^(١٩٢١) والذى يرد فى أغلب المصادر الأوقيانوغرافية ؛ فقد وجد أن الرفرف القارى العالمى يشغل من سطح الأرض مساحة تبلغ حوالى ٢٧٠٥ مليون كيلو متر مربع (وهى تعادل ٧٠٦٪ من مساحة المحيطات ، و ٥٢٪ من مساحة الكرة الأرضية) .

وإذا ما حاولنا بعد ذلك أن نبين مساحات الرفارف القارية بالنسبة للقارات والمحيطات لوجدنا أن توزيعها على النحو الآتى :

Francis P. Shepard, op. cit., p. 32. (١)

A. Defant, op. cit., p. 21 (٢)

جدول رقم (٦)

مساحات الرفارف القارية في القارات والمحيطات والبحار

القارات		المحيطات		البحار المجاورة	
اسم القارة	مساحة الرفرف*	اسم المحيط	مساحة الرفرف*	اسم المحيط	مساحة الرفرف*
أوروبا . .	٣١١	الأطلنطي	٤٥٩	الأطلنطي	٩٥٢
آسيا . .	٩٣٨	الهندي	٢٣٧	الهندي	٠٨٠
أفريقيا . .	١٢٨	الهادي	٢٨٩	الهادي	٧٧٢
استراليا . .	٢٧٠	المجموع	٩٨٥	المجموع	١٧٦٤
أمريكا الشمالية	٦٧٤				
أمريكا الجنوبية	٢٤٢	مجموع مساحة الرفارف في المحيطات والبحار	٢٧٤٩	٢٧٤٩	٢٧٤٩
أنتاركتة . .	٠٣٦				
الجزر . .	١٥٠				
المجموع	٢٧٤٩				

* المساحة بملايين الكيلومترات المربعة .

ويمكننا أن نستخلص من الجدول السابق الحقائق الآتية :

١ — أن الرفرف الآسيوي هو أكبر الرفارف القارية إذ تبلغ مساحته نحو ٩٤ مليون كيلو متر مربع أو حوالي ٣٤٪ من المساحة الإجمالية للرفارف القارية . وتأتي أمريكا الشمالية بعد آسيا مباشرة إذ تستأثر هي الأخرى بنحو ٢٤٪ من مساحة الرفارف القارية ، كما تحتل أوروبا المركز الثالث بنسبة تزيد على ١١٪ من المساحة العالية وتليها كل من استراليا ، وأمريكا الجنوبية ، وإفريقيا وأنتاركتة . ومعنى هذا إذن أن القارات الثلاث آسيا ، وأمريكا الشمالية تستأثر بأكثر من ٦٩٪ من مساحة الرفارف القارية بينما لا يتجاوز نصيب القارات الأربع الأخرى الثلث أو أقل^(١) .

Rachel Carson «The edge of the Sea» Boston, 1955, p. 210.

(١)

٢ — تقع القارات الثلاث التي تحيط بسواحلها المساحة الكبرى من الرافرف القارية — كما نرى في نصف الكرة الشمالى ، وتنحصر مساحات كبيرة من كل قارة منها بين العروض العليا مما كان سببا في تأثرها بالغطاء الجليدى البلايستوسينى الذى غطى مساحات واسعة من المناطق الشمالية لهذه القارات ، والذى أدى من بين ما أدى إلى أن تنوء قشرة الأرض تحت ثقله وضغطه ، وغمرتها مياه البحار بعد ذوبان الجليد . أما القارات الأخرى التى تقع في نصف الكرة الجنوبي أو تتعمق فيه مساحات كبيرة منها ، فكانت بمنأى عن تأثير الغطاءات الجليدية^(١) .

٣ — قارة أنتاركتيه تآنى في ذيل قائمة القارات من ناحية مساحة رفررفها القارى الذى لا يزيد على ٣٩٠ ألف كيلو متر مربع ، وربما يعزى هذا إلى ضآلة معلوماتنا عن طبيعة أرضفة هذه القارة وتحديدفا ، وربما يرجع أيضا إلى كونفا عبارة عن كتلة واحدة ملمومة خالية من النشرشر والتعرج ، ولا تتعمق داخلها بحار مجاورة من أى نوع .

٤ — قارة أفريقيا على الرغم من أنها ثانية القارات من حيث المساحة إلا أن مساحة رفررفها القارى تبلغ أقل من ١٣ مليون كيلو متر مربع ، ويرجع هذا إلى طبيعتها الجندوانية التى جعلتها أشبه مانكون بضر horst هائل يهوى إلى البحار المحيطة به بمحواف رأسفة هاربة ، كما يعزى أيضا إلى انعدام تعرج سواحلها وتشررها ، فاذا اتبعنا الطريقة التى سار وفقها « كارل ريتز » لتحديد نسبة طول الساحل إلى جملة مساحة كل قارة ، لوجدنا أن كل ميل من السواحل الأوربية تقابله مساحة تبلغ ٢٨٩ ميل مربع ، وأن النسبة في استراليا هى ١ : ٥٣٤ ، وفي آسيا ١ : ٧٦٣ ، وفي أمريكا الشمالية ١ : ٤٠٧ ، وفي أمريكا الجنوبية ١ : ٦٨٩ ، أما أفريقيا فى ١ : ١٤٢٠ (أى خمس طول السواحل الأوربية)^(٢) ، ومعنى هذا أن سواحل هذه القارة أقصر طولاف من سواحل أية قارة أخرى (باستثناء أنتاركتيه) ، ويتم رفررفها هو الآخر بقصر امتداده طلالا أنه يمثل امتداداف بنائيا للساحل .

(١) F. P. Shepard, op. cit., p. 96.

(٢) محمد صفى الدين « أفريقيا بين الدول الأوربية » القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٨٧ — ٨٨

٥ — يوضح الجدول التالى نسبة مساحة الرفرف القارى إلى المساحة الاجمالية
فى كل قارة على حده :

جدول رقم (٧)

القارة	المساحة بملايين الكيلو مترات المربعة	مساحة الرفرف القارى بملايين الكيلومترات المربعة	النسبة المئوية
آسيا . . .	٤٢٥٧	٩٢٣٨	٢١.٩٪
أفريقيا . . .	٢٩٢٨	١٥٢٨	٤.١٪
أمريكا الشمالية . .	٢٤٥٢	٦٥٧٤	٢٧.٢٪
أمريكا الجنوبية . .	١٧٥٦	٢٥٤٢	١٣.٧٪
أنتاركتة . . .	١٣٥٨	٥٣٦	٣.٦٪
أوروبا . . .	٩٥٧	٣١١	٣.٢٪
استراليا . . .	٧٥٧	٢٥٧٠	٣.٥٪
الجزر المحيطية والبحرية	٣٥٤	١٥٥٠	٤٤.١٪
اليابس . . .	١٤٨٥٩	٢٧٥٤٩	١٨.٤٪

ويظهر من الأرقام السابقة أن قارة استراليا تحتل مكان الصدارة بين القارات من ناحية نسبة مساحة رفرها إلى مساحتها الإجمالية ، ويرجع هذا إلى عظم مساحة هوامش هذه القارة التى كانت تمثل فى البلايستوسين معاير أرضية توصل بينها وبين جزيرة غينيا الجديدة الواقعة فى شمالها ، وبينها وبين جزيرة تيزمانيا فى الجنوب^(١) ، وعلى هذا يمثل مضيق باس بحراً رفرها مثله فى هذا كتل خليج كريتاريا فى الشمال . ويعتقد عدد كبير من العلماء أن قارة استراليا كان بينها وبين آسيا اتصال أرضى فى البلايستوسين ، ولكنه انعدم بعد انتهاء هذا العصر نتيجة ارتفاع مستوى الماء العالمى فى أعقاب العصر الجليدى .

(١) ابراهيم رزقانة « الماير الارضية فى البلايستوسين » مجلة كلية الآداب
بجامعة القاهرة ١٩٥٥

أما أوروبا التي تحتل المركز الثاني ، فيعزى عظم نسبة رفرها إلى مساحتها (وهي نسبة تزيد على الثلث) إلى تأثيرها بالجليد البلايستوسيني ، وإلى كثرة تشرشر سواحلها وتعرجها ، وإلى عظم مساحات البحار الهامشية والمتوسطة والمجاورة التي تتمتع في ياسها وتتداخل فيه مثل :

- (أ) بحر الشمال وتبلغ مساحته ٥٧٥ ألف كيلو متر مربع .
 - (ب) البحر البلطى وتبلغ مساحته ٤٢٢ ألف كيلو متر مربع .
 - (ج) البحر المتوسط والبحر الأسود ومساحتها معا ٢٩٦٩ ألف كيلو متر مربع .
 - (د) البحر المتوسط القطبي ومساحته ١٤٠٥٧ ألف كيلو متر مربع .
 - (هـ) القنال الانجليزي والبحر الايرلندي ومساحتهما معا ١٧٨ ألف كيلو متر مربع^(١)
- وتأتي قارة أمريكا الشمالية في المركز الثالث ، إذ يحتل رفرها ما يقرب من ٢٧,٨٪ من مساحتها الكلية ، وقد تأثرت المناطق الشمالية من هذه القارة بالغطاء الجليدي في البلايستوسين ، كما تتميز سواحلها بعظم طولها ، وتعمق فيها أيضا بعض البحار المتوسطة (مثل خليج هدسون الذي تبلغ مساحته ١,٢٣٣ ألف كيلو متر مربع ، والبحر المتوسط الأمريكي ومساحته ٣١١ ألف كيلو متر مربع) هذا بالإضافة إلى خليج سانت لورنس (ومساحته ٢٣٨ ألف كيلو متر مربع) .
- وقارة آسيا على الرغم من أنها أكبر القارات مساحة إلا أن نسبة مساحة الرافرف القارية التي تحيط بها لا تزيد كثيراً على الخمس (٢١,٩٪) ، وهذا وإن كانت تستأثر بأكبر مساحة للرافرف القارية (٩,٣٨ مليون كيلو متر مربع) .
- ويدل هذا على أن نسبة مساحة الرافرف في كل قارة لا تتأثر فقط بعظم مساحة الكتلة القارية ، بقدر ما تتأثر بعوامل أخرى مثل طول السواحل ، ودرجة تشرشرها ، ونسبة البحار المجاورة الضحلة ، ومدى التأثير بالجليد البلايستوسيني .
- ففي حالة القارة الآسيوية لا تزيد نسبة طول السواحل إلى مساحتها عن ١ : ٤٩٠ .
- كما أن سواحلها ليست بدرجة تشرشر وتعرج السواحل الأوربية ، هذا فضلاً عن أن أغلب مساحات بحارها الهامشية تزيد أعماقها على ٢٠٠ متر .

A. Defant, op. cit., Table IV., p. 17. (1)

والقارة الإفريقية التي تعد ثانية القارات مساحة لا تزيد نسبة رافرها على ١٤.٤٪. ويرجع هذا إلى أن خطوط الكتور على طول سواحلها قد جعلت من هذه السواحل مجرد خط خال من أي تعرج^(١)، يهوى إلى بحر لاقاع له (trou sans fond)^(٢)، كما تكاد تخلو من أي بحار هامشية أو متوسطة فيما عدا البحر الأحمر (٤٣٨ ألف كيلو متر مربع) ولو أن المياه التي يقل عمقها عن ٢٠٠ متر لا تشغل من مساحته إلا ما يقرب من الربع فقط.

أما قارة أنتاركتة فهي أقل القارات من حيث نسبة الرفارف القارية (٢.٢٨٪) وذلك لأنها عبارة عن كتلة مملوءة عديمة الأطراف، ذات سواحل تكاد تخلو من أي تعرج (فيما عدا سواحل جراهام لاند في شمالها الغربي) هذا فضلا عن إحاطتها بمياه المحيط الجنوبي الذي يطوق نصف الكرة الجنوبي فيما بين خطي عرض ٥٥°، ٩٥° جنوبا.

الخصائص الطبوغرافية للرفارف القارية :

يتسم المظهر الطبوغرافي لاقاع البحر بمجوار الكتل القارية بأنه ينتظم في نطاقات تبدأ من سيف البحر shoreline وتنتهى في أغوار المحيطات السحيقة، وأول ما يظهر من هذه التناقضات التي تسير غالبا موازية للساحل — هو الشاطئ beach وهو جزء من الماء في أوقات المد وجزء من اليابس في فترات الجزر^(٣)، وتبلغ مساحته (في العالم) كما قدرها «شوت Schott»^(٤) نحو ١٦ مليون كيلو متر مربع أو ٤.٠٪ من مساحة المحيط، ونحو ١.٠٩٪ من مساحة اليابس. ويمتد الرفرف القاري خارج نطاق الشواطئ على شكل «مصطبة» غائصة تضيق أحيانا وتستعرض أحيانا أخرى، ولكنها نادرا ما تختفى تماما، إذ يرى «كننج»^(٥) مثلا أن اتساع الرفرف

(١) محمد صفى الدين «إفريقيا بين الدول الأوروبية» ص ٧

(٢) Géographie Universelle, Tome XI, p. 473.

(٣) محمد صفى الدين «قشرة الأرض» الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٦١. ص ٢٩٩

(٤) A. Defant, op. cit., p. 19.

(٥) L. C. King. «The Morphology of the earth : A Study and Synthesis of World Seabery. » Chapter XVI New York, 1982, p. 538.

القارى يتراوح بين سبعة كيلو مترات و ٢٤٠ كيلو متر (٤ ميل — ١٥٠ ميل) وقد يصل إلى ٣٢٠ كيلومتر (٢٠٠ ميل) كما هي الحال بالقرب من جزيرة نيوفونلاند ، هذا فى حين أن «سفر دروب»^(١) يرى أن اتساع الرفرف القارى يتأرجح بين صفر ، ١٢٨٠ كيلو متر (٨٠٠ ميل) وبمتوسط قدره ٤٨ كيلو متر (٣٠ ميل) كما أن أوسع الرفارف يوجد على طول ساحل سيبيريا الشمالى .

وفىما يتصل بعمق الرفرف القارى تختلف أيضا تقديرات العلماء وتضارب ؛ «سفر دروب» مثلا — يرى أن الرفرف القارى يضم كل المناطق التى تنحصر بين مستوى سطح البحر وخط العمق المتساوى — ١٠٠ قامة (٢٠٠ متر) ، ويرى «شرد»^(٢) أن الحد الخارجى للرفرف القارى يقع على عمق يتراوح بين ١٤٦٠، ١١٠ متر (٦٠ — ٨٠ قامة) فى حين أن «كنيج» يجعل عمقه يتأرجح بين ١٥٠ ، ٤٠٠ متر مع أنه نادراً ما يصل العمق إلى هذا القدر .

وأمام هذا التضارب لا يسعنا إلا اتخاذ رقم «سفر دروب» الخاص بالحد الخارجى للرفرف القارى (— ٢٠٠ متر) ومدى اتساعه ، على أنه أكثر التقديرات قربا من الواقع ، وخاصة وأن عدداً كبيراً من الاوقيانوغرافيين يعتبرها قياسية وبنوا عليها الكثير من النتائج . وعلى هذا ، فالرفرف القارى يحده إذن من الخارج خط عمق — ٢٠٠ متر ، ويتذبذب اتساعه ويتأرجح ؛ فهو يبلغ حداً أدنى فى السواحل الجبلية ويصل إلى أقصى اتساع له على طول السواحل التى تأثرت بالجليد ، وعند مصبات الأنهار الكبرى ، وأمام السواحل السهلية المتسعة .

والرفرف القارى إجمالاً ، متدرج فى انحداره ، إذ لا يزيد معدل انحداره عن قائمتين فى كل ميل أو بنسبة قدرها ٠.٢٪ ، وبزاوية تبلغ فى المتوسط نحو سبع دقائق ، ولو أنها تتراوح بين أقل من درجة ونصف . وتزايد درجة الانحدار تدريجياً مع تزايد العمق حتى تصل إلى الحد الخارجى (— ٢٠٠ متر) . وجددير بالذكر هنا ، أن أقل

(١) Sverdrup, op. cit., p. 21

(٢) Shepard, op. cit., p. 167

الانحدار يمكن لعين الانسان أن تلحظه هو ١٧ دقيقة على حد قول « ليتل هالز »^(١) (١٩٣٢) ومعنى هذا إذن أن الرفع القارى يبدو — بصورة عامة — أفقياً مسطحاً فيما عدا ما قد يوجد فيه من بعض مظاهر عدم الاستواء ، وثمة فرق بين التسطح والاستواء ، فقد تكون الهضبة أفقية مسطحة ولكنها كثيرة الأخاديد والوهاد .

وعند الحد الخارجى للرفع القارى ، تزايد درجة الانحدار دفعة واحدة إلى أكثر من ثلاث درجات ، وقد تصل فى بعض الجهات إلى ما بين ٦ ، ١٠ درجات ، ويدل هذا التغير التفاضلى فى الانحدار على أننا تركنا الرفع القارى إلى السفح القارى . وقد وجد « شيرد » من دراسته خمسمائة مقطع جانبي للرفارف القارية فى أنحاء شتى من العالم ، أن معدل انحدار السفح القارى slope يتغير بتغير تضاريس الساحل المقابل ، فهو أمام السواحل الجبلية يكاد يربو فى المتوسط على ٦.٠٪ (٣٠.٩°) بينما أمام السواحل السهلية لا يزيد على ٣.٥٪ (درجتين) . ويبلغ متوسط ميل السفح القارى أكثر من خمس درجات على طول سواحل المحيط الهادى ، ونحو ثلاث درجات على طول سواحل المحيطين الأطلنطى والهندي^(٢) . ومن المعروف أن الرواسب لا يمكنها أن تتجمع وتستقر إذا ما تجاوزت درجة الانحدار درجتين ، ومعنى هذا أن السفوح القارية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون مناطق للارساب depositional إلا فى بعض الحالات النادرة .

ونادراً ما يبدو الرفع القارى مستوى السطح كما كان يظن من قبل ، إذ كثيراً ما تقطعه الأودية الأخدودية Canyons والشقوق ، والخوائق ، والأغوار ، وغيرها من الصور المورفولوجية المحفورة التى تدل على عظم تأثير المياه وفعاليتها فى تكوينات الرافرف القارية ، ممثلة فى التيارات البحرية وتيارات المد والجزر . وتيارات المد والجزر بالذات . لها من القوة والسرعة ما يجعلها تندقق على الرافرف الضحلة فتنتح فيها وتحفر^(٣) . وقد استطاع « شيرد » أن يسجل وجود عدد كبير من التلال التى يصل منسوبها إلى أكثر من ١٢ متراً وذلك فى أكثر من ٦٠٪ من مساحة المناطق

(١) Sverdrup and others, op. cit., p. 21.

(٢) King, L. op. cit., p. 539.

(٣) Defant, Albert, op. cit., pp. 19-20.

التي درسها ، وتحصر هذه التلال بين بعضها والبعض الآخر مناطق واطئة تشغل أكثر من ٣٥ ٪ من المساحة ، وبعض هذه المناطق الواطئة عبارة عن أحواض طويلة وبعضها الآخر عبارة عن أودية غائصة^(١) . وفي المناطق التي تتوزع فيها رافارف قارية نجمت عن تأثير الغطاءات الجليدية ، كثيراً ما تظهر الكتبان الجليدية البضاوية الشكل drumlins^(٢) ، كما هي الحال في البحر الأيرلندي فيما بين سواحل أيرلندة الشرقية واسكتلندة . ومعنى هذا إذن أن التوجات والحفر التي تظهر على أسطح الرافارف القارية إنما يمكن أن تعزى في الغالب إلى غمر المظاهر الطبوغرافية الساحلية بمياه البحار والمحيطات .

وقد تعترض بعض الرافارف القارية مدرجات واسعة تبرز منها بعض التلال المرتفعة التي قد تظهر فوق سطح البحر على شكل جزر بعضها بركاني مثل جزر كناريا . والمهم هو أن أغلب مظاهر عدم الانتظام في الرافارف القارية إنما توجد أمام السواحل التي تأثرت بالجليد ومن ثم تعد من نتاج التعرية الجليدية . ولهذا كثيراً ما يعد الرفرف القاري — كما سبق أن ذكرنا — بمثابة جزء من الكتلة القارية تعرض لطغيان بحري ، ويرجع تكوينه كما يعزى تشكيله الطبوغرافي إلى حركة انفصال الكتل القارية عن بعضها (زحزحة القارات) ثم تحت السواحل بفعل الأمواج . وليس أدل على صحة هذا القول من أن الرفرف القاري الذي يمتد أمام ساحل كاليفورنيا يمتد فيه نطاقات من الحافات الفقيرة الغائصة Submarine ridges تسير في خطوط موازية لخطوط البنية التي توجد على الساحل المقابل . كما أن بعض الأحواض التي تنحصر بين هذه الحافات ، يوجد صنوها على اليابس مثل أحواض فنتورا Ventura ، لوس أنجلوس Los Angeles وسان فرناندو ، وسان جبريل ، وسان برناردينو^(٣) . فلا شك إذن أن رفرف كاليفورنيا يعد بمثابة جزء غائص من قارة أمريكا الشمالية ، فقد تعرضت هوامشها الغربية لطغيان ضحل من المحيط إبان العصر الكريياسي ، ثم انحسر

(١) Shepard, F. P. op. cit., p. 82.

(٢) Daly, op. cit., p. 28.

(٣) Emery, K. O., and Shepard, F. P. «Lithology of the Sea Floor off Southern California.» Bull. Geol. Soc. Am., vol. 56, pp. 431-478.

عنها الماء وأصبحت أرضاً يابسة في بداية الزمن الثالث ، وغاصت مرة أخرى في أواسط الميوسين ، ثم رفعت وتصدعت في بداية البلايوسين وغمرت بمياه المحيط في البلايستوسين (في أواخره) .

ويبدو أيضاً أن التواء ساحل كوينزلاند في شرق استراليا قد ارتبط بهبوط حاشية من الأرض تدخل في نطاق الحاجز المرجاني العظيم Great barrier reef الذي ترصعه مجموعة من الجزر أشبه ماتكون بالظهور horsts^(١) ، وتكاد تتألف هذه الجزر برمتها من الجرانيت والازدواز والحجر الجيري — أى من نفس تكوينات الساحل المقابل . وقد تعرضت كل المناطق التي تقع شرقي خط تقسيم الماء القديم للهبوط على طول الصدع الساحلي ، فظفت عليها مياه المحيط ، وأصبحت منابع ورهوس الأنهار التي كانت تنصرف شرقاً إلى المحيط ، تبدو وكأنها أودية مغلقة على الجانب المرتفع من الحافة المتصدعة . فكان الرفرف القاري هنا يشغل الجانب الهابط من الصدع الساحلي مما يؤكد الارتباط البنائي بين الساحل والرفرف القاري .

وعلى الرغم من أن الرفارف القارية وحواشيا تعتبر من الناحية التركيبية جزءاً من اليابس القاري بطبيعته السيلالية Sialic (إذا أنها تتألف من صخور جرانيتية مثلها في هذا كمثل كتل القارات ذاتها ، كما تتأثر تكتونيا بالأرض اليابسة) ، إلا أن هيئتها وشكلها وطبوغرافيتها تعزى إلى مدى تأثرها بالعوامل البحرية المختلفة^(٢) .

وكثيراً ما تظهر في الرفارف القارية بعيداً عن خطوط السواحل بعض الأحواض الأخدودية canyon-like troughs التي تمتد فوق قيعانها ثم تنحدر بعد ذلك على طول السفوح القارية نحو أغوار المحيط . وقد دلت كثير من الأبحاث وعمليات المسح الجيوديتي ، على أن مثل هذه الأخاديد والخوانق يوجد في أنحاء شتى من العالم ، وأن بعضها قد يفوق في حجمه وامتداده ما يوجد على الكتل القارية ذاتها^(٣) . وتفاوت الخوانق الفائصة في أبعادها فقد لاتعدو أن تكون في بعض الأحيان مجرد فجوات notches تظهر على الحافة الخارجية للرفرف القاري ، وقد تمتد بعرضه في أحيان

King, L. C., op. cit., pp. 540-41. (١)

King, L. C., Ibid., p. 538. (٢)

Francis-Boeuf, J. Bourcart et V. Romanovsky «Les Océans». Que Sais-je ? (٣)
Paris, 1957, pp. 41-43.

أخرى فيابين سيف البحر والسفح القارى^(١). وتتميز نسبة كبيرة من هذه الخواثق بأنها تنسقى في امتدادها مع الأنهار الرئيسية في اليايس المقابل مثل: أنهار الجانج ، والسند والكنغو ، والنيجر . ويؤيد الرأى القائل بأن ثمة علاقة توجد بين الخواثق الغائصة وأنهار اليايس ، إخفاء الخواثق من الرافرف القارية التي تمتد أمام سواحل المناطق الصحراوية^(٢) . وقد تبدأ الخواثق الغائصة مباشرة من سيف البحر عند مصبات الأنهار الرئيسية ، فمثلا خائق سكربس Scripps في كاليفورنيا يكاد يقترب جداً من مصب نهر كالان Callan الخائقي على اليايس ، ولا يبعد عنه إلا بنحو ٢٤٠ متراً فقط ، كما أن رافده سمير Sumner يقترب هو الآخر من خائق سمير على اليايس المقابل . وهناك أيضا خواثق أخرى تبعد كثيراً عن سيف البحر مثل خائق السند الغائص الذى يبدأ في الرافرف القارى على بعد يزيد على ٢٢ كيلو متر من مصب نهر السند ، وربما يفسر هذا بأن الخائقي الغائص كان يبدأ في وقت ما من سيف البحر مباشرة ولكنه تعرض لأن يطمر بالرواسب في الجزء المختفي من امتداده^(٣) .

ويتميز كثير من الخواثق الغائصة بأن لها روافد تنتظم في نمط شجرى dendritic مثلها في هذا كمثل الأنهار العادية التي تشق أوديتها في صخور متجانسة ، كما أنها تنقسم في أغلب الأحيان بأنها تنتهي إلى قيعان الأحواض المحيطية بمراوح من الحطام الصحري debris fans . ويدل تركيب الخواثق الغائصة على أنها لابد قد مرت بمراحل تطورية كذلك التي مرت بها أنهار اليايس ، وأنها تعد لهذا السبب من نتائج عمليات نحت عملت submarine turbidity في اتجاهات خطية ، ولا شك في أن التيارات القاعية المعكرة currents التي ينشط أثرها على طول امتدادات الرافرف القارية ، قد أسهمت بنصيب كبير في عمليات الحفر والتعميق . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن العلماء لم يتمكنوا من التوصل إلى أية أدلة تثبت أن تاع المحيط (على مختلف أعماقه) قد تأثر بتتابع دورات نحت متكررة ولهذا فأغلب تضاريس الرافرف وحيد الدورة monocyclic^(٤) .

(١) King, L. C., Ibid., p. 541.

(٢) Defant., op. cit., p. 25.

(٣) Defant., Ibid., p. 28.

(٤) Shepard, F. P. «Terrestrial Topography of Submarine Canyons.» Bull. Geol.

Soc. Am. Vol. 60, pp. 1597-612.

وتدل الدراسات الحديثة التي قام بها «ستسون Stetson» على أن الكثير من الخواقي الغائصة تعرض حاليا للاملاء برواسب من الطين الناعم ، كما أن بعضها تملؤه رواسب ترجع إلى البلايستوسين ، وبعضها منها خال تماما من الرواسب دلالة على أنه حفر في الصخور الأساسية^(١).

وقد كان الاعتقاد في مبدأ الأمر أن الخواقي الغائصة ما هي إلا أودية غائرة sunken غمرت بالماء بعد أن تعرضت لطفيان البحر ، ولكن ثبت أن بعضها تختلف نشأته تماما عن هذا . إذ أن هنالك نوعين منها :

١ — الأودية الغائصة التي توجد في المناطق التي تعرضت للجليد في وقت من الأوقات .

٢ — الأخاديد الغائصة التي توجد في المناطق التي لم تعرض للجليد ، وهي توجد عادة على حفات الرطاف القارية في مناطق الانتقال بينها وبين السفوح القارية وليست مثل هذه الأخاديد أدنى علاقة طبوغرافية باليابس المجاور .

والأودية الغائصة التي تنتمي إلى النوع الأول هي التي تعد بمثابة استمرار لأنهار اليابس ، أما أودية النوع الثاني فن ينحدر الأخدود الطويل الغائص الذي يواجه نهر هدسون Hudson ، والأخاديد التي تقع أمام ساحل كاليفورنيا ، وساحل ولاية واشنطن (في شمال غرب الولايات المتحدة) وجزيرة فانكوفر ، والمجموعة التي تمتد أمام الساحل الشرقي لشبه جزيرة كوريا ، وعلى طول كلا ساحلي الجزر اليابانية وجزيرة فورموزة . وتتميز مثل هذه الأخاديد بمحواط شديدة الانحدار ، إذ يتراوح انحدار جوانبها بين ٥ ، ١٠ درجات وقد يصل إلى ما بين ٢٠ ، ٣٥ . ولابد أن تكون مثل هذه الجوانب من صخور صلبة طالما أن الطبقات السميكة من الرواسب اللينة لا يمكن أن تظل مستقرة على طول هذه المنحدرات الشديدة دون أن تتآكل وتتهلج . ولهذا تظهر الأخاديد الغائصة وكأنها في مرحلة الشباب مما يدل على أنها تكونت في فترات حديثة ، وربما يعزى تكونها إلى تأثير الحركات التكتونية (انزلازل ، والصدوع ، والشرخ) في المناطق الهامشية من الرطاف القارية .

King, op. cit., p. 542. (١)

متى تكونت الرفارف القارية ؟

استطاع « لستر كنج »^(١) من دراسته للسواحل الأفريقية أن يثبت أن هذه القارة لم يكن لها رفرق قارى قبل العصر الجوراسى ؛ إذ أن أقدم الصخور الساحلية ترجع إلى الجوراسى والكرياسى وينطبق نفس هذا القول على سواحل المحيطين الهندي والأطلسي ، فقد أثبتت الدراسات الجيولوجية أن تكون الرفارف على طول الجبهات المائية « للجزر القارية » قد حدث ابتداء من العصر الكرياسى . أما المحيط الهادى فهو وإن بدت رفاؤه حديثة جداً فى تكوينها (الزمن الثالث والرابع) إلا أنها هى الأخرى قد تكونت فى فترة أقدم ولكنها ليست أقدم من الكرياسى . ومعنى هذا أن رفارف المحيط الهادى قد بدأت تتكون فى الكرياسى ولكنها فيما بعد تعرضت لعوامل تكتونية حديثة هى التى أدت إلى طمس معالم الرفارف القديمة الكرياسية وأعطت مظهراً حديثاً لها . ويضاف إلى هذا أن سواحل المحيط الهادى (الغربية بصفة خاصة) قد تكونت لها رفارف إزاء هبوط اليابس وغمر البحر له إبان البلايستوسين (مثل بحر جاوة ، وبحر تيمور إلخ)

والذى يهتأ هنا هو أن الأبحاث السيسمولوجية التى ألفت ضوءاً على خصائص وأسماء تكوينات الرفارف القارية^(٢) ، قد أكدت رأى القائل بأن كتل القارات إبان الفترة الجيولوجية الطويلة الممتدة من الأركى حتى بداية الكرياسى لم تكن لها رفارف من أى نوع ، بل كانت تتألف من مواد سيالية *silatic* وظلت فوق مستوى سطح البحر ، ولم تغمرها مياه المحيطات إلا منذ ١٢٠ مليون سنة (بداية الكرياسى)

(١) L. C. King, Ibid., pp. 542-544.

(٢) تنقسم تكوينات قاع المحيط الى ثلاثة انواع هى :

- (١) الحطام ذو الأصل الأرضى *Terrigenous* ويتألف من طمي ورمال - يغلب الكواثرز على تكوينها ، وهو يترسب فوق الرفارف القارية .
- (ب) الرواسب النيريتية *Neritic* وتتألف من حطام الصخور المختلط بالمواد المعشوية ويدخل فى تكوينها طمي متنوع الألوان يعزى تكونه الى وجود بعض المعادن مثل أكاسيد الحديد والمنجنيز والجلوكونايت *Glauconite* سلكات الحديد واليوتاسيوم
- (ج) الرواسب البلاجية *Polagic* وتوجد فى الأعماق الكبيرة ، وتتألف من انحما *ooze* والصلصال الأحمر ، والحما المعروف بالجلوبجرينا *Globigerina* (أنظر « كوكرك » المرجع السابق ص ١١٢) .

جيو مورفولوجية الرفارف القارية :

تتميز الرفارف القارية بأنها توجد أمام كافة أنواع السواحل سواء كانت هذه السواحل سواحل غمر *coasts of submergence* أو سواحل حسر *coasts of emergence* ، أو كانت ملتوية ، أو متصدعة ، ولكنها تختلف ضيقا واتساعا باختلاف بنية السواحل المقابلة :

١ — إذ تتميز الرفارف القارية الممتدة أمام السواحل الملتوية بضيقها بصفة عامة ويصحب هذا بوضوح في حافة سواحل المحيط الهادى الشرقية التى تمتد بطولها سلاسل من الجبال الملتوية ، وفى سواحل المحيط الهادى الغربية حيث توجد أقواس من الجزر الجبلية .

٢ — سواحل الإلتواءات المنفردة *monoclinal* لها رفاف ضيقة أو متوسطة — بصورة عامة — إلا إذا كانت مثل هذه السواحل قد تعرضت لطفيان بحرى إذ تظهر لها فى هذه الحالة هوامش واسعة كما هى الحال فى ساحل كوينزلاند الأسترالى .

٣ — تظهر أعرض الرفارف القارية وأكثرها اتساعا على هوامش القارات التى تعرضت لحركات من الهبوط التدريجى البطيء ، سواء كان هذا بتأثير حركات توازنية أو تكتونية . ويظهر هذا النوع من الرفارف بجلاء ووضوح على طول ساحل سيبيريا المطل على المحيط المتجمد الشمالى (البحر المتوسط القطبى) ، وساحل أمريكا الشمالية فيما بين الجراىندبانك *Grand Bank* (أمام نيوفوندىلاند) والأرخبيل القطبى عند خط عرض ٨٣° شمالا .

معنى هذا — إذن — أن الرفارف القارية تعد جزءا من القارات وترتبط بها بنائيا ، كما أنها قد تأثرت أيضا دون شك بكل الحركات التكتونية التى تعرضت لها السواحل التى تواجهها . وقد أتاحت دراسة سواحل الحسر فى بعض جهات العالم ، الفرصة أمام العلماء للتعرف على طبيعة مناطق الانتقال بين اليابس والمحيط ، ومدى العلاقة بين دورات التحت التى يتعرض لها اليابس ودورات الإرساب التى تحدث إما فى السهول الساحلية أو فى مناطق الرفارف القارية .

٤ — تتميز الرفارف القارية في المحيط الهادئ بأنها أكثر الرفارف انحداراً، ويرجع هذا إلى تأثير سياج المرتفعات الإلوائية التي تكاد تطوق هذا المحيط . ولهذا نجد مثلاً أن الرفرف الشرقى لهذا المحيط فيما بين كاليفورنيا وكندا، لا يتجاوز اتساعه ١٦ كيلومتراً، ويتميز بعدم استوائه وكثرة الجزر الساحلية off shore التي هي عبارة عن نتوءات في سطح الرفرف القاري . كما تحتزقه أيضاً مجموعة كبيرة من الأخاديد العائصة يزيد عددها على ٦٦ . ويتم الهامش المحيطى لهذا الرفرف كذلك بشدة انحداره ، إذ يكاد يصل انحداره إلى نفس معدل انحدار جبال سيراينفادا ، فهو يهوى فجأة من منسوب — ١٦٥ متر تقريباً (الحد الخارجى للرفرف) إلى أكثر من ٣٣٠٠ متر عند قاع المحيط الهادئ^(١)

٥ — بين الرفارف القارية والسواحل المقابلة لها تناظر متكامل في كل مرحلة من مراحل التطور منذ أواسط الزمن الجيولوجى الثانى حتى الآن . ويتجلى مثل هذا التناظر في المراحل التطورية الآتية :

(١) المرحلة التالية تمزق جندوانا ولوراسيا :

وقد حدث هذا التمزق في الزمن الجيولوجى الثانى، وقد أسفر عن تكون خطوط جديدة من السواحل كما هي الحال في كلا ساحلى المحيط الأطلنطى اللذين لم يكن لهما وجود عندما كانت كل من لوراسيا وجندوانا بمثابة كتلة ملبومة واحدة . وقد تعرضت بعد ذلك كل المناطق الساحلية الجديدة للهبوط واختفت معالمها الجيومورفولوجية وأصبحت تمثل قيعاناً لتراكم الرواسب منذ فجر العصر الكرييائسى Fall zone peneplain . أما في اليابس المجاور ، فقد حدثت عملية استعادة شباب لل"نهار البتورة bstrun Ked ، وارتبطت بها ظاهرة تراجع الحافات والحوائط التي كانت تزود السواحل بكميات هائلة من الرواسب وحطام الصخر . . ومن هنا كان مصدر تلك الكميات الضخمة السميكة من الرواسب الكرييائسية التي يتألف منها بناء الرفارف القارية

(ب) في أواخر الزمن الثانى وأوائل وأواسط الثالث : ظلت الكتلة القارية في حالة من الثبات والاستقرار فعلمت فيها عوامل التخفيض الخارجية حتى جعلتها

B. C. King, ibid, 543-46. (١)

تتداعى وتسوى ، فى الأوليجوسين تسوية تامة . ولعل هذا هو السبب فى ضالة الحطام الذى كان يلقى فى البحر ، وفى اختفاء الرواسب الأوليجوسينية من مناطق الرافد القارية . والمهم أنه سادت فترة هدوء ممتدة فى نطاقات الرافد القارية مما أدى إلى تخفيضها وتسويتها هى الأخرى . ومعنى هذا إذن أن كلا من اليابس والرفرف القارى كان يتسم بقدر ضئيل جداً من التضرس إبان أواسط الزمن الجيولوجى الثالث .

(ج) فى أواخر الزمن الثالث : أصيب اليابس بحركات أرضية حدثت على نطاق واسع ، وأدت من بين ما أدت إلى استعادة عوامل النحت لنشاطها . كما تعرضت الرافد القارية أيضاً لنفس الحركات الأرضية فتكونت فيها أحواض هابطة وخصوصاً بالقرب من السواحل . أما الحطام المشتق من اليابس نتيجة استئناف عوامل النحت لنشاطها ، فقد كان يلقى به دوماً فوق الرافد القارية وفى الأحواض الهابطة التى تكونت فوقها . وكرد فعل توازنى isostatic لتراكم هذه الرواسب ، تعرضت حواف الرافد borders (عند التقائها بالسفح القارى) للارتفاع فى عصر البلايوسين ، فأصبحت فى متناول عوامل النحت بفعل الأمواج والتيارات البحرية .

(د) شهدت نهاية الزمن الثالث حركات رافعة عظيمة أدت إلى إمالة كثير من المناطق الساحلية صوب الخارج (البحر) outward tilting ، وسرعان ما انحدرت على هذه المناطق المائلة كل المجارى المائية التى استعادت شبابها . وقد تكررت نفس هذه التغيرات بكل حذاقها ودقائقها فى الرافد القارية المجاورة ، مما أدى إلى ظهور مجار مائية تنحدر فوقها واستطاعت هذه المجارى أن تزداد عمقا فى الزمن الجيولوجى الرابع ، وتحولت إلى خنادق غائصة تتميز الكثرة منها بشدة انحدارها ، وبأنها تبلغ أقصى اتساع لها فى أحجامها الوسطى ، مما يجعلها قريبة الشبه من بعض الأنهار المتعمقة incised التى تتخذ دليلاً على حدوث تجديد للطاقة على النحت والتخفيض .

توزيع الرافد

أولاً : فى إفريقيا :

يتميز الرفرف المتوسطى للقارة الإفريقية بأنه يحف بساحل التوائى فى الغرب ولهذا فهو ضيق على طول امتداده أمام سواحل إقليم أطلس ، ويستمر على هذا

يضيق في بعض قطاعاته إلى أقل من ثلاثة كيلو مترات . أما رفرف ساحل تنجانيقا الجنوبي فيتألف أغلبه من صخور كريتاسية وهو يواصل امتداده نحو الجنوب حتى موزمبيق كنطاق عريض يتراوح اتساعه بين ٦٥ ، ١٤٥ كيلو متر ويلغح ممك رواسب المنتمية إلى الفترة الجيولوجية الممتدة فيما بين الكريتاسي والهولوسين نحو ٧٠٠٠ متر^(١) .

وفما بين ناتال ومقاطعة الكيب الشرقية يعود الساحل إلى وعورته وشدة انحداره ، وينعكس هذا على الرفرف القاري الذي يضيق ضيقا واضحا وخاصة عند بورت سانت جونس حيث يتخذ الساحل شكل التواء مفرد *monocline* .

وعند الطرف الجنوبي للقارة الافريقية يتخذ الرفرف القاري شكل مثلث تمتد قاعدته فيما بين بورت الزايت و كيتاون وتمتد رأسه نحو الجنوب لمسافة تزيد على ٢٤٠ كيلو متر . ويعرف الرفرف في هذا الجزء من القارة بشط أجلباس *Agulhas bank*^(٢) ، وأغلب رواسبه من الرمال المشتقة من صخور الساحل المقابل .

ويمتد أمام أكثر جهات الساحل الغربي لأفريقيا فيما بين رأس الرجاء الصالح وخليج غانة رفرف يتراوح اتساعه بين ٣٧ ، ١٦٠ كيلو متر، يتألف من رواسب يختلف قوامها من مكان لآخر ، فهي أحيانا من الرمال وأحيانا أخرى من الطمي وخاصة عند مصبات الأنهار الضخمة مثل الكنفو والنيجر . أما إلى الغرب من دلتا النيجر فيضيق الرفرف مرة أخرى ولا يتجاوز اتساعه الثلاثين كيلو مترا إلا فيما ندر وبتميز بضحوته أيضا ؛ إذ لا يزيد عمقه على ٢٥ مترا .

وإلى الغرب من ليبيا يعود الرفرف الافريقي إلى الاتساع فيصل إلى أكثر من ١٢٠ كيلو متر ، وذلك لوجود ساحل مغمور فيما بين سيراليوني وغينيا . وعموما ، يتميز هامش الرفرف بأنه أكثر استقامة من سيف البحر ، وهو يستمر على هذا النحو حتى رأس بلانكو تقريبا . أما إلى الشمال منها فيثبت عرض الرفرف عند ١٢٨ كيلو متر حتى طنجه وذلك لوجود ساحل مغمور هو الذي تبرز منه مجموعة جزر كناريا .

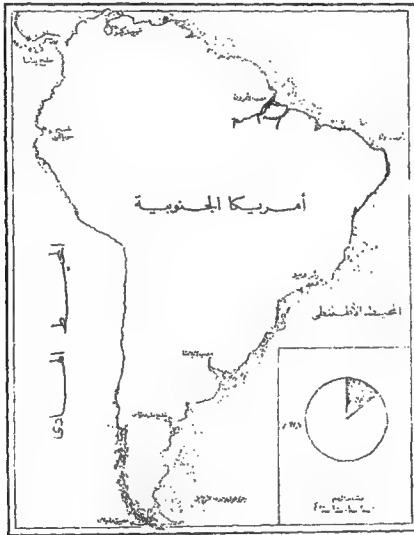
L. C. King, Ibid., 550-52. (١)

L. D. Stamp. Africa : A study in tropical developments. New York 2nd. (٢)
Ed., 1955., pp. 60-61.

ومن هذا العرض ، يتضح لنا ، أن الرفوف الأفريقي يتميز بضيقة نتيجة الخصائص البنائية التي يتميز بها الساحل للمقابل ، ولهذا فهو يعد شاذا إذا ما جاوز اتساعه ١٥٠ كيلو متر طالما أن المتوسط هو ١٥ كيلو متر .

ثانيا : في أمريكا الجنوبية :

يتميز الرفوف القاري فيها بين مصبي نهري الأورينوكو والأمزون بأنه ضحل ، وعريض (١٦٠ كم) ويتألف من رواسب من الطمي بالقرب من اليابس ومن



شكل (٧) دفراف أمريكا الجنوبية

الرمال بالقرب من البحر . وعند رأس سان روك يضيّق إلى نحو ١٥ كيلو متر ويستمر على هذا النحو حتى باهيا . وفيما بين باهيا ورأس فريو Cape Frio ، يمتد شاطئ رويال

تشارلوت الضحل الذى ترصعه تكوينات المرجان ، وإلى الجنوب من رأس فريو
يزداد الارتفاع عمقا واتساعا (أكثر من ١٦٠ كم) ويتميز سطحه بعدم الاستواء ،
مما يحفز على الاعتقاد بأنه يمثل بناءا طبوغرافيا ساحليا غائضا .

وإلى الجنوب من مصب لابلاته يزيد اتساع الرفوف بصورة واضحة ، إذ
يتراوح اتساعه بين ٣٢٠ ، ٥٦٠ كم ، وهو يتسم بعدم الاستواء على طول ساحل
بتاجونيا ، وبأن رواسيه لم تصنف وفق القاعدة العامة — أى ترسب المواد الخشنة
بعيداً عن الساحل والناعمة قريبة منه ، بل تتألف كلها من مواد خشنة تحمل على
الاعتقاد بأنها ذات أصل جليدى .

وأما ساحل شيلي الجنوبي الذى تقطعه الفيوردات ، فيحف به ردف ضيق
ذو سطح غير مستوى لابد أنه يرجع فى تكوينه إلى أثر الجليد . وفى شمال شيلي وبيرو،
يتسع الرفوف قليلا ويزول ما به من تضرس ، وتمتد عند نهايته البحرية أخايد
شيلي وبيرو الغائصة التى يزيد عمقها على ٧٥٠ متر^(١) ، ولهذا يتسم كل الإقليم الممتد
من قمم جبال الأنديز حتى هذه الأخايد بأنه يميل ميلا شديداً صوبها . ويحتفى
الرفوف — بعد ذلك — تماما فيما بين إكوادور ، وكولومبيا جنوبا ، وبناما شمالا^(٢)
فيما عدا خليج جوايا كيل Guayaquil .

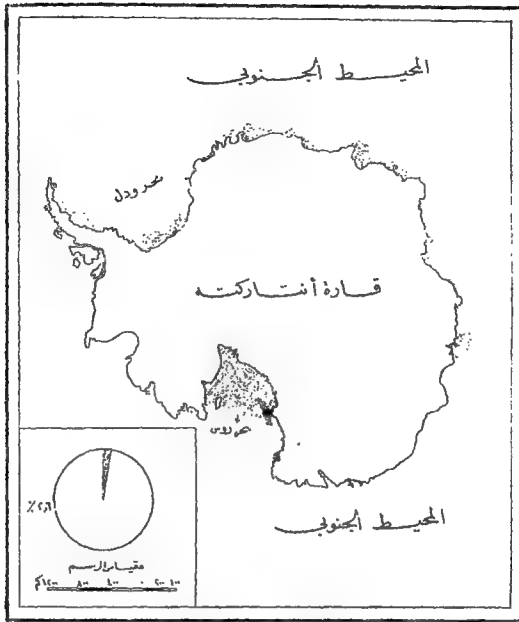
ثالثا : فى قادة انتاركتة :

لم يدرس بعد ردف هذه القارة دراسة تفصيلية ، ولكنه يمتاز كغيره من ردفات
المناطق الجليدية ، أو التى تأثرت فيما مضى بالجليد ، بعدم انتظامه بقلة واستوائه وبشدة
عمقه عند حافته الخارجية ، ويرجع هذا إلى أن القطاء الجليدى الذى ترزح تحته هذه

١١) R. C. Murphy «Oceanic phenomena along the west coast of South America.»

Geog. Rev., 1926. p. 12.

٢) ظهر برزخ بناما فى نهاية الاوليغوسين وادى وقتذاك الى حدوث ارتباط
بيولوجى واضح بين قارتى أمريكا الشمالية والجنوبية ، ولكنه قطع فى بداية الميوسين
وعاد الى الظهور مرة أخرى فى وسطه . والذى يجسد ذكره أن الشكل الحالى
للبرزخ تكون فى البلايوسين ، كما تدل على ذلك هجرات الثدييات من أمريكا الشمالية
الى البرازيل والانديز (انظر King L. op. cit. ص ٥٥٢ — ٥٥٣) .

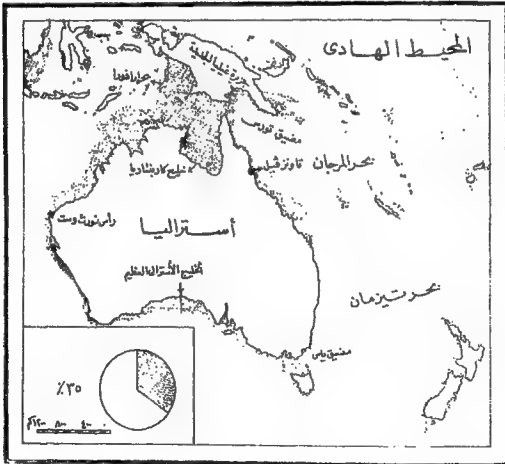


شكل (٨) رفرف أنتاركتة

القارة ، قد أدى إلى هبوطها في وسطها ، وعرض هذا الهبوط توازنيا ، بارتفاع
 الحاجز الجبلي المحيط بها مع شدة ميل المناطق الهامشية صوب الخارج . ويمكن
 القول إجمالاً . بأن رفرف انتاركتة ضيق في كل قطاعاته المطلّة على المحيط الهندي ،
 ولكنه أكثر اتساعاً في المحيطين الهادى والأطلنطى .

رابعا : في قارة استراليا :

يتميز رفوف هذه القارة عموما بالاتساع ، فقد سبق أن ذكرنا أنه يمثل مايقرب من ٣٥٪ من مساحتها الإجمالية ، وهو يظهر أمام سواحل جزيرة أيرمانيا في الجنوب ويدور حولها بحيث يمكننا أن نعتبر مضيق باس Bass الضحل بمثابة بحر رفرقي ، ويظهر أمام الخليج الاسترالي العظيم على شكل هلال يربو اتساعه على ١٦٠ كيلو متر ولا يزيد عمقه عند حافته الخارجية على ٢٠ مترا . ويضيّق رفوف القارة بعد ذلك عن رأس ليوين Cape Leeuwin حتى الرأس الشمالي الغربي . ولا يزيد اتساعه في كل أجزاء هذا القطاع على ٦٥ كيلو متر . وإذا اتجهنا بعد ذلك صوب الشمال الشرقي ، يعود الرفوف مرة أخرى إلى الاتساع ، ويحتوي بحر تيمور تماما، ولا يبعد عن جزيرة تيمور ذاتها بأكثر من ٨٠ كيلو متر، ومعنى هذا أن عرضة في هذه المنطقة يصل إلى نحو ٣٢٠ كيلو مترا ، وهو يبدو على شكل حوض لا يزيد عمقه على عشرة أمتار، ويبدو أن



شكل (٩) رفوف قارة استراليا

بناء هذا الخوض الهابط قد ارتبط بتكوين الأقواس الجزرية القريبة في أندونيسيا. وإلى الشمال من رأس أرثم Cape Arnhem يصل الرفف الاسترالي إلى أقصى اتساع له ، إذ يستمر في امتداده نحو الشمال حتى يحتوى جزيرة غينيا الجديدة ، التي دلت الأبحاث الجيولوجية — التي أجريت فيها لغرض البحث عن البترول ، على أن القمم الجنوبي منها ينتمى جيولوجيا إلى القارة الاسترالية . وعلى هذا نرى أن بحر أرافورا Arafura ، وخليج كرتتاريا يمثلان معا ، نموذجاً لواحد من أوسع البحار الرففية في العالم ، وقد كان هذا البحر إبان البلايستوسين أرضاً يابسة على شكل معبر أرضي كان يوصل قارة أستراليا بجنوب شرق آسيا . ويدل توزيع بعض المنخفضات الطولية في بحر أرافورا ، على وجود نظام نهري قديم كان يتحدر غرباً ، ولكنه تعرض للغمر أزاء طغيان البحر على كل الهوامش الشمالية للقارة^(١) .

وعند مضيق تورس Torres ، يظهر الرفف الاسترالي ضيقاً في أول الأمر ، ولكنه يعود إلى الاتساع أمام تاونزفيل Townsville ويستمر على هذا النحو من الاتساع لمسافة تربو على ١٦٠٠ كيلومتر ، وبعرض يزيد على ١٦٠ كيلومتر . وبعد الرفف أمام الساحل الشرق للقارة ، بمثابة الأساس الذي بنيت فوقه شعاب المرجان التي يتكون منها الحاجز الاسترالي العظيم . ويبدو الرفف هنا على شكل «مصطبة» ذات سطح متموج لا يزيد عمقها على ٦٥ متر . وتمثل استمراراً لسهول البلايوسين الساحلية ، وتكاد لا تخترقها أية مجار مائية إلا في كاريكورن تشانل Capricorn channel^(٢) .

ولعل أضيق قطاعات الرفف الاسترالي ، هو ذلك القطاع الممتد أمام الساحل فيما بين بريزبن Brisbane ، ورأس هوى Cape Howe ، حيث لا يزيد اتساعه على ٣٠ كيلومتر . ويرجع هذا إلى أن الساحل المقابل يتألف من التواء منفرد ، يتحدر فجائياً صوب البحر .

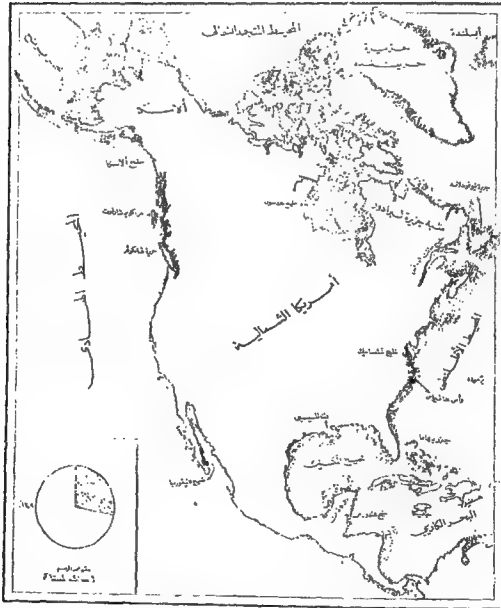
R. A. Daly «Swinging Sea-level of the ice-age » Bull. Geol. Soc. Am., (١)
vol. 40, 1929, pp. 721-24.

(٢) يمتد الحاجز المرجاني العظيم The great barrier reef على طول السواحل الشرقية لأستراليا ، أو ساحل كوينزلاند — بصفة خاصة — لمسافة تبلغ نحو ١٩٢٠ كيلومتر وهو يبعد عن الساحل في الجنوب ويقترّب منه كثيراً في الشمال (انظر Ottis W. Freeman «Geography of the Pacific», New York, 1951, p. 94.

خامسا : في أمريكا الشمالية :

يتميز رفوف أمريكا الشمالية (٢٧,٨ ٪ من مساحتها) بعدة خصائص :

١ — عظم اتساعه على طول السواحل الشمالية للقارة مما يدل على أنها تعرضت للغمر على نطاق واسع ، ويتجلى هذا في خليج هدسون ، والبحار التي تمتد بين جزر الأرخبيل القطبي : إذ أنها تعد كلها بمثابة بحار رفرافية .



شكل (١٠) رفوف أمريكا الشمالية

٢ — يضيّق الرفرف أمام ساحل ليرادور حيث لا يزيد اتساعه على ١٢٨ كم ، ويرجع هذا إلى أن هضبة ليرادور أشبه ما تكون بالضمير Horst ، وتتميز سواحلها بأنها صديعية التسكوين .

٣ — تمثل شواطئ الجراندي بانكس الفائضة Grand Banks (التي تبعد من جزيرة نيوفونلاند بنحو ٢٩٠ كيلو متر) امتداداً لرفرف القارة الذي يصل اتساعه عندها إلى أكثر من ٤٠٠ كيلو متر ، ولا يزيد عمقه على ١٥ متراً ، ويحده من الجنوب أخدود كابوت Cabot trench الغائص الذي يتسق مع امتداد خليج سانت لورنس . أما رفرف خليج مين Main فذو سطح غير مستو ، وتنتشر فوقه رواسب ذات أصل جليدي .

٤ — يتميز رفرف القارة الشرقي فيما بين رأس كود Cape Cod ورأس هاتيراس Cape Hatteras ، باستوائه وتسطّحه ، وبأن خط العمق المتساوي ١٢٠ متر (٦٠٠ فام) يمثل الحد الخارجى لحافته ؛ ويبلغ اتساعه نحو ١١٢ كيلو متراً . ويستمر الرفرف في الضيق حتى يخفّ تماماً عند بالم بيتش Palm Beach في شبه جزيرة فلوريدا . هذا مع ملاحظة أن شواطئ بهاما الفائضة ما هي في الواقع إلا هضبة مغمورة بالمياه لا علاقة لها برفرف القارة . أما الرفرف الغربي لفلوريدا ، فعريض يزيد اتساعه على ٢٤٠ كيلو متر كما أنه ضحل لا يتجاوز عمقه ٨٠ متراً . وعند دلتا نهر المسيسيبي يتألف الرفرف القاري من رواسب تنتمي إلى الزمن الثالث ، وهو أقل اتساعاً من رفرف الساحل الغربي لفلوريدا ، ولكنه يتسع مرة ثانية على طول سواحل خليج المكسيك حتى يصل إلى أقصى اتساع له على الساحل الغربي لشبه جزيرة يوكاتان . أما الساحل الشرقي لشبه جزيرة يوكاتان فلا يمتد أمامه رفرف تاري وذلك لطبيعته الصديعية ، وإلى الجنوب منها يظهر رفرف هندوراس الذي يزيد اتساعه على ٢٤٠ كيلو متر ، ولكنه يعود فيضيّق إلى نحو ٦٥ كيلو متر أمام سواحل نيكاراغوا ، وكستاريكا^(١) .

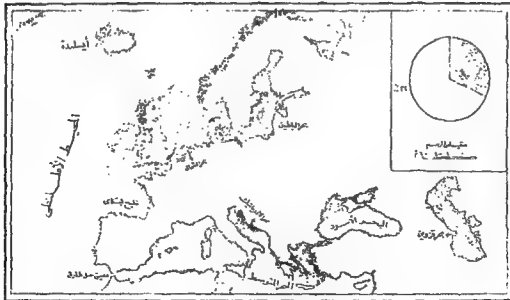
٥ — يتميز الرفرف الغربى لأمريكا الوسطى بالضيق على طول امتداده فيما بين بناما وخليج كاليفورنيا . ولا يظهر الرفرف على الاطلاق أمام الساحل الغربى لهذا الخليج ، بل تتلاطم أمواج المياه العميقة مباشرة بالساحل . وفيما بين كاليفورنيا وكندا ، لا يزيد اتساع الرفرف في المتوسط على ١٦ كيلومتر ، ويتميز بعدم استواء يتجلى في ظهور كثير من الحافات والمنخفضات التي تعد صنوا لما يظهر من صور طبوغرافية على اليابس المقابل : كما تمتد أمامه أعداد من الأخابيد العائصة (عددها ٦٦) .

٦ — يزداد الرفرف اتساعا على طول السواحل الغربية لكندا ، وألاسكا وتدل رواسب قاعه على التأثير الجليدي .

سادسا : في اوراسيا :

يتميز الرفرف القارى في بحر إيجه بضيق واضح ، ولو أنه قد ينبعج إلى الخارج في بعض المناطق ليضم بعض الجزر مثل جزر سيكلادس Cyclades وغيرها . أما البحر الأيونى فليس له رفرف قارى على الرغم من أن امتداده الشمالى الممثل في البحر الأدرياتي يحد بحرا رفرها .

ولعل أوضح الجهات التي يظهر فيها الرفرف الأوربى ، إنما تتمثل في خاصرة البحر المتوسط ، فجزيرة صقلية تمتد رفرها إلى مالطة ورأس بون في تونس مما يدل



شكل (١١) رفر اوربا

على وجود معبر أرضي في البلايستوسين كان يوصل بين شمال أفريقيا وأوروبا عبر خاصرة البحر المتوسط . أما بقية السواحل الإيطالية فذات رافرف ضيقة وخاصة على طول الساحل الليجورى في الشمال حتى مدينة مرسيليا . ومن مرسيليا إلى كارتاهينا Cartagene يبلغ متوسط اتساع الرفرف نحو ٦٥ كيلو متر ، ولكنه يتناقص إلى نحو ٤٥ كيلو متر أمام معظم سواحل شبه جزيرة أيبيريا ، وقد يضيق في بعض المواضع إلى ١٥ كيلو متر فقط .

وعند يارتيز يزداد الرفرف الأوربي اتساعا ، ويظهر هذا بوضوح في خليج بسكي حيث يصل اتساعه إلى نحو ٤٠٠ كيلو متر وتتميز حفته بأنها تتجه نحو الشمال الغربى ، ومعنى هذا تزايد عرضه واتساعا في هذا الاتجاه حتى سواحل إيرلنده الغربية ، وعندها تنحرف حفته صوب الشمال الشرقى إلى جزر شتلند Shetland ، ثم تنحني مرة أخرى ناحية الجنوب الشرقى إلى مضيق سكا جراك ومنها إلى بحر البلطيق . ومعنى هذا إذن أن كلا من : بحر الشمال ، والقنال الانجليزى ، والبحر الأيرلندى ومضائق سكا جراك ، وكاتجات ، والسوند ، والبحر البلطى . . كلها عبارة عن بحار رفرية Shelf Seas وتبلغ مساحتها مجتمعة أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع .

وعلى النقيض من رفر بحر الشمال (وامتداداته) الذى يعد من أوسع وأضخم الرفارف العالية ، يتميز الرفرف التروبيجى بضيق واضح وبانحدار فجائى صوب مياه الأطلنطى العميقة . وتقطع أعداد كبيرة من الأخاديد العائضة التى تسير أحيانا متعامدة على الساحل ، وأحيانا أخرى موازية له ، ويبدو أن أغلبها حفر بفعل الجليد . وبعزى ضيق الرفرف التروبيجى إلى طبيعة الساحل بجماله الالتوائية .

أما على طول ساحل سيبيريا المطل على المحيط المتجمد الشمالى فيمتد أعرض الرفارف العالية ؛ إذ يزيد اتساعه — كما سبق أن ذكرنا — على ٨٠٠ ميل (١٢٨٠ كيلومتر) ، وهو يمثل على الأرجح نطاقا عريضا من سهول سيبيريا الشمالية المنبسطة ، تعرض للهبوط بتأثير الغطاءات الجليدية فطفت عليه مياه البحر . أما الحفة الخارجية لهذا الرفرف فتتهوى بصورة فجائية إلى عمق يزيد على ٥٠٠٠ متر مما يدل على شدة انحدار السفح القارى تحت مياه المحيط المتجمد الشمالى .

أما الرفوف الشرقية لآسيا فتتميز بشدة ضيقها أمام سواحل الأقواس الجزرية Island arcs ، وباتساعها أمام الهوامش القارية المغمورة ، ولهذا يتميز رفرف كتنشكا الغربي بعظم اتساعه إذا ما قورن برفرفها الشرقى ويتجلى هذا إذا ما قورن بين بحر أخسك الضحل نسبيا وبحر برنج ، وأما بحر اليابان فرفارفه ضيقة بصورة عامة ، وهو يبدو على شكل حوض هابط يحيط به سياج من السلاسل الجبلية المرتفعة التي تنحدر من مناسيب ذراها وقممها العالية إلى أعماق هذا البحر بمعدل يزيد على ٣٤٠٠ متر . أما الطرف الجنوبي لبحر اليابان فيوجد عنده رفرفا اليابان وكوريا عبر مضيق توشيا Tushima .

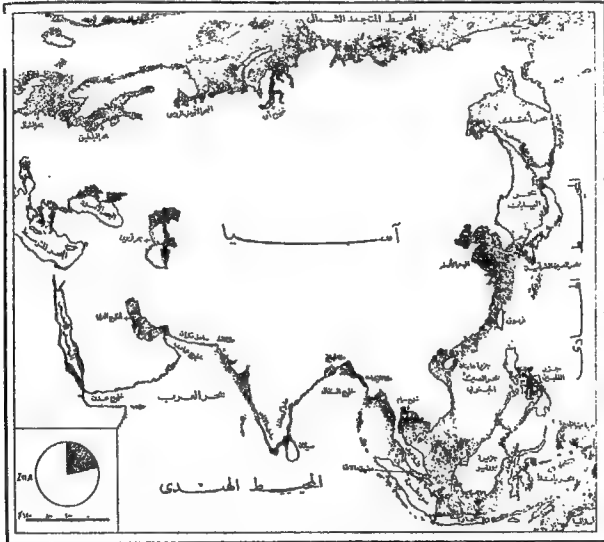
ويمتد فيما بين اليابان وفرموزا . رفرف عريض يتجاوز اتساعه ١٢٠٠ كيلو متر (٧٥٠ ميل) ويمثل في البحر الأصفر وبحر الصين الشرقى الذين يرجع أنهما يمثلان جزءا هابطا من القارة الآسيوية . ويستمر الرفوف فيما بين فرموزا وخليج تونكين Tonkin محافظا على اتساع منتظم لا يزيد على ٢٤٠ كيلو متر ^(١) .

ويمتد أمام سواحل شبه جزيرة الصين الهندية رفرف واسع يضم خليج سيام ، ومضيق ملاقا ، وبحر جاوه ، ويستمر شرقا حتى مضيق ماكاسار Makasar ، وتقع جزيرتا سومطره وجاوه عند حافته الجنوبية ، وتحتل بورنيو حافته الشمالية والشرقية . ويميز هذا الرفرف بأن عمقه لا يزيد إطلاقا على ٨٠ متر ^(٢) (٤٠٠ فامة) وتدل الأودية العارقة التي تتوزع فوقه — والتي تمتد بمثابة امتدادات لأودية اليابس — تدل على أنه يمثل إقليما هابطا ، وأنه كان في وقت من الأوقات أرضا يابسة قبل أن تغمرها مياه البحر . وأما على طول الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو وحتى مصب نهر إيراوادي في بورما فيمتد رفرف متوسط الاتساع ، ذو سطح غير منتظم ، إذ تكثر فيه القمم المستديرة التي يظهر بعضها فوق سطح البحر على شكل جزر ساحلية — كما هي الحال في أرخبيل مرجوي Mergui ، مما يدل على حدوث غمر للظواهر الطبوغرافية الساحلية . ويضيق الرفرف إذا ما جاوزنا

Betz, F., and H. H. Hess: «The floor of the North Pacific Ocean». Geog. Rev., (1) vol. 32. pp. 99-116, 1942.

Spencer, J.E. «Asia east by South». New York, 1954. Pp. 9-20. (٢)

ساحل دلتا نهر الإيراوادي^(١)، ثم يتسع مرة أخرى أمام دلتا نهر الجانج ثم يلتقي بالرفرف الهندي الشرقي الذي يبلغ متوسط اتساعه ٣٧ كيلومتر ويظل محافظاً على اتساعه على هذا النحو حتى إلى الشمال من ساحل مالابار حيث تطل جبال الغات الغربية على مياه بحر العرب بسفوح شديدة الانحدار . وإلى الشمال من ساحل مالابار وحتى كراتشي يتزايد عرض الرفرف الهندي ويصل إلى أقصى اتساع له (٢٤٠ كيلومتر) أمام ممباي.



شكل (١٢) الرفرف الآسيوي

(١) لا يزيد اتساعه هنا على ٨٠ كيلو متر وقد يضيق إلى نحو ٥ كيلو متر.

ويحف بساحل مكران الشديد الانحدار ، رفرف ضيق لا يزيد اتساعه على ٢٠ كيلومتر ، يمتد حتى خليج عمان . أما الخليج العربي فهو عبارة عن بحر رفرفي (مساحته ٢٣٩ ألف كيلومتر مربع ومتوسط عمقه ٢٥ متر) تعرض طرفه الشمالي لأن يطمر ويردم تدريجياً بالرواسب التي يلقي بها الرافدان (دجلة والفرات) فيه . فكان مساحته تتناقص إذن من الشمال إلى الجنوب . ومن الأمور الثابتة الآن أن مصبي نهرى دجلة والفرات ، كانا فيا مضى مستقلين عن بعضهما (إبان الفترة التاريخية الممتدة من ١٠ آلاف ق . م إلى ٥ آلاف ق . م) وكان الساحل الشمالي للخليج العربي لا يعد عن الموضع الحالي لمدينة بغداد إلا ببضعة عشرات من الكيلومترات . وهكذا استطاع كل نهر منهما أن يبني لنفسه دلتا مستقلة ، ازدادت امتداداً على حساب مياه الخليج العربي . وكانت توجد في نفس الوقت أنهار أخرى تصب في الخليج العربي أهمها نهرى الكركنة ، وقارون اللذين كانا ينبعان من جبال زاغروس ، ويهبطان منها فجائياً إلى سهول العراق ، ويلقيان بكل حمولتهما من الرواسب في مياه الخليج العربي فتكونت لهما - أيضاً - دلتا كبيرة ازدادت نمواً بمضى السنين وفاقَت في مساحتها دلتا دجلة أو الفرات ، وكونت لساناً من الرواسب فصل بين دلتى هذين النهرين وبين الخليج العربي . فانتشرت مياههما وتحولت إلى مجموعة كبيرة من البطائح المائية والأهوار ، وتفرعت إلى عدد هربك من المجارى المائية والأفرع الدلتاوية ، وتراجعت قمة الخليج العربي صوب الجنوب الشرقي بمعدل ١٦٠٠ متر في كل مئتين سنة (أى ٣٢ متر سنوياً) وكانت الأرض تحف جزئياً في أغلب المناطق بمجرد انحسار البحر عنها ، وانتهى الأمر باندماج النهرين في مجرى واحد هو مصب شط العرب ، الذى مازال يخترق بطائح مائية واسعة ، هى التى تعرف حالياً بالأهوار ^(١) .

W. B. Fisher «The middle east » London 4th Ed., 1961., pp. 361-63. (١)

خاتمة :

الرفارف القارية إذن هي عتبات القارات ، وتعد جزءاً لا يتجزأ من الكتل القارية ، وقد حدا هذا بالولايات المتحدة إلى إصدار قرار في سنة ١٩٤٦ باعتبار المناطق الممتدة من خط الساحل إلى عمق — ٣٠٠ متر (١٠٠ قامة) جزءاً من مياهها الإقليمية ، وذلك لما لها من أهمية كمصادر للأسماليد ذات شأن . ولهذا تعد الرفارف القارية بمثابة « هدية العصر الجليدي للإنسان الحديث » إذ تكاد تتركز الغالبية العظمى من الرفارف العالية في المناطق التي تأثرت بالجليد منذ ما يزيد على ١٨ ألف سنة ، وهي بعينها نفس المناطق الجغرافية التي توزع فيها مصائد الأسماك المحيطية التي تنتج أغلب كمية الأسماك المشتركة في التجارة الدولية . وكثيراً ما توجد في الرفارف القارية تلال قباية مستديرة الشكل تعد مصدراً للحصول على الملح والكبريت وغيرها من الرواسب المعدنية ، كما أن المناطق التي تم الكشف فيها عن البترول في قاع البحر ، يكاد يقتصر توزيع أغلبها على الرفارف القارية ، كما هي الحال في رفرف أمريكا الشمالية المطل على خليج المكسيك وكما هي الحال أيضاً في رفرف خليج السويس (حيث تم الكشف أخيراً عن حقل المرجان الذي يعد من أغنى الحقول البترولية المصرية) .

المراجع

- (1) Betz, F. and Hess, H. H. «The floor of the North Pacific Ocean.» Geog. Rev., vol. 32, 1942, pp. 99-116.
- (2) Carson, R. «The edge of the Sea». Boston, 1955.
- (3) Carson, R. «The Sea around us». New York, 1950.
- (4) Coker, R. E. «The great and wide Sea». University of N. Carolina Press, 1954.
- (5) Colman, J. S. «The Sea and its mysteries». New York, 1950.
- (6) Cowen, R. C. «Frontiers of the Sea». New York, 1960.
- (7) Defant, A. «Physical oceanography». London, 1961.
- (8) Daly, R. A. «The floor of the ocean.» N. Carolina Press, 1942.
- (9) Daly, R. A. «Swinging Sea-Level of the ice age.» Bul. Geol. Soc. Am. vol. 40, pp. 721-24.
- (10) Emery, K. O. and Shepard, F. P. «Lithology of the Sea floor off Southern California.» Bul. Geol. Soc. Am. vol. 56
- (11) Freeman, D. W. «Geography of the Pacific ». New York, 1951.
- (12) Géographie Universelle, Tom. XI.
- (13) Johnson, D. W. «Shore processes and shoreline development». New York, 1919.
- (14) King, L. C. «Morphology of the earth ». New York, 1962.
- (15) Murray, Sir John, and Hjort, J. «The depths of the ocean». London, 1912.
- (16) Marmer, H. A. «The Sea». New York, 1930.
- (17) Murphy, R. C. «Oceanic phenomena along the west coast of S. America». Geog. Rev. 1926.
- (18) Scholt, Gerhard «Geographie des Indischen und stillen Ozeans » Hamburg, 1935.
- (19) Shepard, F. P. «The earth beneath the Sea». Baltimore, 1959.
- (20) Stamp, L. D. «Africa : a study in tropical development». New York, 1955.
- (21) Sverdrup, H. U. and others «The oceans». New York, 1957.

نقوش عريضة جنوبية

للدكتور خليل يحيى نامى

المجموعة الرابعة (١)

نقش رقم ١٢ (٢)

نقش مكسور قطعين ، ومرسوم على يمين السطرين الأولين شعار حية ، وهو مكسور من أول السطر السادس عشر إلى السطر التاسع عشر ، وكذلك في جزء من السطر الثالث والعشرين .

.....

(١) ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك | س ب أ | ب ن | ع ل ه ن | ن ه ف ن

(٢) م ل ك | س ب أ | ه ق ن ي | أ ل م ق ه | ب ع ل | أ و م | ذ ن

(٣) ص ل م ن | ح ج ن | ك ت ف ل و | ب ع م | أ ل م ق ه | ب ع ل |
أ و م | ل

(١) نشرت المجموعة الأولى في مجلة كلية الآداب الجزء الأول من المجلد التاسع ص ١٥ — ٢٧ هـ المجموعة الثانية ، الجزء الثانى من المجلد السادس عشر ص ٢١ — ٤٣ هـ المجموعة الثالثة ، العدد الأول من المجلد العشرين ص ٥٥ — ٦٣ هـ ونقش رقم ١٢ هو من النقوش التي كتبت فيها حفرات يمتد ونخل فيلبس الأسركية .

(٢) هو النش الثامن من النقوش التي نشرتها من مجموعة ونخل قيايس ، وهو غير منشور في ، Albert Jamme, Sabaeen Inscriptions from Mahram Belqis (Mârib) ، وقد صوره Cornudé

وأشير إليه بالرقم هـ في

A. Loundine et J. Ryckmans, Nouvelles Données sur la Chronologie des Rois de Saba et Dû-Raydân ص ٤١٠ — تعليقة ٧ ص ٤١١ هـ

A. Jamme, a Propos des Rois hadramoutiques de A.L. Uqlah, p. 41.

(٤) ذت|وق ههم و|أل مق ه|ب م س أل هو|ل ش ي م|ح رب
 (٥) م|ب م ح ر م ن|ذ أ و م|و و ك ب و|م ل أ م|ل ح ي و م|ب ن
 (٦) غ ث ر ب ن|ل ح ر ب|ب ي ن|ت ع م ت ن|ب و ر خ|
 ذ أ ل أل ت|ذ خ

(٧) ر ف|و د د ل|ب ن|ح ي و م|ب ن|ك ب ر خ ل ل|
 خ م س ن|و أ

(٨) ل|ح ر ب|ب ه و ت|و ر خ ن|ع ل ن|ذ أ ل|ت ق ر ع|
 س ل ط م|و ي س

(٩) ر و|س ع د ت أ ل ب|ب ن|د و م ن|ل ح ر ب|ب ه و|
 ب ي و م|ث م

(١٠) ن ي م|ذ ف ر ع|و ر خ|ذ أ ب ه ي|ذ م ذ ن|خ ر ف ن|
 و ح ر ب|ب ه و

(١١) ع د ي|ج ه م ي|ي و م|أ ر ب ع م|ذ ف ق ح ي|و أ ل|
 م ه ن|ه ر أ ي

(١٢) ه م و|أل م ق ه|ب ص د غ|ه و ت|أ ي س ن|
 س ع د ت أ ل ب|و ت ش

(١٣) ر ي و|أل م ق ه|ب م س أل هو|و و ك ب و|م ل أ م|
 ك ع ل ن|ذ [أ]

(١٤) ل|ح ر ب|ح ر ب ن|ب ه و ت|و ر خ ن|ذ أ ل أل ت|
 و ع ل ن|ذ [أ]

(١٥) ل|ح ر ب|ح ي و م|ح ج ن|ه و ك ب|ل ه و|م ل أ م|
 و ع ل ن|ذ أ

(١٦) ل | ق م | ع | | ع د ي | أ و م | ل س ت ي د ع ن |
و ت ض ع ن | ب ع م

(١٧) ب أ | ح و ب ن | ل ح ر ب | و ر أ |
ك و ت ه | أ ل

(١٨) م ق ه | ع ب د ه و | أ د م | ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك | س ب أ |
ل ه ق ن ي ه و | ذ

(١٩) [ن | ص ل] م ن | ت ك ر م | ل ق ب ل ي | ذ أ ل | ه و ف ي و |
ك ل | ذ س ط

(٢٠) ر | ب ذ ت | ه ق ن ي ت ن | و أ ل م ق ه | ب ع ل | أ و م | ف ر أ |
ك ص

(٢١) ر ي | ب م س أ ل ه و | ع ب د ه و | ش ع ر م | أ و ت ر | م ل ك |
س ب أ | و ب

(٢٢) ي ت ن | س ل ح ن | و غ م د ن | و أ د م ه و | س ب أ |
و ف ي ش ن | و ب

(٢٣) ع د ه و | ف [| ١٠٠ |] ح ي و م | ب ن | غ ث ر ب ن |
ل ح ر ب | ب ي ن

(٢٤) ت ع م ت ن | ب ي و م | خ م س م | ذ ف ق ح ي | و ر خ |
ذ أ ب ه ي | ذ م ذ

(٢٥) ن | خ ر ف ن | ح ج ن | و ق ه | أ ل م ق ه | ل س ب أ |
ح ي و م | ل ح ر

(٢٦) ب | و خ و د ه م و | أ ل م ق ه | ب ص د غ | ه د ت | أ س ن |
ح ي و م

(٢٧) [بن] إ غ ث ر ب ن | ك أ ر خ | ب ع ب ر | أ ل م ق ه |

ذ ه ر ض و

(٢٨) | ب ع ث ت ر | و ه ب س | و أ ل م ق ه | و ب ذ ت | ح م ي م

(٢٩) | و ب ش م س ه م و | ت ن ف

الترجمة

(١) شاعر أوتر ملك سبأ ابن علهان نهقان

(٢) ملك سبأ قدم لإلقاء رب أدام هذا

(٣) الصنم عند ما أو لا توجه إلى إلقاء رب أوام لأن

(٤) إلقاء رب أوام أمرهم بوحيه بصيانة

(٥) المعبد أوام من قيام أو نشوب حرب في المعبد وحظيوا بأمنية طيبة لحيوم

(٦) ابن غزبان للمحاربة أو في الحرب التي (بين أوفى) تعميمتان ؟ في شهر

ذى الإلات من

(٧) السنة الخامسة من حكم ودود إل بن حيوم بن كبير خليل

(٨) وألا يحارب في هذا الشهر من لم يخرج (أو يثر) على الحكم (أو الملك) و

(٩) لذلك أرسلوا سعد تالب بن دومان للحرب في يوم ثمان

(١٠) من العقد الأول من شهر أبهى وحارب فيه

(١١) حتى جهى ، يوم أربع من العقد الثاني (من هذا الشهر) . ولا

يستخفوا بما

(١٢) أظهره (أو بينه) لهم إلقاء من تحقيق أمنية هذا الإنسان (أو سلامة

هذا الإنسان سعد تالب)

(١٣) وشروا أنفسهم اجزاء مرضاة إلقاء فقاتلوا وفقا لوجيه ، وحظيوا بأمنية

طيبة كي يبلغوها لمن

(١٤) لم يقم بأى حرب في هذا الشهر ذى الإلات ، وليذيعوها لمن

(١٥) لم يحارب حيوم ، كما حظيوا بأمنية طيبة له ، وأعلنوا لمن لم

(١٦) يخضع . . . في أوام ، وليثق به وليتضرع له

(١٧) هذه الحرب لكي يحارب وفقا لأمر

(١٨) إلقاء عبده [شاعر أوتر ملك سبأ لتقديم هذا

(١٩) الصنم] ترة (ابتعد) عن الذين لم يغوا بكل ما سطر

(٢٠) في وثيقة هذه التقدمة وإلقاء سيد أوام قد

(٢١) أمر بوحيه عبده شاعر أوتر ملك سبأ والبيت (أو القصر)

(٢٢) سلاحان وغمدان ، وعبيده سبأ وفيشان

(٢٣) وبعد ذلك . . . حيوم بن غزبان للحرب التي بين

(٢٤) تعديتان في يوم الخامس من العقد الثاني من شهر ذي أبيه في

(٢٥) الخريف ، كما أمر إلقاء أن يحارب حيوم حتى حرب

(٢٦) وأذلم إلقاء بتحقيق رغبة (أو بنجاة) هذا الانسان حيوم

(٢٧) ابن غزبان وفقا لأمر إلقاء بما يرضى

(٢٨) بحق عثر وهوبس وإلقاء وبذات حم

(٢٩) وبحق شمسم تنوف .

التعليقات

(٢-١) يوجد رسم شعار حية على عيني السطرين الأولين ، واسم الملك شاعر أوتر مكسور ، ولا يظهر منه سوى الأجزاء السفلى من الشين والراء والميم . وكذلك لقب أبيه نهفان . ويرد اسم شاعر أوتر لأول مرة في النقوش ملقباً بلقب ملك سبأ دون إضافة ذي ريدان إلى لقبه الملكي . والظاهر أنه تولى الملك مدة بعد وفاة أبيه الملك علهان نهفان ملك سبأ ، دون أن يلقب بملك سبأ وذو ريدان .

(٣) حجن كنفلو بعم إلقه = لا اتجهوا . حينما قصدوا أو توجهوا إلى الإله إلقاه . والفاعل هو الملك شاعر أوتر ، وكتب الفعل تفلو بصيغة الجمع للتعظيم . وجاء نفس هذا التركيب في نقش الأب Jamme رقم ٧١٨ س ٨^(١)

(٤-٥) لشيم حريم بمحر من ذأوم : لصيانة المعبد أوام من وقوع حرب فيه^(٢) .

(٥) ووكيو ملائم لحيوم = وحظيوا بالرعاية أو الخلاص من الإله إلقاه لحيوم .
(٦) غثر بن = غثران . اسم والد حيوم . ولم يرد هذا العلم من قبل . وجاءت لفظة غثر كاسم مكان من قبل في النقوش العربية الجنوبية^(٣) .

بين تعمتن :

لا نعرف هل ه تعمتن ، اسم مكان أم أن هذه اللفظة مصدر عماء تعمية بمعنى الضلال أو الفحشة أو الفتنة ، وإذا كانت مصدرا فمن الجائز أن تكون لفظة « بين » فعلا بمعنى أزال ، ويكون معنى الجملة : لحرب تريل هذه الفتنة . وقد وردت تعمتن مذكرا في نقش GL رقم ١١٥٠ = RES رقم ٢٧٧٤ س ٤ . وعلى العموم فقد فضلنا ترجمة النص الموجود في هذا النقش وهو : لحرب بين تعمتن = للحرب أو للمحاربة بين تعمتن ، أو للحرب التي في تعمتين ؟

(٦-٧) ذخرف ودد إل بن حيوم بن كبر خلل خمسن = في السنة السادسة من ودد إل بن حيوم كبير خليل :

جاء في نقش GL رقم ١٣١ = CIH ٩٩ س ٧-٨ : بخرف ودد إل بن حيوم ابن حزفرم ، انظر Rhod.Stud ج ٢ ص ١٥٧ ، A. Loundtne et J.Ryckmans, Nouvelles Données sur la Ghronologie des Saba et Du Raydan ص ٤١٠ — ٤١١

(١) انظر : Albert Jamme, Sabaeen Inscriptions from Mahran Bslqis, p. 202 .

(٢) انظر ناسي : نقوش عربية جنوبية — المجموعة الثانية ص ٤٣ تعليقة ١٦ — ١٧ النسخ العاشر .

(٣) انظر : Ryckmans, N.P.S. ج ١ ص ٣٥١ . ونجد في التاموس المحيط : الغثرب كعلس الأسد والعثرب كعجمن بالعين المهملة الشهم .

(٨) تفرع سلطه = يهاجم الحكم . يخرج على السلطة — قرع = ضرب

(١٠) ذفرع ورخ ذأهبي = من العقد الأول من شهر ذي أهبى^(١) .

ذمدن خرفن = في الخريف :

وذلك كما جاء في نقش Jamme رقم ٦٥٣ س ١٠^(٢) .

(١١) عدى جهمي = حتى جهمي :

جهمي اسم مكان ، وجاء في تاج العروس في مادة (ج م) ما يلي : وبنو
الجهمي طائفة بجبل أصاب باليمن . وجاء في نفس المعجم في مادة (و ص ب) ما يلي :
وكفراب ويقال أصاب اسم جبل يحادي زبيد باليمن ، وفيه عدة بلاد وقرى
وحصون وحصونهم عالية جدا ، منها جبل المصباح . وجاء في النقوش
الصفوية العلم جهم في نقش رقم ٣١٥ ، ١١٥٢ ، ١٢٩٢^(٣) .

يوم أربعم ذفقحي = يوم أربع من العقد الثاني (من هذا الشهر)^(٤) .

وأل مهن = ولا يحتقر ، ولا يستخف

(١٢) بصدغ :

جاء في نقش RES رقم ٤١٥١ س ٦ : صدغهو كتلدن . وقال مترجما هذا
النقش أن « صدغ » تقابل « صدق » وترجمها بـ cr gewäharte ihm . وجاءت هذه
اللفظة في نقش Jamme رقم ٧٢١ س ٤ : بصدغهو ، وقال الأب Jamme إن
« صدغ » تقابل « صدع » في اللغة العربية ومعناها جهر .

(١٢ — ١٣) وتشريو ألقه بمسأهو :

جاءت شري في نقش RES رقم ٥٠٤٠ س ١ ، كما جاءت « هشرين » في نقش
CIH رقم ٣١٥ س ٣^(٥) . ومن الجائز أن يقال إن الفعل « تشريو » خطأ من كاتب

(١) A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calenders and Dating, p. 6-7 .

(٢) انظر : Jamme, Sabaean Inscriptions from تليقة ١٠ ص ١٥٩

(٣) Enno Littmann, Safaitic Inscriptions, Semitic Inscriptions, S.C. ص ٨٧ ،

٢٨٦ ، ٢٥٧ .

(٤) انظر هامش ١ من هذه الصفحة :

(٥) انظر : Walter W. Müller, Die Wurzeln Mediae und Tertiae Y/Wim

Altsüdarabien, S. 67.

النقش وصحته : وتشيرهم المقة = أى وخلصهم إلقاءه ، كما أنه من الجائز أن ترجم هذا النص هكذا : واشتروا أنفسهم أى باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الإله إلقاءه ، أى باعوا أنفسهم فجاهدوا في سبيل الإله إلقاءه ابتغاء لرضائه عنهم .

(١٣) كهلن ذل حرب = كهلن ذ [ا] ل حرب = كى يعلن من لم يحارب

(١٤ — ١٥) وعلن . . . ل = وعلن [ذ ا] ل .

(١٧ — ١٨) أل شرع أوتر = أل [م ق ه | عبد هو] :

وذلك كما جاء في السطر الحادى والعشرين من هذا النقش .

(١٨ — ١٩) ذ م ن = ذ [ن ص ل] م ن .

(٢٥ — ٢٦) لسبأحيوم لحرب = أن يحارب حيوم حتى حريب أو

إلى حريب :

وحرب جاءت في نقش GL رقم ١٦٠٠ س/٤ ، وهى مدينة وواد بين وادى ييحان ومأرب، وقد جاءت أيضا في نقش RES رقم ٤٩٠٤ س ٢٢ وكذلك في نقش RES رقم ٤٦٦٨ س ٤ ، كما جاءت أيضا في نقش الأب Jamme رقم ٦٤٩ س ٢٥^(١) .

(٢٦) وخودهمو إلقاءه = وأذلم إلقاءه :

وجاءت هذه اللفظة في نقش RES رقم ٤١٥٤ س ٣

(٢٧) لأرخ عبر المقة = وفقا لأمر إلقاءه .

نقش ١٣

هو نقش نامى رقم ٧١^(٢) ، وهو عبارة عن حجر جبرى طوله ٦٦ر٥ سم وارتفاعه ٢٤ر٥ سم ، ومكتوب عليه ثلاثة سطور بارزة ، وله إطار عريض من جهة اليمين وكذلك من أعلى مما يدل على أنه أول نقش مكسور ، وهو مكسور

(١) Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Belqis, p. 151-153

G. Ryckmans, Les Nows Propres Sûd-Sentiques, Tome 1, p. 338

(٢) انظر : خليل يحيى نامى : نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وترجمها ص ٩٢

من جهة اليسار من أعلى ومن أسفل وارتفاع السطر ٦ سم ، ولا يكمل هذا النقش نقشي ناى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، كما سبق أن ذكرت ذلك من قبل ^(١) وذلك لأن ارتفاع السطر فى هذا النقش هو ٦ سم ، بينما ارتفاع السطر فى نقشي ناى رقم ٧٢ ، ٧٣ هو ٦ سم فقط ، كما أن ارتفاع الإطار الفاصل بين السطور أقل منه فى نقشي ناى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، ويوضح ذلك جليا من الصور الفوتوغرافية لهذه النقوش ، لذلك نقول إنه لا يوجد أى ارتباط بين نقش ناى رقم ٧١ ، وبين نقشي ناى رقم ٧٢ ، ٧٣ ، وما يلاحظه الباحث أن وجود إطار على يمين النقش وفى أعلاه من المسائل المثيرة للشكوك لأن أول النقش ناقص ؟

.....

- (١) رى دن | ل ش ر ح ت | م ل ك ه م و | ب ي و م | ..
- (٢) وأعر ب | م ل ك | ح ض ر م و ت | وأ ش ع ب ن
- (٣) و خ م ي س | ب ن ي | ذى ريدان | وبعد ن ذ ت | .

الترجمة

- (١) ريدان للتوفيق فى (أو لتوسيع) ملكهم فى يوم ..
- (٢) أعراب ملك حضرموت والقبائل ...
- (٣) وجيوش بنى ذى ريدان . وبعد ذلك ... ^(٢)

نقش ١٤

هو نقش مكسور من جهة اليمين ، ومن جهة اليسار ، وهو مكون من أربع قطع هى :

- (١) قطعة من الحجر الجبرى طولها ١٨ سم ، وعرضها ٣٠ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، والسطر الأول مكسور ، ولا تظهر منه إلا بقايا بعض الحروف ، وكذلك السطر الثالث من جهة اليسار .

(١) انظر ناى : نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ص ٩٢
 (٢) اعتمدنا فى ترجمة هذا النقش بنىء من التصرف على ترجمة الدكتورة Maria Hofner فى مئالة H. von Wissmann, Hinyar Ancient History ص ٧٠ ، وذلك لأنها أصح من ترجمتنا السابقة لهذا النقش .

(ب) هي عبارة عن نقش ناي رقم ٧٢ ، وهي قطعة من الحجر الجيري ارتفاعها ٢٥ سم ، وطولها ٣٠ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، وفي أعلاها إطار ارتفاعه ٤ سم . وهي مكسورة من اليمين ومن اليسار ، ويكاد يكون نصف السطر الثالث مكسوراً تماماً .

(ج) هي عبارة عن نقش ناي رقم ٧٣ ، وهي قطعة من الحجر الجيري طولها ٥٥ سم وارتفاعها ٢٤ سم ، وارتفاع السطر ٦ سم . ويوجد إطار في أعلاها ، وهي مكسورة من اليمين ومن اليسار وبخاصة في آخر السطر الثالث .

(٤) قطعة من الحجر الجيري طولها ٢٦ سم وارتفاعها ٢٥ سم ، وارتفاع الحرف ٦ سم ، ولها إطار في أعلاها ، وهي مكسورة من اليمين واليسار ، ومن أسفل ، والقطع الأربع موجودة بدار الضيافة بصنعاء .

.

(١) ش ت | ب ع ل ي ه م و | ع ل ه ن | م ل ك
س ب أ | و خ م ي س | أ ع ر ب | م ل ك س ب أ | و ي د ع أ ب | و

(٢) | ر د م ن | و خ و ل ن | و م ض ح ي م | و ق ت ب ن | و أ ق و ل |
و أ ق د م | و أ ش ع ب | م ل ك | ح ب ش ت | ل ض ر م | ب ع ل ي

(٣) ب أ و | و ف ل س * | ب [ن | أ] ر ض | و أ و ي ن | ذ ر ي د [ن]
أ ذ ي ن ت | و خ م ي س | و أ ع ر ب | م ل ك [] [] ح ض ر م و ت | و أ ق و
[ل] [] .

الوجه

(١) عليهم ملك سبأ وجنود وأعراب ملك سبأ ويدعأب و

(٢) ردمان وخولان ومضحي وقبتان وأقيال (حكام) ورؤساء ملك حبشة
لحرب ضد

(٣) وهربوا من أرض وإقليم ذي ريدان . أذينة وجيوش وأعراب
ملك حضرموت وأقيال .

التعليقات

(١) السطر الأولى من القطعة الأولى مكسور ولا يظهر منه إلا بقايا حرف شين وعين وتاء وسين ، وفي آخره فاصل غريف باء ، وهي تكمل عليهمو في أول سطر من القطعة (ب) . عليهمو = عليهم أو ضدهم أولهم .

(٢) ردمان وخولان ومضحى وقتين :

ردمان = معاهر^(١) . ومن المحتمل أن المعاهر كانت حصن ردمان في مدينة وعلان^(٢) . خولان = بيت خولان على قمة أعلى جبل في اليمن (حضور النبي شعيب)^(٣) .

(٣) ب أو :

لا ندرى هل هذه الحروف بقية الفعل (سباو) أو (ضباو) ؟

فلس × = طرد . أبعاد . هرب . أخرج

جاء الفعل فلس في نقش CIH رقم ٣٣٤ = GL رقم ٨٢٥ س ١١ : فلسو شعيب ردمان بن حرتن^(٤) .

ب ٠٠٠ دض = بن أرض .

أوين = مسكن . ملجأ . موطن . إقليم

جاء « ذأويم » اسم شعب في نقش RES رقم ٤٣٥٦ س ١ ، الفعل تأو في

نقش RES رقم ٣٩٤٥ س ٣ ، ستأى في نقش RES رقم ٢٩٤٨ س ٢ ، يهايو

في نقش CIH رقم ٦٠٢ = RES رقم ٢٨٥٩ س ٢

أذيت = أذينة — اسم علم

وهو لأول مرة يرد في النقوش العربية الجنوبية القديمة .

وأعرب | حضر موت = وأعرب | [ملك] | حضر موت

وأقو = وأقو [ال] .

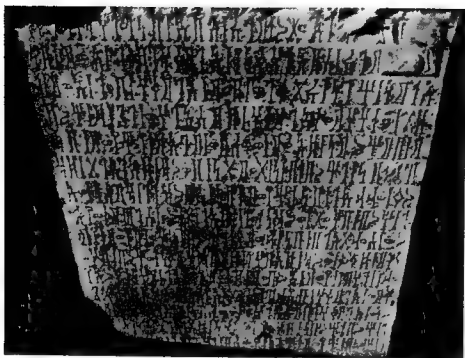
(١) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٦٣

(٢) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٦٤ هامش ٨٧

(٣) H. Von Wissmann, Himyar Ancient History ص ٦٠ هامش ٧٩

(٤) انظر J. H. Mordtmann, Himjarische Inschriften und Altertümer, S. 5, 6, 9

Rhod. stud., II S. 47٦



شکل رقم ۱۲ (۱)



شکل رقم ۱۲ (ب)



شکل رقم ۱۳



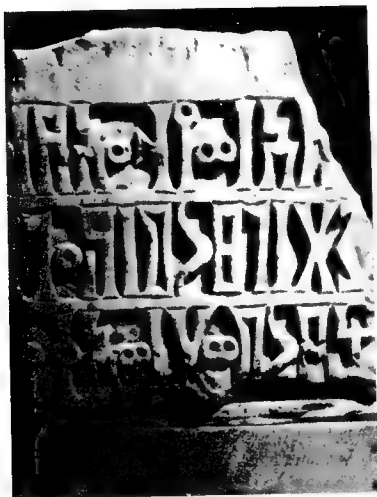
شکل رقم ۱۴ (۱)



شكل رقم ١٤ (ب)



شكل رقم ١١ (ج)



شكل رقم ١٤ (د)

مطبعة بولاق في عهدهما الأول

١٨١٩ — ١٨٤٠

للدكتور خليل صابات

جلت الحملة الفرنسية عن الأراضي المصرية في سنة ١٨٠١ وحلت معها مطالعها وحروفها وعادت بها إلى فرنسا ، كما أثبتت ذلك الوثائق التي عثرنا عليها في محفوظات وزارة الحرية الفرنسية . وظلت مصر بدون مطبعة حوالى العشرين سنة . ويرجع سبب تأخر عودة ظهور الطباعة في أرض القراعة كل هذه المدة ، إلى الفوضى التي شملت البلاد من أديانها إلى أقصاها . فقد ظهر على المسرح عقب خروج الفرنسيين قوى ثلاث أخذت تتنازع حكم مصر . فالأتراك من جهة ، يريدون استرداد نفوذهم أو سلطانهم الذي انتزعه منهم المماليك منذ أمد بعيد . والمماليك من جهة أخرى يرمون إلى استعادة سيادتهم التي فقدوها بدخول الفرنسيين . ووقف بين هاتين القوتين المتنازعتين الشعب المصري صاحب البلاد . واستطاع آخر الأمر أن ينتصر بقوة إيمانه ويفرض على العثمانيين والأتراك والياً توسم فيه أنذاك بالإخلاص لمصر . وهكذا انتهى هذا الصراع الذي دام حوالى الأربع سنوات بالمناداة بمحمد على والياً على البلاد .

إلا أن الأمر لم يستتب للوالى الجديد منذ اللحظة الأولى . إذ كانت أمامه مشاكل عويصة وصعاب عديدة لا بد من حلها . فالمماليك قد اتجهوا إلى الصعيد ليناصبوه العداة ، ورواتب جنوده لم تدفع لهم ، والسلطان غير راض عن تنصيبه والياً على مصر . ولكن محمداً علياً استطاع بفضل دهائه ومؤازرة الشعب له أن يثبت أقدامه في حكمه لمصر ، ويمكن أن يقال : إن عهد حكم تركيا لوالدى النيل حكماً مباشراً قد انقضى إلى الأبد منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ ، عندما تبت محمد على في ولاية مصر .

اتجه الحاكم الجديد إلى إصلاح أداة الحكم في البلاد ، غير أن المالك في الصعيد والآنجليز في الشمال حالوا دون تفرغه لمشروعاته الإصلاحية . فقد اضطر أن يذهب إلى المالك في أسبوط ثم يطرد الآنجليز في سنة ١٨٠٧ بفضل كفاح الشعب ضدهم . وعكف بعد ذلك على تحصين السواحل عند دمياط ورشيد وأبي قير والاسكندرية والسويس . ولم يكد محمد علي يفرغ من هذا كله حتى طلب إليه السلطان في سنة ١٨٠٩ أن يحجز حملة لتأديب الوهابيين ، فلي الطلب بعد أن قضى على المالك أول الأمر في مذبح القلعة سنة ١٨١١ . وسير حملته سنة ١٨١٢ ودامت الحرب سجلا بين المصريين والوهابيين حوالى ست سنوات وانتهت بانتصار الجيش المصرى سنة ١٨١٨ . ولا شك في أن هذه الحرب قد أخرت إصلاحات محمد علي . كثيراً واستنزفت ثروة مصر .

وعندنا أن هذا الوالى بدأ يفكر في إدخال الطباعة إلى مصر أو قل إنه عزم على إدخالها فعلا منذ سنة ١٨١٥ أى عندما أخذ يفكر في تكوين جيش نظامى حديث . إذ كان لابد لهذا الجيش من كتب يتعلم فيها أصول الحرب وتعليمات توزيع عليه ، وإدارة أوديوان ينظم أموره ، وأطباء يعالجون مرضاه وينشرون بجرهه . كان لابد إذن من الكتب لكل هؤلاء . وكان لابد من مطبعة أو مطابع تقوم بطبع تلك الكتب . ودليلنا على ذلك أن أول بعثة أرسلها محمد علي كانت حوالى سنة ١٨١٥ إذ سافر إلى ميلانو بإيطاليا الشاب نقولا مسابكى « ليتعلم فن سبك الحروف وصنع أمهاتها ويدرس فن الطباعة فيها »^(١).

مطبعة بولاق :

أول مطبعة مصرية عرفت مصر بعد خروج الفرنسيين ، كانت مطبعة بولاق . وقد اختلف المؤرخون على السنة التي أسست فيها وعلى الجهة التي استوردت منها . فيقول جورجى زيدان إنها أنشئت سنة ١٨٢١ على أنقاض مطبعة بونايرت^(٢) . وقد ثبت

(١) عمر طوسون (الأمير) ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهد عباس الأول وسعيد ، مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية ١٣٥٢ - ١٩٣٤ ص ١٠ .
(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٢٧ ، القاهرة سنة ١٩٣٧

أن مطابع الفرنسيين قد عادت إلى فرنسا . أما أمين سامى باشا فهو أكثر دقة في تحديد تاريخ التأسيس ، إذ يعيده إلى ٨ صفر سنة ١٢٣٧ هـ ، ٤ نوفمبر سنة ١٨٢١ م^(١) ويتفق مع أمين سامى على هذا التاريخ نفسه المسيو جان دونى^(٢) Jean deny وكذلك ريتولد نيكولسون^(٣) . ولكنه لا يحدد اليوم ولا الشهر ويضيف أنه كان للمطبعة فضل نشر العلوم والمعارف في مصر والبلاد العربية وآداب العرب والعريجة . ويرى بعض المؤرخين أن مطبعة بولاق أنشئت في سنة ١٨٢٢ لا في سنة ١٨٢١ ، ومن هؤلاء أوكثاف ساشو الذى كتب في تقريره المقدم إلى وزير معارف فرنسا سنة ١٨٦٨ « أن مطبعة بولاق أسسها محمد على سنة ١٨٢٢ وتحتوى مجموعات جميلة من الحروف العربية والتركية وقد طبع فيها عدد كبير من المؤلفات بهاتين اللغتين وكثير منها مترجم عن الكتب الأوروبية »^(٤) . ويقع الفيكونت فيليب دى طرازى في نفس الخطأ الذى وقع فيه جورجى زيدان من حيث مصدر تلك المطبعة ، إذ يقول :

« . . . فاشترى (محمد على) مطبعة يوحنا يوسف مرسال المذكورة وحسناها وزاد عليها . وهكذا أسس سنة ١٨٢٢ مطبعة بولاق الشهيرة التي أدت خدمات وافرة وجزيلة لجميع الناطقين بالضاد »^(٥) . ويذهب يول دوپون^(٦) Paul Dupont نفس المذهب من حيث تحديد سنة التأسيس . وهناك اللوحة التذكارية لانشاء المطبعة الموضوعة اليوم على المدخل الرئيسى فى أعلى الباب ، فقد نقش عليها ثلاثة أبيات من الشعر التركى وتاريخ سنة ١٢٣٥ هـ أى سنة ١٨١٩ م . ويبدو لنا أن هذه اللوحة التذكارية إنما تشير إلى تاريخ البدء فى تشييد البناء الذى خصص لايواء

-
- (١) أمين سامى باشا ، التعليم فى مصر ، ص ١٢ . القاهرة سنة ١٩١٧ ، تقويم النيل اجزاء الثاني ، ص ٥٧٨ ، مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٨
- (٢) Jean Deny ; Sommaire des Archives Turques du Caire, Le Caire 1930, p. 122 (٢)
- (٣) Reynold Nicholson, A Literary History of the Arabs, 1930, p. 468-69 (٣)
- (٤) Octave Sacht ; Rapport adressé à S. E. Mr. Victor Duruy, Paris 1868, (٤) Autographe, p. 48.
- (٥) الفيكونت فيليب دى طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول ، بيروت ١٩١٤ ص ٤٩
- (٦) Paul Dupont ; Histoire de l'Imprimerie, Tome II, Paris 1854, p. 604. (٦)

الطبعة ؛ أما ٨ صفر سنة ١٢٣٧ هـ الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٨٢١ فهو على ما نظن التاريخ الرسمي الذي فتحت فيه المطبعة . وقد عثرنا على أمر من محمد علي إلى كتحذا بك يخطره فيه أنه عين أحد الهندو لتعليم تلاميذ بولاق الخط وصف حروف المطبعة ، وأن هؤلاء التلاميذ سوف يتم إعدادهم ليحقوقوا بالمطبعة التي ستنشأ في هذه الناحية^(١) . ويحمل هذا الأمر تاريخ ٨ صفر سنة ١٢٣٧ ، ولو أن المطبعة قد بدأت فعلا العمل لا استعمل محمد علي عبارة « التي ستنشأ في هذه الناحية » ، مما يحملنا على الاعتقاد أن المطبعة لم تبدأ بالانتاج إلا في سنة ١٨٢٢ . ويؤيد هذا الرأي الأخير أمين سامي باشا نفسه الذي سبق أن ذكر مرتين أن سنة ١٨٢١ هي السنة التي أسست فيها المطبعة ، إذ يعود فيقول إنها تأسست في سنة ١٢٣٨ هـ أي في سنة ١٨٢٢ م . يضاف إلى ذلك أن أول مطبوع خرج من مطبعة بولاق يحمل هذا التاريخ الأخير .

ويرتبط تاريخ إنشاء مطبعة بولاق بتاريخ أول مدير لها ، نقولا أفندي مسابكي .

ولد نقولا مسابكي بدمشق في أول القرن التاسع عشر^(٢) . وقد هاجر أبوه تادى مسابكي من سوريا واستقر في القاهرة هو وأسرته المكونة من زوجته ، أم نقولا ، وابنه نقولا وابنته رحمة التي توفيت بالطاعون سنة ١٨٢٤^(٣) . وقد نزلت أميرة المسابكي في جهة الروضة^(٤) .

وكان نقولا مسابكي شابا ذكيا فوقع اختيار الوالي عليه لإرساله في بعثة إلى ميلانو بإيطاليا سنة ١٨١٥^(٥) ليتعلم فن الطباعة على يد الأستاذ موروزي Morosi . وقد أظهر الشاب نقولا مهارة في الطباعة وحفر الحروف وصنها . وبعد أن أمضى

(١) G. Talamas ; Recueil de la correspondance de Mohamed Aly, Khédive d'Egypte, Le Caire, Imprimerie Nationale, 1913, Ordre No. 91, page 27

(٢) السجل الأول للمتوفين من أبناء الطائفة المارونية .

(٣) من مذكرات الأب انطون مارون عن سنة ١٨٢٤ ، كتاب اليوبيل القرنى الثانى للرهبانية الحلبية المارونية في وادى النيل ، القاهرة سنة ١٩٤٥ من ص ١٧٤ الى ص ١٧٨

(٤) المصدر السابق .

(٥) عمر طوسون (الامير) ، المصدر السابق ، ص ١٠

هناك أربع سنوات عاد إلى مصر وفي جعبته كل أصول فن الطباعة وأخذ يعلم بهمة ونشاط فن صب الحروف وصنع الأبهاء والأهات. وقد حمل معه عند عودته إلى مصر مجموعة من الحروف العربية. استعملت أول الأمر ريتا تصب حروف أخرى^(١). وقد اعتقد أحد الإيطاليين الذين أرخوا للطباعة في مصر واسمه نيمونجلي ، أن نقولا مسابكي من أصل إيطالي. وأنه لظروف غير معروفة اضطُر إلى تغيير اسمه من مسابشي Musabichi إلى مسابكي Musabki^(٢). والأسباب التي دعت لنيمونجلي إلى الاعتقاد أن مسابكي لا بد وأن يكون إيطاليا أو من أصل إيطالي هي :

(أولا) تصرّخ أحد أحفاد بني عمومة نقولا أن جزءا من أسرة مسابكي هاجر من دمشق إلى مدينة ليفورن بإيطاليا منذ أمد بعيد .

(ثانياً) قائمة موظفي مطبعة الحملة الفرنسية التي وضعت في روما والتي اشتملت على اسمي أنطون ويوسف مسابكي^(٣). ويفترض نيمونجلي أن هذين الشخصين ظلا في مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية وأن أحدهما أنجب نقولا مسابكي .

(ثالثاً) إن اهتمام روزي قنصل توسكانيا بنقولا مسابكي وتذكيته لدى محمد علي لإرساله إلى ميلانو لدليل كاف في نظر نيمونجلي على أن مسابكي لا بد أن يكون من توسكانيا ، أو على الأقل رعية من رعايا الولايات البابوية .

ولاشك في أن تحمس — ولا نقول تعصب — نيمونجلي لبني جنسه هو الذي أوصله إلى هذه النتيجة التي يباها المنطق وينكرها التاريخ. ودليلنا على ذلك أن أسرة مسابكي أسرة دمشقية مارونية لها ودما وأن اسمها عربي مشتق من فعل سبك سبك ومعناه أذاب المعدن وصبه في قالب. والمعروف عن السوربيين واللبنانيين أنهم يسمون الشخص باسم الصنعة التي يمارسها أو المهنة التي يؤديها فهناك أسرة الطحان والحداد والقران والتجار الخ . . .

(١) Giuseppe Forni, Viaggio Nell'Egitto et nell'Alta Nubia, Milano. — Le memorie del Forni furono scritte durante la sua dimora in Egitto dal 1815 al 1840, cité in S. Limongelli, L'Arte italiana, p. 14 et 15, Cairo 1911.

S. Limongelli ; L'Arte italiana . . . , p. 15 op. cit. (٢)

R. Canivet ; L'imprimerie de l'expédition française, Bul. de l'Institut d'Egypte, série 5, Tome 5, 1909. (٣)

وإن سلمنا جدلاً بأن أنطون ويوسف مسابكي ظلا في مصر ، بعد جلاء الفرنسيين عنها ، فأننا لا نستطيع أن نجزم بأن نقولا ولد لأحدهما في مصر ودليلنا على ذلك سجلات مواليد البطريكية المارونية الخالية من إسم نقولا هذا في حين أننا نجد في مذكرات الأب مارون التي كتبها سنة ١٨٢٤ وهي عبارة عن بيان بأسماء أبناء الطائفة المارونية بالقاهرة في تلك السنة ، ويوضح من هذا البيان أن نقولا مسابكي كان الابن البكر للخواجة تادى مسابكي وأن له شقيقاً اسمه فضول وشقيقة إسمها رجة .

بقى أمامنا الدليل الأخير الذي ساقه ليمونجلى ألا وهو تدخل روزقي فنصل توسكانيا لصالح نقولا وتذكيته لدى محمد علي لكي يرسله في بعثة إلى إيطاليا . وردنا على ذلك أن توصية فنصل بفرد من الأفراد ليست دليلاً على انتهاء هذا الفرد لرعايا هذا القنصل . وعلى أى حال فإن ليمونجلى شعر في قرارة نفسه بأن كل ما ساقه من أدلة لا يؤكد جنسية نقولا مسابكي ، إذ يقول : « سواء كان مسابكي إيطالياً أم لا ، فإن ما يثلج صدرى أنه قد درس في إيطاليا فن الطباعة والحفر والسبك وأن معدات المطبعة قد صنعت كلها في إيطاليا » (١) .

ولما عدا نقولا مسابكي من إيطاليا هو وثلاثة من زملائه عينوا بمعية عثمان نور الدين بيولاقي (٢) . وأحضر المسابكي معه من ميلانو ثلاثة مكابس من طراز المكابس التي تستخدمها « المطبعة الملكية » ، وحروفا عربية وتركية وإيطالية ويونانية . وكان يوجد في المطبعة على عهد المسابكي ثلاثة أنواع من الحروف العربية ونوعان من الحروف الإيطالية (٣) . وكان يعين مسابكي في العمل أربعة من خريجي الأزهر ، وهم المشايخ عبد الباقي رئيس المسبك ومحمد أبو عبد الله رئيس الطباعين ويوسف الصنف ومحمد شحاتة رئيسا الصفيقة (٤) . أما عدد صفافي الأحرف

(١) S. Limongelli : L'Arte Italiana . . . p. 17, Cairo 1911.

(٢) محفولات عابدين دفتر ٦ معية رقم ٧٢٥ الى الكتخدا في ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٣٦

(٣) Giuseppe Forni; Viaggio Nell' Egitto et nell alta Nubia, cité in S. Limongelli, (٣) op. cit., p. 15.

(٤) جورجى زيدان ، المصغر السابق ، ص ٤٨

فأثنا عشر من المصريين وإيطالي واحد نصف الحروف الإيطالية ويونانيان نصف الحروف اليونانية^(١).

ولم يكن المسابكي الشخص الوحيد الذي استعان به البابا على إنشاء المطبعة . فقد كان الآراء التي أبدأها كل من عثمان نور الدين والأب أنطون رفايل زكور نصيب كبير في إرساء قواعد تلك المطبعة على أسس متينة^(٢) .

ويسرد لنا بروكي Brocchi^(٣) حادثا وقع لمسابكي كاد يقضى على المركز الممتاز الذي كان يتمتع به عند البابا . فقد وضع أحد مدرسي مدرسة بولاق للهندسة واسمه يولوتي Billotti ، قصيدة طويلة عنوانها « ديانة الشعوب الشرقية » واتفق مع مسابكي على أن يطبع له تلك القصيدة سرا وكانت تحوى نقدا للدين الاسلاى وتدعو إلى الكفر بكل دين . وقد استطاع القنصل الانجليزى سولت Salt أن يحصل على نسخة مطبوعة من القصيدة ويقدمها للبابا الذى أمر بحرقها فوراً . ولولا تدخل عثمان نور الدين لعوقب المسابكي عقابا صارما . وقد أمر مجد على في ١٣ يولييه سنة ١٨٢٣ بعدم السماح لأى أجنبي بأن يطبع كتابا في مطبعة بولاق إلا أن استصدر تصريحاً منه شخصيا .

وظل المسابكي يعمل في بولاق بهمة لا تعرف الكلل إلى أن توفاه الله وهو في ريعان الشباب . وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٠^(٤) .

(١) Giuseppe Forni ; cité in Limongelli, op. cit., p. 15

(٢) محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ١٢٠ ، ١٢١ القاهرة سنة ١٩٤٨

(٣) Brocchi : Giornale delle Osservazioni fatte nei viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia, p. 370

(٤) ورد في السجل الاول للمتوفين من ابناء الطائفة المارونية ، وهو بخط المرحوم الاب انطون مارون ، الوكيل البطريركى المارونى في القاهرة من سنة ١٨٢٠ الى وفاته في سنة ١٨٤٣ ، ما يأتى :

« في ٢٤ ايار (مايو) سنة ١٨٣٠ توفى نقولا بن تادى المسابكى إلمدشقى معترفا بحال الاستعداد لأخذ باقى الأسرار ، ودفن (بالطاحونة) . عمره نحو ثلاثين عاما » . وكتبه ايضا في سجل المخطوبين والمتزوجين في سنة ١٨٣٠ ما يأتى :

« في السادس عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣٠ قد خطبنا نحن (أى الاب أنطون مارون) الخواجة نقولا بن تادى مسابكى على برباره ابنة المرحوم جرجس عيروط . وكيل الخاطب الخواجة نقولا سمان . وكيل المخطوبة والدتها وردة حرمة المرحوم اخواجة ميخائيل فنده . بعد أخذ الاذن من حضرة الاب مريتنوس رئيس طايفتها المخلص .

صح : ان هذه الخطوبة فسخت بوفاة الخطيب الذى توفى في ٢٤ ايار بهذا العام »

ويقول ليمونجلي « إن محمداً علياً ، تقديراً لفضل المتوفى على المطبعة ومساعدة لأسرته . رغب في إسناد إدارة المطبعة إلى الياس مسابكي وهو أحد أقرباء نقولا . وكان يعلم الحفر . ولكن نظراً لصغر سنه تعين غيره مديراً لها^(١) . ولا يذكر ليمونجلي المصدر الذي استقى منه هذا الخبر ؛ ولم نجد لا في الوثائق ، ولا في كتب التاريخ ما يؤيده أو ما ينفيه . وكان المسابكي يطبع في ذيل الكتب التي صدرت عن بولاق في عهده ، العبارة التالية : « تم بحمد الله طبع . . . على يد متولى تدبير دار الطباعة الفقير المسابكي في . . . »^(٢) .

ولم يكن المسابكي المتصرف المطلق في شؤون المطبعة بل كان له رئيس مباشر يتولى أمر المطبعة وغيرها من المؤسسات التابعة لديوان الجهادية ، إسمه عثمان نور الدين^(٣) ، الذي أصبح فيما بعد قائد الأسطول المصري في الحرب السورية الأولى^(٤) . وعلى أثر وفاة المسابكي عين عبد الكريم أفندي مديراً للمطبعة^(٥) . وكان قبل قدومه مصر « مجاوراً لبيت الله الحرام بمكة المكرمة » . واستخدم في المطبعة حوالي ثلاث سنوات^(٦) ثم أعيد إلى التقاعد لتقدمه في السن ، فطلب من الديوان الخديوي أن يعيده إلى مكة هو وأسرته « وأن يعطيه من صدقات ولي التعم كما يعطى أمثاله من المجاورين »^(٧) . وقد وافق الديوان المذكور على الطلب وسافر عبد الكريم أفندي بصحبة أسرته على نفقة الوالي . وهذا دليل ضمن الأدلة التي سنسوقها لنثبت حسن معاملة مديري المطبعة ومستخدميها في عهدها الأول،

(١) S. Limongelli ; op. cit., p. 18.

(٢) راجع كتاب قواعد الاعراب المطبوع ببولاق سنة ١٢٤١ هـ

(٣) English, G. Bethune ; A narrative to the expedition to Dongola and Sennar, under the command of Ismail Pacha, London, 1822, préf.. p. VII

(٤) عبد الرحمن الراغب ، مصر محمد علي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ص ٣٤٧

(٥) — الوقائع المصرية نمرة ٣٧٨ ، في يوم الثلاثاء ، سلع ذى القعدة الحرام ، سنة ١٢٤٧

(٦) A. Geiss ; Hist. de l'imp. en Egypte (suite). Epoque contemporaine Article dactilographié, Octobre 1938, p. 17. — inédit.

(٧) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٤٢ ، في يوم الخميس المبارك ٢٢ شهر ربيع الاول سنة ١٢٤٩

واهتمام الوالى بكل ما يتعلق بالطباعة من قريب أو من بعيد . فقد حدث في سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٧م) أن تقدم أحد مستخدمي المطبعة واسمه ابراهيم البغدادي بطلب إلى مجلس مشورة الجهادية يذكر فيه أن يته في سوق السلاح وأنه مضطر إلى قطع المسافة بين المطبعة الكائنة ببولاق وبيته يوميا ذهابا وإيابا على الأقدام . فهو يرجو أن يعطى دابة بعليقها من جانب الميرى ليؤدى وظيفته على الوجه الأكمل . وقد وافق المجلس على الطلب وأمر بصحير إعلام من « حضرة بك أفندى الناظر إلى ناظر السواقى بأن يعطى الرجل المرقوم دابة من جانب الميرى ليحسن رؤية أشغاله في وقتها وإعلام إلى أدهم بك ناظر المهمات الخريسة عموما أن يعطيه عنيق الدابة المذكورة . . . »^(١) فجلس الجهادية حريص كل الحرص على راحة العاملين في المطبعة . فهو يخصص لأحدهم . وقد يكون قد خصص لغيره من قبله ، دابة يستخدمها في ذهابه إلى المطبعة وعودته منها ، ليستغل هذا المجهود الضائع فيما يعود بالنفع على المطبعة .

وظلت مطبعة بولاق وغيرها من المطابع التي أنشأها محمد علي بالقاهرة والاسكندرية تابعة لديوان الجهادية إلى سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٧م) حيث أنشئ ديوان المدارس . ففي ٥ ذي القعدة سنة ١٢٥٢هـ وردت « لائحة تركية موشح عليها بمرسوم عال بشأن تفريق المدارس من ديوان الجهادية »^(٢) وفي سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) صدرت لائحة بتحديد اختصاصات ديوان المدارس الذي أصبح يشرف على المدارس والكتبخانات والمعامل والمتاحف وقناطر الدلتا ومطبعة بولاق والقوائم المصرية على أن يضم إليها في المستقبل الهندسة واسطبلات شبرا والزرائب^(٣) . وكان مختار بك أول ناظر لشورى المدارس^(٤) .

ولم تكن وظيفة مدير المطبعة مقصورة على الأعمال الادارية والفنية الخاصة بالطباعة بل كانت تمتدداها إلى الترجمة . فقد صدر أمر في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٥٧هـ بحالة « أعمال أفران ترجمة » الوقائع المصرية التي سيضع أصولها رفاعة الطهطاوى

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٦ . في يوم الخميس غرة جمادى الآخرة ١٢٤٨

(٢) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٣٨

ص ١٠٣

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٢ ، ١١٤

« بحسب اللغة العربية » في قالب حسن بدون الاخلال بالأصل العربي وتنظيم المواد حسب النظام التركي على حضرة حسين أفندي ناظر المطبعة العامة . على أن يعد هذا التكليف من اختصاص وظيفته بصفة أصلية (١) .

وكانت إدارة أو نظارة مطبعة بولاق من وظائف الدولة المرموقة . فإن أصيب المدير أو الناظر بأى مكروه أو حدث له حادثة كأن يقع مثلاً من فوق جواده فيكسر « عظم قدم رجله اليمنى » بادت الوقائع المصرية بنشر الخبر بالتفصيل وذكر اسم الطبيب المعالج ، وقام مصصح الوقائع بتنظيم قصيد يذكر فيها « كيفية الوقوع حسبما هو الواقع » (٢) .

وشيدت مطبعة بولاق على قطعة الأرض التي أنشئت عليها فيما بعد الترسانة الأميرية ، على ضفة النيل إلى الشمال قليلاً من الموضع الحالي للمطبعة . ونظراً لزيادة عمال المطبعة ومعدات : نقلت إلى مكانها الحالي . وكان ذلك في غرة محرم سنة ١٢٤٥ هـ (٣ يوليو سنة ١٨٢٩ م) (٣) . ويؤيد ذلك الليدى لاشنجنون في كتابها الذى تصف فيه زيارتها لبولاق (٤) . ويصف لنا اللورد لنديسى (٥) Lord Lindsay موضع المطبعة بالنسبة لمؤسسات الباشا الأخرى الكائنة ببولاق . قائلاً : « إن اتجهنا من الجنوب إلى الشمال . قابلنا الجرك فاطبعة ثم ورشة أصبحت فيما بعد مدرسة للهندسة ، ومصنعا للأصواف والرساتنة » . أما مبنى الجرك فقد الحق بالمطبعة وتأتى بعد ذلك مخازن البوليس ثم ورش كوك التي احتلت المكان الذى كان يشغله مصنع الورق . وتأتى الترسانة آخر الأمر . ويقول رينو أن الذى قام بتنظيم وتصميم مطبعة بولاق هو الأب رافائيل Dom Raphaël مدرس اللغة العربية العامية سابقاً في مدرسة اللغات

(١) محفوظات عابدين ، وثيقة رقم ٥٨٤ في ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ
دفتري رقم ٢٠٧٣ ص ٨٢ ، ٨٣
(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ١٠٣ في يوم الاثنين المبارك ثانى شهر ربيع الاول
سنة ١٢٦٤ هـ .

— Albert Geiss ; Histoire de l'imprimerie en Egypte, 2^e partie, "l'établissement typographique du pacha. Les débuts de l'imprimerie de Boulac". Bulletin de l'institut égyptien T. II p. 198, 1908.

— Lushington (Mrs. Charles), Narrative of a journey from Calcutta to Europe (١) by way of Egypt, in the years 1827 - 1828. London, John Murray, 1829, p. 168 et sq.

Lord Lindsay, Letters on Egypt, Edom and the Holy Land, Vol. I, London (٥) Henry Colburn, 1838, p. 59

الشرقية الحية الكائنة بباريس بالقرب من مكتبة الملك. ^(١) ولندع بقس Yates ^(٢) الذى زار القاهرة سنة ١٨٤٢ يصف لنا الحى الذى تقع فيه المطبعة. « إن ساحل بولاق مزدحم ، كثير الحركة ومكتظ بالبالات وأكياس القمح والشعير . فى كل وقت من النهار . وبقره الجرك . وفيه بطيعة أخال مقهى ، وهى عبارة عن مكان لاستراحة البحارة العرب . أما مباني هذا الساحل الأخرى فهى : جامع السلمانية ومطبعة حروف وحجر وبعض المخازن وقشلاق للجند وقصر اسماعيل باشا وعلى مقربة منه قصر المرحوم الدفتردار بن صهر محمد على ... » نستطيع أن نستنتج من ذلك الوصف أن مطبعة بولاق كانت تمر فى تلك الفترة أى حوالى سنة ١٨٤٢ ، فى دور من الركود ، بدليل أن الوقائع المصرية . صحيفة الحكومة كانت تطبع فى مطبعة القاعة .

وعلى أى حال فإن مطبعة بولاق لم تظل على الحال التى كانت عليها عند تأسيسها . فقد طلب قاسم أفندى ناظرها فى سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) من أدم بك ناظر المهمات الحربية الحاق مخزن التجارة القديم بمبنى المطبعة « ليكون فيه السبك وسائر الأشغال . وإجراء الترميمات التى تتعلق بهذا التوسيع » وقد عرض أدم بك الطلب على مجلس المشورة العسكرية الذى قرر أن يقوم وكيل الأبنية وقاسم أفندى برئاسة أدم بك « بأعداد ما يلزم لهذا المشروع » . وهكذا تم توسيع مطبعة بولاق للمرة الثانية فى ظرف عشر سنوات أو أكثر من ذلك قليلا ^(٣) . وقد وضع فى المبنى الجديد الحطب وخصص جزء منه للسبك وبنى سقف للجزء المفتوح من بناء المطبعة . وقد انتهزت المشورة العسكرية تلك الفرصة فأمرت بصميم الشبايك وترميم « المحلات اللازمة ترميمها » .

وفى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) أى بعد حوالى سنتين من انتهاء التوسيعات والإصلاحات السابقة صدر أمر من محمد على إلى ناظر الجير والمجلس

Reinaud ; Journal Asiatique. 2e série, T. VIII, 1831. De la gazette arabe (١)
turque imprimée en Egypte, p. 342.

Yates (W. H.), The Modern history and condition of Egypt, Vol. II, (٢)
p. 361, London 1843.

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٣٥ ، فى يوم الاحد ٢٦ صفر الخير سنة ١٢٤٩

عملا بمشورة المهندسين لينان أفندى وسليمان أفندى . بأن يقوم ببناء رصيف أمام مطبعة بولاق وبذريعة الجوخ قبل الفيضان « وقاية لهاتين المصلحتين من الفرق » ويشير الباشا برسال ٢٠٠٠٠٠ قطار من الدبش على وجه السرعة^(١). وهذا دليل جديد على أن المطبعة كانت قرية جدا من ضفة النيل . ولولا ذلك لما اهتم الوالى هذا الاهتمام بالإسراع فى بناء الرصيف .

وقد أعيد إصلاح وتوسيع المطبعة فى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) كما جاء فى بيان المصروفات التى قام بها ديوان المدارس فى شهر ربيع الآخر^(٢) . غير أننا لم نتمكن من معرفة نوع هذه الإصلاحات أو التوسيعات . إذ أن البيان المذكور يحمل مصروفات المهندسخانة والمطبعة والباقرخانة وغيرها من المباني . غير أنه يبدو من الرقم المنصرف وهو ٣٠٨٠٥ قروش و ٧ بارة أن الإصلاحات كانت طفيفة جدا وأنها أقل بكثير من تلك التى شاهدها المطبعة بعد إصدار الوقائع المصرية .

ولم تكن مطبعة بولاق مطبعة حروف فحسب ، بل كان يوجد فيها مطابع حجرية^(٣) . أما الورق فكان يستورد من إيطاليا عن طريق ليفورن ، كذلك حبر الطباعة . إلا أنه صار يصنع فى القاهرة بعد إنشاء المطبعة بوقت قليل^(٤) .

وقد استوردت حروف المطبعة أول الأمر من أوروبا . غير أنه لما تبين عدم صلاحيتها استبدلت بحروف مصنوعة فى مصر . ويأمر محمد على كتنخذه محمد لازا وأعلى بك فى ٨ صفر سنة ١٢٣٧ (١٨٢١ م) جميع خطاط هندى له معرفة وإلمام ببعض اللغات . لتعليم الفارسى والخط للشبان الموجودين بمعية عثمان أفندى سقه زاده بيولاك . ويرى محمد على أن يكلف ذلك الخطاط بصنع الحروف التى ستطبع بها الكتب ببولاق^(٥) . ويشاهد الباشا كتابا مطبوعا بتلك الحروف وهو « رسالة

(١) أمين سامى باشا ، تقويم اثتيل ، الجزء الثانى - ص ٤٤٠ ، مطبعة دار الكتب ١٩٢٨
(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٦٤ فى يوم الاثنين خامس وعشر جمادى الأولى سنة ١٢٦٣

(٣) Mrs. Charles Lushington ; op. cit., p. 168 et sq.

(٤) G. B. Brocchi, Giornale esteso in Egitto, nella Siria E nella Nubia, (٤) Vol. I, Bassano 1841, p. 137.

(٥) محفولات عابدين ، من دفتر نمرة ٩ وجه ١٧ عين ٨٨ ، مخزن : تركى ترجمة .

اللحم » فيجدها « لطيفة الخط والطبع » ويأمر كسنداء محمد لاز أوغلي بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) بترتيب الماهية المناسبة للأسطى الخفار وإيقائه بالبصمة خاتمة وإرفاق بعض تلامذة معه لتلقى هذه الحرفة منه و « تنهون عليه بذلك » (١) .

وكانت إدارة المطبعة شديدة الاهتمام بالحروف . فلما عين عبد الكريم أفندى ناظراً لبولاق كلفه محمد علي بطبع كتاب القاموس « موافقاً لطبع اسلامبول » وقد حضر إلى المطبعة لهذا الشأن « كسنداء أنا والليك ناظر المهمات الحرية عموماً وأبو القاسم أفندى الخطاط وعبد الوهاب أفندى المصحح » وقد عرضت على المذكورين صحيفة من ذلك الكتاب « فوجدوا فيها بعضاً من الحروف محتاجاً إلى التصليح وبعضاً يلزم له التفسير » فطلبوا إلى عبد الكريم أفندى أن يصنع عدداً من الحروف فأجابه إلى ما يريدون . غير أن أبا القاسم أفندى قال لناظر المهمات الحرية أن في استطاعته أن يقوم بصنع الحروف جميعاً بمساعدة رجلين من الحكاكين . فيقرر مجلس المشورة تكليف راغب أفندى ناظر الدفترخانة بإمضان المذكورين « ليتبين لديه من يصلح منهما لدار الطباعة ... لأن هذه المصلحة مصلحة عظيمة » (٢) . وهكذا نرى أن البت في أمور المطبعة لم يكن اعتباطاً . فان صادفت ناظر المطبعة أو مديرها مشكلة من المشاكل قدمها توأ إلى ديوان الخديو الذي يحيلها على مجلس المشورة فيكون هذا الأخير لجنة تبحث الأمر بحثاً دقيقاً وترفع نتیجته إليه ليقرر فيه ما يراه مناسباً . وقد ظلت حروف الطباعة مشكلة مطبعة بولاق زمناً طويلاً .

ويبقى مجلس مشورة الجهادية خلال سنة ١٢٤٧ هـ طلباً من « رجل أفرنجي اسمه دويده » يذكر فيه أن الحروف الموجودة في مطبعة بولاق ناقصة ، وأنه على استعداد لتعليم عمال المطبعة طريقة صنعها . وقد وافق المجلس على الطلب ورتب له « سبعمائة وخمسون قرشاً شهرية ومائة وأربعون قرشاً بدل تعيين في كل شهر وخمسمائة قرش ثمن كسوة في كل ستة أشهر » . وبدأ المذكور عمله في المطبعة

(١) محفوظات عليبدین ، من دفتر نمرة ١٨ وجه ١٧ عين ٨٨ - مخزن ٢ تركى - ترجمة .

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٥٨ ، في يوم الاثنين ٩ نوال النور سنة ١٢٤٧

في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ١٢٤٧^(١). ويعني مجلس الجهادية عناية خاصة برغبات العمال الذين يقومون بصنع الحروف ويسهر على راحتهم فيرسل « حضرة بيك أفندي ناظر الجهادية إلى حضرة الأفندي مأمور الديوان الخديوي لينبه على مهربايش بأن يفرش أوضة « أبي القاسم أفندي الكيلاني بالشيت إذ كان فرشها لازما » وكان أبو القاسم أفندي يقوم بتقديم الحروف التي يصنعها في كل أسبوع إلى مجلس الجهادية^(٢). وفي عهد عبد الكريم أفندي أجريت تعديلات على طريقة سبك الحروف. فقد كانت المسابك مركبة على قوائم من الخشب مما يجعلها تبلى بسرعة. وكان أن طلب عبد الكريم أفندي من محمد بيك أمير اللوا « أن يعمل لسبك الجداول والحروف أربعة مسابك من الطوب الأفرنجي، لأنها إن عملت منه قصير بالقلة قدر خمسة أشهر ». ووافق أمير اللوا على هذا الاقتراح بعد أن عرضه على مجلس الجهادية الذي قرر الكتابة إلى أمين أفندي ناظر الأبنية « بأن يعمل المسابك المذكورة حسبما ذكر سريعا^(٣) ». ولم ينته موضوع سبك الحروف عند هذا الحد. وها هو ذا قاسم أفندي يعود مرة أخرى إلى مجلس الجهادية ليعرض عليه « أن آياه الحروف وأمهاتها اللازمة للمطبعة قد بذل جهده في خدمتها » وهو يطالب بأن يعطى رتبة مكافأة له على الجهود الذي بذله في هذا المضمار. ويقرر المجلس « تطيب خاطره » عندما ينتهي فعلا من سبك حروف التعليق لأنه « صاحب فنون متنوعة ومتصف بالعلم والعمل^(٤) » وينتهي قاسم أفندي من المهمة التي أسندت إليه في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ ويطلب إلى المجلس « أن يعطى ملزمة ليحرب فيها الحروف التي عملت جديداً بمعرفته » فيأمر المجلس عبد الكريم أفندي ناظر المطبعة بأن يعطيه « الملزمة » (المطبعة) المذكورة، ليحرب تجاربه عليها^(٥).

(١) الوقائع المصرية، نمرة ٣٦٠، في يوم الأحد، ١٥ شهر شوال المنور سنة ١٢٤٧

(٢) الوقائع المصرية - نمرة ٣٧٠ في يوم الأربعاء ١٠ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

(٣) الوقائع المصرية، نمرة ٤٠٧، في يوم الأحد ٢٢ صفر الخير سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية، نمرة ٤١٠، في يوم الأحد، غرة شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٨

(٥) الوقائع المصرية، نمرة ٤٣٤، في يوم الأربعاء غرة جمادى الأولى سنة ١٢٤٨

وعلى الرغم من الفراغ من سيك تلك الحروف . فقد ظلت المطبعة معنية بأمرها . تعامل القائمين عليها معاملة خاصة . فقد حدث أن وصل إلى علم الباشا أن العامل الذي يقوم بصنع الحروف الفارسية قد ضرب ضرباً مبرحاً بناء على أمر قاسم أفندي الذي أصبح مديراً للمطبعة . وغضب الباشا كل الغضب لهذا الحادث وكتب إلى سائى بث يطلب إليه أن يستدعى العامل المذكور ويختبره جيداً إن كان في استطاعته صنع هذه الحروف كما ينبغي . وأن يجبره إن كان من المناسب إخراج قاسم أفندي من المطبعة^(١) .

ويبدو أن حروف التعليق التي قام بصنعها قاسم أفندي لم تلق قبولا لدى أولى الأمر أو أنها على الأقل لم تكن لتكفي أعمال المطبعة كلها . وأية ذلك أنه صدرت إفاضة إلى باغوص بك في ١١ رمضان سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م) تستفسر عما تم في حروف التعليق التي أرسل في طلبها من أوروبا ، وتطلب إليه الإسراع في إرسال تلك الحروف حال وصولها إلى مصر^(٢) . وكانت المطبعة قد بعثت إلى باغوص بك « بأوراق عينات خط التعليق »^(٣) . ومن ذلك يتضح أن خطوط تلك الحروف كانت تكتب في مصر لا في أوروبا . وكان في مطبعة بولاق مجموعات من الحروف الافرنجية والتركية والعربية والفارسية صبت في باريس^(٤) . فطبعة الباشا ظلت فترة طويلة من الزمن تلجأ جزئياً إلى مسابك الحروف الأوروبية .

وكان عدد طابعات بولاق سنة ١٨٣١ ثمانية استوردت جميعها من باريس^(٥) . وكانت مطبعة ديوان الوقائع المصرية بالقاهرة تستورد مطابعها ولوازمها من مطبعة بولاق . فإذا تعطلت آلة من الآلات أرسلت إلى بولاق وحل محلها آلة أخرى حتى لا يتعطل طبع الوقائع . وكان في دار الطباعة ببولاق قسم لإصلاح أدوات

(١) ترجمة الأمر المالي رقم ٣٦٢ دفتر رقم ٥٦ ص ١١٨ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ محفوظات عابدين .

(٢) أمين سامى باشا - تقويم الفئيل - الجزء الثاني : ص ٧٩

(٣) المصدر السابق

(٤) Michaud (J.) et Poujoulat (M.), Correspondance d'Orient (1830 - 1831), (٤) Bruxelles 1841, Tome VII, p. 80, Lettre C.I.II.

(٥) المصدر السابق .

الطباعة^(١) وصياتها . وإن كنا لم نجد في الوثائق أسماء المعنيين بهذا القسم إلا أننا نرجح أن يكونوا من خريجي مدرسة المهندسخانة .

لم يكن قسم التجليد في المطبعة كامل المعدات إلى ٤ رمضان سنة ١٢٥٢ هـ (١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٦) . فقد أرسل محمد علي إلى مختار بك ناظر ديوان المدارس يقول له إن مدير المطبعة أخبره أن حسن الاسكندراني المجلد الذي تعين في المطبعة بعد عودته من أوروبا لا يصلح لشيء . ولما قام الباشا بالتحقيق معه أجاب المشكو فيه أن المطبعة غالية من الأدوات اللازمة للتجليد^(٢) . ويتبين لنا مما تقدم أن حسن الاسكندراني كان قد تعلم في أوروبا أصول التجليد الحديث ، فلما عاد إلى مصر ، ألقى بمطبعة بولاق . وكان قسم التجليد فيها ما زال يسير على الطريقة القديمة التي لم يخصص فيها صاحبنا . وكانت مطبعة بولاق تقوم بعمل المظاريف الخاصة بالديوان وتصرف ورقها من ديوان المدارس^(٣) .

وبأخذ المستشرقون الأوروبيون على المطبعة عدم عنايتها بالإخراج . فالصفحة الأولى التي كان يجب أن تخصص لاسم الكتاب واسم مؤلفه فقط^(٤) ، قد حشيت بمقدمة طويلة ذكر فيها عنوان الكتاب واسم المؤلف بخط عاد مثله في ذلك مثل سائر الحروف التي جمعت بها كلمات الكتاب جميعا ، وهم في ذلك يقلدون الكتب المخطوطة .

ولم يكن في مطبعة بولاق حتى سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) سوى مصحح واحد اسمه عبد الوهاب أفندي^(٥) . ثم روى . نظرا لزيادة أعمال المطبعة ، تعيين أربعة آخرين

(١) الوقائع المصرية نمرة ٣٤١ في يوم الخميس ١٦ شهر شعبان المكرم سنة ١٢٤٧

(٢) G. Talamas ; Recueil de la correspondance de Mohamed Aly, Khédive d'Egypte, Le Caire, Impimerie Nationale 1913, Ordre No. 756, 4 Ramadan 1252, 13 Décembre 1836, p. 290.

(٣) محفوظات عابدين ، دفتر ٦٣ جزء عاشر صادر الفروع بديوان المدارس وثيقة رقم ١١٩٩ ص ٣٦٢٥ ، من دار الطباعة العامة الى ديوان المدارس .

(٤) Reinaud ; op. cit., p. 342.

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٤١ في يوم الخميس ١٦ شهر شعبان المكرم سنة ١٢٤٧

« لأجل أن يكونوا له معاونين في هذه الخدمة ». وكان المصحح يعين على سبيل الاختبار لمدة محدودة ، فإن أثبت صلاحيته للعمل الذي نيط به أعطى مرتبا شهريا قدره ثلاثمائة وخمسون قرشا^(١). و « لما كان تمييز الخطأ من الصواب في كتب الفنون المتنوعة التي تطبع بدار الطباعة من الأمور التي لا بد منها » . فإن مجلس الجهادية كان يعمل دائما على البحث عن مصحح « من ذوى العلم والفضل بحيث يكون مكتملاً للمعارف » . ويبدو لنا من الوثائق التي بين أيدينا أن العثور على مصحح كفء لم يكن من الأمور السهلة . وكان البحث يستغرق أحيانا الشهور الطويلة . فجلس المشورة بقرار في اليوم السادس عشر من شهر رجب سنة ١٢٤٧ تعيين أربعة مصححين ويكلف ناظر المهمات الحربية باختيارهم وتمضي الأيام فلانجد في المطبعة في أول ذي القعدة سنة ١٢٤٨ سوى مصححين إثنين^(٢) . ولا تعامل مطبعة بولاق مصححيها على قدم المساواة : فهناك الشيخ عبد الرحمن السفطى يعين له أربعائة وخمسون قرشا مرتبا شهريا « حيث أن الشيخ المذكور له اليد الطولى في العربية وأن وجوده بدار الطباعة موجب لخلو الكتب العربية العبارة التي تطبع فيها من السهو والغلط ... »^(٣) . ومن مصححي مطبعة بولاق في تلك الحقبة من تاريخها ، السيد شهاب الدين محمد بن إسماعيل المصحح الأول لمطبوعات مطبعة بولاق سنة ١٨٣٦ . وأكبر الظن أنه ساعد على صياغة أخبار الوقائع صياغة عربية صحيحة . وقد ظل في خدمة الوقائع والطبعة حتى سنة ١٨٤٩ ، حيث انقطع عن العمل الرسمي ومضى يؤلف شعرا وأهازيج ومواويل تغنى^(٤) . وكان يتقاضى على عمله في الجريدة والمطبعة سبعمائة وخمسين قرشا^(٥) .

(١) المصدر السابق .

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٠١ في يوم الاحد ١ من ذي القعدة الحرام سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية . نمرة ٥٤٠ ، في يوم الخميس المبارك ١٥ شهر ربيع الاول سنة ١٢٤٩

(٤) الأب لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر : الجزء الاول ، ص ٨٤

(٥) محفوظات عليدين وثيقة رقم ٢٧١ في ١٣ ذي القعدة سنة ١٢٧٧ ، محفظة رقم ٢٧ معية تركى من احمد رشيد ناظر المالية الى المعية .

أعمال المطبعة فكان عددهم حوالي الأربعين^(١) يعملون بنشاط تحت إدارة حازمة. وكان العامل لا يقبل في المطبعة إلا بعد أن يجتبر اختبارا عمليا. وكان العمال الفنيون يتقاضون أجورا أعلى من تلك التي يتقاضاها العمال العاديون. وقد حدث أن تقدم أحد العمال المصريين بطلب قال فيه أن في استطاعته الرسم والكتابة على أحجار الطباعة وأنه على استعداد أن يحمل محل الرسام الأفرنجى القائم بنفس هذا العمل على أن يتقاضى نصف أجره. وقد قرر مجلس المشورة استدعاء هذا العامل «إلى المطبعة» وامتحانه، فإن وجد أنه قادر على أن يحمل محل العامل الأفرنجى أعطى ثلث شهرته «لأن سبب كثرة شهرته هذا تركه بلده واستيطانه هنا وأما ذلك فهو في مصر ...»^(٢).

وإن ظهر لمجلس الجهادية — وكانت المطبعة تابعة له إلى سنة ١٨٣٧ حين أنشئ ديوان المدارس — أن العمال يقومون بعملهم كما ينبغي بادر بزيادة «شيء على شهرتهم جبرا لحاظهم» وإخبارهم أنهم «كلما زادوا مهارة في العمل ازدادوا تقدما»^(٣). وإن احتاجت المطبعة إلى رجال «قارئين كاتبين» بادرت باخطار أمير اللوا وناظر المهمات الحربية الذي يقوم بدوره بعرض الأمر على مجلس الجهادية، ويتصل هذا الأخير «بحضرة شيخ الجامع الأزهر» ليدبر للمطبعة العدد المطلوب من العمال، فإن لم يتوفر هذا العدد، أرسل في طلبه لمن مدرسة قصر العيني^(٤). ولما كان «العلمان الذين يأتون من طرف حضرة شيخ الجامع الأزهر لا يصلحون لأشغال المطبعة وقت مجيئهم» فقد تقرر تحويلهم إلى مكتب قصر العيني «ليكتسبوا المهارة في القراءة والكتابة». وهكذا أصبحت مطبعة بولاق، إن كانت في حاجة إلى عمال، لا تطلبهم من الأزهر بل من المكتب المذكور^(٥).

(١) Bulletin de la société de géographie de Paris, 1825, p. 42.

(٢) الوقائع المصرية، بولاق مصر نمرة ٥٨، يوم الاثنين في ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٤٥

(٣) الوقائع المصرية، نمرة ٣٢٨ في يوم الثلاثاء ٨ شهر رجب سنة ١٢٤٧

(٤) الوقائع المصرية، نمرة ٣٧٣، في يوم الأربعاء ١٧ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

(٥) الوقائع المصرية، نمرة ٣٧٨، في يوم الثلاثاء سلخ ذى القعدة الحرام سنة ١٢٤٧

وكان كل عامل من عمال المطبعة يأخذ كسوته من ديوان الجهادية « إذ دخل وقتها وآن أوانها »^(١) . وهناك فئة من العمال لم تكن تتقاضى مرتبات شهرية ثابتة ، وهي فئة عمال التوضيب . وهؤلاء يتقاضون مائة نصف فضة على كل ألف صحيفة . وقد اشتكوا ذات يوم من قلة الأجر ورفعوا شكواهم لمجلس مشورة الجهادية الذي وافق على زيادة الأجر عشرين نصفاً فضة على شرط « أن يجتهدوا في خدمتهم ولا يتركوا شغل يوم لا بعده ... »^(٢) .

وفي سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) ازدادت أشغال السبك في المطبعة ، واحتاجت إلى « سبعة رجال لسبك الحروف وستة رجال لجمعها وسبعة رجال للزمنة الحجر ... بشرط أن تكون لهم معرفة بالقراءة والكتابة » . وقد أرسل في طلب هذا العدد من العمال من ناظر قصر العيني^(٣) . وهكذا نرى أن مكتب قصر العيني كان المركز الذي يغذى المطبعة بالعمال الذين يشترط فيهم معرفتهم القراءة والكتابة .

وكانت طائفة المجلدين لا تتقاضى أيضاً مرتباً ثابتاً شأنها في ذلك شأن طائفة الموضبين . وكان المجلد يتقاضى اثنين وخمسين قرشاً وعشرين نصفاً عن تجليده مائة وخمسين كتاباً . ويقتضى صرف هذا الأجر أن يتقدم المجلد بطلبه إلى مجلس مشورة الجهادية الذي يقدم بسؤال ناظر المطبعة وناظر الجهة التي أرسلت إليها الكتب المجلدة ثم يصدر أمره إلى ناظر المطبعة بصرف المبلغ إلى المجلد^(٤) .

وكان بعض الطباعين أيضاً يعمل بالمقاولة وكان يتقاضى أجره على الكتاب ، فإن زاد الكتاب عن الحجم العادي كما حدث عند طبع كتاب القاموس سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) رتب له « شهرية مثل شهرية المشايخ الذين أخذوا من القصر العيني ... إلى أن يتم طبع الكتاب المذكور » . وكان العامل من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٢٨٥ ، في يوم الخميس ٢٣ من ذي الحجة الحرام سنة ١٢٤٧

(٢) الوقائع المصرية : نمرة ٤٢٦ ، في يوم الخميس ١١ شهر ربيع الآخر سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٣٥ ، في يوم الأحد ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٢ ، في يوم الثلاثاء ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨

قدره مائة وعشرون قرشا^(١). وكان العامل الذي يرسل من مكتب قصر العيني إلى المطبعة ليتعلم صنعة جمع الحروف لا يتقاضى أجرا إلا إن شهد له ناظر المطبعة أنه « قد اكتسب المهارة في فنه ». فيحرر « أعلام من حضرة بيك أفندي ناظر الجهادية إلى عبد الكريم أفندي (ناظر المطبعة) بأن يقيد له شهرية كأمثاله بالدفتر ... »^(٢). وإن أذنب أحد العمال بادر ديوان الخديو بارسال تقرير عن المذنب إلى مجلس مشورة الجهادية ليحقق فيه ، فإن ثبت جرمه « حرر » أعلام من حضرة بيك أفندي الناظر إلى حضرة أميرالوا أدم بيك ناظر المهمات الحربية عموما إشعار له أن يؤدبه ... »^(٣).

وكان على الشخص الذي يريد الالتحاق بالمطبعة أن يقدم « عرضا للمشورة العسكرية يذكر فيه أنه مكث في تحصيل العلم بـ مدرسة قصر العيني مدة من الزمن ثم خرج منها متقاعدا ». وكان على المشورة العسكرية أن تسأل عن مقدم الطلب ، ناظر دار الطباعة . فأن أجاب الأخير بأن المتقدم يعرف القراءة والكتابة وأنه يصلح للمطبعة بادر مجلس المشورة العسكرية بحرير إشعار إلى ناظر المهمات الحربية عموما « بأن يعرف ناظر دار الطباعة باستخدامه وتقييده في الدفاتر كأمثاله »^(٤).

ويقول إسماعيل سرهنك في كتابه « حقائق الأخبار عن دول البحار » أن عدد عمال مطبعة بولاق قد بلغ الأربعمئة عامل^(٥). ولسنا في حاجة إلى القول إن هذا العدد مبالغ فيه . فإن عدد عمال المطبعة في نهاية عهد محمد علي لم يكن يتجاوز

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٩٨ ، في يوم الخميس ٢٩ من المحرم الحرام سنة ١٢٤٨

(٢) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٠٥ ، في يوم الثلاث ، ١٨ صفر الخير سنة ١٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٤٤٧ ، في يوم الأحد ٤ جمادى الأخرى سنة ١٢٤٨

(٤) الوقائع المصرية ، نمرة ٥٣٧ ، في يوم الأحد ٣ شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٩

(٥) الوقائع المصرية نمرة ٥٤١ في يوم الاثنين المبارك ١٩ شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٩

(٥) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثاني ص ٢٣٠ بولاق ١٣١٤ هـ .

المائة والتسعة والعشرين بما في ذلك « السعاة والسقاين والخدم^(١) ». وقد يكون هذا العدد قد وصل إلى المائتين في أوج حكم محمد علي ، إلا أننا لا نعتقد بأنه قد تعداه بأي حال من الأحوال .

وقد طبعت صحيفة الوقائع المصرية في عهدها الأول في مطبعة بولاق إلى ٢٦ صفر سنة ١٢٤٩ . ثم رُئي أن تطبع في مطبعة ديوان الوقائع بالقلعة لتكون قرية من مقر الحكومة وظلت تطبع هنالك إلى أن قرر مر أخرى أن تعاد إلى مطبعة بولاق ، وكان ذلك ابتداء من العدد السادس الصادر في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٤ م) .

ويصف لنا المسيو بيرون Peron ناظر مدرسة الطب في رسالة طويلة موجهة إلى المسيو موهل Mohl سنة ١٨٤٣^(٢) ، النجاح الذي حققته مطبعة بولاق ، ويقارن بينها وبين مطبعة الآستانة ويخلص من ذلك إلى القول إن مطبعة بولاق قد فاقت مطبعة الآستانة من حيث عدد الكتب التي تطبع فيها . ويعطينا بعد ذلك فكرة من الاجراءات الواجب اتباعها إن أراد أحدهم طبع كتاب على نفقته . فهو يقدم أصول الكتاب إلى ديوان المدارس ليتفق معه على القطع وهو عادة اثنتين أو الربع ، وعلى عدد الأسطر في كل صفحة يجب أن يكون هذا العدد مفردا . أما الحروف فلم يكن يوجد منها إلا نوع واحد ، عدا الحرف الذي كان يستعمل في تبويب فصول الكتب ، وهو غالبا من النوع الفارسي . وعندما يتم الاتفاق مبدئيا ، تطبع صفحة من الكتاب كتجربة لتقدير عدد سطوره بالتقريب ثم يحدد نوع الورق ، ويتفق على سعره وتحسب كميته . وإذا ما تم هذا الاجراء ، تمكن الملتزم من معرفة تكاليف الكتاب الذي يريد طبعه ، ويعمل بعد ذلك على إنهاء عملية الطبع بأسرع ما يمكن . ولتفادي أى نزاع قد ينشأ بين الملتزم وإدارة المطبعة على المدة التي سيستغرقها الطبع ، تقوم المطبعة بتعيين موعد الاستلام بحيث يتناسب وحجم الكتاب . غير أنه كثيرا ما لا تفي المطبعة بوعدها فيستغرق طبع

(١) محفوظات القلعة ١٢٦٢٢ - ٢٥ عين ٢٧ ١٢٦٤

(٢) A. Peron ; Lettres sur les écoles et l'imprimerie du pacha d'Egypte, journal Asiatique, 4e série, Tome II, p.5 - 53, Paris 1843.

الكتاب مدة أطول من التي قد اتفق عليها ، ويحصل الملتزم جميع المصروفات التي تسببت عن هذا التأخير . وتوضيحا لما تقدم ، نفرض أن الطبع سيستغرق ثلاثة أشهر ، فإن الديوان يحسب في هذه الحالة مرتبات ناظر المطبعة ومصصح التجارب والمراجع ورئيس العمال والمجلد وجميع الذين سيشترون في طبع الكتاب خلال الشهور الثلاثة . ثم يضاف إلى ذلك تكاليف الورق والخبر الخ ... وتجمع تلك المصروفات ولنفرض أنها بلغ حاصلها ١٢٠٠ قرشا ، فإن الديوان يضيف إلى هذا الحاصل نصفه كرجح للحكومة . وهكذا يتقاضى الديوان ١٨٠٠ قرشا قابلة للزيادة إن استهلكت كمية أكبر من الورق أو تجاوز الطبع المدة المحددة له .

ومهما بدت تكاليف الطبع باهظة فإن أرباح الملتزم تصل أحيانا إلى خمسين في المائة . ويوزع الملتزم نسخ كتابه في الآستانة وأزمير وبلاد المغرب . أما الديوان فإن جل عنايته موجهة إلى طبع الكتب المدرسية والكتب الخاصة بتدريب الجيش وتعليمه . ويشتم من كلام المشو يرون أن حركة الطباعة بعد معاهدة لندن أخذت تقل ، ويصل ذلك بقلة عدد تلاميذ المدارس . وهكذا نرى أن أعمال المطبعة في تلك الحقبة من حياتها اقتصرت على طبع بعض الكتب المدرسية والدفاتر والسجلات الخاصة بمختلف دواوين الحكومة وإداراتها .

أما مطابع بولاق الخيرية فإنها تقوم بطبع المصورات والرسوم الخاصة بكتب الرياضيات والطبيعة والكيمياء والكتب العسكرية . إذ أن مصر لم تكن قد عرفت بعد الحفر على الزنك أو فن الزنكغراف . ولا تهتم مطبعة بولاق بطبع الكتب العربية القديمة والتركية والفارسية إلا فيما ندر . وسبب ذلك وجود ثلاث مطابع في الآستانة تقوم بهذا العمل خير قيام ؛ يضاف إلى ذلك أن تكاليف الطبع هناك أقل منها في بولاق لأن مطابع الآستانة تقوم بطبع عدد كبير جداً من النسخ . ويرد المشو يرون قائلاً إن مصر كانت في أول الأمر ترسل كتبها المطبوعة إلى تركيا لتباع هناك أما اليوم — أي في سنة ١٨٤٣ — فقد انصسكت الآلة وأصبحت الآستانة هي التي ترسل كتبها إلى مصر .

وقد بدأت مطبعة بولاق في الطبع على حساب الأفراد منذ سنة ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م) وقد أعلنت صحيفة الوقائع المصرية عن ذلك في عددها الصادر في السادس

من شوال سنة ١٢٥٢ . وفي هذا العدد أيضا أعلنت المطبعة عن مباشرة طبع ديوان سامي ومثنى الحمدي وديوان نشأت وكتابات أبي البقا وديوان نديم وترجمة المتنبي وسفينة راغب والدر المختار مع حاشية الطحطاوي وحديقة السعدا وحياتي وحاشية دده جونكي على العزى وديوان برتو وخاننامه ويسى وشرح النصوص وطوطي ثامه ، « حيث صدر الأمر العالي بطبعها وشرع فيه » .

وكان على الملتزم إن أراد طبع أى كتاب أن يحضر إلى المطبعة من يكفله عندها^(١) . فقد يتم طبع الكتاب ولا يستطيع الملتزم دفع تكاليفه للمطبعة . وكان كلما تم اتفاق بين أحد الملتزمين والمطبعة ، بادرت صحيفة الوقائع بنشره^(٢) مينة اسم الملتزم ووظيفته وعدد نسخ الكتاب واسمه وموافقة ديوان المدارس على الطبع . وكان الوالى شديد الاهتمام بالمطبعة ، حريصا كل الحرص على أن يدفع الناس ما عليهم من ديون لها . فقد بلغه ذات يوم أن مدير النصف الثانى لمصر الوسطى امتنع عن دفع دين عليه للمطبعة ، فكتب إليه يبلغه عدم رضاه عليه ويذكره بأمر سبق أن أصدره ، ينص على أن كل شخص يتأخر عن دفع دين للميرى يرسل إلى اللومان ، ثم يحيطه علما بإرسال مندوب إليه ليحصل منه هذا الدين ويهدده فى حالة عدم الدفع بمعاملته وفقاً للأمر المذكور . ويلفت نظره فى آخر الخطاب أن عليه أن يختار بين الدفع أو الذهاب إلى اللومان^(٣) .

وكان مجد على يتضابق كل المضايقة من الأخطاء المطبعية . خاصة إن كانت هذه الأخطاء فى الوقائع المصرية « فلذا أمر سعادته حضرة الحاج إبراهيم أفندى كاتب ديوانه السامى سابقا وتاظر مجلس الشورى حالا بأن ينزل إلى المطبعة » ويحضر جميع المشتغلين فيها ويمتحنهم ويحقق معهم ليعرف الخطأ . وكان المصحح ينسب خطأه إلى الطابع والطابع ينسب خطأه إلى المصحح . وتم الاتفاق آخر الأمر على أن يقوم المصحح بمراجعة المسودات وإرسالها إلى المطبعة بعد أن يمهرها

(١) الوقائع المصرية ، نمرة ٦١٩ فى يوم الأحد المبارك ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٥٦

(٢) المصدر السابق .

(٣) G. Talamas ; op. cit., Ordre No. 824, 26 Zilkadeh 1253, 21 Février 1838. (٣)

بامضائه . فان وقع أى خطأ بعد ذلك يجب مطابقة عدد الوقائع المطبوع على المسودة المصححة ، فان ظهر أن الخطأ من المصحح أعيد طبع العدد على نفقته . أما إن تبين أن الخطأ من المطبعة فعلى مدير المطبعة أن يقوم بإعادة الطبع على نفقته هو^(١) . وقد تكرر الخطأ المطبعي عند نشر قائمة الضباط في الوقائع المصرية ، فأصدر الوالى أمره إلى مختار بك ليستدعى ناظر الوقائع ويحقق معه في سبب تغيير بعض الأرقام الواردة في أصل القائمة المذكورة دون استئذان وينبه عليه بالاعتناء في عمله ، ويقول له في آخر الخطاب « إذا تبادر إلى الخاطر بأن مثل هذه الأخطاء توجد في كل الجرائد فهناك ملحوظة هامة ، وهى أن الوقائع المصرية جريدة حكومية وأن مركزها خطير ، لذلك يجب الاهتمام في صحة مندرجاتها وعدم نشر أى شئ فيها قبل اللوثوق من صحته وقبل السؤال عنه وفهمه جيدا^(٢) » .

وفي سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١م) تم طبع أول كتاب موسيقي على الحجر . وقد عين لهذا الغرض أحد المختصين في الموسيقى وأرسلت إليه من بولاق ملزمة حجرليباشر عمله ، إذ تبين لمجلس الجهادية أن طبع مقامات الموسيقى «موجب لسهولة التعليم»^(٣) .

وبلغت مصروفات المطبعة سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) ٣٥٠ كيا ، وهو مبلغ لا بأس به إن قيس بمجموع مصروفات الدولة البالغ ٣٩٩٨١٤ كيا^(٤) . ويمكن أن يقال إنه منذ صدور الوقائع المصرية في سنة ١٨٢٨ ، أخذت مطبعة بولاق تتقدم بخطى واسعة فزيدت أدواتها ومعداتنا وتضاعف عدد عاملها وكثر إنتاجها . وعم النشاط جميع أرجائها . وكانت أثمان كتبها تتراوح بين ٣١٠ قروش ، مثل كتاب مثنوى شرحى الذى يقع في ثلاثة مجلدات وهو مترجم من الفارسية إلى التركية وبين قرش واحد . مثل كتاب علم حال التركي^(٥) . .

- (١) وقائع مصرية ، نمرة ٢٤ ، يوم الخميس في ٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٤
(٢) محفوظات عابدين ، وثيقة رقم ٢٢١ في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ
(٣) الوقائع المصرية ، نمرة ٣٤٩ ، في يوم الأربعاء : ٦ شهر رمضان المعظم سنة ١٢٤٧
(٤) F. Mengin ; Histoire Sommaire de l'Egypte, p. 155, Paris 1838
(٥) من تقرير بورنج Report on Egypt & Candia ، ١٨٢٩ ، تمريب د . محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل في « بناء دولة مصر محمد على » ص ٦٨٠ الى ٦٨٢

واهتم الوالي ، حين أرسل البعثة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦^(١) . أن يتخصص بعض أعضائها في فنون الطباعة المختلفة . مثل حسن الورداني الذي بعث إلى فرنسا ليتعلم في الطبع بأنواعه والخفر . وكان راتبه الشهري مائة قرش . وقد عاد من فرنسا سنة ١٨٣٥ وأصبح فيما بعد معلم فن النقش بالمدارس المصرية^(٢) . وأرسل محمد أسعد إلى فرنسا أيضا ليتعلم الطبع والخفر^(٣) . واتجه قائم الجندى إلى مرسيليا ، ويقول الأمير عمر طوسون عنه : ولعله كان يتعلم الطباعة والخفر^(٤) » ويقول جومار عن هؤلاء المبعوثين أنهم درسوا الرسم وتخصصوا بعد ذلك في حفر الحرائط وهندسة العمارة والطبع على الحجر ، ليعهد إليهم رسم لوحات المؤلفات العلمية التي تنقل إلى اللغة العربية . وقد تعلموا أيضا فن الطباعة بالحروف المتفرقة^(٥) . وقد زار مطبعة بولاق عدد كبير من الأجانب . وكان لكل منهم رأى خاص فيها . وكان بروكي الإيطالي أول أجنبي يزور مطبعة بولاق . وقد أعجب بها كل الإعجاب واسترعى انتباهه النظام والنظافة « وما صفتان نادرتان عند الشرقيين » . ويبدى صاحبنا إعجابه برحابة المقر أيضا وهو عبارة عن قاعة غاية في الاتساع بنيت على مستوى سطح الأرض^(٦) .

قام بروكي بتلك الزيارة في ١١ ديسمبر سنة ١٨٢٢ ، أى في السنة التي بدأت فيها مطبعة بولاق نشاطها الفعلي . وغنى عن البيان أن تحمس هذا الرجل للمطبعة واضح وقد يعلن بأن مدير المطبعة وقتذاك كان قد درس فنه في إيطاليا وأن الآلات المختلفة والورق كانت تستورد من إيطاليا : فلا غرابة إذن أن يرى بروكي كل شيء على ما يرام .

(١) Jomard ; Journal Asiatique, p. 107, 2ième série, tome 2, 1828.

(٢) الأمير عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي نم في عهدى عباس الأول وسعيد ، الاسكندرية ١٩٣٤ ، ص ٤٢

(٣) الأمير عمر طوسون ، المصدر السابق : ص ٤٢

(٤) الأمير عمر طوسون ، المصدر السابق ، ص ٤٦

(٥) Jomard ; op. cit., 1. 107.

(٦) G. B. Brocchi ; Giornale esteso in Egitto, Nella Siria E. nella Nubia, (٦) Vol. I, Bassano, 1841, 174.

وها هو ذا « رينو » Reinaud يصف لنا المطبعة إبان تولى نقولا مسابكي نظارتها فيقول : « كانت المؤلفات التي تخرجها المطبعة بعيدة كل البعد عن الجمال والذوق السليم ، شأنها في ذلك شأن سائر الكتب التي تطبع في مطابع حديثة التأسيس . وليس لكتاب من تلك الكتب غلافة مرسومة كما هو المتبع عادة . وظهرت كتب كثيرة خلوا من عناوينها وأسماء مؤلفيها » ويردف رينو قائلا « إن مطبعة بولاق ستتقدم بعد عودة البعثة المصرية من باريس وأن تقدمها لن يقتصر على فن الطباعة والإخراج فحسب ، بل سوف يتعداه إلى ما هو أهم » ، ويقصد الكاتب بذلك المؤلفات الفرنسية التي سيقوم بنقلها إلى العربية أعضاء تلك البعثات . ويضيف أن أحد هؤلاء المبعوثين وهو الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى قد وصل إلى القاهرة ، بعد أن تعلم فن الترجمة في باريس . وها هو ذا يستعد لمباشرة أعمال الوظيفة التي ستسند إليه^(١) .

ومن الذين قاموا بزيارة المطبعة المسز تشارلز لاشنجنون وكان ذلك في اليوم العاشر من شهر فبراير ١٨٢٨ ، أى قبل البدء في إصدار الوقائع المصرية وقبل عودة البعثة المصرية من فرنسا . وتقول تلك السيدة في معرض حديثها عن المطبعة : « ولفت نظرنا بعد ذلك مطبعة الباشا الحجرية وآلات الطبع . ويبدو أنها تحت إدارة حسنة ، إذ يرأسها درزى (كذا) مولود في جبل لبنان (كذا) . وهو شاب مذهب ، نشط وذكي ، كان الباشا قد أرسله إلى أوروبا مع عدد من الشبان . لقد شاهدت جميع أقسام المطبعة ابتداءً من مرحلة صف الحروف إلى أن يتم صنع الكتاب . والمؤلفات التي كانت تحت الطبع في تلك الأثناء هي : تاريخ تركي من تأليف أحد ضباط المصدر الأعظم ورسائل بين الباشا والباب العالي وترجمة تركية لبعض المؤلفات الفرنسية الخاصة بالقانون والبحرية ، وقد طبعت صفحاتها المصورة بالحجر ، وديوان الشعر الفارسي المسمى جلستان ، وبعض كتب قواعد اللغة . لقد صنعت آلات الطباعة (كذا) تحت إشراف هذا الدرزي . أما الورق فهو من صنع أوروبا .

(١) Reinaud ; Notice des ouvrages arabes, Persans & Turcs imprimés en Egypte, Journal Asiatique, 2e série, Tome VIII, p.333 - 334

« ودخلنا بعد ذلك الجناح الذى يقيم فيه المدير ، وهو يتحدث بالإبطلية ،
وقدم لنا ، كما هى العادة ، القهوة فى أقداح صغيرة من الصبى .. » (١).

وليس السيدة لاشنجتون بالشخص الذى يحسن الاعتماد عليه إن أريد الحكم
على فن مطبعة بولاق ومستواها . وهى على أى حال لا تذكر شيئا من هذه الناحية ،
لا بل تذكر معلومات خاطئة لا ندرى من أين أتت بها . فنقولا مساكى ، مدير
المطبعة ، لم يكن درزيا ولم يولد فى جبل لبنان وآلات الطباعة لم تصنع فى مصر بل
جلبت من إيطاليا أول الأمر وركبت فى مصر . وهكذا لا يستطيع المؤرخ أن
يرجع إلى ما ذكرته تلك السيدة عن مطبعة بولاق إلا إن توخى الحرص الشديد .

ويزور مطبعة الباشا فى سنة ١٨٣٠ السائحان الفرنسيان كادلين وبروفيرى
ويبدو أنها لم تلفت نظرهما فهما يذكران عنها أنها تطبع كتباً باللغات العربية والتركية
والفارسية ، طبعاً جيداً إلى حد ما ، كما تصدر الوقائع المصرية وهى فى رأيها
جريدة حكومية ليس لها أدنى أهمية (٢) .

وبهم ميشو وبوجولا خلال سياحتهما العلمية فى الشرق الأدنى ، بمطبعة
بولاق ، ويصف بوجولا لزميله ميشو فى رسالة بعثها له خلال شهر أبريل سنة ١٨٣١
زيارته لتلك المطبعة فيقول : « لقد زرت مطبعة الباشا الكائنة ببولاق كما زرت
المطبعة السلطانية فى الآستانة ، فوجدت فيها ثمانى مطابع استوردت من باريس
وحروفاً أوربية وتركية وعربية وفارسية صبت فى باريس ، أما الورق فيرسل من
ليفورن وتريستا . ويدير هذه المؤسسة عربى درس فى ميلانو . إن الكتب المطبوعة
فى مطابع بولاق يمكن أن يقال عنها إنها صحيحة إلى حد كبير ، وهى ترسل بانتظام
إلى فرنسا حيث توضع فى مكتبة الملك . ويتساءل الكاتب بعد ذلك « هل حققت
تلك المطبوعات الهدف الذى ترى إليه ؟ إن أعقل الناس يشك فى ذلك ، لقد كان فى
استطاعة مطبعة الباشا أن تؤدى أعظم الخدمات لو أنها نشرت مؤلفات أولية عن
جغرافية مصر وتاريخها وكتباً صالحة لتعليم الشعب وتربيته وتحف آداب اللغة

Mrs. Charles Lushington ; Narrative of a Journey from Calcutta to (١)
Europe By way of Egypt in years 1827 & 1828, second Edition London : John Murray
1829, p. 168 et seq.

Ed. de Cadalvène et J. de Breuvery ; L'Egypte et la Nubie, Tome I, (٢)
Paris 1841 p. 87.

العربية المشهورة . إن كتب الحركات العسكرية والطب لها فائدتها ، ولكنها لا تصلح إلا لعدد قليل جدا من القراء ، أما بقية الكتب - فيما خلا القليل النادر منها - فإن سوقها كاسدة وحركة بيعها معطلة ، وهي لا تخرج من المطابع التي تعمل على مضاعفة عددها ، إلا لتكسب في المخازن ، حيث تبدو وكأنه قد حكم عليها بالنسيان الأبدى ؛ فلا أحد يشتريها ولا أحد يقرأها لأنها لا تفي بحاجات العصر الحاضر ولا تتفق وعقلية الجمهور الواجب تعليمه وتنويره ، ومن السهولة بمكان أن نتقنأ بمصير تلك المطبعة التي تكلف إنشاءها الشيء الكثير ، وهي في ذلك كمواسم من الصناعات العديدة التي جلبت من أوروبا وأهمل توطيد العلاقة بينها وبين البلاد إهمالا شنيعا . وقد أبدت هذه الملاحظات للدليل الذي كان يصحبنى ، وقد وجدتها في محلها ، غير أنه أجابني إن أكبر صعوبة ليست في إنشاء مطبعة بمصر ، بل في جعل الشعب المصرى وحتى الطبقة العليا منه تقرأ مختلف المؤلفات التي سوف تخرج من تلك المطبعة . إن مجرد التفكير في هذه المسألة يجعلنا نأسى من نجاح تلك المؤسسة التي يمكن أن نشبهها بآلة تدور بقوة اندفاع الماء وتصب ماؤها في الرمال والصخور الوعرة . إن هذه الفكرة لجد محزنة ، وليس في مقدورى أن أقف بها أكثر من هذا القدر . » (١)

ولا شك أن بوجودها يتكلم هنا بعقلية الاستعماري الذي يستكثر كل شيء على الشعوب المغلوبة على أمرها .

وقد اهتم مطبعة بولاق أيضا قناصل الدول الأوروبية ، فكتب القنصل الانجليزي جون باورنج عن تلك المطبعة في تقريره عن مصر وكريد سنة ١٨٣٣ (٢) .

ويذكر اللورد لندسى في كتابه وصف زيارة صديقه المستر رمزي للسندسخانة ، قصر اسماعيل باشا سابقا الكائن ببولاق وللمطبعة ، في هامش الخطاب الذي أرسله إلى والدته في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، فيورد ما جاء في يوميات المستر رمزي : « ... وشاهدنا أيضا المطبعة وسررنا منها كل السرور . وهم يطبعون فيها جريدة

Michaud et Poujoulat ; Correspondance d'Orient, Tome VII, Lettre CLII (١)
 "L'Imprimerie de Boulac et les livres que l'on y imprime". Du Caire, Avril 1831,
 p. 80 - 87.

John Bowring ; Report on Egypt and Candia, p. 45 et seq., p. 135, 142, 144 (٢)
 et seq. London 1840.

أسبوعية وشاهدنا عدة كتب . وكان قد تم طبع ألف ليلة وليلة . وطبع بعض الكتب جميل ... »^(١) . ويستأنف اللورد لندسي وصفه للمطبعة فيقول « ... وقد زرنا في اليوم نفسه مطبعة الباشا الكائنة أيضا ببولاق ويبدو أن الحال غاية في النشاط ويعرفون عملهم جيدا وقد شاهدنا عدة مؤلفات تحت الطبع . ولاحظنا أن الطباعة والورق . . . من نوع أجود من الذي تطبع بها الكتب الألمانية والإيطالية العادية . وتوجد حروف إنجليزية ومطابع حجرية أيضا لسوف أبعث إلى منزلنا نموذجا أو نموذجين من المطبوعات المصرية ككتاب ألف ليلة وليلة مثلا . وقد نشب في الوقت الحاضر نزاع — أشبه ما يكون بالنزاع الذي يقوم بين المعدة والأمعاء — وهو قائم بين المطبعة والكتبخانة . ولا يمكن شراء أى كتاب إلا بعد عودة المياه إلى مجاريها ، ولن تعود إلا بعد اقضاء شهر رمضان . وقد يكون أفيد كتاب نشره الباشا ، الأطلس العربى وهو منسوخ عن الأطلس الذى قام بعمله المرسلون في مالطا . إن طبع القرآن ممنوع ... »^(٢) .

لقد كان اللورد لندسي في حكمه على مطبعة بولاق أكثر رافة من زميله بوجولا الذى زارها قبل ذلك بخمس سنوات وانتقد فن الطبع وحمل على نوع الكتب التى كانت تطبع في تلك الحقبة . ويبدو لنا أن حال المطبعة سنة ١٨٣٦ كان غيرها في سنة ١٨٣١ ، فقد عاد في تلك الأثناء أعضاء البعثة التى أرسلها محمد على سنة ١٨٢٦ وكان من بين هؤلاء اثنان على الأقل قد تخصصوا في فن الطباعة . لا بد إذن من أن تكون مطبعة بولاق قد استفادت من خبرتهما مما حمل اللورد لندسي على إطراء مطبوعاتها ونشاط عمالها .

ويتم إدوارد ولين لين بمطبوعات بولاق أكثر من اهتمامه بالمطبعة نفسها ، وقد زارها في سنة ١٨٣٦ . ويقول إن محمد على أنشأها لطبع الكتب العسكرية المختلفة والعلوم المدنية^(٣) . ويذكر هذا المستشرق الإنجليزى عن تلك المطبعة أنها تقوم سنويا

Lord Lindsay : Letters on Egypt, Edom & the Holy Land, Vol I, London, (١)
Henry Colburn, 1838, Letter III, p. 59 المالحش

Lord Lindsay ; op. cit., p. 60 - 61. (٢)

Ed. Wil. Lane ; An account of the manners and customs of the modern (٣)
egyptians, London 1944, Everyman's Library, p. 563

بطبع تقويم الجيب بين الأشهر القمرية والقبطية والسورية والأوروبية ومواعيد الصلاة وبين أعياد المسلمين والأقباط . وإلى جانب هذا التقويم ، تقوم المطبعة بطبع تقويم آخر ظهرت فيه التغيرات الطبيعية والزراعية على مدار السنة . ويعني هذا التقويم بصحيد كسوف الشمس وخسوف القمر ولا يتخلو من بعض الخرافات التي يؤمن بها المصريون . أما واضعه فهو يحيى أفندى وكان قسيسا مسيحيا سوريا اعتنق الإسلام^(١) .

وسواء رضى هؤلاء الأجانب عن مطبوعات بولاق أم لم يرضوا فالحقيقة التي لا تقبل المناقشة أن كتب بولاق طبعت في تلك الحقبة طبعا واضحا لا غبار عليه . وقد اطلعنا على أكثر من كتاب من تلك الكتب وقارنا بينها وبين تلك التي طبعت في لبنان حوالى ذلك التاريخ فخلصنا إلى أنها تفوقها كثيرا من حيث جمال الحرف ودقة الطبع وإتقانه . وإن كل ما نستطيع أن نأخذ على بولاق أنها لم تخرج كتابا واحدا طبع طبعا فاخرا لترضى به ذوق المسيو بوجولا أو المسيو رينو .

وعلى الرغم من إنشاء مطبعة بولاق ، فقد ظلت حركة بيع الكتب فائرة ولم يقل عدد الذين يسخون الكتب . ولندع ادوارد وليام لين يصف لنا الحالة في تلك الحقبة من تاريخ مصر : « يوجد بالقاهرة عدة مكتبات كبيرة . ألحق معظمها بالمساجد ، وأغلب كتبها يعنى باللاهوت والفقه وأصول اللغة . ولكن تلك المكتبات مهملة إهمالا فاضحا مما أدى إلى سرعة تلف محتوياتها ، وسبب ذلك عدم اهتمام أمنائها بها وعدم إخلاصهم للعمل الذى يقومون به . ومن جهة أخرى ، فإن الذين يستعملون تلك الكتب لا يحرصون على صيانتها . ويملك عدد من التجار الأغنياء وغيرهم مكتبات خاصة عامرة بالكتب . أما بائعو الكتب فلا يزيد عددهم عن الثمانية وحوالياتهم فقيرة بالكتب . وعندما يقتنى أحد هؤلاء كتابا قويا ، يذهب ليعرضه على زبائنه المعتادين ، وهو على ثقة فى أن يجد بينهم من يشتريه وقلما تحاط أوراق الكتب بعضها مع بعض ، بل إنها توضع عادة فى غلاف مقوى بالجلد . وغالبا ما يكون لذلك الغلاف صندوق خارجى مصنوع من الورق المقوى السميك

والجلد ، يطلقون عليه اسم « ظرف » . وتضم كل خمس ورقات أو كل فرخين بعضها إلى بعض فيتألف منها ما يسمى « بالكراس » . وقد رتبت الأوراق بهذه الطريقة ، أى فى أجزاء صغيرة بدون خياطة لكنى يتاح لعدد من الأشخاص استعمال الكتاب فى وقت واحد . إذ يتناول كل قارئ كراسا من تلك الكرايس وترتب الكتب بالعرض ويوضع الواحد فوق الآخر . ويكتب العنوان على وجه الغلاف الخارجى أو على هامش الورقات . أما ورق تلك الكتب فسميك ومصقول ويستورد معظمه من الهندية ويصقل فى مصر . والمداد الذى تنسخ به تلك الكتب غاية فى الغلظة والدسامة . ويستخدم فى الكتابة البوص عوضا عن الريش لأنه يتفق والحروف العربية . وعندما يريد الناسخ العربى الكتابة ، يضع الورقة على ركبته أو على راحة يده اليسرى أو على ما يسمى « مسندة » وهى عبارة عن اثنتى عشرة ورقة أو أكثر مضمومة بعضها إلى بعض من أركانها الأربعة وتحاكى فى شكلها الكتاب القليل الورق . أما المداد والريش فتوضع فيما يسمى « دواية » . . . وتوضع معها المبراة وأداة من العاج تسمى « مقطع » توضع عليها الريشة إن أريد برها . ويثبت الكاتب ورقته بأن يضع تحتها قطعة من الورق المقوى السميك يربطها بالخط . . . ويوجد بالقاهرة عدد كبير من الذين يكسبون عيشهم من نسخ المخطوطات ويتقاضى الناسخ ثلاثة قروش عن نسخ عشرين صفحة من القطع الكبير بحيث لا يقل عدد أسطر الصفحة عن الخمسة والعشرين . ويزيد الأجر إن كان الخط متمقا وبضاعف إن كتب بالشكل^(١) . وهكذا نرى أن حركة النسخ ظلت نشطة على الرغم من وجود مطبعة بولاق ومروست عشرة سنة على إنهاؤها وعلى الرغم من وجود مطابع رسمية أخرى . وأكبر الظن أن الكتب المنسوخة كانت من النوع الذى لا تهتم به إلا فئة معينة من الناس محدودة العدد . وكان من الطبيعى ألا تفكر الحكومة أو يقرر أحد الملتزمين طبع مثل هذه الكتب خشية أن يلحقها الفساد .

Ed. Wil. Lane ; op. cit., p. 214 et 215. (١)

١) المصحف الشريف :

زار السائحان ميشو وبوجولا الآستانة في سنة ١٨٣٠ ، وقد لاحظا أن الحكومة التركية لا تصرح بطبع القرآن وكل مؤلف له علاقة بالمعتقدات الدينية^(١) وطبيعي أن تسير الولايات الخاضعة للحكم التركي على هذا النهج فتمنع طبع القرآن الكريم . وكان علماء الأزهر في مصر بالذات قد أفتوا بعدم جواز طبع القرآن بدعوى أن حبر الطباعة غير مطهر وأنه قد يقع خطأ مطبعي أثناء عملية الطبع . إلا أن الوقائع المصرية في عددها رقم ٣٣٨ الصادر في ٤ شعبان سنة ١٢٤٧ (٨ يناير سنة ١٨٣٢) نشرت خبراً هذا نصه : « محمود أغا ناظر القلمخانة قدم عرضاً لمجلس الجهادية مضمونه أنه سئل عن كية ما يلزم لتلاميذ القلم المذكور من أجزاء القرآن الكريم ومن سائر اللوازم فأجاب بأنه يلزم لهم أربع ختات وستون لوحاً ، فقال أهل المجلس ينبغي أن يحرر علم من طرف حضرة بك أفندي ناظر الجهادية إلى عمر أفندي ناظر المهمات بأن يصرف الأشياء المذكورة للتلاميذ حيث كانت لازمة لهم » .

إلا أننا نستطيع أن نتخذ هذا القرار دليلاً على طبع بعض أجزاء القرآن ، فقد تكون تلك الختات والألواح قد نسخت باليد ، إذ أن الوقائع المصرية ، وقد عودتنا نشر كل شيء بالتفصيل ، لم تعين مثلاً المطبعة التي طبعت فيها هذه الأجزاء .

وبما يؤيد رأينا الخبر الذي نشرته نفس الوقائع في عددها رقم ٣٤١ الصادر في ١٦ شعبان سنة ١٢٤٧ وهذا نصه : « الحاج أيوب أفندي ، ناظر مكتب قصر العيني قدم تقريراً لمجلس الجهادية مضمونه أن تلامذة المكتب يحتاجون إلى مائة جزء من كل من الثالث والرابع والخامس من أجزاء المخطمة الشريفة ، فقال أهل المجلس ، ينبغي أن يحرر علم من طرف حضرة بك أفندي ناظر الجهادية إلى عمر أفندي الأمور بصرف المهمات بأن يشتريها بمعرفة الحاج أحمد أغا ناظر المشتريات ويرسلها إلى المكتب المذكور ويحرر علم آخر إلى الناظر الموصى إليه إشعاراً له بما ذكر واستقر الرأي عليه في اليوم الحادي عشر من شهر رجب الفرد » .

(١) Michaud et Pânjoulat ; op. cit. pp. 85 et 86.

فلو أن مطبعة بولاق كانت تقوم بطبع الأجزاء التي يشير إليها الخبر المنشور في الوقائع ، لما قرر المجلس تكليف عمر أفندي « بأن يشتريها » . وفي آخر ذى القعدة سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) صدر خطاب من المعية السنية إلى حبيب أفندي جاء فيه « بأن ولي التعم يذكر أنه كان سأل الشيخ العطار والشيخ العروسي المرجوم كيفية طبع المصحف الشريف في المطبعة فأجابا بعدم جواز طبعه بحجة وأن محجة المطبعة مصنوعة من جلد الكلاب ، وهذا يخالف واجب التعظيم ، وحيث أن جنايه العالي حقق أخيراً وعلم أن المحمجة الآن لا تصنع من جلد الكلاب وأنها مصنوعة من معجون مركب من لبان شجر الصنوبر ومن شمع العسل ، بناء عليه بادروا إلى جلب ناظر المطبعة واستفهموا منه هل المحمجة المستعملة مصنوعة من جلد الكلاب أم لا وأخطروا المعية بنتيجة التحقيق » (١) . ولو أننا لم نثر بين وثائق عابدين على رد ناظر المطبعة إلا أننا نؤكد عدم طبع القرآن الكريم في عهد محمد علي . فالورد لندسي الذي زار مصر سنة ١٨٣٦ يذكر في معرض حديثه عن الطباعة أن القرآن لم يصرح بعد بطبعه (٢) . ولا شك في أن سائحا مثل هذا اللورد كان يهمنه أن يذكر في كتابه شيئا عن طبع بعض أجزاء القرآن لو أنها طبعت فعلا . وهناك سياح غيره (٣) زاروا مصر ، ولم يزيدا حرفا عما قاله اللورد لندسي عن طبع القرآن .

وقد عثرنا بين محفوظات عابدين على وثيقة تثبت أن محمدا طاليا قرر فعلا طبع المصحف الشريف سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٣ م) . وقد جلب لهذا الغرض ورق فاخر سعر الرزمة « أربعة فرانسة ونصف » . إلا أن الوالي لا يلبث أن يعدل عن الطبع ويأمر ببيع الورق إلى الملتزمين الذين كانوا يقومون بطبع بعض الكتب على ذمتهم (٤) . ولو أن محمدا عليا قرر تأجيل الطبع فترة من الزمن لما أمر ببيع الورق ، بل تركه في المطبعة إلى أن يحين موعد الطبع .

(١) محفوظات عابدين ، دفتر رقم ٥٠ معية تركي ، ترجمة الوثيقة رقم ٥٣٧٠ بتاريخ آخر ذى القعدة سنة ١٢٤٨ ، من المعية السنية إلى حبيب أفندي .

Lord Lindsay ; op. cit., Vol. I, p. 60

(٢)

Paton ; A history of the egyptian revolution, Vol. II, p. 245, Michaud et Poujoulat, op. cit., Ed. Wil. Lane ; op. cit.

(٤) محفوظات عابدين ، دفتر رقم ٦ صادر القروع بدويان المدارس سنة ٢٦٠ ، سنة ٢٦١ ، صورة المكتبة رقم ١٨٣ ص ٧١٤ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ٢٦٠ . من ديوان المدارس إلى مطبعة بولاق .

وهكذا نرى أن الظروف لم تسمح للبasha بطبع المصحف الشريف إلى نهاية حكمه :

وقامت مطبعة بولاق إلى جانب طبعها الكتب المختلفة بطبع القوانين واللوائح والمنشورات . نذكر منها القانون التركي المطبوع سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م)^(١) وقانون الزراعة المطبوع سنة ١٢٥٤ هـ (١٩٣٩ م) ، وطبعت أيضا التقاويم المختلفة نذكر منها « جداول موقع عقرب الساعة على الشهور القبطية » المطبوعة سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) ، و « معربة سنة شمسية » أى مقابلة السنة الشمسية بالسنة القمرية . والتقويمان من عمل يحيى أفندى الحكيم . وكانت مطبعة بولاق تطبع دفاتر الدواوين وأوراق التفتة وهى تتراوح بين ١٥ بارة للعرضحالات إلى ١٥٠ قرشا للسند الذى تبلغ قيمته ١٠٠.٠٠٠ قرشا فما فوق .

ويمدر بنا أن نذكر ، أن مطبعة بولاق صاحبة فضل على الصحافة الرسمية فى مصر ، كما أن الصحافة نفسها كان لها أطيّب الأثر عليها . ذلك أن إصدار الوثائق حتم توسيع المطبعة وجعل ولاية الأمر يهتمون بحمل الأدوات والمعدات الجديدة^(٢) . وإلى مطبعة بولاق يرجع فضل تثقيف العامة والخاصة . فقد طوّنت على رفع مستوى التفكير فى مصر بقلها علوم الغرب وفنونه ، فهدت الطريق إلى تلك النهضة العظيمة التى أصابت وادى النيل والتى ساهمت فى جعله كعبة الشرق العربى من أدناه إلى أقصاه .

ومما يلاحظ على مطبعة بولاق أنها كانت تتجاوب وحركة التقدم العمرانى والصناعى والحربى التى عمت البلاد ، فإذا ما فترت تلك الحركة قل الاهتمام بالمطبعة وانخفض عدد عمالها وقل إنتاجها . وقد بلغت ميزانيتها فى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) ألفاً وثلاثمائة وستة وثمانين كيساً ومائة وتسعة عشر قرشاً^(٣) ، بعد أن كانت فى سنة ١٨٣٣ لا تتجاوز ٣٥٠ كيساً^(٤) . وهذا دليل كاف على مبلغ تقدم تلك

(١) دفتر مجموع ترتيبات ووظائف ، دار المحفوظات المصرية ، عين ١٧٨ ، مخزن تركى .

(٢) إبراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، الطبعة الأولى ، ص ٦٨

(٣) G. Talamas ; op. cit., p. 353

(٤) أى ١٧٥٠ جنيهها F. Mengin ; op. cit., p. 155.

المطبعة في بحر تسع سنوات . ومما يدعو إلى الدهشة حقا أن حروب الشام الثلاثة وقعت في هذه الفترة ، فكان من الطبيعي ومصر منصرفة بكليتها لهذه الحرب ، أن يقل نشاط مطبعة بولاق ، غير أن الواقع يثبت عكس ذلك ، لأن الوالى كان مهتما شخصيا بتلك المطبعة وكان يعتبرها دعامه قوية من دعائم نهضة مصر الحديثة . وقد عني عناية شديدة بمطبوعاتها . ويستدل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى على ذلك « أنه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الأزهر ، والتصحيح فن دقيق يبنى عليه إخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الأغلاط المطبعية التى تشوهها ، ولهك تلاحظ فى الكتب التى كانت تطبع فى ذلك العصر خلوها من الأغلاط ، وهذا راجع إلى حسن اختيار المصححين فى مطبعة بولاق . » (١) . ويقول بروكى « وقد زاد عدد مطبوعات بولاق فى العشر سنوات الواقعة بين سنة ١٨٣٣ و سنة ١٨٤٣ ، إلى خمسة أضعافه منذ إنشاء المطبعة إلى سنة ١٨٣٠ » (٢) . واستطاعت مطبعة بولاق أن تضى قدما وسط المصاعب التى اكتنفها والتى قفبت على غيرها من المؤسسات الصناعية التى أنشأها الباشا .

ومطبعة بولاق حتى ١٨٤٠ كانت المؤسسة الصناعية الوحيدة التى ظلت بعيدة عن الالتجاء إلى الأوروبيين . فان نظارها جميعا كانوا من العرب أو الأتراك . ولم نثر فى الوثائق الرسمية إلا على إسم أجنبي واحد كان يعمل فى سرك الحروف وقد سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن صناعة الحروف فى مطبعة بولاق .

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٧ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٢) Brocchi ; Giornale delle Osservazioni fatte nei viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia, p. 370.

دراسة لبعض التحف الإسلامية^(١)

أقدم السجاجيد الإسلامية في مصر

للدكتور عبد الرحمن فهمي

— ٣ —

« أهيداء »

الى روح المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا أعظم
الهواة العرب للسجاجيد الإسلامية وأول من لفت الأنظار
الى صناعتها في مصر .

مقدمة :

أتاحت لي ظروف استلام مجموعة السجاجيد الأثرية بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة
العثور على قطع من السجاجيد ذات الخميعة ، هي أقرب ما تكون شيئا بتلك الأقمشة
السميكة ذات الزخارف المنسوجة بمصر في عصر الانتقال مما كان سببا في صرف
الأنظار عنها إلى عهد قريب ، وبعض هذه السجاجيد يحمل من بين زخارفه كتابات
كوفية والبعض الآخر يتفرد بالزخارف الهندسية وحدها .

والحق أن هذه القطع من السجاجيد الإسلامية قليلة ونادرة جدا ويكاد يقتصر
الموجود منها على مجموعة متحف الفن الإسلامي فيما عدا قطعتان بالسويد نشرهما
الأستاذ لام^(١) C. J. Lamm وأرجعهما إلى العصر العباسي .، وقطعتان شبيهتان
في متحف المنسوجات بواشنطن ونشرهما المرحوم الدكتور كونل^(٢) E. Kühnel .

(*) انظر مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢١ - العدد الأول ١٩٥٩ ومجلد ٢٢ العدد
الأول ١٩٦٠ حيث نشر البحث الأول والثاني .

(١) واحدة منهما في Röhs Museum في جوتنبرج ، والثانية في National Museum
في استكهولم . أنظر C. J. Lamm : The Marby Rug and some Fragments of Carpets found

in Egypt. (Särtryck ur Oriensalskaptets årsbok 1937) pp. 51 - 66.

(٢) Ernst Kühnel : Catalogue of Dated Firaz Fabrics (Washington 1952) (٢)

pp. 86 — 87, nos. 73.618, 73.322.

وأرجعها للقرن التاسع الميلادي وأخرى بمتحف المتربوليتان بنيويورك ونشرها الأستاذ ديمان ^(١) Dimand وأرجعها للعصر الفاطمي. غير أن هذه القطع أو تلك لافوق في أهميتها الفنية أو العددية مجموعة متحف الفن الإسلامي إذ أن المجموعة الأخيرة وعددها إحدى عشرة قطعة واردة من معين محدد ، فهي كلها من حفائر متحفنا بالقسطنطينية أو العواصم الإسلامية في مصر ، كما أن بعضها تلي كتاباته الضوء على فن نسج السجاجيد الإسلامية في مصر منذ عهد مبكر جداً .

وبقدر ما نبح المشتغلون بالآثار في تتبع مصر كركز لنسج السجاجيد في العصور المملوكي والعثماني ، بقدر ما انتاب القموض بداية إنتاج هذا المركز الرئيسي للسجاجيد الإسلامية حتى إننا لنقرأ في أحدث ما كتب عن السجاجيد القاهرية « إننا غير متأكدين ما إذا كانت الخيالة المعقودة قد مارسها الصانع في مصر منذ عهد مبكر » ^(٢) وستكون محاولتنا المتواضعة في هذا البحث الكشف عن هذا القموض ! بقدر ما تسمح به إمكانيات القطع الجديدة ، ولا شك أنه من الصعب أن ننسب إلى بلد إسلامي معين، تحفة إسلامية مثل السجاد — يمكن أن تنتقل من مكان إلى آخر — على أساس العناصر الزخرفية وحسب ، بل لابد أيضاً من البحث عن الفوارق الأخرى ، في الأسلوب الصناعاتي (التكنيك) سواء من حيث النسج والغزل أو الألوان أو نوع الخيوط والعقد ، وعلى هذين الأساسين : الأسلوب الزخرفي والأسلوب الصناعاتي سيكون منهج حديثنا .

وتنقسم السجاجيد موضوع البحث وهي في مجموعها إحدى عشرة قطعة إلى :

(أولاً) سجاجيد من العصر الأموي ٢

(ثانياً) سجاجيد من العصر العباسي

١ — بزخارف وكتابات ٧

٢ — بزخارف فقط ٢

M. Dimand : A Handbook of Muhammadan Art. N.Y. 1947 (١)

(الترجمة العربية — لأحمد عيسى) ص ٢٧٧ — ص ٢٧٨

Ernst Kühnel : Cairene Rugs. (Washington 1957) p. 6 (٢)

ومن المجموعة العباسية نشر المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا قطعتين نسبهما إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وقرأ التاريخ المسجل على واحدة منهما وسنحاول هنا إعطاء القراءة الصحيحة لهذا التاريخ ، استنادا إلى التحليل الحرفي للكلمات الكوفية الظاهرة من الخميثة ، كما سنعرض لكافة الكتابات الأخرى المسجلة على بقية القطع العباسية التي ننشرها هنا لأول مرة .

أما المجموعة الأموية من هذه السجاجيد فهي هامة بحق لأن قطعة منها تشير كتابتها إلى (مصر) ككان لإنتاج السجاجيد الإسلامية المبكرة ، أما الثانية فطليبا كتابة قمت بتحقيقها^(١) وسنرى أنه بناء على هذا التحقيق يمكن الرجوع بالسجاجيد الإسلامية ذات الخميثة المعقودة إلى تاريخ مبكر هو النصف الثاني من القرن الأول الهجري .

أولا - سجاجيد العصر الأموي

١ - من مجموعات متحف الفن الإسلامي منذ ١٩٣٦ رقم مسجل ١٣٣٣٢ مقاس ٤٠ × ٩ سم .

السداة من الكتان واللحمة للنسيج الصحي من الكتان والوبرة من خيوط الصوف المتصل السطح ولا تظهر بالقطعة أية عقدة . (لوحة رقم ١)

جزء من سجادة وبرية بزخارف كتابية باللون السمعي على أرضية زرقاء غامقة ويفصل بين كل كلمة وأخرى مستطيل محدد باللون الأحمر ، ونلاحظ على هذه القطعة أنها من نوع السجاد الوبري المصنوع على « الكانافا » لأنها منسوجة على خامة خشنة سادة من خيوط الكتان (لوحة رقم ١) وجميع خيوط الوبرة الصوف على النسيج الصحي غير مقطوعة من سطحها العلوي ، بل هي خيوط متصلة بارزة على السطح أشبه ماتكون بالحلمات ، ومثل هذه الطريقة يمكن تنفيذها بعد الانتهاء تماما من نسج الأرضية السادة ثم تستعمل إبرة السجاد العادية ذات الخطف أو الإبرة الطويلة

(١) نشر الأستاذ الدكتور عبد مصطفى مدير متحف الفن الإسلامي السابق هذه القطعة وأشار إلى تحقيقنا لكتاباتها ، وترك لي مكتورا مهمة نشر كافة قطع سجاجيد النساط البكرة الموجودة بمتحف الفن الإسلامي . أنظر مقال Mohamed Mostafa, Neuerwerbungen des Museums für Islamische Kunst in Kairo.

Aus der Welt der Islamischen Kunst (Festschrift für Ernst Kühnel) Berlin 1957 pp. 89, 90.

(المسلة)، وبواسطة هذه الإبرة أو تلك يمكن سحب الخيوط الصوفية مع ترك جزء منها بارز بين كل غرزة وأخرى فتشكل الخيوط الصوفية شبه لحة متبادلة مع اللحات الأصلية للنسيج الصالح السادة ولكنها لحة غير تامة السحب والشد لإمكان ترك الحلمات الصوفية بارزة على السطح لتكون الخيالة .

ورغم أن هذه السجادة وبرة إلا أن عملية النسيج فيها — لا العقد — هي السائدة فلا نلاحظ على ظهر السجادة أية عقدة ظاهرة بين خيوط السداة أو اللحمة ولا يظهر لهذه القطعة « برسل » في حافاتها لذلك لا يمكن تبين عقد خيوط الخيالة في أول كل صف من صفوف الفرز وفي نهايته ولكن وجود مثل هذه العقد في أول خيوط الخيالة ونهايتها لازم لتثبيت كل صف من خيوط الخيالة الصوف موازياً للحملة الأرضية .

ولا يظهر على القطعة أية عناصر زخرفية فيما عدا الكلمة المكررة مرتين المحصورة بين مستطيلات منفصلة ويظهر من هذه الكتابة داخل كل مستطيل الحرفين الأولين من كلمة (مصر) بوضوح مُنفذين بالخط الكوفي المزوى (لوسة رقم ٢١٩) أما حرف الراء فهو غير واضح بسبب أطراف الخيالة ذات اللون الأزرق الغامق المسدلة على أطراف حرف الراء ذى اللون السمنى وبعد رفع الخيالة المسدلة لاحظت أن حرف الراء ليس تام التعبير شأنه في ذلك شأن الراء التي نراها على الفلوس الأموية ضرب « مصر » فالخروف الموجودة على السجادة الأموية تقرب من لفظ « مصر » على فلوس عبد الملك بن مروان صاحب خراج مصر ووالها في العصر الأموى (لوحة رقم ٣) ومع قلة عدد الحروف العربية التي تتضمنها كتابة هذه السجادة إلا أنها هامة جداً لأنها تجعلنا نحدد عصر هذه القطعة بالعصر الأموى وخاصة إذا لاحظنا أن لفظ « مصر » عليها يتعد كل البعد عن نفس اللفظ المسجل على صنيح السكة العباسية^(١) حيث نلاحظ هناك تطوراً في استدارة تعبير الراء فضلاً عن أن اللفظ أكثر بدائية من اللفظ نفسه على القطعة رقم 73.618 العباسية في متحف

(١) عبد الرحمن قهس : صنيح السكة في فجر الاسلام . ظهر النقطة رقم ١٢٨ والنقطة رقم ١٦٤ لوحة رقم ١٣ ورقم ٢٠

المفسوجات بوشنطون التي نشرها الأستاذ كونل^(١) والتي يظهر فيها التوريق وهو من مميزات الكتابة الكوفية في العصر العباسي (لوحة رقم ٤) .

هذا إلى أن طريقة نسج هذه السجادة المبكرة تعتبر في رأي خطوة أولى في فن نسج السجاجيد الإسلامية في مصر فهي طريقة للحصول على الخميلة دون كبير عناء إذ يستعصم النساج عن شد خيوط السداة واللحمة على نول السجاد بالخامة السادة المنسوجة التي يمكنه شداها على عارضتين من الخشب لإتمام غرز خيوط الصوف بالإبرة وسرى أن هذه الطريقة البدائية سرعان ما تركها النساج الأموي إلى طريقة العقد في عمل الخميلة كما يظهر من القطعة الثانية .

٢ — من مجموعات متحف الفن الإسلامي ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٦٨٠ مفاص

٣٢ × ١٩ سم .

السداة من خيوط الكتان غير المصبوغ ومبروم إلى اليسار S .

اللحمة من خيوط الكتان المصبوغ ومبروم إلى اليسار S .

العقدة من نوع جورديز وصفوف العقد مرتبة بحيث يلي كل صف منها أربعة صفوف من خيوط اللحمة ويتفاوت عدد العقد فيما بين ١٨ — ٢٠ في السنتيمتر المربع .

الخميلة من الصوف (لوحة رقم ٥) .

وهذه القطعة من نوع السجاد الوبري المعقود^(١) ومثل هذا النوع من السجاجيد لا يمكن إنتاجه دون شد خيوطه على النول لأنه الوسيلة الرئيسية لشد خيوط السداة لعقد خيوط الخميلة عليها في صفوف متبادلة مع الضغط على خيوط اللحمة أثناء النسج للحصول في النهاية على أجمل السطوح الوبرية وقد ظهر من فحص هذه القطعة أنها لا تختلف في نسجها عن السجاجيد التي تنسب إلى جورديز بآسيا الصغرى في القرن ١٦ م وما بعده ولكننا أمام سجادة إسلامية مبكرة من حفاثر القسقاط فالقطعة تحمل كتابة كوفية نصها « لرحن بن سديج » ونلاحظ أن لفظ « الرحمن » تظهر حروفه من خيوط الخميلة كاملة فيما عدا حرف الألف وإضافته إلى الكلمة يستقيم معها كما أن إضافة لفظ « عبد » قبل لفظ « الرحمن »

Ernst Kühnel : Cat. of Dated Tiraz Fabrics p. 86 pl., XLV. (١)

يتفق مع ما هو متواتر عن هذا الاسم الإسلامى فتصبح العبارة إلى هذا الحد [عبدا] لرحمن . بن سديج « وفيما بين «عبد الرحمن» و «بن سديج» جزء مهمل جدا من السجادة مقاسه سم وحى مسافة تكفى لكتابة أكثر من كلمة عربية بنفس طراز الكتابة الكوفية المنفذة بها الحروف الظاهرة من الاسم وخاصة لفظ « بن سديج » الذى يبلغ طوله ٤ سم ولذلك نعتقد أن الاسم الذى سجل كاملا على القطعة قبل تمزق جزء منها هو « [عبد ا] لرحمن [بن معاوية] بن سديج » (لوحة رقم ٦) ونلاحظ أن لفظ « بن معاوية » المقترح إضافته للاسم لا يبدو المسافة الموجودة فعلا ولكن من هو « عبد الرحمن بن معاوية » هذا ؟ لقد أشار الكندى^(١) إلى صاحب شرطة مصر « عبد الرحمن بن معاوية بن حديج » فى ولاية عبد الله بن عبد الملك وقد ولى هذا الشخص مربية الاسكندرية ثم تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان سنة ٨٨٦ هـ ويذكر الكندى أيضا^(٢) أنه جمع لعبد الرحمن بن معاوية القضاء وخلافة القسطنطين فى ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ وظل فى منصبه هذا إلى رمضان سنة ٨٨٦ هـ فتكون مدة ولايته للقضاء ستة أشهر ويذكر الذهبي فى تاريخ الإسلام أن عبد الرحمن ابن معاوية قد توفى سنة ٩٠٥ هـ^(٣) ويظهر من تتبع حياة هذه الشخصية أن المناصب الإدارية والدينية التى تولاها عبد الرحمن لا تمتدئ الفترة بين سنة ٨٦ هـ وسنة ٩٠٥ هـ أى تسع سنوات فى العصر الأموى بمصر وقد يجوز للمرء أن يرجح بشئ من الاطمئنان أن هذه الشخصية تستقيم والاسم المسجل على السجادة التى نحن بصدها بسبب الاعتبارات السابقة فى تكملة الحروف المحذوفة وكذلك بسبب الكتابة الكوفية التى تتماشى مع مثيلتها المعاصرة على شاهد عبد الرحمن الحجرى المؤرخ ٣١ هـ وعلى قبة الصخرة المؤرخة سنة ٧٢ هـ^(٤) وعلى حجر الطريق باسم الخليفة عبد الملك^(٥) (لوحة رقم ١٠ و ١١) .

(١) الكندى : الولاة والقضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٥٨ ، ص ٣٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٥٨ ، ص ٣٢٤

(٣) التهمى : تاريخ الإسلام ص ٢٦ (طبعة القاهرة ١٣٦٨ هـ)

(٤) Hassan Mohammed el-Hawary : The Most ancient Islamic Monument known

dated A.H. 31 (A.D. 652) J.R.A.S. April 1930 p. 322. pl. III, pl. V.

(٥) Creswell : Early Muslim Architecture Vol. I, p.82

كما أننا لا نستطيع أن نجزم بشكل قاطع أن «عبد الرحمن بن معاوية بن حديج» الذي ورد اسمه في الكندي والذهبي هو غير «عبد الرحمن بن معاوية بن سديج» الذي ورد اسمه على السجادة ، أما الفرق بين السين في «سديج» والحاء في «حديج» فهو خطأ يمكن أن ينسب إلى النساج في حالة إقرار الامة على أنه «حديج» أو إلى المراجع التاريخية في حالة إقرار الاسم كما ورد على الصفحة الأثرية «سديج» ومثل هذا الخطأ كثيراً ما كان يحدث في عصر الانتقال وقد سجلته تحف أثرية كثيرة ، فيذكر الأستاذ كونز مثلاً أن في منتجات القيوم من المنسوجات الصوفية حتى القرن التاسع والعاشر الميلاديين حدث أن فهمت الكتابات العربية فهما خلطاً أو مبهماً أو مصحوبة بنصوص قبطية^(١) وقد ظلت هذه الظاهرة كذلك حتى العصر العباسي في مصر في ميدان المسكوكات حيث نجد الخطأ شائعاً في كتابة النصوص العربية على صنج السكة الإسلامية^(٢) (لوحة رقم ٩) .

وسواء أكان الاسم «سديج» أو «حديج» فهذا لا يدعو لنسبة السجادة إلى أقصى من العصر الأموي فهي قطعة أموية ما في ذلك شك كما أنها سجادة ذات خيوط مغزولة في اللحمة والسداة وخميلة معقودة على خيوط السداة ولذلك كله تعتبر نقطة الارتكاز في صناعة السجاجيد في مصر الإسلامية في العصر الأموي ، بل هي أقدم السجاجيد الإسلامية ذات الخميلة المعقودة وأكثرها وثوقاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الكتابة الكوفية المسجلة عليها .

أما عن زخارف هذه القطعة ففي حقل السجادة يظهر جزء من طائر محوّر باللون الأزرق الفاتح والأخضر الزيتوني والأسود والأصفر وهو أقرب إلى شكل الطاووس ومثل هذه الطيور وردت كثيراً على قطع الأقمشة المصرية الصوفية ذات الزخارف المنسوجة في عصر الانتقال (لوحة رقم ٨٥٧) وهي طيور زخرفية تبدو فيها التأثيرات

(١) Ernst Kühnel : Cat. of Dated Tiraz, p. 2

(٢) عبد الرحمن فهمي : المرجع السابق ص ١٩ و ص ٢٠

الساسانية^(١) والقبطية^(٢) ويحدد حقل السجادة شريط بأوضعية أزرق غامق وعليها زخارف هندسية بالأصفر والأحمر والأخضر الزيتوني في شكل حرف T قائماً أو مقلوباً بالتبادل (لوحة رقم ٦٠٩) ويذكرنا هذا العنصر الزخرفي بشاردة المسيحية المحورة على الدنانير البيزنطية الإسلامية التي ضربت خلال تعريب السكة على يد عبد الملك ابن مروان فيما بين سنة ٥٧٤ و٥٧٧ فحذف الفنان رأس الصليب فأصبح حرف T^(٣) أما الوريدات الثلاث المحورة التي تظهر في خارج الإطار فهي بالأصفر والأخضر الزيتوني على أرضية حمراء وهي أقرب إلى الزخارف الهلنستية على قطع الأقمشة المعاصرة في مصر^(٤) وبعض هذه الوريدات غير واضح تماماً من الخيطة ولعل السبب في ذلك هو عقدة جورديز التي لا تسمح بتبين زخارف السجادة في حالة تأكل الخيطة وفنائها^(٥).

ثانياً - سجاجيد العصر العباسي

١ - سجاجيد الزخارف والكتابات

٣ - مجموعات متحف الفن الإسلامي ١٩٤٦ رقم سجل ١٥٥١٨ المقاس ١٥×١٦ سم
السداة واللحمة من الكتان المبروم إلى اليسار S وبعض خيوط اللحمة مصبوغ

(١) كانت غزوات الفرس لمصر أكبر تعريف لأهل مصر القدماء بهذا الشعب الإيراني وبأساليبه المختلفة التي كانت لها بعض التأثير في المهارة وفي زخارف المنسوجات المصرية. أنظر زكي محمد حسن: إيران مفاخرها وفنونها ص ١٢ وانظر القطعة المحفوظة بمتحف المنسوجات بواشنطن وهي بسم الخليفة مروان وتبدو فيها التأثيرات الساسانية واضحة.

E. Kühnel: Cat. of Dated Tiraz pl. I. no. 73.524


(٢) أكثر رسوم الطيور في الأقمشة القبطية في مصر «القطرة» و «الطاووس» و «الحمام» و «البيضاء» و «البط» و «أفراخ اللاء» زكي محمد حسن: زخارف المنسوجات القبطية (مجلة كلية آداب القاهرة مايو ١٩٥٠ ص ٩٣).

(٣) عبد الرحمن فهمي: التأثيرات المسيحية والرموز القبطية على السكة الإسلامية ص ٣٤٤ لوحة ١

(٤) قطعة رقم ١٤٤٧٣ ورقم ١٣٤٢٥ ورقم ٩٢٦٧ ورقم ٩٢٦٨ بمتحف الفن الإسلامي

(٥) يعتقد بعض الباحثين أن المقعدة التركية تحتاج إلى خيط خيطة أطول لكي تلتف حول خيطين من خيوط السداة وعندما تصبح الخيطة رنة لا تظهر زخارف السجادة ولا يمكن تمييزها بخلاف المقعدة الفارسية التي تلتف خيبتها حول سداة واحدة فإذا بليت الخيطة حتى خيوط السداة فإن آثار ألوان الخيطة يظل واضحاً وزخارف السجادة يمكن تمييزها
Eliza Dunn: Rugs in their Native Land pp. 13, 14.

بالأحمر . والخيلة من الصوف المعقود من نوع عقدة جورديز وكل صف من العقد يليه ٤ صفوف من اللحمة .

هذا الجزء من سجادة وبرة عليه كتابة كوفية من كلمتين باللون السمنى على إطار عريض بأرضية زرقاء غامقة ويعلوه شريط ضيق باللون الأحمر عليه حبيبات باللون السمنى وفى أعلى هذا الشريط الضيق زخارف هندسية متداخلة فى هيئة معينات أو مسدسات باللون الأزرق الغامق واللون الأخضر والسمنى وأسفل إطار الكتابة شريط آخر باللون السمنى وبه خط باللون الأزرق الغامق أسفله جزء من زخرفة هندسية بالألوان الأزرق الغامق والسمنى والأحمر والأخضر الزيتونى والكتابة رغم ما بها من نقص فى الحروف يمكن قراءتها على هذا الوجه « [بركة] كاملة نعم [حمة] » (لوحة رقم ١٣ و ١٤) وهى عبارات دعائية كثيراً ما وردت بشكل أو بآخر على التحف الإسلامية من الخزف والمنسوجات^(١) فى عصر الانتقال منذ القرن ٩/٣ م والكتابة يبدو فيها التطور واضحا عن كتابة العصر الأموى فهى ذات رؤوس متقنة  وهى تشبه كتابة قطعة النسيج رقم سجل ١٤٤٧٣ من مجموعات متحف الفن الإسلامى المؤرخة ١٦٨ * (٧٨٤ / ٧٨٥ م) .

٤ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٥ رقم سجل ١٥٤٧٧ المقاس ٢٩ × ١٧ سم .

السداة من القطن غير المصبوغ من بحصة خيوط مبرومة إلى اليمين Z .
اللحمة من القطن غير المصبوغ مبروم إلى اليمين Z .

العقد على خيوط اللحمة وتظهر من الخلف صفوف العقد طولية بين خيوط السداة السميكة . والقطعة جزء من ركن سجادة صوف يظهر منه جزء من الحافة العليا وعليه إطار من ضلعين بأرضية أخضر زيتونى عليها كتابة كوفية باللون الأصفر وخارج هذا الإطار من أعلى زخارف هندسية أشبه بخلايا العسل وهى مفصلة الحدزد بخطوط باللون الأخضر ووسط هذه الخلايا باللون الأحمر الطوبى وتحدد زاوية الإطار إلى الداخل حقل السجادة وهو مزين بزخارف هندسية نجمية

(١) أنظر القدر الحزفى رقم ١٥٤٩٠ بمتحف الفن الإسلامى وعليه « بركة كاملة » وأنظر زكى حسن : أطلس التصاوير قطعة القماش رقم ٥٥٨ وهى تحمل لفظ « بركة » وقطعة القماش رقم ٩٠٦١ وعليها المباركة « بركة ونعمة » بمتحف الفن الإسلامى .


من ستة أطراف وحدودها باللون الأزرق الغامق والأحمر الطوبى والأصفر على التوالي من الخارج إلى الداخل وفي وسطها زخارف هندسية باللون الأزرق ونص كتابة الإطار « الله م[ما] » (لوحة رقم ١٥ و١٦) ويظهر أن الكتابة كانت تدور في الإطار كله حول حقل السجادة لأنه قبل لفظ « الله » يظهر جزء من نهاية حرف البسملة « [بسم الله م[ما]] » وهي نفس العبارة التي وردت على صنيح السكة العباسية والاختتام مشفوعة بلفظ « أمر »^(١) ويظهر أن ورود هذه العبارة يرتبط بالسلطة التي كانت للوالي في مصر العباسية بحيث ينص صاحب الشرطة أو عامل الخراج — باعتبارها المشرفين على دور الطراز ومصانع السجاد — على أن القطعة صنعت بأمر الوالي أو بأمر الخليفة العباسي نفسه .

٥ — مجموعات متحف الفن الإسلامي ١٩٤٤ رقم السجل ١٤٩٣٩ المقاس ٤٦ × ٣٨ سم .

السداة من خيوط الكتان المبروم إلى اليسار S .

اللحمة من خيوط الكتان من خمسة خيوط مبرومه إلى اليسار S .

العقد على اللحمة في شكل حرف U ولا تظهر أية عقدة من الخلف .

وتتألف هذه القطعة من السجاد من ثلاثة أجزاء يكمل بعضها الآخر وعلى الجزئين العلوى والأوسط يبدو شريط ضيق مزين بزخرفة من حبيبات باللون السمى على أرضية محدة من أسفل بالأزرق الغامق ومن أعلى باللون الأحمر الطوبى وفي أعلى الشريط إطار عريض عليه زخارف هندسية من مثلثات كبيرة داخلها مثلثات أخرى صغيرة بالأزرق والأبيض والأصفر والأخضر الزيتوني والسمى وعلى الجزء الأوسط كتابة كوفية باللون الأبيض على أرضية أحمر طوبى ونص الكتابة [] وعلى الجزء الثالث من السجادة — وهو الجزء الأكبر — زخرفة عبارة عن دائرة هندسية في الوسط أشبه بجامة مستديرة بأرضية أحمر طوبى وأخضر زيتوني وأزرق عليها أشكال نجمية مثمثة الأطراف أربعة

(١) عبد الرحمن همى محمد : صنيح السكة رقم ٩٨ — ١٠٢ ورقم ١٠٥ — ١٢١ .

منها باللون الأبيض والأربعة الأخرى باللون الأحمر وفي مركز النجمة دائرة باللون الأبيض وسطها باللون الأحمر والأخضر ويحيط بالجامعة أرضية سادة باللون الأحمر (لوحة رقم ١٧ و ١٨) ول هذه القطعة أهمية خاصة من حيث الكتابة الموجودة في إطارها وهي تتألف من كلمتين مسبوقتين بالجزء الأخير من كلمة ثالثة وهي كتابة مماثلة لكتابة القطعة رقم ٩٥٣١ التي نشرها المرحوم الدكتور علي إبراهيم باشا^(١) وهي هنا رقم ٦ (لوحة رقم ١٩ و ٢٠) مما يوحي بأن نساج القطعتين واحد غير أن القطعة (رقم ٥) التي نشرها هنا لأول مرة وردت عليها ألفاظ جديدة لم ترد على القطعة التي سبق نشرها مما قد يساعد الأثرين على إلقاء بعض الضوء لتفسير القراءة كلها بمقارنة القطعتين وأقرب تفسير لقراءة الكلمات الكاملة في قطعنا هو « [مد ولأنبت مشباً و] »^(٢).

ولابد أن نشير هنا إلى أننا أمام طراز مبكر جداً للسجاجيد ذات الجامعة التي يرجع أحسن نماذجها إلى القرن ١٦ م في شمالي إيران وخاصة في تبريز وقاشان^(٣) غير أن حجم شريط الكتابة وحجم الجامعة الوسطى على السجادة المصرية العباسية لا يوحيان بأنها سجادة من النوع الكبير الحجم ويظهر أن الأسلوب الصناعي (التكنيك) الخاص بعقد الخميعة على اللحمة لم يسمح بإنتاج سجاجيد ذات أحجام كبيرة بل تستعمل هذه الطريقة في إنتاج سجاجيد الصلاة أو سجاجيد الصف^(٤) والسبب في ذلك أن طريقة عقد الخميعة على اللحمة طريقة بطيئة إذ يقوم فيها نساج واحد بالعملية كلها فهو يستعمل قدمه في رفع أو خفض خيوط السداة بالتبادل بينما يقوم يده اليمنى أو اليسرى بتمرير خيوط اللحمة التي يقوم هو نفسه بعقد الخميعة عليها^(٥).

Ali Ibrahim Pasha : Early Islamic Rugs of Egypt (B. I. E. T. XVII) (١)

وقد سبق أن نشر صورة هذه القطعة رقم ٩٥٣١ المرحوم علي بهجت : خريات : p. 124, pl. I. التسطاط (القاهرة ١٩٢٨) لوحة ٣١ كما نشرها ميجون G. Migeon : Manuel D'Art Musulman Vol. II, p. 351 fig. 949 (Paris 1927)

(٢) قارن قاموس لين مادة (عشب) ويقال عاشب ومعشب للروض المشب الكثير العشب

Lane (R. W.) : Arabic — English Lexicon (London 1874)

(٣) زكي محمد حسن (المرحوم) : فنون الاسلام ص ٤٠٢


Ali Ibrahim Pasha : op. cit. p. 126 (٤)

Ibid. p. 125. (٥)

٧ — من مجموعات متحف الفن الإسلامي رقم سجل ١٢٧٣٨ المقاس ٢٥ × ١٤ سم

السداة كتان وحى من أربع خيوط مبرومة دون نظام واحد .

اللحمة كتان من خيط مبروم على اثنين جهة اليسار S .

العقدة تظهر على اللحمة مخفية من الظهر بين خيوط السداة الطويلة .
قطعة من سجادة وبرية لها إطار بأرضية حمراء عليها حبيبات باللون الأصفر والإطار
محدد بخطين باللون البني الفاتح وعلى الجزء الذى يلى هذا الإطار سطر كتابة كوفية
باللون البني الفاتح على أرضية حمراء ونص الكتابة []
وأسفل الكتابة زخارف هندسية من معينات متصلة وبدخلها خطوط متقاطعة
بألوان مختلفة بنى وأحمر وأسود وأصفر فاتح (لوحة رقم ٢١ و ٢٢) .

وقد أشار المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا إلى هذه السجادة وقرأ تاريخها
سنة ٢٠٦ هـ وهو تاريخ على حد قوله يوصلنا إلى ما قبل العصر الطولوني (١) . غير
أننى بعد فحص هذه السجادة تبين أن أول حروف التاريخ هي سنة وتاء مربوطة
وهما الحرفان الأخيران من لفظ (سنة) ويلى ذلك حرف ألف ثم ثلاثة سنن متصلة
لا يمكن تفسيرها بغير حرف التاء والنون الوسطى والياء المتصلة وتتصل هذه
الحروف بالنون الأخيرة فتصبح القراءة الصحيحة للكلمة (اثنين) أما الحروف
الظاهرة من الكلمة الثالثة فهي الواو والميم ويستقيم تفسير هذه الحروف مع قراءة
الكلمة « ومائتين » لأنها تتفق مع طراز الحروف الكوفية في العصر العباسي إذ هي
منطورة عن حروف القرن الأول الهجرى بشكل يصعب معه الاتفاق مع الأستاذ
ديماند والدكتور لام في قراءة التاريخ ١٠٢ هـ (٢) . وقد وافق المرحوم الدكتور
زكى محمد حسن على قراءة المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا للتاريخ واعتبره سنة
٢٠٦ هـ (٣) . وكذلك فعل الأستاذ Wiet (٤) . ولكن الأخذ بهذه القراءة يجعلنا

(١) Ali Ibrahim Pasha : op. cit. p. 124 .

(٢) M. Dimand ; op. cit., p. 277 (الترجمة العربية) Lamm : op. cit., p. 62 .

(٣) زكى محمد حسن (المرحوم) : فنون الإسلام ص ٢٩٧ .

(٤) Wiet : Exposition des Tapisseries et tissus du Musée Arabe du Caire (٤)

(Paris 1935) No. 281 p. 72 .

نسقط من حسابنا حرف الألف الذي يلي الحروف الأخيرة من لفظ « ستة » وهو ظاهر تماماً بحيث لا يمكن إغفاله كما أن حرف النون في آخر لفظ « اثنتين » واضح التمييز وفي الامكان تمييزه عن حرف التاء الذي تنتهى به كلمة « ست » ويكتب مستقيماً (لوحة رقم ٢٣) .

٨ — مجموعة متحف الفن الإسلامى القاهرة رقم سجل ١٤٩٤١ المقاس ٣٨ × ١٤ سم .

السداة مجموعة من خيوط الكتان قوية وغير مبرومة وعددها ١٢ .

اللحمة كتان من خيوط مبرومة إلى اليسار S .

المقعدة على خيوط اللحمة .

جزء محدد من ثلاثة أجناب لسجادة وبرية مزينة بأشرطة تشكل مستطيلات ناقصة الأول عرضه ٤٥ سم وعليه كتابة كوفية لونها بنى فاتح على أرضية لونها أخضر زيتونى ويحدد الإطار من الخارج شريط سادة لونه بنى فاتح وعرضه ٢٥ سم ويحصر الإطار إلى الداخل حقل السجادة المزين بزخارف هندسية بالألوان الأخضر الزيتونى والأزرق الفاتح على أرضية بنى فاتح (لوحة رقم ٢٤ و ٢٥) ويظهر أن كتابة هذه السجادة كانت تدور فى الإطار كله حول الحقل ونص الجزء الذى تبقى منها (بسم الله بركة من الله مما) وهى عبارة شائعة فى كتابات الطراز على الأقمشة العباسية التى وجدت فى حفائر القسطنطينية (١) .

٩ — من مجموعات متحف الفن الإسلامى ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٩٤٠ المقاس

٢٥ × ٤٥ سم .

السداة من الكتان من خمس خيوط مفتولة إلى اليسار S

اللحمة من كتان من خيط مبروم على اثنتين إلى اليسار S

ولا يعطى هذا الجزء من السجادة أية فكرة عن طول القطعة الأصلية أو عرضها لأنه شريط غير محدد عليه كتابة كوفية باللون السمئى على أرضية حمراء (لوحة ٢٦) ونص هذه الكتابة « بن حبشى مولى أمير المؤمنين » وقد جهدت كثير فى البحث

(١) عن هذه القطع من الأقمشة أنظر Cf. Rep. Vol. II., Nos. 646, 667, 685 وانظر

كذلك Rep. Vol. III., nos. 883, 900 .

عن حياة هذه الشخصية التي تنسب إلى «حبشى مولى أمير المؤمنين» ولكن لم أعثر عليها غير أن العبارة التي تلى الاسم وهي «مولى أمير المؤمنين» تشير إلى أن الشخص الذى يسبقها تابع للخليفة العباسى فى بغداد وقد وردت العبارة على قطع من الأقفشة العباسية والطولونية فى مصر كما تعدد ظهور شخصيات كثيرة اتصفت بلفظ «مولى» مثل بشر الخادم مولى أمير المؤمنين^(١) وعبد الملك مولى أمير المؤمنين^(٢) وشفيع مولى أمير المؤمنين^(٣) والخالد مولى أمير المؤمنين^(٤) وجابر مولى أمير المؤمنين^(٥) وخماروية بن أحمد مولى أمير المؤمنين^(٦) وأبو الجيش خماروية مولى أمير المؤمنين^(٧) وهرون بن خماروية مولى أمير المؤمنين^(٨).

ولعل أقدم هذه الأقفشة المنشورة والتي تحمل هذه العبارة هى القطع التى صنعت فى عهد خماروية بن أحمد المؤرخة سنة ٢٧٧ هـ (رقم ٧٣١ Rep. Vol. II) ويذكر الدكتور ميلز Miles أن لفظ «مولى أى خادم أو تابع استعملها الولاة وبعض الموظفين مرتبطة باسم الخليفة الذى يدينون له بحريتهم»^(٩) ولكن لا يمكن التسليم بأن هذا هو المعنى الوحيد للفظ «مولى» إذ أن كثيراً من الولاة لم يكن غير حاكم مستقل ويعترف فقط بسلطة إسمية للخليفة العباسى فقد يكون هذا المولى — كما يظهر من عبارة الأقفشة الطولونية العباسية — أميراً مثل خماروية وأبو الجيش وهرون أو وزيراً مثل القطعة (رقم ١٢٣١ Rep Vol IV) باسم الوزير محمد بن علي مولى أمير المؤمنين المؤرخة ٣٢٠ هـ ولكن ظهور هذه العبارة فى ميدان المسكوكات كان أقدم تاريخياً من العصر الطولونى إذ لدينا بعض الصنح الزجاجية الخاصة بالسكة

(١) قطعة نسيج رقم ٩٠٠ مؤرخة ٢٩٨ هـ Rep. Vol. III. p. 59

(٢) قطعة نسيج رقم ٨٩٩ مؤرخة ٢٩٨ هـ Rep. Vol. III p. 59

(٣) قطع نسيج رقم ١٢٢٧ و ١٢٣٧ و ١٢٥٤ Rep. Vol. IV

(٤) قطعة نسيج رقم ٨٧٠ Rep. Vol. III. p. 42

(٥) قطع نسيج رقم ١٢٦٠ مؤرخة ٣٢٢ هـ و ١٢٦٦ مؤرخة ٣٢٤ هـ Rep. Vol. IV.

(٦) قطعة قاش رقم ٧٣١ مؤرخة ٢٧٢ هـ Rep. Vol. II. p. 232

(٧) قطعة نسيج رقم ٧٨٥ مؤرخة ٢٨٢ هـ Rep. Vol. II p. 264,

(٨) قطعة نسيج رقم ٧٨٨ و ٨١٨ Rep. Vols. II p. 266, III. p. 11

(٩) G. C. Miles : Early Arabic Glass Weights N. Y. 1948 p. 24

الإسلامية ترجع إلى عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٨ هـ (٧٥٤ — ٧٧٥ م) وهي تحمل اسم « مطر » مولى أمير المؤمنين (صنجة رقم ١٧٧ صنع السكة) أو ترجع إلى عهد المهدي ١٥٨ — ١٦٩ هـ (٧٧٥ — ٧٨٥ م) وهي تحمل اسم « واضح مولى أمير المؤمنين » (صنجة رقم ١٦٩ و ١٧٠ صنع السكة) أما « مطر » و « واضح » فكلاهما كان أميراً على مصر من قبل الخليفة العباسي فيما بين سنة ١٥٧ هـ و ١٥٩ هـ .

بقي أن نشير إلى أن هذه القطع العباسية من السجاجيد الوردية ذات الكتابات تمدنا بمسئندات وافية عن تطور الخط الكوفي . وقد اتفق الأثريون^(١) على تقسيم الكتابات الكوفية إلى ثمانية أنواع وهي الخط الكوفي البدائي أو البسيط Primitive Kufic والخط الكوفي ذو الرؤوس المتقنة Kufic with elaborated apices والخط الكوفي المزهر foliated Kufic والخط الكوفي المورق Kufic with foliated apices والخط الكوفي المجذول interlaced Kufic والخط الكوفي الشريطي أو الإطارى bordered Kufic والخط الكوفي المعماري architectural Kufic والخط الكوفي المربع Kufic rectangles ويهمن من هذه الأنواع الخط الكوفي ذو الرؤوس المتقنة والخط الكوفي المورق فيمثل النوع الأول المخطوطة الأولى في تطور الكتابات الكوفية في العصر العباسي كما يظهر من حروف الكتابة في السجادة رقم ٣ ورقم ٤ بينما يمثل الثاني أقصى درجات التطور الذي حدث لهذا الخط في القرن الثالث الهجري . فحروف الكتابة على السجادة رقم ٣ تقترب من كتابة قطعة القماش المؤرخة ١٦٨ هـ (٧٨٤ / ٧٨٥ م) وتقترب الكتابة المورقة على السجاجيد رقم ٨٠٤ ، ٧٦٥ ، ٨٠٤ من كتابة الشواهد العباسية المؤرخة فيما بين ٢١١ هـ و ٢٤٣ هـ (أنظر جدول تحليل الكتابة لوحة ٣٦) .

٢ - سجاجيد الخزف

١٠ — من مجموعات متحف الفن الإسلامي منذ ١٩٤٤ رقم سجل ١٤٩٥٦/٦ مقياس ١٢×٢٠ سم . السداة واللحمة من الكتان وخيوط السداة خيوط مبرومة لليسار S ونجمة مع بعضها وخيوط اللحمة مبرومة على اثنين إلى اليسار S والعقدة على اللحمة .

Adolf Grohmann : The Origin and Early Development of Floriated Kufic (١)
(Ars Orientalis Vol. II 1957) p. 183.

جزء صغير من سجادة وبرية لها إطار سادة باللون الأحمر الطوبى عرضه ٣٥ سم محيط بطار آخر عرض ٣ سم بأرضية حمراء عليها حبيبات باللون البنى القاتح وبلى هذا الإطار إطار آخر عريض عرضه ٩ سم عليه زخارف هندسية من خطوط متقاطعة باللون البنى القاتح وتشكل هذه الخطوط هيئة مبدسات باللون الأزرق الغامق وتنجبر في وسطها معينات داخل بعضها وهي باللون الأحمر الطوبى والأخضر الزيتوني وبلى ذلك إطار آخر عرضه ٣ سم بأرضية زرقاء غامقة عليها حبيبات باللون البنى القاتح ويفصل بين الحبيبات خط باللون الأحمر الطوبى ويقطع الشريط شبه مربع محدد باللون الأزرق الغامق بداخله زخرفة هندسية باللون الأحمر الطوبى والأزرق الغامق والبلى القاتح (لوحة ٢٧ و ٢٨) .

١١ — مجموعات متحف الفن للإسلامي ١٩٣٦ رقم سجل ١٣٢١٣ مقاس ١٧ × ١٣ سم .

السداة من خمسة خيوط كتان غير مجمعة وغير مبرومة .

اللحمة خيط كتان مبروم على اثنين إلى اليسار S .

العقد على خيوط اللحمة .

جزء من سجادة وبرية أرضيتها حمراء وعليها شريط عريض ٦ سم بأرضية حمراء عليها أربع صفوف من حبيبات بيضاء محدة بالبلى القاتح بمركز كل منها نقطة باللون الأحمر ويحدد هذا الشريط العريض من جانبيه العلوى والسفلى شريطان آخران عرض كل منهما ٢٥ سم وهما محددان باللون البنى القاتح وأرضية كل منهما باللون الأزرق والأحمر وعليها حبيبات باللون السمى (لوحة رقم ٢٩ و ٣٠) .

وبعد هذه هي مجموعة السجاجيد الإسلامية المبكرة ذات الخيلة المعقودة على السداة أو ملتفة حول اللحمة وقد يحاول المرء أن يبحث في الشرق العربى عن أصول ذلك الأسلوب الصناعى الذى اتبع في نسج هذه السجاجيد الإسلامية في القرون الأولى للهجرة من البصريين الأموي والعباسي فنجد أن مصر قد عرفت هذه السجاجيد ذات الخيلة قبل الفتح العربى فقد نشر الأستاذ ديماند سجادة قبطية فريدة هي الآن في متحف المتروبوليتان ويرجع تاريخها إلى نحو ٤٠٠ م وهي توضح كيف أن النساكين في مصر قد عرفوا طريقة صناعة السجاجيد ذات الخيلة من

الوبرة المقطوعة^(١) وهناك قطعة أخرى عثر عليها في كوم أو شيم جتوب القيوم وقد نشرتها مس ليليان ولسن Miss Lillian Wilson ونسبتها إلى القرن الرابع أو الخامس الميلاديين^(٢) أما عن الغزل المستعمل في خيوط سجاجيد متحف الفن الاسلامي فهو من النوع اليدوي وبعض الخيوط الكتانية مزودة إلى اليسار في شكل S وبعضها مبروم إلى اليمين في شكل Z وقد أشار إلى هذا الأسلوب الصناعي في الغزل الدكتور لام في بحث له سنة ١٩٣٨^(٣) أما عن العقد فهي كما رأينا قد ظهرت مبكرة على بعض القطع التي نشرها منذ العصر الأموي (رقم ٢) ومن العصر العباسي (رقم ٣) وهي من نوع العقدة التركية المعروفة باسم جورديز وهي أهم مراكز نسج سجاجيد الصلاة في آسيا الصغرى أي أنها عقدة تلتف حول سدائين (لوحة ١٢) ولكن معظم العقد في بقية القطع تلتف حول اللحمة في شكل حرف U ولا يعترف Tattersall بتسميتها بالعقد^(٤) ولكننا لا ننكر أن النساج هنا قد فطن إلى إمكان لف خيوط الصوف حول خيط واحد لابرز الوبرة المقطوعة، ولعلنا نتساءل مع الأستاذ لام عما إذا كان هناك ارتباط بين هذا النوع من العقد التي تلتف حول خيط واحد من اللحمة وبين العقدة الأسبانية التي تلتف حول سداة واحدة. ربما يكون هذا الارتباط قائماً وقد أشار الدكتور كونل إلى التشابه الزخرفي الواضح بين أكثر السجاجيد الأسبانية وبين سجاجيد القسطنطينية ذات المعينات في العصر العباسي بقوله «إن العلاقة بين السجاجيد الأسبانية وسجاجيد القسطنطينية العباسية ليست مجرد علاقة تكثيفية بل أيضاً علاقة زخرفية»^(٥) غير أنه يجب أن نذكر هنا أن أقدم السجاجيد الاسلامية المنسوبة إلى أسبانيا ترجع إلى القرن ١٣/١٢ م^(٦) أما سجادة «كنيس اليهود» Synagogue الأسبانية والتي

Dimand : An Early Cut — Pile Rug from Egypt (Metropolitan Museum Studies, IV, 1933, pp. 15 — 162)

Miss Lillian Wilson : Ancient Textiles from Egypt in the University of Michigan Collection 1933 (Univ. of Michigan Series XXXI, pp. 14 ff.

Lamm (C. J.) : Dated and Datable Tiraz in Sweden, (Le Monde Oriental) XXXII, 1938, p. 105

C. E. C. Tattersall : Notes on Carpet-knotting and Weaving (London 1920), p. 10.

Ernest Kühnel : Catalogue of Spanish Rugs. (Washington 1953) pp. 1, 2

Ibid. nos. 73, 133, 73, 75, pls. 1, 2.

ترجع إلى القرن ١٤ م^(١) فلها إطار خارجي من صفيين من حبيبات أشبه بقطع القسطاط التي نشرها هنا (رقم ١٠ ورقم ١١) وسيظل هذا الارتباط بين سجاجيد القسطاط والسجاجيد الأسبانية في حاجة إلى تفسير أسباب قيامه ، ويميل الأستاذ الدكتور جمال محرز إلى تفسير إرجاع أصل العقده الأسبانية إلى مصر عندما أقطع الوالى أبو الخطار حسام الدين إقليم تدمير سنة ٧٤٢ م إلى بعض المصريين الذين علموا أهل صناعة السجاد^(٢) .

أما عن زخرفة السجاجيد المصرية فمن الملاحظ أنها كثيرة في القطع العباسية وتتحصر في الزخارف الكتابية التي سبق أن أشرت إليها والزخارف الهندسية من المعينات وزخرفة الحبيبات اللؤلؤية وهي حبيبات من أصل ساساني (لوحة ٣١-٣٣)^(٣) ولكن المعينات تشبه إلى حد كبير زخارف المعينات في صور سامرا الحائطية التي ترجع إلى سنة ٨٣٩م (لوحة رقم ٣٤)^(٤) بقدر ما تشبه زخارف الخزف ذو البريق المعدني بمصر أو سامرا في القرن التاسع الميلادي (لوحة رقم ٣٥)^(٥) ويمكن أن ترد هذه المعينات إلى أصولها البيزنطية حيث نراها واضحة على كثير من الأقمشة المسيحية البيزنطية التي ترجع إلى القرون من السادس الميلادي حتى الثامن الميلادي . والحق أن مصر حين فتحها العرب كان الفن القبطي مزدهراً بما فيه من تقاليد بيزنطية وفرعونية وأشورية وفارسية^(٦) ولكن الفنان في عصر الانتقال وخاصة في صناعة المنسوجات وزخرفتها بدأ في الاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور التي كانت في الفن القبطي وقوى ميله إلى الزخارف الهندسية^(٧) كما بدأت الكتابة تلعب دوراً هاماً

(١) زكى حسن ، فنون الاسلام ص ٤٣٦ وص ٤٣٧ ، Lamn : The Marby Rug. p. 66.

(٢) الدكتور جمال محرز : فضل مصر على صناعة السجاد بأسبانيا مجلة (المجلة) العدد ١١ (١٩٥٧) ص ٥٩ .

(٣) Lamn : op. cit. p. 60, 63, Pézard : La céramique Archaique de L'Islam et ses origines (Paris 1920) p. 37

(٤) وخاصة رقم ٥٥ لوحة ٩١١ ر ٩١٢ Herzfeld : Die Malereien von Samarra, Berlin, 1927

(٥) R. Koechlin : Les céramiques musulmanes de Suse au Musée du Louvre (Paris 1928) No. 137 pp. 90 L., pl. 20

وانظر أيضاً طبق من الخزف ذي البريق المعدني بمتحف الفن الاسلامي رقم سجل ٤٦٧٦ وانظر عن زخارف المعينات . عبد الرؤف على يوسف : طبق من الخزف بسم غبن مجلة آداب القاهرة ١٨ ج ١ مايو ١٩٥٨ ص ٩٨

(٦) زكى حسن : الفن الاسلامي في مصر ص ٨٢

(٧) المرجع السابق ص ٨٣

في صناعة المنسوجات وهذه العناصر الكتابية وتلك الزخارف الهندسية هما المنصران الرئيسيان في زخرفة قطع السجاجيد العباسية التي استعرضناها .

والخلاصة أن النتائج التي نصل إليها من هذا العرض تلتخص في الحقائق التالية :-

١ - أقدم السجاجيد المصرية ترجع إلى العصر الأموي وهي بداية هامة لتاريخ فن نسج السجاجيد الإسلامية .

٢ - خطوط السداة واللحمة في الغالب من الكتان ويندر أن تكون من القطن في هذه الفترة المبكرة ولكنه يوجد مغزولا على بعض القطع العباسية .

٣ - الزخارف المبكرة في العصرين الأموي والعباسي تنحصر في الطيور . أو المعينات الهندسية أو الحبيبات وهي زخارف ذات تأثيرات هيلنستية أو ساسانية .

٤ - هذه الزخارف الهندسية من الحبيبات والمعينات والخطوط تفسر لنا الأسلوب الزخرفي المبكر في تزيين السجاجيد وكيف أن هذا الأسلوب تطور فيما بعد إلى الأرابسك أو التوريقات التي ظهرت على سجاجيد مصر المملوكية في القرن ١٥ م .

٥ - إن معظم السجاجيد المبكرة لم يكن من النوع الكبير الحجم وقد تحكم في هذه الأحجام طريقة العقد على اللخمة على معظم القطع .

٦ - بعض السجاجيد ذات الكتابات تنسب إلى أشخاص تولوا أعمالهم في مصر وهي أعمال تتصل بالاشراف على دور الطراز أو مصانع السجاد .

THE EARLIEST ISLAMIC RUGS IN EGYPT

by

Dr. ABDEL RAHMAN FAHMY

Curator of the Museum of Islamic Art, Cairo

At the Museum of Islamic Art in Cairo, an opportunity arose for examining some pieces of pile rugs that had been woven in Egypt. Some of these rugs represent Kufic inscriptions while the others have only geometrical decorations.

It is a fact that these few pieces, excavated at Fustat (The old Islamic Capital in Egypt), are very rare and important from the historical and archaeological point of view, because they give us valuable assistance in knowing the earliest date of the art of carpet knotting in the Islamic world.

Although there are many successful researches supplying us with a great material about the evolution of the carpet weaving in Egypt during the Mamluk and Turkish periods, we notice that this art is not clear in the transition period (1-3 AH) so, we read in a recent work about the «Cairene Rugs» that : «We are not sure whether weaving with pile knots had been practiced in Egypt long before».

In this paper, my aim is to furnish new material regarding the earliest date of rugs with pile knots, but this is very difficult without giving a more detailed description for ornaments and technical style.

These mentioned pieces of the earliest Islamic rugs are eleven pieces, they will be discussed as following :

1—The Umayyad pieces.	2
11—The Abbasid pieces :	
A—Rugs with ornaments and inscriptions	7
B— « « « only.	2
	<hr/>
	11

The late Doctor Ali Ibrahim Pacha had published two Abbasid rug pieces attributed to the 9/10th Cents. A. D. He read the date woven on one of the two pieces but, here I shall give the correct date of the mentioned piece according to the analysis of the letters itself, and also I shall deal with the other inscriptions woven on the rest of the Abbasid rugs.

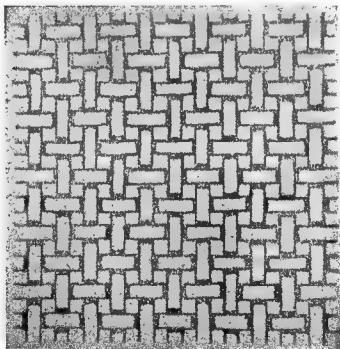
As for the 2 Umayyad pieces, one represents a Kufic inscription read «Misr» and the other is with the name of a Muslim «Kadi» (judge) during the Umayyad period in Egypt. According to the inscriptions we can discuss the earliest date of carpet knotting early in Egypt.

I hope that this article helps us in fixing the place of the earliest carpet knotting in the Islamic world.

(لوحة رقم ١)

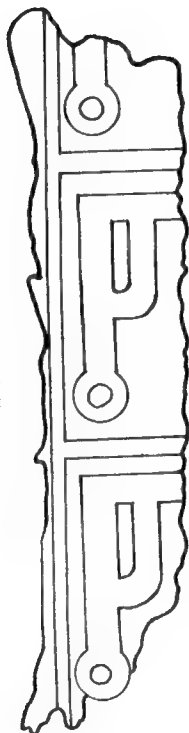


القطعة رقم (١) ويظهر عليها لفظ (مصر)
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٣٢٣٢)



رسم توضيحي للنسيج التحتى السادة فى القطعة رقم (١)

رسم توضيحي للكتابة على القطعة (رقم ١)

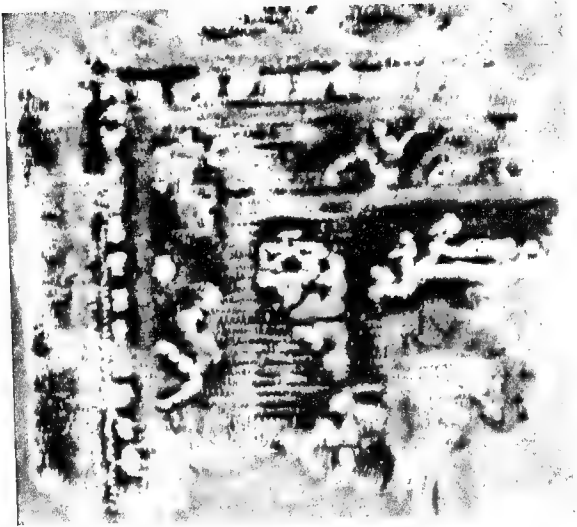


١ لوحة رقم ٣.



فلدس اموى ضرب مصر - الفسطاط
مجموعة متحف الفن الاسلامي سجل ٦٧٢٤/٣

(لوحة رقم ٤)



قطعة من السجاد في متحف المنسوجات بوشنجنطون
ويبدو عليها لفظ (مصر)

(عن كونز)

P1. XLV. ns. 73. 618

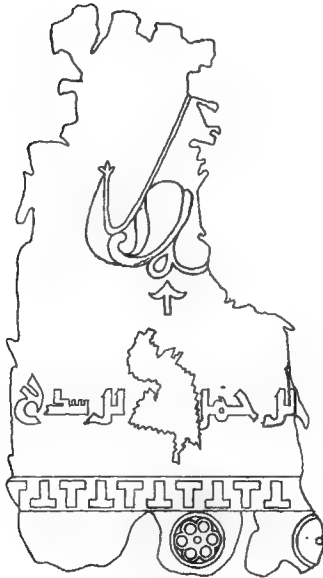
(لوحة رقم ٥)



القطعة (رقم ٢) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٤٦٨٠)

(لوحة رقم ٦)

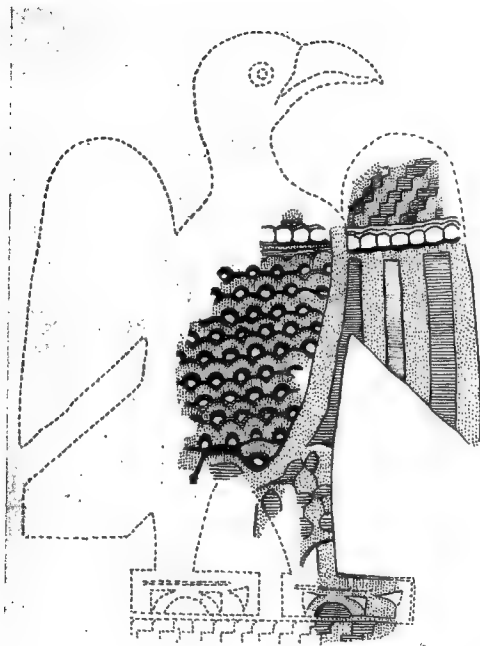
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب



١
سج (١٤٦٨٠)

رسم توضيحي للقطعة (رقم ٢)

(الوحة رقم ٧)



رسم توضيحي لطائر على قطعة من التماثيل المصرية في عصر الانتقال
(عن لام).



رسم لأحد الطيور التي تشكل العناصر الزخرفية
الرئيسية على قطعة من الأقمشة الأموية
مجموعات متحف الفن الاسلامي (رقم سجل ١٣١٨٨/٢)

(لوحة رقم ٩)



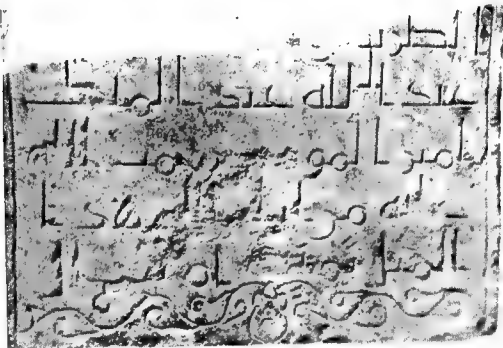
صنّج زجاجية للسكة من مصر الانتقال وتبدو الاخطاء اللغوية
في عباراتها

مجموعة متحف الفن الاسلامى ١ - رقم سجل ٦٩١٦/٤١

ب - رقم سجل ١٤٢٩٤/٨

ج - رقم سجل ١٤٢٩٤/١٦٥

د - رقم سجل ١٤٢٩٤/١٣٢



حجر طريق باسم عبد الملك بن مروان

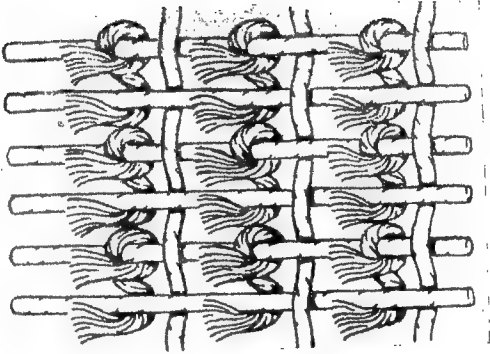
(من كرنوبل)

E. M. A. Vcl. I, P. 82 Fig. 23 .

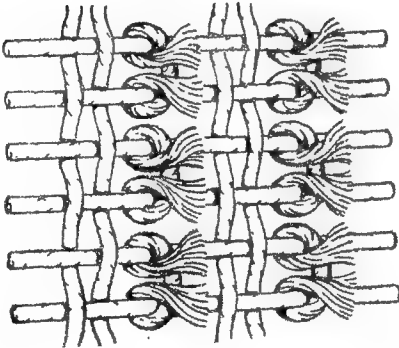
(لوحة رقم 11)

تصنيف الحروف	الحرف في الأصل		الحرف في الأصل		الحرف في الأصل
	١٥	١٦	١٧	١٨	
أ			ا	ا	أ
ب ب ت ث	ب	ب	ب	ب	ب
ج ح خ	ج	ج	ج	ج	ج
د ذ	د	د	د	د	د
ز	ز	ز	ز	ز	ز
س ش	س	س	س	س	س
ص ض	ص	ص	ص	ص	ص
ط ظ	ط	ط	ط	ط	ط
ع غ	ع	ع	ع	ع	ع
ف ق	ف	ف	ف	ف	ف
ك	ك	ك	ك	ك	ك
ل	ل	ل	ل	ل	ل
م	م	م	م	م	م
ن	ن	ن	ن	ن	ن
ه	ه	ه	ه	ه	ه
و	و	و	و	و	و
لا	لا	لا	لا	لا	لا
ي	ي	ي	ي	ي	ي

جدول مقارنة للكتابات على السجاجيد الأموية

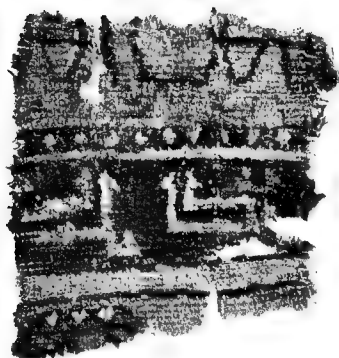


ب - العقدة الفارسية (سنا)

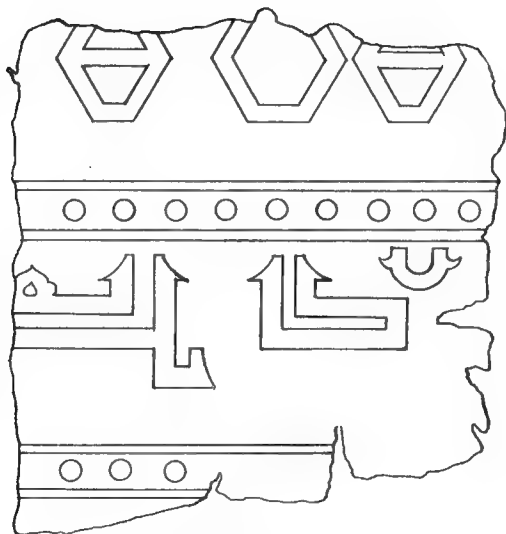


ا - العقدة التركية (جوردين)
Tattersall, p. 21 جن

(لوحة رقم ١٣)

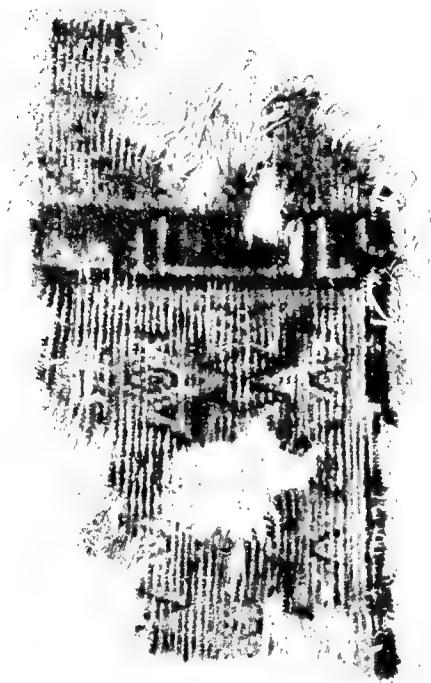


القطعة (رقم ٣) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٥٥١٨)

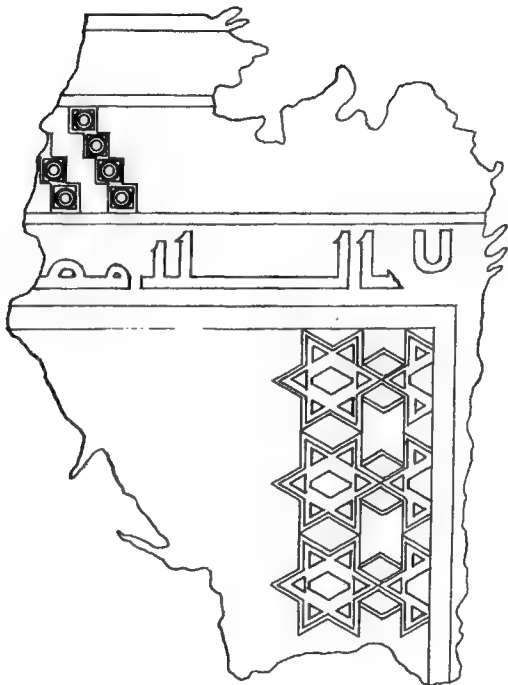


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٣)

(لوحة رقم ١٥)



القطعة (رقم {) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٥٤٧٧)

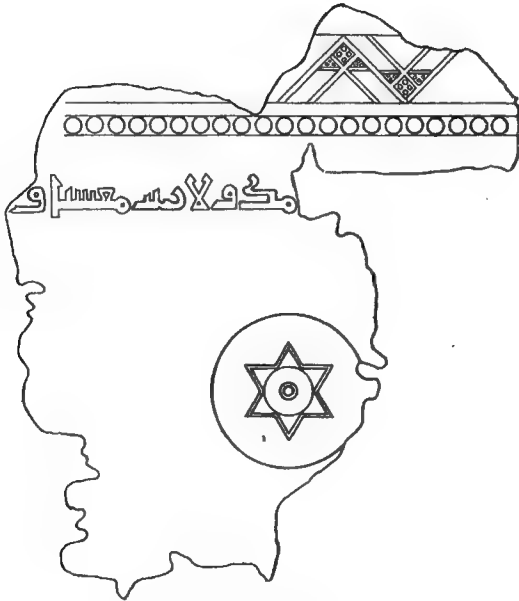


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٤)

(لوحة رقم ١٧)



القطعة (رقم ٥) وتبدو عليها كتابات كوفية تنشر لأول مرة
مجموعة متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٤٩٣٩)

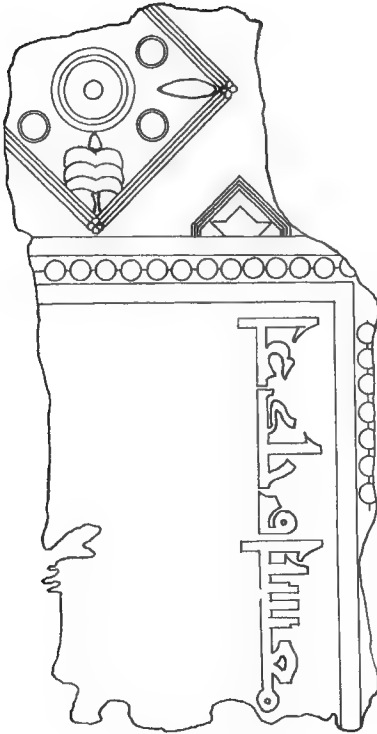


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٥)

(لوحة رقم ١٩)

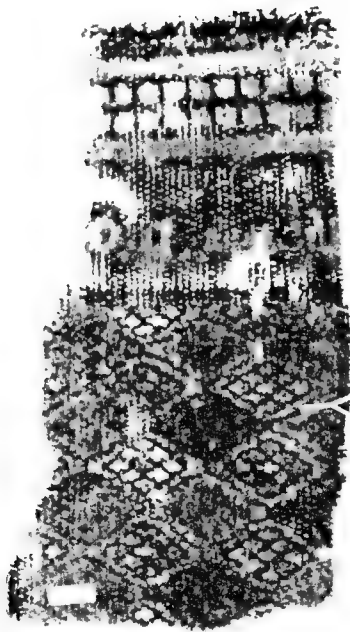


القطعة (رقم ٦) وعليها كتابة كوفية تكمل كتابة القطعة (رقم ٥)
مجموعات متحف الفن الاسلامي (رقم سجل ٩٥٣١)

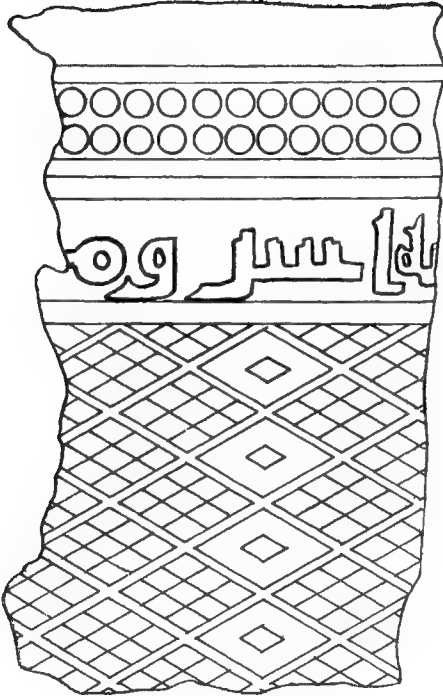


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٦)

(لوحة رقم ٢١)

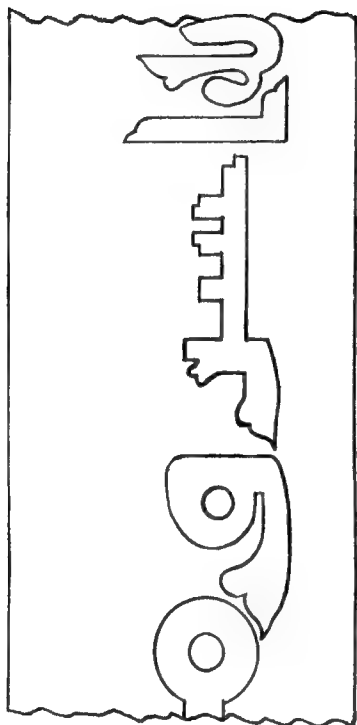


القطعة (رقم ٧) وهى مؤرخة ٢٠٢ هـ
مجموعات متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٢٧٦٨)



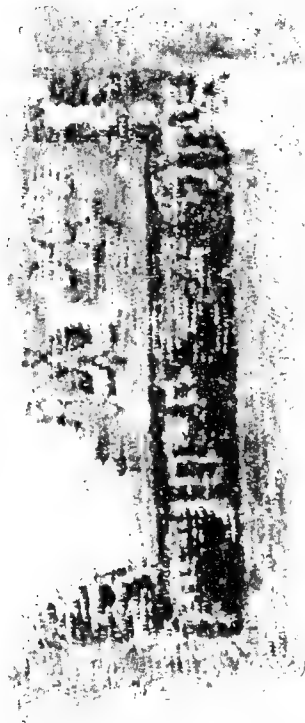
رسم توضيحي للقطعة (رقم ٧)

(لوحة رقم ٢٣)



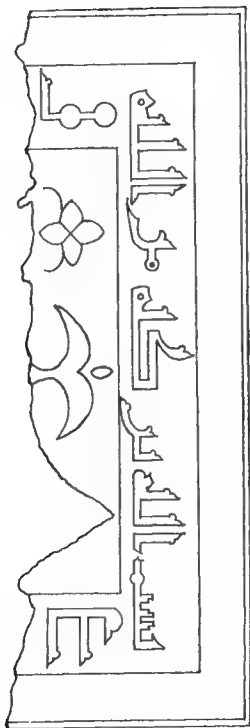
رسم توضيحي للتاريخ الوارد على القطعة (رقم ٧)

(لوحة رقم ٢٤)



القطعة (رقم ٨) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٤٩٤١)

(لوحة رقم ٢٥)

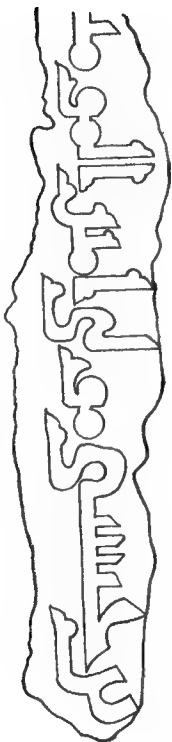


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٨)

(لوحة رقم ٢٦)

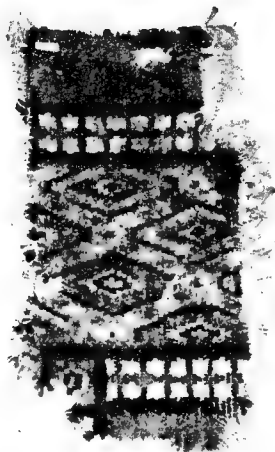


القطعة (رقم ٩) من مجموعات متحف الفن الإسلامي
(رقم سجل ١٤٩٤٠)

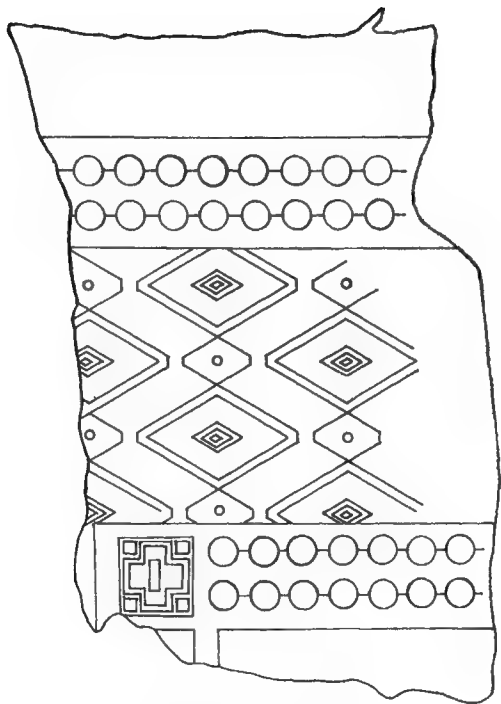


رسم توضيحي للقطعة (رقم ٩)

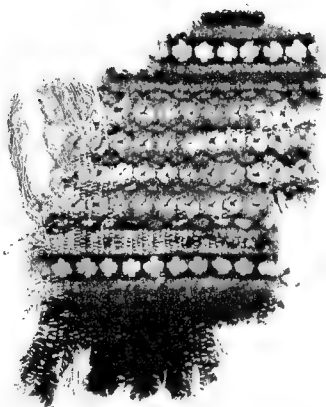
(لوحة رقم ٢٧)



القطعة (رقم ١٠) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٤٩٥٦/٦)

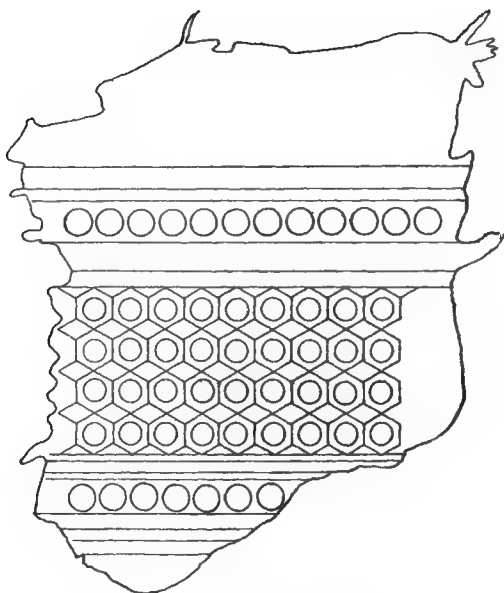


(لوحة رقم ٢٩)



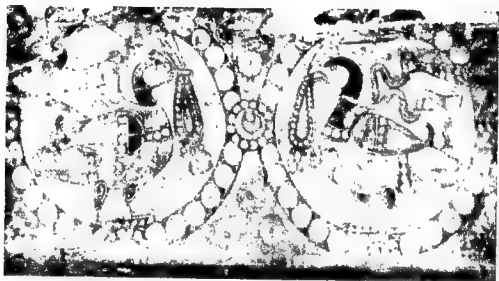
القطعة (رقم ١١) من مجموعات متحف الفن الاسلامي
(رقم سجل ١٣٢١٣)

(لوحة رقم ٢٠)



رسم توضيحي للقطعة (رقم ١١)

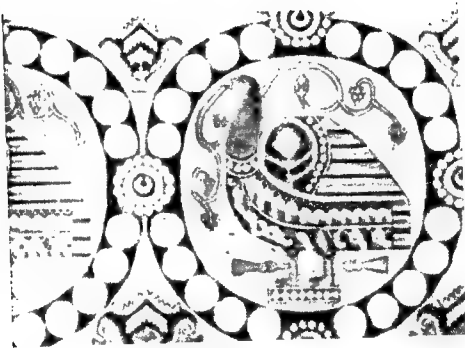
(لوحة رقم ٣١)



صورة مائة إيرانية بمتحف برلين وتبدو فيها زخرفة الحبيبات

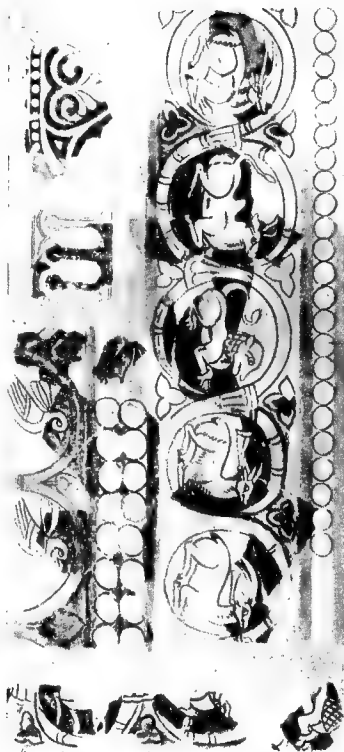
عن Otto V. Falke: *Decorative Silks*, no 67.

(لوحة رقم ٣٢)

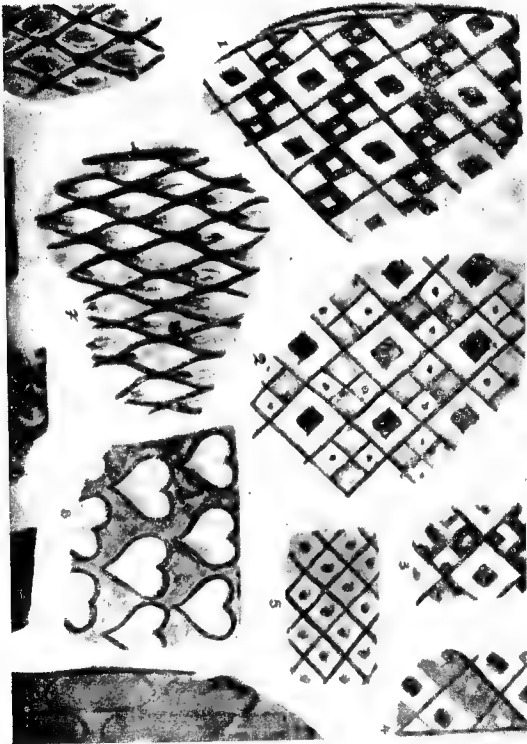


قطعة من النسيج الإيراني بمتحف الفاتيكان وتبدو فيها الحبيبات واضحة

عن Otto V. Falks : Decorative Silks, no. 66.

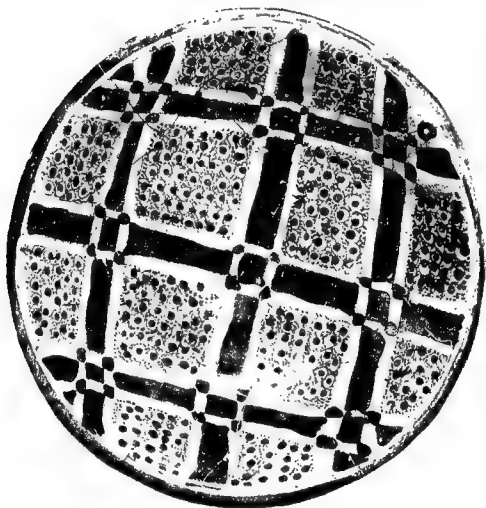


زخارف مائية تبدو فيها الحيات واضحة (من جوف الحريم بسامرا)
من مركز ذلك Pl. L



زخارف مائية هندسية معظمها من معينات بجوسق الحريم بامرا

Ernst Herzfeld Pl. XLII عن



صحن من الخزف العباسي ذي البريق المعدني مزين بزخارف
المعينات وانحبيبات
مجموعات متحف الفن الاسلامي (رقم سجل ٤١٧٦)

الحروف الكوفية على السجاجيد					الحروف الكوفية على السجاجيد					الحرف الكوفي
١٠٠٠	١٠٠١	١٠٠٢	١٠٠٣	١٠٠٤	١	٢	٣	٤	٥	
ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا
ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب
ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج
د	د	د	د	د	د	د	د	د	د	د
ر	ر	ر	ر	ر	ر	ر	ر	ر	ر	ر
س	س	س	س	س	س	س	س	س	س	س
ش	ش	ش	ش	ش	ش	ش	ش	ش	ش	ش
ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط
ع	ع	ع	ع	ع	ع	ع	ع	ع	ع	ع
ف	ف	ف	ف	ف	ف	ف	ف	ف	ف	ف
ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك
ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل
م	م	م	م	م	م	م	م	م	م	م
ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن
هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
و	و	و	و	و	و	و	و	و	و	و
ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز
ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح
ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط

جدول مقارنة الحروف الكوفية على السجاجيد العباسية

الإمكانات الاقتصادية للقارة الإفريقية

الدكتور فؤاد محمد الصقار

جامعة القاهرة بـ فرع الخرطوم

عناصر الانتاج الافريقى

تمهيد :

شهدت القارة الإفريقية فى السنوات القليلة الماضية تطورات سياسية على جانب كبير من الأهمية ، كما شهدت تطورات اقتصادية سريعة ، وتميزت بزيادة العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية — تلك العلاقات التى تهدف فى نهاية الأمر إلى إيجاد نوع من الوحدة الاقتصادية بين الدول الافريقية ، أو على الأقل إلى خلق مزيد من العلاقات الاقتصادية بينها . ولا شك أن هذه الاهداف الاقتصادية أتت نتيجة لزيادة التقارب السياسى بين الدول الافريقية فى السنوات الاخيرة — وخاصة بعد مؤتمر القمة الافريقى ، وإنشاء منظمة الوحدة الافريقية ، وما تبع ذلك من إنشاء بنك التنمية الأفريقى ، وإنشاء البنك العربى الأفريقى — وما إلى ذلك .

ويصح أن نشير هنا إلى أن هناك رغبة ملحة فى تحقيق نوع من الوحدة الاقتصادية بين الدول الافريقية تقوم على مبدأ التكامل الاقتصادى الافريقى . وليس المقصود بتحقيق هذا التكامل الاقتصادى عزل الدول الافريقية عن التيارات الاقتصادية العالمية ، بل خلق نوع من العلاقات الوثيقة بين الدول الافريقية عن طريق إيجاد نوع من التخطيط الاقتصادى السليم لكل دولة أفريقية . فى إطار التخطيط الاقتصادى العام للقارة الافريقية جميعها — بحيث يساهم انتاج كل دولة أفريقية فى تطوير اقتصاديات غيرها من الدول . وأن تكون القطاعات الانتاجية والخدمات فى كل دولة أفريقية متعاونة ومتكاملة مع اقتصاديات غيرها .

من الدول الافريقية — وأن تسير في ذلك على مبدأ الأخذ والعطاء — فلدى كل دولة أفريقية ما يمكن أن تعطيه لغيرها — وما يمكن أن تستفيد به من غيرها .

وإذا كان من الصعب وضع تخطيط اقتصادى متكامل — يكمل مبدأ التكامل الاقتصادى فى داخل الدولة الواحدة — فلا شك أنه من أكثر الأمور صعوبة وضع تخطيط اقتصادى لقارة ينقص الكثير من دولها ما يمكن الاعتماد عليه فى تقييم وتقدير مواردها الطبيعية القابلة للاستغلال ، كما ينقص معظم دولها الكثير من الأرقام والاحصاءات والتعدادات والبيانات الشاملة والدقيقة التى يمكن الاعتماد عليها ، واستخلاص الحقائق منها ، وهذه كلها أولى احتياجات وضع التخطيط الاقتصادية .

ولكن مهما يكن من أمر ، وأيا كانت هذه الصعوبات ، فهناك حقائق ثابتة بارزة تتعلق بالظروف الطبيعية والبشرية التى يمكن على ضوءها فهم النظم الاقتصادية والإنتاج الاقتصادى وإمكانيات التطور الاقتصادى ، كما يمكن على ضوءها فهم إمكانيات التكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية ، ومن ثم يمكن رسم خطط التنمية الاقتصادية ، والوحدة الاقتصادية المطلوبة .

البيئة الطبيعية :

لا يمكن البحث فى إمكانيات التطور الاقتصادى عامة ، أو رسم تخطيط اقتصادى بوجه خاص — دون معالجة العنصر الرئيسى من عناصر الإنتاج — وهو عنصر البيئة الطبيعية — الذى يؤثر تأثيراً كبيراً فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى افريقية . والواقع أن حياة الافريقين أكثر ارتباطاً بالبيئة الطبيعية من سكان حياة أية قارة أخرى . وينظر إلى العوامل الطبيعية على أنها تحدّد إمكانيات التطور الحضارى والاجتماعى والاقتصادى ، ولا تزال معلوماتنا عن البيئة الطبيعية الافريقية — وخاصة عن وسط افريقية — ينقصها الكثير من المعلومات . ولذلك فإمكانياتها الطبيعية ومواردها الطبيعية لا يمكن تقديرها بدقة ، وبالتالى لا يمكن التأكد من إمكانياتها الاقتصادية .

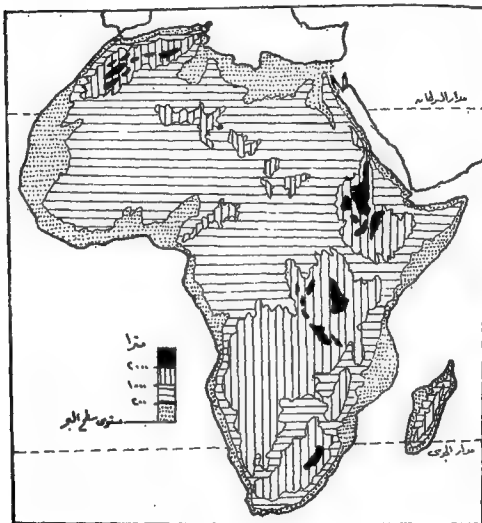
وتبلغ مساحة القارة الافريقية حوالى ١١٧٧ مليون ميل مربع — أو حوالى ٢٢٪ من مساحة اليابس ، ولا يفوقها فى المساحة سوى القارة الآسيوية . ويخترق خط الاستواء القارة الافريقية من منتصفها ، ويقسمها إلى قسمين يمتدان إلى مسافة متساوية تقريبا — تبلغ حوالى ٢٥٨٠ ميلا فى كلا الجانبين . وفى مثل هذه المساحة الضخمة توجد أنواع متعددة من العناصر البشرية ، وتمثل أنماط متباينة من المناخ ، وتتوفر أنواع متنوعة من الموارد الطبيعية ، وأشكال مختلفة من التنظيم الفنى والاقتصادى والاجتماعى .

وتبلغ مساحة المناطق الافريقية الواقعة بين المدارين — أى الاقاليم المدارية — حوالى ٩ مليون ميل مربع — أو أكثر من $\frac{1}{3}$ مساحة القارة . ولذلك يعتبر تطورها الاقتصادى مستقبل التطور الاقتصادى للقارة الافريقية ، وخاصة وأن كلا من المناطق الشمالية والجنوبية من القارة — الخارجة عن نطاق المدارين — قد تطورت اقتصاديا تطورا كبيرا — بالمقارنة إلى المناطق المدارية . وقد انفصلت هذه المناطق المدارية عن العالم الخارجى فترة طويلة من الوقت ، واستمرت المناطق الداخلية من افريقية غير معروفة للعالم الخارجى لمدة تزيد على ثلاثة قرون ، بعد أن أمكن تحديد سواحلها ، وكان ذلك راجعا إلى بعض الظروف الطبيعية القاسية مثل وجود سواحل صحراوية ، أو سواحل مقطوعة بالمستنقعات والغابات . هذا إلى جانب أن مناطق قليلة من الساحل تتوفر فيها المياه ، ومن ثم لم يكن هناك ما يفرى العناصر الأوربية على الاستقرار عليها ، وكان البحارة الأوربيون ينظرون إلى سكان هذه المناطق على أنهم قبائل متوحشة ، كما لم تكتشف فى ذلك الوقت من المعادن ما يفرى بالحجرة إليها . ولم تكن افريقية تفيد فى ذلك الوقت إلا كمصدر للرقيق إلى جانب أن الأمراض المدارية كانت تمنع العناصر الأوربية من المعيشة فيها . وتقل فى سواحل افريقية الممرات التى تسهل المرور نحو الداخل ، كما أن الموانئ الحميمة قليلة . وفى هذه المناطق تخفى الطرق والممرات ، وتوجد فقط المسالك التى يعبرها الانسان والحيوان من قرية إلى أخرى — بل أن الحالمين الإفريقيين كانوا يخافون من الابتعاد عن قراهم كثيرا بسبب النفوذ القبلى — كل ذلك جعل التوغل نحو الداخل صعبا (١) .

وتتكون القارة الأفريقية من الناحية الطبوغرافية (شكل ١) من هضبة متوسطة الارتفاع ، تنحدر نحو سهول ساحلية ضيقة — يبلغ متوسط اتساعها حوالي ٢٠ ميلا ، وتنحدر الهضبة الأفريقية نحو السواحل انحدارا شديدا في أغلب الأحيان ، وبشكل عكس أثر هذا الانحدار على طبيعة كثير من الأنهار الأفريقية المتجهة إلى السواحل الشرقية والغربية ، فتصبح سريعة الجريان ، تكتنفها الجنادل والشلالات ، كما أنها كثيرا ما تغير مجاريها عند فتحاتها — مما يجعل هناك فرصة لوجود مناطق كثيرة صالحة لتوليد الطاقة الكهربائية المائية الرخيصة ، ولكنها من ناحية أخرى سببت صعوبة في الملاحة ، وصعوبة في توغل السفن من البحر إلى الداخل ، وصعوبة في اجتياز حافات الهضبة ، كما أن سرعة جريان مياه الأنهار في مجاريها الدنيا يسبب حملها لكميات كبيرة من الرواسب ، تلتقي بها في مياه البحر فتقلل من فرصة نمو الموانئ الصالحة لرسو السفن بالقرب من فتحات الأنهار . وفي افريقية عامة — وعند حافات الهضبة بصورة خاصة — تصعب المواصلات ، وتزداد تكاليف إنشاء الطرق وبناء السكك الحديدية ، كما تزداد تكاليف تشغيلها .

ونظرة إلى خريطة القارة الأفريقية تظهر أنه قلما توجد خلجان عميقة تتداخل في كتلة اليابس ، فليس هناك ما يشبه خليج المكسيك أو خليج هدرسون ، كما أن للأنهار الأفريقية دلتاوات لا خلجان ما عدا نهر الكونغو . ومن ناحية الملاحة نجد أن الساحل الأفريقي غير ملائم ، فالألسنة الصخرية التي تحمي الموانئ لا وجود لها . وقد تستخدم جزيرة لحماية الميناء — كما هو حال زنجبار بالنسبة لميناء ممبسة ، وقد توجد خلجان محمية قليلة كما هو الحال في دربان ولورنسومار كيز . ويلائم الساحل الأفريقي من الناحية الطبيعية السفن الصغيرة . وعادة ماتقام كاسرات الأمواج لحماية الموانئ الواقعة على الساحل الرمل . وقد يسبب وجود الساحل الرمل كثيرا من المستنقعات التي تنمو فيها الغابات ، وقد تستخدم هذه المستنقعات كبراقع . بعد تعميقها كما هو الحال في لاجوس وبعض موانئ غرب افريقية . أما الموانئ الطبيعية فتتمثل في الكيب وبعض موانئ شمال غرب افريقية حيث تختلف البيئة الطبيعية عما هي عليه في باقي أنحاء افريقية ، واختفاء الموانئ الطبيعية سبب إنشاء موانئ صناعية ذات تكاليف كبيرة — كما هو الحال في غانه في حالة تاكوراى وسيكوندى وأكرا —

حيث تحمل البضائع على سفن صغيرة إلى البواخر التي ترسو بعيداً عن الساحل ،
ومثل ذلك يقال عن بعض موانئ افريقية الأخرى .



شكل ١ - تضاريس القارة الافريقية

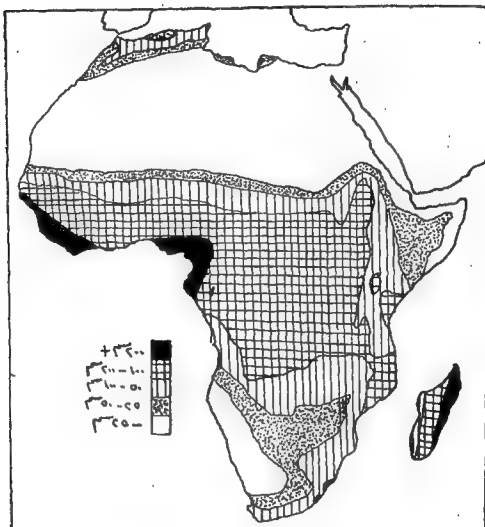
وفي القارة الافريقية يتنوع المناخ ، ويختلف من مكان لآخر : من مناطق
حارة رطبة كثيرة الامطار طول العام ، إلى مناطق حارة صيفية الامطار ،
إلى مناطق شبه جافة وصحراوية ، إلى مناطق معتدلة الحرارة شتوية الأمطار .
ومثل هذا التنوع المناخى من شأنه أن يوجد نوعاً من التنوع النباتى والحيوانى ،
ونوعاً من التنوع فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية — وهى أمور من شأنها أن

تزيد من امكانيات التبادل التجارى بين الدول الافريقية ، وأن توجد بينها نوعا من التكامل الاقتصادى .

ولكن المناخ من ناحية أخرى من أسباب عرقلة التطور الاقتصادى لكثير من الاقاليم الافريقية ، فحوالى ٤٠٪ من افريقية المدارية — أو حوالى ٣٠٪ من مساحة القارة — تتكون من مناطق صحراوية وشبه صحراوية ، أو مناطق حشائش فقيرة بسبب قلة الامطار أو ندرتها . كما أن حوالى ثلث مساحة القار مناطق سافانا — تسقط بها الامطار فى فصل الحرارة العظمى — حيث البحر على أشده — مما يقلل من أثرها الفعلى ، ويعمل إنتاجها الزراعى فى تذبذب كبير عاما بعد آخر . وهناك مناطق متسعة من الاقاليم المدارية — أمطارها غزيرة تزيد عن الحاجة (شكل ٧) مما سبب وجود المستنقعات التى يصعب صرف مياهها . وليست هذه المستنقعات قاصرة فى وجودها على الاقاليم الاستوائية — بل توجد كذلك فى خارجها ، وقد تسببها مياه الانهار كستنقعات بحر الجبل فى أعلى النيل ، ومستنقعات بنجويو فى زامبيا ، ومستنقعات أو كافانجو فى بنشوانالاند وغيرها . وكلها مناطق بالامكان تحويلها إلى أراض زراعية — لو أمكن صرف مياهها . وفى زامبيا وحدها توجد ست مستنقعات تبلغ مساحتها مجتمعة حوالى ٦٪ من مساحة البلاد ، ومن المحتمل أن تعاني حوالى ١٢٪ من مساحة أفريقية المدارية من زيادة الامطار عن الحاجة . أما المناطق المدارية التى يمكن القول أن مناخها مناسب ، ويمكن تحويلها إلى مناطق إنتاجية فى الظروف الفنية الحالية فتتراوح مساحتها بين ١٢٪ و ١٥٪ من مساحة أفريقية المدارية (أو ما يعادل ٩٪ و ١١٪ من مساحة القارة) (١).

ونظرا لأن الانسان لم يتمكن حتى الآن من السيطرة على المناخ ، فمن غير المعقول أن يقل أثر المناخ فى الانتاج الاقتصادى فى المستقبل القريب . غير أن هناك بعض المناطق شبه الجافة — أقيمت بها مشروعات الرى لتقليل أثر الجفاف — كما هو الحال فى بعض مناطق نيجيريا الشمالية ، ومشروع الجزيرة فى السودان — بل ومشاريع الرى فى مصر . كما أن هناك امكانيات للقيام بمزيد من مشروعات

الرى فى كثير من مناطق افريقية — وخاصة فى غينيا والسنغال وتشاد ، وعلى طول أنهار أورنج والزمبىزى والنيجر وغيرها .



شكل ٢ — متوسط المطر السنوى فى افريقية

ولاشك أن للمناخ تأثير كبير فى النقل — فحيث تغزر الامطار طول العام يصبح إنشاء الطرق والسكك الحديدية كثيرة التكاليف ، كما أن الامطار الغزيرة كثيرا ما تجرف الطرق وتضيق معالمها . أما فى مناطق الأمطار القصلية فالسيول كثيرا ما تسبب استحالة فى السير على الطرق ، كما يحتاج إنشاء الطرق والسكك الحديدية فى هذه المناطق إلى بناء الكبارى فوق مناطق الاخوار والسيول ، كما تحتاج إلى بناء سدود متعددة لمنع المياه من جرف الطرق ، وكلها تتطلب تكاليف

باهظة — قد لا يبررها الانتاج الاقتصادى الحالى . ولذلك تعتبر القارة الافريقية من افقر قارات العالم فى طرقها ومواصلاتها ، كما يعتبر النقل بين دولها أمرا صعبا — بل ومستحيلا فى كثير من الاحيان .

ويختلف الغطاء النباتى فى كثافته وطبيعته من منطقة لأخرى تبعا لاختلاف درجات الحرارة وكمية وفصلية الامطار . وطريقة الزراعة الافريقية لا تتحم إزالة هذه النباتات — مما يقلل من انتاجية الفدان . وفى بعض المناطق تزداد كثافة الاشجار إلى درجة يصعب معها قطعها لاحتلال الزراعة محلها ، كما يصعب الاستفادة بأخشابها — إما لرداءة نوع الأخشاب ، أو لصعوبة نقلها إلى حيث يراد استهلاكها .

وتعانى بعض مناطق الحشائش من الرعى الزائد عن الحد — وهو أمر يسبب زوال الحشائش ، ونمو الأعشاب غير المرغوب فيها — كما يحدث فى مرتفعات أورنج وترسفال فى جنوب افريقية ، وفى باسوتولاند وفى هضاب شرق افريقية ، كما تظهر خطورة هذا الموضوع فى روديسيا وانبجولا واثيوبيا والصومال ، وبعض مناطق غرب افريقية . ومن مظاهر الغطاء النباتى فى افريقية كثرة نمو الحشائش والأعشاب والنباتات غير المرغوب فيها ، والتي يصعب إزالتها إلا بكثير من النفقات — وخاصة وأن مثل هذه الأعشاب سريعة النمو ، مضرّة بالحيوانات . ولم تتمكن الدول الأفريقية من إزالة هذه الأعشاب إلا فى مناطق محدودة أهمها اتحاد جنوب افريقية .

وأخيرا ، فالخليفة الأفريقية ترتبط إلى حد كبير بالأقاليم المناخية والنباتية . فعلى طول حافات البحر المتوسط فى أقصى الشمال توجد زراعة مستقرة ، نشأت منذ عصور ما قبل التاريخ — باستخدام الماشية والمحراث — لانتاج الحبوب وخاصة القمح والشعير ، ولانتاج الفواكه مثل التين والعنب والمواخ ، إلى جانب الزيتون . وفى جنوب هذا الإقليم ، وعلى طول حدود الصحراء يوجد بدو رعاة يعيشون على تربية الأغنام والابل والماعز ، وفى هذا الإقليم تقتصر الزراعة على الواحات وعلى جوانب الأنهار . وإلى الجنوب من الصحراء توجد مناطق حشائش شبه جافة ، وهى منطقة تمتد فى معظم مناطق الإقليم السودانى ، وكلها مناطق

رعوية تعتمد على تربية الماشية والأغنام . وإلى الجنوب من ذلك تزداد الأمطار
 القليلة ، وتظهر الزراعة مرة أخرى . وأهم المزروعات هنا الذرة الرفيعة والقول
 السوداني ، والزراعة هنا بالفأس أو ما يشبهه (مثل السلوك في السودان)
 — أما المحراث فغير مستخدم إلا في مناطق قليلة ، وقد توجد مجتمعات رعوية في
 وسط هذه البيئات الزراعية . وفي جنوب ذلك تزداد الأمطار ، ويظهر ذباب نسي نسي
 الذي يجعل معيشة الحيوانات المستأنسة مستحيلا ، وتعتمد الحياة على اليام والمانيوك
 والموز وزيت النخيل والكافو وما إليها . وعندما نصل إلى نطاق الغابات الاستوائية
 تقل كثافة السكان وتتباعد قرأهم ، ويعتمد السكان على الجمع والالتقاط أو الصيد
 البري أو الزراعة المتنقلة . أما في اتحاد جنوب افريقية وعلى هضاب شرق افريقية
 فيكثر عدد المعتمدين على الرعى — رغم وجود الزراعة في كثير من أجزائها^(١) .

الموارد البشرية :

إذا انتقلنا من ظروف البيئة الطبيعية إلى موضوع الموارد البشرية — فهو
 العامل الثاني الهام من عوامل الانتاج — لوجدنا أن هناك فقرا شديدا في
 السكان في معظم أجزاء افريقية ، ولا يستثنى من ذلك سوى الجمهورية العربية
 المتحدة ، وإلى حد ما شمال غرب أفريقية وأجزاء من غرب افريقية . ومن الصعب
 تقدير عدد سكان افريقية تقديرا صحيحا لعدم إجراء تعدادات سليمة في
 كثير من دولها ، ولكن احصاءات هيئة الأمم على كل حال قدرت عدد سكان
 القارة في سنة ١٩٦٠ بحوالى ٢٨٠ مليون نسمة^(٢) — أو حوالى ٠.٩٪ من سكان
 العالم . ولا يعرف بدقة معدل الزيادة السنوية للسكان ، ولكن يمكن القول
 أن الزيادة الطبيعية السنوية (بين سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٩) كانت حوالى ٠.١٩٪
 في شمال افريقية ٠.١٩٪ في جنوب أفريقية و ٠.١٢٪ في وسطها الشرقي
 و ٠.٠٩٪ في وسطها الغربي . وقد وضع هذا التقدير عندما كان عدد سكان المناطق
 الشالية ٤٣ مليون نسمة ، وسكان المناطق الجنوبية ١٣٥ ، وسكان الوسط
 الشرقي ٦٩٤ مليون ، والوسط الغربي ٧٤٤ مليون نسمة . وقد أشار تقرير هيئة

L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 147 — 148. (١)

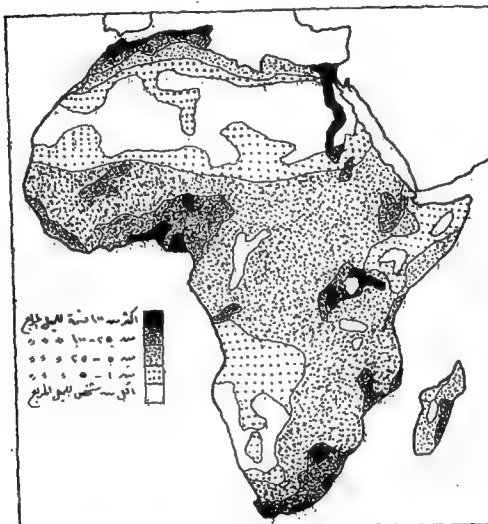
(٢) الامم المتحدة (سنة ١٩٦١) : دراسة الحالة الاقتصادية في افريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ٢

الأمم المتحدة (١٩٤٩ — ١٩٥٠) إلى أن معدل المواليد في افريقية يتراوح بين ٤٠ و ٤٥ في الألف ، ومعدل الوفيات بين ٢٥ و ٣٠ في الألف . وكان معدل المواليد وكذلك معدل الوفيات أكثر ارتفاعا قبل الحرب الثانية ، ولكن بعد الحرب انخفض معدل الوفيات بسبب التحسن النسبي في الرعاية الصحية وفي الخدمات الاجتماعية وفي تحسين سبل المواصلات وفي رفع مستوى المعيشة . ولكن المشكلة هي أن نسبة وفيات الأطفال (أقل من سنة واحدة) مرتفعة للغاية في بعض مناطق افريقية — إذ تتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ في الألف في بعض أجزاء شرق افريقية وغربها (١) .

ويعيش حوالى ٢١٪ من مجموع سكان افريقية في افريقية الشمالية و ٦٪ من السكان في اتحاد جنوب افريقية ، أما الباقي وهم حوالى ٧٣٪ من السكان فيعيشون في افريقية المدارية وفي الجزر المحيطة بالقارة . ويمثل السكان المنحدرون من أصل أفريقي حوالى ٩٧٪ من مجموع السكان . أما العناصر الأوربية فيعيش أغلبها في اتحاد جنوب افريقية وروديسيا الجنوبية والكنغو وأنجولا — بينما تتركز العناصر الآسيوية — وأغلبهم من الهنود والباكستانيين — في المناطق الشرقية والجنوبية من القارة الأفريقية .

والقارة الأفريقية — بالرغم من شدة كثافة السكان في بعض أجزائها — مازالت قليلة السكان في جملتها (شكل ٣) إذ تبلغ كثافة السكان في معظم أجزاء افريقية المدارية أقل من ٢٥ شخصا للميل المربع — وهي كثافة شديدة الانخفاض بالمقارنة إلى دول العالم الأخرى ، إذ تصل متوسط كثافة السكان في العالم حوالى ٤٦ شخصا للميل المربع ، وتعتبر إفريقيا أقل قارات العالم كثافة بسكانها — إذا أستثنينا قارتي استراليا وأمريكا الجنوبية . وفي داخل القارة الأفريقية تختلف كثافة السكان من منطقة لأخرى ، ففي مناطق الغابات الاستوائية في الكونغو ، وفي المناطق الصحراوية تصل كثافة السكان إلى أقل من ٥ أشخاص للميل المربع . أما في مناطق السافانا فتتراوح الكثافة بين ٥ و ٢٥ شخصا للميل المربع . وفي بعض مناطق غرب افريقية وأجزاء من جنوب افريقية ومناطق محدودة من شرق افريقية تتراوح كثافة السكان بين ٦٥ و ١٢٥ شخصا للميل المربع ، وتزداد كثافة السكان

في نيجيريا الشرقية حتى تصل إلى ٢٦٥ شخصاً للبرج ، وفي وادي النيل
في مصر تصل إلى ١٢٠٠ شخصاً للبرج (١) .



شكل ٣ - كثافة السكان في افريقية

ونسبة السكان إلى الأراضي القابلة للاستغلال قليلة في معظم أنحاء إفريقية
— وخاصة في إفريقية المدارية والجنوبية — ما عدا في المناطق الكثيفة السكان
والتي أشرنا إلى بعضها . وكان من نتيجة نقص السكان اشتداد الطلب على الأيدي
العاملة — وخاصة في مناطق التعدين والصناعة ، ومناطق المزارع الواسعة —

John Phillips, Ibid., pp. 294 — 295. Lord Hailey, An African Survey, Revised (1)
1956, pp. 115 — 144.

بما أدى إلى ارتفاع أجور العمال ارتفاعا لا يتناسب مع انتاجيتهم الشديدة الانخفاض . كل ذلك سبب زيادة في تكاليف اليد العاملة ، وفشل مشاريع اقتصادية كثيرة كان مقدرا لها النجاح من ناحية الظروف الطبيعية — كشروع القول السوداني في شرق إفريقيا .

وقد أدى نقص العمال أيضا إلى قيام شركة الهند الشرقية الهولندية منذ القرن السابع عشر بجلب العمال من الهند والشرق الاقصى ، واستمر استيراد العمال بعد ذلك . كما جلب الزراع الهنود إلى مزارع قصب السكر في ناتال كما جلب الصينيون إلى مناجم الذهب في ترنسفال ، وجلب العمال من الهند والصين وكوبا لإنشاء السكك الحديدية في الكونغو . ولم يكن ذلك ناتجا عن نقص العمال فحسب — بل عن عدم خبرتهم وعدم تعودهم على العمل نظير الأجر كذلك . أما في الوقت الحاضر فالأمر مختلف — إذ يرغب كثير من الأفريقيين في الحصول على المنتجات الاستهلاكية الصناعية ، ورغبة في دفع الضرائب المفروضة عليهم نجدهم في حاجة إلى كسب أجور نقدية . وقد حدث في إفريقيا — كما حدث في غيرها من المناطق — هجرة من الريف إلى المدن ، مما أوجد نقصا شديدا في الأيدي العاملة في المناطق الزراعية ، وبطالة شديدة في المدن — التي انخفضت فيها لهذا السبب أجور العمال إنخفاضا كبيرا . وينطبق هذا المثال على غانا وكنيا وغيرها .

وهناك موضوع آخر يؤثر في طبيعة الموارد البشرية وفي كفاءتها ، وفي إمكانية الاعتماد عليها — وهو سيادة الروح القبلية التي تسبب الاحساس بالعزلة عن الجماعات الأخرى ، والتعصب القبلي بدلا من التعاون مع المشاريع الجديدة ومع القبائل الأخرى . وقد سببت هذه الروح القبلية بطء نمو المهارة العالية — بسبب عدم حاجة القبيلة إلى مثل هذه المهارات . وفي مثل هذه المجتمعات يعتمد الفرد في معيشته على القبيلة متبعا نظمها وتقاليدها — رافضا كل تطور يخالف التقاليد القبلية . وفي مثل هذه المجتمعات كذلك لا يمكن تركيز المسؤولية ، كما لا يمكن الاعتناء بالتربة أو بالمرعى أو بالثروة الحيوانية . ولكن في السنوات الأخيرة على كل حال تسربت الأفكار الجديدة إلى الحياة القبلية — كنتيجة لزيادة هجرة العمال إلى المدن وإلى مناطق التعدين والصناعة تحت ضغط الظروف الاقتصادية ،

وعودتهم مرة أخرى إلى مواطنهم الأصلية — حاملين معهم أفكارا اقتصادية وسياسية وقومية جديدة قلّت من أهمية القبيلة في بعض المناطق^(١).

والواقع أن أجزاء إفريقية المختلفة تختلف فيما بينها من ناحية التيارات البشرية التي تأثرت بها — فشمال غرب إفريقية جزء من حوض البحر المتوسط — ينفصل عن باقي أجزاء إفريقية بالصحراء الكبرى . أما مصر ووادي النيل فقد ارتبطا في تاريخهما وتطورهما بالبشرى بكل من المناطق الآسيوية ومناطق حوض البحر المتوسط من جهة ، وداخل القارة من جهة أخرى — فكانت عامل الوصل والاحتكاك الحضارى . أما السواحل الشرقية من القارة فكانت جزءا من حوض المحيط الهندى ، تأثر سكانها بسكان جنوب آسيا وجنوبها الغربى ، فوصلها الكثير من الهنود والعرب — الذين تمكنوا من نشر الدين الاسلامى في بعض المناطق الساحلية ، كما تمكنوا من التأثير الثقافى الكبير الذى لا يزال ظاهرا في اللغة السواحيلية . أما سواحل غرب إفريقية وجنوبها فكانت مرتعا خصبا لتجار الرقيق ، ونقط الوثوب للاستعمار الأوروبى . وكانت جميع هذه المناطق على كل حال منفصلة تماما عن المناطق الداخلية ، وعن المناطق الساحلية الاخرى — فاختلقت وجهات نظر السكان ، واختلقت أمزجتهم وطباعهم وتطورهم الحضارى . ثم أن الحدود السياسية الإفريقية — التى خططها الاستعمار ورسمها — قد أوجدت في داخلها مجموعات بشرية متنافرة وغير متجانسة في بعض الأحيان ، كما فصلت بين أجزاء القبيلة الواحدة في أكثر الأحيان . والحدود السياسية لغرب إفريقية بوجه خاص أكبر دليل على ذلك . ولا شك أن الرغبة في الوحدة السياسية لدى كثير من الدول الإفريقية لدليل على رغبة مثل هذه الدول في إزالة هذه المتناقضات البشرية ، أو على الأقل التقليل من تأثيراتها ونتائجها السيئة — بالنسبة للقارة بوجه عام ، ولهذا الدول بوجه خاص .

John Phillips, Ibid., p. 297. (1)

ملاحج الانتاج الإفريقى

الانتاج الغابى :

ينعكس أثر كل من المناخ والتربة فى الغطاء النباتى . وتشغل الغابات حوالى ١٨٪ من مساحة القارة الإفريقية — أى أكثر قليلاً من ٦ مليون ميل مربع . وتشغل الغابات الاستوائية حوالى ٨٧٥ ألف ميل مربع — أو حوالى ٧٨٪ من مساحة القارة — بينما تشغل الغابات الجافة حوالى ٨٨٥ ألف ميل مربع أو حوالى ٧٩٪ من المساحة . أما غابات البحر المتوسط فلا تشغل سوى ١٢٪ من مساحة القارة ، أو ما يعادل ١٢٨ ألف ميل مربع . أما الباقي — وهو ما يعادل ١٦٪ من مساحة القارة فيشمل غابات من أنواع أخرى متعددة^(١) . وبالرغم من ذلك فإن مساهمة الانتاج الغابى فى الاقتصاد الإفريقى قليل — وذلك لأن ٩٥٪ على الأقل من المناطق الغابية الإفريقية صعبة لا يمكن استغلالها .

وتتألف كل الغابات الإفريقية تقريباً من أنواع من الأخشاب الصلبة ذات القيمة الاقتصادية القليلة . أضف إلى ذلك افتقار القارة إلى كثير من وسائل قطع الأخشاب ونقلها من مناطقها البعيدة عن السواحل إلى حيث يمكن تصديرها أو يراد استهلاكها . وقد بلغ متوسط انتاج الأخشاب (سنة ١٩٥٧) حوالى ١٠٠ مليون متراً مكعباً — انتجت المناطق المدارية منها حوالى ٩٨ مليون متراً مكعباً — أو ما لا يزيد عن ٠.٦٪ من الانتاج العالمى . وقد انتجت كل من روديسيا الجنوبية وزامبيا ودول ساحل خليج غانا حوالى ٠.٤٣٪ من هذه الكمية . ويستخدم حوالى ٩٠٪ من هذه الأخشاب الصلبة فى الوقود — بينما يدخل جزء من الباقي فى الصناعات البدائية الخشبية المنتشرة فى كثير من المناطق الريفية^(٢) .

(١) L. Dudley Stamp, op. cit., p. 115.

(٢) G. H. T. Kimble, Tropical Africa, Vol. I, (Abridged Edition) p. 190. وانظر :

أيضاً تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ١٧

وأزالة هذه الغابات لاحتلال الزراعة محلها أمر بالغ الصعوبة بسبب كثافة الغابات الشديدة — التي تتطلب المزيد من الجهد والوقت ، ثم أن استخدام الأيدي العاملة في إزالة هذه الغابات عملية كثيرة التكاليف . وقد قدرت تكاليف تطهير القدان الواحد من الغابات في غرب إفريقيا بما يتراوح بين ٥٠ و ١٢٥ جنيتها . أما استخدام الآلات والاساليب العملية في قطع الأشجار فقد يكون أكثر تكاليفا وصعوبة بسبب حاجة هذه العملية إلى رأس مال ضخمة ، وإلى تقنيات إصلاح وصيانة واستهلاك الآلات ، كما أن استخدام الآلات في إزالة الغابات عملية تفسد التربة لأنها تغير من طبيعتها ، وتعرضها للتعرية والإزالة (١) .

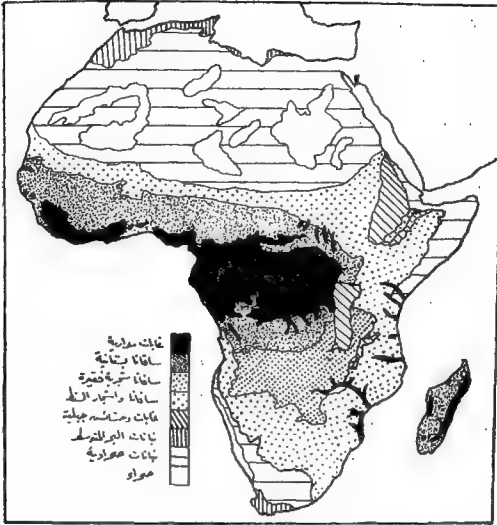
الانتاج الرعوى :

يلعب الرعى دورا كبيرا في حياة كثير من المناطق الإفريقية . إذ تعتبر المنتجات الحيوانية من العناصر الانتاجية الهامة التي يمكن التوسع فيها ، والتي يمكن تبادلها في داخل القارة وفي خارجها على نطاق واسع ، وجزء كبير من القارة الإفريقية صالح للرعى ، وتقدر مساحة المناطق التي تغطي بالحشائش في إفريقيا بحوالى ٤٧ مليون ميل مربع — أو حوالى ٤٢٪ من مساحة القارة . وتشغل الحشائش العالية والسافانا الشجرية حوالى ١٣ مليون ميل مربع — أو حوالى ١١٪ من مساحة القارة — بينما تغطي السافانا المتوسطة وأشجار السنط حوالى ١٨ مليون ميل مربع — أو حوالى ١٥٪ من مساحة القارة . أما السافانا الفقيرة والسنط في المناطق شبه الصحراوية فتشغل حوالى مليون ميل مربع — أو حوالى ٩٪ من المساحة . وتغطي الحشائش والمراعى الجبلية ٣٩٣ ألف ميل مربع — أو حوالى ٣٪ من مساحة القارة . أما الباقي فيمثل حشائش من أنواع مختلفة . ولا يدخل في هذا الإحصاء مساحة الحشائش والأعشاب الصحراوية الفقيرة التي تغطي حوالى ٣٠٪ من مساحة القارة (٢) (شكل ٤) .

غير أن كثيرا من هذه المناطق العشبية لا يستفاد منها على الوجه الأكمل . إذ أن هناك مساحات متسعة صالحة لزراعة مزيد من الحيوانات المستأنسة — فباعتبار المناطق

John Phillips, op. cit., p. 58. (١)

L. Dudley Stamp, op. cit., p. 115 (٢)



شكل ٤ - النباتات الطبيعية في افريقية

التي يجذبها ذباب تسي تسي، أو التي لا يتوفر فيها الماء . وتوجد المناطق الموبوءة
بذباب تسي تسي في المناطق الاستوائية المنخفضة — وخاصة على طول المجارى
المائية، وفي الجهات الظليلة من المناطق المدارية الرطبة . أما المناطق التي تعاني من
مشكلة نقص الماء فتوجد في كثير من أقاليم السافانا الفقيرة والأقاليم شبه الصحراوية .
ثم أن بعض أنواع الحشائش الإفريقية لها حساسية شديدة بسبب الرعى الزائد
عن الحد، وبسبب زوال الحشائش الغنية لتحل محلها حشائش أقل في النوع
والكثافة . وعندما يساء استخدام مناطق الحشائش المفتوحة — كما هو حال
مرتفعات أورنج وباسوتولاند وترنسفال وجبال وهضاب شرق أفريقية —

تقل قيمة الحشائش ، وتنمو الأعشاب غير المرغوب فيها ، وتظهر هذه المشكلة في مناطق السافانا الشجرية . ونظرا لزيادة الرعى فإن حرق الأعشاب في الفصل الجاف تتأخر عن مواعيدها ، وهذا يدعو إلى نمو الأعشاب بدون أى ضابط . وتظهر خطورة بعض الأعشاب بسبب زيادة الرعى في كثير من أجزاء جنوب إفريقيا وروديسيا وأنجولا وشرق وغرب إفريقيا وأثيوبيا والصومال . وتظهر في هذه المناطق مئات الملايين من الأقدنة التي تنمو فيها الأعشاب عديمة الفائدة للإنسان والحيوان . وأعشاب هذه المناطق تنمو بسرعة مما يسبب مشاكل كثيرة . ومن أوضح الأمثلة على حساسية الحشائش الإفريقية ما يظهر في الكارو في جنوب إفريقيا فقد كانت الأغنام والماعز ترعى الحشائش الغنية ، ولكنها حولت هذه المنطقة في الوقت الحاضر إلى أعشاب فقيرة أو مناطق عارية .

وفي إفريقيا — على أى حال — أعداد كبيرة من الماشية يبلغ عددها ٢٥ مليون رأس ، وتبلغ نسبتها ١٢٪ من أعداد الماشية في العالم (بالعالم حوالى ٨٠٠ مليون رأس) . ويتركز أكثر من ٦٠٪ من عدد رؤوس الماشية الإفريقية في خمس دول هي بالترتيب التنازلى أثيوبيا واتحاد جنوب افريقية ونيجيريا وتنجانيقا والسودان . ويمكن لهذه الدول مد المناطق الاخرى القليلة في ثروتها الحيوانية بحاجتها — بالرغم من أن نوع الماشية غير جيد ، ووزنه أقل من نصف وزن نظيره في هولندا ، وإنتاجه من الألبان منخفض للغاية ، ومثل ذلك يقال عن الأغنام — إذ تمتلك افريقية حوالى ١٥٪ من أغنام العالم — أو حوالى ١٢٥ مليون رأس . ويتركز ٦٢٪ من أغنام افريقية في أربع دول هي اتحاد جنوب إفريقيا وأثيوبيا ونيجيريا والسودان . كما يصل أعداد الماعز إلى أكثر من ٨١ مليون رأس — أو حوالى ٣٠٪ من رؤوس الماعز في العالم . ويتركز ٧٥٪ من ماعز إفريقيا في نيجيريا وأثيوبيا واتحاد جنوب افريقية والسودان وتنجانيقا وأوغندة (١) . ويمكن القول أن نصيب الفرد من رؤوس الحيوانات في إفريقيا أعلى من نصيب الفرد منها في أية قارة أخرى .

أما إنتاج المنتجات الحيوانية فتدل البيانات المتوفرة على أن إنتاج هذه المنتجات الحيوانية في البلدان الإفريقية — ماعدا في اتحاد جنوب إفريقيا — منخفض سواء

John Phillips, op. cit., p. 309. (١)

بالنسبة إلى عدد الحيوانات أو إلى مساحة المراعى . وربما كان إنتاج إفريقية من هذه المنتجات أقل من معظم أرجاء العالم . والواقع أن معظم المجتمعات الإفريقية تحتفظ بالماشية بوصفها ثروة ذات قيمة ، ودليلا على المكانة الاجتماعية أكثر منها لأغراض التحويل . بحيث أن الاعتبار الأول في هذا الشأن هو عدد الرؤوس التي يمتلكها الإنسان ، وليس الإنتاج الممكن لها (١) .

ويمكن أن يزداد نصيب الإنتاج الحيوانى من الدخل القومى إلى إضعاف نصيبه في الوقت الحاضر — لوعنى بهذا المصدر الهام من مصادر الدخل القومى . ويعتبر اتحاد جنوب إفريقية الدولة الإفريقية الهامة التى تربي الماشية على نطاق واسع للأغراض التجارية . ولذلك فالقيمة الاجمالية لمنتجات الماشية بها تمثل حوالى نصف القيمة الاجمالية للإنتاج الزراعى .

وتستهلك معظم المنتجات الحيوانية في داخل القارة الإفريقية محليا . وتؤلف معظم صادرات الحيوانات إلى خارج القارة من الجلود والصوف . أما الماشية الحية فتجارها في الغالب مع الدول الإفريقية الأخرى . وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة أهم سوق لاستهلاك اللحوم الإفريقية ، كما تعتبر أنيوليا والسودان والصومال من أهم الدول الإفريقية المصدرة لها .

الإنتاج الزراعى :

يعتمد حوالى ٧٣٪ في المتوسط من سكان إفريقية على الزراعة ، وتختلف هذه النسبة من مكان إلى آخر ، ولكنها لا تقل عن ٦٥٪ بأى حال من الأحوال في أغلب الدول الإفريقية . ومادام العدد الأكبر من سكان إفريقية يعتمد على الزراعة لتحسين الإنتاج الزراعى من أهم الضرورات ، وتوسيع رقعة الأرض المزروعة وزيادة نصيب الزراعة من الدخل القومى من أُلزم الأمور للتطور الاقتصادى — بل ولتحقيق التكامل الاقتصادى مع الدول الإفريقية الأخرى ، وزيادة الإنتاج الزراعى الغذائى — بصورة خاصة — أمر ملح وذلك بسبب فقر الغذاء الإفريقى ، وبسبب الزيادة المستمرة في عدد السكان ، كما أنه من المنتظر أن يزداد الطلب على المنتجات الغذائية عندما يرتفع مستوى المعيشة (٢) .

(١) انظر تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ١٣ :

(٢) Peter Ady, "Africa's Economic Potentialities," in C. G. Haines, Africa Today, pp. 400 — 401.

وما دامت الزراعة هي الأساس الاقتصادي لجميع الدول الإفريقية تقريبا - كان للزراعة أهمية كبيرة في الدخل القوي وفي مستوى المعيشة ، كما أن نظام تملك الأرض الزراعية في بعض الدول الإفريقية - وخاصة تملك عدد قليل من الملاك - الوطنيين منهم والمستوطنين الأجانب - لمعظم الأراضي الزراعية من شأنه أن يعوق النمو ويعرقل التطور الاقتصادي^(١) .

وتمارس الزراعة المتنقلة في كثير من مناطق إفريقية المدارية ، ويمكن وصف هذه الزراعة بأنها زراعة قطعة أرض لبعض سنوات ، ثم تركها بورا لعدة سنوات أخرى . وفي هذه المناطق نجد أن لكل قرية أو حلة أرضها الزراعية المحيطة بها - التي قد تكون متناهية في الضيق والصغر - ما عدا في المناطق التي يزداد فيها عدد السكان . ويقوم الزارع عادة بتنظيف الأرض وقطع وحرق الأعشاب والحشائش ، ثم زراعة المحاصيل التي تنفق مع مناخ وتربة المنطقة - مستخدمين في ذلك أبسط الآلات الزراعية (أهمها القاس) . وتستخدم نفس قطعة الأرض سنتين أو ثلاثة - ثم تترك وتستخدم قطعة أخرى من الأرض . أما الأرض التي تركت بورا فسرعان ما تنضج بالأعشاب والحشائش . وقد تترك الأرض بورا لمدة تصل إلى ١٥ سنة لتستريح . وإزالة الأعشاب عادة من عمل الرجال ، بينما الزراعة الإفريقية في بعض مناطق إفريقية المدارية من عمل النساء ، وخاصة إذا كانت الأراضي الزراعية غير بعيدة من مناطق السكنى .

وتسود هذه الزراعة المتنقلة في إفريقية الغربية والكنغو وبعض مناطق إثيوبيا والسودان والصومال وأوغندا ، وإن كانت هناك مزارع أخرى - يمتلكها الوطنيون والأجانب - لا تدار بهذه الطريقة في نفس هذه الدول . وتحمل الزراعة غير المتنقلة مركزاً بارزاً في الاقتصاد الزراعي لكينيا وروديسيا الجنوبية - حيث يعمل معظم المستوطنين بالزراعة . أما في اتحاد جنوب إفريقية فيوجد النوعان من الزراعة : الزراعة الأوربية الحديثة من جهة وزراعة البانتو في المعازل الأفريقية من جهة أخرى . ويمارس الأفريقيون المنتجون لحسابهم في المزارع

(١) لمزيد من التفاصيل عن توزيع الملكية الزراعية بين الإفريقيين والأجانب في افريقية انظر : مؤيد محمد الصلار : الثروة المنصرمة في افريقية - القاهرة سنة ١٩٦٢

الأوربية نوعاً وسطاً من الزراعة - مستخدمين في ذلك القليل من الآلات ومن الأساليب العلمية . هذا إلى جانب الزراعة الكثيفة التي تمارس في بعض جهات إفريقية - وعلى الأخص في الجمهورية العربية المتحدة^(١) .

وقد وصفت طريقة الزراعة الإفريقية - وخاصة الزراعة المتنقلة - بأنها زراعة مضیعة للموارد الطبيعية وللأرض وللعمل ، غير أنه لا يمكن أن ننكر أن لها بعض المزايا ، فترك بعض الأعشاب في الأرض أو حولها يمنع عنها تأثير الأمطار وبقايا عمليات التعرية ، كما أن حرق الأعشاب قد يضيف إلى التربة نوعاً من الخصوبة ، ثم أن ترك التربة بوراً عدداً من السنين يجعلها تستعيد خصوبتها ، هذا إلى جانب أن استخدام الفأس لا يعرض التربة للتعرية ، كما يحدث عادة عند استخدام الآلات الأخرى - وخاصة المحراث .

وتعتبر المزرعة في غرب إفريقية مثلاً قطعة من الأرض يسيطر عليها فرد - أو أفراد - يزرعها أو يزرعونها فعلاً ، وطريقة الزراعة المتنقلة تجعل مساحة المزرعة - أو حتى مساحة الأرض الزراعية - تختلف من سنة إلى أخرى . ولكن يمكن القول المزارع في غرب إفريقية مزارع صغيرة ، لا تساعد على استخدام الآلات أو تنسيق العمليات الزراعية .

وتختلف المزارع عن بعضها حسب درجة سيطرة الجماعة على الأرض بمقتضى سلطة المشايخ ورؤساء القبائل التقليدية . وكان للإدعاءات الخاصة بالعائلات ما يجعل ممتلكات الأسرة مقسمة إلى قطع صغيرة . كما أن هناك خلافات قد تنشأ حول حقوق ملكية الأرض ، وحول حقوق استخدام الأرض في الزراعة - خصوصاً في حالة الزراعات الدائمة كالكاكاو ونخيل الزيت . فقد يمتلك فرد أو جماعة الأرض ، ولكن صاحب الأرض لا يمتلك ما عليها من أشجار - لأنها تخص شخصاً آخر - وهو أمر يسبب نقصاً في القدرة على التطوير الزراعي^(٢) .

والزراعة الإفريقية - على أي حال - تفي بحاجة السكان - إذا توفرت الأرض الكافية . وقد قدر ددلي ستامب متوسط حجم الأسرة في جنوب نيجيريا مثلاً بحوالي

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ٨٨

(٢) Petch, Economic Development and Modern West Africa, pp. 40 - 41.

٣٦ فرداً ، ومثل هذه الأسرة يكفيها إنتاج فدانين على الأقل من الأرض سنوياً .
فإذا سمح للأرض أن تستريح سبع سنوات بعد كل سنة زراعية - لكن احتياج
الأسرة حوالى ١٦ فداناً من الأرض في المتوسط . ومعنى ذلك أن كثافة السكان
للأرض الزراعية لا يجب أن تزداد على ١٤٤ شخصاً للبرميل المربع على الأكثر - حتى
يمكن للأرض أن تدمم بحاجتهم . أما إذا زادت كثافة السكان عن هذا الرقم ،
فإن فترة البور يجب أن تقل عن سبع سنوات ، وهذا أمر يقلل من خصوبة التربة .
وذهب ستامب إلى القول أن متوسط حجم الأسرة في نيجيريا الشالية حوالى ٣٣٣
شخصاً ، ومثل هذه الأسرة تحتاج إلى إنتاج ٣ أفدنة سنوياً - بسبب قلة الأمطار .
ومعنى ذلك أن حاجة الأسرة تبلغ حوالى ٢٤ فداناً ، أى أن الكثافة المعقولة للسكان
هى حوالى ٨٨ شخصاً للبرميل المربع . وإذا زادت الكثافة عن ذلك أصبحت الأرض
الزراعية مكتظة بالسكان . وهناك مناطق في غرب إفريقيا مكتظة فعلاً بالسكان
لدرجة أن سنة الزراعة لا يلها سوى سنتين من البور . وإذا قبلنا ما ذكره ددلى
ستامب لأدركنا أن بعض أجزاء إفريقيا مزدحم جداً بالسكان^(١) .

وتلائم درجات الحرارة في القارة الإفريقية نمو الكثير من النباتات والمزروعات ،
غير أن الأمطار مختلفة ومتدرجة في كيتها وفي موسم سقوطها ، وفي ضمان
سقوطها . ففي بعض المناطق تتوزع الأمطار على مدار السنة دون أن يكون هناك
فصل جفاف تام - أو حتى جفاف نسبي ، ولكن في كثير من مناطق إفريقيا
المدارية نجد أن هناك مناطق لا تكفى أمطارها حاجة الزراعة - بينما في مناطق
أخرى نجد أن الأمطار من الكثرة بحيث تجرف التربة . ونلاحظ في بعض المناطق
التي تعتبر أمطارها مناسبة أن موسم سقوط الأمطار مركز في أشهر قليلة -
مما يجعل إمكانيات الزراعة قليلة ، ونوع المحاصيل الممكن زراعتها محدود . ثم أن
الأمطار تسقط بفزارة في موسم سقوط قصير - مما يضيع جزءاً كبيراً من الماء ،
ويسبب جرف التربة - وهذه تلك تسبب مشكلة كبيرة للزراعة الإفريقية .

وللظروف الطبيعية هذه تأثير حاسم في الانماط الزراعية السائدة ، وما يرتبط
بها من أنماط اجتماعية وبشرية . ومن هنا كان التنوع العظيم الذى تتسم به المناطق
الزراعية الإفريقية من ناحية طريقة الزراعة ونوعها وإنتاجها ، وما إلى ذلك .

L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 150-151. (١)

ومعظم إنتاج المحاصيل الغذائية يستهلك محليا بواسطة الزراع المتسجين . والغذاء الأساسي في إفريقية الشمالية يتكون من القمح والقمح - بينا يساهم كل من الأرز والذرة بنصيب كبير في النظام الغذائي في مصر . وتتناقص أهمية الغلال في جنوب الصحراء الكبرى كلما انتقلنا من أكثر المناطق جفافاً إلى الغابات المدارية المطيرة ، بينما تزايد على العكس من ذلك أهمية الأغذية النشوية والموز . ومن الممكن على أي حال التمييز بين ثلاث مناطق زراعات غذائية رئيسية في إفريقية المدارية :

(أولا) المناطق الأكثر جفافاً في إفريقية المدارية . ويقع معظمها في إفريقية الغربية . والزراعات الغذائية الأساسية في هذه المنطقة هي الدخن والسرغم ، أما الذرة الصفراء والأرز والفاصوليا والبقول السوداني فهي أغذية ثانوية ، وتحمل معها الكاسافا والبطاطا .

(ثانيا) مناطق السافانا في إفريقية الشرقية والجنوبية ، وهنا تحمل الذرة الصفراء إلى حد كبير محل الذرة البيضاء بوصفها الغذاء الأساسي للسكان . وإن كان كلا المحصولين يزرع بالفعل ، بالإضافة إلى الذرة الرفيعة والأرز - وخاصة في المناطق التي يتوفر فيها الماء ، كما أن للجذور النشوية أيضا أهمية كبيرة في الغذاء .

(ثالثاً) مناطق الغابات المدارية الغزيرة المطر ، حيث الجذور النشوية والموز تمثل الغذاء الأساسي . ورغم اقتران هذين المحصولين دائما ببعضهما - فإن هناك اتجاه عام إلى سيطرة أحدهما ، مثال ذلك الكاسافا في بعض أجزاء الكونغو وإفريقية الاستوائية ، والموز في كثير من أنحاء أوغنده ، وفي بعض أجزاء غانا وساحل العاج . واليام في أجزاء من نيجيريا وساحل العاج وهكذا .

وبالإضافة إلى هذه المناطق الرئيسية الثلاثة هناك مناطق معينة موفرة المياه في إفريقية الغربية وما لاجاشي يعتبر الأرز الغذاء الرئيسي بها ، ومن الممكن في نطاق التبادل التجاري للزراعات الغذائية في إفريقية مبادلة جزء منها داخل المجتمع الزراعي ذاته . وأغلب ما يكون ذلك على أساس المقايضة . ولكن الأهم من ذلك هو أن بعض هذه المحاصيل تستخدم في تموين السكان غير الزراعيين - الذين يتركزون بأعداد كبيرة في بلدان إفريقية الشمالية ، وفي اتحاد جنوب إفريقية - وهي بلدان

أكثر تحضراً من المناطق المدارية . ومعظم الواردات من المحاصيل الغذائية تستهلك في المراكز الحضرية الإفريقية^(١) .

ومستوى إنتاجية وحدة المساحة في جميع الدول الإفريقية - باستثناء مصر - شديد الانخفاض . فبينما يبلغ متوسط إنتاجية الهكتار الواحد (أقل قليلاً من $\frac{1}{4}$ فدان) من القمح في العالم ١١٨٠ كيلو جراماً - يرتفع في مصر إلى ٢٣٤٠ كيلو جراماً ، وينخفض متوسطه في القارة الإفريقية إلى ٨٠٠ كيلو جراماً - ومعنى ذلك أن متوسط إنتاج الهكتار من القمح في إفريقيا يعادل حوالي ثلث متوسط إنتاج الهكتار في مصر . أما الذرة فتوسط إنتاج الهكتار في العالم ١٨٣٠ كيلو جراماً وفي مصر ٢٢٢٠ كيلو جراماً ، أما في إفريقيا فتوسط إنتاج الهكتار من الذرة ٩٣٠ كيلو جراماً ($\frac{40}{100}$ من إنتاج مصر) ، وإنتاج الهكتار من الأرز في العالم حوالي ١٨٦٠ كيلو جراماً ، وفي مصر ٥٥٦٠ كيلو جراماً ، وفي إفريقيا ١٥٣٠ كيلو جراماً ($\frac{30}{100}$ من مصر) . أما البطاطا والبطاطس فإن إنتاج الهكتار من العالم حوالي ١٢٠٠٠ كيلو جراماً ، وفي مصر ١٧٥٠٠ كيلو جراماً ، وفي القارة الإفريقية ٧٥٠٠ ($\frac{40}{100}$ من إنتاج مصر) . وفي القارة السودانية يبلغ متوسط إنتاج الهكتار في العالم ٩١٠ كيلو جراماً - يرتفع في مصر إلى ٢٠٧٠ كيلو جراماً ، وينخفض في الدول الإفريقية إلى ٧٤٠ كيلو جراماً . أما القطن فإنتاج الهكتار في العالم ٢٨٠ كيلو جراماً - يرتفع في مصر إلى ٥٣٠ كيلو جراماً ، وينخفض في الدول الإفريقية إلى ٢١٠ كيلو جراماً - أو ما يعادل $\frac{40}{100}$ من متوسط إنتاج الهكتار في مصر - وهكذا في سائر المحاصيل^(٢) . هذا مع ملاحظة أن متوسط إنتاج الفدان في القارة الإفريقية من المحصولات الزراعية يدخل فيها إنتاج مصر المرتفع بالنسبة للمكتار . ولو استبعدت مصر من إحصائيات إفريقية لانخفاض متوسط إنتاج الهكتار في القارة إلى أكثر من ذلك . بل أن متوسط إنتاج الهكتار في بعض المناطق أقل من إنتاجه في أية منطقة أخرى من العالم .

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠

ص ١١ - ١٢

(٢) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠

ص ٤٨ - ٥٤

ولاشك أن هناك أسباباً طبيعية وبشرية تفسر هذا الانخفاض . فمن الناحية الطبيعية المؤثرة في الإنتاج الزراعى نلاحظ على إفريقية ظاهرتين : أولها نقص الماء وسوء توزيعه ، وثانيهما فقر التربة .

فمن ناحية سوء توزيع المياه نلاحظ أن بعض المناطق تتمتع بمياه مناسبة للزراعة ، ولكن في مناطق أخرى نجد أن هناك مناطق لا تكفى أمطارها حاجة الزراعة - كما سبق أن أشرنا . أما الأنهار العظيمة الدائمة المياه كالنيل والكنغو والنيجر والميزي وأورنج - وكذلك البحيرات العذبة كبحيرة فكتوريا وتنجانيقا ونياسا فكلها تنيد في الزراعة - وخاصة وأن بعضها يجرى في جزء من مجرى في مناطق قليلة الأمطار . غير أن عدم الاستفادة من مياهها استفادة التامة تجعلها قليلة الأهمية بالنسبة للزراعة . وإن كانت بعض الدول الإفريقية منذ أوائل هذا القرن قد نشطت في إقامة المخزانات وحفر (القنوات) والآبار - وخاصة في وادي النيل ، وفي جنوب ووسط وشرق وغرب إفريقية والسودان - ولكن بالرغم من ذلك هناك مناطق كثيرة تتأثر بالجفاف وسوء توزيع المطر والماء مثل أثيوبيا والصومال وشرق ووسط إفريقية - وخاصة في أنجولا وجنوب غرب إفريقية وأجزاء من صحراء كلهارى ومنطقة الكارو . وهناك إمكانات واسعة لتطوير موارد المياه في المستقبل ، ولكنها تحتاج إلى تخطيط وتمويل ^(١) .

ويمكن أن نصيف إلى ذلك أن الزراع الإفريقيين يميلون إلى استخدام الماء أكثر من اللازم - أو كما يذكر ستامب تنقصهم العقلية المائية ^(٢) . ولذلك فخل مشكل الماء يمثل أولاً في تعليم الإفريقيين كيفية استخدامه وكيفية تطوير المشروعات المائية الصغيرة . ويقدر تقرير هيئة الأمم المتحدة أن حوالى ٣٦٪ من مجموع أراضي إفريقية ذات مناخ رطب ، أما باقى أراضي القارة - وتبلغ ٦٤٪ من المساحة فهي

(١) John Phillips, op. cit., pp. 287-290.

(٢) L. Dudley Stamp, op. cit., p. 89.

ذات مناخ متفاوت في درجات الجفاف - إذ أن ١٦٪ منها صحراء نادرة المطر و ٣٩٪ منها مناخها شديد الجفاف و ٢٢٪ منها مناخها معتدل الجفاف^(١).

أما عن التربة فهناك ارتباط واضح بين التربة وبين الأقاليم المناخية ، فالترربة السوداء في مناطق السافانا الجافة ، وترربة اللاتيريت في الغابات الرطبة ، ولكن في بعض المناطق الصغيرة المساحة نجد تنوعاً وتشتتاً كبيراً في التربة : من تربة خفيفة إلى تربة ثقيلة ، ومن تربة ضحلة إلى تربة عميقة ، ومن تربة حمضية إلى تربة قلوية ، ومن تربة تأثرت بالتعرية إلى تربة تتميز بالاستقرار ، ومن تربة تحتاج فلاحتها إلى طرق وآلات بدائية إلى تربة لا تزرع إلا بالآلات الحديثة . وأخيراً من تربة شديدة الفقر إلى تربة شديدة الخصوبة .

ومعلوماتنا عن التربة الإفريقية قليلة ، ولكن يمكن القول أنها تربة تتعرض بسبب الحرارة والرطوبة إلى كثير من التغيرات والتفاعلات . ففي فصل الأمطار تذوب أملاح التربة - كما تتعرض التربة للجرف . أما في فصل الجفاف حيث البحر شديد - تترسب الأملاح فوق التربة ، كما تتكون فوقها أحياناً طبقة صلبة من أكاسيد الحديد تجعل فلاحتها صعبة للغاية . هذا إلى جانب أن تحلل المواد العضوية السريع يجعل التربة لا تستفيد منها كثيراً - بعكس الحال في العروض الوسطى - التي تستفيد فيها التربة كثيراً من تحلل المواد العضوية .

وجرف التربة بسبب كثرة الأمطار وشدتها مشكلة كبيرة في بعض المناطق المتضرسة وخاصة في موسم الأمطار الغزيرة . وقد شاهد بعض الباحثين كيف أن الأمطار الغزيرة في بعض مناطق غرب إفريقيا قد أزالَت من التربة طبقة يبلغ سمكها ٢٠ بوصة في ليلة مطرة واحدة^(٢) . وقد يساعد على تعرية التربة وجرفها الرعي الزائد عن الحد ، كما أن الضغط المتزايد من الإنسان والحيوان على التربة قد سبب المزيد من جرف التربة ، وكلها تسبب الضغط المتزايد على الأراضي الزراعية الجيدة - مما يسبب مزيداً من التعرية . ولا شك أن كثرة الطمي في مياه بعض الأنهار دليل على زيادة التآكل في المجارى العليا ، وهذا يؤدي إلى فقر التربة في هذه المجارى العليا . وإن كان الطمي بلا شك له فائدة كبيرة في مناطق المجارى الدنيا والدلتاوات .

(١) الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) دراسة الحالة الاقتصادية في إفريقيا منذ عام ١٩٥٠ ص ١٠

(٢) L. Dudley Stamp, op. cit., pp. 98 — 103.

وغالبا ما يلجأ الافريقيون إلى حرق الأعشاب لإضافة مواد عضوية متحللة إلى التربة لتزدد خصوبتها . ولا شك أن هذه الطريقة مفيدة — غير أنه كثيراً ما يساء استخدامها — كأن تكون النيران شديدة فيسحول سطح التربة إلى طبقة غفارية متماسكة يصعب فلجها . ولا شك كذلك أن نظم الزراعة المتقلبة التي يقوم بها الوطنيون في المناطق المدارية ملائمة لظروف التربة ، ذلك لأن استخدام المحراث أمر يساعد الأمطار على جرف التربة .

وبالرغم من ذلك كله فإفريقية تقود العالم في إنتاج بعض المحاصيل النباتية — إذ أنها تنتج حوالي ٠.٩٣٪ من إنتاج العالم من زيت النخيل ، ٠.٧٥٪ من إنتاج العالم من السيسال ، ٠.٧٠٪ من إنتاج العالم من الكاكاو ، كما تنتج حوالي ٠.٣٠٪ من إنتاج العالم من الفول السوداني ، ٠.١٦٪ من إنتاج العالم من البن ، ٠.١٥٪ من إنتاج العالم من السمسم . كما أن هناك محاصيل أخرى هامة مثل القطن (٨٪ من الانتاج العالمي) والشاي (٤٪ من الانتاج العالمي) والطباق (٣٪ من الانتاج العالمي) وقصب السكر (٣٪ من الانتاج العالمي) وهكذا .

الانتاج المعدني :

ويعتبر التعدين القطاع الاقتصادي الافريقي الهام الذي يدخل كله في نطاق الاقتصاد النقدي في كثير من أجزاء القارة ، كما أنه أفضل القطاعات تنظيماً وأوفرها تجهيزاً ، ولكن من عيوبه الرئيسية سيطرة رأس المال الأجنبي عليه إلى حد كبير ، ولذا كان الغرض من التعدين الانتاج الغزير بهدف التصدير وليس الاستهلاك المحلي . ولكن على كل حال يمكن في حالة تطوير الصناعات التحويلية الاستفادة بالدخل الناتج عن بيع المنتجات المعدنية ، وباستخدام جزء من الانتاج المعدني في الصناعات التحويلية .

وتحتل إفريقيا مركزاً بارزاً في إنتاج بعض المعادن الهامة . ويكفي أن نذكر أنها تحتل المركز الأول بين قارات العالم في إنتاج عديد من المعادن . فهي تنتج ٠.٩٦٪ من إنتاج العالم من الماس ، ٠.٦٧٪ من إنتاج الكوبالت ، ٠.٦٢٧٪ من إنتاج الذهب ، ٠.٤٧٨٪ من انتاج المنجنيز ، ٠.٣١٪ من إنتاج الالمنيوم ، ٠.٢٤٪ من إنتاج النحاس ، ٠.١٥٪ من إنتاج القصدير ، ٠.١١٥٪ من إنتاج الرصاص ، و ٠.١١٪ من إنتاج الفناديوم . كما تنتج كميات كبيرة نسبياً من الزنك والتنجستن

والفضة والحديد والبوكسيت . هذا إلى جانب إنتاجها الهام من اليورانيوم . أما إنتاجها من الفحم والبتروöl فقليل نسبيا — إذ لا يتجاوز ٣٪ من الإنتاج العالمى فى حالة الفحم ، ٣٠٢٪ من الإنتاج العالمى فى حالة البتروöl . ولكن بها على كل حال قوى مائة كاملة عظيمة تقدر نسبتها بحوالى ٤١٪ من القوى المائية الكامنة فى العالم — ولكنها لم تستغل منها الا أقل من ٠.٠٧٪ — أو ما يعادل أقل من ٥.٠٪ من الطاقة الكامنة فى العالم^(١) . ويمكن على كل حال التوسع فى استغلال هذه الطاقة المائية — لو وضع لها التخطيط الاقتصادى السليم .

ويبلغ متوسط القيمة الاجمالية للإنتاج المعدنى فى إفريقيا حوالى ٢٢٠٠ مليون دولار آسنويا — يساهم الذهب والنحاس بحوالى ٥٣٪ من هذه القيمة ، والماس بحوالى ٨٪ ، والباقى موزع على المعادن الأخرى . ويساهم اتحاد جنوب إفريقيا وحده بحوالى ٤٢٨٪ من قيمة الإنتاج المعدنى فى إفريقيا ، كما تساهم روديسيا الجنوبية وزامبيا بنسبة ١٧٨٪ ، والكنغو بنسبة ١٥٨٪ ، وبلى هذه الدول المغرب وغانا والجزائر والجمهورية العربية المتحدة على التوالى ، ثم تاتى بعد ذلك بقية الدول الأفريقية .

ولقد كان دور الأجانب فى إمداد صناعة التعدين برأس المال والمهارات العلمية والعالية أكبر فى هذا القطاع منه فى أى قطاع آخر من قطاعات الاقتصاد الأفريقى النقدى ، ولا يملك الأفريقيون نسبة كبيرة من رأس المال المستثمر فى التعدين — إلا فى مصر والمغرب العربى . أما فى باقى الدول الأفريقية — فالأفريقيون مصدر اليد العاملة غير الماهرة . ويعمل بالتعدين حوالى مليون عامل ومستخدم — ٩٠٪ منهم من الأفريقيين . وقد بلغ مجموع الأجور فى قطاع التعدين فى سنة ١٩٥٧ مثلاً حوالى ٥٠٠ مليوناً من الدولارات — بلغ نصيب غير الأفريقيين منها حوالى ٦٠٪ — وعلى هذا الأساس كان متوسط دخل العامل غير الأفريقى حوالى ٣٠٠٠ دولاراً فى العام — بينما لم يزد متوسط دخل العامل الأفريقى فى التعدين عن ٢٠٠ دولاراً فى العام^(٢) .

(١) هذه النسب والأرقام مبنية على ما أورده جداول كل من :

— تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) من صفحة ٦٨ الى صفحة ٧١ . وعلى كتاب

S. H. Steinberg, The Statesman's Yearbook, 1964 — 1965. —

(٢) انظر تقرير الأمم للتحدة (سنة ١٩٦١) ص ١٢٤ — ١٢٥

الانتاج الصناعى :

أما الصناعات التحويلية فأكمانية تطورها وزيادة إنتاجها كبير للغاية - فالخامات الزراعية والمعدنية متوفرة وفائضة ، والقوى المحركة يمكن استنباطها من الفحم المحلى ، أو من البترول الذى عثر عليه فى شمال إفريقيا وفى غربها ، أو من القوى المائية الكامنة الضخمة . ولا شك أن السوق متمتع يشتمل على أكثر من ٢٨٠ مليوناً من البشر - يزداد نصيب الفرد منهم من الدخل القومى ازديادا بطيئاً - ولكن مستمرا . أما الأيدى العاملة فتوفرة ورخيصة - وإن كانت غير مدربة . ورأس المال يمكن الحصول عليه من تصدير الفائض من الخامات الزراعية والمعدنية .

وقد تطورت الصناعات التحويلية بالفعل تطورا كبيرا ، حتى يمكن أن يقال أن الصناعات التحويلية الميكانيكية قد احتلت نصيبا بارزا فى الدخل القومى ، وتقدر القيمة المضافة الناتجة عن الصناعات التحويلية بحوالى ثلاثة آلاف مليون دولاراً . أما عدد المشتغلين فى هذا القطاع فقد زاد حتى وصل إلى ٢ مليون عامل . وتحمل كل من اتحاد جنوب إفريقيا والجمهورية العربية المتحدة المركز الأول والثانى على التوالى من ناحية القيمة المضافة الناتجة عن الصناعات التحويلية . وتساهم الصناعة فى اتحاد جنوب إفريقيا بحوالى ٢٥٪ من الدخل القومى فى البلاد . كما أن صناعات اتحاد جنوب إفريقيا متنوعة ومتعددة أكثر مما هى عليه فى كثير من الدول الافريقية الأخرى . أما فى مصر فقد نهضت الصناعات التحويلية نهوضاً كبيراً فى السنوات الأخيرة حتى أصبح نصيب الصناعة مايقرب من خمس الدخل القومى . وتتميز الصناعات فى مصر كذلك بالتنوع واقترانها بمراحل متقدمة من التطور الصناعى . أما الجزائر والمغرب وروديسيا الجنوبية وزامبيا فتمثل مجموعة وسطى بين اتحاد جنوب إفريقيا ومصر من جهة ، وبقية بلدان إفريقيا - التى تنتم الصناعات التحويلية بها بضيق نطاق الانتاج وقلة عدد المؤسسات الصناعية ، وارتباطها بانتاج السلع الاستهلاكية ، والبساطة النسبية فى العمليات الصناعية - من جهة أخرى .

وتشارك الصناعات الافريقية كلها - بغض النظر عن درجة تقدمها - بالتركز الشديد للمنشآت الصناعية فى المدن الكبرى . ففى مصر مثلاً تقع أكثر من ٦٥٪

من المنشآت الصناعية في القاهرة والاسكندرية ، كما تنتج هاتان المدينتان حوالي نصف القيمة المضافة . وفي المغرب تقع حوالي ٧٠ ٪ من المنشآت الصناعية في الدار البيضاء وأحومها . وتعتبر صناعة التعليب وحفظ الأطعمة الصناعة الوحيدة في المغرب التي حققت اللامركزية في الانتشار على طول امتداد الساحل . وفي روديسيا الجنوبية تقع معظم المصانع في سالزبرى وبولاوايو . وفي الكنفو تتركز الصناعة في الزابضيل في كاتنجا . وفي اتحاد جنوب إفريقية توجد الصناعات التحويلية في عدد من المدن الهامة مثل الكيب وايست لندن وبورت الزابث ودربان وجوهانسبرج وبريتوريا .

وكثير من المشروعات الصناعية الافريقية أنشئت برؤوس أموال غير إفريقية . والدور الرئيسى للسكان الافريقيين في هذا القطاع - كما في قطاع التعدين - هو كونهم مصدرآ ليد العاملة غير الماهرة أو نصف الماهرة . وفي الوقت الحاضر تهترك الحكومات الافريقية في الصناعات التحويلية اشتراكا مباشراً في عدة دول - وخاصة في مصر والسودان وغانا وغينيا ومالى والجزائر واتحاد جنوب إفريقية - بعد أن وجدت حكومات هذه الدول قصور القطاع الخاص : المحلى منه والأجنبي عن القيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، وعلى أساس الحاجات الأساسية للبلاد ، والتي تراعى الامكانيات الاقتصادية المتوفرة - بصرف النظر عن مقدار الربح الناتج - وخاصة وأن الصناعات الافريقية لازال تواجه الكثير من المشاكل التي تواجهها عادة الصناعة في الدول النامية والمتخلفة ^(١) .

إمكانيات التطور الاقتصادى

اختلفت الآراء بشأن إمكانيات إفريقية الاقتصادية - فهناك آراء تنادى بأن إفريقية قارة متسعة بها الكثير من الموارد الكثيرة المتنوعة التي تنتظر من يقوم باستغلالها حتى تصبح قارة غنية منتجة . بينما يؤمن البعض الآخر أنها قارة يوجد بها الكثير من المراقيل التي تعوق التطور الاقتصادى السريع ، فهي قارة فقيرة في تربتها ، غير جيدة في إنتاجها ، انفصل سكانها عن التطور والتقدم الاقتصادى العالمى بعوائق

G. H. T. Kimble, op, cit., Vol. I, pp. 310-319. (١)

طبيعية ، مثل نقص الطرق المائية والموانئ ، وبسبب الأمطار المدارية ، وبسبب الأمراض المدارية التي كانت - ولا تزال إلى حد كبير - مقبرة الرجل الأبيض^(١).

والواقع أن إفريقية إمكانات اقتصادية غير محدودة . فالمساحة وحدها - وقد أشرنا إلى ذلك - تسمح بالتوسع في الانتاج لو غير السكان طرق استغلالهم التقليدية ، واستخدموا طرقاً حديثة في الرعى والزراعة ، ولو أمكن القيام بمجموعة من مشاريع الري الضرورية في المناطق التي لا يمكن معطرها ، والقيام ببعض مشاريع الصرف في المناطق ذات الأمطار الزائدة عن الحاجة . وبحسب التطور الاقتصادي والاجتماعي في إفريقية إلى كثير من الامكانيات التي لا تتوفر في الوقت الحاضر ، فلم يعرف حتى الآن كيفية استغلال المناطق المدارية والتغلب على ظروف البيئة الطبيعية ، ولا شك أن المناطق المدارية ذات المناخ الحار والرطوبة المرتفعة ، والتي تنمو فيها الغابات المدارية سيأتي عليها وقت تصبح فيه من المناطق الانتاجية الهامة . كما أنه سيأتي الوقت الذي يمكن فيه التغلب على الأمراض المدارية والقضاء على ذباب تسي تسي ، مما يفتح آفاقاً جديدة للانتاج الحيواني . وليس معنى ذلك أن تطور الاقتصاد الإفريقي سيكون بنفس سرعة تطور الاقتصاد الأوروبي ، إذ أن هناك مشاكل كبيرة تتطلب الحل . فثروة إفريقية في الحقيقة تتطلب الكثير من الكفاح للتغلب على المشاكل الطبيعية والبشرية .

وبالرغم من أن بعض السكان لا يمكن أن تتحملهم الموارد المنتجة في الظروف الاقتصادية الحالية - فإن إمكانات التغيير متعددة ، فانتشار المعرفة والطب والعقاقير كلها تؤدي إلى إطالة العمر وإلى صلاحية كثير من مناطقها للاستقرار البشري والاستغلال الاقتصادي . كما أن القضاء على ذباب تسي تسي معنى زيادة مساحة المناطق الرعوية ، وزيادة الثروة الحيوانية . كما أن مشاريع إنشاء الطرق والسكك الحديدية والقنوات الملاحية ممكنة وضرورية .

وتظهر خريطة إفريقية الاقتصادية نوعاً من التنوع الشديد في الظروف الطبيعية ، كما تظهر الكثير من التنوع والاختلافات والتناقضات الحضارية والاقتصادية ،

وكذلك التناقضات السياسية : فهناك دول لا تزال خاضعة للغرب ، ودول نصف مستقلة وثالثة كاملة الاستقلال . أما المظهر الثاني فيتمثل في زيادة نسبة المناطق غير المستغلة على نطاق تجارى . والواقع أن القاعدة العامة في إفريقية هي أن المناطق المستغلة لا تكون الا بقعاً صغيرة على وجه إفريقية . أما المظهر الثالث فيتمثل في زيادة نسبة المناطق التي ينخفض فيها الانتاج — وذلك لسببين : أولهما الصعوبات الطبيعية ، وثانيهما المستوى الحضارى للسكان .

وهناك اختلافات كبيرة في معدل النمو الاقتصادى بين دولة وأخرى ، بل بين كل إقليم وآخر في داخل الدولة الواحدة ، وليس هناك حدود مستمرة — بل جزر اقتصادية يتركز فيها النشاط الاقتصادى . وتفصل هذه الجزر الاقتصادية عادة بمناطق متسعة ، اقتصادها شديد التخلف . ويتركز النشاط الاقتصادى في ثلاث مناطق رئيسية هي المناطق الساحلية التي تأخذ أهميتها — أو جزءاً كبيراً من هذه الأهمية — من قربها من البحر والموانئ . ثم المناطق المدارية المرتفعة حيث التربة جيدة والمناخ مناسب — وهي المناطق التي استوطن الاوروبيون بعض مناطقها . ثم مناطق التعدين والمدن الصناعية . وتشغل هذه الجزر الاقتصادية جميعاً حوالى ١٠٪ من مساحة إفريقية المدارية — ولكنها تنجح حوالى ٨٥ ٪ من قيمة انتاج هذه المناطق (١) .

مشاكل التطور الاقتصادى :

وعلى ضوء استعراض هذه العوامل والظروف الاقتصادية يمكن أن نشير إلى ثلاث ملاحظات هامة تؤثر تأثيراً كبيراً في تحقيق النمو الاقتصادى — بل وفي تحقيق التعاون والتكامل الاقتصادى بين الدول الافريقية ، وهي :

أولاً — تخلف الاقتصاد الافريقى :

إن الاقتصاد الافريقى في مجوعه متخلف تخلفاً شديداً . فالإقتصاد الافريقى لا ينتج من البضائع والخدمات ما يكفي حاجة الافريقيين ، وما يتناسب مع إمكانيات القارة ، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا شمال إفريقية وعلى الأخص الجمهورية العربية

المتحدة ، كما ينطبق ذلك أيضا على اتحاد جنوب إفريقية . أما في إفريقية المدارية فتتطبق عليها هذه الحقيقة انطباقا تاما . ولا يرجع هذا التخلف الاقتصادي إلى فقر الموارد الطبيعية ، أو إلى ضئالة امكانيات المستقبل ، ولكن التخلف في إفريقية ناتج عن سوء توزيع كل من الموارد الطبيعية والموارد البشرية ، كما أنه ناتج عن عدم قدرة السكان في كثير من مناطقها على استغلال الموارد الطبيعية المتاحة ، والتي يمكن تحويلها إلى موارد اقتصادية هامة . والحقيقة أن الأفريقيين في إفريقية المدارية من أقل شعوب العالم استغلالا لمواردهم الطبيعية — لأسباب متعددة سبقت الإشارة إلى بعضها . كما أن الاستثمار الأجنبي ، واستنزاف الشركات الأجنبية للموارد الإفريقية وللجهود البشرية الأفريقي بأجناس الأثمن والأجور قد ساعد على تعميق وتجميع واستمرار هذا التخلف .

ويمكن أن نثير في هذا المجال إلى أن كثيرا من الدول الإفريقية تعتمد اعتمادا بكاد يكون تاما على تصدير سلع أولية قليلة في عددها — فحوالي ٩٣ ٪ من قيمة صادرات السودان تتكون من القطن والصمغ العربي والقول السوداني ، و ٦٠ ٪ من قيمة صادرات أثيوبيا من البن والبذور الزيتية، وحوالي ٨٠ ٪ من صادرات أوغنده من القطن والبن، وحوالي ٧٠ ٪ من صادرات الكرون من الكاكاو والبن، و ٦٨ ٪ من صادرات ليبيريا من المطاط، وحوالي ٨٥ ٪ من صادرات غينيا من القول السوداني . وتكاد تسيطر صادرات المعادن على تجارة زامبيا والكنغو . أما في كينيا وملاياشي ونيجيريا وجنوب إفريقية وتنجانيقا ودول شمال إفريقية فالصادرات أكثر تنوعا — وإن كان أغلبها من المنتجات الأولية ^(١) .

والواقع أن في إفريقية ثروات طبيعية هائلة غير مستغلة — تنتظر من يبحث عنها ، ويعمل على استغلالها ، كما أن هناك مساحات واسعة للغاية من الأراضي القابلة للاستغلال والزراعة لم تتحول بعد إلى مناطق منتجة . كما أن أساليب العمل الزراعي في المناطق المزروعة من شأنها إلتلاف التربة وخفض إنتاجية القرد وإنتاجية المساحة . كما ينقص التركيز من الأفريقيين الدوافع الاقتصادية التي تدفع بهم إلى استغلال

John Phillips, op. cit., p. 313. (1)

مواردهم أحسن استغلال . هذا إلى جانب أن بعض النواحي الاجتماعية أو الدينية السائدة بين بعض الجماعات الإفريقية من شأنها أن تعوق استغلال بعض موارد الثروة استغلالاً طيباً . كما أن عدم كفاءة المواصلات وسوءها في كثير من المناطق - أمر يعزل المناطق ذات الامكانيات الاقتصادية عن المناطق التي يمكن استهلاك منتجاتها . هذا إلى جانب نقص الاحصاءات والمعلومات الاقتصادية والاجتماعية ، ونقص الخبرة الفنية والمشاكل الاجتماعية والحضارية والسياسية . وأخيراً عدم التوازن بين السكان وبين الموارد في كثير من المناطق الإفريقية . ونظراً لضغط السكان على الأرض - فإن زراعة الفلات التقليدية لم تسد في كثير من المناطق . وقد أدى ذلك إلى هجرة الرجال من مناطق القبائل إلى المناطق الأخرى - وخاصة مناطق التعدين والصناعة . ففي زامبيا وروديسيا الجنوبية مثلاً تصل نسبة الرجال الغائبين عن مناطقهم القبلية إلى حوالي ٤٠ ٪ . وقد تصل إلى ٧٠ ٪ - وذلك لعدم توفر الغذاء والعمل في هذه المناطق القبلية ، وتوفر النقود والمواد الغذائية في مناطق التعدين والصناعة .

ثانياً - انخفاض الدخل القومي :

نتيجة لهذا التخلف الاقتصادي ينخفض نصيب الفرد من الدخل القومي في إفريقية انخفاضاً كبيراً . فباستثناء اتحاد جنوب إفريقية - التي يرتفع فيها نصيب الفرد من الدخل إلى أكثر من ٣٠٠ دولاراً في العام في المتوسط ، والذي يرجع ارتفاعه إلى الدخل المرتفع للغاية التي تتمتع به الأقلية الأوربية - نجد أن الدخل القومي في الدول الإفريقية ينخفض انخفاضاً كبيراً . ويمكن أن نذكر أن مجموع الدخل القومي لدول القارة الإفريقية - وعدد سكانها ٩ ٪ من سكان العالم - لا يتجاوز ٢ ٪ من مجموع الدخل القومي لجميع قارات العالم ، ومعنى ذلك هبوط نصيب الفرد من الدخل القومي إلى أقل من ٢٥ ٪ من متوسط نصيب الفرد في العالم ، ولا يقل عنها في متوسط نصيب الفرد من الدخل سوى قارة آسيا المكتظة بسكانها .

ويختلف متوسط دخل الفرد في إفريقية من مكان لآخر . فبينما يتراوح متوسط نصيب الفرد من الدخل في القارة كلها بين ٧٠ و ٥٠ دولاراً في العام - ترتفع إلى أكثر من ٣٠٠ دولاراً في اتحاد جنوب إفريقية ، وإلى قدر يتراوح

بين ١٠٠ و ٢٠٠ دولاراً في العام في الجزائر وغانا والمغرب وتونس ومالايا وجمهورية العربية المتحدة . ويتراوح الدخل للفرد بين ٥٠ و ١٠٠ دولاراً في الكونغو ونيجيريا والسودان وأوغندا وغينيا . ويقل عن ٥٠ دولاراً للفرد في العام في باقي الدول الأفريقية^(١) .

ولسنا في حاجة إلى تأكيد العلاقة الوثيقة بين مستوى الدخل وبين توفر رأس المال اللازم للتطوير الاقتصادي ، وتطوير النقل والخدمات الأخرى . ذلك أنه مما يسبب العجز في تزكيم رأس المال وتوفره في الدول الأفريقية قصص المدخرات لدى الأغلبية العظمى من السكان - نتيجة لسوء توزيع الدخل القومي والملكية الزراعية - وخاصة في الدول التي نكبت بالاستعمار الاستيطاني والاستغلال كاتحاد جنوب إفريقية وروديسيا الجنوبية وزامبيا وكينيا وكاتنجا بالكونغو وما إليها - إذ يتركز معظم الدخل في يد العناصر والشركات الأوربية التي تمتلك المناجم والمزارع الواسعة ، وقاما يساهم هؤلاء في تطوير إفريقية الاقتصادية ، أو يعملون على تحقيق التعاون الاقتصادي الأفريقي . أما العناصر الأفريقية الفقيرة ، قليلة الدخل ، تقبل على مزيد من استهلاك السلع - التي لم يكونوا يستهلكونها من قبل - وذلك لو توفرت لديهم الأموال اللازمة لمثل ذلك الاستهلاك - شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب النامية والمتخلفة .

وقد حاولت بعض الدول الأفريقية تكوين رأس مال محلي عن طريق الحد من الاستهلاك في الداخل ، والحد من استيراد السلع الكيالية وبعض السلع الاستهلاكية نصف الكيالية من الخارج - لتحصل على رأس المال الأجنبي في صورة آلات و سلع إنتاجية وخبرة فنية ، بتصدير خاماتها الزراعية والمعدنية الكثيرة . ولكن المشكلة الأساسية هي سيطرة بعض الشركات على اقتصاديات بعض البلاد المنتجة للمعادن أو للمنتجات الزراعية الهامة . ولا شك كذلك أن انخفاض إنتاجية الفرد تسبب قلة في الفائض من المواد الغذائية أو السلع التجارية في معظم الأحيان ، ثم أن الاعتماد على تصدير سلعة واحدة أو سلع قليلة في عددها كثيراً ما يسبب مشاكل

(١) انظر تقرير الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ٢٩ - ٣٠

اقتصادية كثيرة بسبب عدم استقرار أسعار السلع الأولية، وبسبب التغير في أحوال التجارة الخارجية .

وقد اعتمدت بعض الدول الإفريقية في تطورها الاقتصادي الحديث على القطاع العام اعتمادا كبيرا ، ومساهمة القطاع العام في التطور الاقتصادي في الدول النامية والمتخلفة أمراً ضروريا للغاية . وفي سنة ١٩٥٦ مثلاً - وقبل الاجراءات الاشتراكية المعروفة في الجمهورية العربية المتحدة - ساهم القطاع العام بحوالى ٦٣٪ من جملة الاستثمارات في الجمهورية العربية المتحدة . وساهم بأكثر من ٥٠٪ في كل من السودان ونيجيريا وغانا . وتراوح نصيبه بين ٤٠ و ٥٠٪ في اتحاد جنوب إفريقيا وأوغندة وتنجانيقا والكنغو . وتراوح بين ٣٠ و ٤٠٪ من جملة الاستثمارات في كل من مالاوي وروديسيا الجنوبية وزامبيا والمغرب - وهكذا . ونصيب القطاع العام في الاستثمارات الإفريقية في تزايد مستمر .

وقد اعتمدت كثير من الدول الإفريقية بعد الاستقلال على الاستثمارات الأجنبية والقروض والمساعدات . وساهمت الولايات المتحدة بأكبر نصيب منها - إذ وصل مجموع استثماراتها في إفريقية حتى سنة ١٩٥٧ إلى ١٢٠٠ مليون دولارا ، وبلغت قروضها للدول الإفريقية ٣٠٣٣ مليون دولارا ، كما وصلت مساعداتها ومنحها للدول الإفريقية حوالى ٤٨٦٦ مليون دولارا في نفس العام . وقدرت جملة مساعدات الولايات المتحدة للدول الإفريقية بين سنتي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ بحوالى ٣٣٧ مليون دولارا . وقد تضاعف هذا الرقم في الوقت الحاضر . أما بريطانيا فقد قدمت حتى آخر عام ١٩٥٧ حوالى ٥٣٧٧ مليون جنيه استرليني لتمويل مشروعات مؤسسة إنماء المستعمرات البريطانية . ووصلت جملة الاستثمارات الفرنسية في إفريقية سنة ١٩٥٧ إلى حوالى ١٩٠ مليون فرنك فرنسي جديد وهكذا^(١) .

وبالرغم من أهمية المساعدات والقروض والاستثمارات في التنمية الاقتصادية فإنها بالنسبة لكثير من الدول الإفريقية محدودة في مقدارها ، صعبة في الحصول عليها ، بعضها يؤثر بلاشك في استقلال الدولة السياسى أو الاقتصادى . والواقع أن رأس المال الأجنبي قلما يأتى إلى الدولة الافريقية إلا إذا وجد من التسهيلات

(١) انظر تقرير هيئة الامم المتحدة منشط ٤٠٥ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ،

والأرباح والضمان ما يشبع نهمه - وهو أمر قد لا يكون متيسراً في جميع الأحوال فقد تضطر بعض الدول إلى اتخاذ اجراءات معينة من شأنها تدعيم الاقتصاد القوي - وهي اجراءات قد تضر برأس المال الاجنبي . ثم أن تحويل الأرباح الناتجة عن استثمار رأس المال الاجنبي إلى الدول المصدرة لرأس المال يمنع الدول الافريقية من الاستفادة من هذه الأرباح في تحقيق مزيد من التطور الاقتصادي . وقد يكون لإنشاء بنك التنمية الافريقي والبنك العربي الافريقي تأثيراً كبيراً في تحقيق مبدأ الكفاية الذاتية بالنسبة لتمويل المشاريع الاقتصادية والخدمات الهامة .

ثالثاً - انخفاض التبادل التجاري بين الدول الافريقية :

من استعراض جداول التبادل التجاري بين الدول الافريقية نجد أن العلاقات التجارية بين الدول الافريقية تنسم بالضئالة والقلة - إذ تجرى معظم عمليات التبادل التجاري الافريقي مع بلدان غير إفريقية - معظمها أوروبية - مما يجعل الكثير من الدول الافريقية ائوئى ارتباطاً في علاقاتها الاقتصادية بالدول الأوروبية منها بالدول الإفريقية ، وتعتمد كثير من الدول الافريقية على الدول الأوروبية في مدها بأنواع معينة من الخدمات والخبرة الفنية التي تنقصها .

والواقع أن نسبة التبادل التجاري الذي يجرى بين البلاد الافريقية بالطرق التجارية العادية قليل للغاية . والنسبة بين مجموع تجارة الواردات والصادرات مع البلدان الافريقية وبين مجموع التجارة مع جميع بلدان العالم تتراوح بين حد أدنى لا يتجاوز ١٪ في حالة كل من نيجيريا ومالاجاشي ، وتزداد إلى ٣٠٫٦٪ في حالة الجمهورية العربية المتحدة ، ثم إلى ٤٢٪ في حالة غانا و٤٨٪ في حالة كل من اثيوبيا وأنجولا ، و ٦٠٪ في حالة كل من كينيا والكنغو وتونس ، ثم إلى ٧٥٪ في حالة كل من الجزائر والمغرب ، وترتفع إلى ١٣٢٪ في حالة السودان ، و ١٤٤٪ في حالة اتحاد جنوب افريقية . وإذا أخذنا افريقية ككل لوجدنا أن التصدير فيما بين الدول الافريقية يبلغ حوالى ١١٪ من مجموع صادرات القارة إلى سائر دول العالم ، وأن الاستيراد فيما بينها يبلغ حوالى ٨٪ بمتوسط قدره ٩٥ من مجموع تجارة الصادر والوارد (١) .

(١) تقرير هيئة الأمم المتحدة (سنة ١٩٦١) ص ٤ - ٥

ويمكن القول أن ٩٠٪ على الأقل من التبادل التجارى المسجل للقارة يتم مع بلدان من خارج القارة . وإن كان من غير المستبعد وجود نوع من التبادل التجارى غير المسجل بين الدول الإفريقية على طول حدودها الطويلة . وتجارة إفريقية المدارة - بصيغة خاصة - قليلة للغاية ، إذ لا تتجاوز ٣٪ من قيمة الصادرات العالمية ، ٣٣٪ من قيمة واردات العالم (١) .

ويمكن إرجاع ارتباط الدول الإفريقية تجاريا مع الدول الأوربية الى عوامل كثيرة منها ارتباط الاقتصاد الإفريقى بالاقتصاد الاوروبى الصناعى منذ عهد الاستعمار - وهى صلات استمرت بعد أن حصلت أغلب الدول الافريقية على استقلالها . كما يمكن إرجاعه كذلك إلى ارتباط كثير من الدول الافريقية بالاتحادات الاقتصادية الأوربية كالكنولت البريطانى والاتحاد الفرنسى والسوق الاوربية المشتركة ، أو إلى ارتباطها بالمناطق النقدية الأوربية - وخاصة منطقى الاسترلىنى والفرنك الفرنسى - مما سهل من إجراء التبادل التجارى ضمن تلك المنطقة ، وخاصة بعد وضع القيود على القطع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبعد إنشاء اتحاد المدفوعات الاوروبى - مما زاد من تعزيز العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية والدول الأوربية فى صادراتها و وارداتها وقروضها واستثماراتها .

وفى نفس الوقت بدأت بعض الدول الافريقية تجد من التسهيلات التجارية والائتمانية السوفيتية ما جعلها تزيد من علاقاتها التجارية بشرق أوروبا وخاصة الاتحاد السوفيتى ، كما كان للنمو الصناعى السريع فى اليابان ، وشدة انخفاض أسعار السلع اليابانية أثره فى زيادة المشتريات من هذه الدولة ، وشجع على ذلك انخفاض واردات بعض الدول الإفريقية من بعض السلع الاستهلاكية - كالمنسوجات مثلا - واتجاه مثل هذه الدول نحو الاهتمام باستيراد الآلات .

وقد بدأ النفوذ الاقتصادى الأمريكى فى القارة الافريقية منذ الحرب الثانية - عندما وضع مشروع مارشال ، وزاد هذا النفوذ الاقتصادى منذ سنة ١٩٥٠ عن طريق إدارة التعاون الاقتصادى الأمريكى التى مولت معظم المشاريع الافريقية - وخاصة إنشاء الطرق . كما تعد برنامج المعونة الفنية - أو ما يسمى بالنقطة الرابعة

G. H. T. Kimble, op. cit., Vol. 1, p. 419. (١)

في بعض الدول الافريقية منذ الحرب العالمية الثانية . ولا شك أن المعونة الأمريكية - والتي سبقت الإشارة إلى ضخامتها - قد زادت من تجارة كثير من الدول الافريقية مع الولايات المتحدة - وخاصة بالنسبة للخمات الزراعية والمعدنية .

امكانيات التكامل الاقتصادي بين الدول الافريقية

تظهر لنا الملاحظات الثلاث السابقة بوضوح أن هناك بعض المشاكل التي تؤثر - وقد تعرقل - في تحقيق التكامل الاقتصادي التام بين الدول الافريقية . ذلك أنه بالرغم مما يمكن في الانتاج افريقي من إمكانيات هائلة للتعاون الاقتصادي بين الدول الافريقية - فان تحقيق التكامل الاقتصادي بين الدول الافريقية لا بد أن تسبقه الكثير من الاجراءات والتنظيمات الاقتصادية والسياسية . والواقع أنه لا يمكن تحقيق تكامل اقتصادي بين دول افريقية ذات اقتصاديات متخلفة ، لأنها جميعاً تشابه في إنتاجها للمواد الأولية التي تستهلك في الدول ذات الاقتصاديات المتطورة . وبذلك يعتمد كل منها على الاقتصاديات المتطورة . كذلك لا يمكن أن يكون هناك تكامل اقتصادي بين اقتصاد شديد التطور كالاقتصاديات دول غرب أوروبا والولايات المتحدة وبين اقتصاد متخلف ويطيء النمو كالاقتصاد الافريقي - ذلك لأن الاقتصاد المتخلف قد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد المتطور ، ولكنه غالباً ما يكون تابعاً له ، خاضعاً لمشيئته . وبين التبعية الاقتصادية والتكامل الاقتصادي فرق كبير للغاية . وعلى ذلك يمكن أن نشير إلى بعض الاجراءات التي يمكن اتخاذها لتحقيق الوحدة الاقتصادية والتكامل الاقتصادي بين الدول الإفريقية .

أولاً: يجب وضع خطط شاملة للتطور افريقي لجميع الدول الافريقية أو لأغلبها لتصل إلى درجة مقارنة من النمو الاقتصادي ، على أن يكون هناك نوع من التخصص لكل إقليم أو لكل منطقة في إنتاج السلع التي تتوفر لها مقومات انتاجها الأساسية ، وأن تكون لهذه السلع أسواقاً مضمونة . ولذلك فامكانيات التكامل الاقتصادي مرتبطة أوثق الارتباط بامكانيات التطور الاقتصادي لكل دولة إفريقية في إطار التطور افريقي العام .

ثانياً: تتطلب التنمية الاقتصادية للدول الافريقية حل مشكلة نقص الأيدي العاملة في بعض المناطق الغنية بمواردها الطبيعية القابلة للاستغلال ، وذلك عن

طريق الساح بالمجرة من المناطق الافريقية المزدهة بالصكان - التي تضيق مواردها عن إطالة سكانها الكثيرين . كما يجب استخدام أساليب العلم الحديث لاستغلال الأرض واستغلال البيئة استغلالاً طيباً بما يتوفر حالياً من أيد عاملة .

ثالثاً : ما دام العدد الاكبر من القوى العاملة في افريقية يعمل بالزراعة - كان تحسين أساليب الزراعة من الزم الأمور ، وتوسيع رقعة الأرض الزراعية وزيادة الانتاج الزراعى من أهم الضرورات . والواقع أن التطور الزراعى فى بعض المناطق المدارية تقف في وجهه كثير من الصعوبات ، ولكن بالعزيمة والصبر وتكاتف الدول الافريقية ، وباستخدام الآلات والاساليب العلمية الحديثة يمكن التغلب على مثل هذه الصعوبات . كما أنه يجب أن تحاول الدول الافريقية زيادة إنتاجها من المواد الغذائية ما أمكن .

رابعاً : فى مناطق السافانا يمكن الاكثار من أعداد الحيوانات بعد القضاء على ذباب تسي تسي وعلى أمراض الحيوانات . ويعتمد التطور الرعوى فى المناطق شبه الجافة على تحسين موارد الماء وتوزيعها فى المناطق الرعوية ، كما يجب العناية بالسلالات الحيوانية ، وبمنتجات اللحوم والألبان والجلود والصوف .

خامساً : تطوير الصناعات التحويلية التي تتوفر لها مقوماتها الأساسية — وخاصة وأن إمكانيات التطوير الصناعى كبيرة للغاية — فالخامات الزراعية والمدنية متوفرة وفائضة ، والقوى المحركة يمكن استنباطها من الفحم أو البترول أو من القوى المائية الكامنة الضخمة . أما رأس المال فيمكن الحصول عليه من تصدير الفائض من الخامات الزراعية ، أو من الخامات المعدنية — وخاصة لو تحررت صناعة التعدين من السيطرة الأجنبية ، مع الاقلال بقدر الامكان من استيراد السلع الاستهلاكية — وخاصة الكمالية منها .

سادساً : لن يكتب لمشروعات التطور الاقتصادى أى نجاح إلا إذا ارتبطت بها مشروعات هامة وكبيرة لم شبكات الطرق والسكك الحديدية والقنوات الملاحية فى داخل كل دولة ، وبين كل دولة وأخرى . وقد فكرت بريطانيا أثناء سيطرتها على كثير من الدول الافريقية فى ربط جميع مستعمراتها بالسكك الحديدية والطرق والقنوات الملاحية ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير — لخدمة أغراضها الاقتصادية

والاستراتيجية ، وأولى بالدول الافريقية أن تعطى لهذا الموضوع ما يستحقه من عناية وأولوية .

سابعاً : يتطلب كل ذلك توفر موارد مالية ضخمة قد لا تتوفر لكثير من الدول الافريقية في الوقت الحاضر . ولكن إلى أن يحين الارتفاع بمستوى المعيشة ، والارتفاع بالقدرة على الادخار — يمكن للدول الافريقية اتخاذ إجراءات معينة للحد من الاستهلاك ، وتشجيع استيراد السلع الإنتاجية ، وتشجيع الاستثمار في المشاريع الاقتصادية .

ثامناً : بعد عمليات التطوير الاقتصادي هذه يمكن أن تزداد العلاقات التجارية بين الدول الافريقية . فالمناطق الاستوائية بمنتجاتها المتنوعة كالكافور وزيت النخيل والمطاط والتوابل ومواد العقاقير . والمناطق المدارية بمحاصيلها الغذائية والتجارية كالأرز والذرة وقصب السكر والشاي والبن والقطن ، ومناطق البحر المتوسط بإنتاجها من القمح والمواخ والزيتون ، ومناطق الرعي بإنتاجها الحيواني الضخم ، ومناطق الغابات بمنتجاتها الخشبية ، ومناطق التعدين بإنتاجها الضخم من المعادن المتنوعة — كلها تكون أساساً ممتازاً للتكامل الاقتصادي لو أحسن استغلال هذه الموارد ، وزادت العلاقات الاقتصادية بين الدول الافريقية .

تاسعاً : ومع ذلك فليس هناك ما يمنع في الوقت الحاضر من إنشاء ما يشبه السوق الافريقية المشتركة — ترفع فيه الحواجز الجمركية على المنتجات الافريقية — فترداد كما وتحسن نوعاً . كما أنه ليس هناك ما يمنع من إنشاء وحدات اقتصادية صغيرة متكاملة تتفق مع الحقائق الجغرافية : الطبيعية والبشرية — مع تحقيق انسجام وتعاون بين هذه الوحدات .

عاشراً وأخيراً : ليس تحقيق التطور الاقتصادي وإيجاد نوع من التكامل الاقتصادي بين الدول الافريقية بالأمر الهين — لأنه باختصار يتطلب تغييراً جذرياً لكثير من مظاهر البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، كما يتطلب ثورة في التفكير الاقتصادي الافريقي ، والبعد بقدر الامكان عن التفكير الاقتصادي التقليدي . وفوق ذلك كله يتطلب نوعاً من الوحدة أو الاتحاد السياسي بين الدول الراغبة في تحقيق مثل هذا التكامل والتعاون الاقتصادي .

وقد تبدو مثل هذه الأمور بعيدة عن التحقيق في وقتنا الحاضر — ولكن من يدري ؟ فقد تتحقق في المستقبل القريب .

بعض المراجع الهامة

- BARBOUR, K. M. and PROTHERO, R. M. (Editors), Essays on African Population, London, 1961.
- BARBOUR, NEVILL, A Survey of North West African, The Maghrib, London, 1959.
- BATTEN, T. R., Problems of African Development, London, 1960.
- CLARK, LE GROS and OTHERS, The New West Africa : Problems of Independence, London, 1953.
- FITZGERALD, W., Africa, A Social, Economic and Political Geography of its Major Regions, London, 1948.
- HAILEY, LORD, An African Survey, Revised 1956 : A Study of Problems Arising in Africa South of the Sahara, London, 1957.
- HAINES, C. G. (Editor), Africa Today, Baltimore, 1955.
- HANCE, W. A., African Economic Development, London, 1961.
- HAZLEWOOD, A., The Economy of Africa, London, 1961.
- HUNTER, GUY, The New Societies of Tropical Africa, London, 1962.
- KIMBLE, GEORGE, H. T., Tropical Africa, New York, 1962.

Vol. I, Land and Livelihood.

Vol. II, Society and Polity.

- PETCH, G. A., Economic Development and Modern West Africa, London, 1961.
- PHILLIPS, JOHN, Agriculture and Ecology in Africa, London, 1959.
- STAMP, L. DUDLEY, Africa : A Study in Tropical Development, New York, 1952.
- THOMPSON, V. and ADLOFF, R., The Emerging States of French Equatorial Africa, London, 1961.

« الوديعة » في القانون الإثيوبي

١٩٧٣ : ١٩٧٣

الدكتور عبد السميع محمد احمد

مقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة باب « الوديعة » من القانون الإثيوبي
: ١٩٧٣ : ١٩٧٣ ، ذلك القانون الذى يعد ترجمة طيبة للمجموع الصغرى ،
لابن العسال^(١) ، وكانت ترجمته استجابة لطبيعة الصلات التى تربط الكنيسة
الأرثوذكسية فى الإسكندرية والحبشة منذ القرن الرابع لميلاد المسيح
(عليه السلام) .

وباب الوديعة أحد الأبواب الهامة التى طلجت مسائل « المعاملات » ، كالمبيعات ،
والإيجارات ، والشركة ، والهبة ، وغيرها مما يمس شئون الناس فى حياتهم الرتيبة .
وبعض هذه المسائل مستمد من أصول مسيحية ؛ فان هذا القانون كان يعد جامعاً
للتشريعات التى يحتاجها من يعتنق الديانة المسيحية من أهل مصر . وبعضها ، وهو
الكثير الغالب ، مستمد من مصادر إسلامية ؛ فان التشريع الذى كانت تدن به
مصر إبان جمع هذا القانون ، كان التشريع الإسلامى .

وكان نقل هذا القانون من اللغة العربية إلى اللغة الجعزية عملاً أديها ما يحتاج
إلى الدرس والتعمق ، والتعرف على مدى إصابة هذا النقل ، وما يكون قد خضع
له من عوامل راجعة لطبيعة اللغتين ، أو حاجة من ترجم لهم .

(١) انظر فى التعريف بابن العسال ، لكتاب هذا البحث : : ١٩٧٣ : ١٩٧٣

ص ٢ ، وما بعده ، طبع بمطبعة جامعة القاهرة .

ومن أجل ذلك شملت الدراسة جوانب ثلاثة :

الأول : دراسة موضوعية لباب الوديعة ، تبين صلاته بمصادره الأولى ، ومدى مساهمته لها واختلافه معها ، ومحاولة التعرف على الآثار الشخصية لجامعه ، ومترجمه ، والوضع القانوني لهذا جميعه .

الثاني : دراسة لغوية مقارنة للنصين : العربي والإتيوبي ، استهدفت أمرين :

(أ) التعرف على الزيادات في أحد النصين المتقدمة في الآخر ، وأثر هذا من الناحية التشريعية .

(ب) دراسة ما قد يكون في الترجمة الإتيوبية من مخالفات للنص العربي ، ذلت أثر أو غير ذات أثر لغوي أو تشريعي .

الثالث : وكان من المفيد بعد ذلك كله ، أن يعاد نشر النص العربي نشرأ علمياً يحقق الغرض من هذه الدراسة ، التي أرجو أن تكون مثمرة ، إن شاء الله .

— ١ —

الدراسة الموضوعية

تمهيد :

يضع القانون الإتيوبي **باب الوديعة** بعد باب « العارية » ، وهما من أبواب المعاملات ، ويجمعهما أكثر من سبب ، فالعارية أمانة ، وإن كانت تملك المنفعة بغير عوض ، والوديعة أمانة ، ولكن دون تملك . وهما عقدان من عقود الالتزام ، لا بد فيهما من توافق إرادتين توافقاً يترتب عليه أثر قانوني ، هو ملك المنفعة في العارية ، وحق الاستحقاق في الوديعة .

وتختلف كتب التشريع الإسلامي في وضع هذين البابين بين أبواب المعاملات . فلقنطوري (٤٢٨ هـ) ، والسرخسي (٤٨٣ هـ) ، والكاساني (٥٨٧ هـ) ، والميرغني (٥٩٣ هـ) . - من الحنفية ، والشرازي (٤٧٦ هـ) - من الشافعية ، وابن رشد (٥٩٥ هـ) - من المالكية ، يقدمون باب الوديعة على باب العارية . والطحاوي

وورد لفظ الوديعة في العهد الجديد، في غير هذا المهدف الذي تقصده كتب التشريع والقوانين : بابا من أبواب المعاملات ، وإنما جاء بمعنى « الأمانة » التي تحملها الرسل الحواريون والتلاميذ لصياتها ، وتبليغها إلى الناس : وصايا الحياة الدائمة الرامية إلى نفع البشر : « ياتيموتاوس . احفظ الوديعة معرضاً عن الكلام الباطل الدنس وغالقات العلم الكاذب الاسم . الذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان (١) » .

وإذا كان العهد الجديد لم يعن بتوضيح الأحكام التشريعية التي تفيد الناس في حياتهم الدنيوية العملية ، مكتفياً بما جاء في ناموس موسى ، أو بما ترتبه قوانين البلاد التي يعيش بها أتباع المسيح (عليه السلام) ، فإن ما جاء خاصاً بأحكام الوديعة في العهد القديم ، لا يفي بسائر مقتضيات هذه الحياة .

ومن أجل ذلك ، كان لا بد من تلمس منابع الأخرى لأحكام الوديعة ، في تشريعات البلاد ، أو في قوانين عدتها الكنيسة بين ما تعتد به من مصادرها .

والقوانين المنسوبة إلى «جستنيان» والتي تضمها «مدونته» ، لا تتحدث بتفصيل عن أحكام الوديعة كذلك ، وإنما تشير إليها في ثنايا حديثها عن قضايا غيرها . وسترّد في أثناء هذا البحث ، الإشارة إلى هذه الأحكام الواردة في المدونة ، عند معالجة مسائل الوديعة بالتفصيل .

وإنما خصصت « مدونة جستنيان » ، لأن رجال القانون في عصره ، استفادوا مما سنه رجال الدين في عهود من سبقه من الملوك ، ومس شؤون الحياة المدنية ، وأصبح مما يمكن أن يلجأ إليه من تشريعات البلاد . وربما رأى بعض رجال الدين الاسترشاد بما جاء بها ، استناداً إلى سبق تأثيرها بما قرره رجال الكنيسة في مجامعهم المسكونية .

وإذا ضم جميع ذلك بعضه إلى بعض ، أمكن القطع بأنه لم يكف لأن يستمد منه ابن الصال مجموعه ، ومن ثم كان له مندوحة في أن يتجه إلى تشريع البلاد التي حاش بها ، فوجد في كتب الفقه الإسلامي كل ما أراد .

(ب) المصادر الإسلامية

يعالج القانون الإتيوبي مسائل الوديعة علاجاً يأتي على كثير من النقاط التي ينتظر أن تثار في قانون مدني ، وعلى نهج غير ما وجد في المصادر المسيحية وما اتصل بها ، مع جازة ما ورد بها في هذا الصدد . وقد تبين بوضوح ، وقد عاش الجامع الأول للقانون ، وهو ابن العسال ، في بيئة تدين بأحكام التشريع الإسلامي ، ويستمع إلى آرائه جميع من يحتكون إليه من سكان هذه البيئة - تبين أنه استفاد كل الاستفادة من كتب التشريع الإسلامي على اختلاف آراء علمائه وتعدد مذاهبهم . غير أن تأثره بالمذاهب الأربعة المشهورة ، خاصة مذهب الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة ، كان بادئ المعالم . ويمكن القول إن كتباً بعضها تعالج قضايا الفقه الإسلامي متبعة هذين المذهبين ، أثرت في هذا القانون أبلغ التأثير ، وقد وضع هذا في الدراسة المفصلة لأبواب : « القرض ، والرهن ، والضمان والكفالة »^(١) ، و « المبيعات »^(٢) ، و « الهبة »^(٣) ، كما ستكفل الدراسة في هذا البحث ، بجلاء ذلك في موضوع : « الوديعة » .

الوديعة

عقد الوديعة :

يفيد المفهوم اللغوي للفظ « الوديعة » في بعض معانيه : الترك ، والصيانة والحفظ . وجميع هذا يراد في المفهوم الاصطلاحي لهذه اللفظة ، فالودع يترك ماله لدى شخص آخر بقصد حفظه وصيانيته .

ويقابل هذا في الإتيوبية مادة : **ወደቀ** ومشتقاتها . فالفعل : **ወደቀ** من معانيه : حفظ ، صان ، ربي (الطفل) ورعاه . والاسم منه : **ወደቀኛ** و **ወደቀኛ** ، واللفظة :

-
- (١) انظر : فتح نجشت : ١٣٢ - ١٩٢ ، الذي طبع بمطبعة الجامعة .
(٢) انظر لكتاب هذا البحث : « الهبة في القانون الإتيوبي » . مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة : المجلد ٢١ ، العدد الثاني - ديسمبر سنة ١٩٥٩ ، الصادر في سنة ١٩٦٣ .

الآخيرة تطلق على الشيء المحفوظ : الوديعة . والفعل الرابعى : አግዳጅ : معناه : أودع ، استحفظ . ومن ثم يرد هذا التعريف لمعنى الوديعة الاصطلاحي ، الذي جاء في القانون الإثيوبي : وهو :

ማሕበረሰብ፡ ንጥፍ፡ ይለቲ፡ ዘይህብ፡ አግዳጅ፡ ለዘያግሰቅ፡ ከመ፡ ይቅጥ፡ ለቱ፡ ዘእንበል፡ ከቅጥ፡ እምኒህ፡ ጊዜ፡ አግዳጅ፡::^(١)

وترجمته : الوديعة هي الشيء الذي يدفعه المودع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض حين استعادته . وهذا التعريف يتحدث عن العناصر الواجب توافرها عند الارتباط بعقد الوديعة ، وهي : المودع ، والمودع عنده ، ومحل الوديعة ، كما يتحدث عن موجب هذا العقد ، وهو : الحفظ دون تبعة تقابله يتحملها المودع ، ولكنه لا يعرض لأساس العقد وماهيته .

وتشير مواضع أخرى من القانون إلى شيء يفيد في هذا المجال ، حين يتحدث عن ركن « القبول » ، الذي يصدر من المودع عنده ، بعد صدور ركن « الإيجاب » من المودع ، وترتب عليه أحكاماً عدة . نقول :

ፀሐዚ፡ ተፀከሩ፡ ይደል፡ ከመ፡ ይቅጥ፡ በጊዜ፡ ጸህቱ፡::^(٢)

وترجمته . ومن قبلها (أى الوديعة) ، لزمه حفظها بمزيد اهتمام . و :

ፀዘሂ፡ ተፀከሩ፡ ግሕፀንተ፡ ዘእገዚሉ፡ ፀተመጠ፡ እምእደ፡ ሐጥርያሁ፡ እገዚሉ፡ ፀለቱ፡ አግዳጅ፡ ፀለቱ፡ የሀበ፡ ፀለከ፡ ለሐጥርያሁ፡ ዘእንበል፡ በትእዛዙ፡::^(٣)

وترجمته : ومن قبل وديعة لالكها من يد رسوله ، فالكها هو المودع ، وله تسليم ، لالرسول إلا بأمره . و :

ፀዘሂ፡ ተፀከሩ፡ ግሕፀንተ፡ እም ፳፡ ፀይዲሉ፡ ከመ፡ ይመጥ፡ ለካለኩ፡ ይደል፡ ይመጥ፡ ለካለኩ፡ ካለኩ፡::^(٤)

(١) ش : ٤/١٩٠ .

(٢) ش : ٨/٢/١٩٠ .

(٣) ش : ١٤/١/١٩٢ .

(٤) ش : ١٩/١/١٩٢ .

وترجمته : ومن قبل ودیعة من واحد ، علی أن یسلمها لآخر ، فعليه أن یسلمها لذلك الآخر . و :

ወዘሂ፡ ተወከረ፡ ግዴታ፡ ወእያን፡ አእመረ፡ ከሙ፡ አግደሃኒ፡ ለ
ረቃ፡ አሙ፡ ተገባ፡ በኃይል፡ ይደሉ፡ ሉቲ፡ ከሙ፡ ይተልሙ፡ በከፊ
በተ፡(۱)

وترجمته : ومن قبل ودیعة قد علم أن یودعها سرقها أو اغتصبها ، لزمه أن یغرم الضعف .

والنصوص السابقة كلها تشير إلى ركن « القبول » من المودع ، یصدر عنه قولاً أو عملاً ، بعد صدور الركن الأول : « الإيجاب » من المودع . وبهذين الركنين یؤفر أساس العقد ، متى صدرا عن هما أهل لإصدارهما ، حسب للشروط الواردة فی القانون .

ومعنی هذا أن الودیعة تندرج مع عقود الالتزام الناشئة عن ارتباط قانونی بین شخصین یملكان إبرام هذا الارتباط . ویفق النص الإتیوبی إذاً مع غیره من التشريعات الی حاجت موضوع الودیعة ، ومن بینها كتب التشريع الإسلامی . یقول أبو إسحق الشیرازی فی كتابه : المهذب : « تنعقد الودیعة بما تنعقد به الوكالة من الإيجاب بالقول ، والقبول بالفعل (۲) » . ویقول صاحب العناية : « . . . وركنها : أودعتك هذا المال ، أو ما قام مقامها فعلاً كان أو قولاً ، والقبول من المودع حقيقة أو عرفاً ، فان من وضع ثوبه بین یدی رجل ، وقال هذا ودیعة عندك ، وذهب صاحب الثوب ثم غاب الآخر وترك الثوب ثمة ، فضاع ، كان ضامناً (۳) » .

العاقدين :

١ - والتحديد الاصطلاحي لمعنی الودیعة ، الذي ذكره النص الإتیوبی ، یتحدث عن العاقدين اللذين یمثلان العقد ، ویترك الشروط الواجبة فهما إلى عبارة موجزة ترد قرب نهاية مسائل الودیعة ، تقول : « ولا یصح الإيداع إلا من جائز التصرف

(۱) ش : ۲۱/۲/۱۹۲

(۲) المهذب : ۱ : ۳۶۲

(۳) العناية : ۷ : ۸۸

ويطلبه ، وعند جازر التصرف وبقوله^(١) . وليست هناك أية إشارة أخرى في هذا الباب إلى حدود « جواز التصرف » ، التي تقبل في هذا الموضع ، وكذلك ليست فيه إحالة على موضع آخر لاتماسها . ومن الضروري إذاً ، الاسترشاد بما ذكر عن العاقدین وشروطهما في أبواب أخرى من أبواب المعاملات يمكن القياس عليها .

ففي باب الهبة ، وهو أول أبواب المعاملات في هذا القانون ، حديث عن الواهب وشروطه ، حيث يقول : « لا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغاً رشيداً حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له »^(٢) .

وفي باب « القرض والرهن والضمان والكفالة » ، يقول : « ولا يجوز أن يكون المقرض والمقرض والمؤتمن على الرهن إلا من يجوز تصرفه »^(٣) ، ويقول : « أما ضمان المال ، فمن صح تصرفه في ماله صح ضمان ماله غيره »^(٤) .

وفي باب العارية يقول : « وكل من جاز تصرفه في ماله جاز له أن يعير كل ماله أن يتصرف فيه ، وأن يستعير كل ما يجوز أن ينتفع مع بقاءه محفوظ العين »^(٥) . وهذه النصوص كلها في أبواب تتبع باب الوديعة ، وهي ، عدا ما جاء في باب الهبة ، تتحدث عن « جواز التصرف » شرطاً واجباً فيمن يباشر العقد ، وتترك تفصيل ماهية هذا الشرط . وإذا جاز اعتبار ما جاء في باب الهبة صالحاً في هذا الموقف ، وجب أن تعرض له المناقشة هنا ، عسى أن يتحدد مفهوم « جواز التصرف » في عقد الوديعة .

لا جدال ، في رأي ابن الصال نفسه ، في أن عقد الهبة يجب أن تلتبس له ضمانات خاصة ، تقديرآ لآثاره ، وصيانة له من العبث . وإذا كان « المال » محك المعاملات ، ومدار صلاح المجتمع البشري ورقى العمران ، اشترط فيمن يتولى

(١) ابن الصال : المجموع الصفوى : ٢٣٧

(٢) المجموع الصفوى : ٢٢٢

(٣) المجموع الصفوى : ٢٢٨

(٤) المجموع الصفوى : ٢٢٩

(٥) المجموع الصفوى : ٢٣٤

إدارته ، ومسائل الوديعة مما يدخل في مجاله ، أن يكون أهلاً للتصرف . ومن ثم لا تصح عقود الصبي ، والمجنون ، والسفيه ، ولا تقبل منهم الودائع لقصور الأهلية . فمن دفع ماله إلى صبي أو إلى مجنون أو إلى سفيه ، وديعة ، ثم ضاع المال ، فقد خرج عن الضمان . وينبغي ، إذا ما لوحظ تعبير ابن الصال السابق ، ألا يفرق بين حالي الصغير في تمييزه وعدم تمييزه ، وكذلك بين أن يكون قد أذن له أو لم يكن قد أذن له . فكلّاه في باب الهبة سار على هذا النهج . والمسألة التي تردد فيها ابن الصال تبدو في قوله : « وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة ، فله أن يتكلم فيها من بعد بلاغه بأربع سنين ، ويعود يأخذ شيئاً إذا أراد^(١) » . فهو لا يقر تصرف الصبي ، بل لا يقره في حضرة أبيه ، ولو كان ذلك « بأمره أو براءه » ، ويجعل الهبة للأب تقدير^(٢) .

ويلاحظ أن القانون الروماني كان يقر تصرفات الصغير إذا صدرت بأذن وصيه في مجلس العقد ، « فالمعاملات التي تقرب عليها التزامات متبادلة كالبيع والإيجارات والتوكيلات والودائع ، إذا خلت عن إذن الوصي ، فملتعاقدون فيها مع القصر يكونون مرتبطين بالتزاماتهم ، وأما القصر فلا يصبح لهم فيها التزام^(٣) » .

ويقبل رجال الفقه الإسلامي تصرفات الصغير المأذون ، فإن ذلك من مستلزمات التجارة . يقول الكاساني في بيان شرائط المودع : « ... فلا يصح الإيداع من المجنون والصبي الذي لا يعقل ، لأن العقل شرط أهلية التصرفات الشرعية . وأما بلوغه ، فليس بشرط عندنا ، حتى يصبح الإيداع من الصبي للمأذون ، لأن ذلك مما يحتاج إليه التاجر ، فكان من أنواع التجارة » . وكذلك الشأن في المستودع ، « فلا يصح قبول الوديعة من المجنون والصبي الذي لا يعقل . . . وأما بلوغه فليس بشرط ، حتى يصبح قبول الوديعة من الصبي للمأذون . . . ألا ترى أنه أذن له الولي ، ولو لم يكن من أهل الحفظ لكان الإذن له سفيهاً^(٤) » .

غير أن الشافعي (رحمه الله) لا يرى هذا الرأي ، فالصبي لا يملك التجارة ، فلا يملك توابعها . وقد عير عن هذا الرأي ، الشيرازي في كتابه : المذهب ، قال : « لا يصح

(١) المجموع الصفوى : ٢٢٣

(٢) المجموع الصفوى : ٢٢٤

(٣) مدونة جستنيان : ٤٢ - ٤٣

(٤) الكاساني : بدائع الصنائع : ٦ : ٢٠٧

الإيداع إلا من جاز التصرف في المال ؛ فإن أودعه صبي أو سفيه ، لم يقبل ، كالبيع . . . ، ولا يصح الإيداع إلا عند جاز التصرف . . . فإن أودع عند أحدهما (الصبي أو السفيه) ، فتلغ عنده ، لم يضمن ، لأنه لا يلزمه فلا يضمنه (١) .

وأوجز الشيرازي هذا الرأي مرة أخرى في كتابه : « التنبيه » ، فقال : « لا يصح الإيداع إلا من جاز التصرف ، عند جاز التصرف (٢) » . وهي نفس العبارة التي ارتضاها ابن العسال فنقلها إلى كتابه ، وقال : « ولا يصح الإيداع إلا من جاز التصرف وبطله ، وعند جاز التصرف وبقبوله (٣) » .

واللفظان الزائدان في عبارة ابن العسال : « وبطله ، وبقبوله » يؤكدان معنى الإرادة المتطلب في العاقدين ، المستمدين لتحمل تبعات العقد ، ويشيران من جهة أخرى ، إلى ركني العقد : الإيجاب ، والقبول .

وإذا أمكن حمل عبارة ابن العسال الموجزة ، على ما ذكره في باب الهبة ، وحسب التوضيح السابق ، صح أن تلاحظ بقية الشروط الواردة في عبارته كذلك . غير أن مسائل الوديعة عريت عن أى إشارة لعلاجها ، فحسن أن يكتفى بهذا القدر ، في هذا المجال .

ومتى صدر العقد بطلب المودع ، وقبول المودع ، الحازنين أهلية التصرف ، تم ، وترتبت عليه آثاره ؛ فحق لصاحب الوديعة أن تحفظ له وديعته ، والتزم المودع أن يحفظها له ، على النحو الذي بينه القانون .

حفظ الوديعة :

(١) لعل أول أثر من آثار إنشاء عقد الوديعة ، هو ثبوت حق الحفظ للمودع ، يكسبه دون أن يقابله عوض من جانبه ، حتى لو نص على ذلك كان مخالفا لمقتضى عقد الوديعة ، لايبأ به . وقد رأى ابن العسال ألا يترك الحديث عن حق المودع في الحفظ دون أعباء تلزمه ، قبل أن ينص عليه صراحة ، فقال : « الوديعة هي

(١) الشيرازي : المهلب ١ : ٣٦١

(٢) الشيرازي : التنبيه : ١٢٦

(٣) المجموع الصفوى : ٢٣٧

الشيء الذى يدفعه المودع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض إلى حين استعادته (١) .

وهذا الحق نفسه بعد التزاما من جانب المودع لديه ، « لأن الإيداع من جانب المالك استخفاظ ، ومن جانب المودع التزام الحفظ ، وهو من أهل الالتزام (٢) » . ويعبر رجال القانون عن هذا الموقف بقولهم : « الحق في المعاملات مصلحة ذات قيمة مالية يقرها القانون للفرد ، وهو إما حق عيني ، أو حق شخصي . والحق الشخصي هو الالتزام . ويسمى حقا إذا نظر إليه من جهة الدائن ، والتزاما إذا نظر إليه من جهة المدين . . . (٣) » .

ومن حق المودع لديه أن يختار طريق حفظ الوديعة ، بقدر اجتهاده ، وعلى الوجه الذى يرضيه لحفظ ماله هو .

ولم يوضح ابن العسال مطلقا حفظ الوديعة ، مكتفيا بالعبارات العامة ، مثل قوله : « . . . حفظها بقدر اجتهاده ، والمصلحة عنده في حفظ مثلها من ماله » ، ومثل : « حرز مثلها » . وكان يمكن ترك المسألة دون مناقشة ، لو لم يكن قد وضع بعض قيود في مواضع متفرقة .

ورجال الفقه الإسلامى الذين أخذ عنهم ابن العسال ، يوضحون الموقف في هذه المسألة . ويلخص ابن رشد الحفيد رأى بقوله : « . . . فعند الجميع أنه يجب عليه أن يحفظها مما جرت به عادة الناس أن تحفظ أموالهم ، لما كان بيتا من ذلك أنه حفظ اتفق عليه ، وما كان غير بين أنه حفظ اختلف فيه (٤) » .

ويرى كثير من العلماء : « أن للمودع أن يحفظ الوديعة بيد نفسه ومن هو في عياله ، وهو الذى يسكن معه ويعونه ، فيكفيه طعامه وشرابه وكسوته ، كائناً من كان ، قريبا أو أجنبيا ، من ولده وامرأته وخدمه وأجيريه ، لا الذى استأجره

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٤

(٢) البدائع : ٦ : ٢٠٧

(٣) عبد اترزاق السنهورى : الموجز في النظرية العامة للالتزامات ١ : ٢

(٤) بداية المجتهد ١ : ٤٢٦

بالدراهم والدنانير ، ويد من ليس في عياله ممن يحفظ ماله بنفسه عادة كشریکه المقاض والعنان ، وعبد الموزول عن بيته ^(١) » . ويعلل صاحب الهداية هذا بقوله : « . لأن الظاهر أنه يلتزم حفظ مال غيره على الوجه الذي يحفظ مال نفسه ، ولأنه لا يجد بدا من الدفع إلى عياله ، لأنه لا يمكنه ملازمة بيته ، ولا استصحاب الوديعة في خروجه ، فكان المالك راضيا به ^(٢) » . ويزيد الأمر وضوحا فيما يتعلق بالمساكنة ، فلا يخص المساكن بمن يكون في ثقة المودع حسب ، « فان المرأة إذا أودع عندها شيء جاز لها أن تدفع إلى زوجها . . » ، ومعلوم أن الزوج يساكن زوجته ، ولا تجب عليها ثقته .

ومن أجل ذلك لا تجاب رغبة المودع إذا طلب من المودع لديه ألا يحفظ الوديعة لدى أحد من هؤلاء ، إلا إذا تحققت خيافته . جاء في الجامع الصغير : « إذا نهاه أن يدفعها إلى أحد من عياله ، فدفعها إلى من لا بد له منه ، لا يضمن ^(٣) » ، لأنه لا يمكن إقامة العمل مع مراعاة هذا الشرط وإن كان مفيدا ، فيلغو .

والأمر كذلك في أماكن الحفظ . فالأحراز التي يحفظ فيها المودع ماله عادة ، يحق له أن يحفظ بها الوديعة . فلو كانت داره ذات بيوت كثيرة فنهاه أن يحفظ الوديعة في أحدها ، لم يكن محقا في هذا النهي ، لأنه قيد لا تقع فيه . وعلى العكس من ذلك ، إذا كانت له دور كثيرة ، فنهاه عن أن يحفظ الوديعة في إحداها ، كان له ذلك . لتفاوت الخلف في الدارين وتماثله في البيتين .

وفي ضوء هذا يمكن أن يفهم كلام ابن العسال : « نهاه عن أن يسلمها لواحد معين فسلمها له ، أو أمره بتركها في موضع مخصوص ، أو ألا يعجلها في الموضع الثاني ، فخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها ، ضمنها ^(٤) » ، فمن الضرورة الظاهرة أن يحفظ الوديعة عند من يحفظ لديهم ماله ، وفي الأماكن التي اعتاد أن يحوزها فيها . وهذا أولى من إطلاق القيد إلى نهاية مداه ، استنادا إلى الرأي المرجوح

(١) البدائع : ٦ : ٢٠٧ - ٢٠٨

(٢) الهداية : ٧ : ٨٦ - مجلدات فتح القدير .

(٣) ذكره صاحب الهداية : ٧ : ٩٧

(٤) المجموع الصفوى : ٢٣٥

الذي أوردته الشيرازي حين قال : « . . . وإن قال له احفظها في هذا البيت ولا تنقلها ، فنقلها إلى ما دونه ، ضمن ؛ لأنه لم يرض بما دونه . وإن نقلها إلى مثله ، أو إلى ما هو أحرز منه ، ففيه وجهان ^(١) » . وفي موضع آخر أشار إلى الرأي المرجوح بلفظ « وقيل » ، مما يجعل رأي الجمهور أولى بالاتباع . على أن العلماء يرون عن الشافعي (رحمه الله) أن المودع ليس له أن يحفظ إلا بيد نفسه ، إلا أن يستعين بغيره من غير أن يغيب عن عينه ، حتى لو فعل يدخل في ضلته ^(٢) . ولا شك أن هذا أمر بالغ الحرج ، يحرم الناس من التمتع بميزة يحتاجونها في كثير من الأوقات ، وربما يجعلهم يترددون كثيراً قبل أن يقبلوا ودائع غيرهم .

(ب) ويتصل بهذه المسألة موقف المودع إذا اضطر للسفر . وفي رأي الإمام أبي حنيفة أن له أن يسافر بالوديعة وإن كان لها حمل ومثونة . ويمنع صاحبها استصحابها إن كان لها حمل ومثونة ، رعاية له هو . ويمنع الإمام الشافعي استصحابها على أي حال ، لأن الحفظ المتعارف عليه هو حفظ الأمصار . وجبئذ يدفع المودع الوديعة إلى صاحبها أو وكيله . فإن لم يجد كان في استطاعته ، كما يقول ابن رشد الحفيد ، « أن يودعها عند ثقة من أهل البلد ولا ضمان عليه ، قدر على دفعها إلى الحاكم أو لم يقدر ^(٣) » .

ويرى بعض أصحاب الشافعي أنه إن دفعها إلى أمين مع وجود الحاكم ، ضمن . وعبارة الشيرازي في ذلك : « وإن أراد السفر ولم يجد صاحبها ، سلمها إلى الحاكم ، فإن لم يكن فإلى أمين . فإن سلم إلى أمين مع وجود الحاكم ضمن ، وقيل لا يضمن ^(٤) » .

ويخلص ابن الصال هذه الآراء مستفيداً بعبارة الشيرازي ، ويقول : « وإن أراد سفرأ بعيداً ولم يجد صاحبها ولا وكيله ، فينبغي أن يسلمها إلى الحاكم ، فإن لم يمكنه فإلى أمين ^(٥) » .

(١) المهذب : ١ : ٣٦٢ .

(٢) بداية المجتهد : ١ : ٤٢٧ .

(٣) البذائع : ٦ : ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) التنبيه : ١٢٧ .

(٥) المجموع الصفوى : ٢٣٦ .

ويلاحظ أنه خصيص السفر البعيد ، وهو مثار اختلاف بين العلماء ، ووجه النظر إلى ضرورة رد الوديعة إلى صاحبها أو وكيله عند إرادة السفر ، وإلى أنه لا يلجأ إلى الإيداع لدى الحاكم أو الأمين إلا عند تمهذر الرد إلى أيهما . ولكن يشوب عبارته ضعف يغفل ، حين صدر الحكم بقوله : « ينبغي » ، وهي صيغة لا تقبل إلا في مجال الإرشاد والنصح . ولعل رغبته في عدم اقتباس نص الشيرازي جميعه ، هي التي أوجت إليه الصيغة المستحقة النقد .

(ج) وقد ظهر من الفقرتين السابقتين مدى ما يلتزم به المودع من أعباء حفظ الوديعة ، دون أن يقابل ذلك عوض يكافئ به ، بل إن اشتراط العوض ، كما يرى ابن العسال نفسه ، يخرجها عن الوديعة ولا يلائمها . ومن العدالة إذاً ، أن يلتزم صاحب الوديعة بما قد يتفقه المودع ليقبض بقاء العين ، من أجر مسكن أو نفقة طعام . وقد ذكر ابن رشد الحفيد أن « ما يحتاج إليه من مسكن أو نفقة فعلي ربه » . وكذلك يرى ابن العسال ، ويأتي بصيغة أكثر تعمياً ، فيقول : « ومهما غرمه عليها لضرورة فله أن يطالب بها مودعها » . ويثبت للمودع هذا الحق ، فإن امتنع صاحب الوديعة عن رد قيمة ما أتفق ، كان له أن يمنع لديه الوديعة ، رهناً يقابله ، وتخرج منذئذ عن ضمانه^(١) .

الوديعة أمانة :

ينبغي ألا يرفض هذا التعبير : « الوديعة أمانة » ، فبين اللفظين اللذين يتألف منهما تفاوت في منشئهما . فالوديعة لا تنشأ إلا عن « عقد » استحفاظ ، أما الأمانة فقد تكون بغير عقد أصلاً ، كما إذا ألفت الزبح في حجر إنسان ثوب غيره ، وكما إذا وجد إنسان كيس نقود في طريق عام .

ومؤدى اللفظين أمران : أحدهما حفظ الشيء ، والثاني أن استفاد وسائل الحفظ تعفى من يده الشيء من تبعة الضمان عند عدم التعدي .

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٦

وتمتضافر النصوص التي تؤكد هذا الأمر الأخير . فقد جاء في العهد القديم : « إذا أعطى إنسان صاحبه حملاً أو ثوراً أو شاة أو بهيمة للحفظ ، فأت أو انكسر أو نهب ، وليس ناظر . فيمين الرب تكون بينهما : هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوز^(١) » . ويقابل ابن رشد الحفيد بين لفظي « أمانة » و « لا مضمونة » ، ويقول : « اتفقوا على أنها أمانة لا مضمونة ... »^(٢) . ويوضح هذا في مكان آخر ، فيقول : « وبالجملة ، فالفقهاء يرون بأجمعهم أنه لا ضمان على صاحب الوديعة إلا أن يتعدى^(٣) » والوديعة وتقرير الضمان متنافران ، ولو اشترط الضمان في عقد الوديعة ، بطل الشرط لمناقته إياها ، وخروجه على مقتضاها ، وكذلك « المضمون لا يصير أمانة بالشرط » ، وتندر من العلماء من أقره رعاية للعاقدين .

وكذلك يصنع ابن العسال . ومن كلامه في هذا المجال قوله : « فهي أمانة لودعها عند مستودعها » ، وقوله : « . . فان هلك بعد هذا لم يلزمه^(٤) » .

غير أن تقدير العاقدين يختلف في تقرير الحدود التي يزول عنها موجب عقد الوديعة ، وهو عدم الضمان . وهناك مسائل كثيرة تثار في مجال الاستشهاد لآثار عقد الوديعة ، وهي كذلك مظاهر لتفاوت آراء العلماء في تقدير أحكامها .

ويمثل ابن العسال لتقرير عدم الضمان بمثالين :

(١) أحدهما : أن المستودع إذا أراد رد الوديعة لصاحبها مع إمكان ذلك ، ثم امتنع صاحبها عن أخذها ، ارتفع عن المستودع ضمانها .

وهذا المثال على ما يبدو ، لا جدوى منه ، ولا يفيد جديداً . فمن المعلوم أن قيام المستودع بحفظ الوديعة كحفظ ماله ، يجعل يده كيد مالكها ، ويرفع عنه الضمان ، ما لم يتعد . وسواء في ذلك كل ما اتصل إليه يد الإنسان من أموال الغير مما لا يباح له التصرف فيها بسبب من الأسباب القانونية المشروعة . وفي المثال

(١) خر : ٢٢ : ١٠ - ١١

(٢) بداية الجتهاد : ١ - ٤٢٦ - ٤٢٧

(٣) المجموع الصغرى : ٢٣٤

الذى ورد في صدر هذه الفقرة : إذا أُلقت الرمح ثوب إنسان في حجر غيره ، وكذلك إذا وجد شخص كيس نقود في الطريق العام ، لا يحق التصرف في هذين ، ويد الشخص يد أمانة ، والأمانة غير مضمونة إلا عند التعدى ، وليس لازماً أن يكون ذلك عن طريق « عقد » يفيدها ، أو ألا يكون .

والمسألة التي تذكرها كتب الفقه الإسلامى في هذا المجال : أن المستودع إذا أراد إعادة الوديعة لصاحبها ، فعليه أن يصحح الظرف المناسب ، فحيث السلامة ، ووجود صاحبها أو وكيله ، يجوز له ذلك ، وإلا احتفظ بالوديعة كسابق احتفاظه بها .

(ب) والمثال الثانى صوزة تطبيقية لتقرير عدم الضمان ، وذلك إذا تلفت الوديعة بغير عمل المستودع ، أو إهمال منه أو تفريط ، أو هلكت لسبب قاهر يخرج عن طوقه كالحريق والغرق والنهب والسرقة .

ولا خلاف بين العلماء على أنه لا ضمان على المستودع ، ويستدلون على ذلك بالمعقول والمنقول . ومن أدلة المنقول ما جاء في سفر الخروج من العهد القديم : « إذا أعطى إنسان صاحبه قضة أو أمتعة للحفظ ، فسرت من بيت الإنسان ، فإن وجد السارق يعوض باثنين . وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم : هل لم يعد يده إلى ملك صاحبه . . . وإذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو بهيمة ما للحفظ ، فأت أو انكسر أو نهب وليس ناظر . فيمين الرب تكون بينهما : هل لم يعد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوض^(١) . والشرط الذى تضعه التوراة هو التعدى ، وهو الذى يبق على الوديعة في نطاق الأمانة . وتزيد مدونة جستنيان ، فلا تؤاخذ على « قلة ما أتاه المستودع من العناية في حفظه » ، وتقول : « . . . لا يسأل إلا عن فعله القصدى الضار ، لا عن مجرد خطئه ، أى تراخيه وإهماله ، بحيث لو أن الشئ سرق منه لقلته ما أتاه من العناية في حفظه ، فانه لا مسئولية عليه . ذلك بأن من يستودع شيئاً صديقاً له مهماً ، فلا يلزمه على عدم تبصره إلا نفسه (٢) » .

(١) خر ٢٢ : ٧ - ١١

(٢) مدونة جستنيان : ٢٠٥ - ٢٠٦

: ولا تصنع كتب الفقه الإسلامي صنيع مدونة جستنيان ، فهي تؤاخذ على الإهمال والتفريط وعدم العناية بحفظ الوديعة حفظ الشخص مال نفسه . . ففي البدائع : « إذا ضاعت (الوديعة) في يد المودع بغير صنعه لا يضمن ، لما روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : ليس على المستعير غير المقل الضمان ، ولا على المستودع غير المقل الضمان . ولأن يده المالك ، كالمهلك في يده كالمهلك في يد المالك (١) » . ثم يأتي الكاساني بأمثلة كثيرة يتقرر فيها الضمان لتفريط المودع أو إهماله أو عدم العناية بحفظ الوديعة مثلاً يحفظ ماله ، مما سترد مناقشته في الفقرة التالية .

وكذلك يصنع الشيرازي في كتابيه ، يقول في : المهذب : « فإن تلفت من غير تفريط ، لم تضمن لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : من أودع وديعة فلا ضمان عليه . وروى ذلك عن أبي بكر وعمرو بن عبد الله بن مسعود وجابر (رضي الله عنهم) . وهو إجماع فقهاء الأمصار (٢) » . وفي موضع آخر يقول : « وإذا أخذت الوديعة منه قهراً لم يضمن ، لأنه غير مفريط (٣) » .

وابن العسال يحشد في عبارة واحدة كثير آ من الأسباب التي لا توجب ضمان الوديعة ، ولكنه يضيف في الشطر الثاني من عبارته شرطاً يدعو إلى مناقشته ليوضح في مقره الحليم .

يقول ابن العسال : وإن فسدت فساداً طبيعياً مثل حيوان يموت ، أو شيء يسوس ، أو عدا عليها بما لم يكن في قدرته دفعه مثل حريق أو غرق أو نهب أو سرقة أو اغتصاب ، لم يلزمه ، إذا لم يبق البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره ، أو تفريطه فيها دون ماله ، لأن هذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط ووقع عليه اتفاقهما (٤) » .

(١) الكاساني : بدائع الصنائع ٦ : ٢١١

(٢) الشيرازي : المهذب : ١ : ٣٦٢

(٣) المهذب : ١ : ٣٦٤

(٤) المجموع الصغرى : ٢٣٥

ويتفق ابن العسال في تقرير عدم الضمان في الظروف التي بينها ، مع جميع المصادر التي سبق الاستشهاد بأرائها ، عدا الشطر الثاني من الفقرة ، فإنه في حاجة إلى بعض الإيضاح .

ومن المقرر أن يد المودع يد أمين ، يصدق عند قوله إن الوديعة تلفت لأمر يخرج عن طوقه ، ويستحلف إذا أراد صاحب المال . ولا يضطر إلى الإتيان ببينة إلا عند المشاحة والمنازعة ووقوفه موقف المدعى . وهذا لا يبين في الصورة التي ذكرها ابن العسال . وشأن المثال أن يكون دقيق التصوير ، ليكون الحكم موافقا له .

وقد استقى ابن العسال المسألة من كتب الفقه الإسلامي ، وهي تصدرها بما يدل على وقوع خلاف بين المتماقدين على حفظ الوديعة ، واضطرار المودع إلى إخراجها من حرزها إلى آخر ، وادعائه أن تلقها بعد ذلك كان لأمر خارج عن طوقه . يقول الشيرازي في التنبية : « وإن قال هلك الوديعة ، فالقول قوله . وإن قال أخرجه من الحرز أو سافرت بها لضرورة ، فإن كان ذلك بسبب ظاهر كالجريق والنهب وما أشبههما ، لم يقبل إلا ببينة ، ثم يحلف أنها هلكت . فإن كان بسبب خفي قبل قوله^(١) » . فتصوير الشيرازي للمسئلة مركب : فيه إخراج للوديعة من حرزها ، وفيه تلقها ، وفيه أسباب بعضها ظاهر يمكن إقامة البينة عليه ، وبعضها خفي يصدق فيه المستودع مع يمينه ، فإنه مستصحب للأمانة منذ العقد .

يضاف إلى هذا أن عبارة ابن العسال ، فيما يبدو ، غير مستقيمة . فهي تقول : « . . . إذا لم يقيم البينة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تديره أو تربيته فيها دون ماله » . وصدر الفقرة يتخذ عن المستودع الذي تحفظ يده الوديعة ، ولا يتأتى أن يقيم هو البينة على أن ذلك عرض من غشه هو أو سوء تديره . وإذا صح هذا التقدير تحتم أن يكون قد سقط لفظ « المودع » من العبارة الأخيرة ، وأن صوابها : « إذا لم يقيم المودع البينة . . . » . وإذا لا يتوجه نقد إلى عبارة ابن العسال . ويساعد في توضيح ذلك ، أن الترجمة الإيبونية تخلصت من هذا

(١) التنبية : ١٢٧

نجس الوديعة عن صاحبها عند طلبه إياها ، وجحد المودع الوديعة ثم الاعتراف بها . وعبارته تقول : « إن طلبها صاحبها فحبسها عنه ، وهو يقدر على تسليمها له ، أو جحدها ورجع اعترف بها ، ضمنها^(١) » .

ويلاحظ أن الشطر الأول من الفقرة مستقٍ بنصه من كتب الفقه الحنفية . يقول أبو الحسن القدوري : « فإن طلبها صاحبها فحبسها عنه ، وهو يقدر على تسليمها ، ضمنها^(٢) » . وكذلك يقول المرغيناني : « فإن طلبها صاحبها فحبسها وهو يقدر على تسليمها ، ضمنها^(٣) » .

واستقى ابن العسال الشطر الثاني من فقرته ، من كتاب القدوري ، في قوله : « فإن طلبها صاحبها فجحدها إياه ، ضمنها . فإن عاد إلى الاعتراف لم يبرأ من الضمان » ، مع تصرف قليل .

وكرر ابن العسال الشطر الأول من فقرته ، حين عرض لفسخ الوديعة من أحد جانبي العقد ، في عبارته : « ومن امتنع منهما من ذلك (أى من العمل بمقتضى الفسخ) ، صارت في ضمانه ، وخرجت عن ضمان الآخر^(٤) » . فإذا امتنع المودع عن رد الوديعة بعد فسخ المودع العقد ، ضمنها عند هلاكها ، ولا خلاف في ذلك ، لأنه صار متصدياً بمنعها ، فصار حكمه حكم الغاصب .

يبد أن الصيغة الأخيرة تحتل المناقشة . فإذا كان الفسخ من قبل صاحب الوديعة ، ضمن المودع عند الهلاك ، كما تقرره الفقرة الأولى ، وإذا كان الفسخ من قبل المودع ، لم يتغير الموقف ، فإزال يده يد أمانة ، وهلاكها دون تعد منه يخرجها عن ضمانه ، ولكن لا يقال : إنها دخلت في ضمان صاحبها . مفهوم لفظ « الضمان » أنه عقوبة توجه إلى متعد على حق غيره ، وليس هذا موقف صاحب الوديعة . هذا إلى أن هذه المسألة ذكرها ابن العسال في مجال آخر^(٥) ، وإذا فذكر هذه الفقرة هنا بصورتها هذه تكرار غير مفيد .

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٥

(٢) مختصر القدوري : كتاب الوديعة .

(٣) الهداية ، مجلدات فتح القدير : ٧ : ٩١

(٤) المجموع الصفوى : ٢٣٦

(٥) انظر من هذا البحث : ١٧٧

بقيت مسألة جحود الوديعة ، التي ذكرها ابن العسال في الشطر الثاني من فقرته : « ... أو جحدها ورجع اعترف بها » ...

وتصور كتب الفقه الإسلامي هذه المسألة في صور عديدة تستقصى جميع أحوالها . فهناك جحود الوديعة في وجه صاحبها ، وفي وجه غير صاحبها ، والحكم فيهما ليس واحداً . وهناك جحود للوديعة قبل دعوى الهلاك ، وبعد دعواه ، وغير ذلك من الصور . ولا يشير ابن العسال إلى شيء من ذلك ، ولكنه يضيف قوله : « ورجع اعترف بها » ، وهي عبارة لا تغني شيئاً ، فالجحود كاف في إثبات الضمان ، واعترفته أخيراً لا يقرره ، ولكنه كذلك لا يخفف عنه ، ولا يغير حاله من الضمان إلى الأمانة ، وربما كان ذلك هو مقصد ابن العسال من إضافته هذه العبارة . وقد أوضح أبو الحسن القدوري الحكم في عبارته المشار إليها قبل : « فإن طلبها صاحبها فجحدها إياه ضمنها ، فإن عاد إلى الاعتراف لم يبرأ من الضمان » .

٢ — التصرف في الوديعة :

يبدو التعدي بارزاً في الصورة التي ذكرها ابن العسال للتصرف في الوديعة بالقرض أو الاقتراض أو الاستخدام ، أو الرهن أو العارية أو الإجارة ، وحينئذ يرتفع حكم العقد من الأمانة إلى الضمان .

والعلماء في هذه المسألة لا يتفقون على رأى واحد في حالة رجوع المودع عن تعديه . فرجال الفقه الحنفي يرون أن زوال التعدي يعيد الموقف إلى سابق أصله من عدم الضمان ، لأن ارتفاع حكم العقد كان ضرورة ثبوت نقيضه ، فإذا ارتفع ماد حكم العقد^(١) . ويرى الشافعية أن العقد ارتفع بالتعدي ، ولا يعود إلا بعقد جديد . يقول الشيرازي : « ومتى تعدى فيها ثم ترك التعدي لم يبرأ من الضمان^(٢) » .

ولم يعل ابن العسال إلى رأى الشافعية هنا ، كما لم يعل إليه في المسألة الأولى . وعبارته الصريحة تقول : « .. ضمنها إلى أن يعيدها إلى حوز مثله^(٣) » .

(١) الهداية ٧ : ٩٢

(٢) التنبيه : ١٢٧ . وانظر : شفيق شحاته : النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الإسلامية : ١٧٤ - ١٧٥

(٣) المجموع الصنوى : ٢٣٥

٣ — ويكرر هذا الحكم في صورة أخرى من صور التعدي ، هي : « إن أودعها لا لضرورة سفر أو غيره ، ضمنها إلى أن يستعيدها ^(١) » .

وينبغي أن تناقش هذه المسألة في ضوء كلام ابن الصال نفسه . فالإيداع عند الغير قد يكون وسيلة من وسائل الحفظ المسموح بها ، إذا كان عند من يحفظ لديهم ماله الخاص ، كالولد الذي في عياله ، وزوجه ، ووكيله ، وكالزوج إذا كان المودع الزوجة ، على النحو الذي سبقت مناقشته قبل . وليس عليه إن هلكت عند هؤلاء ضمان ، فينبغي أن يستثنوا هنا . والإيداع لضرورة السفر لم يقره ابن الصال إلا لدى شخصيات معينة ، هي : الحاكم ، ثم الأمين . فينبغي إذا أن تستبعد « ضرورة السفر » ، فقد وضعت لها قيود خاصة . بقي أن يضطر إلى الإيداع لطرف قاهر ، تحدث عنه كذلك في موضع آخر ، كأن يطرأ غرق للسفينة ، أو حريق للدار التي حفظت بها الوديعة . وهذه أيضاً لها حكمها ، فليس فيها ضمان عند الهلاك ، إلا إذا حدث نزاع بين المتعاقدين ، فيلجأ إلى البينة أو العيمين ، على الوجه الذي سبق بيانه . وتأثر ابن الصال بمصادره في هذه المسألة لم يسر إلى مداه ، فقد وضع رجال الفقه الحنفي هذه عقب مناقشة وسيلة حفظ الوديعة ، فقالوا : « فإن حفظها بغيرهم (أي غير من يباح له الحفظ لديهم) أو أودعها عند غيرهم ضمن ^(٢) » . ومن ثم يعد وضع المسألة في كتاب ابن الصال نقلاً لها عن مكانها الواجب .

ومع ذلك يبدو أن ابن الصال يجعل هذه المسألة صورة من صور التعدي ، ويميل هنا ، كما مال في المسألتين السابقتين ، إلى أن إعادة الوديعة وإزالة مظهر التعدي ، يبيدها إلى سابق وضعها من موجب عقد الوديعة ، وهو عدم الضمان ، وهو المبدأ الذي يتبعه رجال الفقه الحنفي .

٤ — من المقرر أن المودع يحفظ الوديعة على الوجه الذي يحفظ به ماله ، فلو كانت دابة أو غيرها مما يحتاج إلى طعام أو كسوة ، تحتم أن يجري عليها من

(١) المجموع الصغرى : ٢٣٥

(٢) الهداية ٧ : ٨٩ ، القدروري : كتاب الوديعة .

الرزق والإتفاق ما يبق حياتها ويصونها ، وله بعد ذلك مطالبة صاحبها بما أنفق .
ويذكر الشيرازي هذه المسئلة في كتابيه : المذهب ، والتنبيه ، ويثبت فيها
حكيمين مختلفين . ففي التنبيه ، يقول : « وإن أودعه بيمة فلم يعلقها حتى ماتت ،
لم يضمن ، وقيل يضمن^(١) » . وفي المذهب ، يقول : « إن أودعه دابة فلم يسقها
ولم يعلقها حتى ماتت ، ضمنها ، لأنها ماتت بسبب تعدى به فقصمها . وإن قال :
لا تسقها ولا تعلقها ، فلم يسقها ولم يعلقها حتى ماتت ، فقيه وجهان^(٢) » .

ويختار ابن العسال الضمان في جميع الحالات^(٣) ، سواء شرط ألا يعلقها
ولا يطعمها أم لم يشترط . فان ترك إطعامها والإتفاق عليها ، لم تجبره عادة الحفظ
المألوف . ويعتبر تفريطا في الوديعة أدى إلى هلاكها ، بل يعد تعديا ، على حد تعبير
الشيرازي في المذهب .

هـ — يوجب ابن العسال أسباب ضمان المودع الوديعة في أمرين ، هما : الغش ،
والتضجيع^(٤) . ومدلول الأمرين : العمل القصدي الضار . وبعد من الغش عدم
اهتمام المودع بالوديعة اهتمامه بماله نفسه ، وإن كان بعض العلماء المسلمين يعدون
ذلك « تفريطا » في حق الوديعة ، ويعدها آخرون « تعديا » .

وينبغي أن تدرج في نطاق الغش مسألة : أيلولة الوديعة إلى الوارث مع ما صار
إليه من ميراث ، مع علمه أنها وديعة ، وتمكنه من ردها إلى صاحبها أو إخباره بها ،
ثم لا يصنع . ويرى ابن العسال أن المودع هنا ضامن^(٥) ، فان حجزه الوديعة عن
صاحبها دون مرور ، وضعه في نطاق المعتدين .

هذه مسائل أوردها ابن العسال ، وكلها تخرج الوديعة من الأمانة إلى الضمان .
وهناك مسألة تدخل في هذا المجال ، غير أنها تتصل بما قد يفترطه العاقدان عند
العقد ، ومن ثم يحسن أن تناقش في الفقرة التالية .

(١) التنبيه : ١٢٧

(٢) المذهب : ١ : ٣٦٤

(٣) المجموع الصفوى : ٢٣٦

(٤) ضجع في الامر تضجعا : قصر . القاموس المحيط .

(٥) المجموع الصفوى : ٢٣٥ - ٢٣٦

شروط العاقدين :

يتردد كثيراً ما يؤكد حرص ابن العسال على رعاية ما يشترطه العاقدان عند العقد ، كقوله : « ... لأن هذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط . ووقع عليه اتفاقهما » ، « .. إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شيء آخر » .
وبعض العبارات وردت في صيغ التعميم ، وبعضها جاء في مناسبات خاصة ، فتخصص بمواضعها .

وينبغي ألا تقبل الصيغ التي جاءت في صور التعميم ، فليس كل شرط بمقبول ، مهما جرت عليه موافقة العاقدين . وقد تقدم فيما سبقت مناقشته ، إشارة إلى ذلك .

وفي رأى رجال الفقه الإسلامي ، وابن العسال يقيس عنهم ، أن الشروط لا تقبل على علاتها ، ولكن ينظر فيها . فإذا مست كيان العقد ، وكان من شأنها أن تبطل آثاره المقررة ، رفضت ، وتعد العقد . فإن أودع وديعة واشترط ضمانها ، كان ذلك مخالفاً للعقد ، لأنه يصاد « الأمانة » المقررة به ، فلا يقبل الشرط ، كالمضمون ، لا يصير أمانة بالشرط^(١) . ولا يبطل عقد الوديعة ، لأنها لا تبطل بالشروط الفاسدة^(٢) .

وإن وجد أن بعض الشروط يشق تحمله ويلحق العنت بالمودع ، لأنه لا يسرى على ما جرت به العادة في الوديعة ، رفض كذلك ، واتباع ما تجرى به عادة الناس في أمثالها . ومن ذلك : إذا اشترط صاحب المال ألا يحفظ المودع الوديعة عند زوجه أو ولده الذي في عياله أو من يحفظ مال نفسه يده ، رفض هذا الشرط ، « فكل شرط يمكن مراعاته ويفيد فهو معتبر ، وكل شرط لا يمكن مراعاته ولا يفيد فهو هدر^(٣) » .

(١) الشيرازي : المذهب ١ : ٣٦٢ ، وابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ٤٢٦ - ٤٢٧

(٢) محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد : ٤٢٥ - ٤٢٦

(٣) الكاساني : البدائع ٦ : ٢١٠ . وانظر : المرغيناني : الهداية ٧ : ١٧

وكذلك إذا أمره بحفظ الوديعة في مكان معين ، أو عدم تركها في موضع معين ، وغير ذلك من الشروط ، ينبغي أن يقاس على هذا المبدأ ويضاف إليه . ومن أجل ذلك يحسن أن تتسع عبارة ابن العسال : « ضرورة ظاهرة » ، لجميع هذه الأمثلة ، صيانة لروح النص ، وإن بقيت العبارات العامة التي تؤكد رماية شروط العاقدين وما وقع عليه اتفاقهما — عقبة لا تزال تحتاج إلى تدليل ، فإن المواقف العديدة في كتاب ابن العسال - تقوى هذه الرغبة وتؤديها^(١) .

ومن الواجب الإشارة هنا ، إلى اختيار ابن العسال لآراء رجال الفقه الحنفي في كثير من مسأله التي تذكر في هذا المجال . ودليل ذلك : رأيه الصريح في رفض بعض الشروط ، مع صدورهما من صاحب الوديعة . قال : « ومن استودع مملوكاً أو بهيمة فلم يطعمها ولم يسقها حتى ماتت ، لزمته ، ولو كان مودعها قال له لا تطعمها ولا تسقها^(٢) » . هذا ، مع ما نقل عن الإمام الشافعي (رحمه الله) من وجوب مراعاة الشروط في المواضع كلها^(٣) ، ومن تقرير بعض علماء المذهب الشافعي في هذه المسألة نفسها : عدم الضمان ، « لأن الضمان يجب لحق المالك ، وقد رضى باسقاطه^(٤) » . وهكذا لا يستمر ابن العسال في تقرير وجوب رماية شروط العاقدين ، ولكنه يميل عنه إذا اقتضت المصلحة ذلك ، مما يبرر المناقشة التي تضمنتها هذه الكلمات .

مبدأ التفريم ١

ليس في التشريع الإسلامي الأخذ بمبدأ « التفريم » ، عقوبة لمن ارتكب إنمأ في حق الغير ، على غير ما تصنع شريعة العهد القديم ، وعلى غير ما يصنع القانون الروماني . ولقد تأثر ابن العسال بهذين التشريعين الأخيرين . حين اختاره عقوبة مادية ، في غير موضع من كتابه^(٥) .

-
- (١) انظر موضوع شروط العاقدين ، لكاتب هذا البحث : فتح نجشت : ١٣٨ — الفقرة الثمانية ، ١٤٣ — ١٤٦
 (٢) المجموع الصفوى : ٢٣٦
 (٣) البدائع ٦ : ٢١٠
 (٤) المهذب ١ : ٣٦٤
 (٥) انظر لكاتب هذا المبحث : فتح نجشت : ١٥٨ ، ١٦٣ — ١٦٦

وفي باب الوديعة قرر ابن العسال فرض عقوبة تعويض « الضعيف » لمن يقبل وديعة « وقد علم أن مودعها سرقها أو اغتصبها ^(١) » . وأساس هذه العقوبة مسجل في سفر الخروج من العهد القديم ، إذ يقرر تغريم السارق الضعيف ، إذا ارتكب جريمة سرقة وديعة كانت محفوظة لدى إنسان . فقد جاء فيه : « إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرق من بيت الإنسان ، فإن وجد السارق يعوض باثنين ^(٢) » . وقد نقل ابن العسال هذه العقوبة إلى المودع الذي قبل الوديعة من السارق أو المقتصب ، مشاركة له في إثمه وعونا له على ظلمه .

ويرى مبدأ التغريم كذلك في قوانين الملوك ، في مواقف عدة . وقرارها العام الذي يمكن تطبيقه في جميع المعاملات ، ذلك الذي سجلته المادة السادسة والتسعون ، والتي تقول : « إن كان بين رجلين معاملة أو شركة أو عهد ، وكتبا بينهما كتابا مؤكداً بالآيمان منهما لا يراجعان على ما توافقا عليه ، فإن رجع أحدهما عن ذلك فعليه من الغرم أوقية ذهباً أو ما يجب من الغرم . فإن رجع أحدهما عما في الكتاب ، فإن سئنا تعزله ، وتوجب عليه ذلك الغرم لأنه نكث ^(٣) » . ثم يرد في مواضع أخرى تقرير العقوبة لكل جريمة بحسبها . ويبدو أن ابن العسال مال إلى تأثر المبدأ الذي قرره العهد القديم ، فعدل عن تغريم « أوقية ذهباً » إلى تغريم ضعف الوديعة .

وموقف التشريع الاسلامي من هذه المسألة : ضمان عند الهلاك ، وهو نفس ما يطلب من الغاصب والسارق ، وهذا بالضرورة غير عقوبة جريمة « السرقة » أو الغصب ، المقررة في التشريع .

نظرة الخيرة :

لقد وضح من الدراسة السابقة مدى تأثير ابن العسال ، ومن ثم القانون الاتيوني : **قانون ١٩٦٧ : ١٩٦٧** ، بالتشريع الاسلامي ، فاستمد منه أفكاره ، ومسائله ، وقواعده ، وأحكامه . وعاش مع المذاهب الفقهية ، يأخذ من هذا مرة ومن ذاك

(١) المجموع الصفوى : ٢٣٧

(٢) خبر ٢٢ : ٧

(٣) قوانين الملوك : ٩٦ . انظر المخطوط : ١٣١ قانون . المتحف القبطي .

وكذلك أسلوب « اللهم » في النص العربي : « . . والذي يطالب به صاحب الوديعة : الفس والتضجيع ، اللهم إلا أن تكون الموافقة قد جرت على شيء آخر »^(١) ، أهمله المترجم الإثيوبي ، ولم يحاول نقله بأسلوب مقارب ، كما صنع في الأسلوب السابق .

ويمكن أن نوضع سائر الملحوظات اللغوية بعد ذلك في طائفتين :

١ - طائفة تحصى المزيادات في النص الإثيوبي ، والمزيادات في النص العربي ، التي تأثر النص الإثيوبي بتركها .

٢ - وطائفة ثانية تدرس ما قد يكون هناك من اختلافات بين النصين لعوامل غير الحذف والإثبات التي تعرض لها الطائفة الأولى .

١ - للزيادات في النصين الإثيوبي والعربي

النص :	
الوديعة هي الشيء الذي يدفعه	ገንዘብ፡ ገንዘብ፡ ይላቲ ስ
المودع للمودع عنده ليحفظه له	ደህብ፡ ለገንዘብ፡ ለዘገዘገበኛ፡
بغير عوض [إلى] حين استعادته .	ክመ፡ ይደቀብ፡ ሰብ፡ ስለገንዘብ፡
	ከዕባት፡ ለገንዘብ፡ ጊዜ፡ ለገብ
	አታ፡
(١٤ / ٢٣٤)	(٤ / ٢ / ١٩٠)

يلاحظ أن الترجمة الإثيوبية أهملت حرف الجر [إلى] ، الموجود بالنص العربي ، فصارت ترجمة العبارة الإثيوبية : ليحفظه له بغير عوض حين استعادته ، بعيدة بعض الشيء ، فإن ذلك يوم أن الظرف وما بعده : (حين استعادته) ، في

(١) المجموع الصفوى : ٥/٢٣٧

(٢) سيوضع النصان في نهريْن متقابلتيْن ، ويشار الى موضعيهما من مصدريهما هكذا : (. . / . . / . .) ، للصفحة ، والنهر ، والسفوح - على التوالي .

ሐይደሉ: ለዘላለሕት: ገ
 ዲሁ: ከመ: ይለበይ: አመጽከብ:
 ዘአመገቢ: ዘትገር: ከመ: ግሕ
 ፀንት: ሀለውት: ገዲሁ:: [ሐይ
 ብውሕ: ለዘያለሕ: ግሕፀንት:
 ገዲሁ: ከመ: ይለበይ: አድሕር
 ተ: ግሕፀንት: ዘይሁለዎ: ዘትገ
 ግር: ከመ: ገዲሁ: ሀለውት:]

(፪/፯/፲፱፻ — ፯፩/፲ ፲፱፻)

ولا يجوز للسودع عنده أن
 يتمتع من خط يتضمن أن الوديعة
 عنده .

(١٤ / ٢٣٥)

عبر النص الإثيوبي عن مضمون الفقرة العربية بعبارتين ، يمكن الاستغناء
 باحدهما عن الأخرى ، غير أن هناك ملحوظتين تردان فيما يلي :

(١) ففي عبارته الأولى ورد ذكر « الموكل : አመገቢ » ، في حين لا يعرض
 النص العربي له ، حيث لا حاجة .

(ب) . وفي عبارته الثانية ، وهي الموضوعية بين الحاضرتين ، يسوق صيغة عامة ،
 فيقول : ولا يجوز لمن يبقى الوديعة لديه ... الخ . ومعلوم أن من يبقى لديه الوديعة
 يدعى مودعاً ، ومستودعاً ومودعاً عنده ، وهي الاصطلاحات التي ترددت في باب
 الوديعة . فلا جدوى إذا من التكرار دون نفع .

وليس هناك فرق ما بين صمدري عبارتيه አይደለ: و አይደለ: ، فدلواهما
 واحد . هذا فضلاً على ما يلاحظ في هذا الكتاب من عدم الدقة في تحديد مدلولات
 أمثال هذه المصطلحات ، وتحديد ما يترتب عليها من آثار^(١) .

(١) انظر لكاتب هذا البحث : فتح نجشت : ١٨٩ ، وما بعدها .

... ለአምላክ፡ የሀብት፡ ለመረዳት፡
 ሆኖ፡ ለአምላክ፡ ለሀብት፡ ለመረዳት፡
 [ትእዛዝ፡ ለመሥራት፡] ለይመ
 ጽውት፡ በእንጉላሁ፡ በፍፍ፡ ጽ
 ድት፡ አምላክ፡ በጉልቶ፡ አው፡ በ
 መጽውት፡ በእንጉላሁ፡ በትእዛዝ፡
 ፈታሊ፡ አው፡ በሰማዕታት፡

(፶፯/፶/፲፻፲)

وإن لم يكن ورثة صرفت
 [أي الوديعة ⁽¹⁾] عنه في وجه
 بر ، بوقف أو صدقة ، باذن
 الحاكم أو بشهادة .

(٥ / ٧٣٦)

الحديث هنا عن رد الوديعة في حال وفاة صاحبها . وقد وضع النص الإثيوبي
 صيغة عامة في الحكم ، فقال : « تكون قرباناً :: » [ትእዛዝ፡ ለመሥራት፡] ،
 ثم فصل الحكم مجال هذه القرية ، كما ورد في الأصل العربي ، والزيادة هنا
 غير ضارة .

ፀሐዘኒ፡ አስተጋብሎ፡ እግረሐ
 ንት፡ ለአዕርር፡ አው፡ ዘይመሰ
 ሉ፡ ለዝንቱ፡ ሙትሐኒ፡ ይኩን፡
 ከሙ፡ ነግሏ፡ ግረሐንት፡ ፀሐዘ
 ሉ፡ ዘነ፡ እግረሐንት፡ አምላክ፡
 ዘይረዳሕ፡ አው፡ ዘነ፡ [...]
 ፀዘይመሰሉ፡ ለዝንቱ፡ ሙትሐ
 ኒ፡ ከሙ፡ ነግሏ፡ ግረሐንት፡ በእ
 ጉላሁ፡ ፈታሊ፡

(፲፯ — ፶/፲/፲፻፶)

ومهما حصل من الوديعة من
 فجاج أو ما يجري مجراه ، فحكمه
 في الإيداع حكمها .

(١٠ / ٧٣٦)

مادة፡፪፻፱፻፱ من معانيها : هدأ ، استراح ، استقر ، قام ، مات ، وكذلك :
 جازى ، كافأ ، أثاب ، أجر ، عوض عليه .

(1) زيد ملعين الحاصرین للتوضيح .

وفي الفقرة هذه حكم جديد غير موجود في الأصل العربي ، وهو أمر الحاكم :
 ١٠٢٧-١٠٢٨ . وكان من الممكن إضافة هذا الحكم الجديد إلى الفقرة
 الأولى دون الحاجة إلى تكرار جميع أفكارها .

ወዘኢያስተሐመድ፡ ባንዋዩ፡
 ግሕፃንት፡ በከመ፡ ያስተሐጥ፡
 ባንዋዩ፡ ፍሁ፡ ተገሕሰው፡ ወይት
 ኃሠሃ፡ አግሕዩኒ፡ ከመ፡ ጉሕላ
 ዩ፡ [ወጽኑ፡ ጎሊ፣] ወተሀይ
 ዮ፡ ዘኢንባል፡ ይኩኩ፡ ለንእው፡
 ፍሁ፡ ከነት፡ ላዕል፡ ንዋይ፡ ከላ
 ለት፡ ጉሐር።

(v/1 — 193 — 22/v/194)

ومن لم يهتم بالوديعة كما يهتم
بماله فقد غش.

والذي يطالب به صاحب
الوديعة الفس والتضييع ، [اللهم]
"إلا أن تكون الموافقة قد جرت
على شيء آخر .

(0 / 222)

تصرف المترجم الإتيوبي فزاد ما بين الجاصرتين ١٨.٤ : ٢٨.٩ ومعناه :
وقوة التدبير . فصارَت العبارة هكذا : ويطلبه صاحب الوديدة بالغش ، وقوة
التدبير ، والإهمال وهي زيادة غير منسجمة مع السياق .

ويلاحظ كذلك أن المترجم الإيتوبي لم يتمكن من ترجمة الأسلوب العربي :
« اللهم » ، فقامته نصه .

ወልእመኔ: አለተጥዕኔ: በተለ
ቅሐ: ለነፍሱ: አው: ለካልኩ:
[አው: በተገለበ: ካልአን:] አው:
በአገሩ: አው: በውሕዳት: [በሰ
ግረት: ተወሐደ: አው: ይገረብ
ያ: ከው: ያገለል: ከያሃ: ገባ:
ያዕቅዱህ: ለዘመነ: ከያሃ:]

(١٠/١/١٩١)

وإن تصرف فيها [أى في
الوديعة ^(١)] بقرضه لنفسه أو
لغيره ، أو باستخدام ، أو برهن ،
أو بعارية ، أو بإجارة ضمنها إلى
أن يعيدها إلى حرز مثلاً .

(٩/ ٣٣٥)

يقول النص الآتوي : وإن تصرف في الوديعة بقرض لنفسه أو لغيره ،
[أو بتأجير للغير] ، أو برهن ، أو بعارية [بأجر أو بضمان أن يعيدها إلى حرز
من دفعها إليه] .

وبلاحظ أن الترجمة قصرت عما يشملها النص العربي .

(١) فقد فُتِها القصد من « الاستخدام » الذي عناه النص العربي ، إذ هو
غير « التأجير » .

(ب) وجعلت « العارية » : « تأجير » ، بأجر ، أو بضمان الإعادة إلى حرز
صاحبها ، وهذا غير سديد . فالعارية هبة المنافع بغير عوض ، والإعادة إلى حرز
صاحبها بعد الانتهاء من استيفاء المنفعة أمر مفروض منه .

(ج) وقد عرت كذلك عن جواب أداة الشرط : « إذا » التي
تصدرت الجملة ، حين تحولت جملة الجواب إلى جملة معطوفة مسبوقه بحرف العطف :
« و » ، فقات الترجمة الآتوية شيء كثير .

(١) مابين الحاصرتين مزيد للتوضيح .

... አሙ: አዘዘ: ከሙ: ያንብ
 ራ: ውስተ: መከን: አሙር: መከ
 ሙ: አያንብራ: ውስተ: መከን:
 አገላያ፣ ወአባ፣ ወአከን: አ
 መንገድ: ገደባ: ዘከውተ: ዘአይ
 ትከህሉ: አንብርታ: ይትአኃዝ:
 ባፅዓሃ::

(12 — 7/2/191)

أو أمره بتركها [أي
 الوديعة ⁽¹⁾] في موضع مخصوص ،
 أو ألا يجتلبها في الموضع الثنائي ،
 فخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم
 يمكنه دفعها ، ضمناها .

(16 / 230)

· مادة: አንብርታ معناها: ترك، أبقى، أجلس، أقام في منصب أو مدينة... الخ.
 وقد تكررت في الفقرة السابقة ثلاث مرات، وهي تحمل هذا المعنى. بيد أنها
 في المرة الثالثة لم يصادفها التوفيق، لأنها تضاد المقصود من النص العربي، حين
 يقول: «... ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها».

መለሙ: አባ፣ ዘንተ: ትከው
 ን: ፅዓ: ላፅላሁ: መፅሐት:
 ፅዓ: አምተሐባዪ: ዘልእ:

(5/1/192)

ومن امتنع منها من ذلك [أي
 من تسليم وتسليم الوديعة عند
 الفسخ ⁽¹⁾] ، صارت في ضامنه ،
 وخرجت عن ضمان الآخر .

(9 / 239)

صيغة: ትከው صيغة اسم فاعل، ومعناها: الضامن. وتقول العبارة الإتيوية
 إذا... صارت في ضامنه، وصرفت عن الضامن الآخر.

ومعنى هذا، أن العبارة الإتيوية تحمل كلا من طرفي المقد في الوديعة
 ضامنا، مودعاً كان أو مودعاً عنده، وذلك غير سديد.

(1) زيد مابين الحاصرين للتوضيح .

ወሊይድሉ፡ ውረብ፡ ግሕፃንት፡
 ዘኣንበሉ፡ ለዘያልድ፡ ከዩ፡ ኣሉ
 ተዋፅኦ፡ ወሃሂሃተ፡ ባንሉ፡ ልተ
 ተባሉተ፡ ንዋዩ፡ እፖድጎረ፡ ለመ
 ድ፡ ኣለተዋፅኦ፡ ወተወከር፡፡

(10/2/197)

ولا يصح الابداع إلا من جائز
 التصرف وبطلبه ، وعند جائز
 التصرف وقبله .

٢٣(١/٧)

يشترط النص العربي أن يكون كل من العاقلين جائز التصرف في ماله ، ولا يتم عقد الوديعة إلا بطلب من المودع صاحب المال ، وقبول من المودع لديه .
 وقد وهم المترجم الإتيوبي في ترجمته عبارة : « . . » وعند جائز التصرف وقبله ، « ، إذ ترجمها : من بعد جواز تصرفه وقبله :

እፖድጎረ፡ ለመድ፡ ኣለተዋፅኦ፡ ወተወከር፡፡

وبذلك تكون الترجمة الإتيوبية قد تحدثت عن عاقد واحد ، هو المودع ، ولم تتحدث عن المودع لديه . ولعل ذلك قد نجم عن الاشتباه الخطي لكلمتي : عند ، وبعد .
 وبعد ، فهذه الملاحظات اللغوية لباب الوديعة ، تجعل من المفيد نشر أحد النصين نشرأ علميا ، وستتكفل به الفقرة الآتية من هذا البحث .

(٣)

الباب التاسع والعشرون

في الوديعة

(من التطلّس الثامن عشر وما حمل عليه (١))

الوديعة هي الشيء الذي يدفعه المودع للمودع عنده ، ليحفظه له بغير عوض [إلى (٢)] حين استعادته . فهي أمانة تلودعها عند مستودعها . فمن قبلها لزمه حفظها قدر اجتهاده والمصلحة عنده في حفظ مثلها من ماله . فإن هلكت بعد هذا لم يارمه .

(١) ليس في القوانين المعروقة بالتطلّسات شيء يفيد في باب الوديعة .

انظر من هذا البحث : ص : ١٦٣ : وما بعدها .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من ش ، مع أهميته . ش : ٤/٢/١٩٠ . وانظر :

ص ١٩٠ ، من هذا البحث .

وإذا أراد تسليمها لصاحبها حيث السلامة فامتنع ، [لم يضمنها حينئذ ^(١)] .

وإن فسدت فساداً طبيعياً مثل حيوان يموت أو شيء يسوس ، أو عدا عليها مما لم يكن في قدرته دفعه مثل حريق أو غرق أو نهب أو سرقة أو اغتصاب ، لم يلزمه إذا لم يتم البيعة بأن ذلك عرض من غشه أو سوء تدبيره أو تقريطه فيها دون ماله ، لأن هذه الأمور يطالب بسببها ، أو بما تقدم به شرط ووقع عليه اتفاقهما .

فإن طلبها صاحبها فبمسئله عنه ، وهو يقدر على تسليمها له ، أو جعدها ورجع اعترف بها ، ضمنها .

وإن تصرف فيها بقرضه لنفسه أو لغيره ، أو باستخدام ، أو برهن ، أو بعارية ، أو باجارة ، ضمنها إلى أن يعيدها إلى حرز مثلها ^(٢) .

وإن أودعها لا لضرورة سفر أو غيره ، ضمنها إلى أن يستعيدها ، وليس للثاني أن يسلمها لصاحبها إلا بأمر مودعها له [حشافة ^(٣)] ، أو مراسلة ، إما برسول أو بخط معروف متضمن أمارة صحيحة .

ولا يجوز للمودع عنده أن يمتنع من خط يتضمن أن الوديعة عنده ^(٤) . فإن نهاه مودعها عن أن يخرجها فأخرجها ، أو أمره أن يسلمها لفلان فلم يسلمها له ، أو نهاه عن أن يسلمها لواحد معين فسلمها له ، أو أمره بتركها في موضع مخصوص ،

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من ش : ١٢/٢/١٩٠ .

(٢) في ش أو أن تصرف فيها بقرض لنفسه أو لغيره ، أو بتأجير للغير ، أو برهن ، أو بعارية بأجر أو بضمن أن يعيدها إلى حرز من دفعها إليه . ويلاحظ أن جواب الشرط المصر به الجملة ، لم يذكر بعد . ش ١٠/١/١٩١ .

(٣) ترجمتها النص اللاتيني هكذا : **78: 78** = وجهها لوجه : مواجهة . وهي ترجمة غير دقيقة . ش : ١٨/١/١٩١ .

(٤) ذكر النص اللاتيني هذه المسألة في صيغتين ، أحدهما مزيدة ، وفي كل منهما بعض الاختلاف عن النص العربي . انظر المسألة في هذا البحث : ص ١٩٢ .

أو ألا يجعلها في الموضع الفلاني ، يخالفه لا عن ضرورة ظاهرة لم يمكنه دفعها (١) ، ضمنها .

وإن صارت إليه مع ما صار إليه من إرث من كانت مودعة عنده ، وعلم بها ، وأمكنته أن يذكرها لصاحبها ولم يذكرها ، ضمنها .

وإن أراد سفرأ بعيداً ولم يجد صاحبها ولا وكيله ، فينبغي أن يسلمها للحاكم ، فإن لم يمكنه فإلى أمين .

وإذا لم يوجد رب الوديعة انتظر مدة لا يعيش أمثاله بعدها ، ثم تدفع لورثته . وإن لم يكن له ورثة (٢) صرفت عنه في وجه بر ، يوقف أو صدقة ، بإذن الحاكم أو شهادة .

وللمودع والمودع عنده فسخ الوديعة متى شاء ، بحيث يمكن المودع عنده أن يسلمها والمودع أن يتسلمها .

ومن امتنع منهما من ذلك ، صارت في ضمانه ، وخرجت عن ضمان الآخر (٣) . ومهما حصل من الوديعة من نتاج أو ما يجري مجراه ، فحكه في الإيداع حكماً (٤) .

ومن قبل وداعة لالكها وتسلمها من يد رسوله ، فالكها هو المودع [له (٥)] ، وله تسلم لا للرسول إلا بأمره ، وإن مات فلورثته .

ومن قبل وديعة من واحد على أنه [أعنى قابلاً (٥)] يسلمها لآخر ، فعليه أن يسلمها لذلك الآخر ، ويعرفه أنها وديعة ، لا أن يسلمها لمودعها من يده لغيره .

(١) في ش : **مأذوناً : مأذوناً** = لم يمكنه إبقاؤها . ش : ١٢ - ٧/٢/١٩١

(٢) زيد في ش : تقدم قريباً . ش : ٢٣/٢/١٩١ .

(٣) في ش : وصرفت من الضامن الآخر . ش : ٥/١/١٩٢

(٤) أدى النص الحبشي حكم هذه المسألة في فقرتين : أحدهما مزيدة . ش : ١٣ - ٧/١/١٩٢ . وانظر مناقشتها في هذا البحث : ص ١٩٣

(٥) ما بين الحاصرتين من زيادة الناشر : مرقس جرجس .

وإن أودع اثنان لواحد ودبعة ، فلا يجوز له تسليمها لأحدهما إلا برضى الآخر .
ومن استودع مملوكاً أو بهيمة ، فلم يطعمها ولم يسقها حتى ماتت ، لزمته ،
ولو كان مودعها قال له لا تطعمها ولا تسقها . ومهما غرمه عليها لضرورة ، فله أن
يطلب بها مودعها ، فإن منعه صارت عنده رهناً على ذلك القدر وخرجت عن ضمانه
من ذلك الوقت . والقول قول المودع عنده مع يمينه إذا اختلفا في الوداعة والقرامة ،
لأنه قد ائتمنه . فإن أقام المودع البينة فالقول قوله .

ولا يصح الإبداع إلا من جائز التصرف ويطلبه ، وعند جائز التصرف
وبقبوله (١) .

والوديعة تنسخ بموت من هي مودعة عنده ، ويجنونه إلى أن يعقل .

ومن قبل وديعة قد علم أن مودعها سرقها أو اغتصبها ، فعليه تبعه الضعف .

ومن لم يهتم بالوديعة كما يهتم بماله فقد غش .

والذي يطلب به صاحب الوديعة الغش (٢) والتضييع ، [اللهم (٣)] إلا أن
تكون الموافقة قد جرت على شيء آخر .

(١) في ش : $\lambda\pi\epsilon\gamma\epsilon: \lambda\pi\epsilon\gamma: \lambda\lambda\tau\theta\delta\lambda: \sigma\tau\omega\eta\epsilon::$ = من بعد جواز
تصرفه وقبوله . ش : ١٥/٢/١٩٢
(٢) في ش زيادة : $\sigma\pi\lambda\gamma: \gamma\lambda\epsilon::$ = وشدة التدبير . وهي زيادة
لا تتسجم مع السياق . ش : ٢٥/٢/١٩٢ - ٣/١/١٩٣
(٣) صيغة مريية لم تترجم في النص الاتيوي . ش : ١/١٩٣ - ٣

(Cairo Univ. Press, 703-1964-503 ex.)

Printed by Cairo University Press,

‘ALY ‘ASSEM

Director

οὐδ' ἔσιδ' ἦν φαέ [σσι πρέπει νέ]ικυν οὐδέ γοῶσαι
 γυμναῖσιν Χαίταισιν, [ἐπεί φο] νίκεος αἰδώς

Col. III 35 δρύπτει μ' ἄμφι.. [
 αἶε [ι] δὲ προπάρουθ [ε
 ἔννεα [και] δέκατος [
 Ἑριννά [ν τ] ε φιλαι π.[
 ἀλακάταν ἔσορει [σα

Note 2a, p. 21 Ὁ γλυκὺς Ἑρίνης οὗτος πόνος, οὐχὶ πολὺς μὲν,
 ὧς ἂν παρθενικὰς ἔννεακαιδεκέτευς,
 ἀλλ' ἐτέρων πολλῶν δυνατώτερος· εἰ δ' Ἀϊδας μοι
 μὴ ταχὺς ἦλθε, τίς ἂν ταλίκον ἔσX' ὄνομα;

Note 3 p. 22 Λέσβιον Ἑρίνης τότε κηρίον· εἰ δέ τι μικρόν,
 ἀλλ' ὄλον ἐκ Μουσέων κινάμενον μέλιτι.
 οἱ δὲ τριηκόσιοι ταύτης στίχοι ἴσοι Ὀμήρῳ,
 τῆς καὶ παρθενικῆς ἔννεακαιδεκέτευς·
 ἢ καὶ ἐπ' ἡλακᾶτη μητρὸς φόβῳ, ἢ καὶ ἐφ' ἰστῷ
 ἐστήκει Μουσέων λάτρις ἐφαπτομένη,
 Σαπφῷ δ' Ἑρίνης ὄσσον μελέεσσιν ἀμεινων,
 Ἑριννα Σαπφoῦς τόσσον ἐν ἐξαμέτροις.

Note 4 p. 23: ὁ δὲ δῶματος ἐκ μυλᾶτοιο
 ἔρχεται Ἑρμείης σποδιῇ κελημένος αἰθῇ·
 αὐτίκα τὴν κούρην μορμύσσεται, ἢ δὲ τεκούσης
 δόνει ἔσω κόλπους θεμένη ἐπὶ φάεσι χεῖρας.

APPENDIX OF GREEK TEXTS

Note 3, p. 20 Col. I

14.

Col. II

ἐς βαθ] ὁ κύμα

15. λε]υκὰν μαινομέν[οισιν ἐσάλαο π]οσσὶν ἀφ' ἱ[π]πῶ[ν]
 "ἀλ] λ' ἴσ[Χ] ω," μέγ' αἰῶσα· "φ[ί]λα," τὸ
 δ' ἔοισα] χελύοννα

ἀλ] λομένα μεγάλας [ἔδραμες κατὰ] χορτίον αὐλάς·
 τα] ὅτα τὸ, Βαυκί τάλαι [να, βαρύστονα] χεῖσα
 γόημ[ι]

τα] ὅτά μοι ἐν κρα[θ]ῖαι καὶ νῦν γοε] ρῆι Ἴχνια
 κεῖται

20. θέρμ' ἔτι· τῆν [αδ', α]πρὶν ποκ' ἔπα] ὕρομες, ἀνθρα-
 κες ἦδη·

δαγύ[δ] ὦν τ' ἐχ[ό]μεσθα νεαν] ἰδες ἐν θαλάμοισι,
 νόμ[φαι] σιν [προσόμοιοι ἀκηδ]ῆς· ἅ τε πὸτ' ὀρθρον
 μάττηρ, ἅ ἔ[ριον νέμεν ἀμφιπόλ]οισιν ἐρεῖθις,
 τήνα σ' ἦλθ[ε] κρέας προκαλευμέ]να ἀμφ' ἀλπίαστον·

25. αἶ μικραῖς τ[ό]κα νῶϊν ὅσον] φόβον ἀγαγῆ Μο-
 [ρμ]ῶ,

τᾶ]ς ἐν μὲν κο[ρυφῇ] μεγάλ' ὤ]ατα· ποσσι δ'
 ἐφοίτη

τέ]τρασιν· ἐκ δ' [ἐτέρας ἐτέραν] μετεβάλλετ' ὀπω-
 πάν·

ἀν[κ]α δ' ἐς [λ]έχος [ἀνδρὸς ἑβας, τ]όκα πάντ' ἐλέλασο
 ἄσσ' ἔτι νηπιάσα [σα] τ[ε]ᾶς παρὰ] ματρὸς ἄκου-
 σας,

30. Β]αυκί φίλα· λάθα[ν ἄρ'] ἐ[ν]ί φρεσὶ -θηκ'· 'Αφ-
 ροδίτα·

τῷ τυ κατακλαίοντα τᾶ[κάδεα νῦν] παραλείπω [·]
 οὐ[γ] ἄρ μοι πόδες [ἐντὶ λιπῆν] ἀπο δῶμα βέβαλοι·

of finished verse worthy of imitation.

All these considerations together with Erinna's priority of date justifies the assumption that this poetess was among the different pre-Alexandrian poets who had more or less influence on the poetic output of the Alexandrian period. Poets and particularly the most eminent of them were fascinated by her : Callimachus has already been dealt with. Another is Theocritus, who may have introduced her to his fellow-poets as an authoress of a short or epyllion-like poem. Erinna was highly admired by both Callimachus and Theocritus together with their particular school. The sincerity of her passion and the simplicity of her language must have been her most cherished qualities. But neither Callimachus nor even Theocritus, the most natural and simple of his fellow-poets, could be her rival.

of that young poetess, the originator of this genre which he both admired and practised⁽¹⁾. In this he could also be regarded as one of the Callimachean school⁽²⁾, by whom Erinna⁽³⁾ was considered a writer of a flawless short piece,

(1) For his dislike of longer poems in imitation of Homer, See VII, 11. 45-48.

(2) The other school is the quasi-conservative whose representative is Apollonius Rhodius, the opponent of Callimachus.

(3) If Erinna was highly honoured by this school, Antimachus of Colophon was exceedingly favoured by others among the Alexandrian poets. This poet of the fifth century B. C. was glorified by unreserved praise by not a few poets, who considered him the founder of their school. It is his *Lyde* which fascinated them and roused their admiration for this poet. This elegiac work—in three books, called after the name of his beloved—is narrative in character or 'a sort of epic in elegiac verse as Couat (Alexandrian poetry under the first three Ptolemies, translated by James Loeb, London, 1931, p. 67) very intelligently called it, has all that delights many among the Alexandrian poets. It abounds in legends of every kind, prolific imagination and vast erudition. Its subject which deals with lovers and the enumeration of the great misfortunes caused by love, appeals to some of them such as Hermesianax who drew inspiration from it and made use of Antimachus' method of enumeration in his *Leontion*. Apollonius Rhodius in his *Argonautica* may have possibly copied Antimachus or at least consulted his account of the Golden Fleece (See Couat, op. cit., p. 309., note 2). No wonder then if some of the eminent epigrammatists of the age celebrated this work of Antimachus. Asclepiades, an immediate pre-Alexandrian poet, in one of his literary epigrams paid it due homage. It is, in his opinion a joint work of the Muses and Antimachus 'τὸ ξυνὸν Μουσῶν γράμμα καὶ Ἀντιμάχου' (Anth. Pal. IX., 63., 1. 4). Poseidippus, Asclepiades' friend and pupil, mentions it in one of his scoliastic-like epigrams side by side with Mimnermus' *Nanno* (Anth. Pal. XII, 168). This admirer of the two collections was not blind to the fact that they are different in spirit and we owe to him his sound criticism on their composers: Mimnermus is the lovers' friend while Antimachus is 'sober' (Ibid. 11. 1-2). Antipater of Sidon, an epigrammatist of the later Alexandrian period carried his praise too far. In an epigram which shows every sign of rhetorical influence (Anth. Pal. VII, 409; by error committed by scribe C, this epigram was attributed to Antipater of Thessalonica; such is the opinion of the authorities), Antipater first praised Antimachus and his verses as a whole, then compared this same poet to Homer and in order to make this comparison effective and valid, he held a comparison between Zeus and Poseidon.

Callimachus however gives us his own impression of Antimachus' *Lyde* which is absolutely different from those mentioned above. In one of his fragments which by a stroke of good fortune escaped oblivion, Callimachus considered it «a dull and unpolished piece of writing» *Αἰὲθ καὶ παχὺ γράμμα καὶ οὐ τοπὸν* (Schol. Dion. Perieg. a. Schneid. Callim. 74B). Although the statement is very brief, yet Callimachus, the alert critic, succeeded in giving his judgement on the *Lyde* from two points of view: its subject-matter and treatment and also its style; and by so doing he gave his general impression of Antimachus and his writings. What can be understood from *παχὺ γράμμα* according to Callimachus' own practice and views, results from the traditional characteristics which the cyclic poems have been revealing for a long time: long and minute accounts ab ovo, the hackneyed episodes, the use of epithets and formulae etc. Again Antimachus' *Thebais* as a cyclic poem which must have all the virtues and vices of this sort of poetry could not be, because the same defects, liked by Callimachus whose hatred for the cyclic poems and poets is well known (Anth. Pal. XII, 43; Strabo, XIV, 638, Mair, 7, wil. 6 and Cahen, 6).

Now if we turn to the stylistic defects to which the phrase *γράφμα οὐ τοπὸν* refers, this *Lyde* must be regarded by Callimachus,—who, in spite of his erudition, is considered refined and elegant, as turgid heavy and unpolished. This is due perhaps to Antimachus' use of 'glosses', neologisms, obscure periphrases and the display of recondite learning. It is surprising that all these defects can be met more or less in nearly all the writings of the Alexandrian period including those of Callimachus himself. It is also surprising that there is an argumentative resemblance between Antimachus and Callimachus. The latter's minute recording of Artemis' titles and cults in his *Hymn To Artemis* recalls what Antimachus practised in his hexametric poem on Artemis (Prof. Barber, V. S. Antimachus, Oxf. Class. Dict. p. 59). If this is a mere reminiscence of the former poet, it seems that there must be something in Antimachus' poems capable of attracting Callimachus' attention.

I hope it is now clear that if Antimachus has partisans among the poets of Alexandria, these are admittedly outside Callimachus' school.

is literary, dramatic and imaginary and not without artificial devices such as the refrains used by the Alexandrian poet. The fact that such similarity is not a mere coincidence can be attested by some words and phrases which occur in Erinna's poem and those of Theocritus' which I take as Theocritan reminiscences of Erinna. The word *δαρύς*—probably a Thessalian word ⁽¹⁾—which Erinna used when she recalled the childhood with its dolls, is not found in any Greek poetry except in Theocritus ⁽²⁾. This poet used this word in comparing Simaetha to a doll made of hard wax to show that her fair flesh became stiff and pale ⁽³⁾. Again Erinna's conception of Mormo, the bogey, as a trick for frightening children ⁽⁴⁾ can be met with in Theocritus ⁽⁵⁾. Theocritus' Mormo may seem a mere coincidence ⁽⁶⁾, as Praxinoa's Horse-bogey is of a different character, but in the light of Theocritus' other reminiscences of that poetess, he may have been chiefly influenced by her. Another reminiscence of Erinna can be traced with high probability in Theocritus' use of *ἔλνις θερμὰ*. That *ἔλνις* in both poets is qualified by *θερμὰ* which, as far as we know ⁽⁷⁾, is not found elsewhere, is strong evidence that Theocritus used Erinna's phrase, although he put it to a different use ⁽⁸⁾. So also Theocritus' conception of *ἐπίθορ* as a she-wool-worker, though used by Demosthenes in the same meaning ⁽⁹⁾, may still be regarded as a reminiscence of Erinna or at least as a mark of his familiarity of Erinna's Distaff ⁽¹⁰⁾.

These however are some examples which illustrate more or less the similarities of Theocritus' language to that of Erinna. They indicate in all probability that Theocritus was not only familiar with Erinna's Distaff, but also a keen admirer

(1) Cf. Voss. Virg. Ecl. 8. 73 (Liddell and Scott, VIIIth ed.).

(2) II, 110. As *δαρύς* may have been used for the first time by Erinna, the undisputed predecessor of Theocritus, it should have been rightly attributed to this poetess in the dictionaries, as it is always the case. To my wonder the Gr.—Engl. Lexicon (Liddell and Scott, New Edition—the Tenth-1940), for example, did not refer to this poetess, although her *Ἀλκαῶντα* was published in 1929 and in 1934. Vide Bowra, op. cit. p. 325, notes 1 and 2.

(3) This may be taken an evidence that Erinna's doll was made of wax.

(4) L. 25. Vide Appendix of Greek Texts, p. 29. It is noteworthy that Erinna's *Μορμώ* is described as a hideous she-monster with great ears, and four feet, and who used to change from one appearance to another, cf. Ibid. 11. 26—27.

(5) XV. 40 : *μορμὴ δάκνει ἴππος*.

(6) The Mormo was well known some time before Erinna ; Cf. Xenophon, Hell. 4. 4. 17: *ὥσπερ μορμόνας παιδάριον*.

(7) The only combination is found in an anonymous epigram, Anth. Pal. IX, 371, 1. 2, *θερμὸν ἔλνιν*; but this epigram is of a later date and the phrase has a different meaning.

(8) Cf. Erinna, *ibid.*, 11. 19-20 with Theocr. XVII, 11. 121-122. It is noticeable that Erinna used *ἔλνιν* the dim. of *ἔλνις* whereas Theocritus used *ἔλνις*. This may be due to the fact that Erinna's theme is more pathetic. It may also be due to metric requirements. We may state in passing that Erinna's Distaff was known to Virgil, for he also played with the same expression when he spoke of the love of Dido, Aen. IV., 23 : *'Veteris vestigia flammae'*.

(9) 1313, 6.

(10) Cf. Erinna, *ibid.*, 1. 23 with Theocritus, XV, 1, 80.

elaborated, learned and affected sentimentality. Those are the characteristics of the Distaff which may have given its authoress an eminent literary position acknowledged by the Callimachean school, and exerted at the same time an influence on their compositions ⁽¹⁾.

However Theocritus' relation with Erinna's Distaff and his reminiscences of the poetess are certain and uncontroversial. That is why only a close study of them can settle the question of Erinna's position among the Alexandrian poets. Of Theocritus' familiarity and reminiscences of Erinna, we have not a few instances in his work.

Theocritus' familiarity with Erinna's poetic work is almost undisputed. He knew her through his friend Asclepiades of Samos, the keen admirer of this poetess ⁽²⁾. As a matter of fact this poetess was known to the Coan school of poetry to which both Asclepiades and Theocritus belonged ⁽³⁾. That there is some similarity between Theocritus and Erinna in the treatment of a subject common to both of them is not difficult to see. Theocritus' lament for Daphnis ⁽⁴⁾ shares with Erinna's Distaff certain important features. Like the Distaff, this Idyll is written in hexameters ⁽⁵⁾. One of the differences between the two is that Erinna's Distaff, being the lament for Baucis, is real, personal and natural and a true record of her own feelings, while the lament for Daphnis ⁽⁶⁾

(1) Especially Theocritus, see the following pages,

(2) Cf. Anth. Pal., VII, 11. See supra, note 2 a. p. 21. It is certain that Theocritus was a friend of Asclepiades. He mentioned him by his pen-name, Sicelidas, cf., VII, 1. 40. Prof. J. M. Edmonds (the Greek Bucolic Poets, L. C. L. P. XIV) says 'Sicelidas, on external grounds, is certainly to be identified with the poet Asclepiades; it is to be noted that he is called Sicelidas elsewhere than in Theocritus'. Prof. Rose (Op. cit., p. 332) did not commit himself when he said «They mention a certain Sicelidas, who may perhaps be Asclepiades (note 63). So the schol. on VII, 40, giving as the reason that his father's name was Sikelos». Vide also Anth. Pal. IV., I, 1.46, where Prof. W. R. Paton (The Greek Anthology, London, 1927-vol. I., p. 113, Note 3—) agrees that Sicelides is a nickname given by Theocritus to Asclepiades.

(3) Philetas, the head of the Coan school of poetry, was known to Theocritus. He mentions him by name (VII, 1. 40). This may mean that Theocritus was either his pupil or was one of his admirers and thus belonged to his school.

(4) Idyll I, ἑὸς ποιεῖ.

(5) Erinna's poem, as a cry of sorrow on the death of a personal friend composed in hexameters, is, in fact, a substitute of the ἑπὶ φινος composed in lyrical metres. Thus it may be said with high probability that Erinna, as far as we know, was the creator of this personal hexametric-threnodic new type. She however has undoubtedly used some earlier models so skilfully that she had a claim to be the originator of this specified lament. The model used may be Homer (Cf. II. xxiv, ll. 472-4 where the Trojan women bewail Hector). Praxilla, the poetess of Sicyon (fl. 451 B. C.) and the authoress of the hymn on the death of Adonis may be another model.

(6) So is also the anonymous lament for Bion which may have been written in the Alexandrian age.

After this inevitable digression, we return to Antiphanes' epigram to discuss the reason why this young poetess, Erinna, was highly admired and by whom she was cherished. This poetess was, as inferred from this epigram, overestimated by the school of innovators, whose head was Callimachus⁽¹⁾. No wonder Erinna won an exceptionally distinguished praise from this school. First she is an authoress of a short poem. Her Distaff in particular must have attracted them, being possessed of certain characteristics which meet their taste and conform to their literary principles and tendencies. It is short, in other words, an Epyllion—like poem⁽²⁾, which they preferred to epic⁽³⁾. It is composed in hexameter, an unusual medium for expressing personal feelings⁽⁴⁾. Such a tendency towards composing poems in media other than the hexameter is not only favoured by them, but also generally practised by other poets of the period. In their hands the hexameter and elegiac couplet were used for themes of lyrical flavour. The traditional convention of treating a certain theme in a specific metre is by now, and on purpose thrown in the air⁽⁵⁾. Again its language which is a combination of Doric and Aeolic, harmonizes with the method they follow in their compositions. Callimachus and Theocritus, for example, used to mix two dialects or even more. Moreover being a mixture of realism and romance, the Distaff must have still more attracted them. Although the scholar-poets of Alexandria are more or less inclined to realism, they generally have a tendency towards romance. Thus we have in Callimachus, Theocritus and Apollonius Rhodius, for example, great figures of romanticism⁽⁶⁾. There still remain some obvious characteristics which may have been cherished by these scholar-poets: her sincerity, tenderness and, to a certain extent, her simplicity. It should be remembered, however, that Erinna's simplicity and sincerity were not looked upon by these poets as welcome stylistic features; for the chief concern of the majority of those poets was for

(1) This is in contrast to the school of the quasi-conservatives, the mouthpiece of which, is Apollonius Rhodius. For the clash which took place between these two schools, see my article 'The literary quarrel at Alexandria as championed by Callimachus V. Apollonius Rhodius, Cairo, Jan. 1964.

(2) As a matter of fact, it is not an Epyllion in the Alexandrian manner especially in the hands of Theocritus; for the subject and characteristics of the Alexandrian Epyllion, see Prof. A. M. Duff, S. V. Epyllion, Oxf. Class. Dict. p. 336.

(3) See Callimachus' Hymn II, To Apollo, ll. 105-112; Anth. Pal. XII, 43, 1. 1; Oxyrh. Pap. No 2079, ll. 3-5, 19-20, 17-18 etc. See my article referred to in Note. 1.

(4) See p. 25 and note 6.

(5) To give only two examples, Callimachus' Aetia, the themes of which are didactic in essence, is composed in elegiac couplets instead of the hexameter, the conventional vehicle of the didactic poetry. The Victory Ode for Sosibius (fr. 60. Pf.) which should have been in lyrical metre is also written in elegiac couplets.

(6) See Callimachus' Lock of Berenice (Catullus 66), Theocritus, II etc., and Apollonius Rhodius, the Argonautica, book III.

lampoon of Antiphanes of Macedonia, an Augustan epigrammatist, would possibly reveal Callimachus' attitude towards this poetess. In this epigram⁽¹⁾, in which Antiphanes furiously attacked Callimachus' school for being harsh critics, book-worms and fond of obscurity, he sarcastically addressed them as proud of Erinna 'ἐπ' Ἠρίνῃ δὲ κομῶντες⁽²⁾. This phrase is evidently an added evidence to the admiration of the Callimachean school of this poetess. Again Erinna's conception of the Μοῦσῶν⁽³⁾, the bogey, as a means of frightening children is used by Callimachus who makes Hermes frighten the disobedient daughter of Oceanus⁽⁴⁾. Here it may be said in passing that Callimachus' bogey is different from that of Erinna; for he used a god for frightening a deity's daughter. In this he dealt with gods in a new way which is typical of Alexandrian practice; for in the hands of the Alexandrian poets gods lost much of their old dignity. They were no longer considered as superhuman beings who presided over mankind and punished the evil-doers. Realism, a manifest feature of the Alexandrian poetic production, shows itself clearly in the treatment of these superhuman Homeric and Hesiodic gods, who sometimes, without intentional humiliation or disdain, were reduced to the status of human beings. They shared with human beings their good qualities, failures and troubles. We have many interesting and striking portrayals of these deities in almost all the poetic types of this period⁽⁵⁾. They, too, sometimes became a fertile subject for a refined game of phantasy⁽⁶⁾.

(1) Anth. Pal., XI, 322.

(2) Ibid., I, 3. See infra p. 27 and note 3.

(3) Erinna, *ibid.*, I, 25. For detailed discussion of the Μοῦσῶν, Vide infra Note 42.

(4) Hymn III, To Artemis, II, 68-71. Vide Appendix of Greek Texts, p. 30. By using the verb κομᾶν instead of Erinna's Μοῦσῶν, Callimachus may have wished, as he always did, to deviate from this poetess. It may also be said in passing that Erinna mentioned the Μοῦσῶν (Ibid. I, 25) in connection with herself and her friend Baucis as human beings. Callimachus on the other hand makes Hermes play the part of Μοῦσῶν for terrifying a deity's daughter.

(5) Few examples would illustrate such treatment. Hephaestus used to go early to his work-shop as an ordinary paid-worker (Apoll. Agron. III, II, 40-43). Cypris, his wife, is depicted as a typical eastern middle-class woman. She is a good housekeeper, who manages her own affairs without the help of a maid either to look after her or her house; for she dresses her own long hair (Ibid., II, 45-47). Again she takes interest in family life responsibilities, for she makes her husband's bed herself (Ibid., I, 40). As a mother, Cypris had her own troubles. Her only son, Eros, does not obey her. He is naughty and a rascal. In a very fascinating passage Apollonius disclosed to our eyes a picture of Cypris and her heavenly guests, Hera and Athena. As soon as her guests begged her to order her 'boy' to charm the Colchian princess, Medea, with love for Jason, she began to complain of her son's conduct and behaviour (Ibid., I, 190 sqq.). No human mother could have complained more bitterly.

(6) Zeus, the father of the gods, for instance, became a flirt and a seeker of love-affairs (Theoc. Idyl. VIII, II, 59-60). Theocritus also deemed Eros to be cruel (Idyl. III, I, 15). The amatory epigrams of this period abound in references attributing naughtiness to different gods, especially to Zeus and Eros. In fact this rather irreverent treatment of gods is by no means new. Long before gods suffered much at the hands of the masters of comedy. If the Alexandrians, however, were not the originators of this convention, they were at least unique in developing it.

Erinna is spoken of as a sweet and new singer who was carried off by Hades, while she was gathering flowers of the Muses. In this he likened the poetess who died young to the mythological Persephone. But after all, this epigram is no more than a fine homage paid to Erinna.

Now we pass to Erinna's Ἀλκαῖα, which is the main subject of this article. An anonymous epigrammatist eulogized Erinna ⁽¹⁾, the mistress of the Distaff who sang it with her swan-like voice ⁽²⁾ and because of which she is immortal and joins in the dance of the Muses. Her Ἀλκαῖα proper was the subject of a laudatory epigram ⁽³⁾ written by another anonymous epigrammatist who seemed very interested in the Distaff and its young authoress. To him she is equal to Homer and not inferior to Sappho. The lines of the epigram run thus: «This is the Lesbian honeycomb of Erinna, and if it is small, it is all mixed with honey from the Muses. Her three hundred lines are equal to Homer, though she was a girl of nineteen years—a maid who at once in fear of her mother, sat by her distaff and stood at her loom as a bond servant in the service of the Muses ⁽⁴⁾. As much as Sappho surpasses Erinna in lyrics, so much does Erinna excel Sappho in hexameters». This appreciation of Erinna's Ἀλκαῖα is in my opinion, rather mere enthusiasm than pure criticism, but it is not altogether untrue; for this poem, as one of our eminent modern scholars sees it, is epoch-making ⁽⁵⁾.

Such general appreciation leads us to discuss the different opinions of some of the eminent poets and the first makers of Alexandrian poetry given of Erinna and her Distaff such as Callimachus, the prolific poet, and Theocritus, the reviver of mime and the father of bucolic or pastoral poetry. This will reveal Erinna's position among the Alexandrians and her relation with them. Callimachus' extant poems never mentioned even the name of Erinna, but an epigrammatic

(1) Anth. Pal., VII, 12.

(2) This epigram may be a copy of Antipater's (of Sidon) epigram (Ibid., VII, 713); Compare 1, 2 of this epigram with 1, 7 of Antipater's one.

(3) Anth. Pal., IX, 190. Vide Appendix of Greek Texts, p. 30. This epigram is attributed variously to Callimachus (Benndorf), Antipater of Sidon (Stadtmüller) and to Meleager (Wilamowitz). I myself, am disinclined to attribute such an epigram to Callimachus or to Meleager, since, these, who revealed themselves dexterous literary critics, could have not taken her as an equal to Homer nor could they have held a comparison between Sappho and Erinna on the basis of metre. The comparison may have been justified by common character of the writings of both poetesses. See further Prof. Bowra, op. cit. p. 342. Otherwise such a comparison cannot be taken seriously.

(4) Erinna may have taken part in working at wool (see Erinna's Distaff., 1. 39). Her mother may have employed women as hired wool-workers (Ibid., 11. 22-24). In this the mother would be like the daughters of Lycomedes of Leonidas of Tarentum, cf. Anth. Pal., VI., 288.

(5) Wilamowitz, op. cit., p. 108.

who concerned themselves with Erinna. Asclepiades, the Hellenistic epigrammatist⁽¹⁾ wrote an extremely fine epigram in which Erinna was highly rated. By putting the following words in Erinna's mouth, he tried to do justice to the poetess : «This is the sweet work of Erinna, not great in size as being that of a maiden of nineteen, but greater in power than that of many others. If death had not come early to me, who would have had so great a name ? (2a). Such a high appraisal, although not analytical, is due to that young poetess' true and tender sentiment which is generally revealed in her epigrams and also in the lament, the Ἀλακᾶτα for her friend Baucis. Although there is not the slightest hint to Erinna's Ἀλακᾶτα, yet Asclepiades' metaphoric ἀνθρακὴ in one of his amatory epigrams^(2b) is not a mere coincidence but a reminiscence of this poetess⁽³⁾ and it is at the same time a mark of Asclepiades' appreciation of this poem. Again Antipater of Sidon, the Alexandrian epigrammatist of the second century B. C., paid Erinna an exaggerated homage. He played a note on Asclepiades' chord but in his own rhetorical way⁽⁴⁾. Her poetical works, which are evidently tender and pathetic are likened by Antipater to the low song of the swan in contrast to the cawing of sonorous jackdaws⁽⁵⁾. In this he might have been thinking, among her other poems, of the Ἀλακᾶτα. In a third epigram attributed either to Leonidas (of Tarentum) or to Meleager⁽⁶⁾,

(1) He wrote in the Hellenistic Period I, which begins with 323 B. C. and ends just before the years 280-275, the beginning of the Hellenistic Period II or the Alexandrian Period. Cf. my article «An attempt for defining the 'Alexandrian Period, as an independent era of Greek Literature», Mondial Press, Cairo, 1955, where (pp. 13-14) I said 'It is time, then, that we began to use the terms «Hellenistic» and «Alexandrian» in their strictest senses. «Hellenistic» is naturally used only as a general label for the whole period beginning with 323. «Alexandrian» represents a definite division of the «Hellenistic» beginning with one of the earlier years of the reign of Ptolemy II Philadelphus'.

(2 a) Anth. Pal. vii, 11. vide Appendix of Greek Texts, P. 30. This is not absolutely a sepulchral epigram. It should have been included in the ix th book, since it is nothing but a critical note on Erinna's poetic works. It is believed by some that this epigram is a prefatory poem to Erinna's small book (cf. Pierre Waltz, op. cit., iv., p. 61. n. 1 and Prof. Bowra, op. cit., p. 339) where the latter assumed that Erinna's book was first published by Asclepiades. Such views however could not be readily accepted for granted.

(2 b) Anth Pal. xii, 166.

(3) Cp. Asclepiades, ibid., 1, 4 with Erinna, 1. 20.

(4) Anth. Pal. VII, 713. This epigram is wrongly included in sepulchral epigrams. It should have been included in the ix th book, since it is an appreciation of Erinna's verses. I agree with Prof. Bowra's deduction that this epigram is an eulogy of her Distaff, as it is the only hexametric poem which we have of this poetess. see his discussion (op. cit., p. 340).

(5) Ibid., 11. 7-8.

(6) Anth. Pal. VII, 13 [Leonidae tantum apud Plan. tribuitur, Leonidae tribuunt plerique commentatores, Meleagro vero Hecker, Stadtmüller, Wifstrand (Pierre Waltz, op. cit., IV, p. 62)]. It is noteworthy that the epigrammatist used a quotation from Erinna's epigram on her friend Baucis. Vide «Βάσκανος ἔσσι», Ἀτδσ of the IVth line of this epigram and IIIrd line of Erinna's epigram (Ibid. 712). This epigram is an epideictic epitaph.

fourth century B. C. She is a native of a little island, Telos, which belonged to Rhodes (1) and she died about 350 B. C. (2), at the very young age of nineteen (3). In this case Erinna would be precisely a forerunner of the poets of the Alexandrian Age. If this is so—and it is highly probable—, the relation of this poetess with the Alexandrian poets becomes clearer.

Erinna is known to us through some fragments and epigrams (4) and also through a short or epyllion-like poem containing 300 hexametric lines (5) called the *Distaff*, Ἀλακάτα (6).

I am here concerned with the Ἀλακάτα, because it shows the authoress at her best. In this poem, Erinna commemorated simply and yet artistically, her affection for Baucis, who was her friend from early childhood and also depicted her grief on two occasions; these were her separation from Baucis on the latter's marriage and Baucis' death shortly after that. The poetess recalls some memories of childhood and speaks of games and dolls and bitterly sings of past pleasures (7).

This short and rather sketchy account of Erinna's life having been given, it is now time to give some account of the criticism of the poets

(1) Op. cit. p. 108 ; She may be still a native of Tenos.

(2) Cf. Pierre Waltz, *Anthologie Grecque*, Tome 111, 1931, p. 186.

(3) In the papyrus containing the remains of Erinna's poem on her dead friend Baucis (see Bowra, *Greek Poetry and Life*, p. 325 sqq. Lines 14-39 will be found in the Appendix of Greek Texts, pp. 29-30) the word ἔγνεα [καί] δέκατος is mentioned in l. 37. This must refer to Erinna's age. Cf. Asclepiades, *Anth. Pal.* vii, 11, 2, παρθενικᾶς ἔγνεα καὶ δεκάτεως, the anonymous epigram, *Ibid.*, ix, 190, 4, παρθενικῆς ἔγνεα καὶ δεκάτεως and Suidas, s. v. Ἡρίννα τελευτᾷ δὲ παρθένος ἔγνεα καὶ δεκάτεως. These references may be taken as evidences that she died when she was nineteen years old.

(4) Cf. Deihl, I, pp. 486-488. Of the three surviving epigrams, one is dedicatory (*Anth. Pal.* vi., 353) and two sepulchral (*Ibid.*, vii, 710 and 712). Meleager's Stephanus must have included some more to justify its author's γλυκὸν Ἡρίννης παρθενόχρωτα κρόκον (*Anth. Pal.* iv., 1, 12). I may say in passing that Meleager imitated Erinna, but the model excels the copy. Compare Meleager's *Ibid.* vii, 182 with Erinna's *ibid.*, vii, 721.

(5) On the length of the poem, see Suidas, s. v. Ἡρίννα and follow Prof. Bowra's argument (*Greek Poetry and Life*, pp. 340-341). Anyhow after he aroused some doubts, he was finally convinced that Suidas' statement is right. Cf. also the anonymous epigram (*Anth. Pal.* ix, 190, 1. 3) οἱ δὲ τριηκόσιαι ταύτης στίχοι.

(6) This title which we also owe to Suidas, may not have been given by Erinna but may be an invention of some one else. However although the poem is pearly a lament, yet some words in the poem refer to wool-making and spinning: cf. ἐρείθοις (l. 23) and ἀλακάταν ἐσορεῖ-
[σα. Outside the Ἀλακάτα we meet some phrases which indicate that their writers were familiar with this poem of Erinna: cf. *Anth. Pal.* vii, 12, 1. 4... λινωκλώστου δεσπότης ἡλακάτης and *ibid.*, ix, 190, 1. 5, ἢ καὶ ἐν ἡλακάτῃ μητρὸς φόβῳ, ἢ καὶ ἐφ' ἱστίῳ...

(7) See further Prof. Bowra's detailed treatment of the poem, op. cit. 327 sqq.

ERINNA: THE POETESS OF TELOS, AND THE POETS OF THE ALEXANDRIAN SCHOOL

BY

M. M. EL SALAMOUNI, Ph.D.

Professor of Classics
Faculty of Arts, Calicut University.

Erinna, the poetess of Telos and the authoress of the *Distaff*⁽¹⁾, was one of the favourite figures who found enthusiastic admirers among some of the Alexandrian poets. As their admiration must have been based on some foundation, I have found it worth my while to concern myself with a study of this poetess and her art. In so doing, I hope to shed some light on her poetic art, which was enthusiastically welcomed by these poets, and her relation to the Alexandrian school of poetry at Alexandria in general.

In order to deal with these questions systematically the poetess' date, which is a debatable point, should be first settled. According to Prof. Wilamowitz⁽²⁾, Erinna began her poetical career about the middle of the

(1) See p 20, Note 6. and Appendix of Greek Texts, pp. 29-30.

(2) *Hellenistische Dichtung in der Zeit des Kallimachos*, 1924, p. 108. Prof. Wilamowitz' date is based on the authority of Jerome's version of Eusebius, who placed it in O1. 106-7, 356-353 B. C. This seems to be the only reasonable one in ancient authorities. Suidas' statements on Erinna (S. V. Ἑριννα) are inconsistent and also unhelpful. He is uncertain of what he states especially about the place and date of her birth. Thus according to him her birth place is Tenos or Lesbos or Telos or Rhodes and he makes her a contemporary of Sappho "ἦν δὲ ἑταῖρα Σαπφῶς, καὶ ὁμόχρονος".

Prof. Bowra in two most illuminating articles on Erinna (*New Chapters in the history of Greek Literature*, III series, Oxford, 1933, pp. 180-185. and *Greek Poetry and Life*, Oxford 1936, pp. 325-348) of which I gratefully made use, wishes to consider Erinna as an Alexandrian poetess. He says 'though the evidence is scanty, it looks as if her short period of poetic activity took place in the first quarter of the third century', (*New chapters ...* p. 184). Then he changes his mind three years later and considers her a forerunner of the Alexandrian Age; he says 'if she did not herself belong to the Alexandrian Age, she was at least its forerunner' (*Greek Poetry and Life*, p. 341).

We are not then far from the truth in stating that Erinna belongs to the fourth century — and probably to its middle; Cf. also Prof. Rose, H. J. (*A Hand Book of Greek Literature from Homer to the Age of Lucian*, 4th edition, 1950) p. 341; Crusius, *PW*. vol. vi. p. 455; R. Reitzenstein, *Epig. und Skolion*, p. 143 and others. —

Textes des Cercueils (Speleers), Discours 45, 193 : «I stretch my arm towards thee, on this day of presenting offerings to thy *ka* and thy *baw*».

Book of the Dead, Ch. I, 34-36 : «O, you who present offerings to the beneficent souls (*Baw*) in the house of Osiris, please present offerings twice per day to the *ba* of Ani before the lords of Abydos».

The tomb of Ramses VI (Piankoff, p. 192, 193, 243, etc.) : «Those who used to bring water for the souls (*baw*)».

«O, you who conduct the souls (*baw*) towards the plantations, please offer your vegetables to the souls (*baw*)».

«O, (souls), feed on your vegetables, and satiate yourselves to the full, therewith».

(d) «for myself», (as a polite alternative for the ordinary address : to thee) ⁽¹⁾.

(e) or rather, «for (the benefit of) thy activeness».

It was not only food, libations and funeral invocations that were offered to the *ka*, but there were also entertainments held with songs and dances ⁽²⁾ in order to amuse the eternal living person as a whole.

Spiegel, Junker and Schweitzer ⁽³⁾ mentioned a few interesting variants of the offering formula, from the inscriptions of Mrrw-ka, such as : «n Mrrw-ka » ; «n ka n Mrrw-ka » ; «n ka. f » ; and «n Mrrw-ka n ka. f ».

As for the last formula «n Mrrw-ka n ka. f », the three scholars suggested that «n ka. f » is a Badalapposition for «n Mrrw-ka». This might be true, but it might be more probable to suggest an omitted conjunction and translate the sentence as : «for Mrrw-ka and for (the (benefit of) his activeness». (Also : n Ssy n ka. f = for Sesy and for (the benefit of) his activeness).

The other true spiritual side of the man, his soul «B'», was frequently assured, rather than the *ka*, to gain liberty on its behalf to enter the tomb, descend to the burial chamber, join the body, get out by day, climb the pyramidion, adore the shining sun, drink from the lake of the tomb-garden, perch on its trees, ascend to heaven, shining as one of its stars, wander through its abodes, and receive the donations from the gods therein ⁽⁴⁾.

The *ba* had its several significances in religion and funeral beliefs, as to denote either soul, or spiritual power, or external manifestation, and so on, but as for its share in the offerings, on earth and in heaven, the following quotations are to be cited :

Pyr. 859 a-c : «O, Pepi, raise thyself up, for this is thy bread which will never mould, and for thy drink which will never stale, in order to be a *ba*, keen and powerful, therewith».

Pap. Petersburg 1116 A. rl. : «No magic can restrain the *ba*, but it hastens towards those who give it water (libations).

(1) See also, Steindorff., in Ae Z, XLVIII, 156 ; Junker, Giza III, 156 ; Schweitzer, op. cit. 82.

(2) Giza 7102 (Reisner).

(3) Spiegel, in Ae Z, LXXI, 56 f. ; Junker, op. cit., 156 ; Schweitzer, op. cit. 81.

(4) Textes des Cercueils, 93-97 ; 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162 ; Book of the Dead, Ch., 1 ; XV, 18 ; LXXXIII ; L XXXIX ; XCII ; Pap. of Ani, pl. 33-34 ; Vatican 127 A (5) D. 18 ; London Stele 599 ; Piankoff, The tomb of Ramses VI, 78, 135, 219, 322, 328, 331, 336.

This prevalent point of view concerning the Ka and offering, cannot be easily rejected, yet it must be noticed that the ka-symbol with its two upraised arms (which are in fact intended to be stretched in front), has never been depicted as coming in or out of the tomb by its own, but it is the figure of the dead himself with his usual features that was sometimes shown in the round, going out of his tomb to receive the offerings by his two stretched hands ⁽¹⁾. The famous ka-statue of the young king Hor is not a mere representation of the ka-symbol, but it is the figure of the youth himself with the ka symbol above his head ⁽²⁾. These questioned representations confirm the above mentioned notion that the ka was not merely a spiritual part of the man, but it was mainly the whole energy (طاقة) and activeness (نشاطية) of his living, that which would constitute his new animated state in the other world ⁽³⁾.

This new state is probably what is meant in such a Pyramid text as «n sk. k n sk k ; . k [w k ? » = «Thou wilt not perish, (and consequently) thy ka will not perish, for thou art the ka (itself) » ⁽⁴⁾. The same sense led to consider the whole tomb as the house of the ka «hwt k ? » ⁽⁵⁾ and led to compose the priestly title «hm-k ; », i. e. the servant of the ka or he who regards (يُحْسِنُ) the ka ⁽⁶⁾, but as the ka-statue was usually intended to show the expected figure of the man in his future life ⁽⁷⁾, the hm-ka was consequently concerned also with it.

When a man offers his oblations for the dead, saying : «to thy ka : n k ? . k», he intends simply to express what he believes of the current meanings of the ka, such as :

- (a) «for (the benefit of) thy spirit». (Such a spirit that which was qualified sometimes with pureness «ka wâb» and righteousness «ka maât») ⁽⁸⁾.

(1) Giza, 7102.

(2) De Morgan, Fouilles à Dahschour, I, pl. XXXIII, XXXIV, (Cairo 280).

(3) Compare, J. Spiegel, Die Idee vom Totengericht, 9 Anm 3.

(4) Pyr. 149 d. and see Greven, op. cit. 15

(5) Gardiner and Davies, The tomb of Amenemhet, 73 ; Schweitzer, op. cit., 84 f.

(6) Compare Spiegel, in Ae Z, LXXVI, 112 f. for hm as : «menschengestaltig», and for hm-ka and skhu-hm as : «der den Leib umarmt», 118 f., and see also Junker, Giza III, 118 ; Schweitzer, op. cit. 86.

(7) Long ago Steindorff noticed that the ka in the otherworld might refer to the dead himself and refer sometimes to his statue (op. cit., 155). He was followed partly by Junker and afterwards by Kees and Schweitzer who proposed that the ka-statue of the serdab usually represents the man in his new state in the otherworld, while his statue of the offering room usually represents him in his first gesture of life. (H. Kees, Totenglauben, 182 ; Schweitzer, Das Wesen des Ka, 88-89).

(8) Wb. V, 87, 14 ; 88, 1 (Theb. Grab 22, 124 D. 18).

The theory of Renouf ⁽¹⁾ and Maspero which regarded the *ka* as an external «double» ⁽²⁾ became shadowy, but it still throws its shadows upon certain Arabic works, because of a popular belief in a «Karin قارين», or an underground companion which is still mentioned in the present Egyptian folklore.

What could be added furthermore concerning this supposed connection between the two, is that the present Egyptian folklore imagines the «Karin» of a different sex from the person himself, a belief which goes in contrast with the ancient Egyptian concept that used to show the *ka* in the same gender as its owner ⁽³⁾.

Nevertheless, the questioned theory of Renouf and Maspero is not totally exhausted, but still has another serious basis, that is of the representation of the royal *ka* together with the crown prince or the reigning king, depicted in the same features and aspect of him, or somewhat smaller than him ⁽⁴⁾.

This representation is still a serious problem, but, can it be supposed that it was just an artistic attempt to show the imaginary hidden characteristics of the growing prince or living king? This supposition, fantastic as it is, was not strange to the Egyptian artist who exhibited the containers side by side with which they contain (such as the grainaries near by the heaps of grains which they really contain) ⁽⁵⁾.

At any rate, the royal *ka* was depicted sometimes in its secondary phase of protection, embracing the king from behind ⁽⁶⁾ and following him to his eternal abode with the name of «the (ever) living royal *ka*» ⁽⁷⁾

* * *

It has been widely accepted that the funeral oblations were usually offered to the *ka*, that distinct part of the dead, which can go in and get out of his tomb to embody his statue and receive the offerings.

(1) Le Page Renouf, in TSBA VI, 494 (in which he was inspired by Nestor L'Hôte and Birch).

(2) «Un second exemplaire du corps, en une matière moins dense que la matière corporelle, une projection colorée, mais aérienne de l'individu, le reproduisant trait pour trait» G. Maspero, *Études de mythologie et d'archéologie*, I, p. 7, 77 f.; also. Naville, *La religion*, 53, f; Wiedemann, *Das alte Aegypten*, 72; Jequier, *Histoire de la civilisation égyptienne*, 1923, 151 f.

(3) As for the feminine *ka* see: Urk. I, 214, 11, 12, 13, 16, 17; Mariette, *Dend*, III, 20 r, 26e; Edfu I, 240; Steindorff, in *Ac Z*, XLVIII, 157-158.

(4) Jequier, *Le Temple du Papi II*, pl. 30; Naville, *Deir el-Bahari II*, pl. XLVI-LV; Gayet, *Louxor*, pl. LXIII-LXVII.

(5) Wrazinski, *Atlas*, 63, 245; Schaefer, von *ag. Kunst*, Taf. 45; *Annal. Serv.*, 48., 177, Fig. 17; also Quibell, *The tomb of Hesy*, pl. XXI-XXII.

(6) L.D. III, 34 b; Steindorff, *op. cit.*, 158.

(7) *Ibid.* 157 and references (L. D. III, 20 a, 21, 55 b, 78e, 113 a).

At any rate, it might worth mention that as the king is said to purify his *ka*, he is said to purify also his might (*shn*)⁽¹⁾, which is nothing outside his personal being.

* * *

The plural «Kaw» implied many significances similar to those of the singular *ka*, such as : spirits ⁽²⁾, internal and obvious faculties ⁽³⁾, and activities.

As for the latter meaning which concerns us, the Egyptians ascribed to their gods many *kas*, that is to say, many aspects of activities ⁽⁴⁾. Rê had fourteen *kas* of his own ⁽⁵⁾. The same qualities were invested in the Pharaohs ⁽⁶⁾ and even in some noblemen.

Similar to those assistant royal *kas* referred to in the Pyramid texts, there were also other *kas* mentioned in the tombs inscriptions and were desired to help the dead in one way or another, so as to hold his arm, guide him to the pure abodes, and lead him upon the roads of the west ⁽⁷⁾. Such *kas* might refer to ancestral energetic *kas* ⁽⁸⁾, or refer idiomatically to the effectual personal attributes expected to assure the man's share in his prosperous eternal life ⁽⁹⁾.

One of the rare personal names which mentioned the personal *kas* in plural is the feminine name «*ḥt k.w. s*» from the Old Kingdom ⁽¹⁰⁾.

* * *

(1) Pyr. 837, 839.

(2) For : *kaw*, *kaw ankhw*, *nḥw kaw*, *khntyw kaw*, see Wb. V, 90., 5f., Pyr. 906 e ; 1215, 1220 ; Berlin 2066 ; Urk. IV., 223, 243 ; L. D. III, 17 e ; Mariette, *Adyos*, I, pl. 17., 39 b, 40 a ; Mem. Miss, XV, pl. 47, Fig. 109.

(3) For : *ḥmn-kaw*, *khāy-kaw*, *Ww-kaw*, etc., see : Pyr. 1343 ; Pap. Kahun I, 1, 2, L. D. II, 12 b ; Cairo 42211 ; Urk. IV, 361, 4, 456 and Wb. V. 91. 5f.

(4) Such as : *Spd*, *djd*, *wash*, *irw*, *sia*, *hw*, *hka*, *wbn*, *nkht*, etc., compare : Schweitzer, op. cit., 73 f. and references.

(5) Wb. V, 89, 8-9 ; Amarna. V. 2, 6 ; L. D. III, 104, 10, 194 ; Roehen, *Edfu*, I, 441 ; Dumichen, *Tempelinschriften*, I, 29, 2 ; Brugsch. Wb. Suppl. 1230 ; Kees, *Gotterglaube*, 159.

(6) Naville, *Dier el Bahari*, II, pl. LII ; Gayet, *Le Temple de Louxor*, pl. 63, Fig. 203, and compare Pyr. 396. a.

(7) Urk. I, 189 ; Mariette, *Mastabas*, 10 D, 2F ; Gunn, *Teti Pyramid Cem.*, 122 ; Petrie, *Deshasheh*, pl. 28 ; Newberry, *Bersheh*, I, 34 ; Beni Hasan II, pl. 6 ; Capart, in *AeZ*, XLII, 144 f. ; Junker, *Giza III*, 118.

(8) Compare H. Junker in *Mitt. Kairo IX*, 26 f. (where they are compared with the *mww* and the Predynastic Kings of Buto).

(9) Compare also U. Schweitzer, *Das Wesen des Ka*, 83 : «die Summe aller Lebenskräfte» also L. Groven, *Dor Ka in Theologie*, 27 ; «einer Summe von göttlichen Eigenschaften, der er dann weiter in ihrer Personifizierung als Schicksalsgotter bezeichnet».

(10) See Junker, *Giza III*, 177 : «Die Ernährerin ihrer, das ist der Mutter, *Kas*».

with both arms and legs ⁽¹⁾, send its messengers to him ⁽²⁾, and be ready to mention him in the presence of the great god ⁽³⁾. So, the Pharaoh was promised to walk ⁽⁴⁾, sit ⁽⁵⁾, eat ⁽⁶⁾ and talk ⁽⁷⁾ with his *ka*, and even to sleep by and awake with ⁽⁸⁾, wash ⁽⁹⁾ and purify it, as well as himself ⁽¹⁰⁾.

The nature of the above mentioned *ka* is still vague, but is frequently interpreted as to be a paternal *Ka* (or activeness) ready to join the descendant and could be transferred to him.

With this notion it was said to the Pharaoh : «Summon thy *ka*, that is Osiris, in order to protect thee from any anger of the dead» ⁽¹¹⁾.

«Horus will never go far away from thee, for thou art his *ka*» ⁽¹²⁾.

«O, Osiris ... , Horus has avenged thee and accomplished this for the benefit of his *ka* which is in thee (or which is out of thee «im. k») he then satisfied in thy name of the «Satisfied Ka » ⁽¹³⁾.

«Osiris ... , Horus has avenged thee (on earth) he then his *ka* (in the otherworld) » ⁽¹⁴⁾.

It is not improbable that the afore mentioned *ka* could be treated also as a verbal badal equivalent of the person himself and as a synonym for the Egyptian term «ds. f.»

Modern Egyptian colloquial language still uses similar expressions, such as : «he consults his spirit or his soul» *أشاور نفسه أو يشاور روحه* with the meaning of : «he consults himself».

(1) Pyr. 18 a.

(2) Pyr. 136. b.

(3) Pyr. 816 d.

(4) Pyr. 1275 a.

(5) Pyr. 789 b, 1357 b.

(6) Pyr. 564 b, 789 b., 1357 b.

(7) Pyr. 2051 b.

(8) Pyr. 894 a-b.

(9) Pyr. 789.

(10) Pyr. 372, 837, 839.

(11) Pyr. 63 a.

(12) Pyr. 610 c.

(13) Pyr. 647 d., also 582 c.

(14) Pyr. 1609 b., 1831-32.

suggestion goes in contrast with the Egyptian concept which stated that the re-coupling of the man and his *ka* gives him ability ⁽¹⁾, and «assists him to ascend to heaven» ⁽²⁾, «to acquire his nourishment» ⁽³⁾, and to remain pleased, by means of it ⁽⁴⁾.

So, rituals stated : «As long as the *ka* of N. is in him, he will endure forever and eternally⁽⁵⁾»,

«Thou wilt not perish, (and consequently) thy *ka* will not perish, for thou art the *ka* (itself) » ⁽⁶⁾.

The blessed *ka* was named : *h̄tp*, *mry* and *h̄sy* ⁽⁷⁾.

In some late Egyptian rituals the Horian god Imsty is said to bring the *ka* before and behind the dead and promise him that it would never abandon him ⁽⁸⁾. In a comparison between the *ka* and the *ba*, the dead is announced : «May thy *ka* be (always) powerful and thy soul «*ba*» be (always) excellent » ⁽⁹⁾.

On the contrary, when the *ka* is done away with the person, he will be consequently badly affected ⁽¹⁰⁾.

Another brief comparison can be held between the Egyptian *Ka* and the Semetic *Nafs* (نفس) as somewhat distinctive from the Soul, Semetic روح .

The Holy Qoran considers the *Nafs* as more representative of the mortal's individuality together with his materialistic emotions and needs, more attached to his transmission from life to death, and more liable to the other world judgement, than the Soul.

* * *

Other serious early rituals mentioned a certain sort of *Ka* in such a way, as to mean an independant entity able to regard the deceased ⁽¹¹⁾, protect him

(1) Pyr. 18 a-b ; 63., 1055a.

(2) Pyr. 1431 b.

(3) Pyr. 564 b.

(4) Pyr. 338 a ; 2028 ; Urk. IV., 499.

(5) Pyr. 1653 d.

(6) Pyr. 149. d.

(7) See Wb. V, 87, 9 (Urk. IV., 132, 618, 750 ; Pap. Kahun 29, 43 ; Rec. Trav. 29, 151 A ; Mem. Miss. V, pl. V).

(8) Wb. V, 87, 1 (Theb. Grab. Nr. 157, D. 19).

(9) Wb. V, 87, 1 (Theb. Grab. Nr. 68, D. 18).

(10) Pyr. 653 c.

(11) Pyr. 63.

Nevertheless, it seems that the weighty and semi-sacred nature of the *ka* was not limited within the frame of the godly *kas* and the royal *kas*, for there were also a few other Egyptian hints estimated the human *ka*, in its turn, as a god dwelling inside the man ⁽¹⁾, and depicted it sometimes on a holy standard, a notion which might allude to its sacred origin ⁽²⁾.

Presuming a true intention in those hints, can one suggest that the afore mentioned consecutive effectual nature of the Egyptian *ka* (activeness), starting with the *ka* of the Creator down to that of his descendants including gods and pharaohs, and then to the *kas* of the rest of the human beings, side by side with the ancient Memphite announcement that considered the «Very Great» as the everlasting source of all the intellectual and organic life, had both inspired to some extent, the Roman-Alexandrian philosopher Plotinus to formulate his theory of Emanation that suggested ordered stages proceeded originally from the One, and including the Divine Intellect, the Soul, and the organic living being ruled by the Soul, and so on ?

A conclusive decision on such a suggestion might be rather difficult, however it is not totally invalid.

* * *

Magical and funeral rituals alluded to the *ka* on the above mentioned harmonious basis. Every new-born child was said to receive his *ka* (activeness) by the order of Rê and Geb, and by the help of Meskhent the goddess of birth ⁽³⁾.

When the *ka* abandons the man, or when it rests «*h̥tp*», ⁽⁴⁾ as the Egyptians said, he becomes successively deprived of his activeness and efficiency, that is to mean : he dies. Nevertheless, on his way to resurrection, it was idiomatically stated that «he is going to his *ka*» ⁽⁵⁾, or vice versa, «his *ka* is going to him» ⁽⁶⁾, an action which was usually expressed by the verbs : *is* or *sb*, *šmi*, and *h̥p*, with the preposition *n* or *h̥r* or *h̥n* ⁽⁷⁾. Prof. Junker regarded such expression as to be a synonym for the normal phrase «to die», or «to be buried» ⁽⁸⁾, but this

(1) A. Erman, *Die Religion*, 170; see also, Lacau, in T. R. XLIV, 91; *Urk.* IV, 117, 12, 149, 4
(2) *Urk.* I, 50, 15 ; 71, 4, 6 ; Mariette, *Mastabas*, 70, 274, 275; and see also Steindorff.,
op. cit., 153 ; Stock, *Aegypt. Religionsgeschichte*, in *Saeculum* (1950), 628 f ; J. Spiegel, op. cit.
162 ; Schweitzer, op. cit., 25, 30 f, 41 f.

(3) A. Erman, *Zaubersprüche f. Mutter u. kind*, 5, 8f ; 26-27.

(4) *Urk.* I, 156, 7 ; *Bull. of the Boston Mus.*, XXV, 74.

(5) *Urk.* I, 50, 15 ; 71, 4, 6 etc. ; *Pyr.* 826, 832, etc.

(6) *Pyr.* 375 b.

(7) H. Junker, *Giza III*, 116-117; *Pyr.* 17, 948, 826, 1431 ; *Urk.* I, 134.

(8) H. Junker, op. cit., 116.

In the course of the dogma that estimated the Pharaoh as a direct offspring of the supreme god, and as his representative, the Pyramid texts stated that «Teti is the flower that emerged from the *ka*»⁽¹⁾ (meaning : emerged from the supreme activeness), and consequently he was addressed : «Thou art the *ka* of all gods»⁽²⁾ «Thou art the powerful among the gods and their *kas* (or namely their *kas*)»⁽³⁾.

In an eulogy of the Middle Kingdom, it was said : «The king is the *ka*, his utterance overflows, he who regards all that exist»⁽⁴⁾.

In some coronation scenes, the state-god Amon is said to provide the sovereign with the *ka* of kingship⁽⁵⁾, that which ought to be its spiritual efficiency rather than to be the Horus-name as L. Greven and U. Schweitzer suggested⁽⁶⁾.

Ramses II, was entitled as the good god «the *ka* of Egypt» (*nṯr nfr k' n Kmt*), that is to mean its effective energy, rather than to be the donor of provisions to it (or its provider) as the Wörterbuch suggested⁽⁷⁾.

In the other world the deceased king might return the *ka* to its donor, the great god or the father Osiris : «This Pepi is coming to thee his father, he is coming to thee Osiris, he is bringing (back) thy *ka* to thee»⁽⁸⁾.

The majesty of the pharaonic *ka* was given a particular stress in such royal names as «Nb-*ka*», i. e. «Possessor of personality» (or possessor of activeness or efficiency) par excellence, rather than the former interpretations such as : «The *Ka* (Osiris) is the Lord» or «The *Ka* is my lord». or «My *ka* is my lord», etc.⁽⁹⁾, and «Shepes-*ka*. f», i. e. «Majestic is his spirit (or personality or efficiency)»⁽¹⁰⁾.

Such a royal *ka* was frequently venerated in other normal personal names⁽¹¹⁾, and was invoked sometimes as a donor in the *hṯp-di-nsw* formula⁽¹²⁾.

(1) Pyr. 544 a.

(2) Pyr. 1609 a ; 1623 ; compare also : L. Greven. op. cit., 26.

(3) Pyr. 776 a, and see L. Greven, op. cit., 17.

(4) A. Erman, Die Literatur 121 (Cairo 20538).

(5) Wb. V, 88, 10 ; Schweitzer, 59.

(6) Greven, op. cit., 27 ; Schweitzer, op. cit. : «Der Horusname als Ka-Symbol des Königs» 52 f. 59 f.

(7) Wb. V. 91, 5 ; 92., 14 (Gurna Sethostempel).

(8) Pyr. 1328 a.

(9) Compare : J. Spiegel, Das Werden der altägyptischen Hochkultur, 219 ; J. Cerny. in MDAIK, 1958, 25 f.

(10) Compare : G. Joquier, Le Mastaba de Pharaon, 36-7 ; Spiegel, op. cit., 463-464, 501.

(11) See, Ranke. op. cit., 339, 12 ; Junker, Giza II, 158.

(12) H. Gauthier, Livre des Rois, I, 233, 19 ; L. D. III, 200 a.

Later, the god Ptah (var. Ptah-Tatenen) was estimated as the *ka* of the kingship (*ka nyswt*)⁽¹⁾, that is to say its spirit or its (real) effectiveness.

Some gods were considered as *Kas* for their localities, that is to mean the possessors of effectiveness in them, such as Osiris the *Ka* of the west, and another god personified the *Ka* of the east⁽²⁾.

Many a time, the royal Horus-name was shown within the arms of the *ka*-sign upon its standard⁽³⁾, a scene which might express that it (the name) is sustained by a supreme efficiency (*ka*), either that of the creative god or that of the actual state-god (as Horus).

The Pyramid texts, in its turn, asked Atum to sustain both the blessed king and his pyramid area, in the same way, *i. e.*, with the arm (or with the might?) of his *ka*⁽⁴⁾.

As regards the personal *ka*-names, *Rê* together with his superior *ka* played the most important role determining their significances. He was estimated as the absolute activeness (*Ka-pw-Rê* or *Rê-ka-pw*)⁽⁵⁾ & *Rê-m-ka*, or *Ka-m-Rê*⁽⁶⁾, and its main possessor (*Nb-ka-Rê*). His *ka* was qualified with suitable attributes in royal names, such as endurance (*Mn-ka-Rê*), stability (*Dd-ka-Rê*) power (*Wsr-ka-Rê*), magnificence (*Spss-ka-Rê*), sacredness (*Dsr-ka-Rê*) ; animation and bestowing life (*Sākh-ka-Rê*), creating (*Nfr-ir-ka-Rê*), satiating (*Sdfa-ka-Rê*). It was identified sometimes with vigorous gods such as Sobek (*Sbk-ka-Rê*), and Set (*Sth-ka-Rê*).

Some other gods, particularly those who played their role in the myths of creation, or estimated as state-gods, shared *Rê* and his *ka* their attributes such as Ptah (*Ka-pw-Pth* ; *Wr-ka-Pth* ; *Irw-ka-Pth*)⁽⁷⁾ ; and so on).

The Egyptian was named sometimes as to belong to the activeness of one or another of those gods, such as : *Ny-ka-Rê* ; *Hr-ka-Rê* ; ... etc.

(1) Scharff, in *Ae. Z.* LXX, 49 ; Schweitzer, *op. cit.*, 72.

(2) *Ibid.*, 73 Ann. 28, (Th. Grab. 23) ; see also Mercer, *The Pyramid Texts*, II, 20.

(3) De Morgan, *Recherches* II, 241, Fig. 810 ; Petrie, *Royal Tombs*, II, pl. 8, 10 ; A. Moret, *Le Nil*, Fig. 32 ; Steindorff, in *Ae. Z.*, XLVII, 157-158 ; Schweitzer, *op. cit.*, Taf. I b-c, II, a-c.

(4) *Pyr.* 1653.

(5) Ranke, *op. cit.*, 339, 13 ; 217, 20.

(6) The less probable meaning of the last name is «*Rê* is us (my) *ka*» or «(My) *Ka* is from *Rê*».

(7) Ranke, *op. cit.*, 339, 22 ; 82, 1 ; 40, 22. and see note 4 above.

Out of the unexplainable early ka-names, the so-called Predynastic «Ka» royal name worth mention. Years ago, Profs. K. Sethe and R. Weill assigned it to the Scorpion king, as a part of his title ⁽¹⁾. If this suggestion is accepted, his combined title might qualify him with the «Energy of the Scorpion» — طاقة العقرب — or something of the sort, rather than the «Protected Scorpion» — العقرب المحروس — as Prof. R. Weill suggested.

An Egyptian named his son «Ka-m-rdwy» ⁽²⁾, i. e. : the ka is in the two limbs, or (my) ka is in (my) two legs. These two suppositions might refer either to an Egyptian imagination that the force of the ka (as activeness or energy) could be concentrated in a certain part of the body, or refer to the father's wish that his ka would follow him in his son. (The idiom «he is coming in my legs» is still used in Egyptian colloquial language جاء في رجل and means : «He is coming soon after»).

* * *

Egyptian Myths mentioned an eternal supreme Ka. So, the Heliopolitan Theology stated about Atum and his first two offspring, Shu and Tefnut :

«Thou put thy arm behind them, being the arm(s) of the ka (or with the might «?» of the ka) so thy ka remained in them (di.n.k ' . k ḥ', sn m' k', wn k', k im. sn) ⁽³⁾.

This mentioned ka probably means Atum's activeness or efficiency, which he voluntarily transferred to his two sons, and with which those two sons acquired their everlasting energy.

The Pyramid texts continued the theme and addressed Geb, as one of the second pair of gods : «Thou art the ka of all gods, who brought them, trained them up (or regarded them) and animated them » ⁽⁴⁾.

With the same notion, the texts regarded the kas (pl.) of all divinities as emanations from their supreme god (either Atum, or Rê, or Geb, or Osiris).

The Memphite Theology recorded, in its turn, that ⁽⁵⁾ «It is the very great Ptah who transmitted (the energy?) to all gods as well as to their kas (or namely their kas) ⁽⁶⁾, through this heart and this tongue. «Thus the kas became fulfilled and the faculties (ḥmwswt) were determined» ⁽⁷⁾.

(1) K. Sethe, in *Ae Z*, LII, 57 ; R. Weill, *Recherches sur la 1re dynastie*, I, 287.

(2) Ranke, op. cit., II, 55 ; see also «Ka-m-ib», I, 339, 15.

(3) Pyr. 1953.

(4) Pyr. 1623.

(5) Brit. Museum, 498, I. 53 f., 57.

(6) For the so-called Badalapposition, see Spiegel, *Ae Z*, LXXI, 56 f. ; *Hochkultur*, 358 Anm. 17 ; Schweitzer, op. cit., 47.

(7) Compare, Schweitzer, op. cit. 47., 68 ; » die alle Nahrung und alle Speisen». For the ḥmwswt mentioned side by side with the Kas, see also : Pyr. 396 ; Pichl, *Edu*, II, 128 ; *Edu Mamisi*, 63.

equipment (Ka-špr) ⁽¹⁾, ability of protection (Ka-sa & Ka-m-ha) ⁽²⁾, even ability of fight (Ka-šha. f) ⁽³⁾ and was desired not to fail or to sleep (Nn-sr(r-ka) ⁽⁴⁾.

The same sense of *ka* was referred to as «the doer» (Ka-irry) ⁽⁵⁾, and glorified in such names as «Wr-ba-ka» ⁽⁶⁾ *i.e.* great is the might of the *ka*.

It was estimated as the life itself (Ka-m-ānkh) ⁽⁷⁾, or as its origin or source (Ny-ka-ānkh) ⁽⁸⁾, that permitted its course (Ka-wdw-ānkh) ⁽⁹⁾.

This notion about the *ka* and life, was symbolically represented, early, in a protodynastic offering palette composed of a *ka*-sign presenting by its two stretched arms the life-sign (ānkh) ⁽¹⁰⁾, as referring to be its donor or its guardian or maintainer.

Furthermore, the personal *ka* stood for the material provision (Dfa-ka). Long ago, Profs. Erman and von Bissing noticed the relation between the spiritual *ka* and the word *ka* with the meaning of food or provision. It seems not improbable that this noticed relation finds its Egyptian origin in considering them both as essential substances of living energy.

The same connection was expressed in some banquet scenes, where the deceased is depicted stretching his arm towards an offering table in the form of the *ka*-emblem, with the inscription: «rdit ' r k ' . f» ⁽¹¹⁾. (lit. : place hand towards his *ka*), *i.e.* to acquire his *ka*, the substance of the prospective life, either invested in the real *ka* or in the offered provision called «*ka*».

Again with the personal names, the named person could be qualified after his *ka*, as to be of great, or powerful, or sound, or continual activeness, in such names as : Wr-ka ; Šm-ka ; ' d-ka ; W ' h-ka, Wm-ka ⁽¹²⁾ ; and so on.

(1) M. Murray, Saqqara Mastabas, I, pl. III, 5.

(2) Petrie, Royal Tombs, I, pl. II, 16 ; Ranke, *op. cit.*, 342, 16.

(3) *Ibid.*, 338, 26.

(4) H. Junker, Giza II, 111.

(5) Ranke, *op. cit.*, 338, 20.

(6) *Ibid.*, 80., 29.

(7) *Ibid.*, 339, 17.

(8) *Ibid.*, 180, 10.

(9) *Ibid.*, 329, 8.

(10) Schweitzer, *op. cit.*, Tafel I (in the Metropolitan Museum).

(11) Ann. Serv. XI., 173 ; and see also : Davies, the tomb of Ramose, pl. XIX ; Schweitzer, *op. cit.*, Taf. V a-b.

(12) Ranke, *op. cit.*, 73, 23 ; 338, 26 ; 339, 1 ; etc.

A number of students of the Ramesside Times used to dedicate their written compositions to their teacher in such words as : «to the *ka* of the eminent in his profession (n k; n ' ; m i; wt; f)» or «to the *ka* of the clever and correct one» (n k; n w' ikr mty), and so on,⁽¹⁾ together with expressing their best greetings for him as their acting teacher and the recipient of their correspondences at the commencement of their writings.

* * *

Several Egyptian personal names used to express good wishes for both the child and his father. Others showed deep religious sentiments towards gods. The word «Ka» was one of the common elements that fulfilled the two purposes. Years ago, Prof. Junker and Prof. Ranke had mentioned its value, and later Schweitzer went somewhat far with it⁽²⁾, yet there is still something to be added furthermore.

Profs. B. Gunn, H. Ranke and H. Junker suggested an omitted first personal suffix (in the possessive case) with each named «Ka». This suffix might refer to either the owner or to his father who hoped that his *ka*, with its various shades of meanings, would move to his son and continue with him.

As a spirit, the living *ka* in the personal names was frequently qualified with pleasant attributes, such as : pureness (Ka -wāb)⁽³⁾, beneficence (Ka mnkh)⁽⁴⁾ goodness (Ka-nfr), satisfaction (Ka-m-hrt)⁽⁵⁾, contentment and peace⁽⁶⁾, righteousness (Ka-m-mašt)⁽⁷⁾ good position (Ka -hr-st.f)⁽⁸⁾ golden or precious nature (Nwb ka)⁽⁹⁾ and lovely gesture towards its owner (Mri-ka,⁽¹⁰⁾ Mr-n-ka,⁽¹¹⁾ Mrrw-ka, etc.)

Referring to the efficiency or activeness الساقة أو الساقية, the *ka* was frequently qualified with energetic and vigorous attributes, such as : vigilance (Ka-rsi)⁽¹²⁾

(1) Pap. Anastasi III, 4, 11 ; 7, 10 ; IV vs. A. ; Pap. Bologna 1094, 11, 5 ; Gardiner, Ostraca 28. vs. 10, 17 ; Gardiner, Chester Beatty Pap., p. 21. ; Late Egyptian Miscell., p. 38 a.

(2) See, U. Schweitzer, op. cit., 33 f.

(3) H. Ranke. Die ägyptischen Personennamen I, 339, 2.

(4) Ibid., 430, 3.

(5) Ibid., Bd. II., 55.

(6) Ibid., I, 259, 19.

(7) Ibid., II, 339, 19.

(8) Ibid., 340, 17.

(9) Junker. Giza III, 177.

(10) Petrie, Royal Tombs, II, 26, 61.

(11) Petrie, Tombs of Courtiers, pl. I, 442.

(12) Ranke. op. cit., 430, 13.

«Follow thy *ka* (var. heart) as long as thou livest but do not transgress what is said (in law?)» (1).

«(Do not insult a great man), for the insult alienates the *ka* from the one it loves» (2).

«Do not repeat the speech of the common (*i. e.* vulgar words) against a great man or a common one, for this is the *ka*'s abomination» (3).

«When a great man is at meal, his purposes go according to the dictate of his *ka*» (4).

«Do not pierce (a great) man at meal with many stares, (for such) an aggression against him is an abomination to the *ka*» (5).

«(The obedient son) is thy son whom thy *ka* engendered (and var. : whom thy *ka* engendered for thee)» (6).

* * *

Some of the above mentioned shades of meanings of the ancient Egyptian *Ka*, can be partly identified with the Semitic word «Nafs» نفس, that means originally «spirit», but goes far with its derivations so as to mean self, man, being, character, wish and will, etc.

Compare for example :

al-nafs = The spirit	النفس
No <i>nafs</i> knows, <i>i. e.</i> = No man (or no person) knows.	ما تدرى نفس
Every <i>nafs</i> will taste death, <i>i. e.</i> = All beings are mortals.	كل نفس ذائقة الموت
He found <i>nafsahu</i> , <i>i. e.</i> = He found himself.	وجد نفسه
His <i>nafs</i> inspired him to do so and so, <i>i. e.</i> = His will (or his mentality) inspired him to do so and so.	أوحى نفسه إليه بفعل كذا
His <i>nafs</i> looked forward to so and so = <i>i. e.</i> His wish (or his spirit or his will) looked forward to so and so.	تطلعت نفسه إل كذا
He is of a good <i>nafsa</i> , <i>i. e.</i> = He is of a good character.	ذو نفسية طيبة

* * *

(1) Pap. Prisse, 186 f.

(2) Ibid., 391-392.

(3) Ibid., 157 f.

(4) Ibid., 134-135.

(5) Ibid., 125 f.

(6) Ibid., 204.

generosity from a living sovereign not from a dead one; and Wni who probably died in the reign of the young king Mry-n-Ré, was responsible, in his turn, for an expedition to excavate five channels through the first cataract, a job which was not to be completed by an order of a dead ruler, but of a still reigning one to whom Wni expressed his best wishes by saying : «May he live forever».

With the same notion, it was said to another pharaoh: «(All) that thy *ka* orders, will happen (at once) »⁽¹⁾. This is of course a living *ka* referring to «self» or to personal «will».

It was recorded also that the god Amon once announced to his favourite son Tuthmosis III ; «I submit the westerners on behalf of thy *Ka*»⁽²⁾. This is also a living *ka*.

Many a courtier mentioned the royal generosity towards them in such words as ; «I am (a man) whom the lord of the two lands made his *kan*» ('ir.n nb t ; wy k ; . f)⁽³⁾, that is to say : whom the king made his personality or his (social) effectiveness. (Besides Prof. Gardiner's translation : ... his fortune).

* * *

In his famous instructions, the sage Ptah-hotep mentioned the *ka* in the broad sense of the human spirit, sensibility, feeling and understanding, besides its other meaning as personality or personal spirit. So, he advised his son :

«If a man evades to satisfy his intimates, people will say : he is a greedy *kan*»⁽⁴⁾.

«The (proper) *ka* is the just *ka* which man can trust»⁽⁵⁾.

«It is the *ka* that stretches its arms»⁽⁶⁾.

«It is the *ka* that grants love»⁽⁷⁾.

«Do not cut off (thy) pleasure, for the *ka*'s abomination is to interrupt its (pleasant) time»⁽⁸⁾.

«(Instruct the great man to what is good for him)..... for thy provisions are under (or according to the dictate of) his *kan*»⁽⁹⁾.

(1) Grapow, *Wie die Ältern Ägypter sich anredeten*, II, 44.

(2) *AsZ.*, LXIX, 26.

(3) *Urk.* IV., 486, 979 ; Davies, *The Tomb of Jouiya*, 2 ; *Kenamun*, 35.
compare Gardiner, *op. cit.*

(4) *Pap. Priase*, 341-342.

(5) *Ibid.*, 344.

(6) *Ibid.*, 151.

(7) *Ibid.*, 398.

(8) *Ibid.* 188-189.

(9) *Ibid.*, 399 f., 403.

began originally with the state-god Horus and was invested afterwards in the earthly «Lord», the Horian-King, ⁽¹⁾ or lastly as a vital elementary force, or vital creative force, or vital protecting and guiding force, or vital metaphysical force ⁽²⁾.

In addition to the latter tendencies, with some new modifications, the following items are to be re-consulted, starting with secular records, down to religious texts and funeral inscriptions, not vice versa as usual.

* * *

The Ancient Egyptians mentioned three sorts of Kas : a personal Ka, an ancestral Ka, and a supreme divine Ka.

Biographies and literary Egyptian records manifested the personal *ka* in such a way, as to represent, on the one hand both the living person and his spirit in a homogeneous unity, and to personify, on the other hand, his activeness (or efficiency or energy)—*ماقة أو ناعليته*—in regard to a number of its material, emotional and mental phases.

The physician Ny-anh-Sekhmet applied once to His Majesty the Pharaoh Sahu-Rê, saying : «May the command of thy *Ka*, beloved of Rê, (*hw wdw k' , k pw mry R' ...* ⁽³⁾) grant unto me a false-door of stone for this my tomb ! ».

The other famous courtier Wni, accomplished in his old age some official and royal projects at Elephantine in the name of the King Mry-n-Rê, and when he recorded these actions in his inscriptions he said : «I executed everything according to the inspiration of his *Ka*» (*hft hw wdw k' , f*) ⁽⁴⁾.

The mentioned royal *ka* in both texts ought to refer to the king either by «self» or «spirit», or rather by «will» and «mentality».

L. Greven and U. Schweitzer regarded this royal *ka* as to mean «der verstorbene Pharaon», oder «Jenseitige Majestät», in contrast with «*hm. f*» which denotes «der noch lebende Pharaon» oder «seine irdische Gestalt» ⁽⁵⁾. But it must be noticed here that Ny-anh-Sekhmet was going to ask for a prospective

(1) Loret, in *Revue Egyptologique*, II, 87 ; Stock, *Aegypt. Religionsgeschichte*, in *Saeculum I* (1930), 627 f. ; Spiegel, *Hochkultur*, 110 f. ; Schweitzer, *Das Wesen des Ka*, 21-22, 25, 42 f., 52 f.

(2) Steindorff., op. cit. ; H. Kees, *Totenglauben*, 67 f. ; *Aegypten*, 219 f. ; *Götterglaube*, 47 ; Jacobsohn, *Dogmatische Stellung*, 49 f. ; J. Vandier, *La Religion*, 132 ; H. Frankfort, *Kingship and Gods*, 61 f. ; J. Wilson, in *Anc. Near Eastern Texts*, 412 n. 9 ; L. Greven, *Der Ka in Theologie*, 1952 ; U. Schweitzer, *Das Wesen des Ka*, 1956.

(3) *Urkunden I*, 38.

(4) *Ibid.*, 109.

(5) Greven, op. cit., 19, Schweitzer, op. cit., 42.

NOTES ON THE EGYPTIAN «K»

BY

ABD-ALAZIZ SALEH

None of the ancient spiritual or religious concepts, could, by any means, be defined in a clear cut formula. One of these, is that of the Egyptian «K»⁽¹⁾ that which had been anciently viewed from many angles, and which has still been given various interpretations due to the great variety of its known contexts.

Besides a famous theory that led to different discussions since the beginning of the present century and which considered the Ka as an external protector ghost «Schutzgeist»⁽²⁾, either in the form of an everlasting «double»⁽³⁾, «Arabic Karin قارين», or as a sort of a heavenly genie⁽⁴⁾; various recent theories still hesitate in considering the Ka either as a force with twofold spiritual and material nature⁽⁵⁾; or as a synonym for the soul, spirit, self and individuality; or as an ensemble of the person's characteristics as temper, fate and position⁽⁶⁾; or as a divine force that moved from the Creator to the beings, including a particular entity that

(1) For other probable K, Ku, Ki and Khol: see Wb. V, 86, 93.

(2) G. Steindorff., «Der Ka und die Grabstatuen», in *AeZ*, XLVIII, 152 f.; Van der Leeuw, «Schutzgeist und der ägyptische Ka», in *Ao Z*, LIV, 56 f.

(3) G. Maspero, *Etudes de Mythologie et d'Archéologie*, 1, 7 f., 47, 77 f. (He was inspired by Nestor L'Hôte, Birch and Le Page Renouf). see also note 4 and p. 14 n. 2.

(4) J. H. Breasted, *Development of Religion and Thought*, 52 f., but compare in the same time, G. Maspero, «Le Ka des Egyptiens est-il un genie ou un double ?» in *Mémnon* VI, 125 f.

(5) A. Erman, in *AeZ*, XLIII, 14 Ann. 2; *Die Religion der Aegypter*, (3), 209 f.; Sottas, «Contributions à l'Etude de la notion du Ka égyptien», in *Sphinx* XII, 33 f.

(6) H. Brugsch was the first to begin these qualities which were adopted later and enlarged by A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 1927, 172-173; *PSBA.*, XXXVI, 257 n. 3; A. M. Blackman, in *J. E. A.* III, 241, n. 3; and J. Spiegel, *Die Idee vom Totengericht*, 9, Ann. 3; *Das Werden der Altaegyptischen Hochkultur*, 338, 448 f.

Prof. Jaroslav Cerny in his «Ancient Egyptian Religion 1957, p. 82» had nothing to do with this problem but to repeat literally the interpretation of Sir A. H. Gardiner (see above).

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
ABD-ALAZIZ SALEH	
Note on the Egyptian « K ₁ »	1
M. M. EL SALAMOUNI	
Erinna : The Poets of Telos, and the Poets of the Alexandrian School	19

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year; in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, U.A.R.

**Back number of this Bulletin are available
at 30 P. T. for each Part.**

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART II
DECEMBER 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1965

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXII—PART II

DECEMBER 1960

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1965

 Библиотека Александрина

0542787